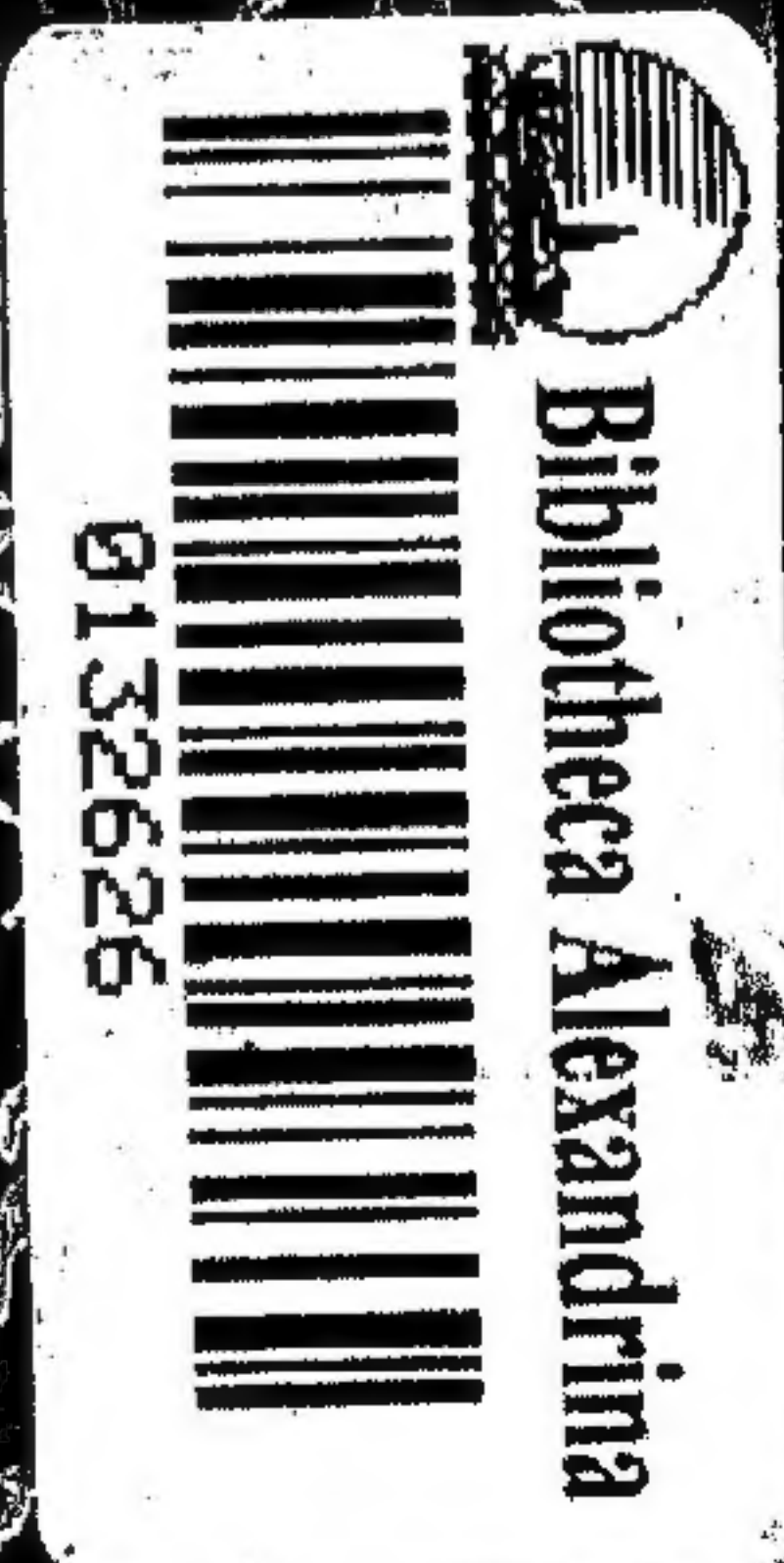


الحافظ ابن كثير

البَيْكَلِيُّ وَالنَّجَّارِيُّ

مكتبة المعارف بيروت







الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هـ

الْبَيْدَانِيُّ وَالنَّهْشَابِيُّ

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل : ١٨٨٨٨ / ٩-١٠

الجواز الثاني

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذهبت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر



الطبعة الثانية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م
بيروت - لبنان
General Organization of the
Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

مكتبة المحرارف
ص.ب. : ١٧٦١ - ١١
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ،
فقدمها فأقام بها أشهراً ثم خرج منسجراً ثم عاد إلى المدينة في صفر فأقام بها ثلاثة أشهر ، وبنى في بني
سنة مسجداً ، وهو الذي ينسب إليه اليوم ، ويقال إن الحجاج في هذه السنة وهذه المدة شتم جابراً
وسهل بن سعد وقرعهما لم لا نصرا عثمان بن عفان ، وخطبهما خطاباً غليظاً قبحه الله وأخزاه ،
واستقضى أبا إدريس الخولاني أظنه على اليمن والله أعلم . قال ابن جرير : وفيها نقض الحجاج
بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير بنه وأعادها على بنيانها الأول ، قلت : الحجاج لم ينقض بنيان
الكعبة جميعه ، بل إنما هدم الخائط الشامى حتى أخرج الحجر من البيت ثم سدده وأدخل في جوف
الكعبة ما فضل من الأجر ، وبقية الحيطان الثلاثة بحالها ، ولهذا بقي البنيان الشرقي والغربي وهما
ملتصقان بالأرض كما هو المشاهد إلى يومنا هذا ، ولما سكن سد الغربي بالكعبة وردم أسفل الشرقي حتى
جمعه مرتفعاً كما كان في الجاهلية ، ولم يبلغ الحجاج وعبد الملك ما كان بلغ ابن الزبير من العلم النبوي
الذي كانت أخبرته به خالته عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تقدم ذلك من قوله : « لولا أن قومك
حديث عهدم بكفر - وفي رواية - بجاهلية لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر ، وجعلت لها باباً
شرقياً وباباً غربياً ، ولألصقتهما بالأرض ، فان قومك قصرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم

لله الشكر

يتموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا . فلما تمكن ابن الزبير بناها كذلك ، ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال : وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك وفي هذه السنة ولي المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج في جيوش من البصرة والكوفة ، ووجد بشر على المهلب في نفسه حيث عينه عبد الملك في كتابه . فلم يجد بداً من طاعته في تأميره على الناس في هذه العزوة ، وما كان له من الأمر شيء ، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الله بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه ، وأن لا يقبل له رأياً ولا مشورة ، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل بramerمز ، فلم يقيم عليها إلا عشرآ حتى جاء نعي بشر بن مروان ، وأنه مات بالبصرة واستخلف عليها خالد بن عبد الله ، فأرخص بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا في آثارهم من يردهم ، وكتب خالد ابن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم ، ويتوعدهم بسطوة عبد الملك ، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حريث في المصير إلى الكوفة فكتب إليهم : إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين ، وليس لكم إذن ولا إمام ولا أمان ، فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحلم فركبوها ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا مختفين بها حتى قدم الحجاج واليا على العراق مكان بشر بن مروان كما سيأتي بيانه قريباً .

وفي هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح التيمي عن إمرة خراسان وولاه أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد القرشي ليجمع عليه الناس فانه قد كادت الفتنة تنفقم بخراسان بعد عبد الله ابن خازم ، فلما قدم أمية بن عبد الله خراسان عرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى وطلب منه أن يولي طخارستان فخوفه منه أن يخلعه هنالك فتركه مقبلاً عنده . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها الحجاج وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن واليمامة . قال ابن جرير : وقد قيل إن عبد الملك اعتمر في هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

رافع بن خديج بن رافع الأنصاري ، صحابي جليل شهد أحداً وما بعدها ، وصفين مع علي وكان يتعانا المزارع والفلاحة ، توفي وهو ابن ستة وثمانين سنة ، وأسنده ثمانية وسبعين حديثاً . وأحاديثه جيدة . وقد أصابه يوم أحدسهم في ترقوته نخير رسول الله (ص) ، بين أن ينزعه منه وبين أن يترك فيه العطية ويشهد له يوم القيامة ، فاختار عنده ، وانتقض عليه في هذه السنة فمات منه رحمه الله .

ابو سعيد الخدري

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل من فقهاء الصحابة استصغر

يوم أحد ، ثم كان أول مشاهد الخندق ، وشهد مع رسول الله - ﷺ - ثلثي عشرة غزوة ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة ، كان من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم . قال الواقدي وغيره : مات سنة أربع وسبعين وقيل قبلها بمشر سنين فآله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا المقدم بن داود ثنا خالد بن نزار ثنا هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري . قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « النبيون قلت : ثم أي ؟ قال ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا السيرة - وفي رواية - إلا العباءة أو نحوها ، وإن أحدهم ليبتلى بالثقل حتى يذهب العقل ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء » . وقال قتبية بن سعيد : ثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري : أن أهله شكوا إليه الحاجة فخرج إلى رسول الله - ﷺ - يسأل لهم شيئاً ، فوافقه على المنبر وهو يقول : « أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة فإنه من يستغف يعفه الله ومن يستغن يفته الله ، والذي نفس محمد بيده ما رزق الله عبداً من رزق أوسع له من الصبر ، ولئن أبيتم إلا أن تسألوني لأعطينكم ما وجدت » . وقد رواه الطبراني عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد نحوه .

عبدالله بن عمر

ابن الخطاب القرشي المدوني . أبو عبد الرحمن المسكي ثم المدني أسلم قديماً مع أبيه ولم يبلغ الحلم وهاجرا وعمره عشرة سنين ، وقد استصغر يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق أجازته وهو ابن خمس عشرة سنة فشدها وما بعدها ، وهو شقيق حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، أمها زينب بنت مظلون أخت عثمان بن مظعون ، وكان عبد الله بن عمر ربعة من الرجال آدم له حجة تضرب إلى منكبيه جسيما ينفضب بالصفرة ويحني شاربته ، وكان يتوضأ لكل صلاة ويدخل الماء في أصول عينيه ، وقد أرادته عثمان على القضاء فأبى ذلك ، وكذلك أبوه ، وشهد اليرموك والقادسية وجلولاء وما بينهما من وقائع الفرس ، وشهد فتح مصر ، واختط بها داراً ، وقدم البصرة وشهد عز و فارس وورد المدائن مرارا وكان عمره يوم مات النبي - ﷺ - ثلثين وعشرين سنة ، وكان إذا أعجبه شيء من ماله يقربه إلى الله عز وجل ، وكان عبده قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد فاذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه ، فيقال له : إنهم يخذعونك ، فيقول : من خدعنا الله انخدعنا له ، وكان له جارية يحبها كثيراً فأعتقها وزوجها لمولاه نافع ، وقال : إن الله تعالى يقول [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] واشترى مرة بمرأ فاعجبه لما ركبته فقال : يا نافع أدخله في إبل الصدقة ، وأعطاه ابن جعفر نافع عشرة آلاف فقال : أو خيراً من ذلك ؟ هو حر لوجه الله ، واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفاً وأعتقه فقال الغلام :

يامولاي قد أعتقتني فهب لي شيئاً أعيش به فأعطاه أربعين ألفاً، واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال : لمن صليتم هذه الصلاة ؟ فقالوا : لله ! فقال : أنتم أحرار لمن صليتم له ، فأعتقهم . والمقصود أنه مات حتى أعتق ألف رقبة ، وربما تصديق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وكانت تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحماً إلا وعلى يديه يقيم ، وبعث إليه مائة مائة ألف لما أراد أن يبايع يزيد ، فما حال عليه الجول وعنده منها شيء ، وكان يقول : إني لا أسأل أحداً شيئاً ، وما رزقني الله فلا أرد . وكان في مدة الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه ، وأدى إليه زكاة ماله ، وكان أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يقتبص آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فيها ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة وكان ابن عمر يتعاهدها ويصب في أصلها الماء ، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحياناً تلك الليلة ، وكان يقوم أكثر الليل ، وقيل إنه مات وهو في الفضل مثل أبيه ، وكان يوم مات خير من بقي ، ومكث ستين سنة يفتي الناس من سائر البلاد ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة ، وروى عن العدي بن مسعود وعثمان بن عفان وسعد بن مسعود وحفصة وبناتة وغيرهم . وعنه خلق منهم بهو حمزة وبلال وزيد وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر إن كان محفوظ ، وأسلم مولى أبيه وأنس بن سيرين والحسن وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وطاوس وعروة وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن سيرين والزهرى ومولاه نافع .

وثبت في الصحيح عن حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن عبيد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل » . وكان بعد يقوم الليل ، وقال ابن مسعود : إن من أملك شجائب قریش لنفسه عن الدنيا ابن عمر . وقال جابر : ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مات به ومال بها ، إلا ابن عمر ، وبما أصاب أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كرماء ، وقال سعيد بن المسيب : مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحد أحب أن لقي الله بمثل عمله منه ، وقال الزهرى لا يعمل برأيه فانه أقام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة ، فلم يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه رضي الله عنهم . وقال مالك : بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة وافق في الاسلام ستين سنة ، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض ، قال الواقدي وجماعة : توفي ابن عمر سنة أربع وسبعين ، وقال الزبير بن بكار وآخرون : توفي سنة ثلاث وسبعين والأول أثبت والله أعلم .

عبيد بن عمير

ابن قتادة بن سعد بن عامر بن خندع بن ليث ، الليثي ثم الخندعي ، أبو عاصم المكي قاضي أهل مكة ، قال مسلم بن الحجاج . ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال غيره وراه أيضاً ، وروى عن أبيه ، وله صحبة ، وعن عمر وعلى وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وعبيد الله بن عمر وأم سلمة وغيرهم .

وعنه جماعة من التابعين وغيرهم ، ووثقة ابن معين وأبوزرعة وغير واحد . وكان ابن عمر يجلس في حلقة ويبيكي وكان يعجبه تذكيره ، وكان بليغا ، وكان يبكي حتى يبل الحصى بدموعه . قال مهدي ابن ميمون عن غيلان بن جري قال : كان عبيد بن عمير إذا آخى أحداً في الله استقبل به القبلة فتمال اللهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك ، واجعل محمداً شهيداً علينا بالآيمان ، وقد سبقتنا لنا منك الحجة خير من تناول علينا الأمد ، ولا قاسية قلوبنا ولا قائلين ما ليس لنا بحق ، ولا سائلين ما ليس لنا به علم . وحكى البخاري عن ابن جريج أن عبيد بن عمير مات قبل ابن عمر رضي الله عنه .

أبو جحيفة

وهب بن عبد الله السوائي ، صحابي رأى النبي (س) ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبي (س) . لكن روى عنه عدة أحاديث ، وعن علي والبراء بن عازب ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم إسماعيل بن أبي خالد ، والحكم وسلمة بن كهيل والشعبي وأبو إسحاق السبيعي ، وكان قد نزل الكوفة وأبقي بها داراً وتوفي في هذه السنة ، وقيل في سنة أربع وتسعين لله أعلم . وكان صاحب شرطة علي ، وكان على إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره .

سلمة بن الأكوع

ابن عمرو بن سنان الأنصاري وهو أحد من بايع تحت الشجرة ، وكان من فرسان الصحابة ومن علمائهم ، كان يفتي بالمدينة ، وله مشاهد معروفة في حياة النبي (س) . وبعده ، توفي بالمدينة وقد جاوز السبعين سنة .

مالك بن أبي عامر

الأصبحي المدني وهو جد الإمام مالك بن أنس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم وكان فاضلاً عالماً ، توفي بالمدينة .

أبو عبد الرحمن السلمي

مقرئ أهل الكوفة بلا مدافعة واسمه عبد الله بن حبيب ، قرأ القرآن علي عثمان بن عفان وابن مسعود ، وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج ، قرأ عليه عاصم بن أبي النجود وخلق غيره ، توفي بالكوفة .

أبو معرض الأسدي

اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفي ، ولد في حياة النبي (س) ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه ، وله شعر جيد ، ويعرف بالأقطشي ، وكان أحمر الوجه كثير الشعر ، توفي بالكوفة في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين سنة .

بشر بن مروان

الأموي أخو عبد الملك بن مروان ، ولي إمرة العراقيين لأخيه عبد الملك ، وله دار بدمشق عند عقبة الباب ، وكان سمحاً جواداً ، وإليه ينسب دير مروان عند حجير ، وهو الذي قتل خالد بن حصين الكلبي يوم مرج راهط ، وكان لا يغلّق دونه الأبواب ويقول : إنما يحتجب النساء ، وكان طليق الوجه ، وكان يحيز على الشعر بألوف ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل ، والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببیت الأخطل .

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مہراق

وليس فيه دليل ، فان هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانياً ، وكان بسبب موت بشر أنه وقعت القرحة في عينه فقليل له يقطعها من المفصل فخرج فما أحس حتى خالطت الكتف ، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات ، ولما احتضر جعل يبكي ويقول : والله لو ددت أني كنت عبداً أرعى الغنم في البادية لبعض الأعراب ولم أُل ما وليت ، فذكر قوله لابن حازم - أو لسعيد بن المسيب - ، فقال : الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يفرون إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم ، إنا لثرى فيهم عبراً ، وقال الحسن : دخلت عليه فاذا هو يتعامل على سريره ثم نزل عنه إلى صحن الدار ، والأطباء حوله . مات بالبصرة في هذه السنة وهو أول أمير مات بها ، ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه وأمر الشعراء أن يرثوه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها غزا محمد بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار - صائفة الوم حين خرجوا من عند مرعش ، وفيها ولي عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبي العاص ، وهو عمه ، وعزل عنها الحجاج . وفيها ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وذلك بعد موت أخيه بشر ، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج اسطوته وقهره وقسوته وشهامته : فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق ، فسار من المدينة إلى العراق في اثني عشر راكباً ، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها وكان تحتهم النجائب ، فنزل قريب الكوفة فاغتسل واغتضب ولبس ثيابه وتقلد سيفه وألقى عذبة العمامة بين كتفيه ، ثم سار فنزل دار الامارة ، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة ، فخرج عليهم وهم لا يعلمون ، فصعد المنبر وجلس عليه وأمسك عن الكلام طويلاً ، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجثوا على الركب وتناولوا الحصى ليحذفوه بها ، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله ، فلما سكنت أبتهم وأحبوا أن يسموا كلامه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق

والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، والله إن كان أمركم إليهمنى قبل أن آتى إليكم ، ولقد كنت أدعو الله أن يتليكم بى ، ولقد سقط منى البارحة سوطى الذى أؤدبكم به ، فأتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - ، ثم قال : والله لا آخذن صغيركم بكبيركم ، وحرمت بعبدكم ، ثم لأرصعكم رصع الحداد الحديدية ، والخباز المعجينة . فلما سمعوا كلامه جمل الحصى يتساقط من أيديهم ، وقيل إنه دخل الكوفة فى شهر رمضان ظهراً فأتى المسجد وصعد المنبر وهو معتجر بعمامة حمراء مثلهم بطرفها ، ثم قال : على بالناس ! فظنه الناس وأصحابه من الخوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه اللثام وقال : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضعُ العمامة تعرفونى
ثم قال : أما والله إني لأحمل الشئ بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأحزمه بفتله ، وإني لأرى رؤساً قد أينعت وأن اقتطافها ، وإني لأنظر إلى الدماء تفرق بين المائم والاحي ، قد شممت عن ساقها فشمري ، ثم أنشد : -

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم
لست براعى إبل ولا غنم ولا بجزاري على ظهر وضمن
قد لفها الليل بمصلي أروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي

ثم قال : إني والله يا أهل العراق ما أغمر بغمار ، ولا يقطع لى بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاه وجربت من الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنياته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً فوجدنى أمرها عوداً وأصلها مغمزاً فوجهنى إليكم ، فأنتم طالما رتتم فى أودية الفتن ، وسلكتم سبيل النى ، واخترتم جدد الضلال ، أما والله لأخونكم لى العود ، ولأعصبنكم عصب السلة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، إني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أخلق إلا فريت ، فإياى وهذه الجماعات وقيلوا وقالوا ، والله لتستقيم على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده .
ثم قال : من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب - يعنى الذين كانوا قد رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر ابن مروان كما تقدم - سفكت دمه وانتهبت ماله ، ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك ، ويقال إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته أطال السكوت حتى أن محمد بن عمير أخذ كفا من حصى وأراد أن يحصبه بها ، وقال : قبحه الله ما أعياء وأذمه ! فلما نهض الحجاج وتكلم بما تكلم به جمل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشرب به ، لما يرى من فصاحته وبلاغته . ويقال إنه قال فى خطبته هذه : شامت الوجوه إن الله ضرب [مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون] وأنتم أولئك فاستروا

واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدروا ، ولأعصبنكم عصب السله حتى تنقادوا ، وأقسم بالله لتقبلن على الانصاف ولتدعن الارجاف وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، وإيش الخبر وما الخبر ، أو لأهبرنكم بالسيف هبرا يدع النساء أيامى والاولاد يتامى ، حتى تشوا السهمى وتقلعوا عن هاوها . فى كلام طويل بليغ غريب يشتمل على وعيد شديد ليس فيه وعد بخير .

فلما كان فى اليوم الثالث سمع تكبيرا فى السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، إني سمعت تكبيرا فى الأسواق ليس بالتكبير الذى يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به التهريب . وقد عصفت عجاذة تحتها قصف ، يابى الكعبة وعبيد العصا وأبناء الأماء والأيامى ، ألا يربع كل رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها . قال فقام إليه عمير بن ضابى التميمى ثم الحظلى فقال : أبلغ الله الأمير إنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل ، وهذا ابني هو أشب مني . قال : ومن أنت ؟ قال عمير بن ضابى التميمى ، قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟ قال : نعم . قال : أأست الذى غزا عثمان بن عفان ؟ قال : بلى . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : كان حبس أبى وكان شيخا كبيرا ، قال أوليس هو الذى هو يقول :

هممت ولم أفعل وكذبت وليتني فعلت ووليت البكاء حلالا

ثم قال الحجاج : إني لأحسب أن فى قتلك صلاح المضرين ، ثم قال قم إليه يا حرمي فاضرب عنقه ، فقام إليه رجل فاضرب عنقه واتهب ماله ، وأمر مناديا فنادى فى الناس ألا إن عمير بن ضابى تأخر بعد سماع النداء ثلاثا فأمر بقتله ، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبه عليه فى ساعة واحدة أربعة آلاف من مذبح ، وخرجت معهم العرافة حتى وصلوا بهم إلى المهلب ، وأخذوا منه كتابا بوصولهم إليه ، فقال المهلب : قدم العراق والله رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو . وروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابى حتى قال له عنبسة بن سعيد : أيها الأمير ! إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قتل فلطم وجهه ، فأمر الحجاج عند ذلك بقتله .

وبعث الحجاج الحكم بن أيوب الثقفى نائبا على البصرة من جهته ، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله ، وأقر على قضاء الكوفة شريحا ثم ركب الحجاج إلى البصرة . واستخلف عن الكوفة أنا يعفور ، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى ، ثم عاد إلى الكوفة . وحج بالناس فى هذه السنة عبد الملك بن مروان ، وأقر عمه يحيى على نيابة المدينة ، وعلى بلاد خراسان أمية بن عبد الله . وفى هذه السنة ونب الناس بالبصرة على الحجاج ، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عمير بن ضابى قام فى أهل البصرة فخطبهم فظيّرهم فخطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد ، ثم

أتى رجل من بني يشكر فقبل هذا عاص ، فقال : إن بي فتنا وقد عذرتني الله وعذرتني بشر بن مروان ، وهذا عطائي مردود على بيت المال ، فلم يقبل منه وأمر بقتله فقتل ، ففرغ أهل البصرة وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رامهرمز . وعليهم عبد الله بن الجارود ، وخرج إليهم الحجاج - وذلك في شعبان من هذه السنة - في أمراء الجيش فاقتتلوا هناك قتالا شديدا ، وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رأس من القبائل معه ، وأمر برؤسهم فقطعت ونصبت عند الجسر من رامهرمز ، ثم بعث بها إلى المهلب فتوى بذلك وضعف أمير الخوارج ، وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف فأمرهما بمناهضة الأزارقة ، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال ، فهربوا إلى أرض كازرون من إقليم سابور ، وسار الناس وراءهم فالتقوا في العشر الآخر من رمضان ، فلما كان الليل بيت الخوارج المهلب من الليل فوجدوه قد تحصن بخندق حول معسكره ، فجاؤا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز - وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل - فاقتتلوا في الليل فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه وهزمهم هزيمة منكرة ، ويقال إن الخوارج لما التقوا مع الناس في هذه الوقعة كان ذلك في يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يعهد مثله من الخوارج ، وحملت الخوارج على جيش المهلب بن أبي صفرة فاضطروه إلى معسكره ، فجعل عبد الرحمن يمدده بالليل بعد الخيل ، والرجال بعد الرجال ، فالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بعد العصر فاقتتلوا معه إلى الليل ، فقتل عبد الرحمن في أثناء الليل . وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه ، فلما كان الصباح جاء المهلب فصرى عليه ودفنه وكتب إلى الحجاج بمهلكه ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزیه فيه فعناه عبد الملك إلى الناس بمنى ، وأمر الحجاج مكانه عتاب بن ورقاء ، وكتب إليه أن يطيع المهلب ، فكره ذلك ولم يجبه ببدأ من طاعة الحجاج ، وكره أن يخالفه ، فسار إلى المهلب فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً وبعصيه كثيراً ، ثم تقاولا فهم المهلب أن يقع بعتاب ثم حجز بينهما الناس ، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب فكتب إليه أن يقدم عليه وأعفاه من ذلك ، وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب .

وفيها خرج داود بن النعمان المازني بنواحي البصرة ، فوجه إليه الحجاج أميراً على سرية فقتله . قال ابن جرير : وقى هذه السنة تحرك صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس ، وكان يرى رأى الصفرية ، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية ، وكان سبب ذلك أنه حج بالناس في هذه السنة ومعه شبيب بن يزيد ، والبطين وأشباههم من رؤس الخوارج ، واتفق حج أمير المؤمنين عبد الملك فهم شبيب بالفتك به ، فبلغ عبد الملك ذلك من خبره بعد انصرافه من الحج ، فكتب عبد الملك

إلى الحجاج أن يتطلبهم ، وكان صالح بن مسرح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والاقامة بها ، وكان له جماعة يلوذون به ويعتقدونه ، من أهل دارا وأرض الموصل ، وكان يعلمهم القرآن ويقص عليهم وكان مصفراً كثير العبادة ، وكان إذا قص يحمد الله ويثنى عليه ويصلي على رسوله ، ثم يأمر بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، ويبحث على ذكر الموت ويترحم على الشيخين أبي بكر وعمر ، ويثنى عليهما ثناء حسناً ، ولكن بعد ذلك يذكر عثمان فيسبه وينال منه وينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا عليه وقتلوه من فجرة أهل الأمصار ، ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنكار ما قد شاع في الناس وذاع ، ويهون عليهم القتل في طلب ذلك ، ويندم الدنيا ذمماً بالغا ، ويصغر أمرها ويحقرها ، فالتفت عليه جماعة من الناس ، وكتب إليه شبيب بن يزيد الخارجي يستبطنه في الخروج ويحثه عليه ويندب إليه ، ثم قدم شبيب على صالح وهو بدارا فتواعدوا وتوافقوا على الخروج في مستهل صفر من هذه السنة الآتية - وهي سنة ست وسبعين - وقدم على صالح شبيب وأخوه مصاد والمجلل والفضل بن عامر ، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بدارا نحو مائة وعشرة أنفس ، ثم وثبوا على خيل محمد بن مروان فأخذوها ونفروا بها ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما كان ، كما سند كره في هذه السنة التي بعدها إن شاء الله تعالى وكان ممن توفي فيها في قول أبي مسهر وأبي عبيد - العرباض بن سارية رضي الله عنه السلمي أبو نجيع سكن حمص وهو صحابي جليل ، أسلم قديماً هو وعمر وبن عنبسة ونزل الصفة ، وكان من البكائين المذكورين في سورة براءة كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله [ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] الآية . وكانوا ، تسعة وهو راوى حديث « خطبنا رسول الله ص » ، خطبة وجات منها القلوب وزدفت منها العيون » الحديث إلى آخره . ورواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وغيره ، وروى أيضاً أن النبي ص « كان يصلي على الصف المقدم ثلاثاً وعلى الثاني واحدة » وقد كان العرباض شيخاً كبيراً ، وكان يحب أن يقبضه الله إليه ، وكان يدعو : اللهم كبرت سني ووهن عظمي فاقبضني إليك ، وروى أحاديث .

صحابي جليل شهيد بيعة الرضوان وغزا حنيناً وكان ممن نزل الشام بدار ياغربي دمشق إلى جهة القبلة ، وقيل ببلاط قرية شرقي دمشق فأنه أعلم . وقد اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، والأشهر منها جرنوم بن ناشر ، وقد روى عن رسول الله ص ، أحاديث وعن جماعة من الصحابة ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامي وأبو إدريس الخولاني ، وأبو قلابة الأيرمي ، وكان ممن يجالس كعب الأحمبار ، وكان في كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ثم يرجع إلى المنزل فيسجد لله عز وجل ، وكان يقول : إني لأرجو أن لا يخنقني الله عند الموت كما أراكم تختنقون ،

فبينما هو ليلة يصلي من الليل إذ قبضت زوجته وهو ساجد . ورأت ابنته في المنام كأن أباه قد مات فانتبهت مذعورة فقالت لأُمها أين أبي ؟ قالت : هو في صلاة ، فنادت فلم يجبها ، فجاءته فخر كنه فسقط جنبه فاذا هو ميت رحمه الله ، قال أبو عبيدة ومحمد بن سعد وخليفة وغير واحد : كانت وفاته سنة خمس وسبعين ، وقال غيرهم : كانت وفاته في أول إمرة معاوية فأنه أعلم . وقد توفي في هذه السنة .

الأسود بن يزيد

صاحب ابن مسعود ، وهو الأسود بن يزيد النخعي من كبار التابعين ، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود ، ومن كبار أهل الكوفة ، وكان يصوم الدهر ، وقد ذهبت عينه من كثرة الصوم ، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمره . وكان يهل من الكوفة ، توفي في هذه السنة ، وكان يصوم حتى يخضر ؛ يصفر ، فلما احتضر بكى فليل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : مالي لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك مؤي ؟ والله لو أنبتت بالمغفرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فينفو عنه فلا يزال مسنحياً منه .

حران بن أبان

مولى عثمان بن عفان كان من سبي عيينة النمر اشتراه عثمان ، وهو الذي كان يأذن الناس على عثمان توفي في هذه السنة والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وسبعين

كان في أولها في مستهل صفر منها ليلة الأربعاء بعاء اجتماع صالح بن مسرح أمير الصفرية ، وشبيب ابن يزيد أحد شجعان الخوارج ، فقام فيهم صالح بن مسرح فأمرهم بتقوى الله وحشهم على الجهاد ، وأن لا يقتلوا أحداً حتى يدعوهم إلى الدخول معهم ، ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة فأخذوها فنفروا بها ، وأقاموا بأرض دارا ثلاثة عشر ليلة ، وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار ، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدى بن عدى بن عميرة ، ثم زاده خمسمائة أخرى فسار في ألف من حران إليهم ، وكأئنا يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لما يعلو من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم ، فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمة شنيعة بالغة . واحتروا على مافي معسكرهم ، ورجع فلهم إلى محمد بن مروان ، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جمونة ، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحر ، وقال لهما : أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس ، فساروا إليهم في ثلاثة آلاف مقاتل ، والخوارج في نحو من مائة نفس وعشرة أنفس ، فلما انتهوا إلى آمد توجه صالح في شطر الناس إلى خالد بن الحر ، ووجه شبيباً في الباقي إلى الحارث ابن جمونة ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى الليل ، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن

الآخر ، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين ، وهربت الخوارج في الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا في أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة ، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلاً ، فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس ، فهو في كردوس ، وشبيب عن يمينه في كردوس ، وسويد بن سليمان عن يساره في كردوس ، وجعل عليهم الحارث بن عميرة ، وعلى يمينه أبو الرواح الشاكري ، وعلى يساره الزبير بن الأرواح التميمي ، فصبرت الخوارج على قتلهم صبراً شديداً ، ثم انكشف سويد بن سليمان ، ثم قتل صالح بن مسرح أميرهم ، وصرع شبيب عن فرسه فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك ، وقد بقي معهم سبعون رجلاً ، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا ، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً ، فما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج على الصعب والذلول من الباب فبيتوا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب الناس سراعاً إلى المدائن ، واحتار شبيب وأصحابه ما في معسكرهم ، وكان جيش الحارث بن عميرة أول جيش هزمه شبيب ، وكان مقتل صالح بن مسرح في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيهما دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته عزالة ، وذلك أن شبيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسرح ، واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه ، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك ، ثم سار فجاز المدائن فلم ينل منهم شيئاً ، فسار فأخذ - وابعاً للحجاج من كلودا ، وفي عزمه أن يبيت أهل المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة ، فلما وصل فلم يبق إلى الحجاج جهاز جيشاً أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب ، فمروا على المدائن ثم ساروا في طلب شبيب فجعل يسير بين أيديهم قليلاً قليلاً وهو يريد أن يهزمهم ، ثم يكر في كل وقت على المقدمة فيكسرهما وينهب ما فيها ، ولا يواجه أحداً إلا هزمه ، والحجاج يلح في طلبه ويجهز إليه السرايا والبموث والمدد وشبيب لا يبالي بأحد وإن ما معه مائة وستمائة فارساً ، وهذا من أعجب العجائب ، ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها ، فخرج الجيش بكامله إلى السبخة لقتاله ، وبلغه ذلك فلم يبال بهم بل انزعج الناس له وخاف منه وفرقوا منه ، وهم الجيش أن يدخل الكوفة خوفاً منه ويتحصنوا بها منه ، حتى قيل لهم إن سويد بن عبد الرحمن في آثارهم وقد اقترب منهم . وشبيب نازل بالمدائن بالدير ليس عنده خبر منهم ولا خوف ، وقد أمر بطعام وشواء أن يصنع له فقليل له . وقد جاءك الجند فأدرك نفسك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك ولا يكثر بهم ويقول للدهقان الذي يصنع له

الطعام : أجسده وأنصحه وعجل به ، فلما استوى أكله ثم توضأ وضوءاً تاماً ثم صلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمانينة ، ثم لبس درعه وثقله سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال : أسرجوا إلى البغلة ، فركبها فقال له أخوه مصاد : اركب فرساً ، فقال : لا ، حارس كل أمر أجله ، فركبها ثم فتح باب الدير الذي هو فيه وهو يقول : أنا أبو المدله لا حكم إلا الله ، وتقدم إلى أمير الجيش الذي يليه بالعمود الحديد فقتله ، وهو سميد بن المجالد ، وحمل على الجيش الآخر اليكشيف فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة ، ومضى شبيب إلى الكوفة من أسفل الفرات ، وقتل جماعة هناك ، وخرج الحجاج من الكوفة هارباً إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها ، فأعلم الدهاقين عروة بن المغيرة بذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير ، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبقه الحجاج إليها فدخلها العصر ، ووصل شبيب إلى المربد عند الغروب ، فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الامارة فضرب بابه بعموده الحديد فأثرت ضربته في الباب ، فكانت تعرف بعد ذلك ، يقال هذه ضربة شبيب ، وسلك في طرق المدينة وتقصده محال القتال ، وقتل رجالاً من رؤساء أهل الكوفة وأشرفهم ، منهم أبو سليم والدليث بن أبي سليم ، وعدى بن عمرو ، وأزهر بن عبد الله العامري ، في طائفة كثيرة من أهل الكوفة ، وكان مع شبيب امرأته غزالة ، وكانت مروفة بالشجاعة ، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تدم بني مروان .

ونادى الحجاج في الناس يا خيل الله اركبي ، فخرج شبيب من الكوفة إلى مجال الطامن والضرب ، فجهز الحجاج في أثره سنة آلاف مقاتل ، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينمسون بهز رأسه ، وفي أوقات كثيرة يكر عليهم فيقتل منهم جماعة ، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً ، وقتل جماعة من الأمراء منهم رائدة بن قدامة ، قتله شبيب ، وهو ابن عم المختار ، فوجه الحجاج مكانه لحر به عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقابل شبيباً ورجع ، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثي ، فالتقوا في أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهمزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس ، فن أعيانهم عقيل بن شداد السلولي ، وخالد بن نهيك الكندي ، والاسود بن ربيعة ، واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً ، فبعث له جيشاً من أهل الشام فقدموا في السنة الآتية ، وإن ما مع شبيب شرذمة قليلة ، وقد ملأ قلوب الناس رعباً ، وجرت خطوب كثيرة له معهم ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلكت هذه السنة . قال ابن جرير : وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير وهو أول من

نقشها . . . وقال الماوردي في كتابي الأحكام السلطانية: اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام فقال سعيد بن المسيب : أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير والدراهم رومية وكسروية ، قال أبو الزناد : وكان نقشه لها في سنة أربع وسبعين ، وقال المدائني : خمس وسبعين ، وضربت في الألف سنة ستة وسبعين ، وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها الله أحد : وعلى الوجه الآخر الله الصمد ، قال : وحكى يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير ، سنة سبعين على ضرب الأكرسة ، عليها الملك من جانب ، والله من جانب ، ثم غيرها الحجاج وكتب اسمه عليها من جانب ، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك ، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبد الله القسيري في أيام هشام ، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم ، ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيرية والخالدية واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس عقود مختلفة منها الدراهم البعلبية ، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق ، والطبرية وكان الدرهم منها أربعة دوانيق ، واليمينية دائق ، جمع عمر بن الخطاب بين البعلية والطبرية ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعي وهو نصف مثقال وخمس مثقال ، وذكروا أن المثقال لم يغيروا وزنه في جاهلية ولا إسلام ، وفي هذا نظر والله أعلم

وفيه ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو مروان الحمار آخر من تولى الخلافة من بني أمية ، ومنه أخذها بنو العباس . وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة ، وعلى إمرة العراق الحجاج وعلى خراسان أمية بن عبد الله والله أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان أبو عثمان النهدي القاضي باسمه عبد الرحمن بن مل أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، رغب أجلاء والقادسية وتستر ، ونهروند ، وأذر بيجان وغيرهما ، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً يصوم النهار ويقوم الليل ، توفي وعمره مائة وثلاثين سنة بالكوفة .

صلة بن اشيم العدوي

من كبار التابعين من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد ، كنيته أبو الصبيح . كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبوا ، وله مناقب كثيرة جداً ، منها أنه كان يمر عليه شباب يلهون ويلعبون فيقول : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فجادوا في النهار عن الطريق وناموا الليل فمضى يقطعون سفرهم ؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة ، فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام . ثم تبع صلاته فلم يزل يتعبد معه حتى مات . وروى عليه قتي بن مجير ثوبه وهم أصحابه أن يأخذوه بالسنة فقال : يهدوني أكنفكم أمره ، ثم دعا فقال : يا ابن أخي لي إليك حاجة .

قال : وما حاجتك ؟ قال أن ترفع إزارك ، قال : نعم ، ونعمت عين ، فرفع إزاره ، فقال صلة : هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه كشتكم . ومنهما حكاة جعفر بن زيد قال : خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فقلت لأرمقن عملة الليلة ، فدخل غيضة ودخلت في أثره فقام يصلي وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا في شجرة ، قال فتراه التمت أوعدده جرواً حتى سجد فقلت : الآن يقتسه ، فجلس ثم سلم فقال : أيها السبع إن كنت أمرت بشيء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر ، فولى الأسد وإن له لثأيراً تصدع منه الجبال ، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بحمده لم أسمع بمثله ثم قال : اللهم إني أسألك أن تجبرني من النار ، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة . ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا ، وأصبحت وبني من القيرة شيء الله به عليهم . قال : وذهبت بغلته بثقلها فقال : اللهم إني أسألك أن ترد علي بغلتي بثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه ، قال : فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنمنا بهم طعنا وضربا ، فقال العدو : رجلان من العرب هما به اهلهما فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ اعطوا المسلمين حاجتهم - يعني انزلوا على حكمهم - ، وقال صلة : جمعت مرة في غزاة جوعاً شديداً فبينما أنا أسير أدعوني وأستطعمه ، إذ سمعت وجبة من خلفي فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض فإذا فيه دوخلة ملاكة رطباً فأكلت منه حتى شبعتم ، وأدركني المساء فلت إلى دير راعب فحدثته الحديث فاستطعمني من الرطب فأطعمته ، ثم إني مررت على ذلك الراهب بعد زمان فإذا نخلات حسان فقال : إنهم لمن الرطبات التي أطعمتني ، وجاء بذلك المنديل إلى أوراته فكانت تريه للناس ، ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصلي فقامت تصلي معه ، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح ، قال : فأنذره فقلت له : أي عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقامت تصلي وتركتها ؟ قال : إنك أدخلتني بيتاً أول النهار أذكرتني به النار ، وأدخلتني بيتاً آخر النهار أذكرتني به الجنة ، فلم تنزل ففكرت فيهما حتى أصبحت ، البيت الذي أذكره به النار هو الحمام ، والبيت الذي أذكره به الجنة هو بيت العروس . وقال له رجل : ألعن الله لي : فقال رقيبك الله فيما يبني . ورسلك فيما يبني ، ورزقك اليفين الذي لا يركن إلا إليه ، ولا يعول في الدين إلا عليه . وكان صلة في غزاة ومعه ابنه فقال له : أي بني تقدم فناتل حتى احتسبك . فحمل فناتل حتى قتل ، ثم تقدم صله فقاتل حتى قتل ، فاجتمع النساء عند أوراته معاذة المسدوية فقالت : إن كنتن جثتين لتبينني فرحباً بكن ، وإن كنتن جثتين لنمزي يفتني فارجمن ، توفي صلة في غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس في هذه السنة .

زهير بن رقيس الهلوي .

شهد فتح مصر وسكنها ، له صحبة ، قتلته الروم بركة من بلاد المغرب ، وذلك أن الصريح أي

الحاكم بمصر وهو عبد العزيز بن مروان أن الروم نزلوا برقة ، فأمره بالتهوض إليهم ، فساق زهير
ومعه أربعون نفساً فوجد الروم فأراد أن يكف عن القتال حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد
احمل بنا عليهم ، فحملوا فقتلوا جميعاً المنذر بن الحارود . مات في هذه السنة . تولى بيت المال
ووفد على معاوية والله أعلم

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً ، وانضاف إليهم عشرة آلاف ،
فصاروا خمسين ألفاً ، وأمر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد لشبيب أين كان ، وأن يصمم على
قتاله . وكان قد اجتمع على شبيب ألف رجل . وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة .
ولما بلغ شبيب ما بهت به الحجاج إليه من المساكر والجنود ، لم يعأ بهم شيئاً . بل قام في أصحابه
خطيباً فوعظهم وذكّرهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو
عتاب بن ورقاء ، فالتقيا في آخر النهار عند غروب الشمس ، فأمر شبيب مؤذنه سلام بن يسار الشيباني
فأذن المغرب ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب صلاة تامة الركوع والسجود ، ووصف عتاب أصحابه .
وكان قد خندق حوله وحول جيشه من أول النهار . فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى طلع
القمر وأضاء ثم تأمل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول : أنا شبيب أبو الملاح
لاحكم إلا الله ، فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن ورقاء وجماعة من الأمراء معه ، ثم كر على الميمنة وعلى
الميسرة ففرق فحمل كل واحداهما ، ثم قصد القلب فزال حتى قتل الأمير عتاب بن ورقاء
وزهرة بن جونة ، وولى عامة الجيش مدبرين وداسوا الأمير عتاب وزهرة فوطئته الخيل . وقتل في
المركة عمار بن يزيد الكلبي . ثم قال شبيب لأصحابه : لا تقبوا منهزماً ، وانهمز جيش الحجاج عن
بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة ، وكان شبيب لما احتوى على المعسكر أخذ ممن بقى منهم البيعة له
بالامارة وقال لهم إلى أي ساعة تهربون ؟ ثم احتوى على ما في المعسكر من الأموال والحواصل ، واستدعى
بأنخيه مصاد من المدائن ، ثم قصد نحو الكوفة ، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي
وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في سنة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام ،
فاستغنى الحجاج بهم عن نصرته أهل الكوفة ، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا فلا تشهدوا
معنا قتال عدونا ، الحقوا بالخيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملاً
لنا ، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء ، وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه وسار شبيب حتى

بلغ الصراة ، وخرج إليه الحجاج بن منه من الشاميين وغيرهم ، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج الى شبيب وهو في ستمائة فخطب الحجاج أهل الشام وقال : يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حركم ، غضوا الأبصار واجثوا على الركب ، واستقبلوا بأطراف الأسنة ، ففعلوا ذلك ، وأقبل شبيب وقد عبي أصحابه ثلاث فرق ، واحدة معه ، وأخرى مع سويد ابن سليم ، وأخرى مع المجل بن وائل . وأمر شبيب سويداً أن يحمل فحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم عنهم ، فنادى الحجاج : يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا ، ثم أمر الحجاج فقدم كرسية الذي هو جالس عليه إلى الامام ، ثم أمر شبيب المجل أن يحمل فحمل فثبتوا له وقدم الحجاج كرسية إلى امام ، ثم إن شبيباً حمل عليهم في كنيسته فثبتوا له حتى إذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلاً ، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى ألحقوه بأصحابه ، فلما رأى صبرهم نادى : يا سويد احمل في خيلك على أهل هذه السرية لملك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه . فحمل فلم يند ذلك شيئاً ، وذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في ثلاثمائة فارس رداً له من ورائه لئلا يؤتوا من خلفهم ، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً ، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ففهم ذلك الحجاج ، فقال : يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء والأرض ماثنى دون الفتح ، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظفرون على شبيب وأصحابه حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما ورائها ، فنادى شبيب في أصحابه يا أولياء الله الأرض الأرض ، ثم نزل ونزلوا ونادى الحجاج يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول النصر والذي نفسى بيده ، وصعد مسجداً هنالك وجعل ينظر إلى الفريقين ، ومع شبيب نحو عشرين رجلاً معهم النبل ، واقتتل الناس قتالاً شديداً عامة النهار من أشد قتال في الأرض ، حتى أقر كل واحد منهم لصاحبه ، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه ، ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعة فيأتى الخوارج من خلفهم ، فأذن له ، فانطلق في جماعة معه نحو من أربعة آلاف ، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب ، وغزاة امرأة شبيب ، قتلها رجل يقال له فروة بن دقاق الكلبي ، وخرق في جيش شبيب ، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبروا ، وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس ، فأمر الحجاج أن ينطلقوا في طلبهم ، فشدوا عليهم فمزموهم ، وتخلف شبيب في حامية الناس ، ثم انطلقت ، واتبعه الطلب فجعل ينس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه ، ودنا منه الطلب فجعل بهض أصحابه ينهاه عن النعاس في هذه الساعة فجعل لا يكثر بهم

ويعود فيخفق رأسه ، فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول دعوه في حرق النار ، فتركوه ورجعوا .
ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال في خطبته . إن شبيباً لم يهزم قبلها ، ثم قصد شبيب
الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا يوم الأربعاء فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة
وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس معه ، فحمل شبيب على الحارث
ابن معاوية فكسره ومن معه ، وقتل منهم طائفة ، ودخل الناس الكوفة هاربين ، وحصن الناس
السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل ، ثم هرب أصحابه
ودخلوا الكوفة ، ثم خرج إليه أمير آخر فأنكسر أيضاً ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد فمروا
بعمال الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ، ثم خطب أصحابه وقال : اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة ، ثم رمى
بالمال في الفرات ، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلا قتله ، ثم خرج إليه بعض
الأمراء الذين على بعض المدن فقال له : يا شبيب ابرز إلى وأبرز إليك ، - وكان صديقه - فقال له
شبيب : إني لا أحب قتلك ، فقال له : لكني أحب قتلك فلا تغرنك نفسك وما تقدم من الوقائع ،
ثم حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فهدم رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه ، ثم كفنه
ودفنه ، ثم إن الحجاج أنفق أموالاً كثيرة على الجيوش والمساكر في طلب شبيب فلم يظفوه ولم
يقدروا عليه ، وإنما سلط الله عليه موتاً قدراً من غير صنمهم ولا صنمه في هذه السنة

مقتل شبيب عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة - وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن
أبي عقيل وهو زوج ابنة الحجاج - يأمره أن يجيز جيشاً أربعة آلاف في طلب شبيب ، ويكونون
تبعاً لسفيان بن الأبرد ، ففعلوا ونظمتوا في طلبه فالتقوا معه ، وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل
الشام ، فلما وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام ، ثم ساروا
إلى شبيب فالتقوا به فاقتلوا قتلاً شديداً وصبر كل من الفريقين لصاحبه ، ثم عزم أصحاب الحجاج
فحملوا على الخوارج حملة منكراً والخوارج قليلون ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى
جسر هناك ، فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه ، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته ، وردده
شبيب عن موقفه هذا بعد أن قاتلوا نهراً طويلاً كاملاً عند أول الجسر أشد قتالاً يكون ، ثم أمر
ابن الأبرد أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقاً واحداً ، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا نحو
من ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن الأبرد ، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض ،
وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر ، فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر ،

فبينما شبيب على متن الجسر راكبا على حصان له وبين يديه فرس أنثى إذ نزا حصانه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء ، فقال ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ثم انغمس في الماء ثم ارتفع وهو يقول [ذلك تقدير العزيز العليم] ففرق . فلما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين في البلاد ، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيباً من الماء وعليه درعه ، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه فاذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة ، وكانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة الانسان . وقيل إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائهم ، فلما تخلف في الساقة اشتدوا وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط في الماء ففرق ، ونادوا غرق أمير المؤمنين ، فعرف جيش الحجاج ذلك فجاؤا فاستخرجوه ، ولما نعى شبيب إلى أمه قالت : صدقتم إنى كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج منها شهاب من نار فعلمت أن النار لا يطفئها إلا الماء ، وأنه لا يطفئه إلا الماء ، وكانت أمه حارية اسمها جهميرة ، وكانت جميلة ، وكانت من جميع النساء التي تقاتل مع ابنها في الحروب . وذئب ابن خلسكان أنها قتلت في هذه الغزوة ، وكذلك قتلت زوجته غزالة ، وكانت أيضاً شهيدة البأس ثقيل قتلاً شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال ، وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف يحيى قال فيه بعض الشعراء :

أسد عليّ وفي الحروب نعمة * فتخاه تنفر من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغا * بل كان قلبك في جناح طائر

قال : وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل ابن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيباني ، يدعى الخلافة ويتسمى بأمر المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الفرق لنال الخلافة إن شاء الله ، ولما قدر عليه أحد ، وإنما قهره الله على يد الحجاج لما أرسل إليه عبد الملك بمسك الشام لقتاله ، ولما ألقاه جواده على الجسر في نهر دجيل قال له رجل : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ قال [ذلك تقدير العزيز العليم] قال ثم أخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فترع قلبه من صدره فاذا هو مثل الحجر ، وكان شبيب رجلاً طويلاً أبيض جعداً ، وكان مولده في يوم عيد النحر سنة ست وعشرين ، وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له أنت القائل :

فإن يك منكم كان مروان وابنه * وعمر ومنكم هاشم وحبيب
فنا حصين والبطين وقنبر * ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال : إنما قلت ومنا يا أمير المؤمنين شبيب . فأعجبه اعتذاره وأطلقه والله سبحانه أعلم . وفي هذه السنة كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبي صفرة نائب الحجاج ، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم فطري بن الفجاءة ، وكان قطري أيضاً من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين

وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا في هذه السنة ، وأما هو فلا يدري أحد أين ذهب فانه شرد في الأرض وقد جرت بينهم مناوشات ومحاولات يطول بسطها ، وقد بالغ ابن جرير في ذكرها في تاريخه . قال ابن جرير : وفي هذه السنة ثار بكير بن وشاح الذي كان نائب خراسان على نائبها أمية بن عبد الله ابن خالد وذلك أن بكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله ، وقد جرت بينهما حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير في تاريخه . وفي هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد كما قدمنا ، وقد كان من الشجاعة والفروسة على جانب كبير لم ير بعد الصحابة مثله ، ومثل الأشر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ومن ينأى بهؤلاء في الشجاعة مثل قطري بن الفجاءة من الأزارقة والله أعلم . وفيها توفي من الأعيان كثير بن الصلت بن معدي كرب الكندي ، كان كبيراً مطاعاً في قومه ، وله بالمهينة دار كبيرة بالمصلى ، وقيل إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل ، توفي بالشام . محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله كانت أخته تحت عبد الملك وولاه سجستان ، فلما سار إليها قيل له إن شبيباً في طريقك وقد أعيا الناس فاعدل إليه لعلك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد ، فلما سار لقيه شبيب فاقتتل معه فقتله شبيب . وقيل غير ذلك والله أعلم .

عياض بن غنم الأشعري

شهد اليرموك ، وحدث عن جماعة من الصحابة وغيرهم توفي بالبصرة رحمه الله .

مطرف بن عبد الله

وقد كانوا إخوة ، عروة ومطرف وحزرة ، وقد كانوا يملون إلى بني أمية فاستعملهم الحجاج على أقاليم ، فاستعمل عروة على الكوفة ، ومطرف على المدائن ، وحزرة على همدان .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم افتتحوا إرقيلية ، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وثلج وبرد ، فأصيب بسببه ناس كثير . وفيها ولي عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقد جعل على مقدمته طارقاً فقتلوا ملوك تلك البلاد ، وبيضهم قطعوا أنفه ونفوه ، وفيها عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان وأضافها إلى الحجاج مع سجستان أيضاً ، وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من إمرة الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المنيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمي ، فقدم المهلب على الحجاج وهو بالبصرة وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً ، فأجلسه معه على السرير واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه ، فن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له العطية ، ثم ولي الحجاج المهلب إمرة سجستان ، وولى عبد الله بن أبي بكر إمرة خراسان ، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده ، فقيل كان ذلك بإشارة المهلب ، وقيل إنه استعان بصاحب

الشرطة وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي ، حتى أشار على الحجاج بذلك فأجابه إلى ذلك : وألزم المهلب بألف ألف درهم ، لأنه اعترض على ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فيها الوليد بن عبد الملك وكان أمير المدينة أمان بن عثمان ، وأمير العراق وخراسان وسجستان وتلك النواحي كلها الحجاج ، ونائبه على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ونائبه على سجستان عبد الله بن أبي بكرة الثقفي ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري . وقد توفي في هذه السنة من الأعيان جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي ، صاحب رسول الله ص . وله روايات كثيرة ، وشهد العقبة وأراد أن يشهد بدرآ فثمنه أبوه وخلفه على إخوانه وأخواته ، وكانوا تسعة ، وقيل إنه ذهب بصره قبل موته . توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة ، وأسند إليه ألف وخمسمائة وأربعين حديثاً .

شريح بن الحارث

ابن قيس أبو أمية الكندي ، وهو قاضي الكوفة ، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، ثم عزله على ، ثم ولاة معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة ، وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم ، وقيل خمسمائة درهم ، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول : سيعلم الظالم حظ من نقص ، وقيل إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية (يادادونا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) الآية ، وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر ، وقيل إنه مكث قاضياً نحو سبعين سنة . وقيل إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة فأنه أعلم . وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن ، وقدم المدينة بعد موت النبي ص .، توفي بالكوفة وعمره مائة وثمان سنين .

وقد روى الطبراني قال : حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن شبيب ابن الحبش عن إبراهيم التيمي . قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حق من نقصوا . إن الظالم ينتظر العقاب ، وإن المظلوم ينتظر النصر . ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن ابن عون عن إبراهيم به . وقال الأعمش : اشتكى شريح رجلاً فطلوها بالمثل وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالحت . فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : فإذا قال لك ؟ قال : وعد خيراً . وفي رواية أنه خرج بابها قرحة فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها . وقال الأوزاعي : حدثني عبدة بن أبي لبابة قال : كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين وكان شريح لا يختبر ولا يستخير . ورواه ابن ثوبان عن عبدة عن الشعبي عن شريح قال :

لما كانت الفتنة لم أسأل عنها . فقال رجل لو كنت مثلك ما باليت متى مت ، فقال شريح : فكيف بما في قلبي . وقد رواه شقيق بن سلمة عن شريح قال : في الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ولا ظلمت مسلما ولا معاهداً ديناراً ولا درهما ، فقال أبو وائل : لو كنت على حالك لأحببت أن أكون قدمت ، فأوى إلى قلبه فقال : كيف يهدأ ، وفي رواية : كيف بما في صدري تلتقي الفتيتان وإحداهما أحب إلى من الأخرى . وقال لقوم رأيهم يلعبون : مالي أراكم تلعبون ؟ قالوا : فرغنا ! قال : ما بهذا أمر الفارغ . وقال سوار بن عبد الله العنبري : حدثنا العلماء بن جرير العنبري حدثني سالم أبو عبد الله أنه قال : شهدت شريحا وتقدم إليه رجل فقال : أين أنت ؟ فقال : بينك وبين الحائط ، فقال : إني رجل من أهل الشام ، فقال : بعيد سحيق ، فقال : إني تزوجت امرأة ، فقال : بالرفاء والبنين ، قال : إني اشترطت لها دارها ، قال : الشرط أم لك ، قال : اقض بيننا ، قال : قد فعلت . وقال سفيان : قيل لشريح بأي شيء أصبت هذا العلم ؟ قال : بمفاوضة العلماء ، آخذ منهم وأعطيتهم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن عبد الله بن محمد بن سالم عن إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن هبيرة أنه سمع عليا يقول : يا أيها الناس ! يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألهم ، فلما كان من الغد غدونا إليه حتى امتلأت الرحبة ، فجعل يسألهم : ما كذا ما كذا ، ويسألونه ما كذا ما كذا فيخبرهم ويخبرونه حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا غير شريح فإنه جاث على ركبتيه لا يسأله عن شيء إلا أخبره به ، قال : سمعت عليا يقول : قم يا شريح فأنت أقضى العرب . وأنت شريحا امرأتان جدة صبي وأمه يختصمان فيه كل واحدة تقول : أنا أحق به

أبا أميه أتيناك وأنت المستعان به . أتاك جدة ابن وأم وكلتا نانا تفديه (١)
فلو كنت تأيمت لما نازعتك فيه . تزوجت فها فيه ولا يذهب بك إليه
* ألا أيها القاضي فهذه قصتي فيه *

قالت الأم : —

ألا أيها القاضي قد ظلمت لك الجدة * قولاً فاستمع مني ولا تطردني رده
تمرى النفس عن ابني * وكبمدي حملت كبده
فلما صار في حجرى * يتباً مفرداً وخده
تزوجت رجاء الخير * من يكفيني قده
ومن يظهر لي الود * ومن يحسن لي رفة

فقال شريح : —

(١) هذه الأبيات طبق الأصل ولم نجد لها نظيراً .

قد سمى القاضي ما قلنا ثم قضى * وعلى القاضي جهداً إن غفل
قال للجدّة ربيني بالصبي * وخذي ابنك من ذات العلل
إنها لو صبرت كان لها * قبل دعوى ما تبغيه للبدل

فقضى به للجدّة . وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح أنه قضى على رجل باعترافه فقال : يا أبا أمية قضيت على بغير بينة ، فقال شريح : أخبرني ابن أخت خالتك . وقال علي بن الجعد : أنبأنا المسمودي عن أبي حصين قال : سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال : علف بهجان ولبن طيب . وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن أبي حيان التيمي حدثنا أبي قال : كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت في جوف داره ، ولم يكن له مشعب « شارع » إلا في جوف داره يفعل ذلك اتقاء أن تؤذى المسلمين - يعني أنه يلقي السنور في جوف داره لئلا تؤذى بنتن ريحها المسلمين - ، وكانت مياذيب أسطحة داره في جوف الدار لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين . وقل الرياشي : قال رجل لشريح : إن شأنك لشوين . فقال له شريح : أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها في نفسك . وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى تغلب الدعوى حدثنا عبد الله بن شبيب قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن زياد بن سميان . قال : كتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد فانك والمكان الذي أنت فيه والمكان الذي خرجت منه بعين من لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب ، والمكان الذي خلفته لم يمسد امرأ لكمامه ومن تظلمه أيامه . وإنك وإياهم لعل بساط واحد ، وإن المنتجع من ذى قدرة لقريب .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا علي بن مسهر عن الشيباني عن الشعبي عن شريح أن عمر كتب إليه : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه رجاء ما ليس في كتاب الله ، وانظر في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاقض بها ، فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، وفي رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فان لم يكن فان شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيراً ، والسلام .

وقال شريح : كنت مع علي في سوق الكوفة فأتته إلى قاص يقص فوقف عليه وقال : أيها القاص ! تقص ونحن قريبو العهد ، أما إني سألك فان تجب فما سألتك وإلا أدبتك ، فقال القاص سل يا أمير المؤمنين عما شئت ، فقال علي : ما ثبت الايمان وزواله ؟ قال القاص : ثبت الايمان الورع وزواله الطمع . قال علي : فذلك قص . قيل إن هذا القاص هو نوف البكالي . وقال رجل لشريح : إنك لتذكر النعمة في غيرك وتنساها في نفسك ، قال : إني والله لأحسدك على ما أرى بك . قال : ما نفعك الله بهذا ولا ضرني .

وروى جرير عن الشيباني عن الشعبي قال : اشترى عمر فرسا من رجل على أن ينظر إليه ، فأخذ الفرس فسار به فمطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا أقال : فأجمل بيدي وبينك حكما ، قال الرجل نعم ! شريح ، قال عمر : ومن شريح ؟ قال : شريح العراقي ، قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين رد كما أخذت أو خذ بما ابتعته ، فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها ، فانه لأول يوم عرفه يومئذ .

وقال هشام بن محمد السكابي : حدثني رجل من ولد سعد بن وقاص قال : كان لشريح ابن يدعو الكلاب ويهاش بين الكلاب ، فدعا بدواة وقرطاس فكتب إلى مؤدبه فقال : -

ترك الصلاة لأكل يسعى بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
فاذا أتاك ففقه علامة وعظه من عظة الأديب الأكيس
فاذا هممت بضربه فبدرة فاذا ضربت بها ثلاثا فاجلس
واعلم بأنك ما أتيت نفسك مع ما تجرني أعز الأنفس

وروى شريح عن عمر عن عائشة أن النبي (ص) قال لها : « يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » [إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع ، أنا منهم بريء وهم مني براء] . وهذا حديث ضعيف غريب رواه محمد بن محمد بن مصفى عن بقية عن شعبة - أو غيره - عن مجالد عن الشعبي ، وإنما تفرد به بقية بن الوليد من هذا الوجه وفيه علة أيضا . وروى محمد بن كعب القرظي عن الحسن بن شريح عن عمر بن الخطاب . قال قال رسول الله (ص) : « إنكم تستغربون حتى تصيروا في حثالة من الناس قد مزجت عهودهم وخربت أمانتهم » فقال قائل : فكيف بنا يا رسول الله ؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون ، وتقولون : أحد أحد ، انصرونا على من ظلمناوا كفنا من بغانا . وروى الحسن بن سفيان عن يحيى بن أيوب عن عبد الجبار بن وهب عن عبد الله السلمي عن شريح ، قال : حدثني البدر بن منبه عن عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل بشبابه طاعة الله تعالى إلا أعطاه الله تعالى أجرا ثنيين وسبعين صديقا ، ثم قال : يقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهورته من أجل ، المبتذل شبابه لي ، أنت عندى كعص ملائكتي » . وهذا حديث غريب .

وقال أبو داود : حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجوني عن قيس بن زيد - وقال أبو داود أو عن زيد بن قيس - عن قاضي المصريين شريح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن النبي (ص) قال : « إن الله تعالى يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول : يا ابن آدم فيم أضعت حقوق

الناس ؟ فيم أذهبت أموالهم ؟ فيقول : يارب لم أفسده ولكن أصبت إما غرقا وإما حرقا ، فيقول الله سبحانه أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فترجع حسناته على سيئاته فيؤمر به إلى الجنة . لفظ أبي داود ورواه يزيد بن هارون عن صدقة به وقال فيه : « فیدع الله بشئ فيضعه في ميزانه فيثقل » ورواه الطبراني من طريق أبي نعيم عن صدقة به ، ورواه الطبراني أيضا عن حفص بن عمر وأحمد ابن داود المسكي قالا : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا صدقة به ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

عبدالله بن محمد

الأشعري نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة وقيل إن له صحبة وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليمنه أهلها في الدين وكان من العباد الصالحين .

جنادة بن أمية الأزدي

شهد فتح مصر وكان أميراً على غزو البحر اماوية ، وكان موصوفا بالشجاعة والخير ، توفي بالشام وقد قارب الثمانين .

العلاء بن زياد البصري

كان من العباد الصالحين من أهل البصرة ، وكان كثير الخوف والورع ، وكان يعتزل في بيته ولا يخالط الناس ، وكان كثير البكاء ، لم يزل يبكي حتى عوى ، وله مناقب كثيرة ، توفي بالبصرة في هذه السنة . قلت : إنما كان معظم بكاء العلاء بن زياد بعد تلك الرؤيا التي رآها له رجل من أهل الشام أنه من أهل الجنة ، فقال له العلاء : أما أنت يا أخى فجزاك الله عن رؤياك لي خيراً ، وأما أنا فقد تركتني رؤياك لا أهدأ بليل ولا نهار ، وكان بعدها يطوى الأيام لا يأكل فيها شيئاً وبكى حتى كاد يفارق الدنيا ، ويصلى لا يفتر ، حتى جاء أخوه إلى الحسن البصري فقال : أدرك أخى فإنه قاتل نفسه ، يصوم لا يفطر ، ويقوم لا ينام ، ويبكى الليل والنهار لرؤيا رآها بعض الناس له أنه من أهل الجنة ، فجاء الحسن فطرق عليه بابه فلم يفتح ، فقال له : افتح فاني أنا الحسن ، فلما سمع صوت الحسن فتح له ، فقال له الحسن : يا أخى الجنة وما الجنة للمؤمن ، إن للمؤمن عند الله ما هو أفضل من الجنة ، فقاتل أنت نفسك ؟ فلم يزل به حتى أكل وشرب وقصر عما كان فيه قليلاً . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أتاه آت في مقامه فأخذ بناصيته وقال : يا غلام قم فاذكر الله يذكرك . فما زالت تلك الشرعات التي أخذ بها قائمة حتى مات ، وقد قيل : إنه كان يرفع له إلى الله كل يوم من العمل الصالح بقدر أعمال خلق كثير من الناس كما رأى ذلك بعض أصحابه في المنام . وقال العلاء : نحن قوم وضعنا أنفسنا في النار فإن شاء الله أن يخرجنا منها أخرجنا . وقال : كان رجل يراني بعمله فجعل يشمر ثيابه ويرفع صوته إذا قرأ ، فجعل لا يأتي على أحد إلا سببه ، ثم رزقه الله الإخلاص واليقين

نخفض من صوته وجعل صلاحه بينه وبين الله ، فجعل لا يأتي على أحد بعد ذلك إلا دعاه بخير
سراقة بن مرداس الازدي كان شاعراً مطبقاً ، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فتوفي بها
الناطقة الجعدي الشاعر . السائب بن يزيد الكندي ، توفي في هذه السنة . سفيان بن سلمة
الأسدي . معاوية بن قرّة البصري . زر بن حبیش .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفتنون من شدته ، ولم يفر فيها أحد من أهل الشام
اضعفهم وقتلهم ، ووصلت الروم فيها انطاكية فأصابوا خلقاً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة .
وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك حتى أوغل في بلاده ، ثم صالحه على مال يحمله
إليه في كل سنة ، وفيها قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المنبجي الكذاب ، ويقال له
الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي ، مولى أبي الجلاس العبدري ، ويقال مولى الحكم بن
مروان ، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعمد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقري على
عقبه ، وانسلخ من آيات الله تعالى ، وفارق حزب الله المفلحين ، واتبع الشيطان فكان من الغاوين
ولم يزل الشيطان يزج في قفاه حتى أخسر دينه ودنياه ، وأخزاه وأشقاه . فإنا لله وحسبنا الله ولا
حول ولا قوة إلا بالله

قال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا عبد الوهاب فجرة الجولي حدثنا محمد بن مبارك ثنا الوليد بن
مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال . كان الحارث الكذاب من أهل دمشق ، وكان مولى لأبي
الجلاس ، وكان له أب بالجولة ، فعرض له إبليس ، وكان رجلاً متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب
لرؤيت عليه الزهادة والعبادة ، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من
كلامه ، فكتب إلى أبيه وكان بالجولة : يا أبتاه أعجل على فاني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون
الشيطان قد عرض لي ، قال فزاده أبوه غيا على غيه ، فكتب إليه أبوه : يا بني أقبل على ما أمرت
به فان الله تعالى يقول [هل أنبشكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أنتم] واست بأفك
ولا أنتم ، فامض لما أمرت به ، وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلاً رجلاً فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم
المهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى وإلا كتم عليه .

قال : وكان يريهم الأعاجيب ، كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً
حتى يضح من ذلك الحاضرون . قلت : وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول
كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح ، وكان زنديقاً . قال ابن أبي خيثمة في روايته

وكان الحارث يطعمهم فأكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الملائكة ، فيخرج بهم إلى دير المراق فيريهم رجالا على خيل فيتبعه على ذلك بشر كثير ، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه ، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة ، يقال فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد إن هو رضى أمراً قبله ، وإن كرهه كتم عليه ، قال فقال له : إني نبي ، فقال القاسم : كذبت يا عدو الله ، ما أنت نبي ، وفي رواية ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ : « إن الساعة لا تقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي » وأنت أحدهم ولا عهد لك . ثم قام فخرج إلى أبي إدريس - وكان على القضاء بدمشق - فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس نعرفه ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك ، وفي رواية أخرى أن مكحولاً وعبد الله بن أبي زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذبا وردا عليه ما قال ، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره ، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً ، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس - يدعوا إلى نفسه سرّاً واهتم عبد الملك بشئائه حتى ركب إلى النصرية فنزلها فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو يبيح المقدس فأعلمه بأمره وأين هو ، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحناط عليه ، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل ويفعل ما يأمره به ، فلما وصل الرجل إلى النصرية بيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته ، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعة فإذا أمرهم بأشغالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره ، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث فقال لبوابه استأذن على نبي الله ، فقال : في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح ، فصاح النصرى بأسرجوا ، فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار ، وهم النصرى على الحارث فاختنى منه في سرب هناك فقال أصحابه هيهات يريدون أن يصلوا إلى نبي الله ، إنه قد رفع إلى السماء ، قال فأدخل النصرى يده في ذلك السرب فاذا بثوبه فاجتره فأخرجه ، ثم قال للفرعانيين من أتراك الخليفة قال فأخذوه ققيسوم ، فيقال إن القيود والجامعة سقطت من عنقه مواراً ويعيدونها ، وجعل يقول : [قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فما يوحى إلى ربي إنه سميع قريب] وقال لأولئك الأتراك [أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله] فقالوا له بلسانهم ولغتهم : هذا كراتنا فهات كراتك ، أي هذا قرآننا فهات قرآنك ، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلاً فطعنه بحربة فابتنشت في ضلع من أضلاعه ، فقال له عبد الملك : ويحك أذكرت اسم الله حين طعنته ؟ فقال : نسيت ، فقال : ويحك سم الله ثم اطعنه ، قال فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه ، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجلاً

من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذي به من الشيطان ، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك ، وهذا من تمام العدل والدين .

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثني من سمع الأعور يقول : سمعت العلاء بن زياد العدوي . يقول : ما غبطت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثاً حيث إن رسول الله ص . قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، فمن قاله فاقتلوه ، ومن قتل منهم أحداً فله الجنة » . وقال الوليد بن مسلم : بلغني أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال : ولم ؟ قال : إنه إنما كان به المذهب فلوجوعته لذهب ذلك عنه ، وقال الوليد عن المنذر بن نافع سمعت خالد بن الجلاح يقول لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم تأخذك في شببيتك ترا من النساء في شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثياً تحجب امرأته وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً . -

وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكر رتبيل ملك الترك الأعظم فيهم ، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى ، فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكر تأخذه بمن معه من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعهم وتقتل مقاتلتهم ، فخرج في جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ثم التقى مع رتبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة ، وجاس ابن أبي بكر وجنوده خلال ديارهم ، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره ، وتبر ما هنالك تبيراً ، ثم إن رتبيل تقهر منه وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى ، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً ، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً ، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك حتى ظن كل من المسلمين أنه لا محالة هالك ، فعند ذلك طاب عبيد الله أن يصلح رتبيل على أن يأخذ منه سبعمائة ألف ، ويفتحوا للمسلمين طريقاً يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم ، فالتدب شريح بن هانئ - وكان صحابياً ، وكان من أكبر أصحاب علي وهو المقدم على أهل الكوفة - فندب الناس إلى القتال والمضاربة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال ، فنهاه عبيد الله بن أبي بكر فلم يلبثه ، وأجابه شزيمة من الناس من الشجعان وأهل الحفاظ ، فما زال يقاتل بهم الترك حتى فنى أكثر المسلمين رضى الله عنهم ، قالوا وجعل شريح بن هانئ يرتجز ، ويقول :

أصبحت ذابث أقاصي الكبرا * قد عشت بين المشركين أعصرا
ثم أدركت النبي المنيرا * وبعته صديقه وعمرا
ويوم مهران ويوم تسرا * والجمع في صفينهم والنهرا
هتات ما أطول هذا عمرا

ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقتل معه خلق من أصحابه ، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكر من أرض رتبيل ، وهم قليل ، وبلغ ذلك الحجاج فأخذ ما تقدم وما تأخر ، وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستشير في بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه بسبب ما حل بالمسلمين في بلاده ، فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة على ذلك ، وأن يعجل ذلك سريعاً ، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش فجهز جيشاً كثيفاً لذلك على ماسياتي تفصيله في السنة الآتية بعدها . وقيل إنه قتل من المسلمين مع شريح بن هانئ ثلاثون ألفاً وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار وقاسوا شدائد ، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضاً ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقد قتل المسلمون من الترك خلقاً كثيراً أيضاً قتلوا أضعافهم ويقال إنه في هذه السنة استعفى شريح من القضاء فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة ابن أبي موسى الأشعري ، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته في السنة الماضية والله أعلم .

قال الواقدي وأبو معشر وغير واحد من أهل السير : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان أمير المدينة النبوية ، وفيها قتل قطري بن الفجاءة التميمي أبو نعمة الخارجي ، وكان من الشجعان المشاهير ، ويقال إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخلافة ، وقد جرت له خطوب وحروب مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره ، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً في أماكنه ، وتأن خروجه في زمن مصعب بن الزبير ، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها ، ووقائع مشهورة وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كبيرة فهزمها ، وقيل إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية وهو على فرس أعجف وبيده عمود حديد ، فلما قرب منه كشف قطري عن وجهه فملى الرجل هارباً فقال له قطري إلى أين ؟ أما تستحي أن تفر ولم برطمناً ولا ضرباً ؟ فقال إن الإنسان لا يستحي أن يفر من مثلك ، ثم إنه في آخر أمره توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش فاقتلوا بطبرستان ، فمثر بقطري فرسه فوقع إلى الأرض فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج ، وقيل إن الذي قتله سودة بن الحز الدارمي ، وكان قطري بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن ، فن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره ومن سمعها انتفع بها :

أقولُ لها وقد طارت شعاعا * من الأبطال ويحك لن تراعى
فانك لو طلبت بقاء يوم * على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً * فما نيل الخلود بمستطاعى
ولا ثوب الحياة بثوب عزيز * فيطوى عن أخي الخلع البراعى

سبيل الموت غاية كل حي • وداعبه لأهل الأرض داع
 فن لا يفتبط يسأم ويهرم • وتسله النون إلى انقطاعي
 وما للمرء خير في حياة • إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاع
 ذكرها صاحب الحماسة واستحسنها ابن خلكان كثيراً

وفيهما توفي عبيد الله بن أبي بكره رحمه الله وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك وقاتلوا
 رتبيل ملك الترك ، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هاني كما تقدم ذلك ، وقد دخل
 عبيد الله بن أبي بكره على الحجاج مرّة وفي يده خاتم فقال له الحجاج : وكم خنمت بخاتمك هذا ؟
 قال على أربعين ألف دينار ، قال فقيم أنفقتها ؟ قال : في اصطناع المعروف : ورد الملهوف
 والمكافأة بالصنائع وتزويج العقائل . وقيل إن عبيد الله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد
 فأعطاه ثلاثين ألفاً ، وقيل إنه أهدى إليه وصيفاً ووصيفة وهو جالس بين أصحابه فقال لبعض أصحابه
 خذها لك ، ثم فكر وقال : والله إن إشار بعض الجلوساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة ، ثم قال
 يا غلام ادفع إلى كل واحد من جلسائي وصيفاً ووصيفة ، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفاً ووصيفة .
 توفي عبيد الله بن أبي بكره ببست وقيل بخرخ والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، والحمد لله رب العالمين
 ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

ففيها كان السيل الحجاج بمكة لأنه حجف على كل شيء فذهب به ، وحمل الحجاج من بطن مكة
 الجمال بما عليها ، والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن يتقدم منه ، وبلغ الماء إلى الحجون ، وغرق
 خلق كثير ، وقيل إنه ارتفع حتى كاد أن يغطي البيت والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الواقدي أنه قال : كان بالبصرة في هذه السنة الطاعون ، والمشهور أنه كان
 في سنة تسع وستين كما تقدم . وفيها قطع المهلب بن أبي صفرة نهر ، وأقام بكش سنتين صابراً مصابراً
 للاعداء من الأتراك ، وجرت له معهم هناك فصول يطول ذكرها ، وقد عليه في غضون هذه المدة
 كتاب ابن الأشعث بخلعه الحجاج ، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ثم كان ماسياً في بيانه
 وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث ، وفي هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة
 وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكره في السنة
 الماضية ، فجهز أربعين ألفاً من كل من المصريين عشرين ألفاً ، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد
 ابن الأشعث مع أنه كان الحجاج ينفذه جنداً ، حتى قال مارأيته قط إلا هممت بقتله ، ودخل ابن
 الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عمار الشعبي فقال انظر إلى مشيته والله لقد هممت أن أضرب
 عنقه ، فأسرها الشعبي إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدت أن أزيله عن

سلطانه إن طال بي وبه البقاء . والمقصود أن الحجاج أخذ في استعراض هذه الجنود وبذل فيهم العطاء ثم اختلف رأيه فيمن يؤمر عليهم ، ثم وقع اختياره على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقدمه عليهم ، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج : إني أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراه ، فقال : ليس هو هنالك هو لي حبيب ، ومثي أذهب أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعتي ، فأرضاه عليهم ، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل ، فلما بلغ رتبيل جئى ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية ، وأنه كان لذلك كارها ، وأن المسلمين هم الذين ألجؤوه إلى قتالهم ، وسأل من ابن الأشعث أن يصلح له وأن يبذل المسلمين الخراج ، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك ، وصمم على دخول بلاده ، وجمع رتبيل جنوده وتبنيأ له ولحربه ، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له ، وجعل المشايخ على كل أرض ومكان مخوف ، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، وسبى خلقاً كثيرة ، ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد ، ويتقوا بما فيها من المغلات والحواصل ، ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يجوزون الأراضى والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده في مدينتهم مدينة العطاء على الكنوز والأموال والذرائى حتى يفتنوها ثم يقتلون مقاتلتهم ، وعزموا على ذلك ، وكان هذا هو رأى ، وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم ، وبهذا رأى الذى رآه لهم ، وقال بعضهم كان الحجاج قد وجه هيمان بن عدى السدوسى إلى كرما مساحاً لأهلها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك ، فمضى هيمان ومن معه على الحجاج ، فوجه الحجاج إليه ابن الأشعث فهزمه وأقام ابن الأشعث بمن معه ، ومات عبيد الله بن أبى بكرة فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بأمره سجستان مكان ابن أبى بكرة وجهز إلى ابن الأشعث جيشاً أنفق عليه ألفى ألف سوى أعطياتهم ، وكان يدعى هذا الجيش جيش الطواويس ، وأمره بالاقدام على رتبيل فكان من أمره معه ماتقدم .

قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، وقال غيرهما : بل حج بهم سليمان بن عبد الملك ، وكان على الصائفة في هذه السنة الوليد بن عبد الملك ، وعلى المدينة أبان بن عثمان ، وعلى المشرق بكاله الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبى موسى ، وعلى قضاء مصر موسى بن أنس بن مالك

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

اسلم مولى عمر بن الخطاب

وهو أبى زيد بن أسلم أصله من سبى عين النمر اشتراه عمر بمكة لما حج سنة إحدى عشرة ،

وتوفي وعمره مائة وأربع عشرة سنة ، وروى عن عمر عدة أحاديث ، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً وله مناقب كثيرة رحمه الله .

جبير بن نفير

ابن مالك الحضرمي له صحبة ورواية ، وكان من علماء أهل الشام وكان مشهوراً بالعبادة والعلم توفي بالشام وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل أكثر وقيل أقل .

عبدالله بن جعفر بن أبي طالب

ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عيسى ، وهو آخر من رأى النبي (ص) من بني هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة « أتى النبي (ص) إلى أمهم فقال : ائتوني ببني أخي ، فأتى بهم كأنهم أفرخ ، فدعا بالخلق فخلق رؤسهم ثم قال : اللهم اخلف جعفرآ في أهله وبارك لعبد الله في صمته ، فجاءت أمهم فذكرت للنبي (ص) أنه ليس لهم شيء ، فقال أنا لهم عوضاً من أبيهم » وقد بايع النبي (ص) عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين ، وهذا لم يتفق لغيرهما ، وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس ، يعطي الجزيل الكثير ويستقله ، وقد تصدق مرة بألف ألف ، وأعطى مرة رجلا ستين ألفاً ، ومرة أعطى رجلاً أربعة آلاف دينار ، وقيل إن رجلاً جلب مرة سكر إلى المدينة فكسده عليه فلم يشتره أحد فأمر ابن جعفر قيمه أن يشتريه وأن يهديه للناس . وقيل : إن معاوية لما حج ونزل في دار مروان قال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلانا - وعد جماعة - فخرج فلم ير أحداً ، فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فأتى معاوية فأخبره فقال : ما أنا إلا كأخدم ، ثم أخذ عصا فتوكل عليها ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل فأجلسه في صدر فراشه ، فقال له معاوية : أين غداؤك يا ابن جعفر ؟ فقال : وما تشتهي من شيء ؟ فأدعوه ؟ فقال معاوية : أطعمنا مخاً ، فقال يا غلام هات مخاً ، فأتى بصحيفة فأكل معاوية ، ثم قال ابن جعفر لغلّامه : هات مخاً ، فجاء بصحيفة أخرى ملاّنة مخاً إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات ، فتمجّب معاوية وقال : يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء ، فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار ، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم ، ويقضى له مائة حاجة . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد ، فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له : كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة ؟ قال ألف ألف . فقال له : قد أضعفتها لك ، وكان يعطيه ألفي ألف كل سنة ، فقال له عبد الملك بن جعفر : بأبي أنت وأمي ما قلتها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، فقال يزيد : ولا أعطاها أحد قبلي ولا يعطيكها أحد بعدى ، وقيل إنه كان عند ابن جعفر جارية تغنيه تسمى عمارة ، وكان يحبها محبة عظيمة ، فحضر عنده يزيد

ابن معاوية يوماً فغنت الجارية ، فلما سمعها يزيد افتتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منه ، فلم يزل في نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية ، فبعث يزيد رجلاً من أهل العراق وأمره أن يتطلع في أمر هذه الجارية ، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليه هدايا وتحفا كثيرة ، وأنس به ، ولا زال حتى أخذ الجارية وأتى يزيد . وكان الحسن البصري يذم ابن جعفر على سماعه الغنى والاهو وشرائه المولدات ، ويقول : أما يكفيه هذا الأمر القبيح المتلبس به من هذه الأشياء وغيرها ؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله (ص) ، وكان الحجاج يقول : إنما تزوجتها لأذل بها آل أبي طالب ، وقيل إنه لم يصل إليها ، وقد كتب عبد الملك إليه أن يطلقها فطلقها . أسند عبد الله ابن جعفر ثلاثة عشر حديثاً .

ابو ادريس الخولاني

اسمه عائد الله بن عبد الله ، له أحوال ومناقب ، كان يقول : قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دفس في ثياب نقية ، وقد تولى القضاء بدمشق ، وقد ذكرنا ترجمته في كتابنا التكميل .

معبد الجهني القدري

يقال إنه معبد بن عبد الله بن عليم ، راوى حديث : « لا تلتفتوا من الميتة باهاب ولا عصب » . وقيل غير ذلك في نسبه ، سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية وعمران بن حصين وغيرهم . وشهد يوم التحكيم ، وسأل أبا موسى في ذلك وصاه ثم اجتمع بعمر وبن العاص فوصاه في ذلك فقال له : أيها يا تيس جهنة ما أنت من أهل السر والملائمة ، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل . وهذا توهم فيه من عمرو بن العاص ، ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر ، ويقال إنه أخذ ذلك عن رجل من النصاري من أهل العراق يقال له سوس ، وأخذ غيلان القدر من معبد ، وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة ، ووثقه ابن معين وغيره في حديثه ، وقال الحسن البصري : إياكم ومعبد آفا ، ضال مضل ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فمات به الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله . وقال سميد بن عفير : بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله ، وقال خليفة بن خياط : مات قبل التسمين فآله أعلم ، وقيل إن الأقرب قتل عبد الملك له والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين

ففيها فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قاليقلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة ، وفيها قتل بكير بن وشاح ، قتله بجير بن ورقاء الصريمي ، وكان بكير من الأمراء الشجعان ، ثم نار ابكبير ابن وشاح رجل من قومه يقال له صمصعة بن حرب العوفي الصريمي ، فقتل بجير بن ورقاء الذي قتل بكيرا ، طعنه بخنجر وهو جالس عند الملب بن أبي صفرة فحمل إلى منزله وهو بأخر رمق ، فبعث

المهلب بصمصعة إليه ، فلما تمكن منه بجير بن ورقاء قال ضعوا رأسه عند رجلى ، فوضعه فطمنه بجير بحر بته حتى قتله ومات على إثره . وقد قال له أنس بن طارق : اعف عنه فقد قتلت مكير بن وشاح ، فقال : لا والله لا أموت وهذا حتى تم قتله وقد قيل إنه إنما قتل بعد موته فالله أعلم .

فتنة بن الأشعث

قال أبو مخنف : كان ابتداءؤها في هذه السنة ، وقال الواقدي : في سنة ثنتين وثمانين ، وقد ساقها ابن جرير في هذه السنة فوافقناه في ذلك ، وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج ينفذه وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه ، فلما أمره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره ، وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك ، ففضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك ، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقوا إلى العام المقبل ، فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرعه بالجن والنكول عن الحرب ، ويأمره حتما بدخول بلاد رتبيل ، ثم أردف ذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد ، وكتب في جملة ذلك يا ابن الخائنك الغادر المرتد ، امض إلى ما أمرتك به من الأيغال في أرض العدو وإلا حل بك مالا يطاق . وكان الحجاج ينفذ ابن الأشعث : ويقول هو أهوج أحق حسود ، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقتله ، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله ، وجده الأشعث ارتد عن الاسلام وما رأيته قط إلا همت بقتله ، ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك ، غضب ابن الأشعث وقال : يكتب إلى يمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته ؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزاة - يعني أن غزاة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة - ثم إن ابن الأشعث جمع رؤس أهل العراق وقال لهم : إن الحجاج قد ألح عليكم في الأيغال في بلاد العدو ، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد ، فانظروا في أمركم أما أنا فلمست خطيئته ولا أنقض رأيا رأيته بالأمس ، ثم قام فيهم خطيباً فاعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم ، وطلب في ذلك من إصلاح البلاد التي فتحوها ، وأن يقيموا بها حتى يتقوا بناتها وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسبغون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحبسروا رتبيل ملك الترك في مدينة الفناء ، ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعالجة رتبيل . فثار إليه الناس وقالوا : لا بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع . قال أبو مخنف . فحدثني مطرف بن عامر بن وائلة الكندي أن أباه كان أول من تكلم في ذلك ، وكان شاعراً خطيباً ، وكان مما قال : إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه أحمـل عبيدك على الفرس فان

هلك هلك ، وإن نجى فلك ، أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن هلكتم كنتم الأعداء
 البغضاء ، ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج - ولم يذكر خلع عبد الملك - وبايعوا الأمير عبد الرحمن
 ابن الأشعث فاني أشهدكم أني أول خالع للحجاج . فقال الناس من كل جانب : خلعنا عدو الله ،
 ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج ، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن
 مروان ، وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل
 أبداً . ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليقا تلّه ويأخذ منه
 العراق ، فلما توسطوا الطريق قالوا : إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان فخلعوهما وجددوا البيعة
 لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلق أئمة الضلالة وجهاد الملحدين ، فإذا قالوا نعم
 بايعهم . فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان ، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك
 ويستعجله في بعثه الجنود إليه ، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة ، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث ،
 وكتب إليه يدعوّه إلى ذلك فأبى عليه ، وبعث بكتابه إلى الحجاج ، وكتب المهلب إلى ابن
 الأشعث يقول له : إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل ، أبق على أمة محمد ،
 انظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ،
 فإن قلت أخاف الناس على نفسي فإله أحق أن تخافه من الناس ، فلا تعرضها لله في سفك الدماء ،
 أو استئصال محرم والسلام عليك . وكتب المهلب إلى الحجاج : أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا
 إليك مثل السيل المنحدر من علو ليس شيء يردّه حتى ينتهى إلى قراره ، وإن لأهل العراق شدة
 في أول مخرجهم ، ومباينة إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردّهم حتى يصلوا إلى أهلهم وينبسطوا
 إلى كصائهم ويشعروا أولادهم . ثم واقعهم عندها فان الله ناصرهم عليهم إن شاء الله . فلما قرأ الحجاج
 كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله مالى نظر ولكن لابن عمه نصيح . ولما وصل البريد بكتاب
 الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه
 كتاب الحجاج فقال : يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان نفعه ، وإن كان من
 قبل سجستان فلا تخفه ، ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج
 وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث ، وعصى رأى المهلب فيما أشار به عليه ، وكان في شوره النصيح
 والصدق ، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساءً ، أين
 نزل ومن أين ارتحل ، وأبى الناس إليه أسرع . وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل
 جانب ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل ، وخرج الحجاج
 في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث ، فنزل تسرو وقدم بين يديه مطهر بن حبي الكعبي

أميراً على المقدمة ، ومعه عبد الله بن زميت أميراً آخر ، فأتوا إلى دجيل فاذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي ، فالتقوا في يوم الأضحي عند نهر دجيل ، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة ، واحتاروا مافي معسكرهم من خيول وقماش وأموال . وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه وأخذته مآذب ودرج . وقد كان قائماً يخطب فقال : أيها الناس ارجعوا إلى البصرة فانه أرفق بالجنود : فرجع بالناس وتبعهم خيول ابن الأشعث لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه ، ولا فاذا إلا أهلكوه ، ومضى الحجاج هارباً لا يلوي على شيء حتى أتى الزاوية فمسك عندها وجعل يقول : لله در المهلب أي صاحب حرب هذا ، قد أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل ، وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مائة وخمسين ألف ألف درهم ، وخندق حول جيشه خندقاً ، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشتموا أولادهم ، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بهم وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : ليس الحجاج بشيء ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله ، ووافق على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب ، ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة فعمل ذلك ، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة من هذه السنة . وحج بالناس فيها إسحاق بن عيسى فيما ذكره الواقدي وأبو معشر والله سبحانه وتعالى أعلم . وفيها غزا موسى بن نصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلاد الاندلس فافتتح مدناً كثيرة ، وأراضى عامرة ، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الرقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط والله أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان بجير بن ورقاء الصريمي أحد الأشراف بخراسان ، والقواد والأمراء الذي حارب ابن خازم وقتله ، وقتل بكير بن وشاح ثم قتل في هذه السنة .

سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر

أبو أمية الجعفي الكوفي ، شهد اليرموك وحدث عن جماعة من الصحابة ، وكان من كبار المخضرمين ويقال إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده عام ولد النبي صلى الله عليه وسلم وصلى معه ، والصحيح أنه لم يره ، وقيل إنه ولد بعده بستين ، وعاش مائة وعشرين سنة لم يري يوماً محتلياً ولا متسانداً ، وافتض بكراً عام وفاته في سنة إحدى وثمانين ، قاله أبو عبيد وغير واحد ، وقيل إنه توفي في سنة ثنتين وثمانين والله أعلم .

عبد الله بن شداد ابن الهاد

كان من العباد الزهاد ، والعلماء ، وله وصايا وكلمات حسنة ، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة وعن خلق من التابعين .

محمد بن علي بن أبي طالب

أبو القاسم وأبو عبد الله أيضاً ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وكانت سوداء سنديّة من بني حنيفة اسمها خولة . ولد محمد في خلافة عمر بن الخطاب ، ووفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وقد صرع مروان يوم الجمل وقعد على صدره وأراد قتله فنأشده مروان بالله وتذال له فأطلقه ، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك فقال عفواً يا أمير المؤمنين فغنا عنه وأجرل له الجائزة ، وكان محمد ابن علي من سادات قریش ، ومن الشجعان المشهورين ، ومن الأقوياء المذكورين ، ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه ، فجرى بينهما شر عظيم حتى هم ابن الزبير به وبأهله كما تقدم ذلك ، فلما قتل ابن الزبير واستقر أمر عبد الملك وبايعه ابن عمر تابعه ابن الحنفية ، وقدم المدينة فمات بها في هذه السنة وقيل في التي قبلها أو في التي بعدها ، ودفن بالبقيع . والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى ، وأنه حي برزق ، وهم ينتظرونه ، وقد قال كثير عزة في ذلك

ألا إن الأئمة من قریش * ولاية الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بني * هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر * وسبط غيبتة كربلاء
وسبط لاتراه العين حتى * تعود الخيل يقدمها لواء

ولما هم ابن الزبير بابن الحنفية كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبي الطفيل وائلة بن الأسقع وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله ، وقد كان ابن الزبير جمع لهم خطبا كثيراً على أبوابهم ليحرقهم بالنار ، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار ، وقد كان المختار يدعو إليه ويسميه المهدي ، فبعث المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف فاستقنوا بني هاشم من يدى ابن الزبير . وخرج معهم ابن عباس فمات بالطائف وبقى ابن الحنفية في شيعته ، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه فخرج إلى أرض الشام بأصحابه وكانوا نحو سبعة آلاف ، فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك : إما أن تبايعني وإما أن تخرج من أرضي ، فكتب إليه ابن الحنفية : أبايكم على أن تؤمن أصحابي ، قال نعم فقام ابن الحنفية في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال : الحمد لله الذي حقن دماءكم وأحرز دينكم فمن أحب منكم أن يأتي مأمته إلى بلده محفوظاً فليفعل ، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقي في سبعمائة رجل ، فأحرم بصره وقلده هدياً وسار نحو مكة ، فلما أراد دخول الحرم بعث إليه ابن الزبير خيلاً فمنعه أن يدخل ، فأرسل إليه : إنما نأت الحرب ولا لقتال ، دعنا ندخل حتى نقضى نسكتانم فخرج عنك ، فأبى عليه وكان معه بدن قد قلدها فرجع إلى المدينة فأقام بها محرماً حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير ، فكان ابن الحنفية في تلك المدة محرماً ، فلما سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة وقضى نسكه

وذلك بعد عدة سنين ، وكان القمل يتناثر منه في تلك المدة كلها ، فلما قضى سكه رجع إلى المدينة أقام بها حتى مات ، وقيل إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية : قد قتل عدو الله فبايع ، فكتب إليه إذا بايع الناس كلهم بايعت ، فقال الحجاج : والله لا قتلنك ، فقال ابن الحنفية : إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ، في كل نظرة ثلاثمائة وستون قضية ، فلمل الله تعالى أن يجعلني في قضية منها فيكفيليك . فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك فأعجبه قوله وكذب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف فارق به فهو يأتيك ويبايعك ، وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - إن لله ثلاثمائة وستين نظرة - إلى ملك الروم ، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يهدده بمجموع من الجنود لا يطيقها أحد ، فكتب بكلام ابن الحنفية فقال ملك الروم : إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك ، وإنما خرج من بيت نبوة ، ولما اجتمع الناس علىبيعة عبد الملك قال ابن عمر لابن الحنفية : ما بقي شيء فبايع ، فكتب بيعة إلى عبد الملك ووفد عليه بعد ذلك . توفي ابن الحنفية في الحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة ، وكان له من الولد عبد الله وحمة وعلي وجعفر الأكبر والحسن وإبراهيم والقاسم وعبد الرحمن وجعفر الأصغر وعون ورقية ، وكلهم لأمهات شتى . وقال الزبير بن بكار : كانت شيعته تزعم أنه لم يميت وفيه يقول السيد :

ألا قلِّ للوصي فدتك نفسي • أطلت بذلك الجبل المقاما
أضرب • بعشر والوك منا • ومحوك الخليفة والاماما
وعادوا فيك أهل الأرض طراً • مقامك فيهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت • ولا وارث له أرض عظاما
لقد أمسى بمورق شعب رضوى • تراجع الملائكة الكلاما
وإنَّ له بهر لقليل صدق • وأندية تحبته كراما
هدانا الله ادخرتم لأمير • بهر عليه يلتبس الثماما
تمام نورة المهدي حتى • تروا راياته ترى نظاما

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه في آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكري ، الذي يخرج في زعمهم من سرداب سامرا ، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم ونزواتهم ، وسنزيد ذلك وضوحا في موضعه وإن شاء الله .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

وفي الحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج في آخره ، وكان أول يوم لأهل امراق على أهل الشام ، ثم توافقوا يوما آخر لحمل سفيان بن البرد أحد أمراء أهل الشام على

مدينة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقا كثيرا من القراء من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم ، وخر الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثى على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول : ما كان أكرم محق صبر نفسه للقتل ، وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث أبو الطفيل بن عامر بن وائلة الليثي ، ولما فر أصحاب ابن الأشعث رجيع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن تبعه من أهل البصرة ، فسار حتى دخل الكوفة فعمد أهل البصرة إلى عبيد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبيد المطلب فبايعوه ، فقاتل الحجاج خمس ليال أشد القتال ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة ، فاستناب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم ابن أبي عقيل ، ودخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبيد الملك بن مروان ، وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال ، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع .

قال الواقدي : ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة ، فقال القراء - وكان عليهم جبلة بن زحر - : أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم . وقال سعيد بن جبيرة نحو ذلك ، وقال الشعبي : قاتلهم على جورهم واستذلهم الضملاء وإماتهم الصلاة ، ثم حملت القراء - وهم العلماء - على جيش الحجاج حملة صادقة فبرعوا فيهم ثم رجموا فاذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعا ، فهدم ذلك فناداهم جيش الحجاج يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم ، ثم حمل سفيان بن الأبرد وهو على خيل الحجاج على ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن مرة النخعي ، فانهزموا ولم يقاتلوا . كثير قتال ، فأنكر الناس منهم ذلك : وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبرد شجاعاً لا يفر ، وظنوا أنه قد خامر ، فنقضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً ، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال ، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة فبايعه أهلها ، ثم كانت وقعة دبر الحجاج في شعبان من هذه السنة .

وقعة دبر الحجاج

قال الواقدي : وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه ، غير أن شزيمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم من ذلك ، فعدلوا إلى القصر ، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلام فنصب على قصر الامارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله فقال له : استبقني فاني خير من فرسانك ، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة ، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبيد المطلب ، وأمر بالمسالح من كل جانب ، وحفظت

الثغور والطرق والمسالك . ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة في البر حتى مر بين القادسية والعذيب وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من المصريين فنشعوا الحجاج من دخول القادسية ، فسار الحجاج حتى نزل دير قره ، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجاجم ، ومنعه جنود كثيرة ، وفيهم القراء وخلق من الصالحين ، وكان الحجاج بعد ذلك يقول : قاتل الله ابن الأشعث ، أما كان يزجر الطير حيث رآني قد نزلت دير قره ، ونزل هو بدير الجاجم . وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ المعطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام ، وخذق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمنع به من الوصول إليهم ، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً في كل حين ، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قریش وغيرهم ، واستمر هذا الحال مدة طويلة ، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له : إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دماهم ، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ومعهما جنود كثيرة جداً ، وكتب إليهم ما كتب إليهم من أهل العراق يقول لهم : إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلة عنكم ، وبعثت عليكم أعطيائكم مثل أهل الشام ، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان ، وقال في عهده هذا : فإن لم يحب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج ونحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره .

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأي عنده ، وكتب إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تروى سمع يوثب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يفلح ، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك .

قال : فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر ، فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله : يا معشر أهل العراق ، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت ، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال ، وقال محمد بن مروان : وأنا رسول

أحى أمير المؤمنين إليكم بذلك ، فقالوا : ننظر في أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية ، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج ، فنهز الناس من كل جانب وقالوا : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعدداً ، وهم في ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا ، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً . ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية ، واتفقوا على ذلك كله .

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن الحنفية خبراً قالاً للحجاج : شأنك بهم إذا ، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين ، فكأننا إذا لقيناه سلمنا عليه بالأمرة ويسلم هو أيضاً عليهم بالأمرة ، وتولى الحجاج أمر الحرب وتذبيرها كما كان قبل ذلك ، فبعد ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب ، فجعل الحجاج على يمينه عبد الرحمن بن سليمان ، وعلى يسارته عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى الخليل سميدان بن الأبرد وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحسكي . وجعل ابن الأشعث على يمينه الحجاج بن حارثة الجشمي ، وعلى اليسرة الأبرد بن قرة التميمي ، وعلى الخيالة عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة ، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجمعي ، وكان فيهم سميد بن جبير وعامر الشمي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكيل بن زياد . وكان سحاعاً فانسكا على كبر سنه . وأبو المحنري الطائي وغيرهم ، وحملوا يقتتلون في كل يوم ، ويهل العراق نائهم الميرة من الرساتمق والأقاليم ، من الملك والطعام ، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم في أصح حال من العيش ، وقلة من الطعام ، وقد فقدوا اللحم بالسكية فلا يجدونه ، وما زالت الحرب في هذه المدة كلها حتى انسحبت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام . وقد قتل من أصحاب الحجاج ريان بن غنم ، وكسر بسطام بن مصقلة في أرمه آلاف جفون سيوفهم واسنقنلوا وكانوا من أصحاب ابن الأشعث . وفي هذه السنة كانت وفاة المهلب بن أبي صفرة ، وهو المهلب بن أبي صفرة ظالم أبو سميد الأزدي أحد أشرف أهل البصرة وجوهرهم ودهاتهم وأجوادهم وكرماهم ، ولد عام الفتح ، وكانوا ينزلون بها بين عجمان والبحرين ، وقدارتد فومهم فقاتلهم عكرمة بن أبي جهل فظفر بهم ، وبعثهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث ، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا في أيام معاوية أرض الهند ستة أربع وأربعين ، وولى الجزيرة لابن الزبير ستة ثمان وسنين ، ثم ولى حرب الخوارج أول دولة الحجاج ، وقتل منهم في وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة ، فعظمت منزلته عند الحجاج . وكان فاصلاً شجاعاً كريماً يحب المدح ، وله كلام حسن ، فنه : نعم الخصلة السخاء تستر عمة الشريف

وتلاحق خسيصة الوضيع ، ونحبب المزهود فيه . وقال : يعجبني في الرجل خصلتان أن أرى عقله زائداً على لسانه ، ولا أرى لسانه زائداً على عقله

توفي المهلب غازياً بمرو الروذ وعمره سنة وسبعون سنة رحمه الله . وكان له عشرة من الولد وهم : يزيد ، وزباد ، والمفضل ، ومدرک ، وحبيب ، والمغيرة ، وقبيصة ، ومحمد ، وهند ، وفاطمة . توفي المهلب في ذي الحجة منها ، وكان من الشجيمان وله مواقف حميدة ، وغزوات مشهورة في الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج ، وجعل الأمر من بعده يزيد بن المهلب على إمرة خراسان فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان

اسماء بن خارجة الفزاري الكوفي

وكان جواداً ممدحاً ، حكى أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال : حاجة لا أستطيع ذكرها ، فألح عليه فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبي معها ، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حتى مرت تلك الجارية فقال : هذه ، فقال له : اخرج فاجلس على الباب مكانك ، فخرج الشاب فجلس مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلى ، وقال له : مانعنى أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختي ، وكانت ضئيلة بها ، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف ، وألبستها هذا الحلى ، فهي لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف .

المغيرة بن المهلب

ابن أبي صفرة ، كان جواداً ممدحاً شجاعاً ، له مواقف مشهورة .

الحارث بن عبدالله

ابن ربيعة الخزومي المروفي بقباع ، ولي إمرة البصرة لابن الزبير .

محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة

كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم ، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع .

عبدالله بن أبي طلحة بن أبي الأسود

والد الفقيه إسحاق حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها فأصبح أبو طلحة فأخبر النبي (ص) ،

فقال (ص) : « عرسكم بارك الله لكم في ليلتكما » . ولما ولد حنكه بتمرات .

عبد الله بن كعب بن مالك

كان قائد كعب حين عمى ، له روايات ، توفي بالمدينة هذه السنة .

عنان بن وهب

أبو أيمن الخولاني المصري له صحبة ورواية ، وغزا المغرب ، وسكن مصر وبها مات .

جميل بن عبدالله

ابن معمر بن صباح بن ظبيان بن الحسن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبيد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سرهد بن أسلم بن الحاف بن قضاة . أبو عمرو الشاعر صاحب بئينة ، كان قد خطبها فنعت منه ، فتغزل فيها واشتهر بها ، وكان أحد عشاق العرب ، كانت إقامته بوادي القرى ، وكان عفيفاً حياً ديناً شاعراً إسلامياً ، من أفصح الشعراء في زمانه ، وكان كثير عزة راويته ، وهو يروي عن هذبة بن خنم عن الحطيئة عن زهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، قال كثير عزة كان جميل أشعر العرب حيث يقول : -

وأخبرت عني أن تباء منزل * لليل إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت * فإلنوى ترمي بليلي المراسيا
ومنها قوله وما زلت بي يابئن حتى لو أني * من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
وما زادني الواشون إلا صباة * ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وما أحدث النأي الفرق بيننا * سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أني * أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن ألقى المنية بفتة * وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وله أيضا إني لأحفظ غيبكم ويسرني * لو تعلمين بصلح أن تذكرني
إلى أن قال ما أنت والوعد الذي تعدلني * إلا كبرق سمجاة لم تمطر
وقوله وروى لعمرو : ما زلت ابني الحى أتبع فلهم * حتى دفنت إلى ربيعة هودج
ابن أبي ربيعة . فدنوت مخفياً ألم بيتها * حتى ولجت إلى خفي الموج
فيما نقله ابن عساكر قالت وعيش أخى ونعمة والدى * لأنهن الحى إن لم تخرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه * بمخضب الاطراف غير مشنج
فخرجت خيفة أهلها فتيسمت * فقلت أن يمينها لم تخرج
فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها * فرشفت ريقاً بارداً مثلج

قال كثير عزة : لقيني جميل بئينة فقال : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند هذه الحبيبة ، فقال
وإلى أين ؟ قلت : وإلى هذه الحبيبة - - - - - . قال : أقسمت عليك لما رجعت إلى بئينة
فواعدتها لي فإن لي من أول الصيف ما رأيتهما ، وكان آخر عهدي بها بوادي القرى ، وهي نفسى

وأما ثوباً فتعاهدنا إلى الغروب ، قال كثير : فرجعت حتى أنخت بهم . فقال أبو بئينة : ما ردك يا ابن أخي ؟ قلت : أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك . فقال : وما هي ؟ فأنشدته وبئينة تسمع من وراء الحجاب : -

فقلت لها يا عزُّ أرسل صاحبي * إليك رسولاً والرسول موكلُ

أن تجعل بي وبينك موعداً * وأن تأمريني ما الذي فيه أفلُ

وآخر عهدي منك يوم لقيتني * بأسفل وادي الدوم والثوب يفسلُ

فلما كان الليل أقبلت بئينة إلى المكان الذي واعدته إليه ، وجاء جميل وكنت معهم فسا رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادات ، وانفض ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له : ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ، ولم يزن قط ، ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ، فن هذا ؟ قال : أنا ، قلت الله : ما أظنك سلمت وأنت تشبب بالنساء منذ عشرين سنة ، ببئينة . فقال : لا تالني شفاعة محمد (س) ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريئة ، قال : فسا برحنا حتى مات . قلت : كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبيد العزيز بن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بئينة فقال : شديداً ، واستنشدته من أشعاره ومدائح فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبينها فماجنته المنية في سنة ثنتين وثمانين رحمه الله آمين .

وقد ذكر الأصمعي عن رجل أن جميلاً قال له : هل أنت مبلغ عني رسالة إلى حي بئينة ولك ما عندي ؟ قال نعم ! قال : إذا أنامت فاركب ناقى والبس حلقى هذه وأمره أن يقول أبياتاً منها قوله قومي بُئِينَةُ فَأَنْدِي بِعَوِيلٍ * وَأَبْكِي خَلِيلًا دُونَ كُلِّ خَلِيلٍ

فلما انتهى إلى حيهم أنشد الأبيات فخرجت بئينة كأنها بدرسرى في جنة وهي تقثنى في مرطها فقالت له : ويحك إن كنت صادقاً فقد قتلتنى ، وإن كنت كاذباً فقد فضحتنى . فقلت : بلى والله صادق وهذه حلته وناقته ، فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتاً ترثيه بها وتتأسف عليه فيها ، وأنه لا يطيب لها العيش بعده ، ولا خير لها في الحياة بعد فقده ، ثم ماتت من ساعتها : قال الرجل : فما رأيت أكثر باكياً ولا باكياً من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق : لو تركت الشعر وحفظت القرآن ؟ فقال : هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله (س) ، أنه قال : « إن من الشعر لحكمة »

عمر بن عبيد الله

ابن عمر بن عثمان أبو حفص القرشي التيمي أحد الأجراد والأمرأه الأبحاد ، فتحت على يديه بلدان كثيرة ، وكان نائبا لابن الزبير على البصرة ، وقد فتح كابل مع عبيد الله بن خازم ، وهو الذي قتل قطري بن الفجاءة ، روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما ، وعن عطاء بن أبي رباح ، وابن عون ، ووفد على عبد الملك فتوفى بدمشق سنة ثنتين وثمانين . قاله المدائني . وحكى أن رجلا اشترى جاريه كانت تحسن القرآن والشعر وغيره فأحبها حبا شديداً وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ولم يبق له شيء سوى هذه الجارية ، فقالت له الجارية : قد أرى مابك من قلة الشيء . فلو بعته وانتفعت بشيء صلح حالك ، فباعها لعمر بن عبيد الله هذا - وهو يومئذ أمير البصرة - بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية ، فأشارت تخاطب سيدها بأبيات شعر وهي : -

هنيئاً لك المال الذي قد أخذته * ولم يبق في كفي إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب عيشة * أقل فقد بان الخليط أو كثر
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلة * ولم تجدي بداً من الصبر فاصبري
فأجابها سيدها فقال : -

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن * لفرقتنا شيء سوى الموت فاصبري
أوبى بحزن من فراقك موجع * أناجي به قلباً طويلاً التذكر
عليك سلام لا زيارة بيننا * ولا وصل إلا أن يشاء ابن عمر

فلما سمعها ابن عمر قد شببت قال : والله لا فرقت بين محبين أبداً ، ثم أعطاه المال - وهو مائة ألف - والجارية لما رأى من توجعها على فراق كل منهما صاحبه ، فأخذ الرجل الجارية ونمها وانطلق . توفي عمر بن عبيد الله بن عمر هذا بدمشق بالطاعون ، وصلى عليه عبد الملك بن مروان ، ومشى في جنازته وحضر دفنه وأثنى عليه بعد موته ، وكان له من الولد طلحة وهو من سادات قرش تزوج فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر على صداق أربعين ألف دينار ، فأولدها إبراهيم ورمة ، فتزوج رمة إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس على صداق مائة ألف دينار رحمهم الله .

كسيلة بن زياد

ابن نهيك بن خيثم النخعي الكوفي . روى عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي هريرة . وشهد مع علي صفين ، وكان شجاعاً فاتكاً ، وزاهداً عبداً ، قتله الحجاج في هذه السنة ، وقد عاش مائة سنة قتله صبراً بين يديه ، وإنما نقم عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمه لطمها إياه . فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه ، فقال له الحجاج : أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين التصاص ؟

ثم أمر فضربت عنقه ، قالوا: وذكروا الحجاج علياً في غبون ذلك فقال منه وصلى عليه كميل ، فقال له الحجاج : والله لأبعثن إليك من يبغض علياً أكثر مما نحببه أنت ، فأرسل إليه ابن آدم ، وكان من أهل حمص ، ويقال أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه ، وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله «القلوب أوعية نغيرها أوعاها» وهو طويل قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات وفيه مواعظ وكلام حسن رضى الله عن قائله .

ذاذان ابو عمرو الكندي

أحد التابعين كان أولاً يشرب المسكر ويضرب بالطنبور ، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله ابن مسعود وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق ، وخشية شديدة ، حتى كان في الصلاة كأنه خشية . قال خائفة : وفيها توفي زر بن جبيش أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة ، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة . وقال أبو عبيد : مات سنة إحدى وثمانين ، وقد تقدمت له ترجمة (شقيق بن سلمة) أبو وائل ، أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين ، وأسلم في حياة النبي (ص) .

ام الدرداء الصغرى

اسمها هجيمة ويقال جهيمة تابعة عابدة عالمة فقيهة كان الرجال يقرؤن عليها ويتفقون في الحائط الشمالى بجامع دمشق ، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها مع المتفقهة يشغل عليها وهو خليفة ، رضى الله عنها .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متواتفون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة ، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجاجم ، والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة ، وفي غالب الأيام تكون النصر لأهل العراق على أهل الشام ، حتى قيل إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم ، ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزعزع عن موضعه الذى هو فيه ، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عنوة ، وكان له خبرة بالحرب ، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء ، لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم ، فصهر القراء لحملة جيشه ، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم ، وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه ، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فل قليل من الناس ، فأتبعه الحجاج جيشاً كثيفاً مع عمارة بن غنم اللخمي ومعه محمد بن الحجاج والامرة اعمارة ، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلمهم يظفرون به قتلاً أو أسراً ، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم

والسكور والرساتيق ، وهم في أثره حتى وصل إلى كرمان ، واتبعه الشاميون فقتلوا في قصر كان فيه أهل العراق قبلهم ، فاذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فروا منه من شعر أبي خلدة اليشكري يقول :

أيا كلفاً ويا حزنًا جميعاً * ويا حرَّ الفؤادِ لما لقينا
تركنا الدينَ والدنيا جميعاً * وأسلمنا الحلائلَ والبئينا
فما كنا أناساً أهلَ دنيا * فنبهنا ولولم نرجُ دنيا
تركنا دُورنا لظنمِ عكٍّ * وأنبأ القُرى والأشعرينا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك ، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمنه وعظمه

قال الواقدي : ومرة ابن الأشعث وهو ذاهب إلى بلاد رتبيل على عامل له في بعض المدن كان ابن الأشعث قد استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق ، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا وأنزله ، فعل ذلك خديعة به ومكرا ، وقال له : ادخل إلى عندي إلى البلد لتحصن بها من عدوك ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة ، فأجابه إلى ذلك ، وإنما أراد المكر به ، فنهه أصحابه فلم يقبل منهم ، ففترق عنه أصحابه ، فلما دخل المدينة وثب عليه العامل فسكه وأوثقه بالحديد وأراد أن يتخذ به يداً عند الحجاج ، وقد كان الملك رتبيل سر بقدوم ابن الأشعث ، فلما بلغه ما حدث له من جهة ذلك العامل بمدينة بست ، سار حتى أحاط ببست ، وأرسل إلى عاملها يقول له : والله لئن آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستنزلك وأقتل جميع من في بلدك ، نغافه ذلك العامل وسير إليه ابن الأشعث فأكرمه رتبيل ، فقال ابن الأشعث لرتبيل : إن هذا العامل كان عاملي ومن جهتي ، ففدري بي وفعل مارأيت ، فأذن لي في قتله ، فقال : قد أمنتك . وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش ابن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هو الذي يصلي بالناس هناك في بلاد رتبيل ، ثم إن جماعة من الفل الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه - وهم قريب من ستين ألفاً - فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رتبيل فتغلبوا على سجستان وعذبوا عاملها عبد الله بن عمر النعمان وإخوته وقرابته ، واستحوذوا على ما فيها من الأموال ، وانتشروا في تلك البلاد وأخذوها ، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث : أن اخرج إلينا حتى نكون معك نتصرك على من يخالفك ، وتأخذ بلاد خراسان ، فإن بها جنداً ومنعة كثيرة منا ، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، ففري بعد ذلك رأينا. فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلاً إلى نحو خراسان فاعتزله شزيمة من أهل العراق مع عبيد الله بن سمرة ، فقام فيهم ابن الأشعث

خطيباً فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب ، وقال : لا حاجة لي بكم ، وأنا ذاهب إلى صاحبي رتبيل فأكون عنده . ثم انصرف عنهم وتبعه طائفة منهم وبقي معظم الجيش . فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة الهاشمي ، وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، فنعهم من دخول بلاده ، وكتب إلى عبد الرحمن بن عياش يقول له : إن في البلاد متسعاً فاذهب إلى أرض ليس بها سلطان فاني أكره قتالك ، وإن كنت تريد مالا بعثت إليك . فقال له : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب وليست بنا حاجة إلى شيء مما عرضت . ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خراسان ، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضل في جيوش كثيفة ، فلما صادفهم اقتتلوا غير كثير ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عياش ، وقتل يزيد منهم مقتلة كبيرة ، واحتار ما في معسكره ، وبعث بالأسارى وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص إلى الحجاج ، ويقال إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب : أسألك بدعوة أبي لا ييك لما أطلقتني ، فأطلقه .

قال ابن جرير : ولهذا الكلام خبر فيه طول ، ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعناعن بعضهم ، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث نادى مناديه في الناس : من رجع فهو آمن ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالرى فهو آمن ، فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأمهم الحجاج ، ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبيرة على ماسياتي بيانه

وكان الشعبي من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة فذكره الحجاج يوماً فقتل له . إنه سار إلى مسلم بن قتيبة ، فكتب إلى مسلم : أن ابعث لي بالشعبي قال الشعبي : فلما دخلت عليه سلمت عليه بالأمرة ثم قلت : أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وإيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق كائناً في ذلك ما كان ، قد والله تمردنا عليك ، وخرجنا وجهداً كل الجهد فما ألونا ، فما كننا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت إليك أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فلك الحجة علينا . فقال الحجاج : أنت والله يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبي . قال : فانصرفت فلما مشيت قليلاً قال : هلم يا شعبي ، قال : فوجل لذلك قلبي ، ثم ذكرت قوله قد أمنت يا شعبي فاطمأنت نفسي ، فقال : كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي ؟ قال : وكان لي مكرماً قبل الخروج عليه . فقلت : أصلح الله الأمير ، قد اكتحلست بعسك السهر ، واستوغرت السهل ، واستوخت الجناب ، واستحلست الخوف ، واستحللت الهم ،

وفقدت صالح الاخوان ، ولم أجده من الأمير خلفا . قال انصرف ياشعبي ، فانصرفت . ذكر ذلك ابن جرير وغيره . ورواه أبو مخنف عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن الشعبي .

وروى البيهقي أنه سأل عن مسألة في الفرائض وهي أم زوج وأخت وما كان يقوله فيها الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ، وكان لكل منهم قول فيها ، فنقل ذلك كله الشعبي في ساعة فاستحسن قول علي وحكم بقول عثمان ، وأطلق الشعبي بسبب ذلك . وقيل إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير من سيرهم إليه يزيد بن المهلب كما تقدم ذلك ، ثم سار إلى الكوفة فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال : أشهد على نفسك أنك قد كفرت ، فإذا قال نعم بآيمه ، وإن أبي قتله ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبي أن يشهد على نفسه بالكفر ، قال فأتى برجل فقال الحجاج : ما أظن هذا يشهد على نفسه بالكفر لصلاحه ودينه . وأراد الحجاج مخادعته . فقال : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون وهامان ونمرود . قال : فضحك الحجاج وخلي سبيله .

وذكر ابن جرير من طريق أبي مخنف أن أعشى همدان أتى به إلى الحجاج . وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج وعبد الملك بن مروان ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه . فاستنشدته إياها فأنشده قصيدة طويلة دالية ، فيها مدح كثير لعبد الملك وأهل بيته ، فجعل أهل الشام يقولون : قد أحسن أيها الأمير ، فقال الحجاج : إنه لم يحسن ، إنما يقول هذا مصانعة ، ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى ، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه . واسم الأعشى هذا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث أبو المصباح الهمداني الكوفي الشاعر ، أحد الفصحاء البلغاء المشهورين ، وقد كان له فضل وعبادة في مبتداه ، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعرف به ، وقد وفد على النعمان بن بشير وهو أمير بجمص فامتدحه ، وكان محصوله في رحلته إليه منه ومن جند حصص أربعين ألف دينار ، وكان زوج أخت الشعبي ، كما أن الشعبي كان زوج أخته أيضاً ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث ، فقتله الحجاج كما ذكرنا رحمه الله .

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث بمثل كميناً يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه ، ثم توافف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره ، فجاء ابن الأشعث فاحتاز مافي المعسكر وبات فيه ، فجاءت السرية إليهم ليلاً وقد وضعوا أسلحتهم فقالوا عليهم ليلة واحدة ، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتلوا قتلاً شديداً ، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير وغرق خلق كثير منهم في دجلة ودجيل ، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه ، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف ، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان ، واحتازوه بكاله ، وانطلق ابن الأشعث هارباً في ثلاثمائة فركبوا دجيلاً في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ، ثم ساروا من هنالك

إلى بلاد الترك، وكان في دخوله بلاد رتبيل ما تقدم، ثم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً ألفاً وثلاثين ألفاً، قاله النضر ابن شميل عن هشام بن حسان، منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات الأخيار، والعلماء الأبرار، حتى كان آخرهم سميد بن جبير رحمهم الله ورضى عنهم كما سيأتى ذلك في موضعه.

بناء واسط

قال ابن جرير: وفي هذه السنة بنى الحجاج واسط، وكان سبب بنائه لها أنه رأى راهباً على أنان قد أجاز دجلة، فلما مر بموضع واسط وقفت أمانه فبالت، فقتل عنها وعمد إلى موضع بولها فاحتفره ورمى به في دجلة، فقال الحجاج: على به، فأتى به فقال له: لم صنعت هذا؟ قال: إنا نجد في كتبنا أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه مادام في الأرض أحد يوحده. فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط في ذلك المكان وبني المسجد في ذلك الموضع. وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية. ومن توفى فيها من الأعيان:

عبد الرحمن بن جحيرة

الخلواتى المصرى، روى عن جماعة من الصحابة وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصاص وبيت المال، وكان رزقه في العام ألف دينار، وكان لا يدخر منها شيئاً.

طارق بن شهاب

ابن عبد شمس الأحسى ممن رأى النبی صلى الله عليه وسلم وغزا في خلافة الصديق وعمر رضى الله عنهما بضعا وأربعين غزاة، توفى بالمدينة هذه السنة.

عبيد الله بن عدي

ابن أنخيار أدرك النبی صلى الله عليه وسلم، وحدث عن جماعة من الصحابة عبد الله بن قيس بن مخزومة، كان قاضى المدينة. وكان من فقهاء قريش وعلمائهم وأبوه عدى ممن قتل يوم بدر كافراً وتوفى بها في هذه السنة مرثد بن عبد الله أبو الخير البزنى. وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث، منهم من هرب ومنهم من قتل في المعركة، ومنهم من أمر ف ضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله، وقد سمي منهم خليفة بن خياط طائفة من الأعيان، فمنهم مسلم بن يسار المزنى، وأبو مرانة العجلي قتل، وعقبة بن عبد الغفار قتل، وعقبة بن وشاح قتل، وعبد الله بن خالد الجهضمي قتل، وأبو الجوزاء الربيعي قتل، والنضر بن أنس، وعمران والد أبي حمزة الضبى، وأبو المتهال سيار بن سلامة الرياحى، ومالك بن دينار، ومرة بن ذباب الهدادى وأبو نعيم الجهضمي، وأبو سبيح الهنائى، وسعيد بن أبي الحسن، وأخوه الحسن البصرى قال أيوب:

قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هو دج غائشة يوم الجمل فأخرج الحسن مملك ، فأخرج به . ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد ، والشعبي ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، والمروزي بن سويد ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وأبو البختري ، وطلحة بن مصرف ، وزبيد بن الحارث الياثري ، وعطاء بن السائب . قال أيوب : فما منهم صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجأ أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه . ومن أعيان من قتل الحجاج عمران بن عصام الضبي ، والد أبي حمزة ، كان من علماء أهل البصرة ، وكان صالحاً عابداً ، أتى به أسيراً إلى الحجاج فقال له : أشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك ، فقال : والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به ، فأمر به فضربت عنقه . عبد الرحمن بن أبي ليلى ، روى عن جماعة من الصحابة ، ولأبيه أبي ليلى محبة ، أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب ، خرج مع ابن الأشعث فأتى به الحجاج فضرب عنقه بين يديه صبراً .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

قال الواقدي : فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك المصيصي ، وفيها غزا محمد بن مروان ارمينية فقتل منهم خلقاً وصرف كنائسهم وضياعهم وتسمى سبينة الحريق ، وفيها استعمل الحجاج على فارس محمد بن القاسم الثقفي ، وأمره بقتل الأكراد . وفيها ولي عبد الملك الأسكندرية عياض بن غنم البجلي وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود الذي كان قد وليها في العام الماضي . وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب من ذلك بلد أرومة ، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً ، وأسر نحواً من خمسين ألفاً . وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من أصحاب ابن الأشعث ، منهم :

أيوب بن القرية

وكان فصيحاً بليغاً واعظاً ، قتله صبراً بين يديه ، ويقال إنه ندم على قتله . وهو أيوب بن زيد ابن قيس أبو سليمان الهلالي المعروف بابن القرية . وعبد الله بن الحارث بن توفل . وسعد بن إلياس الشيباني ، وأبو غنيم الخولاني . له محبة ورواية ، سكن حمص وبها توفي وقد قارب المائة سنة . عبد الله بن قتادة ، وغير هؤلاء جماعة منهم من قتلهم الحجاج ، ومنهم من توفي . أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، كان ذا منزلة عند أهل الشام ، تخاف منه معاوية ففهم منه ذلك أبو زرعة فقال يا أمير المؤمنين لا تهدم ركناً بليتته ، ولا تحزن صاحباً سررته ، ولا تشمت عدواً بكتبته ، فكف عنه معاوية .

وفيها توفي عتبة بن منذر السلمي صحابي جليل ، كان ينفذ في أهل الصفة . عمران بن حطان الخارجي ، كان أولاً من أهل السنة والجماعة فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها . وكان هو دميم الشكل ، فأراد أن يردها إلى السنة فأبقت فارتدت معها إلى مذهبها . وقد كان من الشعراء

المفلقين ، وهو القائل في قتل علي وقاتله :

يا ضربة من تقي ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
إني لأذكره يوماً فأحسبه * أوفى البرية عند الله ميزاناً
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم * لم يخلطوا دينهم بغياً وعدواناً

وقد كان الثوري يتمثل بأبياته هذه في الزهد في الدنيا وهي قوله : -

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها * على أنهم فيها جُعاة وجوع
أراها وإن كانت تحب فانها * سحابة صيف عن قليل تقشع
كركب قضا حاجتهم وترحلوا * طريقهم بادي العلامة مضيع

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين . وقد رد عليه بعض العلماء في أبياته المتقدمة في قتل

على رضي الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها :

بل ضربة من شقي ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش خسراناً
إني لأذكره يوماً فأحسبه * أشقى البرية عند الله ميزاناً

روح بن زنباع الجذامي

كان من أمراء الشام وكان عبد الملك يستشير في أموره .

وفيها كان مهلك عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وقيل في التي بعدها فإله أعلم . وذلك أن
الحجاج كتب إلى رتبيل ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث يقول له : والله الذي لا إله إلا هو لئن
لم تبعث إلى بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل ، ولأخربنها . فلما تحقق الوعيد من
الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج
دياره ويأخذ عامة أمصاره ، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشرين سنين ، وأن لا يؤدي
في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج ، فأجابه الحجاج إلى ذلك ، وقيل إن الحجاج وعده أن
يطلق له خراج أرضه سبع سنين ، فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث فقتل إنّه أمر بضرب عنقه
صبراً بين يديه ، وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل : بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً
فقتله وهو بآخر رمق ، والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاة وبعث بهم
مع رسل الحجاج إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح ، صعد ابن الأشعث وهو
مقيّد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لثلايفر ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه
الموكل به فماتا جميعاً ، فبعث الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزّه ، وقتل من معه من أصحاب ابن
الأشعث وبعث برؤوسهم إلى الحجاج فأمر فطيف برأسه في العراق ، ثم بعثه إلى عبيد الملك فطيف

برأسه في الشام ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك ، ثم دفنوا رأسه بمصر
وجنته بالرجح ، وقد قال بعض الشعراء في ذلك : -

هيات موضع جثة من رأسها * رأس بمصر وجثة بالرجح
وإنما ذكر ابن جرير مقتل ابن الأشعث في سنة خمس وثمانين فأن الله أعلم .

وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس ، ومنهم من يقول عبد الرحمن بن قيس بن
محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الكوفي ، قد روى له أبو داود والنسائي عن أبيه عن جده عن ابن
مسعود : حديث « إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو تشاركاه » . وعنه أبو العيس
ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة فأن الله أعلم . والسجب كل المعجب من هؤلاء الذين بايعوه بالامارة
وليس من قريش ، وإنما هو كندي من اليمن ، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الامارة لا تكون
إلا في قريش ، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك ، حتى ان أنصار سألوا أن يكون منهم
أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك ، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عباد الذي دعا
إلى ذلك أولا ثم رجع عنه ، كما قرنا ذلك فيما تقدم . فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالامارة
على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويباعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها
أهل الحل والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فأن الله
وإننا إليه راجعون

أيوب بن القرية

وهي أمه واسم أبيه يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمرى الهلالي ، كان أعرابياً أمياً ، وكان
يضرب به المثل في فصاحته وبيانه وبلاغته ، صحب الحجاج ووفد على عبد الملك ، ثم بعثه رسولا إلى
ابن الأشعث فقال له ابن الأشعث : لئن لم تقم خطيباً فنخلع الحجاج لأضرب عنقك ، ففعل وأقام
عنده ، فلما ظهر الحجاج استحضره وجرت له معه مقامات ومقالات في الكلام ، ثم آخر الأمر ضرب
عنقه وندم بعد ذلك على ما فعل من ضرب عنقه ، ولكن ندم حيث لا ينفعه الندم . كما قيل : وجادت
بوصل حين لا ينفع الوصل * وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه وابن خلكان في الوفيات وأطال
ترجمته وذكر فيها أشياء حسنة ، قال : والقرية بكسر القاف وتشديد الياء وهي جدته واسمها جماعة
بنت جشم قال ابن خلكان : ومن الناس من أنكرو وجوده ووجود مجنون ليلى ، وابن أبي العقب
صاحب الملحمة ، وهو يحيى بن عبد الله بن أبي العقب والله أعلم .

روح بن زنباع

ابن سلامة الجنامي أبو زرعة ويقال أبو زنباع اللعشي داره بدمشق في طرف البزوريين عند دار

ابن عقب صاحب الملحمة . وهو تابعي جليل ، روى عن أبيه - وكانت له صحبة - وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ومعاوية وكعب الأبحار وغيرهم ، وعنه جماعة منهم عبادة بن نسي . كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه ، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط ، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين ، وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة ، ولم يتابع مسلم على هذا القول ، والصحيح أنه تابعي وليس بصحابي ، ومن ما تراه التي تفرد بها أنه كان كلما خرج من الحمام يمتق نسة ، قال ابن زيد : مات سنة أربع وثمانين بالاردن ، وزعم بعضهم أنه بقي إلى أيام هشام بن عبد الملك ، وقد حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان ، ثم وضعت بين يديه ، فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء ، فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام ، فجاء الراعي فنظر إلى طعامه وقال : إني صائم ، فقال له روح : في مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم ياراعي ؟ فقال الراعي : أفأغبن أيامي من أجل طعامك ؟ ثم إن الراعي ارتاد لنفسه مكاناً فنزله وترك روح بن زنباع ، فقال روح بن زنباع : -

لقد ضللت بأيامك ياراعي * إذ جاد بها روح بن زنباع

ثم إن روحاً بكى طويلاً وأمر بتلك الأطعمة فرفعت ، وقال : انظروا هل تجدون لها آكلاً من هذه الأعراب أو الرعاة ؟ ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعي بجميع قلبه وصنعت إليه نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها كما ذكر ابن جرير كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث فله أعلم ، وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب ، وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك فلما انصرف مر بدبر فقيل له إن فيه شيخاً كبيراً من أهل الكتاب عالماً ، فدعى فقال : يا شيخ هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه ؟ قال : نعم . قال له فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجد ملكاً أقرع ، من يقيم في سبيله يهزأ به ، قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال ثم رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس ، قال : فتعرفني له قال : قد أخبرتك بك ، قال : أتعرف ما أكي ؟ قال : نعم . قال : فمن يلي العراق بعدى ؟ قال رجل يقال له يزيد ، قال أنى حياتي أو بعد موتي ؟ قال لا أدري ، قال : أتعرف صفته ؟ قال يغدر غدرة لا أعرف غيرها قال : فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ، وسار سبعا وهو وجل من كلام الشيخ ، ثم بعث إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده ؟ فجاء الكتاب بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه . ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى

بعبيد بن موهب فدخل عليه وهو ينكت في الأرض فرفع رأسه إليه فقال : ويحك يا عبيد ، إن أهل
 للكتاب يذكرون أن ماتحت يدي سليله رجل يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد
 ابن حصين بن نمير ويزيد بن دينار وليسوا هناك ، وما هو إلا يزيد بن المهلب . فقال عبيد : لقد
 شرفهم وعظمت ولايتهم وإن لهم لقدراً وجلداً وحظاً فأخلق به . فأجمع رأى الحجاج على عزل يزيد
 ابن المهلب ، فكتب إلى عبد الملك يئمه ويخوفه غدرة ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابي ،
 فجاء البريد بكتاب فيه قد أكثرت في شأن يزيد فسم رجلاً يصلح لخراسان ، فوقع اختيار الحجاج
 على المفضل بن المهلب فولاه قليلاً تسعة أشهر ، فنزأ بلاد عبس وغيرها وغنم مقام كثيرة ، وامتدحه
 الشعراء ثم عزله بقتيبة بن مسلم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ ، ثم ذكر سبب ذلك
 وملخصه أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه ، فجعل كلما اقترب من بلدة
 خرج إليه ملكها فقاتله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريبا من ترمذ وكان ملكها فيه ضعف ، فجعل
 يهادنه ويبعث إليه بالالطاف والتحف ، حتى جعل يتصيد هو وهو ، ثم عن الملك فعمل له طعاماً وبث
 إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتني في مائة من أصحابك ، فاختار موسى من جيشه مائة من
 شجعانهم ، ثم دخل البلد فلما فرغت الضيافة اضطلع موسى في دار الملك وقال : والله لا أقوم من هنا
 حتى يكون هذا المنزل منزلي أو يكون قبري : فثار أهل القصر إليه فحاجف عنه أصحابه ، ثم وقعت
 الحرب بينهم وبين أهل ترمذ ، فاقتلوا قتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم ، واستدعى
 موسى ببقية جيشه إليه واستعوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الأعداء ، وخرج منها ملكها
 هارباً فلجأ إلى إخوانه من الأتراك فاستنصرهم فقالوا له : هؤلاء قوم نحو من مائة رجل أخرجوك من
 بلدك ، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب ملك ترمذ إلى طائفة أخرى من الترك فاستنصرهم فبمشوا
 معه قصاداً نحو موسى ليسمعوا كلامه ، فلما أحس بقومهم - وكان ذلك في شدة الحر - أمر أصحابه أن
 يؤججوا ناراً ويلبسوا ثياب الشتاء ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يسطلون بها ، فلما وصلت إليهم الرسل
 رأوا أصحابه وما يصنعون في شدة الحر فقالوا لهم : ما هذا الذي تراك تفعلون ؟ فقالوا لهم : إنا نجد البرد
 في الصيف والكرب في الشتاء ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : ما هؤلاء بشر ، ما هؤلاء إلا جن ثم
 عدوا إلى ملكهم فأخبروه بما رأوا فقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجلس
 بطائفة أخرى فجاءوا فحاصروا ترمذ وجاء الخراعي فحاصروا أيضاً ، فجعل يقاتل الخراعي أول النهار
 ويقاثل آخره المعجم ، ثم إن موسى بينهم قتل منهم مقتلة عظيمة وأفزع ذلك عمر الخراعي فسلطه
 وكان معه ، فدخل يوماً عليه وليس عنده أحد ، وليس يرى معه سلاحاً فقال له على وجه النصح

أصلح الله الأمير، إن مثلك لا ينبغي أن يكون بلا سلاح، فقال: إن عندي سلاحاً، ثم رفع صدره فراشه فاذا سيفه منتصب فأخذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هارباً، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبيد الله بن خازم.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمارة الديار المصرية، وحسن له ذلك روح بن زنباع الجندابي، فبينما هما في ذلك إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب في الليل، وكان لا يحبب عنه في أي ساعة جاء من ليل أو نهار، فعزله في أخيه عبد العزيز فندم على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وذلك عن رأى الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك، وكان أبوه مروان عهد بالأمر إلى عبد الملك ثم من بعده إلى عبد العزيز، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الإمارة من بعده بالكلية، ويجعل الأمر في أولاده وعقبه، وأن تكون الخلافة باقية فيهم والله أعلم.

عبد العزيز بن مروان

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الأصبح القرشي الأموي ولد بالمدينة ثم دخل الشام مع أبيه مروان، وكان ولي عهده من بعد أخيه عبد الملك، وولاه أبوه إمارة الديار المصرية في سنة خمس وستين فكان والياً عليها إلى هذه السنة، وشهد قتل سعيد بن عمرو بن العاص كما قدمنا، وكانت له دار بدمشق وهي دار الصوفية اليوم، المروفة بالخانقاه السميسطية ثم كانت من بعده لولده عمر بن عبد العزيز، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاه للصوفية. وقد روى عبد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبي هريرة، وحديثه عنه في مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله (ص)، قال: «شر مافي الرجل جبن خالغ وشح هالغ». وعنه ابنه عمر والزهرى وعلي بن رباح وجماعة. قال محمد بن سعد: كان ثقة قليل الحديث، وقال غيره: كان يلحن في الحديث وفي كلامه، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها فكان من أفصح الناس، وكان سبب ذلك أنه دخل عليه رجل يشكو ختنه - وهو زوج ابنته - فقال له عبد العزيز: من ختنك؟ فقال الرجل: ختنى الختان الذى يخنن الناس، فقال لسكراته ويحك بماذا أجابنى؟ فقال السكراتب: يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول من ختنك، فألى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية، فكث جمعة واحدة فتعلمها فخرج وهو من أفصح الناس، وكان بعد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه وينقص عطاء من يلحن فيه، فتسارع الناس في زمانه إلى تعلم العربية. قال عبد العزيز يوماً إلى رجل: ممن أنت؟ قال: من بنو عبد الدار، فقال: تجدها في جارتك، فنقصت جارتها مائة دنانير.

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا مجاهد بن موسى ثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم قال : كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر : ارفع إلى حاجتك . فكتب إليه ابن عمر : إن رسول الله (ص) قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تمول » . ولست أسألك شيئاً ولا أرد رزقا رزقنيه الله عز وجل منك . وقال ابن وهب : حدثني يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس قال : بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر قال : فجئت فدفعت إليه الكتاب فقال : أين المال ؟ فقلت : لا أستطيعه الليلة حتى أصبح ، قال : لا والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار ، قال : فدفعت إلى الكتاب حتى جثته بها ففرقها رضى الله عنه .

ومن كلامه رحمه الله : عجبا لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه ، كيف يحبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء . ولما حضرته الوفاة أحضر له مال يحصيه وإذا هو ثلاثمائة مدين من ذهب ، فقال : والله لوددت أنه بعر خائل بنجد ، وقال : والله لوددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أن أكون هذا الماء الجاري ، أو نباتة بأرض الحجاز ، وقال لهم : اثبتوني بكفنى الذى تكفنونى فيه ، فجعل يقول : أف لك ما أقصر طويلك ، وأقل كثيرك .

قال يعقوب بن سفيان عن ابن بكير عن الليث بن سعد قال : كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، قال ابن عساكر : وهذا وهم من يعقوب بن سفيان والنصواب سنة خمس وثمانين ، فانه مات قبل عبد الملك أخيه ، ومات عبد الملك بعده بسنة سنة ست وثمانين . وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء كريماً جواداً ممدحاً ، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وقد اكتسب عمر أخلاق أبيه وزاد عليه بأمور كثيرة . وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر ، عاصم وأبو بكر ومحمد والأصبغ - مات قبله بقليل لحزن عليه حزناً كثيراً ومرض بعده ومات . وسهيل وكان له عدة بنات ، أم محمد وسهيل وأم عثمان وأم الحكم وأم البنين وهن من أمهات شتى ، وله من الأولاد غير هؤلاء ، مات بالمدينة التى بناها على مرحلة من مصر وحمل إلى مصر فى النيل ودفن بها ، وقد ترك عبد العزيز من الأموال والأثاث والدواب من الخيل والبغال والابل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف ، من جملة ذلك ثلاثمائة مدين من ذهب غير الورق ، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة ، فانه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذى له من بعده لولده الوليد أو يكون ولى العهد من بعده ، فانه أعز الخلق على . فكتب إليه عبد العزيز يقول : إني أرى فى أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى فى الوليد . فكتب

إليه عبد الملك يأمره . بحمل خراج مصر - وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه شيئاً من الخراج ولا غيره ، وإنما كانت بلاد مصر بكاملها وبلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز ، مغانمها وخراجها وحملها - فكتب عبد العزيز إلى عبد الملك : إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنًا لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاءه قليلاً ، وإني لا أدري ولا تدري أينما يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت أن لا تعتب علي بقية عمري فافعل ، فرق له عبد الملك وكتب إليه : لعمري لا أعتب عليك بقية عمرك . وقال عبد الملك لابنه الوليد : إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك ، ثم قال لابنه الوليد وسليمان : هل تارقتما محرماً أو حراماً قط ؟ فقالا : لا والله ، فقال : الله أكبر ، نلتهاها ورب السكبة . ويقال إن عبد الملك لما امتنع أخوه من إجابته إلى ما طلب منه في بيعته لولده الوليد دعا عليه وقال : اللهم إنه قطعني فاقطعه ، فمات في هذه السنة كما ذكرنا ، فلما جاء الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليلاً حزناً وبكى وبكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز ، ولكن سره ذلك من جهة ابنيه فإنه قال فيهما ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما بعده . وقد كان الحجاج يبعث إلى عبد الملك يحسن له ولاية الوليد ويزيها له من بعده ، وأوفد إليه وفداً في ذلك عليهم عمران بن عاصم العنزي ، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فتكلم وتكلم الوفد في ذلك وحثوا عبد الملك على ذلك وأنشد عمران بن عاصم في ذلك :

أمير المؤمنين إليك نهدي * على النأي التحية والسلاما
أجبنى في بنيك يكن جوابي * لهم عادية ولنا قواماً
فلو أن الوليد أطاع فيه * جعلت له الخلافة والذماما
شبهك حول قبتك قریش * به يستمطر الناس النماما
ومثلك في التقى لم يصب يوماً * لدن خلق القلائد والنماما
فإن تؤثر أخاك بها فانا * وجلك لا نطبق لها اتناما
ولكننا نحاذر من بنيهم * بني العلات مائة مبابا
ونخشى إن جعلت الملك فيهم * سحاباً أن تعود لهم جهابا
فلا يك ما حلبت غداً لقوم * وبعد غد بنوك هم العبابا
فأقسم لو تخطائي عصام * بذلك ما عذرت به عصاما
ولو أني حيوت أماً بفضل * أريد به المقالة والمقاما
لعتب في بني على بليهم * كذلك أو لمرت له مراما
فمن يك في أقارب صدوع * فصعد الملك أبطوه التماما

قال : فهاجه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد فأبى عليه ، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحد ، فتمكن حينئذ مما أراد من بيعة الوليد وسليمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم من بعده لولده سليمان

وكان ذلك في هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان ، بويع له بدمشق ثم في سائر الأقاليم ثم لسليمان من بعده ، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبائع في حياة عبد الملك لأحد ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضربه ستين سوطاً ، وألبسه ثياباً من شعر وأركبه جملاً وطاف به في المدينة ، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب - وهي الثنية التي كانوا يصلون عندها ويقولون - فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة فأودعوه السجن ، فقال لهم : والله لو أعلم أنكم لا تقتلونني لم ألبس هذا الثياب . ثم كتب هشام بن إسماعيل الخزومي إلى عبد الملك يعلمه بمخالفة سعيد في ذلك ، فكتب إليه يعنفه في ذلك ويأمره باخراجه ويقول له : إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به ، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف ، ويروى أنه قال له : ما يلغى إلا أن يبائع ، فإن لم يبائع ضربت عنقه أو خلعت سبيله . وذكر الواقدي أن سعيداً لما جاءت بيعة الوليد امتنع من البيعة فضربه نائبها في ذلك الوقت - وهو جابر بن الأسود بن عوف - ستين سوطاً أيضاً وسجنه فاعلم الله أعلم .

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدي : وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل الخزومي نائب المدينة ، وكان على العراق والمشرق بكاله الحجاج ، قال شيخنا الحافظ الذهبي : وتوفي في هذه السنة أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة ، كان من فقهاء المدينة المشرة ، قاله يحيى بن القطان . وقال محمد بن سعد كان ثقة وكان به صمم ووضع كثير ، وأصابه الفالج قبل أن يموت . عبيد الله ابن عامر بن ربيعة ، عمرو بن حريث ، عمرو بن سلمة ، وائل بن الأسقع . شهد وائلة تبوك ثم شهد فتح دمشق ونزلها ، ومبجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة . قلت : وقد احترق مسجده في فتنة تمرلنك ولم يبق منه إلا رسومه ، وعلى بابه من الشرق قناة ماء . خالد بن يزيد بن معاوية . ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، كان أعلم قريش بفنون العلم ، وله يد طولى في الطب ، وكلام كثير في الكيمياء ، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانش ، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً منطبقاً كأبيه ، دخل يوماً على عبد الملك بن مروان بحضرة الحكم بن أبي العاص ، فشكى إليه أن ابنه الوليد يحترق أخاه عبيد الله بن يزيد ، فقال عبد الملك : [إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة] فقال له خالد : [وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق

وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . سمع عثمان بن عفان ، وشهد الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سار بالناس في بلاد الروم سنة ثنتين وأربعين ، وكان أميراً على أهل المدينة ، وله ست عشرة سنة ، ولله إياها معاوية ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة . وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهرى وعمر بن الحارث ورجاء بن حيوة وجريير بن عثمان . ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سمى القاسم وكان يكنى بأبي القاسم ، ثم غير اسمه فسماه عبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة عن مصعب بن الزبير : وكان أول من سمى في الاسلام بعبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة : وأول من سمى في الاسلام بأحمد . والد الخليل بن أحمد العروضي . وبورع له بالخلافة في سنة خمس وستين في حياة أبيه في خلافة ابن الزبير ، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين ، وابن الزبير على باقي البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة كما ذكرنا ذلك ، وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ست وعشرين ، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد النالين للقرآن ، وكان ربة من الرجال أقرب إلى القصر . وكانت أسنانه مشبكة بالذهب ، وكان أفوه مفتوح الفم ، فرجما غفل فيفتح فيه فيدخل فيه اللباب ، ولهذا كان يقال له أبو اللباب . وكان أبيض ربة ليس بالنعيف ولا البادن ، مقرون الحاجبين أشهل كبير العينين دقيق الأنف مشرق الوجه أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ، ويقال إنه خضب بعد . وقد قال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ابن مروان ، وقال الأعشى عن أبي الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة ابن ذؤيب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الامارة . وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً - يعني عبد الملك - وراء يوماً وقد ذكر اختلاف الناس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه ، وقال عبد الملك : كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوماً : يا عبد الملك إن فيك خصالاً ، وإنك لجدير أن تلى أمر هذه الأمة ، فاحذر الدماء فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريته من مسلم بغير حق » . وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمر وبن العاص في قصة طويلة ،

وقال سعيد بن داود الزبيري عن مالك عن يحيى بن سعيد بن داود الزبيري قال : كان أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، فقال سعيد بن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفرغ في أمر الله والورع عن محارم الله . وقال الشعبي :

ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فأني ما ذا كرته حديثاً إلا زادني منه ، ولا شعراً إلا زادني فيه . وذكر خليفة بن خياط أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن ابعت ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً . ولم يزل عبد الملك مقبلاً بالمدينة حتى كانت وقعة الحرة ، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز ، وأجلى بني أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه الشام ، ثم لما صارت الإمارة مع أبيه وبايعه أهل الشام كما تقدم أقام في الإمارة تسعة أشهر ثم عهد إليه بالإمارة من بعده ، فاستقل عبد الملك بالخلافة في مستهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين في جمادى الأولى إلى هذه السنة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك . وقال أبو الطفيل : صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه ، وقد كان بني له فيه قبة قبل ذلك ، فدخله وقال : لقد كان حثمة الأحوازي - يعني عمر بن الخطاب - يرى أن هذا عليه حرام ، وقيل إنه لما وضع المصحف من حجره قال : هذا آخر العهد منك . وكان حميد الملك له إقدام على سفك الدماء ، وكان حازماً فهما فطنا سائساً لأُمور الدنيا ، لا يكل أمر دنياه إلى غيره وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وأبوها معاوية هو الذي جدد أنف حمزة عم النبي . يوم أحد ، وقال سعيد بن عبد العزيز : لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير خرج معه يزيد بن الأسود الجرشى ، فلما التقوا قال : اللهم احجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك . فظفر عبد الملك - وقد كان مصعب من أعز الناس على عبد الملك - وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين ! سلام عليك فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فأنك راع وكل راع مسئول عن رعيته [الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً] لا أحمد والسلام . وبعث به مع سلام فوجدوا عليه إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا في كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه .

وقال الواقدي : حدثني ابن أبي ميسرة عن أبي موسى الخياط عن أبي كعب قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول ، وقد سألت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن ، فالزموا ما في مصحفكم

الذي حكم عليه الامام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها امامكم المظلوم رحمه الله ، فانه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشيخ كان للاسلام رحمه الله ، فأحكما ما أحكما ، واستقصيما شذعنهما . وقال ابن جريج عن أبيه : حج علينا عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطبنا فقال : أما بعد فانه كان من قبلي من الخلفاء يا كلون من المال ويوكلون ، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، وليست بالخليفة للمستضعف - يعني عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا الخليفة المأبون - يعني يزيد بن معاوية - أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الفرية ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه ، قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفك هكذا ، وإن الجامعة التي خلمها من عنقه عندي ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضمرها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب . وقال الأصمعي : ثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده . قال : ركب عبد الملك بن مروان بكرأ فأنشأ قائده يقول : -

يا أيها البكر الذي أراك * عليك سهل الأرض في ممشاكا

ويحك هل تعلم من علاكا * خليفة الله الذي امتطاك

* لم يحب بكرأ مثل ما حباكا *

فلما سمعه عبد الملك قال : أيها يا هناء ، قد أمرت لك بمشرة آلاف . وقال الأصمعي : خطب عبد الملك خضر فقال : إن اللسان بضعة من الانبياء ، وإنا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينارسخ عروقه ، وعلينا تدلت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عينا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب . قال الأصمعي : قيل لعبد الملك أسرع إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟ وقال غيره قيل لعبد الملك : أسرع إليك الشيب ، فقال : وتنسى ارتقاء المنبر ومحافة اللحن ؟ ولحن رجل عند عبد الملك - يعني أسقط من كلامه ألفاً - فقال له عبد الملك زد ألف ، فقال الرجل : وأنت فزد ألفاً ، وقال الزهري : سمعت عبد الملك يقول في خطبته : إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه ، وروى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره : إذا رفعت لك شجرة ، سبحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى نأتي تلك الحجرة ، ونحو ذلك .

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قدرة فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ، فقيل له في ذلك فقال : إنه كان عليه اسم الله عز وجل . وقال غير واحد : كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيفون على رأسه بالسيف فينشد ، وقال بعضهم : يأمر من ينشد فيقول :

إنا إذا نالت دواعي الهوى * وأنصتَ السامعُ للقائلِ
 واصطرعَ الناسُ بالبابهم * تقضى بحكم عادلٍ فاصلِ
 لا نجعلُ الباطلَ حقاً ولا * نلفظُ دونَ الحقِّ بالباطلِ
 نخافُ أن تسفهَ أحلامنا * فنجهلَ الحقَّ مع الجاهلِ

وقال الأعمش: أخبرني محمد بن الزبير أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه: لو أن رجلاً خدع عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصراني أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم، ولتزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك، ولو أن رجلاً خدع موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإني خادم رسول الله (ص) وصاحبه ورأيتُه وأكلت معه، ودخلت وخرجت وجاهنت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضربني وفعل وفعل، قال: أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير ثم قال إلى حامل الكتاب: انطلق بنا إليه نترضاه. وقال أبو بكر بن دريد: كتب عبد الملك إلى الحجاج في أيام ابن الأشعث: إنك أعز ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه، وأذل ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون إليهم، وإذا عزبت بالله فاعف له، فإنك به تعز وإليه ترجع. قال بعضهم: سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال له عبد الملك: احذر في كلامك ثلاثاً، إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسى منك، أو تكذبني فإنه لا رأى لكنوب، أو تسمى إلى بأحد من الرعية فأنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جورى وظللى، وإن شئت أقلتك. فقال الرجل: أقفاني فأقاله. وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق: اعفني من أربع وقل ما شئت، لا تطرنى، ولا تجبنى فيما لا أسألك عنه، ولا تكذبني، ولا تحملني على الرعية فأنهم إلى رافقي ومعدلي أحوج. وقال الأصمعي عن أبيه قال: أتى عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك، فقال: وما جزاؤك؟ فقال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أنى رجل مشثوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تتصعك، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه، وكنت مع فلان فقتل، وكنت مع فلان فهزم - حتى عد جماعة من الأمراء - فضحك وخلق سبيله. وقيل لعبد الملك: أى الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة، وترك النصره عن قوة. وقال أيضاً لا طمأنينة قبل الخبرة، فان الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم. وقال: خير المال ما أقاد جرداً ودفع ذماً، ولا يقولن أحدكم أبداً بمن تقول، فان

أنخلق كلهم عيال الله ، وينبى أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث . وقال المدائني : قال عبد الملك لمؤدب أولاده - وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقروا ، وعلمهم الشعر يمجذوا وينجدوا ، ومرهم أن يستأكروا عرضا ، ويمصوا الماء مضيا ، ولا يعبوا عبا ، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهنوا عليهم .

وقال الهيثم بن عدي : أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذا خالصا ، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدرك أين ذهب ، وإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الانسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم [بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] [ألا يفتن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين] [ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود] [وما تؤخره إلا لأجل معدود] [إن اليوم الذي أنت فيه لوبق لعيرك ما وصل إليك ، [فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا] وإني أحذرك يوم ينادى المنادى [احشروا الذين ظلموا وأزواجهم] [ألا لعنة الله على الظالمين] قال فتغير وجه عبد الملك فدخل دار حرمة ولم تزل السكابة في وجهه بعد ذلك أياما . وكتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتابا وفي آخره : ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ماتكم به الأولون

إذا الرجال ولدت أولادها • وبليت من ركبي أجسادها

وجعلت أستمها تمادها • تلك زروع قد كنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق . وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال : أنهى عن ذكر عمر فانه مرارة للامراء مفسدة للرعية . وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى القبانى عن أبيه عن جده قال : كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك ، فقال : إى والله ، والدما أيضا قد شربتها . ثم جاءه غلام كان قد بعثه في حاجة فقال : ما حبسك لعنك الله ؟ فقالت أم الدرداء : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإني سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله - يقول : « لا يدخل الجنة لعان » . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : ثنا الحسين بن عبد الرحمن قال قيل لسعيد بن المسيب : إن عبد الملك بن مروان قال قد صرت لا أفرح بالحسنة أنعمها ، ولا أحزن على السيئة أرتكبها ، فقال سعيد : الآن تكامل موت قلبه .

وقال الأصمعي عن أبيه عن جده قال خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً ثم قال : يارب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوكم أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوكم عظيم ذنوبي . قال : فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام ، وقد روى عن غير واحد نحو ذلك ، أي أنه لما بلغه هذا الكلام قال مثل ما قال الحسن . وقال مسهر الدمشقي : وضع سباط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه : ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين ، قال : فلا يبه عبد الله بن خالد بن أسيد ، قال : مات ، قال : فلخالد بن يزيد ابن معاوية ، قال : مات ، قال فلان وفلان - حتى عدا أقواماً قد ماتوا وهو يعلم ذلك قبلنا - فأمر برفع السباط وأنشأ يقول :

ذَهَبَتْ لِدَا قِيٍّ وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُمْ * وَغَبَرَتْ بَعْدَهُمْ وَلَسْتُ بِخَالِدٍ

وقيل : إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك : ما هذا ؟ أتحزن حزنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمروا وترزروا والبسوا جلد النمر ، وضع الأوز عند أقرانها ، واحذروا قريشا . ثم قال له : يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخى معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخى محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر إلى ابن عمنا علي بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشهد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالحبة ، ويدلل الألسنة بالذكر الجميل ، والله در القائل :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا * بِالْكَسْرِ ذُو حَقٍّ وَبَطْشٍ مَفْنَدٍ
عَزَّتْ فَلَمْ تَكْسِرْ وَإِنْ هِيَ بَدَّدَتْ * فَالْكَسْرُ وَالتَّوْهِينُ الْمُسْتَبَدَّرُ

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك فمن أبي فالسيف ، وعليك بالاحسان إلى أخواتك فأكرهن وأحبهن إلى طاعة - وكان قد أعطاهما قرطى مارية والدة البقيعة - ثم قال : اللهم احفظني فيها . فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسالا يفسل الثياب فقال : ما هذا ؟ فقالوا غسال ، فقال : ياليتني كنت غسالا أكتب ما أعيش به يوماً بيوم ، ولم أَلِ الخلافة . ثم تمثل فقال : -

لَمَرَى لَقَدْ عَمَرْتُ فِي الْمَلِكِ بَرْهَةً * وَدَانَتْ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ الْبَوَائِرِ
وَأَعْطَيْتُ حَرَّ الْمَالِ وَالْحَكْمَ وَالنَّهْيَ * وَلِي سَلَمَتْ كُلُّ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرِ

فاضحى الذى قد كان مما يسرى * كحل مضى فى الزمان الغابر
فيا ليتنى لم أعن بالملك ليلة * ولم أسع فى لذات عيش نواضر
وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبى سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك فى مرض موته : كيف تجدك ؟ فقال أجندنى كما قال الله تعالى
[ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم] الآية . وقال
سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً
بالوادي فقال : ما هذا ؟ قالوا قصار ، فقال : يا ليتنى كنت قصاراً أعيش من عمل يدي ، فلما بلغ
سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم . وقال :
لما حضره الموت جعل ينهم وينب ويضرب بيده على رأسه ويقول : وددت أنى اكتسبت قوتى
يوماً يوماً واشتغلت بعبادة ربى عز وجل وطاعته . وقال غيره : لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم
ثم قال : الحمد لله الذى لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد : -

فهل من خالدٍ إمّا هلكنّا * وهل بالموت للباقيين غارُ

ويروى أنه قال : ارفعونى ، فرفضوه حتى شم الهواء وقال : يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لتقصير ،
وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بك لى غرور ، ثم تمثل بهذين البيتين :

إن تناقض يكن نقاشك يارب * عذاباً لا طوق لي بالعذاب

أو تجاوزت فانت رب صفوح * عن مسيء ذنوب كالتراب

قالوا : وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل يوم الأربعاء وقيل الخميس ، فى النصف من شوال
سنة ست وثمانين ، وصلى عليه أنه الوليد ولى عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . قاله
أبو معشر وصححه الواقدي ، وقيل ثلاثاً وستين سنة . قاله المدائني ، وقيل ثمانى وخسين . ودفن بباب
الجابية الصغير ، قال ابن جرير : ذكر أولاده وأزواجه منهم الوليد وسليمان ومروان الأكبر درج
وعائشة ، وأهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن
مازن بن الحارث بن قطيمة بن عيسى بن بغيض ، وبزيد ومروان الأصغر ومعاوية درج وأم كلثوم
وأهم عائكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وهشام وأمه أم هشام عائشة - فيما قاله المدائني -
بنت هشام بن إسماعيل المخزومي . وأبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله
التيسى ، والحكم درج وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموي ، وطلحة وأمه المغيرة
بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي . وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة
ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد شتى ، فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكراً وإنا ،

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة ، منها تسع سنين مشاركا لابن الزبير ، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلا بالخلافة وحده . وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني ، وكاتبه روح بن زنباع ، وحاجبه يوسف مولاة ، وصاحب بيت المال والخاتم قبيصة بن ذؤيب . وعلى شرطته أبو الزعزعة . وقد ذكرنا عماله فيما مضى . قال المدائني : وكان له زوجات آخر ، شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي ، وابنة لعل بن أبي طالب ، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . ومن يذكر أنه توفي في هذه السنة تقريبا .

أرطاة بن زفر

ابن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن غنعمان بن أبي حارثة بن مرة بن شبة بن نبط بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان الوليد المري ، ويعرف بابن شبة ، وهي أمه بنت رامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خديج بن جشم بن كعب بن عون بن عامر بن عوف - سبية من كلب - وكانت عند ضرار بن الأزور ، ثم صارت إلى زفر وهي حامل فأتت بأرطاة على فراشه ، وقد عمر أرطاة دهراً طويلاً حتى جاوز المائة بثلاثين سنة ، وقد كان سيداً شريفاً معطاءً محمداً شاعراً مطبقاً قال المدائني : ويقال إن بني غنعمان بن حنظلة بن وواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث دخلوا في بني مرة بن شبة فقالوا بني غنعمان بن أبي حارثة بن مرة . وقد وفد أبو الوليد أرطاة بن زفر هذا على عبد الملك فأنشده أبياتا : -

رأيت المرء تأكله الليالي • كأكل الأرض ساقطة الحديد

وماتبقى النية حين تأتي • على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكوش حتى • توفي نذرهما بأبي الوليد

قال : فارتاع عبد الملك وظن أنه عناء بذلك فقال يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي ، فقال

عبد الملك : وأنا والله سيمر بي ما الذي يمر بك ، وزاد بعضهم في هذه الأبيات : -

خلقنا أنفساً وبني نفوس • ولسنا بالسلام ولا الحديد

لئن أنجست بالقرناء يوماً • لقد تمت بالأملر البعير

وهو القائل وإني لقوام لدى الضيف موهناً • إذا أسبل الستر البخيل الموانكل

دعا فاجابته كلاب كثيرة • على ثقة مني بأنني فاعل

وما دون ضيفي من تلاد تحوزة • لي النفس إلا أن تصان الحلائل

مطرف بن عبد الله بن الشخير

كان من كبار التابعين ، وكان من أصحاب عمران بن حصين ، وكان مجلب الدهوة ، وكان يقول ما أوتي أحد أفضل من العقل ، وعقول الناس على قدر عقولهم . وقال : إذا استوت سريرة العبد

وعلايته قال الله هذا عبدي حقاً . وقال : إذا دخلتم على مريض فإن استطعتم أن يدعوا اسمكم فإنه قد حرك - أي قد أوقف من غفلته بسبب مرضه - فدعواؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه . وقال : إن أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة .

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير - وكان ذلك في يوم الخميس وقيل الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة - لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر - منبر المسجد الأعظم بدمشق - فخطب الناس فكان مما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا . فكان أول من قام إليه عبد الله بن همام السلولي وهو يقول : يا

الله أعطاك التي لا فوقها * وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى الله إلا سوقها * إليك حتى قلدوك طوقها

ثم بايعه وبايع الناس بعده . وذكر الواقدي أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه لا مقدم لما أقر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابقته ما كتبه على أنبيائه وحمله عرشه وملائكته الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار بما لا قاه في هذه الأمة - يعني بالذي يحق لله عليه - من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الاسلام وإعلائه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً ، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه . ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فخارها . وكان جباراً عنيداً . وقد ورد في ولاية الوليد حديث غريب ، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك كما سيأتي ، وكما تقدم تقريره في دلائل النبوة في باب الاخبار عن الغيوب المستقبلية ، فيما يتعلق بدولة بني أمية ، وأما الوليد بن عبد الملك هذا فقد كان صينياً في نفسه حازماً في رأيه ، يقال إنه لا تعرف له صهوة ، ومن سجلة محاسنه ما صرح عنه أنه قال : لولا أن الله قص لنا قصة قوم لوط في كتابه ما ظننا أن ذكر آ كان يأتي ذكر آ كما تؤذي النساء ، كما سيأتي ذلك في ترجمته عند ذكر وفاته ، وهو باني مسجد جامع دمشق الذي لا يعرف في الآفاق أحسن بناء منه ، وقد شرع في بنائه في ذي القعدة من هذه السنة ، فلم يزل في بنائه وتحسينه مدة خلافته وهي عشر سنين ، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً . وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها كنيسة يوحنا ، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة ، فأخذوا منها الجانب الشرقي فحولوه مسجداً ، وبقي الجانب الغربي كنيسة

بحاله من لدن سنة أربع عشرة إلى هذه السنة ، فعزم الوليد على أخذ بقية الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها في جانب السيف ، وقيل عوضهم عنها كنيسة توما ، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة ، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً في البهنيان والزينات والآثار والعمارات ، والله سبحانه أعلم .
ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمر بن عبد العزيز ، فدخلها على ثلاثين بغيراً في ربيع الأول منها ، فنزل دار مروان وجاء الناس للسلام عليه ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيشمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبيد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . فدخلوا عليه فجلسوا لحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو يلفسكم عن عامل لي ظلامة ، فأخرج على من بلغه ذلك إلا أبلغني . فخرجوا من عنده مجزونه خيراً ، واقتروا على ذلك . وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان . وكان يسمى الرأي فيه - لأنه أساء إلى أهل المدينة في مدة ولايته عليهم ، وكانت نحواً من أربع سنين ، ولا سباً إلى سعيد بن المسيب وعلى بن الحسين . قال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه : لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل في ترك ذلك لله وللرحم . وأما كلامه فلا أكلمه أبداً ، وأما على بن الحسين فإنه مر به وهو موقوف فلم يتعرض له وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض أحد منهم له ، فلما اجتاز به وتجاوزته ناداه هشام الله يعلم حيث يجعل رسالته

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح حصونا كثيرة وغنم غنائم جمة ، ويقال إن النسي غزا بلاد الروم في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق ، وحصن الأخرم ، وبحيرة الفرسان ، وحصن بولس ، وقيقم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذراريهم . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل ، وعلى أن يطلق كل من يبلده من أسارى المسلمين ، وفيها غزا قتيبة بيكنند فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غنير ، وهى من أعمال بخارى ، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصفد ومن

حولهم من الأتراك ، فاتوهم في جمع عظيم فأخذوا على قتيبة الطرق والمضايق ، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين وهو لا يقدر أن يبعث إليهم رسولا ولا يأتيه منهم رسول ، وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم ، وكان لقتيبة عين من المعجم يقال له تندر ، فأعطاه أهل بخارى مالا جزيلا على أن يأتي قتيبة فيخذه عنهم ، فجاء إليه فقال له : أخلصني ، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين ، فقال له تندر : هذا عامل يقدم عليك سريعا بعزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فقال قتيبة لمولاه سياه اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك وإني أعطى الله عهداً إن ظهر هذا حتى ينقضي حربنا ألحقك به ، فأملك علينا لسانك ، فان انتشار هذا في مثل هذا الحال ضعف في أعضاد الناس ونصرة للأعداء ، ثم نهض قتيبة فخرض الناس على الحرب ، ووقف على أصحاب الرايات يحرضهم ، فاقتتل الناس قتالا شديداً ثم أنزل الله على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر فهزمت الترك هزيمة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ماشوا ، واعتصم من بقي منهم بالمدينة ، فأمر قتيبة الفعلة بهبهم فسالوه الصلح على مال عظيم فصالحهم ، وجعل عليهم رجلا من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعاً ، فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه ، فرجع إليها وحاصرها شهراً . وأمر النقاين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب وهو يريد أن يضرم النار فيها ، فسقط السور فقتل من الفعلة أربعين نفساً ، فسالوه الصلح فأبى ، ولم يزل حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبي الذرية وغنم الأموال ، وكان الذي ألب على المسلمين رجل أعور منهم ، فأمر فقال أنا أفندي نفسي بخمسة أبواب صينية قيمتها ألف ألف ، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك منه ، فقال قتيبة : لا والله لا أروع بك مسلماً مرة ثانية ، وأمر به فضربت عنقه . وهذا من الزهد في الدنيا ، ثم إن الغنائم سيدخل فيها ما أراد أن يفتدي به نفسه فان المسلمين قد غنموا من بيكنند شيئا كثيرا من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب ، وكان من جملة ما غنم سبك نخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا في خزائن الملك أموالا كثيرة وسلاحا كثيرا وعددا متنوعة ، وأخذوا من السبي شيئا كثيرا ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطى ذلك للجند فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء ، وصار لكل واحد منهم مال مستكثر جدا ، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول ، كثيرة قووا بذلك قوة عظيمة والله الحمد والمنة .

وقد حج بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة ، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد بن

عمر بن حزم ، وعلى العراق والمشرق بكاله الحجاج ، وثأبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكيم وقاضيه بها عبد الله بن أذينة ، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جري بن عبد الله البجلي ، وقاضيه بها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، وثأبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم . وفيها توفي من الأعيان :

عتبة بن عبد السلمي

صحابي جليل ، نزل حمص ، يروى أنه شهد بني قريظة ، وعن المر باض أنه كان يقول هو خير مني أسلم قبلي بسنة . قال الواقدي وغيره : توفي في هذه السنة ، وقال غيره بعد التسعين والله أعلم . قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان عتبة بن عبد السلمي من أهل الصفة . وروى بقية عن بجير ابن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلاً يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله لحقره يوم القيامة » . وقال إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمي قال : اشتكيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العري فكساني خيشتين فلقد رأيتني وأنا أكسى الصحابة

المقدام بن معدي كرب

صحابي جليل ، نزل حمص أيضاً ، له أحاديث ، وروى عنه غير واحد من التابعين . قال محمد ابن سعد والفلاس وأبو عبيدة : توفي في هذه السنة ، وقال غيرهم : توفي بعد التسعين والله أعلم .

أبو امامة الباهلي

واسمه صدق بن مجلان ، نزل حمص ، وهو راوي حديث « تلقين الميت بعد الدفن » رواه الطبراني في الدعاء ، وقد تقدم له ذكر في الوفيات .

قبيصة بن زؤيب

أبو سفیان الخزاعي المدني ، ولد عام الفتح وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، ليدعوه له ، روى عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وأصيبت عينه يوم الحرة ، وكان من فقهاء المدينة ، وكانت له منزلة عند عبد الملك ، ويدخل عليه بغير إذن ، وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها ، وكان صاحب سره ، وكان له دار بدمشق بباب البريد ، وتوفي بدمشق .

عروة بن المغيرة بن شعبة

ولي إمرة الكوفة للحجاج ، وكان شريفاً ليبياً مطاعاً في الناس ، وكان أحول . توفي بالكوفة (يحيى بن يعمر) ، كان قاضي مرو ، وهو أول من نطق بالمصاحف ، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم وله أحوال ومعاملات ، وله روايات ، وكان أحد الفصحاء ، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي .

شريح بن الحارث بن قيس القاضي

أدرك الجاهلية ، واستقضاءه عمر على الكوفة فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة ، وكان عالماً عادلاً كثير الخير ، حسن الأخلاق ، فيه دعابة كثيرة ، وكان كوسجاً لا شعر بوجهه . وكذلك كان عبد الله بن الزبير ، والأحنف بن قيس ، وقيس بن سعد بن عباد ، وقد اختلف في نسبه وسنه وعام وفاته على أقوال ، ورجح ابن خلكان وفاته في هذه السنة .

قلت : قد تقدمت ترجمة شريح القاضي في سنة ثمان وسبعين بما فيها من الزيادة الكثيرة غير ما ذكره المؤلف هنا وهناك ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانه في جمادى من هذه السنة . وكان حصيناً منيعاً . اقتتل الناس عنده قتالاً عظيماً ثم حمل المسلمون على النصارى فهزموم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين فانهزم المسلمون ولم يبق أحد منهم في موقفه إلا العباس بن الوليد ومعه ابن محيريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قرأ القرآن الذين يريدون وجه الله عز وجل ؟ فقال : نادهم يأتوك ، فنادى يا أهل القرآن ، فتراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم وولجأوا إلى الحصن فحاصروهم حتى فتحوه .

وذكر ابن جرير أنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله ص . ، وأن يوسع من قبلته وسائر نواحيه ، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ، فمن باعك ملصكه فاشتره منه وإلا فقومه له قيمة عدل ثم أهدمه وادفع إليهم أثمان بيوتهم ، فان لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان . فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا : هذه حجرة قصيرة السقف ، وسقفها من جريد النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى أبوابها المسوح . وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون ، وإلى بيوت النبي ص . ويفتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا ، فلا يعمرن فيها إلا بقدر الحاجة وهو ما يستر ويكن ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والآكسرة ، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها . فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم ، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يعلى سقفه . فلم يجد عمر بداً من هدمها ، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف وجوه الناس من بني هاشم وغيرهم ،

وتبا كوا مثل يوم مات النبي (ص)، وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع فاشترى منهم، وشرع في بنائه وشمر عن إزاره واجتهد في ذلك، وأرسل الوليد إليه فعولا كثيرة، فأدخل فيه الحجرة النبوية - حجرة عائشة - فدخل القبر في المسجد، وكانت حده من الشرق وسائر حجر أمهات المؤمنين كما أمر الوليد، وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم فحشوا أن تكون قدم النبي (ص)، حتى تحققوا أنها قدم عمر رضي الله عنه، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد - كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا - والله أعلم

وذكر ابن جرير أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء، فبعث إليه بمائة صانع وفصوص كثيرة من أجل المسجد النبوي، والمشهور أن هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق فالله أعلم. وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كوربغانون ابن أخت ملك الصين، ومعه مائتا ألف مقاتل، من أهل الصفد وفرغانة وغيرهم، فاقتتلوا قتالا شديداً، وكان مع قتيبة نيزك ملك الترك، وأسورا فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئا كثيرا، وقتل منهم خلقا وسبي وأسروا.

وفيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز ومعه جماعات من أشرف قریش، فلما كان بالتدريج لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، فقال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا ودخلوا مكة ومعه المطر، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر، ومطرت عرفة ومزدلفة ومنى، وأخصبت الأرض هذه السنة خصبا عظيما بمكة وما حولها، وذلك ببركة دعاء عمر ومن كان معه من الصالحين. وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان - عبدالله بن بسر بن أبي بسر المازني

صحابي كآبيه، سكن حص، وروى عنه جماعة من التابعين، قال الواقدي: توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة، زاد غيره وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام، وقد جاء في الحديث أنه يعيش قرنا، فعاش مائة سنة.

عبدالله بن أبي أوفى

علقة بن خالد بن الحارث الخزاعي ثم الأسلمي، صحابي جليل، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، وكانت وفاته فيما قاله البخاري سنة تسع أو ثمان وثمانين. وقال الواقدي وغير واحد: سنة ست وثمانين، وقد جاوز المائة، وقيل قاربها رضي الله عنه.

وفيهما توفي هشام بن إسماعيل

ابن هشام بن الوليد المخزومي المدني ، وكان حماً عبد الملك بن مروان وقائمه على المدينة ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب كما تقدم ، ثم قدم دمشق فمات بها ، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق فمات فيها في السبع .

عمير بن حكيم

العنسي الشامي ، له رواية ، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو وابن محيريز أبو الأبيض ، قتل في غزوة طوانة من بلاد الروم في هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بلاد الروم قتلوا خلقاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة ، منها حصن سورية وعمورية وهرقلة وقودية . وغنما شيئاً كثيراً وأسرا جاً غفيراً . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصغد ونسف وكش ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفروهم فقتلهم ، وسار إلى بخارى فلقية دونها خلق كثير من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خرطان ، وظفروهم فقال في ذلك نهار بن تومعة :

وَبَاتَتْ لَهُمْ مَنَا بِخَرْطَانُ لَيْلَةً * وَلَيْلَتُنَا كَانَتْ بِخَرْطَانُ أَطْوَلَا

ثم قصد قتيبة وردان خذاه ملك بخارى فقاتله وردان قتلاً شديداً فلم يظفر به قتيبة ، فرجع عنه إلى مرو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الاسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد - يعني بخارى - فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن يرجع إليها وتب إلى الله من ذنبك واتهما من مكان كذا وكذا ، ورد وردان خذاه ، وإياك والتحويط ، ودعني وبنيات الطريق .

وفي هذه السنة ولي الوليد بن عبد الملك إمرة مكة خالد بن عبد الله القسري ، فحفر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون ، فجاءت عذبة الماء طيبة ، وكان يستقي منها الناس . وروى الواقدي : حدثني عمر بن صالح عن نافع مولى بني مخزوم . قال : سمعت خالد بن عبد الله القسري يقول على منبر مكة وهو يخاطب الناس : أيها الناس ! أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقاء فسقاه ملحا أجاباً ، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراثاً - يعني البئر التي احتفرها بالثنتين ثنية طوى وثنية الحجون - فكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من آدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على رزم . قال ثم غارت تلك البئر فذهب ماؤها فلا يدرى أين هو إلى اليوم ، وهذا الاسناد غريب ، وهذا الكلام يتضمن

كفرًا إن صح عن قائله ، وعندى أن خالد بن عبد الله لا يصح عنه هذا الكلام ، وإن صح فهو
عدو الله ، وقد قيل عن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول
الذى أرساه الله ، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها .

وفي هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان ، وفتح حصونا
ومدائن كثيرة هنالك . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز . قال شيخنا الذهبي : وفي هذه السنة
فتحت صقلية وميورقة وقيل ميرة ، وهما في البحر بين جزيرة صقلية وخدرة من بلاد الأندلس .
وفيهما سير موسى بن نصير ولده إلى النقر يس ملك الفرنج فافتتح بلادًا كثيرة . وفيها توفي من الأعيان
عبد الله بن ثعلبة بن صمير أحد التابعين العذري الشاعر ، وقد قيل إنه أدرك حياة النبي صلى الله عليه وآله ،
ومسح على رأسه ، وكان الزهري يتعلم منه النسب . والعمال في هذه السنة هم المذكورون في التي قبلها .

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم ، ففتحوا حصونا وقتلوا خلقًا من الروم
وغنما وأسرا خلقًا كثيرًا . وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، وذهبوا به إلى ملكهم
فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك . وفيها عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن
إمرة مصر وولى عليها قرة بن شريك . وفيها قتل محمد بن القاسم ملك السند داهر بن صصة ،
وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج . وفيها فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى وهزم
جميع العدو من الترك بها ، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها ، وقد تقصاها ابن جرير . وفيها طلب
طرخون ملك الصفد بعد فتح بخارى من قتيبة أن يصلحه على مال يبذله في كل عام فأجابه قتيبة إلى
ذلك وأخذ منه رهنا عليه . وفيها استنجد وردان خذاه بالترك فأتوه من جميع النواحي - وهو
صاحب بخارى بعد أخذ قتيبة لها - وخرج وردان خذاه وحمل على المسلمين فخطبهم ثم عاد المسمون
عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وصالح قتيبة ملك الصفد ، وفتح بخارى وحصونها ، ورجع قتيبة
بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاج ، فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصفد قال للملوك الترك : إن
العرب بمنزلة اللصوص فإن أعطوا شيئًا ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فإن أعطوه شيئًا
أخذوه ورجع عنهم ، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكًا . فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم فكاتب
نيزك ملك الترك ملوك ما وراء النهر منهم ملك الطالقان ، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذي
كان بينه وبين قتيبة ، واستعجاش عليه بالملوك كلها ، فأناه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على
الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يدا واحدة على قتيبة ، واتبعوا إلى الربيع وتعاهدوا وتعاقدوا على أن
يجتمعوا فيقاتلوا كلهم في فصل الربيع من السنة الآتية ، فقتل منهم قتيبة في ذلك الحين مقتلة

عظيمة جداً لم يسمع بمثلاً ، وصلب منهم سباطين في مسافة أربعة فراسخ في نظام واحد ، وذلك مما كسر جموعهم كلهم .

وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب وأخواه المفضل وعبد الملك من سجن الحجاج ، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمّنهم من الحجاج ، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك وعاقبهم عقوبة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد بن المهلب ، كان لا يسمع له صوت ولو فعلوا به ما فعلوا نكابة لذلك ، وكان ذلك يغيظ الحجاج ، قال قائل للحجاج : إن في ساقه أثر نشابة بقي فصلها فيه ، وإنه متى أصابها شيء لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعذاب ، فصاح فلما سمعت أخته هند بذت المهلب - وكانت تحت الحجاج - صوته بكّت وناحت عليه فطلقها الحجاج ثم أودعهم السجن ، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال لينفذ جيشاً إلى الأكراد واستنصحبهم معه ، فخذق حولهم ووكّل بهم الحرس ، فلما كان في بعض الليالي أمر يزيد ابن المهلب بطعام كثير فصنع للحرس ، ثم تنكر في هيئة بعض الطبّاخين وجعل لحيته بيضاء وخرج فراه بعض الحرس فقال : ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا ، ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه فركبوا السفن وساروا نحو الشام ، فلما بلغ الحجاج هربهم انزعج لذلك وذهب وهمهم أنهم ساروا إلى خراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم في كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور والكور بتحصيلهم . وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهمهم ، وأنه لا يرام هربوا إلا إلى خراسان ، وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع ابن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس له ، وتحقق عنده قول الراهب . وأما يزيد بن المهلب فإنه سلك على البطائح وجاءته خيول كان قد أعدها له . أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم ، فركبها وسلك به دليل من بني كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد ، فأخذ بهم على السبابة ، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين أن يزيد قد سلك نحو الشام ، فكتب إلى الوليد يعلّمه بذلك ، وسار يزيد حتى نزل الأردن على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي . وكان كرمياً على سليمان بن عبد الملك . فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له : إن يزيد بن المهلب وأخويه في منزلي ، قد جاؤا مستعيزين بك من الحجاج ، قال : فاذهب فأخبرهم فهم آمنون مادمت حياً ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمّنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد : إن آل المهلب قد أمّنهم ، وإنما بقي للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف ، وهي عندي . فكتب إليه الوليد : لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلى . فكتب إليه : لا والله لا أبعثه حتى أجيء معه ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحني أو تخفني في جوارى . فكتب إليه : لا والله لا نجى معه وأبعث به إلى في وثاق . فقال يزيد : أبعث

بي إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحرباً ، فابعثني إليه وابعث معي ابنك واكتب إليه بالطف عبارة تقدر عليها فبعثه وبعث معه ابنه أيوب ، وقال لابنه : إذا دخلت في الدهليز فادخل مع يريد في السلسلة ، وادخلا عليه كذلك . فلما رأى الوليد ابن أخيه في السلسلة ، قال : والله لقد بلغنا من سليمان . ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذلل من رجا العز في الانقطاع إلينا لمزنا بك . ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبد الملك فإذا فيه : أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذلل جوارى ولا تخفره ، بل لم أجر إلا ساماً مطيعاً ، حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك فإن كنت إنما أتمد قطيعتي وأخفار ذمتي والابلاغ في مساوتي فقد قدرت إن أنت فعلت ، وأنا أعيدك بالله من احترام قطيعتي وانتهاك حرمتي ، وترك ربي وإجابتي إلى ما سألتك ، ووصلتي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يفرق الموت بيني وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتي أجل الوفاة علينا إلا وهو لي واصل ولحق مؤد ، وعن مساوتي نازع فليفعل ، ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا بعد تقوى الله بأسر مني برضاك وسرورك ، وإن رضاك وسرورك أحب إلى من رضائي وسروري ، ومما أتمس به رضوان الله عز وجل لصلتي ما بيني وبينك ، وإن كنت يا أمير المؤمنين يوماً من الدهر تريد صلتى وكرامتي وإعظام حق فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو على .

فلما قرأ الوليد كتابه قال : لقد أشقنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم يزيد بن المهلب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ننساه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشرق والمغرب ، ما أن المنة فيه علينا عظيمة . فقال له : اجلس فجلس فأمنه وكف عنه ورده إلى سليمان ، فكان عنده حسن الهيئة ، ويصف له ألوان الأطعمة الشبيهة ، وكان حظياً عنده لا يهدى إليه بهدية إلا أرسل له بنصفها ، وتقرب يزيد ابن المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقديم ، وكتب الوليد إلى الحجاج إن لم أصل إلى يزيد بن المهلب وأهل بيته مع أخي سليمان ، فكف عنهم واله عن الكتاب إلى فيهم . فكف الحجاج عن آل المهلب وترك ما كان يطالبهم به من الأموال ، حتى ترك لأبي عبيدة بن المهلب ألف ألف درهم ، ولم يزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج في سنة خمس وتسعين ، ثم ولي يزيد بلاد العراق بعد الحجاج كما أخبره الراهب . وفيها توفي من الأعيان :

يتاذق الطيب

الحاذق ، له مصنفات في فنه وكان حفيلاً عند الحجاج ، مات في حدود سنة تسعين بواسط .
وفيهما توفي (عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة) وأبو العالية الرياحي وسنان بن سلمة بن المحبق أحد
الشجعان المذكورين ، أسلم يوم الفتح ، وتولى غزو الهند ، وطال عمره . وتوفي في هذه السنة محمد بن
يوسف الثقفي أخو الحجاج ، وكان أميراً على اليمن ، وكان يلعب علياً على المنابر ، قيل إنه أمر حجر
المنذري أن يلعب علياً فقال : بل لعن الله من يلعب علياً ، ولعنة الله على من لعنه الله . وقيل إنه وري
في لعنه الله أعلم .

خالد بن يزيد بن معاوية

أبو هاشم الأموي الدمشقي ، وكانت داره بدمشق تلي دار الحجارة ، وكان عالماً شاعراً ، وينسب
إليه شيء من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة ، روى عن أبيه ودحية الكلبي وغنه
الزهرى وغيره ، قال الزهرى : كان خالد يصوم الأعياد كلها الجمعة والسبت والأحد - يعني يوم
الجمعة وهو عيد المسلمين ، ويوم السبت وهو عيد اليهود ، والأحد للنصارى - وقال أبو زرعة
الدمشقي : كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم ، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد ، وكان
ولي العهد من بعد مروان فلم يلتم له الأمر ، وكان مروان زوج أمه ، ومن كلامه : أقرب شيء
الأجل ، وأبعد شيء الأمل ، وأرجى شيء العمل ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال :

سألت النداء والجود حُرَّانِ أنما * فردّا وقالّا إنّنا لمبيد

فقلت ومن مولا كما فتطاولا * عليّ وقالّا خالد بن يزيد

قال : فأمر له بمائة ألف . قلت : وقد رأيتهما قد أنشدا في خالد بن الوليد رضي الله عنه . فقال :
وقالا خالد بن وليد . والله أعلم . وخالد بن يزيد هذا كان أميراً على حمص ، وهو الذي بنى جامع
حمص وكان له فيه أربع مائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه اعتقهم . وكان خالد ينفذ الحجاج ، وهو
الذي أشار على عبد الملك لما تزوج الحجاج بنت جعفر أن يرسل إليه فيطلقها ففعل . ولما مات مشي
الوليد في جنازته وصلى عليه ، وكان قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، فسأله عبد الملك عن هذا
فلم يخبره فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك بخطبها
لخالد فقالت : حتى يطلق نساء فطلقهن وتزوجها وأنشد فيها الشعر .

وكانت وفاته في هذا العام ، وقيل في سنة أربع وثمانين وقد ذكر هناك ، والصحيح الأول .

عبد الله بن الزبير

ابن سليم الأسدي الشاعر أبو كثير ، ويقال أبو سعيد ، وهو مشهور ، وفد على عبد الله بن

الزبير فامتدحه فلم يقطه شيئاً فقال : لمن الله ناقة حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إن صاحبها ، يقال إنه مات في زمن الحجاج .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونا كثيرة أيضاً ، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفيها غزا موسى بن نصير بلاد المغرب ففتح مدناً كثيرة ودخل في تلك البلاد وولج فيها حتى دخل أراضى غابرة قاصية فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن ، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد ما يلوح على سماتها أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائفة ، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها . وفيها مهد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة ، وذلك بعد قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد ، وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتعدوا في العام الماضي في أول الربيع أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة ، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، فاجتمعوا اجتماعاً هائلاً لم يجتمعوا مثله في موقف ، فكسرم قتيبة وقتل منهم أمماً كثيرة ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه ، حتى ذكر أنه صلب منهم في بعض المواضع من جملة من أخذه منهم سباطين طولهما أربعة فراسخ من ههنا وههنا ، عن يمينه وشماله ، صلب الرجل منهم بجنب الرجل ، وهذا شئ كثير ، وقتل في الكفار قتلاً ذريعاً ، ثم لا يزال يقتبغ نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم ، ومن كورة إلى كورة ، ومن رستاق إلى رستاق ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره في قلعة هناك شهرين متتابعين ، حتى نفذ ما عند نيزك خان من الأطعمة ، وأشرف هو ومن معه على الهلاك ، فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمناً مذموماً مخذولاً ، فسجنه عنده ثم كتب إلى الحجاج في أمره فجاء الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله ، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه ، فقائل يقول : اقله ، وقائل يقول لا تقتله فقال له بعض الأمراء : إنك أعطيت الله عهداً أنك إن ظفرت به لتقتله ، وقد أمكنك الله منه ، فقال قتيبة : والله إن لم يبق من عمري إلا ما يسع ثلاث كلمات لتقتله ، ثم قال : اقلوه اقلوه اقلوه ، فقتل هو وسبعائة من أصحابه من أمرائه في غداة واحدة ، وأخذ قتيبة من أموالهم وخبولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئاً كثيراً ، وفتح في هذا العام مدناً كثيرة ، وقرر ممالك كثيرة ، وأخذ حصونا كثيرة مشحونة بالأموال والنساء ، ومن آنية الذهب والفضة شيئاً كثيراً ، ثم سار قتيبة إلى الطالقان - وهي مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم - فأخذها واستعمل عليها ، ثم سار إلى الفارياب وبها مدن ورساتيق ، فخرج إليه ملكها سامعا مطيعاً ، فاستعمل عليها رجلاً من أصحابه ، ثم سار إلى

الجوزجان فأخذنها من ملكها واستعمل عليها ، ثم أتى بلخ فدخلها وأقام بها نهاراً واحداً ، ثم خرج منها وقصد نيزك خان ببغلان ، وقد نزل نيزك خان معسكر أعلى فم الشعب الذي منه يدخل إلى بلاده ، وفي فم الشعب قلعة عظيمة تسمى شمسية ، لملوها وارتفاعها واتساعها . فقدم على قتيبة الرؤب خان ملك الرؤب وممنجان ، فاستأمنه على أن يملكه على مدخل القلعة ، فأمنه وبعث معه رجلاً إلى القلعة فأنوها ليلاً ففتحوها وقتلوا خلقاً من أهلها وهرب الباقي ، ودخل قتيبة الشعب وأتى ممنجان - وهي مدينة كبيرة - فأقام بها وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك المدن والبلاد نيزك خان في جيش هائل ، فسار خلفه إلى ببغلان فحصره بها ، وأقام بمحصاره شهرين حتى نفذ ما عنده من الأقوات ، فأرسل قتيبة من عنده ترجماناً يسمى الناصح ، فقال له : اذهب فائتني بنيزك خان ولئن عدت إلى وليس هو معك ضربت عنقك . وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة ، فسار الترجمان إلى نيزك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها - وكانوا قد أجهدوا الجوع - ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له ، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ومن أهل بيته جماعة . وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم وولى على بلادهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الواقدي وغيره : وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية فأخلى له المسجد النبوي ، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرج به ، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم ، فقالوا له : تنح عن المسجد أيها الشيخ ، فان أمير المؤمنين قادم ، فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلي ههنا وههنا ويدعو الله عز وجل ، قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فخانته منه النفاتة فقال : من هذا هو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك . فقال : قد علمت بنضه لنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه ، وشرعت أئني عليه ، وشرع الوليد يثنى عليه بالعلم والدين ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضيف البصر - وإنما قلت ذلك لأعذر له - فقال : نحن أحق بالسمي إليه ، فجاء فوقف عليه فلم عليه فلم يقم له سعيد ، ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس . فقال : أجل يا أمير المؤمنين . قالوا : ثم خطب الوليد على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس في الخطبة الأولى وانتصب في الثانية ، قال وقال : هكذا خطب عثمان ، ثم انصرف فصرف إلى الناس من أهل المدينة ذهباً كثيراً وفضة كثيرة ، ثم كسا المسجد النبوي كسوة من كسوة الكعبة التي معه ، وهي من ديباح غليظ .

وتوفي في هذه السنة السائب بن يزيد بن سعد بن ثمامة ، وقد حج به أبوه مع رسول الله (ص) .
وكان عمر السائب سبع سنين ، رواه البخاري فلهذا قال الواقدي : إنه ولد سنة ثلث من
الهجرة ، وتوفي سنة إحدى وتسعين . وقال غيره : سنة ست وقيل ثمان وثمانين ، والله أعلم .

سهل بن سعد الساعدي

صحابي مدني جليل ، توفي رسول الله (ص) وله من العمر خمس عشرة سنة ، وكان ممن ختمه
الحجاج في عنقه هو وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله في يده ، لينظم كيلا يسمع الناس من رأيهم ،
قال الواقدي : توفي سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة ، وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة .
قال محمد بن سعد : ليس في هذا خلاف ، وقد قال البخاري وغيره : توفي سنة ثمان وثمانين والله أعلم .

ثم دخات سنة ثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ففتحوا حصونا كثيرة وغنما شيئا كثيرا
وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم ، وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس
في اثني عشر ألفا ، فخرج إليه ملكها أذريقون في جحافة وعليه تاجه ومعه سرير ملكه ، فقاتله طارق
فهزمه وغنم مافي معسكره ، فكان من جملة ذلك السرير ، وتملك بلاد الأندلس بكما ، قال الذهبي :
كان طارق بن زياد أمير طنجة وهي أقصى بلاد المغرب ، وكان نائبا لمولاه موسى بن نصير ،
فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه ، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس
من رفاق سبعة وانتهز الفرصة لمكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم ، وأمن طارق في بلاد الأندلس
فافتتح قرطبة وقتل ملكها أدرينوق ، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح ، فحسده موسى على الانفراد
بهذا الفتح ، وكتب إلى الوليد يشره بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه
دخل بغير أمره ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، ثم سار إليه مسرعا بجيشه فدخل
الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، فأقام سنين يفتح في بلاد الأندلس ويأخذ المدن
والأموال ، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال ، فغنم شيئا لا يحصى ولا يوصف ولا يعد ، من
الجواهر والياقوت والذهب والفضة ، ومن آنية الذهب والفضة والأثاث والخيل والبغال وغير ذلك
شيئا كثيرا ، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئا كثيرا . وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن
الوليد من حصون بلاد الروم حصن سوسنة وبلغا إلى خليج القسطنطينية .

وفيها فتح قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ، وامتنع عليه أهل فرياب فأخرقها ، وجيز أخاه
عبد الرحمن إلى الصفد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد ، فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان

أموالا كثيرة ، وقدم على أخيه وهو ببخارى فرجع إلى مرو ، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورجل عنه اجتمعت الصفد وقالوا لطرخون : إنك قد بؤت بالنل ، وأديت الجزية ، وأنت شيخ كبير ، فلا حاجة لنا بك ، ثم عزلوه وولوا عليهم غورك خان - أخا طرخون خان - ثم إنهم عصبوا ونقضوا العهد ، وكان من أمرهم ما سيأتي .

وفيهما غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة ، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك ، يحمل ذلك إليه ، فصالحه . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز نائب المدينة . وتوفي فيها من الأعيان مالك بن أوس بن الحذافان النضري ، أبو سعيد المدني ، مختلف في صحبته ، قال بعضهم : ركب الخيل في الجاهلية ورأى أبا بكر ، وقال محمد بن سعد : رأى رسول الله (ص) ، ولم يحفظ منه شيئا ، وأنكر ذلك ابن معين والبخارى وأبو حاتم ، وقالوا : لا تصح له صحبة والله أعلم . مات في هذه السنة وقيل في التي قبلها فله الله أعلم .

طويس المغني

اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدني مولى بني مخزوم ، كان بارعا في صناعته ، وكان طويلا مضطربا أحول العين ، وكان مشثوما ، لأنه ولد يوم مات رسول الله (ص) ، وفطم يوم توفي الصديق ، واحتمل يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل الحسين بن علي ، وقيل ولد له يوم قتل علي . حكاه ابن خلكان وغيره . وكانت وفاته في هذه السنة عن ثنتين وثمانين سنة بالسويد . وهي على مرحلتين من المدينة - الأخطل - كان شاعرا مطبقا ، فاق أقرانه في الشعر . ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين .

وفيهما افتتح مسلمة بن عبد الملك حصونا كثيرة من بلاد الروم ، منها حصن الحديد وغزالة وماسة وغير ذلك . وفيها غزا العباس بن الوليد ففتح سمسطية . وفيها غزا مروان بن الوليد الروم حتى بلغ حنجرة . وفيها كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح وأن يعطيه من بلاده مدائن ، وأن يدفع إليه أموالا ورقيقا كثيرا على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه ، فانه قد أفسد في الأرض وبني على الناس وعسفهم ، وكلن أخوه هذا لا يسمع بشئ حسن عند أحد إلا يبعث إليه فأخذه منه ، سواء كان مالا أو نساء أو صبيانا أو دواب أو غيره ، فأقبل قتيبة نصره الله في الجيوش فسلم إليه خوارزم شاه ماصالحه عليه ، وبعث قتيبة إلى بلاد أخى خوارزم شاه جيشا قتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير من كبارهم ، فدفع أخاه إليه ، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته ، قيل ألفا بين يديه وألفا عن يمينه وألفا عن شماله وألفا من وراء ظهره ، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم .

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله وعزم على الرجوع إلى بلاده ، قال له بعض الأمراء : إن أهل الصغد قد آمنوك عامك هذا ، فإن رأيت أن تعدل إليهم وهم لا يشعرون ، فأنك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدنا يوماً من الدهر . فقال قتيبة لذلك الأمير : هل قلت هذا لأحد ؟ قال : لا . قال فلأن يسمعه منك أحد أضرب عنقك . ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفاً فسبقه إلى سمرقند ، ولحقه قتيبة في بقية الجيش ، فلما سمعت الأتراك بقدمهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل فيكبسوا جيش المسلمين ، وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يطاقون ، وقال : خذوا عليهم الطريق ، فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق ، فلما اجتازوا بهم بالليل - وهم لا يشعرون بهم - نادوا عليهم فاقنتل المسلمون هم وإياهم ، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا نفر اليسير واحتزوا رؤسهم وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المجالية بالذهب ، والأمتعة ، وقال لهم بعض أولئك : تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلا ابن ملك أو بطل من الأبطال المدودين بمائة فارس أو بألف فارس ، فنفلهم قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح ، واقترب من المدينة العظمى التي بالصغد - وهي سمرقند - فنصب عليها المجانيق فرماها بها ، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم ، وناصحه من معه عليها من بخارى وخوارزم ، فقاتلوا أهل الصغد قتلاً شديداً ، فأرسل إليه غورك ملك الصغد : إنما تقتلني باخواني وأهل بيتي ، فأخرج إلى في العرب . فغضب عند ذلك قتيبة وميز العرب من المعجم وأمر المعجم باعتزالهم ، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح ، وانزعه من أيدي الجبناء ، وزحف بالأبطال على المدينة ورمها بالمجانيق ، فثلم فيها ثلثة فسدها الترك بفرار الدخن ، وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه . فلم يلبث أن مات قبيحه الله ، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف ، ثم دخل الليل ، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضاً ثلثة وصعد المسلمون فوقها ، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب ، فقالت الترك لقتيبة : ارجع عنا يومك هذا ونحن نصالحك غداً ، فرجع عنهم وصالحوه من الفد على ألفي ألف ومائة ألف يحملونها إليه في كل عام ، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق ، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب ، وفي رواية مائة ألف من رقيق ، وعلى أن يأخذ حلية الأصنام ومافي بيوت النيران ، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبنى فيها قتيبة مسجداً ، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه ، ويتغدى ويخرج . فأجابوه إلى ذلك ، فلما دخلها قتيبة دخلها معه أربعة آلاف من الأبطال - وذلك بعد أن بنى المسجد

ووضع فيه المنبر - فصلى في المسجد وخطب وتغدى وأتى بالأصنام التي لهم فسلبت بين يديه ، وألقيت بعضها فوق بعض ، حتى صارت كالقصر العظيم ، ثم أمر بتحريقها ، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقتها هلك ، وجاء الملك غورك قهسى عن ذلك ، وقال لقتيبة : إني لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ في يده شملة نار وقال : أنا أحرقتها بيدي فكيونى جيماً ثم لا تنظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل ، وألقى فيها النار فاحترقت ، فوجد من بقاياها ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب . وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السبي جارية من ولد يزدجرد ، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ، ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم : إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، ولكن لا بد من جند يقيمون عندهم من جهتنا . فانتقل عنها ملكها غورك خان فتلا قتيبة [وأنه أهلك عاداً الأولى ونمود فما أبقى] الآيات ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو ، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وقال له : لا تدع مشركاً يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد ، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينة ختمه ، فان جفت وهو بها فاقطعه ، ومن رأيت منهم ومعه حديدة أو سكينه فاقطعه بها ، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً فاقطعه ، فقال في ذلك كعب الأشقرى - ويقال هو لرجل من جهنى -

كل يوم يحوى قتيبة نهياً * ويزيد الأموال مالاً جديداً
باهلي قد ألبس التاج حتى * شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغد بالكتائب حتى * ترك الصغد بالعراء قسودا
فوليد يبكي لفقد أبيه * وأب مومج يبكي الوليدا
كلما حل بلدة أو أفاها * تركته خيله بها أحنودا

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارقال عن الأندلس ، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائة سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيها من الذهب والجواهر شيء كثير جداً ، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فما وصلت إليه حتى مات وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فوصلت مائة سليمان عليه السلام إلى سليمان على ماسياتي بيانه في موضعه ، وكان فيها ما يهر العقول ، لم ير منظر أحسن منها . واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير . وفيها بعث موسى بن نصير العساكر وبثها في بلاد المغرب ، فافتتحوا مدناً كثيرة من جزيرة الأندلس منها قرطبة وطنجة ، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء وغيرهما من المدن الكبار والأقاليم ، ومن القرى والرساتيق شيء كثير ، وكان لا يأتي مدينة فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه ، وجيز البعوث والسرايا غرباً

وشرقا وشمالا ، فجمعوا يفتنحون المغرب بلداً بلداً ، وإقليماً إقليمياً ، ويغنمون الأموال ويسبون الذراري والنساء ، ورجع موسى بن نصير بغنائم وأموال وتحف لا تحصى ولا تعد كثرة .
 وفيها قحط أهل إفريقية وأجدبوا جدياً شديداً ، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقى بهم ، فزال يدعوا حتى انتصف النهار ، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له : ألا تدعو لأمر المؤمنين ؟ قال : ليس هذا الموضع موضع ذلك ، فلما قال هذه المقالة أرسل الله عليهم الغيث فأمطروا مطراً غزيراً وحسن حالهم ، وأخصبت بلادهم . وفيها ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك ، وصوب فوق رأسه قرصة من ماء بارد في يوم شتاء بارد ، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله . وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديداً الخوف لا يأمن ، وكان إذا بشر بشيء من أمر الآخرة يقول : وكيف وخبيب لي بالطريق ؟ وفي رواية يقول هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق ، ثم يصيح صياح المرأة الشكلى ، وكان إذا أتى عليه يقول : خبيب وما خبيب إن نجوت منه فأنا بخير . وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء ، وكانت تلك هفوة منه وزلة ، ولكن حصل له بسببها خير كثير ، من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعمل وسدقة وبر وعق وغير ذلك .

وفيها افتتح محمد بن القاسم - وهو ابن عم الحجاج بن يوسف - مدينة الديبل وغيرها من بلاد الهند وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة ، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر - وهو ملك الهند - في جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلاً منتخبة ، فاقتلوا فبهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً فاقتلوا قتلاً شديداً فقتل الملك داهر وغالب من معه ، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فاقتتح مدينة الكبرج وبرها ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثرة ، من الجواهر والذهب وغير ذلك . فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلات قلوب المشركين من المسلمين رعباً ، لا يترجى المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو والصلح والاولياء والعطاء من كبار التابعين ، في كل جيش منهم شزيمة عظيمة ينصر الله بهم دينه . فقتيبة ابن مسلم بفتح في بلاد الترك ، يقتل ويسبي ويغنم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى ملكه يدعوه ، فخاف منه وأرسل له هدايا ونحفاً وأموالاً كثيرة هدية ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث إن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه . ولوعاش الحجاج لما أقبل عن بلاد

الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقى مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر . ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك ، قتله بعض المسلمين . ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم ويجهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، وبنى بها مسلمة جامعاً يعبد الله فيه ، وامتلات قلوب الفرنج منهم رعباً . ومحمد بن القاسم ابن أخى الحجاج يجهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم . وموسى بن نصير يجهد في بلاد المغرب ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم . وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الاسلام وتركوا عبادة الأوثان . وقبل ذلك قد كان الصحابة في زمن عمر وعثمان فتحوا غالب هذه النواحي ودخلوا في مبانيها ، بعد هذه الأقاليم الكبار ، مثل الشام ومصر والعراق واليمن وأوائل بلاد الترك ، ودخلوا إلى ما وراء النهر وأوائل بلاد المغرب ، وأوائل بلاد الهند . فكان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بني أمية وفي أثناء خلافة بني العباس مثل أيام المنصور وأولاده ، والرشيد وأولاده ، في بلاد الروم والترك والهند . وقد فتح محمود سبكتكين وولده في أيام ملكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند ، ولما دخل طائفة ممن هرب من بني أمية إلى بلاد المغرب وتملكوها أقاموا سوق الجهاد في الفرنج بها . ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها فأخذ منها بلاداً كثيرة ، وضعف الاسلام فيها ، ثم لما استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية ، وضعف الاسلام وقل ناصروه ، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية ، فأقام الله سبحانه بنى أيوب مع نور الدين ، فاستلبوها من أيديهم وطردوهم عنه ، فله الحمد والمنة ، وسيأتي ذلك كله في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة ، وكان سبب ذلك ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم في ضيم وضيق مع الحجاج من ظلمه وغشيه ، فسمع بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد : إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة ، وهذا وهن وضعف في الولاية ، فأجعل على الحرمين من يضبط أمرهما ، فولى على المدينة عثمان بن حيان ، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسري ، وفعل ما أمره به الحجاج . فخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة في شوال فتنزل السويداء ، وقدم عثمان بن حيان المدينة ليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . ومن توفى في هذه السنة من الأعيان :

أنس بن مالك

ابن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ، أبو حمزة

ويقال أبو ثمامة الأنصاري النجاري ، خادم رسول الله .س. ، وصاحبه ، وأمه أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ، زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري . روى عن رسول الله .س. ، أحاديث جمة ، وأخير معلوم مهمة . وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم . وحدث عنه خلق من التابعين ، قال أنس : قدم رسول الله .س. المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة . وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال قيل لأنس : أشهدت بدرآ ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر لا أم لك ؟ قال الأنصاري : شهدتها بخدم رسول الله .س. . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي ، قلت : الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازي والله أعلم .

وقد ثبت أن أمه أمت به . وفي رواية عمه زوج أمه أبو طلحة . إلى رسول الله .س. فقالت : يا رسول الله هذا أنس خادم ليبيد يخدمك ، فوهبته منه فقبله ، وسألته أن يدعو له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . وثبت عنه أنه قال : كُنْتُ أُنَاقِي رَسُولَ اللَّهِ .س. بِنَخْلَةٍ كُنْتُ أُجْتَنِبُهَا . وقد استعمله أبو بكر ثم عمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك ، وقد انتقل بعد النبي .س. فسكن البصرة ، وكان له بها أربع دور ، وقد ناله أذى من جهة الحجاج ، وذلك في فتنة ابن الأشعث ، توهم الحجاج منه أنه له مداخل في الأمر ، وأنه ألقى فيه ، فغتمه الحجاج في عنقه ، هذا عنق الحجاج ، وقد شكاه أنس كما قدمنا إلى عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج يعنفه ، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنسا . وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك في أيام ولايته ، قيل في سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى جامع دمشق ، قال مكحول : رأيت أنسا يمشي في مسجد دمشق فقامت إليه فسألته عن الوضوء من الجنابة فقال : لا وضوء . وقال الأوزاعي : حدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر قال : قدم أنس على الوليد فقال له الوليد : ماذا سمعت من رسول الله .س. يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله .س. يقول : « أنتم والساعة كهاتين » . ورواه عبد الرزاق بن عمر عن إسماعيل قال : قدم أنس على الوليد في سنة ثنتين وتسعين فذكره . وقال الزهري : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : لا أعرف مما كان رسول الله .س. وأصحابه إلا هذه الصلاة ، وقد صنعت فيها ما صنعت . وفي رواية وهذه الصلاة قد ضيعت . يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع . كانوا يواظبون على التأخير إلا عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته كما سيأتي ، وقال عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال : جاءت بي أمي إلى رسول الله .س. وأنا غلام فقالت : يا رسول الله خويديمك أنيس فادع الله له . فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . قال : فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة ، وفي

رواية قال أنس : فوالله إن مالى لكثير حتى نخلى وكرمى ليشر فى السنة مرتين ، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة ، وفى رواية وإن ولدى لصلبى مائة وستة . ولهذا الحديث طرق كثيرة وألفاظ منتشرة جداً ، وفى رواية قال أنس : وأخبرتني بنتى آمنة أنه دفن لصلبى إلى حين مقدم الحجاج عشرون ومائة . وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أنس ، وقد أوردنا طرفاً من ذلك فى كتاب دلائل النبوة فى أواخر السيرة والله الحمد . وقال ثابت لأنس : هل مست يدك كفى رسول الله (س) ؟ قال : نعم ! قال فأعطينها أقبليها ، وقال محمد ابن سعد عن مسلم بن إبراهيم عن المثني بن سعيد الذراع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبى رسول الله (س) . ثم يبكى . وقال محمد بن سعد عن أبى نعيم عن يونس ابن أبى إسحاق عن المنهال بن عمرو . قال : كان أنس صاحب نعل رسول الله (س) ، وإداوته ، وقال أبو داود : ثنا الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس . قال : إني لأرجو أن ألقى رسول الله (س) ، فأقول : يا رسول الله خويدمك .

وقال الامام أحمد : حدثنا يونس ثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس . قال : سألت رسول الله (س) ، أن يشفع لى يوم القيامة : « قال أنا فاعل ، قلت فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، قلت : فإذا لم ألقك ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال فأنا عند الحوض لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة » . ورواه الترمذى وغيره من حديث حرب بن ميمون أبى الخطاب صاحب الأعمش الأنصارى به وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال شعبة عن ثابت قال قال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله (س) ، من ابن أم سليم - يعنى أنس بن مالك - وقال ابن سيرين : كان أحسن الناس صلاة فى الحضر والسفر . وقال أنس : خذ منى فأنا أخذت من رسول الله (س) ، عن الله عز وجل ، ولست تجد أثقى منى . وقال معتمر بن سليمان عن أبيه سمعت أنساً يقول : ما بقى أحد صلى إلى القبلتين غيرى . وقال محمد بن سعد : حدثنا عفان حدثنى شيخ لنا يكنى أبا جناب سمعت الحريرى يقول : أحرم أنس من ذات عرق فما سمعناه متكلماً إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل ، فقال لى : يا ابن أخى هكذا الاحرام . وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن فى بعض أبيات أزواج النبي (س) ، نتحدث فقال : مه ، فلما أقيمت الصلاة قال : إني لأخاف أن أكون قد أبطلت جمعى بقولى لكم مه . وقال ابن أبى الدنيا : ثنا بشار ابن موسى الخفاف ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت قال : كنت مع أنس فجاءت قهرمانة فقالت يا أبا حمزة عطشت أرضنا ، قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب

يلتئم ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شيء ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال :
انذار أين بلغت السماء ، فنظر فلم تعد أرضه إلا بسيراً .

وقال الامام أحمد : حدثنا معاذ بن معاذ ثنا ابن عون عن محمد قال : كان أنس إذا حدث عن رسول الله (ص) حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله (ص) . وقال الأنصاري عن ابن عوف عن محمد قال : بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من النخى فقال أخمس ؟ قال : لا ، فلم يقبله : وقال النضر بن شداد عن أبيه : مرض أنس فتيل له ألا ندعوك الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا أبو عبد الله الرقاشي ثنا جعفر بن سليمان ثنا علي بن يزيد قال : كنت في القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليألي ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج : هي يا خبيث ، جوال في الفتن ، مرة مع علي ، ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذي نفس الحجاج بيده لا ستأصلنك كما تستأصل الصمغة ، ولأخردنك كما تجرد الضب . قال يقول أنس : إياي يعني الأمير ؟ قال إياك أعني ، أصم الله سمعك ، قال فاسترجع أنس ، وشغل الحجاج فخرج أنس فتبعناه إلى الرحبة ، فقال : لولا أني ذكرت ولدي - وفي رواية لولا أني ذكرت أولادي الصفار - وخفته عليهم ما باليت أي قتل أقل ، ولكلمته بكلام في مقامى هذا لا يستخفني بعده أبداً . وقد ذكر أبو بكر بن عياش أن أنسا بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول : والله لو أن اليهود والنصارى رأوا من خدم نبيهم لأكرموه ، وأنا قد خدمت رسول الله (ص) عشر سنين . فكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً فيه كلام جد وفيه : إذا جاءك كتابي هذا فقم إلى أبي حمزة فترضاه وقبل يده ورجله ، وإلا حل بك مني ما تستمتع به . فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة والشدة ، هم أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي قدم بالكتاب أن لا يذهب إلى أنس ، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة - وكان إسماعيل صديق الحجاج - فجاء أنس فقام إليه الحجاج يثلقاه ، وقال : إنما مثلي ومثلك إياك أعني واسمعي يا جارة . أردت أن لا يبقى لأحد على منطوق .

وقال ابن قتيبة : كتب عبد الملك إلى الحجاج - لما قال لأنس ما قال - : يا ابن المستقرمة عجب الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوى بها إلى نار جهنم ، قاتلك الله أخيفش العينين ، أفتيل الرجلين ، أسود العاجزين - ومعنى قوله المستقرمة عجب الزبيب - أي تضيق فرجها عند الجماع به ، ومعنى أركلك أي أرفسك برجلي ، وسيأتي بسط ذلك في ترجمة الحجاج في سنة خمس وتسعين . وقال أحمد بن صالح العجلي : لم يبتل أحد من الصحابة إلا الرجلين ، معقيب كان به الجذام ، وأنس بن مالك كان به وضع . وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر قال :

رأيت أنسا يأكل فرايته يلتم لقماء عظاماً ، ورأيت به وضحا شديداً . وقال أبو يعلى : ثنا عبد الله ابن معاذ بن يزيد عن أيوب قال : ضعف أنس عن الصوم فصنع طعاماً ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم . وذكره البخاري تعليقا . وقال شعبة عن موسى السبلاوي قلت لأنس : أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : قد بقي قوم من الأعراب ، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي ، وقيل له في مرضه : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أرضني ، وجعل يقول : لقنوني لا إله إلا الله وهو محتضر ، فلم يزل يقولها حتى قبض . وكانت عنده عصية من رسول الله ﷺ ، فأمر بها فدفنت معه . قال عمر بن شبة وغير واحد : مات وله مائة وسبع سنين ، وقال الامام أحمد في مسنده : ثنا معتمر بن سليمان عن حميد أن أنسا عمر مائة سنة غير ستة ، قال الواقدي : وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة ، وكذا قال علي بن المديني والفلاس وغير واحد . وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقيل سنة تسعين ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل ثنتين وتسعين ، وقيل ثلاث وتسعين ، وهذا هو المشهور وعليه الجمهور والله أعلم . وقال الامام أحمد : حدثني أبو نعيم قال : توفي أنس بن مالك وجابر بن زيد في جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين . وقال قتادة : لما مات أنس قال مؤرق العجلي : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له وكيف ذلك يا أبا المعتمر ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله ﷺ ، قلنا لهم : آملوا إلى من سمعه منه .

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الشاعر المشهور ، يقال إنه ولد يوم توفي عمر بن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ، وتزوج يوم مقتل علي ، فله أعلم ، وكان مشهوراً بالتنزل المليح البليغ ، كان يتنزل في امرأة يقال لها الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية ، وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة : -

أيها النكح الثريا سهيلاً * عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقل يمان

ومن مستجاد شعره ما أورده ابن خلكان :

حي طيفاً من الأحبة زارا * بعد ما برح الكرى السمارا

طارقاً في المنام بعد دجى * الليل خفيا بأن يزور نهازا

قلت ما بالناس جفينا وكنا * قبل ذاك الأسع والأبصارا

قال : إنا كما عهدت ولكن * شغل الحلي أهله أن يمارا

بلال بن أبي الدرداء

ولى إمرة دمشق ثم ولى القضاء بها ، ثم عزله عبد الملك بأبي إدريس الخولاني . كان بلال حسن السيرة ، كثير العبادة ، والظاهر أن هذا القبر الذى بباب الصغير الذى يقال له قبر بلال ، إنما هو قبر بلال بن أبي الدرداء ، لا قبر بلال بن حماسة مؤذن رسول الله (ص) ، فان بلالاً المؤذن دفن بدارياً والله أعلم .

بشر بن سعيد

المزنى السيد العابد الفقيه ، كان من العباد المتقطعين ، الزهاد المعروفين ، توفى بالمدينة .

زرارة بن أوفى

ابن حاجب العامري ، قاضى البصرة ، كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها ، له روايات كثيرة ، قرأ مرة فى صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ [فاذا نقر فى الناقور] خرّ ميتاً . توفى بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة .

خبیب بن عبد الله

ابن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له فى ذلك فمات ، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة ، فكان يتأسف على ضربه له ويبكى . مات بالمدينة .

حفص بن عاصم

ابن عمر بن الخطاب المدني ، له روايات كثيرة ، وكان من الصالحين . توفى بالمدينة .

سعيد بن عبد الرحمن

ابن عتاب بن أسيد الأموى ، أحد الأشراف بالبصرة ، كان جواداً ممدحاً ، وهو أحد الموصوفين بالكرم ، قيل إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين

فروة بن مجاهد

قيل إنه كان من الأبدال ، أسر مرة وهو فى غزوة هو وجماعة معه فأتوا بهم الملك فأمر بتقييدهم وحبسهم فى المكان والاحتراز عليهم إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه ، فقال لهم فروة : هل لكم فى المضى إلى بلادنا ؟ فقالوا : وما ترى ما نحن فيه من الضيق ؟ فلس قيودهم بيده فزال عنهم ، ثم أتى باب السجن فلهسه بيده فافتتح ، فخرجوا منه ومضوا ، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد .

أبو الشعثاء جابر بن زيد

كان لا يماكس فى ثلاث ، فى السكرى إلى مكة ، وفى الرقة يشتريها لتعتق ، وفى الأضحية . وقال : لا تماكس فى شئ يتقرب به إلى الله . وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلماً عند الدينار والدرهم ، قلت : كما قيل : —

لَا تَمَّاكُسْ

إني رأيت فلا تظنوا غيره * أن النور عند هذا الدرهم

فاذا قدرت عليه ثم تركته * فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتييم ومسكين أحب إلى من حجة بعد حجة الاسلام .
كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتي في البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر بن عبد الله
إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟ وقال له جابر بن عبد الله :
يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتي فلا تفتن إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فانك
إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلك . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحدا أعلم بفتيا من جابر
ابن زيد . وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان . وقال
قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض . وقال سميد بن عيينة عن عمرو بن دينار
قال أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفرا للقضاء أنا أحدهم - أي عمرو - فلو أني ابتليت بشيء
منه لركبت راحلتي وهربت من الأرض . وقال أبو الشعثاء : نظرت في أعمال البر فاذا الصلاة تجهد
البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من
ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح رماها في الحائط ، وكان الحائط لقوم قالوا : لو كان
كلامه به أخذ منه قبضة لم يبق منه شيء . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف
على الباب وقل : اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من
دعائك ورجب إليك . وقال سيار : حدثنا حماد بن زيد ثنا الحجاج بن أبي عيينة . قال : كان جابر
ابن زيد يأتينا في مصلانا ، قال : فأنا ذات يوم وعليه ثملان خلعان ، فقال : مضى من عمري ستون
سنة نملأ هاتان أحب إلي مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته . وقال صالح الدهان : كان جابر
ابن زيد إذا وقع في يده سنوق كسره ورعى به لثلا يفر به مسلم . السنوق الدرهم المغاير أو الدغل
وقيل : هو المشوش .

وروى الامام أحمد : حدثنا أبو عبد الصمد العمي حدثنا مالك بن دينار قال : دخل على جابر
ابن زيد وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعة
صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به .
وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى [إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات] قال
ضعف عذاب الدنيا و ضعف عذاب الآخرة [ثم لا تجد لك علينا نصيرا] وقال سفيان : حدثني
أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟ قال : نظرة إلى
الحسن . وفي رواية عن ثابت قال : لما نقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى

الحسن . قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبي عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبي صفرة - وكانت من أحسن النساء - وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان إياضياً ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إلى وإلى أمي ، فما أعلم عنه شيئاً ، وكان لا يعلم شيئاً ، فإني إلى الله عز وجل إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدي عن الله إلا نهاني عنه ، وما دعاني إلى الإياضية قط ولا أمرني بها ، وكان ليأمرني أين أضع الخمار - ووضعت يديها على الجبهة - أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، فقبل إنه فتح أنطاكية ، وغزا أخوه عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزاهما وبلغ الوليد بن هشام المعيطى أرض برج الحمام ، وبلغ يزيد بن أبي كبشة أرض سورية . وفيها كانت الرجفة بالشام ، وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم . وفيها فتح الله على الاسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند وغنم أموالاً لا تعد ولا تحصى ، وقد ورد في غزاه الهند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره . وفيها غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرغانة حتى بلغ خجندة ، وكاشان مدينتي فرغانة ، وذلك بعد فراغه من الصفد وفتح سمرقند ، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها ، وقد لقيه المشركون في جموع هائلة من الترك فقاتلهم قتيبة عند خجندة فكسروهم مراراً وظفر بهم ، وأخذ البلاد منهم ، وقتل منهم خلقاً وأسر آخرين ، وغنم أموالاً كثيرة جداً . قال ابن جرير : وقد قال سحبان وأبلى يذكر قتالهم بخجندة التي هي قرية من بلاد الصين أبيتاً في ذلك : -

فسل الفوارس في خجندة * دة نحت مرهقة العوالى
هل كنت أجهم إذا * هزموا وأقدم في قتالي
أم كنت أضرب هامة الـ * ماني وأصبر للترال
هذا وأنت قريع قيد * سكلها ضخم النوال
وفضلت قيساً في الندى * وأبوك في الحجج الخوالى

تمت مروءتكم ونا * غي عزكم غلب الجبال

ولقد تبين عدل حكمك * فيهم في كل مال

هكذا ذكر ابن جرير هذا من شعر سحبان وائل في هذه الغزوة . وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزي في منظمه أن سحبان وائل مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد الحسين فآله أعلم .

مقتل سعيد بن جبير رحمه الله

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رقبيل ملك الترك ، فلما خلع ابن الأشعث خلع معه سعيد بن جبير ، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى أصحابه ، فكتب الحجاج إلى نائبيه أن يبعثوا إليه ، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ، ثم كان يعتمر في كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري ، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد : والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره ؟ وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز ، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود ، فتعلم منه خالد بن الوليد القسري فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ، ومجاهد بن جبر ، وعمر بن دينار ، وطلق ابن حبيب . ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواما من أهل الشقاق ، فبعث خالد هؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمر بن دينار لأنهما من أهل مكة ، وبعث بأولئك الثلاثة ، فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال في السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد ابن جبير فلما أوقف بين يدي الحجاج قال له : يا سعيد ألم أشركك في أمانتي ؟ ألم أستعملك ؟ ألم أفعل ؟ ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول : نعم ، حتى ظن من عنده أنه سيغلي سبيله ، حتى قال له : فما حملك على الخروج علي ؟ وخلفت بيعة أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد : إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم علي ، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبيه ، وقال له : وبحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمر المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق فجددت لأمر المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ، قال فتسكت بيعتين لأمر المؤمنين وتني بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسى اضرب عنقه . قال : فضربت عنقه فبدر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء ، وقد ذكر الواقدي نحو هذا ، وقال له : أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت أما فعلت .

قال ابن جرير : فحدثت عن أبي غسان مالك بن إسماعيل قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر

من رجل قال : لما قتل الحجاج سميد بن جبير فندر رأسه هلال ثلاثاً ، مرة يفصح بها ، وفي الثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها . وذكر أبو بكر الباهلي قال : سمعت أنس بن أبي شيبخ يقول : لما أتى الحجاج بسميد بن جبير قال : لمن ابن النصرانية - يعني خالد القسري وكان هو الذي أرسل به من مكة - أما كنت أعرف مكانه ، بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه فقال : يا سميد ما أخرجك علي ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب أخرى ، فعذبت نفس الحجاج وانطلق وجهه ، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره ، ثم غاوده في شيء فقال سميد : إنما كانت بيعة في عنقي ، فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله . وذكر عتاب ابن بشر عن سالم الافطس قال : أتى الحجاج بسميد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجله في الفرز ، فقال : والله لأركب حتى تدبوا مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضربت عنقه . قال : والنبس الحجاج في عقله مكانه ، فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه يريد القيود التي على سميد ، فقطعوا رجله من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود :

وقال محمد بن أبي حاتم : ثنا عبد الملك بن عبد الله بن خباب ، قال : جئ بسميد بن جبير إلى الحجاج فقال : كتبت إلى مصعب بن الزبير ؟ فقال : بلى كتبت إلى مصعب ، قال : لا والله لأقتلك قال : إني إذا لسميد كما سميتني أمي . قال فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله فيم قتلته ؟ فيقول الحجاج : مالي ولسميد بن جبير ، مالي ولسميد بن جبير ؟ قال ابن خلكان : كان سميد بن جبير بن هشام الأسدي مولى بني والبة كوفيا أحد الأعلام من التابعين ، وكان أسود اللون ، وكان لا يكتب على الفتيان ، فلما عمى ابن عباس كتب ، فغضب ابن عباس من ذلك ، وذكر مقتلهم ما تقدم ، وذكر أنه كان في شعبان ، وأن الحجاج مات بعده في رمضان ، وقيل قبل بسة أشهر . وذكر عن الإمام أحمد أنه قال : قتل سميد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه . ويقال إن الحجاج لم يسلط بعده على أحد ، وسيأتي في ترجمة الحجاج أيضاً شيء من هذا . قال ابن جرير : وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء ، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ، مات في أولها علي بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سميد بن المسيب ، وأبو بكر عبيد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسميد بن جبير من أهل مكة ، وقد ذكرنا تراجم هؤلاء في كتابنا التكميل ، وسند ذكر طرقاتها ها هنا إن شاء الله تعالى .

قال ابن جرير : واستغنى الوليد بن عبد الملك في هذه السنة على الشام سليمان بن صرد . وحيج بالناس فيها العباس بن الوليد ، ويقال مسلمة بن عبد الملك ، وكان على نيابة مكة خالد القسري ، وعلى

المدينة عثمان بن حيان ، وعلى المشرق بكاله الحجاج ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم ، وعلى الكوفة من جهة الحجاج زياد بن جريز ، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج الجراح بن عبد الله الحكيم ، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

سميد بن جبير الأسدي الوالي مولا لم أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله ، الكوفي المكي ، من أكابر أصحاب ابن عباس ، كان من أئمة الاسلام في التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح ، رحمه الله ، وقد رأى خلقاً من الصحابة ، وروى عن جماعة منهم ، وعنه خلق من التابعين ، يقال إنه كان يقرأ القرآن في الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة ، وكان يقعد في الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة ، وربما قرأها في ركعة في جوف الكعبة . وروى عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفاً في الصلاة في ليلة في الكعبة . وقال سفيان الثوري عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لقد مات سميد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه ؟ وكان في جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، فلما ظفر | الحجاج | هرب سميد إلى أصبهان ، ثم كان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين ، مرة للعمرة ومرة للحج ، وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان لحدث بها ، وكان بخراسان لا يتحدث لأنه كان لا يسأله أحد عن شيء من العلم هناك ، وكان يقول : إن مما يهمني ما عندي من العلم ، وددت أن الناس أخذوه . واستمر في هذا الحال مخفياً من الحجاج قريباً من ثلثي عشرة سنة ، ثم أرسله خالد القيسري من مكة إلى الحجاج ، وكان من مخاطبته له ما ذكرناه قريباً .

وقال أبو نعيم في كتابه الحلية : ثنا أبو حامد بن جبلة ثنا محمد بن إسحاق ثنا محمد بن أحمد ابن أبي خلف ثنا شعبان عن سالم بن أبي حفصة . قال : لما أتى بسميد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ! إنما أنا سميد بن جبير ، قال لا تقتلك ، قال : أنا إذا كما سميتي أمي سميداً ! قال شقيت وشقيت أمك ، قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه ، فقال : دعوني أصلي ركعتين ، قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال : إني أستميد منك بما استعازت به . مريم ، قال : وما عازت به ؟ قال : قالت [إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً] قال سفيان : لم يقتل بعده إلا واحداً . وفي رواية أنه قال له : لا بد لك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك لآخذتك إلهاً . وفي رواية أنه لما أراد قتله قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، فقال : [أينما تولوا فثم وجه الله] فقال : اجلدوا به الأرض ، فقال : [منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى] فقال : اذبح فما أنزعه لا يات الله منه اليوم . فقال : اللهم لا تسلطه على أحد بعدى . وقد ذكر أبو نعيم هنا كلاماً كثيراً في مقتل سميد

ابن جبير ، أحسنه هذا والله أعلم [(١)]

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه ، وقد رويت آثار غريبة في صفة مقتله ، أكثرها لا يصح ، وقد
توقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة ، فلم يلبث بعده إلا قليلاً ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما
سند ذكر وفاته في السنة الآتية ، فقيل إنه مكث بعده خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعين يوماً ، وقيل
سنة أشهر والله أعلم .

واختلفوا في عمر سعيد بن جبير رحمه الله حين قتل ، فقيل تسعاً وأربعين سنة ، وقيل سبعاً
وخمسين فالله أعلم . قال أبو القاسم اللالكائي : كان مقتله في سنة خمس وتسعين ، وذكر ابن جرير
مقتله في هذه السنة - سنة أربع وتسعين - فالله أعلم .

[قلت : هاهنا كلمات حسان من كلام سعيد بن جبير أحببت أن أذكرها . قال : إن أفضل
الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته ، وتحملك على طاعته ، فتلك هي الخشية
النافعة . والذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكرك له ، وإن أكثر منه
التسبيح وتلاوة القرآن . قيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اقترب من الذنوب ، فكلمنا ذكر
ذنبه احتقر عمله ، وقال له الحجاج : ويلك ! فقال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، فقال :
اضر بنا غنقه ، فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أستحفظك بها حتى ألقاك
يوم القيامة فأنا خصمك عند الله ، فذبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم بإقام الجبارة أقصم
الحجاج ، فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجاج لما أمر بمقتله
وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك على وحلم الله عنك [(٢)]

سعيد بن المسيب

ابن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي أبو محمد المدني ، سيد التابعين
على الإطلاق ، ولد لسنتين نهننا وقبل بقلينا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل لأربع مئتين منها ،
وقول الحاكم أبي عبد الله إنه أدرك العشرة وهم منه والله أعلم . ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً
عن النبي (ص) ، وروى عن عمر كثيراً ، فقيل سمع منه ، وعن عثمان وغلي وسعيد وأبي هريرة ،
وكان زوج ابنته ، وأعلم الناس بحديثه ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وحدث عن جماعة من
التابعين ، وخلق من سواهم ، قال ابن عمر : كان سعيد أحد المتقين ، وقال الزهري : جالسته سبع
حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره ، وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال : طفت الأرض كلها
في طلب العلم . فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقال الأوزاعي : سئل الزهري ومكحول من

أفقه من لقيتما؟ قال: سعيد بن المسيب. وقال غيره: كان يقال له فقيه الفقهاء. وقال مالك عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد، قال مالك: وبلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه، وقال الربيع عن الشافعي أنه قال: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن. وقال الامام أحمد بن حنبل في صحيحه: قال: وسعيد بن المسيب أفضل التابعين. قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به، وهو عندي أجل التابعين. وقال أحمد بن عبد الله المعجلي: كان سعيد رجلاً صالحاً فقيهاً، كان لا يأخذ العطاء، وكانت له بضاعة أربعمئة دينار، وكان يتجر في الزيت، وكان أعور. وقال أبو زرعة: كان مدنياً ثقة إماماً. وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، وهو أثبتهم في أبي هريرة، قال الواقدي: توفي في سنة الفقهاء، وهي سنة أربع وتسعين، عن خمس وسبعين سنة، رحمه الله.

وكان سعيد بن المسيب من أروع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا، والكلام فيما لا يعني، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث، جاءه رجل وهو مريض فسأله عن حديث فجلس فحدثه ثم اضطلع، فقال الرجل: وددت أنك لم تتمن، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع، وقال برد مولاة: ما نودي لأصلاة منذ أربعين إلا وسعيد في المسجد. وقال ابن إدريس: صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة. وقال سعيد: لا تعملوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالأنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة. وقال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء. وقال: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى. وقال: كفى بالمرء نصرة من الله له أن يرى عدوه يفعل بمعصية الله. وقال: من استغنى بالله افتقر الناس إليه. وقال: الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل أميل، وإنزل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها. وقال: إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا يلبغي أن تذكر عيوبه. وقال: من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة - وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله (ص)، وأعرفهم بحق الزوج - وكان فقيراً، فأرسل إليه بخمسة آلاف، وقيل: بمشرين ألفاً، وقال: استغنى هذه. وقصته في ذلك مشهورة، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها، فاحتال عليه حتى ضرب به بالسياط كما تقدم، لما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبد الملك، ضرب به فأنبه على المدينة هشام بن

إسماعيل وأطافه المدينة ، وعرضوه على السيف فضى ولم يبايع ، فلما رجفوا به رأته امرأة فقالت :
 ما هذا الخزي ياسعيد ؟ فقال : من الخزي فررنا إلى ماترين ، أى لو أحببناهم وقمنا في خزي الدنيا
 والآخرة . وكان يجعل على ظهره إهاب الشاة ، وكان له مال يتجر فيه ويقول : اللهم إنك تعلم أني لم
 أمسكه بخلا ولا حرصا عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني
 مروان حتى ألقى الله فيحكم في وفيهم ، وأصل منه رحى ، وأؤدى منه الحقوق التي فيه ، وأعود منه
 على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

طلق بن حبيب العنزي

تابعي جليل ، روى عن أنس وجابر وابن الزبير وابن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وعنه
 حميد الطويل والأعمش وطاووس ، وهو من أقرانه وأثنى عليه عمرو بن دينار ، وقد أثنى عليه
 غير واحد من الأئمة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أنه كان يقول بالأرجاء ، وقد كان بمن خرج مع
 ابن الأشعث ، وكان يقول تقوا بالتقوى ، ف قيل له : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى هي العمل
 بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله . وقال
 أيضاً : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ، أو يقوم
 بشكرها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا قائبين . وكان طلق لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شيء
 يتصدق به ، وإن لم يجد إلا بصلا ، ويقول : قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول
 فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) فتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الله أعظم وأعظم . قال مالك :
 قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير . وقد ذكر ابن جرير فيما سبق أن خالد بن
 عبد الله القسري بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج ، وهم مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطلق بن
 حبيب ، فمات طلق في الطريق وحبس مجاهد ، وكان من أمر سعيد ما كان والله أعلم .

عروة بن الزبير بن العوام

القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني ، تابعي جليل ، روى عن أبيه وعن العبادلة ومعاوية
 والمغيرة وأبي هريرة ، وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وأم سلمة . وعنه جماعة من التابعين ، وخلق ممن
 سوام . قال محمد بن سعد : كان عروة ثقة كثير الحديث عالما مأمونا ثبتاً . وقال المعلى : مدني تابعي
 رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن . وقال الواقدي : كان قتيلاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير ،
 وهو أول من صنف المغازي ، وكان من فقهاء المدينة المحدثين ، ولقد كان أصحاب رسول الله (ص) ،
 يسألونه ، وكان أروى الناس للشعر ، وقال ابنه هشام : ألم لواحد من ثلاثة ، لدى حسب يزين به

حسبه ، أو ذى دين يسوس به دينه ، أو مختلط بساطان يتحننه بنعمه ويتخلص منه بالعلم ، فلا يقع في هلكة ، وقال : ولا أعلم أحداً اشترطه بهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز . وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن ويقوم به في الليل ، وكان أيام الرطب يثام حائطه للناس فيدخلون ويأكلون ، فإذا ذهب الرطب أعاده ، وقال الزهرى : كان عروة بحراً لا ينزف ولا تكدره الدلاء . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله ، وقد ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين ينتمى إلى قولهم ، وكاتب من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة [وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق ، فلما رجع أصابته في رجله الأكلة فأرادوا قطعها ، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها ، فقال : ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أن ، وروى أنهم قطعوها وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة فأنه أعلم . ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله ولد له يسمى محمداً كان أحب أولاده من سطح فمات ، فدخلوا عليه فمزوه فيه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فماتت عافيت] قلت : قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ليجتمع بالوليد ، وقعت الأكلة في رجله في واد قرب المدينة وكان مبدؤها هناك ، فظن أنها لا يكون منها ما كان ، فذهب في وجهه ذلك ، فواصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكل رجله كلها إلى وركه . وربما ترقق إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها وقالوا له : ألا نسقيك مرقداً حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شراباً أو يأكل شيئاً يذهب عقله ، ولكن إن كنتم لا بد طاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة ، فإني لأحس بذلك ، ولا أشعر به . قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المسكان الحى ، احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء ، وهو قائم يصلى ، فما تصور ولا اختلج ، فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله ، فقال : اللهم لك الحمد ، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت ، وإن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت . قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد ، وكان أحبهم إليه ، فدخل دار الدواب ففرسته فرس فمات ، فأنوه فمزوه فيه ، فقال : الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما

عافيت ، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت . فلما قصي حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكاً ذلك إلى أحد حتى دخل وادي القري ، فلما كان في المكان الذي أصابته الأكلة فيه قال : [لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً] فلما دخل المدينة أتاه الناس يسألون عليه ويعزونه في رجله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنوب عظيم أحدثه . فأنشد عروة في ذلك والأيات لمعن بن أوس : -

لعمرك ما أهويت كفى لريبة * ولا حملتني نحو فاحشة رجل
ولا قاذني سمى ولا بصري لها * ولا داني رأيت عليها ولا عقلي
واست بماشٍ ماحيت لسكر * من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذى قرابة * وأثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة * من الدهر إلا قد أصابت فقي مثلي

وفي رواية : اللهم إنه كان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة . كذا ذكر هذا الحديث فيه هشام . وقال مسلمة بن محارب : وقعت في رجل عروة الأكلة فقامت ولم يمسه أحد ، ولم يدع في تلك الليلة ورده . وقال الأوزاعي : لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط . وأنشد البيهقي المتقدمين . رأى عروة رجلاً يصلي صلاة خفيفة فدعا فقال : يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح . قال عروة : رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزاً طويلاً . وقال لبنيه : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، فإن الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها . وكان عروة إذا دخل حائطه ردد هذه الآية [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله] حتى يخرج منه والله سبحانه وتعالى أعلم ^(١)

قيل إنه ولد في حياة عمر ، والصحيح أنه ولد بعد عمر في سنة ثلاث وعشرين ، وكانت وفاته في سنة أربع وتسعين على المشهور ، وقيل سنة تسعين ، وقيل سنة مائة ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل إحدى ومائة ، وقيل سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين ، وقيل تسع وتسعين والله أعلم .

(علي بن الحسين)

ابن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي المشهور بزين العابدين ، وأمه أم ولد اسمها سلامة ، وكان له أخ أكبر منه يقال له علي أيضاً ، قتل مع أبيه ، روى على هذا الحديث عن أبيه وعمه الحسن بن علي ، وجابر وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة ، أمهات المؤمنين . وعنه

جماعة منهم بنوه زيد وعبد الله وعمر ، وأبو جعفر محمد بن علي بن قر ، وزيد بن أسلم ، وطاوس وهو من أقرانه ، والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأبوسلة وهو من أقرانه ، وخلق .

قال ابن خلكان : كانت أم سلة بنت يزجرد آخر ملوك الفرس ، وذكر الزنجشري في ربيع الأبرار أن يزجرد كان له ثلاث بنات سبين في زمن عمر بن الخطاب ، فحصلت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالما ، والأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولدها القاسم ، والأخرى للحسين بن علي فأولدها عليا زين العابدين هذا ، فكلهم بنو خالة . قال ابن خلكان : ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز ابن يزجرد بمث بابلتيه إلى الحجاج فأخذ إحداها وبث بالأخرى إلى الوليد ، فأولدها الوليد يزيد الناقص . وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أن زين العابدين هذا كانت أمه سنديية ، يقال لها سلامة ، ويقال غزالة ، وكان مع أبيه بكر بلاه ، فاستبقى لصفره ، وقيل لرضه ، فانه كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقد تم بقتله عبيد الله بن زياد ، ثم صرفه الله عنه ، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضا ففعله الله منه ، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه ويمطيه ويجلسه معه ، ولا يأكل إلا وهو عنده ، ثم بعثهم إلى المدينة ، وكان على بالمدينة محترما معظما . قال ابن عساكر : ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف . قلت : وهو مشهد على بالناحية الشرقية من جامع دمشق . وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق فاستشاره في جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة وطرار القراطيس ، قال الزهرى : ما رأيت قرشيا أروع منه ، ولا أفضل . وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض ، فقال عمر ابن سعد : لا تعرضوا لهذا المريض . وقال الواقدي : كان من أروع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل ، وكان إذا مشى لا يخطر بيده ، وكان يتم بهامة بيضاء يرخبها من ورائه ، وكان كنيته أبا الحسن ، وقيل أبا محمد ، وقيل أبا عبيد الله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا كثير الحديث عالبا رفيعا ورعا ، وأمه غزالة خلف عليها بعد الحسين مولاه زييد فولدت له عبد الله بن زييد ، وهو على الأصغر ، فأما الأكبر فقتل مع أبيه . وكذا قال غير واحد ، وقال سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ومالك وأبو حازم : لم يكن في أهل البيت مثله . وقال يحيى بن سعيد الأنصارى : سمعت على ابن الحسين وهو أفضل هاشمي أدركته يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الاسلام ، فما برح بنا جكم حتى صار علينا عارا . وفي رواية : حتى بغضتمونا إلى الناس . وقال الأصمى : لم يكن للحسين عقب إلا من على بن الحسين ، ولم يكن لعلى بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن ، فقال له مروان بن الحكم : لو اتخذت السرارى يكثر أولادك ، فقال : ليس لي ما أنسرى به ، فأقرضه مائة ألف فأنسرى له السرارى فولدت له وكثر نسله . ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من على بن

الحسين شئ مما كان أقرضه ، فجميع الحسينيين من نسله رحمه الله . وقال أبو بكر بن أبي شيبة :
أصح الأسانيد كلها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده ، وذكروا أنه احترق البيت
الذي هو فيه وهو قائم يصلي ، فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟ فقال : إني اشتغلت عن
هذه النار بالنار الأخرى ، وكان إذا توضأ يصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق ، فقيل
له في ذلك فقال : ألا تدرسون بين يدي من أقوم ولين أناجي ؟ ولما حجج أراد أن يلبي فارتعد وقال :
أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك ، فيقال لي : لا لبيك ، فشجعوه على التلبية ، فلما لبي غشي عليه
حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة . وقال طاووس : سمعته وهو ساجد عند
الحجر يقول : عبيدك بفنائك ، سائلك بفنائك . فقيرك بفنائك ، قال طاووس : فوالله مادعوت بها في
كرب قط إلا كشف عني . وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل ، وكان يقول صدقة الليل تطفى غضب
الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ، وقاسم الله تعالى ماله مرتين .

وقال محمد بن إسحاق : كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ،
فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به . ولما مات
وجدوا في ظهره أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل . وقيل إنه كان
يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات . ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة
ابن زيد يعود فبكى ابن أسامة فقال له ما يبكيك ؟ قال : علي دين ، قال : وكم هو ؟ قال خمسة عشر
ألف دينار . وفي رواية سبعة عشر ألف دينار . فقال : هي علي . وقال علي بن الحسين : كان أبو بكر
وعمر من رسول الله (ص) ، في حياته بمنزلة لهما منه بعد وفاته . وقال منه رجل يوماً فجعل يتغافل عنه
- يريه أنه لم يسمعه - فقال له الرجل : إياك أعني ، فقال له علي : وعنك أغضى . وخرج يوماً من المسجد
فسبه رجل فانتدب الناس إليه ، فقال : دعوه ، ثم أقبل عليه فقال : ماستره الله عنك من عيوبنا
أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خيصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ،
فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء . قالوا : واختم علي بن الحسين وحسن
ابن حسن - وكان بينهما منافسة - فقال منه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب علي
ابن الحسين إلى منزله فقال : يا ابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك
والسلام عليك ، ثم رجع ، فلحقه فصالحه . وقيل له من أعظم الناس خطراً ؟ فقال : من لم ير الدنيا
لنفسه قدراً ، وقال أيضاً : الفكرة مرآة ترى المؤمن حسناته وسيئاته ، وقال : فقد الأجابة غربة ، وكان
يقول : إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ،
وآخرون عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار الأخيار . وقال لابنه : يا بني لا تصحب فاسقاً فإنه

يبيعك بأقل منها يطعم فيها ثم لا ينالها ، ولا بخيلا فانه يخذلك في ماله أحوج ماتكون إليه ، ولا كذابا فانه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب ، ولا أحق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا قاطع رحم فانه ملعون في كتاب الله . قال تعالى : [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم]

وكان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتي تخطى حاق أهل العلم وقرش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فقال له علي بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم يطلب حيث كان . وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال قال لي علي بن الحسين : أنتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير ؟ فقلت : ما تصنع به ؟ قال أريد أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة ، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء . وأشار بيده إلى العراق .

وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن زر بن عبيد ^(١) قال : كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس : مرحبا بالحبيب ابن الحبيب . وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : ثنا العلاء ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير قال : كنا عند جابر بن عبد الله فدخل عليه علي بن الحسين فقال : كنت عند رسول الله (ص) فدخل عليه الحسين بن علي فضمه إليه وقبله وأقعدته إلى جنبه ، ثم قال : « يولد لابني هذا ابن يقال له علي ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقيم سيد العابدين ، فيقوم هو » هذا حديث غريب جدا أورده ابن عساكر . وقال الزهري : كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين ، وما رأيت أحقه منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك ، وكان يسمى زين العابدين . وقال جويرية بن أسماء : ما أكل علي بن الحسين بقرايته من رسول الله (ص) درهما قط . رحمه الله ورضي عنه . وقال محمد بن سعد : أنبا علي بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبري قال : بعث المختار إلى علي بن الحسين بمائة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردّها ، فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان : إن المختار بعث إلى بمائة ألف فكرهت أن أقبلها وكرهت أن أردّها ، فابعث من يقبضها . فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم اخذها فقد طيبتها لك ، فقبلها . وقال علي بن الحسين : سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الاتقياء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء . وقال أيضا : إني لأستحي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة

قيل لي فاذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل ، وأبخل وأبخل . وذكره أنه كان كثير البكاء فقيل له في ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات ، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبجون في غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً ؟ وقال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشججه ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول [والكاظمين الغيظ] ، فقال : قد كظمت غيظي ، قالت [والعافين عن الناس] فقال : عفا الله عنك . فقالت [والله يحب المحسنين] قال : أنت حرة لوجه الله تعالى .

وقال الزبير بن بكار : ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمي عن أبيه عن جده عن محمد بن علي عن أبيه قال : جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فقالوا منهما ، ثم ابتدؤا في عثمان فقال لهم : أخبروني أنتم من المهاجرين الأولين الذين [أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله] ؟ قالوا : لا قال : فأنتم من الذين [تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم] ؟ قالوا لا فقال لهم : أما أنتم فقد أقرتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم [والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا] الآية ، فقوموا عني لا بارك الله فيكم ، ولا قرب دوركم ، أنتم مستهزئون بالاسلام ، ولستم من أهله . وجاء رجل فسأله متى يبعث علي ؟ فقال : يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه . وقال ابن أبي الدنيا : حدثت عن سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني أتصدق اليوم - أو أهب عرضي اليوم - من استحله . وروى ابن أبي الدنيا أن غلاماً سقط من يده سفود وهو يشوى شيئاً في التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعاً ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه . وقال المدائني : سمعت سفيان يقول : كان علي بن الحسين يقول : ما يسرني أن لي بنصيب من الذل حر النعم : ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه . ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه ، فقال له علي بن الحسين : إن من وراء ابنك خللاً ثلاثاً ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشفاعة رسول الله ، ورحمة الله عز وجل . وقال المدائني : قارف الزهري ذنباً فاستوحش منه وهام على وجهه وترك أهله وماله . فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له : يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك ، فقال الزهري : [الله أعلم حيث يجعل رسالته] وفي رواية أنه كان أصاب دماً حراماً خطأ فأمره علي بالتوبة والاستغفار وأن يبعث الدية إلى أهله ، ففعل ذلك . وكان

الزهري يقول : علي بن الحسين أعظم الناس على منة .

وقال سفيان بن عيينة كان علي بن الحسين يقول : لا يقول رجل في رجل من الخير مالا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر مالا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة . وذكروا أنه زوج أمه من مولى له وأعتق أمه فتزوجها فأرسل إليه عبد الملك يلومه في ذلك ، فكتب إليه [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً] وقد أعتق صفية فتزوجها ، وزوج مولاه زيد بن حارثة من بنت عمه زينب بنت جحش . قالوا : وكان يلبس في الشتاء خميصة من خز بخمسين ديناراً ، فإذا جاء الصيف تصدق بها ، ويلبس في الصيف الثياب المرقمة ودونها ويتلو قوله تعالى [قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق] .

(وقد روى من طرق ذكرها الصولي والجريري وغير واحد أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه ، وقام أهل الشام حوله ، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستله تنحى عنه الناس إجلالاً له وهيبته واحتراماً ، وهو في بزة حسنة ، وشكل مليح ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ فقال : لا أعرفه . استنقاصاً به واحتقاراً لثلاثا يرغب فيه أهل الشام . فقال الفرزدق : وكان حاضراً - أنا أعرفه ، فقالوا : ومن هو ؟ فأشار الفرزدق يقول : *

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رآته قریش قال قائلها * إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُنمى إلى ذروة العز التي قصرت * عن نيلها عرب الإسلام والمعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحليم إذا ماجأ يستلم
يُنفضي حياءً وينفضي من مهابة * فما يكلم إلا حين يتقسم
بكفه خيزران ريمها عبق * من كف أروع في عرينه نعم
مشتقة من رسول الله نبعه * طابت عناصرها والخيم والشيم
ينجاب نور الهدى من نور غرته * كالشمس ينجاب عن إشراقها الغيم
حال أثقال أقوام إذا فدحوا * حلوا الشماثل تحلو عنده نعم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله * بجدير أنبياء الله قد ختموا
من جدم دان فضل الأنبياء له * وفضل أمته دانت لها الأمم

هم البرية بالأحسان فانقشعت * عنها الغواية والاملاق والظلم
 كلنا يدير غيات عم نفعهما * يستوكفان ولا يعرفهما العدم
 سهل الخليفة لا تخشى بواذره * بزينة اثنتان الحلم والسكرم
 لا يخلف الوعد ميمون بميتمه * رجب الفناء أريب حين يعتزم
 من مشربهم دين وبنفسهم * كفرو قريتهم منجى ومعتصم
 يستدفع النسوة والبوى بحبهم * ويستزاد به الاحسان والنعم
 مقدم بعد ذكر الله ذكرهم * في كل حكم ويختوم به الكلم
 إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم * أو قبل من خير أهل الأرض قيل هم
 لا يستطيع جواد بعد غايتهم * ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
 هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت * والأسد أسد الشرى والبأس محندم
 يابى لهم أن يحمل الذم ساحتهم * لحيم كرام وايدى بالندى هضم
 لا ينقص العدم بسطاً من أكفهم * سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
 أي الخلائق ليست في رقابهم * لأولية هذا أوله نعم
 فليس قولك من هذا بضائرهم * العرب تعرف من أنكرت والمعجم
 من يعرف الله يعرف أولية ذا * فالدين من بيت هذا ناله الأمم

قال : فنضب هشام من ذلك وأمر بحبس الفرزدق بسفان ، بين مكة والمدينة ، فلما بلغ ذلك
 علي بن الحسين بعث إلى الفرزدق بائني عشر ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : إنما قلت ما قلت لله
 عز وجل ونصرة الحق ، وقياماً بحق رسول الله ، في ذريته ، ولست أعتاض عن ذلك بشيء .
 فأرسل إليه علي بن الحسين يقول : قد علم الله صدق نيتك في ذلك ، وأقسمت عليك بالله لتقبلها
 فتقبلها منه ثم جعل يهجو هشاماً وكان مما قال فيه :

فحبسني بين المدينة والتي * إليها قلوب الناس نهوى منيها
 يقلب رأساً لم يكن رأس سيد * وعينين حولوين بادر عيوبها
 وقد رويانا عن علي بن الحسين أنه كان إذا مرت به الجنائز يقول هذين البيتين :
 نراع إذا الجنائز قابلتنا * ونلهو حين نغضى ذاهبات
 كروحة ثلة لغار سبع * فلما غاب عادت راقعات

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقرئ حدثني سفيان بن عيينة عن
 الزهري قال سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه : -

يا نفس حتام إلى الدنيا سكوتك ، وإلى عمارتها ركوتك ، أما اعتبرت بمن مصى من أسلافك
ومن وادته الأرض من آلائك ؟ ومن فجعت به من إخوانك ، ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟ فهم
في بطون الأرض بعد ظهورها ، محاسنهم فيها بوال دوائر .

خلت دورهم منهم وأقوت عراصمهم * وساقهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها * وضمهم تحت التراب الحفائر
كم خرمت أيدي المتون من قرون بعد قرون ، وكم غيرت الأرض ببلاتها ، وغيت في ترابها ،
من عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الافلاس : -
وأنت على الدنيا مكب منافس * لخطابها فيها حريص مكائر
على خطر تمشي وتصبح لاهيا * أتدري بماذا لو عقلت تخاطر
وإن امرأ يسعى لدنياة دائماً * ويذهل عن أخراه لاشك خاسر
فحتام على الدنيا إقبالك ؟ وبشواتها اشتغالك ؟ وقد وخطك القتير ، وأتاك النذير ، وأنت عما
يراد بك ساه وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعابست ما حل بهم من
المصيبات ، وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى * عن اللهو واللذات للحر زاجر
أبعد اقتراب الأربمين تربص * وشيب قذال منذر للكابر
كأنك معنى بما هو ضائر * لنفسك عمداً وعن الرشدر حائر
انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، وواقم الحام ، فأنمحت
من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رما في التراب ، إلى يوم الحشر والمآب ،
أسمعوا رما في التراب وعطلت * بحالهم منهم وأخلي مقاصر
وحلوا بدار لا تراور بينهم * وأنى لسكان القبور التزاور
فإن ترى الأقبور آ قد ثوروا بها * مسطحة تسنى عليها الأعاصر
كم من ذى منعة وسلطان وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، وقال فيها ماتمناه ، وبني فيها
القصور والديساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السراري والحرائر .
فأصرفت كف المنية إذ أتت * مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولادفت عنه الحصون التي بني * وحف بها أنهاره والديساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة * ولا طمعت في الذب عنه المساكر
أناه من الله مالا يرد ، ونزل به من قضائه مالا يصد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز
القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذي ذل لعمرك كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان .

ملكك عزيز لا يرد قضاءه * حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
 عنى كل ذي عز لعزة وجهه * فكم من عزيز للهيمن صاغر
 لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت * لعزة ذي العرش الملك الجبار
 فالبدار البدار والحدار الحذار من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، ونحلت لك من
 زيلتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتها وهلكاتها ،
 وفي دون ما عاينت من فجائتها * إلى دفعها دافع وبالزهد أمر
 فخذ ولا تفعل وكن متيقظاً * فما قليل يترك الدار عامر
 فشمرو ولا تنفرو فمرك زائل * وأنت إلى دار الإقامة صائر
 ولا تطلب الدنيا فان نعيمها * وإن نلت منها غبه لك ضار
 فهل يحرم عليها لبيب ، أو يسر بها أريب ؟ وهو على ثقة من فنائها ، وغير طامع في بقائها ،
 أم كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من توقع في جميع أموره الممات .
 ألا لا ولكننا نفر نفوسنا * وتشغلنا الذات عما نحاذر
 وكيف يلد العيش من هو موقف * بموقف عدل يوم تبلى السرائر
 كأننا نرى أن لا نشور وأنتا * غدى مالنا بعد المات مصادر
 وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع
 فجائتها ، وكثرة عذابه في مصائبها وفي طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها
 أما قد نرى في كل يوم وليلة * يروح علينا صرفها ويباكر
 تفاورنا آفاتهما وهمومها * وكم قد ترى يبق لها المتعاور
 فلا هو مغبوط بدنياه آمن * ولا هو عن تطلباها النفس قاصر
 كم قد غرت الدنيا من غلدها إليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقذه
 من صرعته ، ولم تشفه من ألمه ، ولم تبره من سقمه . ولم تخلصه من وصمه
 بل أوردته بعد عز ومنعة * موارد سوء ما لمن مصادر
 فلما رأى أن لا نجاة وأنه * هو الموت لا ينجيه منه التحاذر
 تندم إذ لم تغن عنه ندامة * عليه وأبكته الذنوب الكبار
 إذ بكى على ماسلف من خطاياها ، وتحسر على ما خلف من دنياه ، واستغفر حتى لا ينفعه
 الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحاطت به أحزانه وهمومه * وأبلس لما أعجزته المقادر
فليس له من كربة الموت مخرج * وليس له مما يحاذر ناصر
وقد جشأت خوف المنية نفسه * ترددها منه الله والخناجر
هنالك خف عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، وارتفعت البرية بالعريل ، وقد أيسوا من العليل ،
فتمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عندخروج روحه رجله ، وتخلى عنه الصديق ، والصاحب الشفيق
فكم موجع يكي عليه مفتح * ومستنجد صبراً وما هو صابر
ومسترجع داع له الله مخلصاً * يمدد منه كل ما هو ذا كر
وكم شامت مستبشر بوفاته * وعما قليل للذي صار صار
فشقت جيوبها نساؤه ، ولطمت خدودها إماءه ، وأعول لفقده جيرانه ، وتوجع لرزقته إخوانه ،
ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه ، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى ، ولا الحبيب المبدي .
وحل أحب القوم كان بقربه * بحث على تجهيزه ويبادر
وشجر من قد أحضروه لغسله * ووجه لما فاض للقبر حافر
وكفن في ثوبين واجتمعت له * مشيعة إخوانه والمشار
فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويخشى من الجزع عليه ، وخضبت
الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه وأحرباه : —
لعاينت من قبح المنية منظرأ * يهال لمراه ويرتاع ناظر
أكابر أولاد يهيج اكتسابهم * إذا ماتنساء البنون الأصاغر
وربة نسوان عليه جوازع * مدامهم فوق الحدود غوازر
ثم أخرج من سعة قصره ، إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهي عليه اللبن ، احتوشته أعماله
وأحاطت به خطاياهم ، وضاق ذرعاً بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه
والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهناً بما كسب وطلب
فولوا عليه معولين وكلمهم * لمثل الذي لاقى أخوه محاذر
كشاه رناع آمين بدا لها * بمديته بادي الذراعين حاسر
فريعت ولم ترتع قليلاً وأجفنت * فلما نأى عنها الذي هو جازر
عادت إلى مرعاها ، ونسيت مافي أختها دهاها ، أقبأفعال الأنام اقتدينا ؟ أم على عادتها جرينا ؟
عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى .
نوى مفرداً في لحد وتوزعت * موارثه أولاده والأصاهر

وأخذوا على أموالهم يسمونها * فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرٌ
 فيها عامرٌ الدنيا وياساعياً لها * ويا آمناً من أن تدور الدوائر
 كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائرٌ إليها لا محالة ؟ أم كيف ضيعت حياتك وهي مطيتك إلى
 مماتك ؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك ؟ أم كيف تهناً بالشهوات ، وهي مطية الآفات
 ولم تنزود الرحيل وقد دنا * وأنت على حالٍ وشيك مسافرٌ
 فياهل نفسي كم أسوف توبتي * وعمري فانٍ والردى لى ناظرٌ
 وكل الذي أسلفت في الصحف مثبت * يجازي عليه عادل الحكم قادرٌ
 فكم ترفع بآخرتك دنياك ، وتركب غيلك وهواك ؟ أراك ضعيف اليقين ، يامؤثر الدنيا على الدين
 أبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا نزل القرآن ؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب ، وشر المسآب
 أما تذكر حال من جمع ونمر ، ورفع البشاء وزخرف وعمر ، أما صار جمعهم بوراً ، ومساكنهم قبوراً :
 تخرب ما يسقى وتمر فانياً * فلا ذاك موفور ولا ذاك عامرٌ
 وهل لك إن وافاك حنك بفتة * ولم تكتسب خيراً لدى الله عاذرٌ
 أرضى بأن تنفى الحياة وتنقضى * ودينك منقوص ومالك وافز

وقد اختلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها علي بن الحسين ، زين العابدين ، فالمشهور عن
 الجمهور أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة أربع وتسعين - في أولها عن ثمان وخمسين سنة ، وصلى
 عليه بالبيعة ، ودفن به ، قال الفلاس : مات علي بن الحسين وسعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن
 عبد الرحمن سنة أربع وتسعين ، وقال بعضهم : توفي سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين ، وأغرب المدائني
 في قوله : إنه توفي سنة تسع وتسعين والله أعلم انتهى ما ذكره المؤلف [من ترجمة علي بن الحسين ،
 وقد رأيت له كلاماً متفرقاً هو من جيد الحكمة ، فأحببت أن أذكره لعل الله أن ينفع به من وقف عليه :
 قال حفص بن غياث عن حجاج عن أبي جعفر عن علي بن الحسين قال : إن الجسد إذا لم يمرض
 أشرو بطر ، ولا خير في جسد يأشرو بيطر . وقال أبو بكر بن الأباري : حدثنا أحمد بن الصلت
 حدثنا قاسم بن إبراهيم العلوي حدثنا أبي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال علي بن الحسين : فقد
 الأوبة غربة . وكان يقول : اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لواص العيون علانيتي ، وتقبح في خفيات
 النيوب سريري ، اللهم كما أسأت وأحسنيت إلي ، فاذا عدت فعد إلي . اللهم ارزقني مواساة من
 قترت عليه رزقك بما سمعت علي من فضلك . وقال لابنه : يا بني اتخذ توباً للغائط فاني رأيت الباب
 يقع على الشيء ثم يقع على الثوب . ثم انتبه فقال : وما كان لرسول الله (ص) وأصحابه إلا توب واحد ،
 فرفضه . وعن أبي حمزة الثمالي قال : أتيت باب علي بن الحسين فكرهت أن أصوت فعدت علي

الباب حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له فرد على السلام ودعاني ، ثم انتهى إلى حائط فقال : يا حمزة ترى هذا الحائط ؟ قلت : نعم ! قال : فاني اتكأت عليه يوماً وأنا حزين فاذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر في بحاء وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ! مالي أراك كئيباً حزينا على الدنيا ! فهي رزق حاضري يأخذ منها البرء العاجر . قلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال على الآخرة ، فهي وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، قلت : ما علي هذا أحزن لأنه كما تقول . فقال : فسلام حزنك ؟ قلت : ما أخوف من ألفتنة - يعني فتنة ابن الزبير - فقال لي : يا علي ! أيت أملاً سأل الله فلم يمهله ؟ قلت : لا ! قال ويخاف الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! ثم غاب عني فقيل لي : يا علي إن هذا الخضر الذي جاءك لفظ الخضر مراد فيه من بعض الرواة

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الخضري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عمر بن حارث . قال : لما مات علي بن الحسين ففسلوه بجملا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره . فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة . وقال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين .

وروى عبد الله بن حنبل عن ابن اشكاب عن محمد بن بشر عن أبي المنهال الطائي أن علي بن الحسين كان إذا تناول المسكين الصدقة قبله ثم ناوله . وقال الطبري : حدثنا يحيى بن زكريا السلابي حدثنا العتيبي حدثني أبي . قال قال علي بن الحسين - وكان من أفضل بني هاشم الأربعة - يا بني اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيب أخاك إلا في الأمر الذي مضته عليك أكثر من منفعتك لك . وروى الطبراني بإسناده عنه : أنه كان جالساً في جماعة فسمع داعية في بيته فهض فدخل منزله ثم رجع إلى مجلسه ، فقيل له : أمن حدث كانت الداعية ؟ قال : نعم ! فمزوه وتمعجبوا من صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحبه ، ونحمد الله على ما نكره . وروى الطبراني عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ! قالوا : من أنتم ؟ قالوا نحن أهل الفضل ، قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا : كنا إذا جهل علينا حملنا ، وإذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسى إلينا غفرنا ، قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : فما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن ممصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى المنادي : ليقم جيران الله في داره ! فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم :

انطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : بيم استحققتم مجاورة الله عز وجل في داره ؟ فيهويون : كنا نزاور في الله ، وتجالس في الله ، وتبازل في الله عز وجل . فيقال لهم ، ادخلوا الجنة فنع أجركم العاملين .

وقال علي بن الحسين : إن الله يحب المؤمن المذهب التواب . وقال : التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلا أن يتقى منهم تقاة . قالوا : وما تقاه ؟ قال : يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يظني . وقال رجل لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحداً أورع من فلان . فقال له سعيد : هل رأيت علي بن الحسين ؟ قال : لا . قال : ما رأيت أورع منه . وروى سفيان بن عيينة عن الزهري . قال : دخلت على علي بن الحسين فقال : يا زهري فيم كنتم ؟ قلت : كنا نتذاكر الصوم ، فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب ، إلا شهر رمضان فقال : يا زهري ليس كما قلتم ، الصوم على أربعين وجهاً ، عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة منها باختيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب ، قال الزهري قلت : فسرهن يا ابن رسول الله . ، قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين في قتل الخطأ لمن لم يجحد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجحد الا طعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعة لمن لم يجحد الهدى وسبب جزاء الصيد ، يقوم الصيد قيمته ثم يقسم ذلك الثمن على الحنطة . وأما الذي صاحبه باختيار وصوم الاثنين والخميس ، وستة أيام من شوال بعد رمضان ، وصوم عرفة ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه باختيار : فأما صوم الأذن فالرأفة لا تصوم تطوعاً إلا باذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة ، وأما صوم الحرام فصوم يوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك ، نهينا أن نصومه لرمضان . وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرم ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر ، وصوم الضيف لا يصوم تطوعاً إلا باذن صاحبه ، قال رسول الله . : « من نزل على قوم فلا يصوم من تطوعاً إلا بأذنهم » . وأما صوم الإباحة فنأكل أو شرب ناسياً أجزاء صومه ، وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر . وأما نحن فنقول : يفطر في الحالين ، فان صام في السفر والمرض فعليه القضاء [١١]

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة ، قيل اسمه محمد ، وقيل اسمه أبو بكر ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، والصحيح أن اسمه وكنيته واحد ، وله من

الأولاد والاختوة كثير، وهو تابعي جليل، روى عن عمار وأبي هريرة وأسامة بنت أبي بكر، وعائشة وأُم سلمة وغيرهم، وعنه جماعة منهم بنوه سلمة وعبد الله وعبد الملك وعمر، ومولاه سمى، وعاصم الشعبي وعمر بن عبد العزيز، وعمر بن دينار، ومجاهد، والزهرى. ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قریش، لكثرة صلاته، وكان مكفوطاً، وكان يصوم الدهر، وكان من الثقة والأمانة والفقہ وصحة الرواية على جانب عظيم، قال أبو داود: وكان قد كف وكان إذا سجد يضع يده في طست لعة كان يجدها. والصحيح أنه مات في هذه السنة، وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها. والله أعلم.

قلت: ونظم بعض الشعراء بيتين ذكر فيهما الفقهاء السبعة فقال: -

ألا كل من لا يقتدى بأئمة * فقسته جهراً عن الحق خارجة

نخدم عبيد الله عروة قاسم * سعيد أبو بكر سليمان خارجة

وفيها توفي الفضل بن زياد الرقاشي، أحد زهاد أهل البصرة، وله مناقب وفضائل كثيرة جداً، قال: لا يلهينك الناس عن ذات نفسك، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلت. وقال: لم أر شيئاً أحسن طلباً، ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثه لذنب قديم.

أبو سلمة أبو عبد الرحمن بن عوف الزهرى، كان أحد فقهاء المدينة، وكان إماماً عالماً، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وكان واسع العلم. توفي بالمدينة.

عبد الرحمن بن عائذ الأزدي، له روايات كثيرة، وكان عالماً، وخلف كتباً كثيرة من علمه، روى عن جماعة من الصحابة، وأسر يوم وقعة ابن الأشعث فأطلقه الحجاج.

عبد الرحمن بن معاوية بن خزيمة، قاضي مصر لعمر بن عبد العزيز بن مروان وصاحب شرطته، كان عالماً فاضلاً، روى الحديث وعنه جماعة [١].

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح حصوناً كثيرة. وفيها فتح مسلمة بن عبد الملك مدينة في بلاد الروم، ثم حرقها ثم بناها بعد ذلك بعشر سنين، وفيها افتتح محمد بن القاسم مدينة المولينا^(٢) من بلاد الهند، وأخذ منها أموالاً جزيلة، وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل فحمل من كثرتها، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي، وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش، ففتح مدناً وأقاليم كثيرة، فلما كان هناك جاءه الخبر بموت الحجاج بن يوسف فقمعه ذلك ورجع بالناس إلى مدينة مرو وتمثل بقول بعض الشعراء:

(١) زيادة من المصرية. (٢) كنا ولعلها (المثلثان).

لعمري لنعم المرة من آل جعفر * بحوران أمسى أعلقت الحبال
فان نحى لأملك حياتي وإن تبت * فما في حياتي بعد موتك طائل

وفيها كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء ، ويمده على ذلك ويجزيه خيراً ، ويثني عليه بما صنع من الجهاد وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد . وقد كان الحجاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله ، فولى الوليد الصلاة والحرب بالمصريين - الكوفة والبصرة - يزيد بن أبي كبشة ، وولى خراجهما يزيد بن مسلم ، وقيل كان الحجاج يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد ، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه . وكانت وفاة الحجاج الخامس ، وقيل لثلاث بقين من رمضان ، وقيل مات في شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها بشر بن الوليد بن عبد الملك ، قاله أبو معشر والواقدي . وفيها قتل الوضاحي بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه ، وفي هذه السنة كان مولد أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس .

وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي وذكر وفاته

هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن دعب بن عمرو ابن سعد بن عوف بن ثقيف ، وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن ، أبو عبد الثقفي ، جمع ابن عباس وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبي بردة بن أبي موسى ، وروى عنه أنس بن مالك ، وثابت البناني ، وحبيب الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن مجالد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبي عروبة . قاله ابن عساكر ، قال : وكانت له بدمشق دور منها دار الراوية بقرب قصر ابن أبي الحديد . وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير ، ثم عزله عنها وولاه العراق . وقدم دمشق وافداً على عبد الملك ، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم ، سمعت أبي يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكي من حوله ، ثم قال : سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول : سمعت مروان يقول في خطبته : خطبنا عثمان بن عفان فقال في خطبته : « ما نظر رسول الله (ص) إلى قبر أو ذكره إلا بكى » . وهذا الحديث له شاهد في سنن أبي داود وغيره ، وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار : ثنا يسار عن جعفر عن مالك بن دينار قال : دخلت يوماً على الحجاج فقال لي : يا أبا يحيى ألا أحدثك بمحدث حسن عن رسول الله (ص) ؟ قلت : بلى ! فقال : حدثني أبو بردة عن أبي موسى . قال قال رسول الله (ص) : « من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها في دبر صلاة مفروضة » . وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره في السنن والمسانيد والله أعلم .

قال الشافعي : سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبه دخل على امرأته وهي تتخلل - أي تخلل أسنانها لتخرج ما بينهما من أذى - وكان ذلك في أول النهار ، فقال : والله لئن كنت باكرت الغداء إنك لرعية دنية ، وإن كان الذي تخللين منه شيء بقي في فيك من البارحة إنك لقدرة فطلقها فقالت : والله ما كان شيء مما ذكرت ، ولكنني باكرت ما تابا كره الحرة من السواك ، فبقيت شظية في في منه فحاولتها لأخرجها . فقال المغيرة ليوسف أبي الحجاج : تزوجها فانها خلقة بأن تأتي برجل يسود ، فتزوجها يوسف أبو الحجاج . قال الشافعي : فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقبل له في النوم : ما أسرع ما ألقحت بالمبير .

قال ابن خلكان : واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي ، وكان زوجها الحارث ابن كلفة الثقفي طبيب العرب ، وذكر عند هذه الحكاية في السواك . وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يملكان النملان بالطائف ، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك ، فشكا عبد الملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون للنزول ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح : عندي رجل توليه ذلك ، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش ، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل ، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضر بهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط ، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك ، فقال للحجاج : لم صنعت هذا ؟ فقال : لم أفعله إنما فعله أنت ، فان يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه ، وبديل الغلام غلامين ، ولا تكسرنى في الذي وليتني ، ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده . قال : وبنى واسط في سنة أربع وثمانين ، وفرغ منها في سنة ست وثمانين ، وقيل قبل ذلك قال : وفي أيامه تقطت المصاحف ، وذكر في حكايته ما يدل أنه كان أولاً يسمى كليباً ، ثم سمي الحجاج . وذكر أنه ولد ولا يخرج له حتى فتق له مخرج ، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدي ثم دم صالح واطخ وجهه بدمه فارتضع ، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء ، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذي لطح به وجهه ، ويقال إن أمه هي المنسية أنصر بن حجاج بن علاط ، وقيل إنها أم أبيه والله أعلم . وكانت فيه شهامة عظيمة ، وفي سيفه رفق ، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة ، وكان يغضب غضب الملوك ، وكان فيما يزعم ينسبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبهه بممر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ، ولا سواء ولا قريب . وقد ذكر ابن عساکر في ترجمة سليم بن عثر النجيب قاضي مصر ، وكان من كبار التابعين . وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات في الصلاة وغيرها .

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر في جامعها فاجتاز بهما سليم بن عثر هذا فنهض إليه أبو

الحجاج فسلم عليه ، وقال له : إني ذاهب إلى أمير المؤمنين ، فهل من حاجة لك عنده ؟ قال : نعم ! تسأله أن يمزاني عن القضاء . فقال : سبحان الله !! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك . ثم رجع إلى ابنه الحجاج فقال له ابنه : يا أبة أتقوم إلى رجل من نجيب وأنت ثقي ؟ فقال له : يا بني والله إني لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله . فقال : والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، فقال : ولم يا بني ؟ قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر ، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما فيخلمونه ويخرجون عليه ويبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلص لي من الأمر شيء لأضرب عنق هذا وأمثاله . فقال له أبوه : يا بني والله إني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً . وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجهة عند الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، فانه تفرس في ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك ،

قالوا : وكان مولد الحجاج في سنة تسع وثلاثين ، وقيل في سنة أربعين ، وقيل في سنة إحدى وأربعين ، ثم نشأ شاباً ليبياً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن ، قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري ، وكان الحسن أفصح منه . وقال الدارقطني : ذكر سليمان بن أبي منيع عن صالح بن سليمان قال قال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا الحجاج وإياس بن معاوية ، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . وتقدم أن عبد الملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيه عبد الله بمكة فحاصره بها وأقيم للناس الحج عامئذ ، ولم يتمكن ومن معه من الطواف بالبيت ، ولا تمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف ، ولم يزل محاصره حتى ظفربه في جهادى سنة ثلاث وسبعين ، ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن ، ثم نقله إلى العراق بعد موت أخيه بشر ، فدخل الكوفة كما ذكرنا ، وقال لهم وفعل بهم ما تقدم إirاده مفصلاً ، فأقام بين ظهرانيهم عشرين سنة كاملة . وفتح فيها فتوحات كثيرة ، هائلة منتشرة ، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند ، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم ، ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب من بلاد الصين ، وجزت له فصول قد ذكرناها . ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الأمور والجرأة والاقدام ، والتهاون في الأمور العظام ، مما يمدح على مثله ومما يندم بقوله وفعله ، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره : فروي أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أبوب عن عبد الله بن كثير بن أخى إسماعيل بن جعفر المدينى ما معناه : أن الحجاج بن يوسف صلى مرة بجانب سعيد بن المسيب - وذلك قبل أن يلى شيئاً - فجعل يرفع قبل الامام ويقع قبله في السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بطرف رداءه - وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة - فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد

فقال له : ياسارق يا خائن ، تصلى هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه . ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائباً على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها ، فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب ، فقصدته الحجاج فخشى الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال : نعم اقال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بمدة صلاة إلا وأنا أذكر قولك . ثم قام ومضى . وروى الريثي عن الأصمعي وأبي زيد عن معاذ بن العلاء - أخى أبي عمرو بن العلاء - قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فأمر الناس فجمعوا في المسجد ثم صعد المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : يا أهل مكة ! بلغني إكباركم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها ، فترع طاعة الله واستكن بحرم الله ، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأباح له كرامته ، وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، اذكروا الله يذكركم .

وقال الامام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ثنا عون عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعد ما قتل ابنها عبد الله فقال : إن ابنك ألد في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت ، كان برأ بوالديه ، صواماً قواماً ، والله لقد أخبرنا رسول الله (ص) : « أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير » . ورواه أبو يعلى عن وهب بن بقية عن خالد عن عون عن أبي الصديق . قال : بلغني أن الحجاج دخل على أسماء فذكر مثله ، وقال أبو يعلى : ثنا زهير ثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن قيس بن الأحنف عن أسماء بنت أبي بكر . قالت : سمعت رسول الله (ص) ، نهى عن المثلة . وسمعت يقول : « يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير » . قالت فقلت للحجاج : أما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو يا حجاج . وقال عبيد بن حميد : أنبأ يزيد بن هازون أنبأ العوام بن حوشب حدثني من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول للحجاج حين دخل عليها يمزحها في ابنها : سمعت رسول الله (ص) يقول : « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني المختار - وأما المبير فأنت . وتقدم في صحيح مسلم من وجه آخر أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله ، وقد رواه غير أسماء عن النبي (ص) ، فقال أبو يعلى : ثنا أحمد بن عمر الوكيي ، ثنا وكيع حدثنا أم عراب عن امرأة يقال لها عقيلة عن سلامة بنت الحر قالت قال رسول الله (ص) : « في ثقيف كذاب ومبير » . تفرد به أبو يعلى . وقد روى الامام أحمد عن وكيع عن أم عراب - واسمها

طلحة - عن عقيلة عن سلامة حديثاً آخر في الصلاة ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه ، وروى من حديث ابن عمر ، فقال أبو يعلى : ثنا أمية بن بسطام ثنا يزيد بن ربيع ثنا إسرائيل ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت ابن عمر « أنبأنا رسول الله ص » ، أن في ثقيف مبيراً وكذاباً ، وأخرجه الترمذى من حديث شريك عن عبد الله بن عاصم ويقال عصمة . وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

وقال الشافعى : ثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن قافع أن ابن عمر اعتزل ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، فكان لا يصلى مع الحجاج . وقال الثورى عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلى وراءه . وقال إسحاق بن راهويه : أنبأ جرير عن القعقاع بن الصلت قال : خطب الحجاج فقال : إني ابن الزبير غير كتاب الله ، فقال ابن عمر : ماسطه الله على ذلك ، ولا أنت مهسه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعلت . وروى عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول : الصلاة الصلاة مراراً ، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس ، فصلى الحجاج بالناس ، فلما انصرف قال لابن عمر : ما حملك على ذلك ؟ فقال : إنما نجي للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم تفتق ماشئت بعد من تفتقه .

وقال الأصمعى : سمعت عيسى يقول : بلغنى أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال : بشرٌ حال ، قتل ابن حواري رسول الله ص ، فقال الحجاج : ومن قتله ؟ فقال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته ، من قليل المراقبة لله . فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال : أيها الشيخ ! أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال : نعم ! فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضرراً . فكشف الحجاج عن لثامه وقال : سنعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة . فلما تحقق الشيخ الجدل قال : والله إن هذا هو المعجب بالحجاج ، لو كنت تعرفنى ماقلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبي داود ، أصرع كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : انطلق فلا شفى الله إلا بعد من جنونه ولا عاقاه .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد ثنا حماد بن سلمة عن ابن أبي رافع عن عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك : أتمكنه من ذلك ؟ فقال : وما بأس من ذلك . قال : أشد الناس والله ، قال : كيف ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدرى على آل الزبير منذ تزوجت^(١) رملة بنت الزبير ، قال : وكأنه كان نائماً فأيقظه ، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها فطلقها . وقال سعيد بن أبي عروبة : حج الحجاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأتى بغدائه فقال لحاجبه :

(١) كذا بالأصول والظاهر أن في مواضع من هذا الخبر تحريفاً .

انظر من يا كل معي ، فذهب فاذا أعرابي نائم فضر به برجله وقال : أجب الأمير ، فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تفسد معي ، فقال : إنه دعائي من هو خير منك ، قال : ومن ؟ قال الله دعائي إلى الصوم فأجبت ، قال : في هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم صمت ليوم هو أشد حرّاً منه ، قال : فأفطر وصم غداً ، قال : إن ضمننت لي البقاء لغد . قال : ليس ذلك لي ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تقدر عليه ؟ قال : إن طعمنا طعام طيب ، قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، إنما طيبته العافية

قصة الحجاج

قد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة في سنة خمس وسبعين وخطبته إياهم بفتة ، وتهديده ووعيده إياهم ، وأنهم خافوه مخافة شديدة ، وأنه قتل عمير بن ضبابي ، وكذلك قتل كيل بن زياد صبرا ، ثم كان من أمره في قتال ابن الأشعث ما قد مرنا ، ثم تسلط على من كان معه من الرؤساء والأحرار والعباد والقراء ، حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبيرة . قال القاضي المعافى زكريا : ثنا أحمد بن محمد بن سعد الكلبي ثنا محمد بن زكريا الفلابي ثنا محمد - يعني ابن عبد الله بن عباس - عن عطاء - يعني ابن مصعب - عن عاصم قال : خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجاهم ، فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع ، والأطراف ، ثم أفضى إلى الأسماخ والأغماخ ، والأشباح والأرواح ، ثم ارتع فمشش ، ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، وموثماً تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعم بجملة ، أو ينفعكم بيان ؟ ألسنتم أصحابي بالأهواز حيث منيتهم المكر واجتمعتم على الغدر ، واتفقتم على الكفر ، وظننتم أن الله يخلد دينه وخلافته ، وأنا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوإذا ، وتهزمون سراعاً . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ، مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، وفكوس قلوبكم إذ وليتم كالابل الشاردة عن أوطانها النوازع ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حين عضضكم السلاح ، ونخضكم الرماح . ويوم دير الجاهم وما يوم دير الجاهم ، بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق يا أهل الكفران بعد الفجران ، والغدران بعد الخلدان ، والنزوة بعد النزوات ، إن بعثناكم إلى ثغوركم غلتم وختم ، وإن أمتهم أرجتم ، وإن ختمنا فاقتم ، لا تذكرون نعمة ، ولا تشكرون معروف ، ما استخفكم ناكث ، ولا استغفواكم غاو ، ولا استنقذكم عاص ، ولا استنصركم ظالم ، ولا استعضدكم خال ، إلا لبيتم دعوته ، وأجبت صيحته ، ونفرت إليه خفافاً وثقالاً ، وفرساناً ورجالا . يا أهل العراق هل شغب شاغب ، أو لعب لاعب ، أو زفر زافر

إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يا أهل العراق ألم تنفعم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم يشدد الله عليكم وظائفه ، وينذركم حر سيفه ، وأليم بأسه ومثلاته ؟ . ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام إنما أنالكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها القدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب . يا أهل الشام ! أنتم الجنة والبرد ، وأنتم الملاة والجلد ، أنتم الأولياء والأنصار ، والشعار والدثار ، بكم يذب عن البيضة والحوزة ، وبكم ترمى كتائب الأعداء . ويهزم من عائد وتولى .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي سمعت شيخاً من قريش يكنى أبا بكر التميمي قال : كان الحجاج يقول في خطبته - وكان لسنا - : إن الله خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحي والمرور ، ثم أدال الله الأرض منهم فزدم إليها فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم في جوفها وفرت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور .

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ : الرجل وكلكم ذاك الرجل ، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وكفها بزمامها عن معاصي الله ، رحم الله امرأاً رد نفسه ، امرأاً اتهم نفسه ، امرأاً اتخذ نفسه عدوة ، امرأاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره ، امرأاً نظر إلى ميزانه ، امرأاً نظر إلى حسابه ، امرأاً وزن عمله ، امرأاً فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته و يراه في ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً ، وعند همه آمراً ، امرأاً أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جملته ، فان قاده إلى طاعة الله تبه ، وإن قاده إلى معصية الله كف ، امرأاً عقل عن الله أمره ، امرأاً فاق واستفاق ، وأبغض المعاصي والنفاق ، وكان إلى ما عند الله بالأشواق . فما زال يقول امرأاً أصراً ، حتى بكى مالك بن دينار .

وقال المدائني عن عوانة بن الحكم قال قال الشعبي : سمعت الحجاج تكلم بكلام ماسبقه إليه أحد ، يقول : أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء . فلا يفرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل . وقال المدائني عن أبي عبيد الله الثقفني عن عمه قال : سمعت الحسن البصري يقول : وقد تني كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأاً ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرق أن تطول عليها حسرتة إلى يوم القيامة . وقال شريك القاضي عن عبد الملك بن عمير قال قال الحجاج يوماً : من كان له بلاه أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال :

اعطني فاني قتلته الحسين ، فقال : وكيف قتلته ؟ قال : دسرت به بالرمح دسرا ، وهبته بالسيف هبرا ، وما أشركت معي في قتله أحدا . فقال : اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو في موضع واحد ، ولم يعطه شيئا . وقال الهيثم بن عدى : جاء رجل إلى الحجاج فقال : إن أخى خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري ، فقال الحجاج ، أما سمعت قول الشاعر :

حَنَانِيكَ مَنْ كَتَبَنِي عَلَيْكَ وَقَدْ * تَمَدَّى الصِّحَاحُ مَبَارِكُ الْجُرَبِّ
وَلَرَبِّ مَأْخُوذٍ بِذَنْبِ قَرِيبِهِ * وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ ؟

فقال الرجل : أيها الأمير إني سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الله أسدق من هذا ، قال : وما قال ؟ قال [قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا نخذ أحدا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون] قال : يا غلام أعد اسمي في الديوان وابن داره ، واعطه عطاءه ، ومر مناديا ينادي صدق الله وكذب الشاعر . وقال الهيثم بن عدى عن ابن عباس : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبد البكرى ، لما بلغني عنه ، فأحضره الحجاج فقال : أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين] وما بلغني باطل ، وإني أعول أربعة وعشرين امرأة ما لمن كسب غيري وهن بالباب ، فأمر الحجاج بإحضارهن ، فلما حضرن جعلت هذه تقول : أنا خالته ، وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا بنته ، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة ، فقال لها الحجاج : من أنت ؟ فقالت : أنا ابنته ، ثم قالت : أهلك الله الأمير ، وجئت على ركبتيها وقالت : -

أحجاج لم تشهد مقام بناته * وعما تر يندبنة الليل أجما
أحجاج كم تقتل به إن قتلته * ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه * علينا فهلا إن تردنا تضرعنا
أحجاج إما أن نجود بنعمة * علينا وإما أن تقتلنا معا

قال : فبكى الحجاج وقال : والله لا أعنت عليك ولا زدتك تضرعنا ، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل ، وبما قالت ابنته هذه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتقديرها في كل وقت . وقيل إن الحجاج خطب يوما فقال : أيها الناس العبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ما أصفك وجهك وأقل حيائك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبت وضل سمعك ، فقال للمرس خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرأك على ؟ فقال : ويحك يا حجاج ، أنت

تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك . وأنت تجترئ على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله ، فأطلق

وقال المدائني : أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهم ، فقال أحدهما : إن لي عندك يداً ، قال : وما هي ؟ قال : ذكر ابن الأشعث يوماً أمك فرددت عليه ، فقال : ومن يشهد لك ؟ قال : صاحبي هذا فسأله فقال : نعم . فقال : ما منكم أن تفعل كما فعل ؟ قال : بفضك ، قال اطلقوا هذا لصدقه ، وهذا إنفله . فأطلقوهما . وذكر محمد بن زياد عن ابن الأعرابي فيها بلغه أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان فاتكاً بأرض الحماة ، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه ، فما زال نائبها في طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج ، فقال له الحجاج : ما حملك على ما كنت تفعله ؟ فقال : جراءة الجنان ، وجفاء السلطان ، وكاب الزمان ، ولو اخترتني الأمير لوجدتني من صالح الأعداء ، وشهم الفرسان ، ولو جئتني من أصلح رعيته ، وذلك أتى ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً ، فقال له الحجاج : إنا قاذفوك في حائر فيه أسد طاقران قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خيلنا سبيلك . ثم أودعه السجن مقيداً ، فلوالة يده اليمنى إلى عنقه ، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسر أن يبعث بأسد عظيم ضار ، وقد قال جحدر هذا في محبسه هذا أشمأراً يتمحزناً فيها على امرأته سليمان أم عمر . يقول في بعضها :

أليس الليل يجمع أم عمرو * وإيانا فذاك بنا تداني
بلى وترى الهلال كما نراه * ويملأها النهار إذا علاني
إذا جاوزتما نخلات تجدي * وأودية اليمامة فانماني
وقولا جحدر أمسي زهيناً * يحاذر وقع مصقول يماني

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام ، ثم أُرز إلى حائر - وهو البستان - وأمر بجحدر فأخرج في قيوده ويده اليمنى مفلولة بحالها ، وأعطى سيفاً في يده اليسرى وخلي بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه في منظره ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

ليث وليث في مجال ضحك * كلاهما ذو أنفٍ ومحك
وشدة في نفسه وقتك * إن يكشف الله تناع الشك
فهو أحق منزل بترك *

فلما نظر إليه الأسد زار زارة شديدة وتمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاها جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف هواته ، نحر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح ، من شدة الضربة ، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد وشدة موضع

القيود عليه ، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأشار جحدر يقول :

يا جمل إنك لو رأيت كريهتي * في يوم هول مسدني وعجالي
وتقدمي لليث أرسف موقفاً * كما أساوره على الأخراج
شئن برائنه كأن نيوبه * فرق المعاول أو شبة زجاج
يسمو بناظرتين تحسب فيهما * لهبا أحدهما شعاع سراج
وكأنما خيطت عليه عباءة * برقاه أو خرطاً من الديباج
لعلت أني ذو حفاظ ماجد * من نسل أقوام ذوى أبراج

فمنذ ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده ، وإن شاء انطلق إلى بلاده ، فاختر المقيم عند الحجاج ، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً . وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله (س) ، لأنه ابن بنته ، فقال له يحيى بن يعمر : كذبت فقال الحجاج : لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضرب عنقك ، فقال قال الله [ومن ذريته داود وسليمان] إلى قوله [وزكريا ويحيى وعيسى] فعيسى من ذرية إبراهيم ، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم ، والحسين ابن بنت رسول الله (س) ، فقال الحجاج : صدقت ، ونفاه إلى خراسان .

وقد كان الحجاج مع فصاحته وبلاغته يلغز في حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر ، منها أنه كان يبدل إن المكسورة بان المفتوحة وعكسه ، وكان يقرأ [قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم] إلى قوله [أحب إليكم] فيقرأها برفع أحب . وقال الأصمعي وغيره : كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد ، فقال للرسول : أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده ؟ قال : نعم ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك : أما أمس فأجل ، وأما اليوم فعمل ، وأما غداً فأمل . وقال ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة معمر بن المثنى . قال : لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق ، وسع على الناس في العطاء ، فكتب إليه عبد الملك : أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم مالا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر ، ثم قال منشداً :

عليك بتقوى الله في الأمر كله * وكن يا عبيد الله فحشى وتضرع
ووفر خراج المسلمين وفيأهم * وتن لهم حصناً نجبر وتمنع
فكتب إليه الحجاج :

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم * قراطيس تملأ ثم تطوى فتطبع
كتاب أتاني فيه لين وغلظة * وذكرته والذكرى لذي اللب تنفع

وكانت أمور تعتريني كثيرة * فأرضخ أو اعتل حيناً فامنع
 إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم * ولم يك عندي بالمنافع مطمع
 أيرضى بذلك الناس أو يسخطونه * أم احدى فيهم أم ألام فأقنع
 وكان بلاد جثتها حين جثتها * بها كل نيران العداوة تلع
 فقاويت منها ما علمت ولم أزل * أصارع حتى كدت بالموت أصرع
 وكم أرجفوا من رجفة قذ سممتها * ولو كان غيري طار مما يروع
 وكنت إذا هموا باحدى نهاتهم * حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
 فلو لم يزد عني صناديد منهم * تقسم أعضائي ذئباً وأضبع

قال : فكتب إليه عبد الملك : أن اعمل برأيك . وقال الثوري عن محمد بن المستورد الجمحي
 قال : أتى الحجاج بسارق فقال له لقد كنت غنياً أن تسكب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل
 عليك عضواً من أعضائك ، فقال الرجل : إذا قل ذات اليد سحخت النفس بالمناف . قال : صدقت
 والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً . يا غلام سيف صارم ورجل قاطع ، فقطع
 يده . وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن
 عبد الملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ^(١) فقال : يا أمير المؤمنين الحلال ما أحلت ،
 ولكني أنهي عنه أهل العراق وأهل عملي ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح [وما أريد أن
 أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه] . وقال عمر بن شبة عن أشياخه قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب
 عليه في إسرافه في صرف الأموال ، وسفك الدماء ، ويقول : إنما المال مال الله ونحن خزائنه ، وسيان
 منع حق أو إعطاء باطل . وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات : -

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها * وتطلب رضائي في الذي أنا طالبة
 وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً * إلى الله منه ضيع الدرحالبة
 فان تر مني غفلة قرشية * فياربما قد غص بالماء شارب
 وإن تر مني وثبة أموية * فهذا وهذا كله أنا صاحبة
 فلا تعد ما يأتيك مني فان تعد * تقم فاعلمن يوماً عليك نوادة

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الأموال ،

(١) ما يسمى في هذا العصر نبيذاً هو الخمر المحض ، وهو غير ما كان يسمى سلفنا نبيذاً . والنبيذ
 عندهم هو التمر أو الزبيب يترك عليه الماء ويسمونه بعد ذلك نبيذاً سواء أسكر أو لم يسكر . وفي
 كلتا الحالتين فإنه أشبه بعصير القصب اليوم إن لم يكن دونه .

والدماء ، فوالله ما بالغت في عقوبة أهل المصيبة ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فان كان ذلك سرقا
فليحذر لي أمير المؤمنين حداً أنتهى إليه ولا أنجاوزه ، وكتب في أسفل الكتاب :
إذا أنا لم أطلب رضاك وأتقى * أذاك فيومي لاتوارث كواكبه
إذا قارفت الحجاج فيك خطيئة * فقامت عليه في الصباح نواديه
أسالم من سلمت من ذي هوادة * ومن لاتسالمه فاني محاربة
إذا أنا لم أدن الشفيق لنضحه * وأقص الذي تسرى إلى عقاربه
فمن يتقى يومي ويرجو إذا غدى * على ما أرى والدهر جهم عجائبه

وعن الشافعي أنه قال قال الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه :
هل يجحد في نفسه مما أجاب من الدنيا شيئاً ؟ فسأله كما أمره ، فقال : والله ما أحب أن لي لبنان
أوسبير ذهباً أنفقه في سبيل الله مكان ما أبلاني الله من الطاعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل في أخبار

فيما روى عنه من الكلمات النافعة والجرأة الباسغة

قال أبو دواد : ثنا محمد بن العلاء ثنا أبو بكر عن عاصم قال سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول :
اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مشنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مشنوية لأمر المؤمنين عبد الملك ،
والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحملت لي دماؤهم وأموالهم ،
والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً ، وما عذيري من عبد هذيل يزعم أن قرآنه
من عند الله ، والله ما هي إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذيري من هذه
الجرأة ، يزعم أحدهم يرمى بالحجر فيقول لي إن تقع الحجر حدث أمر ، فوالله لأدعنهم كالأمس
الداير . قال : فذكرته للأعمش فقال : وأنا والله سمعته منه . ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة عن محمد بن
يزيد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود والأعمش أنهما سمعا الحجاج قبحه الله يقول
ذلك ، وفيه والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحملت لي دماؤكم ، ولا
أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا غربت عنقه ، ولا حكنها من المصحف ولو بضلع خنزير .
ورواه غير واحد عن أبي بكر بن عياش بنحوه ، وفي بعض الروايات : والله لو أدركت عبد هذيل
لأضرب عنقه . وهذا من جرأة الحجاج قبحه الله ، وإقدامه على الكلام السيئ ، والدماء الحرام .
وإنما نقم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الأمام الذي جمع
الناس عليه عثمان ، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه والله أعلم .

وقال علي بن عبد الله بن مبشر عن عباس الدوري عن مسلم بن إبراهيم : ثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج على منبر واسط يقول : عبد الله بن مسعود رأس المنافقين ، لو أدركته لأستقيت الأرض من دمه . قال وسمعت علي منبر واسط وتلا هذه الآية [هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي] قال : والله ان كان سليمان لحسوداً . وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر : قبحه الله وأخزاه ، وأبعده وأقصاه .

[قال أبو نعيم : حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة . قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني جئت من عند رجل على المصاحف عن ظهر قلب ، ففرغ عمر وغضب وقال : وبجك ، انظر ما تقول . قال : ماجئت إلا بالحق ، قال : من هو ؟ قال عبد الله بن مسعود . قال : ما أعلم أحداً أحق بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك . « إنا سهرنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي (ص) ، ثم خرجنا ورسول الله (ص) يمشي بيني وبين أبي بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي (ص) ، يستمع إليه ، فقلت : يا رسول الله أعنت ، فغمزني بيده - يعني اسكت - قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر ، فقال النبي (ص) : سل نطفه (١) ثم قال : من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد ، فعلت أنا وصاحبى أنه عبد الله بن مسعود ، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره فقال : سبقك بها أبو بكر ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه » وهذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه حبيب بن حسان عن زيد بن وهب عن عمر مثله ، ورواه شعبة وزهير وخديج عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ، ورواه عاصم عن عبد الله ، ورواه الثوري وزائدة عن الأعمش نحوه . وقال أبو داود : حدثنا عمر بن ثابت عن أبي إسحاق عن حمير بن مالك قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : « أخذت من في رسول الله (ص) سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لصبي مع الصبيان ، فأنا لا أدع ما أخذت من في رسول الله (ص) . » وقد رواه الثوري وإسرافيل عن أبي إسحاق به . وفي رواية ذكرها الطبراني عنه قال : « لقد تلقيت من في رسول الله (ص) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت ، وله دواة يلعب مع الغلمان » . وقد روى أبو داود عنه وذكر قصة رعه الغنم لعقبة بن أبي معيط ، وأنه قال : قال لي رسول الله (ص) : « إنك غلام معلم » ، قال : فأخذت من فيه سبعين سورة ما يذاعني فيها أحد » . ورواه أبو أيوب الأفرقي وأبو عوانة عن عاصم عن زر عنه نحوه . وقال له النبي (ص) : « إذنك أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادى حتى أهلك » . وقد روى هذا عنه من طرق

وروى الطبراني عن عبد الله بن شداد بن الحاذ أن عبد الله كان صاحب الوساد والسواد والسواك

(١) هذا الخبر في الاستيعاب لابن عبد البر ، لكنه اختصر هذا الموضع منه .

والنعملين . وروى غيره عن علقمة قال : قدمت الشام فجلست إلى أبي الدرداء فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : أليس فيكم صاحب الوساد والسواك ؟ وقال الحارث بن أبي أسامة : حدثنا عبد العزيز بن أبيان حدثنا قطر بن خليفة حدثنا أبو وائل قال سمعت حذيفة يقول ، وابن مسعود قائم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد (س) ، من أقربهم وسيلة يوم القيامة . وقد روى هذا عن حذيفة من طرق ، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي وائل عن حذيفة ورواه عن أبي وائل فاضل الأحنب وجامع بن أبي راشد ، وعبيدة ، وأبو سنان الشيباني ، وحكيم بن جبير ، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن حذيفة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول : قلنا لحذيفة أخبرنا برجل قريب الهدى والسمت من رسول الله (س) ، حتى نلزمه ، فقال : ما أعلم أحداً أقرب هدياً وسمتاً من رسول الله (س) ، حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب النبي (س) ، أن ابن أم عبد أقرب بهم إلى الله وسيلة . قلت : فهذا حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله (س) ، وهذا قوله في عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . فكذب الحجاج ونجر ، ولقم النار والحجر فيما يقوله فيه ، وفي رميه له بالنفاق ، وفي قوله عن قراءته : إنها شعر من شعر هذيل ، وإنه لا بد أن يحكمها من المصحف ولو بضلع خنزير ، وأنه لو أدركه لضرب عنقه ، فحصل على إثم ذلك كله بذمته الخبيثة . وقال عفان : حدثنا حماد حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله قال : كنت أجتني لرسول الله (س) ، سواكاً من أراك ، فكأنت الريح تكفوه ، وكان في ساقه دقة ، فضحك القوم فقال النبي (س) : « ما يضحككم ؟ » قالوا : من دقة ساقه ، فقال النبي (س) : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحب . ورواه جرير بن عيسى عن عاصم عن مغيرة عن أم موسى عن علي بن أبي طالب . وروى سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (س) : « تمسكوا بعبد الله بن أم مسعود » ورواه الترمذي والطبراني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق . قال : سمعت أبا الأحوص قال : شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين توفي ابن مسعود وأحدهما يقول لصاحبه : أتراه ترك بعده مثله . قال : إن قلت ذلك إنه كان ليؤذن له إذا حجبتنا ، ويشهد إذا غبتنا . وقال الأعمش : يعني عبد الله بن مسعود . وقال أبو معاوية : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب . قال : أقبل عبد الله بن مسعود ذات يوم وعمر بن الخطاب فقال : كيف مليء فقها . وقال عمر بن حفص : حدثنا عاصم بن علي حدثنا المسعودي عن أبي حصين عن أبي عطية أن أبا موسى الأشعري قال : لا تسألونا عن شيء مادام هذا الخبر بين أظهرنا من أصحاب محمد (س) . يعني ابن مسعود . وروى جرير عن الأعمش

عن عمرو بن عروة عن أبي البختري قال : قالوا لعلي : حدثنا عن أصحاب محمد (ص) ، قال : عن أبيهم ؟ قالوا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما . وفي رواية عن علي قال : علم القرآن ثم وقف عنده وكفى به . فهدانا الصحابة العالمون به ، العارفون بما كان عليه ، فهم أولى بالاتباع وأصدق أقوالاً من أصحاب الأهواء الخائدين عن الحق ، بل أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء : هذيانا وكذب وافتراء ، وبعضها كفر وزندقة ، فإن الحجاج كان عثمانيا أمويا : يميل إليهم ميلا عظيما . ويرى أن خلافهم كفر . ويستعمل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم

ومن الطامات أيضا مارواد أبو داود : ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني ثنا جرير . وحدثنا زهير بن حرب ثنا جرير عن المغيرة عن بزيع بن خالد الضبي قال : سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته : رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله ؟ فقلت في نفسي : لله علي أن لا أصلي خلفك صلاة أبداً ، وإن وجدت قوما يجاهدونك لأجاهدنك معهم . زاد إسحاق فقاتل في الجاهم حتى قتل . فإن صح هنالك عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة ، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول . وقال الأصمعي : ثنا أبو عاصم النبيل ثنا أبو حفص الثقفى قال : خطب الحجاج يوما فأقبل عن يمينه فقال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال : ألا إن الحجاج كافر ، فمل ذلك مراراً ، ثم قال : كافر يا أهل العراق باللات والعزى . وقال خنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة ثنا ابن شاذب عن يونس بن دينار قال : بينما الحجاج يخطبنا يوما إذ قال : الحجاج كافر ، قلنا : ماله ؟ أى شئ تريد ؟ قال : الحجاج كافر بيوم الأربعة والبغلة الشهباء . وقال الأصمعي قال عبد الملك يوما للحجاج : ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ، فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فأبى ، فقال : أنا لجويع حقوق حسود ، فقال عبد الملك : مافى الشيطان شر بما ذكرت . وفي رواية أنه قال : إذا بينك وبين إبليس نسب .

وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، فذلائهم لهم ، وعصيانهم ، ومخالفتهم ، والافتيات عليهم ، قال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح الجدي مفاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عن حمزة قال : جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان ، فصلى لنا صلاة فسها فيها ، حتى جعل الناس يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام ؟

فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثاً أورايتما ، فقال : يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق ، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، اللهم انهم قد لبسوا عليهم قالبس عليهم وعجل عليهم بالعلام الثقي ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئتهم . وقد روينا في كتاب مسند عمر بن الخطاب من طريق أبي عذبة الحمصي عن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : ثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال علي بن أبي طالب : اللهم كما ائتمنتهم نخائوني ، ونصحت لهم ففشوني فسلط عليهم فتي ثقيف الذيال الميسال ، يأكل خضرتهما ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ . ورواه معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي أنه قال : الشاب الذيال أمير المصريين يلبس فروتها ويأكل خضرتهما ، ويقتل أشراف أهلها ، يشتد منه الفرق ، ويكثر منه الأرق ، ويسلطه الله على شيعته . وقال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن أحمد الجبوري : ثنا سعيد بن مسعود ثنا يزيد بن هارون أنياً العوام بن حوشب حدثني حبيب بن أبي ثابت . قال قال علي لرجل : لامت حتى تدرك فتي ثقيف ، قال : وما فتي ثقيف ؟ قال : ليقال له يوم القيامة : اكننا زاوية من زوايا جهنم ، رجل يملك عشرين سنة ، أو بضماً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها ، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ، وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها ، يقتل بمن أطاعه من عصاه . وقال الطبراني : حدثنا القاسم بن زكريا ثنا إسماعيل بن موسى السدوسي ثنا علي بن مبهر عن الأجلح عن الشعبي عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت : استأذن الأشعث بن قيس على علي فردده فبصر فادعى أنفاً فخرج على فقال : مالك وله يا أشعث ، أما والله لو بعبد ثقيف تحرشت لأقشعرت شميرات استك ، قيل له : يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف ؟ قال : غلام يلهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً ، قيل كم يملك ؟ قال عشرين إن بلغ . وقال البيهقي أنبأنا الحاكم أنبأ الحسن بن الحسن بن أيوب ثنا أبو حاتم الرازي ثنا عبد الله بن يوسف التنيسي ثنا ابن يحيى الفائي . قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت بكل أمة بخبيئتها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم . وقال أبو بكر بن عياش : عن عاصم بن أبي النجود أنه قال : ما بقيت لله عز وجل حربه إلا وقد ارتكبها الحجاج .

وقد تقدم الحديث « إن في ثقيف كذاباً ومبيراً » وكان المختار هو الكذاب المذكور في هذا الحديث ، وقد كان يظهر الرقض أولاً ويبطن الكفر المحض ، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف هذا ، وقد كان ناصبياً يبغيض علياً وشيعته في هوى آل مروان بن أمية ، وكان جباراً عنيداً ، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة . وقد روى عنه الفاظ بشعة شذيمة ظاهرها الكفر كما قدمنا . فإن كان

قد تاب منها وأقلع عنها ، وإلا فهو باق في عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فان الشيعة كانوا يبخسونه جداً لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلام . وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، ويتجنب المحارم ، ولم يشتهر عنه شيء من التلطيخ بالفروج ، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فإله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسائرهما ، وخفيات الصدور وضمايرها :

[قلت : الحجاج أعظم ما تقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء ، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سباحة باعطاء المال لأهل القرآن ، فكان يعطى على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم . والله أعلم . (١)]

وقال المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار البغدادي : ثنا محمد بن القاسم الانباري ثنا أبي ثنا أحمد بن عبيد ثنا هشام أبو محمد بن السائب الكلبي ثنا عوانة بن الحكم الكلبي . قال : دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له إيه إيه يا أنيس ، يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لا سنأصلنك كما تستأصل الشاة . ولا دمفك كما تدمغ الصيغة . فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ، قال : إياك أعنى صك الله سمك . قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت . ولا أي مينة مت ، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وشفق عجباً ، وتماظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك ، أما بعد : فان الحجاج قال لي هجراً ، وأسمني نكراً ، ولم أكن لذلك أهلاً ، فغذلي على يديه ، فاني أمت بخدمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجاج - فقال له : دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فادفع كتابي إليه . وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك ، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايته عليك ، وما سلطته عليك ولا أمرته
بالإساءة إليك ، فان عاد لمثلها اكتب إلى بذلك أنزل به عقوبتي ، وتحسن لك معونتي . والسلام .
فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال : جزي الله أمير المؤمنين عنى خير الله ، وعافاه
وكفاه وكفاه بالجنة ، فهذا كان ظني به والرجاء منه . فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس : يا أبا حمزة
إن الحجاج عامل أمير المؤمنين ، وليس بك عنه غنى ، ولا بأهل بيتك ، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع
إليك ، ففار به وداره تمش معه بخير وسلام . فقال أنس : أفعل إن شاء الله . ثم خرج إسماعيل من
عند أنس فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه ، فقال إسماعيل :
ثأراً والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغير لون الحجاج وخاف وقال : ما أتيتني به ؟ قال :
فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضباً عليك ، ومنك بعداً ، قال : فاستوى الحجاج جالساً
مرعوباً ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق ، وينظر إلى إسماعيل
أخرى ، فلما فضه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نمتدح إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال :
كف لا أعجل وقد أتيتني بأبدة ؟ وكان في الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد
فإنك عبد طامت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية
إدأ ، وأردت أن تبدولي فان سوغتكمها مضيت قدما ، وإن لم أسوغها رجعت القهقري ، فلمنك
الله من عبد أخفش العيينين ، منفوص الجاعرتين . أنسيت مكاسب آباءك بالطائف ، وحفرهم الآبار ،
رفقهم الصخور على ظهورهم . يا ابن المستفزية بمجم الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث
التملب ، والصقر الأرنب . وثبت على رجل من أصحاب رسول الله (ص) بين أظهرنا ، فلم تقبل له
إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافاً منك بالعهد ، والله
لو أن اليهود والنصارى رأيت رجلاً خدام عزير بن عزي ، وعيسى بن مريم ، لعظمته وشرفته وأكرمته
وأحبته ، بل لو رأوا من خدام حمار العزيز أو خدام حوارى المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا
أنس بن مالك خدام رسول الله (ص) ثمانى سنين ، يطمعه على سره ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع
هذا بقية من بقايا أصحابه ، فاذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه وفعله ، وإلا أتاك مني سهم
بكل حنظل فاض ، وبكل نبال مستقر وسوف تعلمون . وقد تكلم ابن طرار على ما وقع في هذا الكتاب
من الغريب ، وكذلك ابن قتيبة وشيخهما من أئمة اللغة والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الزبير - يعني ابن عدي - قال :
أثنا أنس بن مالك | نشكو إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان

أو يوم إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم عز وجل ، ميمته من نبيكم . وهذا رواه البخاري عن محمد بن يوسف عن سفيان وهو الثوري عن الزبير بن عدي عن أنس قال : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » الحديث . قلت : ومن الناس من يروى هذا الحديث بالمعنى فيقول : كل عام ترذلون . وهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث ، والله أعلم . قلت : قد مر بي مرة من كلام عائشة مرفوعاً وموقوفاً : كل يوم ترذلون . ورأيت للإمام أحمد كلاماً قال فيه : وروى في الحديث كل يوم ترذلون نسماً خبيثاً . فيحتمل هذا أنه موقع للإمام أحمد مرفوعاً ، ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل ، وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم . فدل على أن له أصلاً إما مرفوعاً وإما من كلام السلف ، لم يزل يقتنأه الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، حتى وصل إلى هدم الزمان ، وهو موجود في كل يوم ، بل في كل ساعة تفوح رائحته ، ولا سيما من بعد فتنة تمرانك ، وإلى الآن نجد الرذالة في كل شيء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد قال سفيان الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي . قال : يأتي على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج . وقال أبو نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر . قال قال الشعبي : والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج . وقال الأصمعي : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شر من الأول ، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج . فقال الحسن : لا بد للناس من تنفسات .

وقال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا . قال : فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن . وقال أيوب السختياني : إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فمعه الله منه ، وقد ذكر له معه مناظرات ، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرهاً كما قدمنا ، وكان الحسن يقول : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع . وقال ابن دريد عن الحسن بن الحضرمي عن ابن عائشة . قال : أتى الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج فقتل له : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قال فعمان ؟ فأثنى خيراً ، قيل له : فما تقول في علي ؟ فأثنى خيراً ، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد ، فيثني على كل بما يناسبه ، حتى قيل له : فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ فقال : الآن جاءت المسألة ، ما أقول في رجل الحجاج خطبة من بعض خطاياه ؟ . [(١)]

وقال الأصمعي عن علي بن مسلم الباهلي قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً ، فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟

فقلت : إني لأستحي من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها فقتلت . وقد ذكرنا في سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير ، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة .

وقد قال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا أبو ظفر ثنا جعفر بن سليمان عن بسطام بن مسلم عن قتادة قال قيل لسعيد بن جبير : خرجت على الحجاج ؟ قال : إني والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ويقال إنه لم يقتل به إلا رجلاً واحداً اسمه ماهان ، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً ، أكثرهم من خرج مع ابن الأشعث . وقال أبو عيسى الترمذي : ثنا أبو داود سليمان بن مسلم البلخي ثنا النضر بن شميل عن هشام بن حسان قال : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً قال الأصمعي : ثنا أبو ميم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحداً وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل إنه لبث في سجنه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب ، وكان فيمن حبس أعرابي وجد يبول في أصل روض مدينة واسط ، وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط * خرينا وصلينا بغير حساب

وقد كان الحجاج يبع هذا العنف الشديد لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر ، قال ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحاربي : ثنا سليمان بن أبي سنح ثنا صالح بن سليمان قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيئها وجئنا بالحجاج لغلبناهم ، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا الآخرة لقد ولي العراق وهو أوفر ما يكون في العارة ، فأخس به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، ولقد أدى إلى عمالي في عامي هذا ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدي إلى ما أدى إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف . وقال أبو بكر بن المقرئ : ثنا أبو عروبة ثنا عمرو بن عثمان ثنا أبي سمعت جدي قال . كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : بلغني أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه ، فانه كان يصلي الصلاة لغير وقتها ، يأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا سعيد بن أسد ثنا ضمرة عن الريان بن مسلم . قال : بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد فاني قد بعثت بآل أبي عقيل وهم شر بيت في العمل ، ففرقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلىنا ، وعليك السلام . وإنما نعام . وقال الاوزاعي : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول : كان الحجاج ينقض عرى الأسلام ، وذكر حكاية . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم : لم يبق لله حرمة إلا ارتكها الحجاج بن يوسف ، وقال يحيى بن عيسى الرملي عن الأعشى : اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهداً فقال : تسألون عن الشيخ الكافر .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : الحجاج مؤمن بالحبس والطاغوت ، كافر بالله العظيم .
 كذا قال والله أعلم . وقال الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : عجبا لآخواننا من أهل
 العراق يسمون الحجاج مؤمنا ؟ وقال الثوري عن ابن عوف : سمعت أبا وائل يسأل عن الحجاج
 أتشهد أنه من أهل النار ؟ قال أتأمروني أن أشهد على ^(١) الله العظيم : وقال الثوري عن منصور :
 سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال : أليس الله يقول [ألا لعنة الله على الظالمين]
 وبه قال إبراهيم وكفى بالرجل عيا أن يعمى عن أمر الحجاج . وقال سلام بن أبي مطيع لانا بالحجاج
 أرجى مني لعمر وبن عبيد ، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا ، وعمر وبن عبيد أحدث للناس
 بدعة شنعاء ، قتل الناس بعضهم بعضاً ، وقال الزبير : سببت الحجاج يوماً عند أبي وائل فقال :
 لا تسبه لعله قال يوماً اللهم ارحمني فيرحمه ، إياك وبخالسة من يقول أرايت أرايت . وقال عوف :
 ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد ، إن يعبه الله عز وجل فيذنبه ، وإن
 يفر له فنيشاً له ، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه .
 فقيل له ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والایمان ، وأن يعلم أن الله حق ، وأن
 الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من في القبور .

وقال أبو قاسم البغوي : ثنا أبو سعيد ثنا أبو أسامة قال قال رجل لسفيان الثوري : أتشهد على
 الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في النار ؟ قال : لا ، إن أقرأ بالتوحيد . وقال الرياشي : حدثنا
 عباس الأزرقي عن السري بن يحيى قال : مر الحجاج في يوم جمعة فسمع استغاثة فقال : ما هذا ؟
 فقيل أهل السجون يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخسثوا فيها ولا تكلمون . قال : فاعاش
 بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار . وقال بعضهم : رأيت وهو يأتي الجمعة وقد
 كاد يهلك من العلة . وقال الأصمعي : لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته : إن
 طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فه ؟ فهل
 يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت
 الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال الله له [إنك من المنظرين] فأنظره إلى يوم
 الدين ، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال [هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من عبادي] فأعطاه الله ذلك إلا
 البقاء ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره ، فقال [توفي مسلماً وألحقني بالصالحين] فما
 عسى أن يكون أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حي منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ،
 ثم نقل في أثواب أ كفانه ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ،

وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول ، ثم نزل .
 وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى النعماني عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال :
 ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين
 حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا
 علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر . قال :
 كان عمر بن عبد العزيز يبنض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت : اللهم اغفر لي فانهم
 يزعمون أنك لا تفعل . قال : وحدثني بعض أهل العلم قال قيل للحسن : ان الحجاج قال عند الموت
 كذا وكذا ، قال : قالها ؟ قالوا : نعم قال فما عسى . وقال أبو العباس المري عن الرياشي عن
 الأصمعي قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا * بأنني رجل من ساكني النار
 أبخلفون على عمياء ويحجم * ما علمهم بمعظم المغر غفار
 قال فأخبر بذلك الحسن فقال : بالله إن نجما لينجون بهما . وزاد بعضهم في ذلك : -
 إن المولى إذا شابت عبيدكم * في رقهم عتقوم عتق أبرار
 وأنت يا خالق أولى بذنا كرماء * قد شبت في الرق فاعتقني من النار

وقال ابن أبي الدنيا : ثنا أحمد بن عبد الله التيمي قال : لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتى
 أشرفت جارية فبكت فقالت : ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، ومرمل النساء ، ومفلق الهام ،
 وسيد أهل الشام قد مات ، ثم أنشأت تقول : -

اليوم يرحمنا من كان يفضنا * واليوم يأمننا من كان يخشانا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مرارا فلما تحقق
 وفاته قال : [فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين] وروى غير واحد أن الحسن لما
 بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى ، وكان محتفياً فظهر ، وقال اللهم أمته فأذهب عنا سنته
 وقال حماد بن أبي سليمان : لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح . وقال أبو بكر بن
 أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان قال قال زياد بن الربيع بن الحارث لا هل
 السجن بموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا وكذا ، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن
 فرحاً ، جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ، وقيل كان
 ذلك لخمس بقين من رمضان ، وقيل في شوال من هذه السنة ، وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين
 سنة ، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل قبلها بسنة ، مات بواسط

وعنى قبره ، وأجرى عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق والله أعلم .

وقال الأصمعي : ما كان أعجب حال الحجاج ، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم . وقال الواقدي : ثنا عبد الله بن محمد بن عبيد حدثني عبد الرحمن بن عبيد الله بن فرق : ثنا حمي قال : زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصعفا وسيفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة . وقال شهاب بن خراش : حدثني حمي يزيد بن حوشب قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور فقال : حدثني بوصية الحجاج ابن يوسف ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال : حدثني بها ، فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى ، وعليها يموت ، وعليها يبعث ، وأوصى بثلاثمائة درع حديد ، ستائة منها لمنافق أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك . قال : فرفع أبو جعفر رأسه إلى أبي العباس الطوسي - وكان قائما على رأسه - فقال : هذه والله الشيعة لاشيعتكم . وقال الأصمعي عن أبيه قال : رأيت الحجاج في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلني بكل قتلة قتلت بها إنسانا ، قال : ثم رأيته بعد الحول فقلت : يا أبا محمد ما صنع الله بك ؟ فقال : يا ماص بظرامه أما سألت عن هذا عام أول ؟ وقال القاضي أبو يوسف : كنت عند الرشيد فدخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة في النوم ، قال : في أي ذى رأيته ؟ قال : في ذى قبيح . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما أنت وذاك يا ماص بظرامه ! فقال هارون : صدق والله ، أنت رأيت الحجاج حقا ، ما كان أبو محمد ليذبح صرامته حيا وميتا . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة بن أبي شاذب عن أشعث الخراز . قال : رأيت الحجاج في المنام في حالة سيئة فقلت : يا أبا محمد ما صنع بك ربك ؟ قال : ما قتلت أحدا قتلة إلا قتلني بها . قال ثم أمرني إلى النار ، قلت ثم مه ، قال ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله . قال : وكان ابن سيرين يقول : إنني لأرجو له ، فبلغ ذلك الحسن فقال : أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه . وقال أحمد بن أبي الخوارى : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : كان الحسن البصري لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه ، قال : فزأه في منامه فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلني بكل قتيل قتلته ثم عزات مع الموحدين . قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله أعلم . وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس حدثنا عبد الله بن عثمان أنبا ابن المبارك أنبا سفيان . قال : قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وأندأ ومعه معاوية بن قرة ، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج فقال : إن صدقناكم قتلتمونا ، وإن كذبناكم خشيتم الله عز وجل ، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك : لا تعرض له ، فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف

وممن توفي فيها من الأعيان

إبراهيم بن يزيد النخعي قال : كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً ، لأننا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة أو إلى النار ، وإنكم تتحدثون في جنازكم بأحاديث دنياكم . وقال : لا يستقيم رأي إلا بروية ، ولا روية إلا برأي . وقال : إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبرية الأولى فاعسل يديك من فلاحه . وقال : إني لأرى الشيء مما يعاب فلا يمنعني من عيبه إلا مخافة أن أبتلى به . وبكى عند موته فقليل له ما يبكيك ؟ فقال : انتظار ملك الموت ، ما أدرى يبشرني بجنة أو بنار

الحسن بن محمد بن الحنفية

كنيته أبو محمد ، كان المقدم على إخوته ، وكان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه ، قال أيوب السخيتاني وغيره : كان أول من تكلم في الإرجاء ، وكتب في ذلك رسالة ثم ندم عليها . وقال غيرهم : كان يتوقف في عثمان وعلي وطلحة والزبير ، فلا يتولاهم ولا يذمهم ، فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجه وقال : وبحك ألا تتولى أباك علياً ؟ وقال أبو عبيد : توفي سنة خمس وتسعين ، وقال خليفة : توفي في أيام عمر بن عبد العزيز والله أعلم .

حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه ، وكان حميد فقيهاً نبيلاً عالماً ، له روايات كثيرة .

مطرف بن عبد الله بن الشخير

تقدمت ترجمته ، وهؤلاء كلهم لهم تراجم في كتاب التكميل . وفيها كان موث الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطاً مستقصى والله الحمد . وفيها كان مقتل سعيد بن جبير في قول علي بن المدائني وجاعة ، والمشهور أنه كان في سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد والله أعلم . ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشف من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلاً يهدده ويتوعده ويقسم بالله لا يرجع حتى يطاء بلاده ويختم ملوكهم وأشراقتهم ، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا في الإسلام . فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم ، وهو في مدينة عظيمة ، يقال إن عليها تسعين باباً في سورها المحيط بها ، يقال لها خان بالق ، من أعظم المدن وأكثرها ريعاً ومعاملات وأموالاً ، حتى قيل إن بلاد الهند مع اتساعها كالشاة في ملك الصين ، والصين لا يحتاجون إلى أن

يسافر وا في ملك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم ، وغيرهم محتاج إليهم لما عندهم من المتاع والدنيا
 المتسعة ، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج ، لقهره وكثرة جنده وعدده . والمقصود
 أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظيمة حصينة ذات أنهار وأسواق وحسن وبهاء ،
 فدخلوا عليه في قلعة عظيمة حصينة ، بقدر مدينة كبيرة ، فقال لهم ملك الصين : ما أنتم ؟
 - وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة - فقال الملك لترجمانه : قل لهم : ما أنتم وما تريدون ؟ فقالوا :
 نحن رسل قتيبة بن مسلم ، وهو يدعوكم إلى الاسلام ، فان لم تفعل فالجزية ، فان لم تفعل فالحرب .
 فغضب الملك وأمر بهم إلى دار ، فلما كان القد دعاهم فقال لهم : كيف تكونون في عبادة إلهكم ؟ فصلوا
 الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم ، فقال : كيف تكونون في بيوتكم ؟ فلبسوا ثياب
 مهتم ، فأمرهم بالانصراف ، فلما كان من القد أرسل إليهم فقال : كيف تدخلون على ملوككم ؟ فلبسوا
 الوشي والعمائم والمطارف ودخلوا على الملك ، فقال لهم : ارجعوا فرجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف
 رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى ، وهم أولئك . فلما كان اليوم
 الثالث : أرسل إليهم فقال لهم كيف تلقون عدوكم ؟ فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض
 وتقلدوا السيوف ونكبوا القسي وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا ، فنظر إليهم ملك الصين
 فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين ، فقبل لهم : ارجعوا
 - وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم - فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا
 رماحهم ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا : ما رأينا
 كهؤلاء قط . فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن ابشوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال
 له الملك حين دخل عليه : قد رأيتم عظم ملكي ، وليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي ،
 وأنا سائلك عن أمر فان تصدقني وإلا قتلتك ، فقال : سل . فقال الملك : لم صنعتم ما صنعت من زى
 أول يوم والثاني والثالث ؟ فقال : أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا وطبينا عندهم ،
 وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا ، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا .
 فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم - يعني قتيبة - وقولوا له ينصرف
 راجعاً عن بلادى ، فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعث إليكم من يهلككم عن آخركم .
 فقال له هبيرة : تقول لقتيبة هذا ؟ فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها
 في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون خريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها ، وغزاة في بلادك ؟ وأما
 نخويفك إيانا بالقتل فانا نعلم أن لنا أجلاً إذا حضرنا فأكرمها عندنا القتل ، فليسنا نكرهه ولا نخافه .

فقال الملك : فما الذى يرضى صاحبكم ؟ فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطاء أرضك ويختم ملوكك ويحجى الجزية من بلادك ، فقال أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضى ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثياباً صيفية لا تقوّم ولا يدري قدرها ، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة ، ثم اتفق الحال على أن يبعث صحافاً من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطاءه قتيبة ، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم ، وبعث بمال جزيل ليهر بيمين قتيبة ، وقيل إنه بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك ، فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه ، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، فانكسرت همته لذلك ، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلى على ترك مبايعة سليمان بن عبد الملك ، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من المساكر ، ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك ، ثم قتل في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى ، فانه يقال إنه ما كسرت له راية ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له من المساكر ما لم يجتمع لغيره . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة ، وغزا العباس بن الوليد الروم ، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم .

وفيها تكامل بناء الجامع الأموى بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعبدون دمشق ، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً ، فهم أول من بناها ، وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، وهو القمر في السماء الدنيا ، وعطارد في السماء الثانية ، والزهرة في السماء الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة . وقد كانوا صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلاً لكوكب من هذه الكواكب السبعة ، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، فنصبوا هياكل سبعة لكل كوكب هيكلاً ، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد في السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارفتها ، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وصرفوه أنهاراً تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة ، وسلكوا المساء في أفناء أبنية الدور بدمشق ، فكانت دمشق في أيامهم من أحسن المدن ، بل هي أحسنها ، لما فيها من التصارييف العجيبة ، وبنوا هذا المعبد وهو الجامع اليوم في جهة القطب ، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالى ، وكانت محاريبهم إلى جهته ، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة ، خلف المحراب اليوم ، كما شاهدنا ذلك عياناً ، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب ، ورأينا الباب وهو باب حسن مبنى بحجارة منقوشة ، وعليه كتاب بخطهم ، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة

إليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد ، وشرقي المعبد قصر جيرون الملك ، الذي كان ملكهم ، وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يملك دمشق قديما منهم ، ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة للملوك ، ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف ، بحجارة كبار منحوتة ، ومن دار المطبق ، ودار الخيل ، ودار كانت تكون مكان الخضراء التي بناها معاوية .

قال ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل : إن اليونان مكثوا يأخذون البطالعين لبناء دمشق وهذه الأماكن ثمانى عشرة سنة ، وقد حفروا أساس الجدران حتى واثام الوقت الذي طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لا يخرب أبداً ولا تخلو منه العبادة ، وأن هذه الدار إذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة . قلت : أما المعبد فلم يخل من العبادة . قال كعب الأجباز : لا يخلو منها حتى تقوم الساعة ، وأما دار الملك التي هي الخضراء فقد جدد بناءها معاوية ، ثم أحرقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة كما سنده ، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأرادهم في الغالب إلى زماننا هذا . والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرناها بدمشق مدداً طويلة ، تزيد على أربعة آلاف سنة ، حتى أنه يقال إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة هود عليه الصلاة والسلام ، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شملها عند برزة ، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم ، ونصره الله عليهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة ، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة ، يثرونه كبراً عن كبر وإلى زماننا والله أعلم .

وكانت دمشق إذ ذاك عامرة أهلة بمن فيها من اليونان ، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، وهم خصماء الخليل ، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها في غير موضع ، كما قرنا ذلك في التفسير ، وفي قصة الخليل من كتابنا هذا « البداية والنهاية » والله الحمد وبالله المستعان .

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ويبنون فيها وفي معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبلبك وغيرها ، البنايات الهائلة الغريبة العجيبة ، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة تنصر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين ، الذي بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم وهي القسطنطينية ، وهو الذي وضع لهم القوانين ، وقد كان أولاً هو وقومه وغالب أهل الأرض يوناناً ، ووضعت له بطاركتة النصراني دينا مخترعاً كبا من أصل دين النصرانية ، ممزوجاً بشئ من عبادة الأوثان ، وصلوا به إلى الشرق ، وزادوا في الصيام ، وأحلوا الخنزير ، وعلموا أولادهم الأمانة الكبيرة فما يزعمون ، وإتباعهم في الحقيقة خيانة كبيرة ، وجناية كثيرة حقيرة ، وهي مع ذلك في الحجم

صغيرة . وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه . فبنى لهم هذا الملك الذي ينتسب إليه الطائفة الملكية من النصارى ، كنائس كبيرة في دمشق وفي غيرها ، حتى يقال إنه بنى اثنتى عشرة ألف كنيسة ، وأوقف عليها أوقافاً دارية ، من ذلك كنيسة بيت لحم ، وقمامة في القدس ، بنتها أم هيلانة الغنداقية ، وغير ذلك

والمقصود أنهم - يعنى النصارى - حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظماً عند اليونان فجعلوه كنيسة يوحنا ، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة ، واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة ، حتى بعث الله محمداً (س) ، فكان من شأنه ما تقدم بعضه فى كتاب السيرة من هذا الكتاب ، وقد بعث إلى ملك الروم فى زمانه - وهو قيصر ذلك الوقت - واسمه هرقل يدعوهُ إلى الله عز وجل ، وكان من مراجعته ومخاطبته إلى أبى سفيان ما تقدم ، ثم بعث أمراءه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، إلى البلقاء من تخوم الشام ، فبعث الروم إليهم جيشاً كبيراً فقتلوا هؤلاء الأمراء وجماعة ممن معهم من الجيش ، فعزم النبي (س) على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ، ثم رجع عام ذلك لشدة الحر ، وضعف الحال ، وضيقه على الناس . ثم لما توفى بعث الصديق الجيوش إلى الشام بكاملها ، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها ، وقد بسطنا القول فى ذلك عند ذكر فتحها ، فلما استقرت اليد الإسلامية عليها وأنزل الله رحمته فيها ، وساق بره إليها ، وكتب أمير الحرب أبو عبيدة إذ ذاك ، وقيل خالد بن الوليد ، لأهل دمشق كتاباً أمان ، أقرأه أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسة ، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة مريخنا ، بحكم أن البلد فتحة خالد من الباب الشرقى بالسيف ، وأخذت النصارى الأمان من أبى عبيدة ، وكان على باب الجابية الصلح ، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة ، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقى فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلى فيه المسلمون ، وكان أول من صلى فى هذا المسجد أبو عبيدة ثم الصحابة بعده فى البقعة الشرقية منه ، التى يقال لها محراب الصحابة . ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محن ، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة ، والظاهر أن الوليد هو الذى فتق المحاريب فى الجدار القبلى [قلت : هذه المحاريب متجددة ليست من فتق الوليد ، وإنما فتق الوليد محراباً واحداً ، إن كان قد قفل ، ولعله لم يفعل شيئاً منها ، فكان يصلى فيه الخليفة ، وبقيتها فتقت قريباً ، لكل إمام محراب ، شافى وحنفى ومالكي وحنبل ، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان] (١) وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحاريب ، وجعلوه من البيع الحديثة ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد ،

وهو باب المعبد الأعلى من جهة القبلة ، مكان المحراب الكبير الذى فى المقصورة اليوم ، فنصرف
النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم ، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم ، ولا يستطيع النصارى
أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربوا بناقوسهم ، اجلالا للصحابة ومهابة وخوفاً . وقد بنى معاوية فى
أيام ولايته على الشام دار الامارة قبلى المسجد الذى كان للصحابة ، وبنى فيها قبة خضراء ، فمرفت
الدار بكاملها بها ، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا . ثم لم يزل الامر على ما ذكرنا من أمر هذه
الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى ، من سنة أربع عشرة ، إلى سنة ست وثمانين فى
ذى القعدة منها ، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فى شوال ، منها ، فعزم الوليد على أخذ
بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها ، وجعل الجميع مسجداً واحداً ، وذلك لأن
بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى للإنجيل ، ورفع أصواتهم فى صلواتهم ، فأحب أن
يبعدهم عن المسلمين ، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا ، فيصير كله معبداً للمسلمين ، ويتسع
المسجد لكثرة المسلمين ، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان ،
ويعرضهم إقطاعات كثيرة ، وعرضها عليهم ، وأن يبقى بأيديهم أربع كنائس لم تدخل فى العهد ،
وهى كنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة داخل باب شرقى ، وكنيسة تل الجبن ، وكنيسة حميد بن درة
التي بدرب الصقل ، فأبوا ذلك أشد الأباء ، فقال : ائتوني بمهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة ، فأبوا
بها فقربت بحضرة الوليد ، فإذا كنيسة توما التي كانت خارج باب توما على حافة الثمر - لم تدخل فى
العهد ، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريخا ^{مريخا} فقال الوليد : أنا أهدمها وأجعلها مسجداً ،
فقالوا : بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه
الكنيسة ، فأقرم على تلك الكنائس ، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة . هذا قول ، ويقال إن
الوليد لما أهدم ذلك وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله ، دخل عليه بعض الناس فأرشده
إلى أن يقيس من باب شرقى ومن باب الجابية ، فوجدوا أن الكنيسة قد دخلت فى العنوة وذلك
أنهم قاسوا من باب شرقى ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عند سوق الريحان تقريباً ، فإذا
الكنيسة قد دخلت فى العنوة ، فأخذها . وحكى عن المغيرة مولى الوليد قال : دخلت على الوليد
فوجدته مهموماً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين مهموماً ؟ فقال : إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم
المسجد ، فأحضرت النصارى وبذلت لهم الأموال فى بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد
فيتسع على المسلمين فأبوا ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين عندى ما يزيل همك ، قال : وما هو ؟ قلت :
الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب شرقى بالسيف ، فلما سمع أهل البلد بذلك
فرعوا إلى أبى عبيدة يطلبون منه الأمان فأمهم ، وفتحوا له باب الجابية ، فدخل منه أبو عبيدة

بالصلح ، فنحن نماسحهم إلى أى موضع بلغ السيف أخذناه ، وما بالصلح تركناه بأيديهم ، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها فى العنوة ، فتدخل فى المسجد . فقال الوليد : فرجت عني ، فتول أنت ذلك بنفسك ، فتولاء المفيرة ومسح من الباب الشرقى إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان فوجد السيف لم يزل عمالا حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربع أذرع وكسر ، فدخلت الكنيسة فى المسجد ، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال : إن هذه الكنيسة كلها دخلت فى العنوة فهى لنا دونكم ، فقالوا : إنك أولا دفعت إلينا الأموال وأقطعنا الاقطاعات فأبينا ، فن إحسان أمير المؤمنين أن يصلحنا فيبقى لنا هذه الكنائس الأربع بأيدينا ، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة ، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس والله أعلم .

وقيل إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفرايس داخله فسموها مريحنيا باسم تلك الكنيسة التى أخذت منهم ، وأخذوا شاهدا فوضموه فوق التى أخذوها بدلها فأنه أعلم . ثم أمر الوليد باحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء ، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يحن ، فقال الوليد : أنا أحب أن أجن فى الله ، والله لا يهدم فيها أحد شيئا قبلى ، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنزول منها فأكبر الراهب ذلك ، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صعد الوليد على أعلى مكان فى الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها ، الذى يسمونه الشاهد ، وهو تمثال فى أعلى الكنيسة ، فقال له الراهبان : احذر الشاهد ، فقال : أنا أول ما أضع فأسى فى رأس الشاهد ، ثم كبر وضربه فهدمه ، وكان على الوليد قباه أصفر لونه سمرجل قد غرز أذيله فى المنطقة ، ثم أخذ فأسا بيده فضرب بها فى أعلى حجر فالتقاء ، فتبادر الأمراء إلى الهدم ، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون ، وكانوا قد اجتمعوا هنالك ، فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رياح الغسانى ، أن يضربهم حتى ينهبوا من هنالك ، ففعل ذلك ، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جددته النصارى فى تريع هذا المعبد من المذابح والأبنية والحنايا ، حتىبقى المكان صرحا مرتبة ، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة ، التى لم يشتهر مثلها قبلها كما سنذكره .

وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقا كثيرا من الصناع والمهندسين والفعلة ، وكان المستحث على عمارته أخوه وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ، ويقال إن الوليد بعث الى ملك الروم يطلب منه صناعا فى الرخام وغير ذلك ، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعدة لئن لم يفعل ليفزون بلاده بالجيوش ، وليخر بن كل كنيسة فى بلاده ، حتى

كنيسة القدس ، وهي قمامة ، وكنيسة الرها ، وسائر آثار الروم ، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جداً ، مائتي صانع ، وكتب إليه يقول : إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك ، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه ، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك ، واجتمع الناس عنده لذلك ، فكان فيهم الفرزدق الشاعر ، فقال : أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله . قال الوليد : وما هو ويحك ؟ فقال قال الله تعالى [ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً] وسليمان هو ابن داود ، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه . فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جواباً إلى ملك الروم . وقد قال الفرزدق في ذلك : —

فرقت بين النصارى في كنائسهم * والعابدين مع الأسحار والغمم
وهم جميعاً اذا صلوا وأوجههم * شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه * أهل الصليب مع القراء لم تتم
فهمت تحويلها عنهم كما فهم * إذ يحكم لهم في الحرث والغنم
داود والملك المهدي إذ جزأ * ولادها واجترار الصوف بالعلم
فهمك الله تحويلاً لبيتهم * عن مسجد فيه يتلى طيب الكلام
ما من أب حملته الأرض لعله * خير بنين ولا خير من الحكم

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقي : بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك الحيطان . وقال الحسن بن يحيى الخشني : إن هوداً عليه السلام هو الذي بنى الحائط القبلي من مسجد دمشق . وقال غيره : لما أراد الوليد بناء القبة التي وسط الرواقات — وهي قبة النسر وهو اسم حادث لها ، وكانهم شبهوها بالنسر في شكله ، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها — حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذبا زلالا ، ثم إنهم وضعوا فيه زيادة الكرم ، وبنوا فوقها بالحجارة ، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت ، فقال الوليد لبعض المهندسين : أريد أن تبني لي أنت هذه القبة ، فقال : على أن تعطيني عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيتها أحد غيري ، ففعل . فبنى الأركان ثم غلفها بالبوارى ، وغاب عنها سنة كاملة لا يدرى الوليد أين ذهب ، فلما كان بعد السنة حضر ، فهم به الوليد فأخذه ومعه رؤس الناس ، فكشف البوارى عن الأركان فإذا هي قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض ، فقال له : من هذا أتيت ، ثم بناها فانهقدت . وقال بعضهم : أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له الممار : إنك لاتقدر على ذلك ، فضر به خمسين سوطاً ، وقال له : ويلاك ! إنا لا أقدر على ذلك ونزعم أنى أعجز عنه ؟ وخراج الأرض وأموالها تجيى إلى ؟ قال : نعم أنا أبين لك ذلك ، قال : فبين

ذلك ، قال : اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك ، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما ضرب منه لبنة فاذا هي قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألوف لبنة ، فان كان عندك ما يكفي من ذلك عملناه ، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً ، وقال إني لا أعجز عما قلت ، ولكن فيه إسراف وضياع ، ال في غير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله ، وردا على ضعفاء المسلمين خير من ذلك . ثم عقدها على ما أشار به الممار . ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات ، وباطنها مسطوحاً مقرنصاً بالذهب ، فقال له بعض أهله : أتعبت الناس بعدك في طين أسطحهم ، لما يريد هذا المسجد في كل عام من الطين الكثير - يشير إلى أن التراب يغلو والفعلة تنقل لأجل العمل في هذا المسجد في كل عام - فأمر الوليد أن يجمع ما في بلاده من الرصاص ليجمعه عوض الدابن ، ويكون أخف على السقوف . فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم ، فعازوا فاذا عند امرأة منه قناطر مقلطرة ، فساوموها فيه ، فقالت : لا أبيعه إلا بوزنه فضة ، فكتبوا إلى الوليد فقال : اشتروه منها ولو بوزنه فضة ، فلما بذلوا لها ذلك قالت : أما إذا قلت ذلك فهو صدقة لله يكون في سقف هذا المسجد ، فكتبوا على ألواحها بطابع « لله » ويقال إنها كانت إسرائيلية ، وإنه كتب على الألواح التي أخذت منها : هذا ما أعطته الاسرائيلية .

وقال محمد بن عائد : سمعت المشايخ يقولون : ما تم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة ، لقد كان يفضل عند الرجل من القوم أو الفعلة الفلاس ورأس المسمار فيأتي به حتى يضعه في الخزانة . وقال بعض مشايخ الدماشقة : ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس والباقي كله مرمر . وقال بعضهم : اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت المنبر ، من حرب ابن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار . وقال دحيم عن الوليد بن مسلم : ثنا مروان بن جناح عن أبيه قال : كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم ، وقال أبو قصى عن دحيم عن الوليد ابن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصاري : إنهم حسبوا ما أنفق الوليد على الكرم^(١) التي في قبلي المسجد فاذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق في مسجد دمشق أربعمئة صندوق من الذهب ، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، وفي رواية في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . قلت : فعلى الأول يكون ذلك (١) هي فسيفساء على هيئة الكرم مؤلفة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب أو الألوان ، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١٠ هـ ويوجد قريب منها في قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم .

خمسة آلاف ألف دينار ، وستمائة ألف دينار ، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأسمى
 إحدى عشر ألف ألف دينار ، ومائتي ألف دينار . وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ، والله أعلم .
 قال أبو قصى : وأتى الحرسى إلى الوليد فقال : يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق أمير المؤمنين
 بيوت الأموال في غير حقها . فنودى في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس فصعد الوليد المنبر
 وقال : إنه بلغنى عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ، ثم قال : يا عمرو بن مہاجر ،
 قم فأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ، ثم بسط لها الانطاع تحت قبة النسر ،
 ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيحاً ، وفضة خالصة ، حتى صارت كوماً ، حتى كان الرجل إذا قام من
 الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، وهذا شيء كثير ، ثم جئ بالقباين فوزنت
 الأموال فإذا هي تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفي رواية ستة عشرة سنة مستقبلة ، ولم
 يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهما من بيوت
 المال ، وإنما هذا كله من مالى . ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة
 والصرفوا شاكرين داعين . فقال لهم الوليد : يا أهل دمشق ، والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد
 شيئاً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالى ، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً . ثم قال الوليد : يا أهل
 دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع ، بهوائكم ومائتكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأجبت أن
 أزيدكم خامسة وهى هذا الجامع . وقال بعضهم : كان في قبلة جامع دمشق ثلاث صفائح مذهبة بلازورد ،
 في كل منها : بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الاسلام ، ونبيننا محمداً . أمر ببنيان
 هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ، في ذى القعدة سنة ست
 وثمانين ، وفي صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفائح : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى آخر
 الفاتحة ، ثم النازعات ، ثم عبس ، ثم إذا الشمس كورت ، قالوا : ثم محيت بعد مجئ المأمون إلى
 دمشق . وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانها إلى قامات ، وفوق
 الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، قد
 صوروا بها سائر البلدان المشهورة ، الكعبة فوق الحراب ، وسائر الأقاليم بمنة ويسرة ، وصوروا مافي
 البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقة
 فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع في أماكن مفرقة . قال : وكان في محراب الصحابة برنية
 حجر من بلور ، ويقال بل كانت حجراً من جوهر وهى الدرة ، وكانت تسمى القليسة ، وكانت إذا
 طفتت القناديل تضيئ لمن هناك بنورها ، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد - وكان يحب البلور وفيل

الجوهر - بعث إلى سليمان وإلى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه ، فسرقتها الوالى خوفاً من الناس وأرسلها إليه ، فلما ولى المأمون ردها إلى دمشق ليشتع بذلك على الأمين . قال ابن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج ، قال : وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيئاً ، قالوا : وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانها إلى حد الكومة التى فوقها الفصوص المنهبة ، ورؤس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به ، وبني الوليد المنارة الشمالية التى يقال لها مأذنة المروس ، فأما الشرقية والغربية فكانتا فيه قبل ذلك بدهور متطاولة ، وقد كان فى كل زاوية من هذا المعبود صومعة شاهقة جداً ، بنها اليونان للرصد ، ثم بعد ذلك سقطت الشمالية وبقيت القبليتان إلى الآن ، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعائة ، فنقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى ، حيث اتهموا بحريقها ، فقامت على أحسن الأشكال ، بيضاء بذاتها وهى والله أعلم الشرفة التى ينزل عليها عيسى بن مريم فى آخر الزمان بعد خروج الدجال ، كما ثبت ذلك فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان .

[قلت : ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجددت ، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها فى آخر السبعين وسبعائة ، فصارت كلها مبنية بالحجارة] ^(١)

والمقصود أن الجامع الأموى لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ، ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره ، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شيئاً من الحشرات بالكلية ، لا من الحيات ولا من العقارب ، ولا الخنافس ولا العناكيب ، ويقال ولا المصافير أيضاً تمشش فيه ، ولا الحمام ولا شيء مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة فى سقف هذا المعبد ، مما يلى السبع ، فأحرق لما أحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فى دولة الفاطميين كما سيأتى ذلك فى موضعه . وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم .

فمن ذلك العمود الذى فى رأسه مثل الكرة فى سوق الشمير عند قنطرة أم حكيم ، وهذا المكان يعرف اليوم بالمليبين ، ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسربول الحيوان ، فاذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال ، وذلك بحرب من عهد اليونان .

[قال ابن تيمية عن هذا العمود : إن تحته مدفون جبار عنيد ، كافر يعذب ، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع المذاب فراث وبال من الخوف ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار ، فإذا سمعت أصوات المذنبين انطلق بوطها . والعمود المشار إليه ليس له سر ، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأ فاحشا . وقيل إن تحته كنزاً وصاحبه عبده مدفون ، وكان ممن يمتد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى [وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبتوتين] والله سبحانه وتعالى أعلم] (١) .

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل في تكملة الجامع الأموي بعد موت أخيه مدة ولايته ، وجددت له فيه المقصورة ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرده مما فيه من الذهب ، ويقلع السلام والرخام والفسيفساء ، ويرد ذلك كله إلى بيت المال ، ويجعل مكان ذلك كله طينا ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرفهم إليه ، وقال خالد بن عبد الله القسري : أنا أكله لكم ، فقال له : يا أمير المؤمنين بلغنا عنك كذا وكذا ، قال : نعم ، فقال خالد : ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ولم يا ابن الكافرة ؟ - وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد - فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة فقد ولدت رجلا مؤمنا ، فقال : صدقت ، واستحيا عمر ثم قال له : فلم قلت ذلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم ، وليس هو لبيت المال ، فأطرق عمر . قالوا : واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلا من عند ملكهم ، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر ، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر ، والزخرفة التي لم يسمع بمثلا ، صمق كبيرهم وخر مغشيا عليه ، فحملوه إلى منزلهم ، فبقى أياما مدنفاً ، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدنتهم يكون أقصر من هذا ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : أو إن الغيظ أهلك الكفار ، دعوه . وسألت النصارى في أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلسا في شأن ما كان أخذه الوليد منهم ، وكان عمر عادلا ، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه الوليد منهم فأدخله في الجامع ، ثم حقق عمر القضية ، ثم نظر فإذا الكنائس التي هي خارج البسطة لم تدخل في الصلح الذي كتبه لهم الصخابة ، مثل كنيسة دير مران بسفح قايسون ، وهي بقرية المعظمية ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما خارج باب توما ، وسائر الكنائس التي بقرى الحواجز ، فخيرهم بين رد ما سألوه وتخریب هذه الكنائس كلها ، أو تبقى تلك الكنائس ويطيّبوا نفسا للمسلمين بهذه البقعة ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس ، ويكتب لهم كتاب أمان بها ،

و يطيبوا نفسا بهذه البقعة فكتب لهم كتاب أمان بها .

والمقصود أن الجامع الأموي كان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل في حسنه وبهجته ، قال الفرزدق : أهل دمشق في بلادهم في قصر من قصور الجنة - يعني الجامع - وقال أحمد بن أبي الخوارى عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان : ما ينبغي لأحد من أهل الأرض أن يكون أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن مسجدتها . قالوا : ولما دخل أمير المؤمنين المهدي دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكتابه أبي عبيد الله الأشعري : سبقنا بنو أمية بثلاث ، بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبلبل الموالي ، وبعمر ابن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبدا . ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة - وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها - قال لكتابه : وهذه رابعة . ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم ، وقاضيه يحيى بن أكرم ، قال : ما أعجب ما فيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهاب التي فيه ، وقال يحيى بن أكرم : الرخام وهذه العقد ، فقال المأمون : إني إنما أعجب من حسن بنيانه . على غير مثال متقدم ، ثم قال المأمون لقاسم التمار : أخبرني باسم حسن أسمى به جاريتي هذه ، فقال : سمها مسجد دمشق ، فإنه أحسن شيء . وقال عبد الرحمن عن ابن عبد الحكم عن الشافعي قال : عجائب الدنيا خمسة : أحدها منارتكم هذه - يعني منارة ذي القرنين باسكندرية - والثانية أصحاب الرقيم وهم بالروم اثنا عشر رجلا ، والثالثة امرأة بباب الأندلس على باب مدينتها ، يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ . وقيل ينظر من بالقسطنطينية ، والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الانفاق عليه ، والخامس الرخام والفسفساء ، فإنه لا يدري لها موضع ، ويقال إن الرخام معجون ، والدليل على ذلك أنه ينوب على النار .

قال ابن عساكر : وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب - وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة - في رسالة له قال : ثم أمرنا بالانتقال فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً ، وإن أفضيت إلى جامعها شاهدت منه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الراي أن يعرفه ، وجملته أنه كنز الدهر ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الأوقات ، ولقد أثبت الله عز وجل به ذكرا يدرس ، وخلف به أمراً لا ينجى ولا يدرس . قال ابن عساكر : وأنشدني بعض المحدثين في جامع دمشق عمره الله بذكره وفي دمشق فقال :

دمشق قد شاع حسنُ جامِها * وما حوتهُ رُبِّيَ مراتبها
بديعةُ الحسنِ في السَّكالِ لما * يدركهُ الطرفُ من بدائِها .

طيبة أرضها مباركة * باليمن والسعد أخذ طالما
 جامعها جامع المحاسن قد * فاقته به المدن في جوامعها
 بنية بالاتقان قد وضعت * لاضيع الله سمي واضعها
 تذكر في فضله ورفعه * آثار صدق راقته لسامعها
 قد كان قبل الحريق مدهشة * فغيرت ناره بلاقمها
 فأذهبت بالحريق بهجته * فليس يرجى إياب راجعها
 إذا تفكرت في الفصوص وما * فيها تيقنت حنق راصعها
 أشجارها لا تزال مشرقة * لا تهرب الريح من مدافعها
 كأنها من زمرد غرست * في أرض تبر تغشى بدافعها
 فيها ثمار تخالما ينعت * وليس يخشى فساد يانعها
 تقطت بالاحظ لا بجراحة الـ * أيدي ولا تجتنى لبائعها
 وتحتها من رخامة قطع * لا قطع الله كف قاطعها
 أحكم ترخيمها المرخم قد * بأن عليها إحكام صانعها
 وإن تفكرت في قناطره * وسقفه بأن حنق رافعها
 وإن تبينت حسن قبته * تحير اللب في أضالعها
 تحترق الريح في منافذها * عصفا فتقوى على زعاعها
 وأرضه بالرخام قد فرشت * ينسخ الطرف في مواضعها
 مجالس العلم فيه مؤقته * ينشرح الصدر في مجامعها
 وكل باب عليه مطهرة * قد أمن الناس دفع مانعها
 يرتقى الناس من مراقبها * ولا يصدون عن منافعها
 ولا تزال المياه جارية * فيها لما شق من مشارعها
 وسوقها لا تزال آهلة * يزدهم الناس في شوارعها
 لما يشاؤون من فواكهها * وما يريدون من بضائعها
 كأنها جنة معجلة * في الأرض لولا مسرى فجائعها
 دامت برغم العدى مسلة * وحاطها الله من قوارعها

الملك

فَضْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فما روي في جامع دمشق من الآثار وما ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من السادة الأخيار روى عن قتادة أنه قال في قوله تعالى [والتين] قال : هو مسجد دمشق [والزيتون] قال : هو مسجد بيت المقدس [وطور سينين] حيث كلم الله موسى [وهذا البلد الأمين] وهو مكة (١). رواه ابن عساكر . وقال صفوان بن صالح عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه عن عطية بن قيس السكلابي قال قال كعب الأخبار : ليبين في دمشق مسجد يبق بعد خراب الدنيا أربعين عاماً . وقال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن زيد عن القاسم أبي عبد الرحمن قال : أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس ، قال ففعل فأوحى الله إليه أما إذا فعلت فاني سأبني لي في خطتك بيتاً أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ، ولا تنهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك ، قال فهو عند الله بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع . وقال دحيم : حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك - يعني أنه رفع الجدار فعلاه من حديد الرخام والكرمة إلى فوق - وقال غيره : إنما بني هود الجدار القبلي فقط . ونقل عثمان بن أبي العاتكة عن أهل العلم أنهم قالوا في قوله تعالى [والتين] قالوا : هو مسجد دمشق .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج المروفي بابن البراءي الدمشقي : ثنا إبراهيم بن مروان سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول : سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه جاءت فار فأكلته ، ولم يتقبل منه بقى على حاله . قلت : وهذه الصخرة نقلت إلى داخل باب الساعات ، وهي موجودة إلى الآن ، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التي وضع عليها ابنا آدم قربانها فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالحق أعلم .

وقال هشام بن عمار : ثنا الحسن بن يحيى الحسني أن رسول الله (ص) ليلة أسرى به « صلى في موضع مسجد دمشق » قال ابن عساكر : وهذا منقطع ومنكر جداً ، ولا يثبت أيضاً لأن هذا الوجه ولا من غيره . وقال أبو بكر البراءي : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقرئ حدثني أبي عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك تقسم إلى القوام ليلة من الليالي فقال : إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد ، فلا تتركوا أحداً يصلي الليلة ، فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا

(١) في الأصل « قال دمشق » . وصححه من حديث قتادة في تاريخ ابن عساكر ١ : ١٩٦

الخضر يصلي في المسجد في كل ليلة ، وفي رواية أنه قال لهم : لا تتركوا أحداً يدخله ، ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له ، فاذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة يصلي ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال الوليد للقوام : ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلي في المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي كل ليلة في المسجد . في إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر ، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية ، ولا صلاته في المكان المذكور والله أعلم .

وقد اشتهر في الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبليّة عند باب المأذنة الغربيّة تسمى زاوية الخضر ، وما أدرى ما سبب ذلك ، والذي ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه ، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التي صلوا فيها ، وأول من صلى فيه إماماً أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير الأمراء بالشام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمير هذه الأمة ، وصلى فيه خلق من الصحابة مثل معاذ بن جبل وغيره لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة ، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ، فإنه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى فيه الوليد ، فصلى فيه أنس ورأى الوليد وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها كما قدمنا ذلك في ترجمة أنس ، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين ، وسيصلي فيه عيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان ، إذا خرج الدجال وعت البلوى به ، وانحصر الناس منه بدمشق ، فينزل مسيح المهدي فيقتل مسيح الضلالة ، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر ، فيأتي وقد أقيمت الصلاة فيقول له إمام الناس : تقدم يا روح الله ، فيقول : إنما أقيمت لك ، فيصلّي عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة ، يقال إنه المهدي فآله أعلم .

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجال عند عقبة أفيق ، وقيل بباب لد فيقتله بيده هنالك . وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته] وفي الصحيح عن النبي (ص) : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام » .

والمقصود أن عيسى ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، والبلد محصور ومحصن من الدجال ، فينزل على المنارة - وهي هذه المنارة المبنيّة في زماننا من أموال النصارى - ثم يكون نزول عيسى حتفاً لهم وهلاكاً ودماراً عليهم ، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناهما ، وعليه مهر وذتان ، وفي رواية مضمّرتان ^(١) يقطر رأسه ماء كأنما خرج من دماغ ، وذلك وقت الفجر ، فينزل على المنارة

(١) المصرة من الشياطين التي فيها صفة خفيفة .

وقد أقيمت الصلاة ، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق ، وهو هذا الجامع . وما وقع في صحيح مسلم من رواية النوايس بن سحمان السكلابي : فينزل على المنارة البيضاء شرق دمشق ، كأنه والله أعلم مروى بالمعنى بحسب ما فهمه الراوى ، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، وقد أخبرت ولم أقف عليه إلى الآن أنه كذلك ، في بعض ألفاظ هذا الحديث ، في بعض المصنفات ، والله المسؤول المأمول أن يوفقني فيوقفني على هذه اللفظة ، وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه ، وهي بيضاء بنفسها ، ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها ، ولا أبهى ولا أعلى منها ، والله الحمد والمنة [قلت : نزول عيسى على المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر ، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم فينحصر الناس داخل البلد ، ويحصرهم الدجال بها ، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعا للدجال ، أو مأسورا معه ، فإن دمشق في آخر الزمان تكون مقبل المسلمين وحصنهم من الدجال ، فإذا كان الأمر كذلك فمن يصلى خارج البلد ، والمسلمون كلهم داخل البلد ، وعيسى إنما ينزل وقد أقيمت الصلاة فيصلى مع المسلمين ، ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقتله ، وبعض العوام يقول : إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق ، منارة مسجد بلاشو ، خارج باب شرق . وبعضهم يقول : إنها المنارة التي على نفس باب شرق . والله أعلم بمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سبحانه العالم بكل شئ ، المحيط بكل شئ ، القادر على كل شئ ، القاهر فوق كل شئ ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض] (١)

الكلام على ما يتعلق برأس يحيى بن زكريا عليها السلام

وروى ابن عساکر عن زيد بن واقد قال : وكفى الوليد على المال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه منارة فمرقنا الوليد ذلك ، فلما كان الليل واقفا وبين يديه الشمع ، فنزل فاذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتح الصندوق فاذا فيه سبط وفي السبط رأس يحيى ابن زكريا عليها السلام . مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا ، فأمر به الوليد فرد إلى مكانه ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغبرا من بين الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسطط الرأس ، وفي رواية عن زيد بن واقد أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبة - يعني قبل أن تبنى - قال : وكان على الرأس شجرو بشر . وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أخرج من البيعة القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة ، فوضع تحت عمود الكاسة ، قال الأوزاعي والوليد بن مسلم : هو العمود الرابع المسطط . وروى أبو بكر بن البرامي عن أحمد بن أنس ابن مالك عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعمانيين عن سفيان الثوري أنه قال : صلاة

في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا غريب جداً . وروى ابن عساكر من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع - مولى أم عمرو بنت مروان - عن أبيه - وفي رواية عن رجل قد سماه - أن واثلة ابن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي باب جبرون فلقبه كعب الأحمار فقال : أين تريد ؟ قال واثلة : أريد بيت المقدس . فقال : تعال أريك موضعاً في المسجد من صلى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس ، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالى - يعنى الخليفة - إلى الحنية - يعنى القنطرة الغربية - فقال : من صلى فيما بين هذين فكأنما صلى في بيت المقدس ، فقال واثلة : إنى لمجلسي ومجلس قومي . قال كعب : هو ذاك . وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ولا يعتمد على مثله . وعن الوليد بن مسلم قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلى لوحاً من حجر فيه كتاب نقش ، فبعثوا به إلى الوليد فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأسبان فلم يستخرجوه ، فدل على وهب بن منبه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه في ذلك الحائط - ويقال ذلك الحائط بناء هود عليه السلام - فلما نظر إليه وهب حرك رأسه وقرأه فإذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من أجلك ، لذهبت في طول ما ترجو من أمك ، وإنما تلقى ندمك لو قد زل بك قدمك . وأسلك أهلك وحشمتك ، وانصرف عنك الحبيب وأسلك الصاحب والقريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائداً ، ولا إلى عمك زائداً ، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة ، وقبل الحسرة والندامة ، قبل أن يحل بك أجلك ، وتزع منك روحك ، فلا ينفعك مال جمعه ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ النري ، وبهاور الموتى ، فاعتم الحياة قبل الممات ، والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل ، وكتب في زمن^(١) داود عليهما السلام .

وقال ابن عساكر : قرأت على أبي محمد السلى عن عبد العزيز التميمي أنبأ تمام الرازي ثنا ابن البرامى سمعت أبا مروان عبد الرحمن بن عمر المازني يقول : لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد احتفروا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً ، فلم يشعروه وأعلموا به الوليد ، فخرج حتى وقف عليه ، وفتح بين يديه ، فإذا داخله منارة فيها تمثال إنسان من حجارة ، على قوس من حجارة ، في يد التمثال الواحدة الدرة التي كانت في الحراب ، ويده الأخرى مقبوضة ، فأصر بها فكسرت ، فإذا فيها حبتان ، حبة قمح وحبة شعير ، فسأل عن ذلك فقيل له لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير . وقال الحافظ أبو حيدان الوراق - وكان قد عمر مائة

(١) كذا بالأصول ، ولعله سقط منه لفظ « سليمان بن » .

سنة - : سمعت بعض الشيوخ يقول : لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على المقسلاط - على السفود الحديد الذي في أعلاه - صنما ماداً يده بكف مطبقة ، فكسروه فاذا في يده حبة قمح ، فسألوا عن ذلك فقليل لهم : هذه الحبة قمح جعلها حكماء اليونان في كف هذا الصنم طلسماً ، حتى لا يسوس القمح في هذه البلاد ، ولو أقام سنين كثيرة . قال ابن عساكر : وقد رأيت أنا في هذا السفود على قناطر كنيسة المقسلاط كانت مبنية فوق القنادل التي في السوق الكبير ، عند الصابونيين والمطارين اليوم ، وعندها اجتمعت جيوش الاسلام يوم فتح دمشق ، أبو عبيدة من باب الجابية ، وخالد من باب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير . وقال عبد العزيز التميمي عن أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الله المري : سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون : إن في سقف الجامع طلاس عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي ، فيها طلاس للصنونات ، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها ، ولا يدخله غراب ، وطلسم للفأر والحيات والعقارب ، فما رأى الناس من هذا شيئاً إلا الفأر ، ويشك أن يكون قد عدم طلسمها ، وطلسم للعنكبوت حتى لا يذسج فيه ، وفي رواية فيركبه الغبار والوسخ . قال الحافظ ابن عساكر : وسمعت جدي أبا الفضل يحيى بن علي يذكر أنه أدرك في الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر الحشرات ، معلقة في السقف فوق البطائن مما يلي السبع ، وأنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق . فلما احترقت الطلسمات حين أحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد المصير سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وقد كانت بدمشق طلسمات كثيرة ، ولم يبق منها سوى العمود الذي بسوق العلبيين الذي في أعلاه مثل الكرة العظيمة ، وهي لمسربول الدواب ، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها . وقد كان شيخنا ابن تيمية رحمه الله يقول : إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك يندب ، فاذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا مغلت فننطلق طبعها وتروث ، وما ذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يندبون والله أعلم .

ذكر الساعات التي على بابه

قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر : إنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه عمل هناك بلشكار الساعات ، كان يعمل بها كل ساعة تمضي من النهار ، عليها عصفير من نحاس ، وحية من نحاس وغراب ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت المصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطست فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة ، وكذلك سائرهما . قلت : هذا يحتمل أحد شيئين إما أن تكون الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع ، وهو الذي يسمى باب الزيادة ، ولكن قد قيل إنه محاث بعد بناء الجامع ، ولا ينفي ذلك أن الساعات كانت عنده في زمن القاضي ابن زبر ،

و إما أنه قد كان في الجامع في الجانب الشرقي منه في الحائط القبلي باب آخر في محاكاة باب الزيادة ،
وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم ، وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم .
[قلت : باب الوراقين قبلي أيضا ، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع
والله أعلم ، أو لجارته للجامع ولبابه] ^(١)

قلت : فأما القبة التي في وسط صحن الجامع التي فيها الماء الجاري ، ويقول العامة لها قبة أبي نواس
فكان بناؤها في سنة تسع وستين وثلاثمائة أرخ ذلك ابن عساکر عن خط بعض الدماشقة . وأما
القبة الغربية العالية التي في صحن الجامع التي يقال لها قبة عائشة ، فسمعت شيخنا الذهبي يقول : إنها
إنما بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن منصور العباسي ، وجعلوها لحواصل الجامع
وكتب أوقافه ، وأما القبة الشرقية التي على باب مسجد علي فيقال : إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي
في حدود سنة أربع ومائة . وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف نجر الدولة أبو علي
حمزة بن الحسن بن العباس الحسني ، وكأنه كان ناظراً بالجامع ، وجر إليها قطعة من حجر كبير من
قصر حجاج ، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة
وعملت حولها قناطر ، وعقد عليها قبة ، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكت عندها وازدحمت ،
وذلك في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فأعيدت ثم سقطت أعينها وما عليها من حريق اللبادين
والحجارة في شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساکر .

قلت : وأما القصعة التي كانت في الفوارة ، فما زالت وسطها ، وقد أدركتها كذلك ، ثم رفعت
بعد ذلك . وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها ، فلم تزل بها إلى أن تهدمت اللبادين بسبب
حريق النصاري في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما
كانت ، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر ، ثم عمل الشاذروان الذي شرقي فوارة جيرون ، بعد
الخمسمائة - أظنه - سنة أربع عشرة وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الاموي

قال أبو بكر بن أبي داود : ثنا أبو عباس موسى بن عامر المري ثنا الوليد - هو ابن مسلم - قال قال
أبو عمر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل الخزومي ، في
قمة قدمها على عبد الملك ، فحجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق فسمع قراءة فقال :
ما هذا ؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ في الخضراء ، فقرأ هشام بن إسماعيل ، فجعل عبد الملك يقرأ بترارة
هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأوا بقراءته . وقال هشام

ابن عسار وخطيب دمشق : ثنا أيوب بن هسان ثنا الأوزاعي ثنا خالد بن كاهن قال : أول من أحدث القراءة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن المغيرة الخزومي ، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشي . قلت : هشام بن إسماعيل كان نائباً على المدينة النبوية ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك ، قبل أن يموت أبوه ، ثم عزله عنها الوليد وولى عليها عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا .

وقد حضر هذا التبعيجانات من سادات السلف من التابعين بدمشق ، منهم هشام بن إسماعيل ومولاه رافع وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وكان مكتباً لأولاد عبد الملك بن مروان ، وقد ولى إمرة إفريقية هشام بن عبد الملك وابنيه عبد الرحمن ومروان . وحضره من القضاة أبو إدريس الخولاني ، ونعيم بن أوس الأشعري ، ويزيد بن أبي الهيثم ، وسالم بن عبد الله الحاربي ، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي . ومن الفقهاء والمحدثين والحفاظ المقرئين أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى معاوية ، ومكيون ، وسليمان بن موسى الأشدق ، وهبند الله بن العلاء بن زبر ، وأبو إدريس الأصغر شهيد الرحمن بن ذرارة ، وهبند الرحمن بن عامر البصري . وأخوه هبند الله بن عامر . ويحيى بن الجارث البزازي ، وعبد الملك بن نعمان المري ، وأنس بن أنس العنزي ، وسليمان ابن بديع القاري ، وسليمان بن داود الخشفي ، وعمران بن أهران . بن الحكيم القرشي ، ومحمد بن خالد ابن أبي ظبيان الأزدي ، ويزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر ، وعباس بن دينار وغيرهم . هكذا أورد ابن عسار . قال : وقد روى عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره ، ولا وجه لأنكاره . ثم ساق من طريق أبي بكر بن أبي داود : ثنا عمرو بن عثمان ثنا الوليد . هو ابن مسلم . عن عبد الله بن العلاء قال : سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة ويقول : ما رأيت ولا سمعت ، وقد أدركت أصحاب النبي . قال ابن عسار : وكان الضحاك بن عبد الرحمن أميراً على دمشق في أواخر سنة ست وثمانين ^(١) في خلافة عمر بن عبد العزيز .

فضيلة البناء

كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين ، هدمت الكنيسة التي كانت موضعه في ذي القعدة منها ، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء ، وتكامل في عشر سنين ، فكان الفراغ منه في هذه السنة . أعني سنة ست وثمانين . وفيها تولى بانيه الوليد بن عبد الملك ، وقد بقيت فيه بقايا فكلها أخوه سليمان كما ذكرنا . فأما قول يعقوب بن سفيان : سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد

(١) كذا بالأصول . والصواب : في سنة تسع وتسعين .

دمشق وهذه الكنيسة قل : كان الوليد قال للنصارى : ما شئتم انا أخذنا كنيسة توما عنوة وكنيسة
الداخلية صلحاً ، فأنا أهدم كنيسة توما - قال هشام وتلك أكبر من هذه الداخلية - قال فرضوا أن يهدم
كنيسة الداخلية وأدخلها في المسجد ، قال : وكان بابها قبلة المسجد اليوم ، وهو المحراب الذى يصلى
فيه ، قال : وهدم الكنيسة فى أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، ومكثوا فى بنائها سبع سنين حتى
مات الوليد ولم يتم بناءه ، فأتمه هشام من بعده ففیه فوائد وفيه غلط ، وهو قوله إنهم مكثوا فى بنائه
سبع سنين ، والصواب عشر سنين ، فإنه لا خلاف أن الوليد بن عبد الملك توفى فى هذه السنة - أعنى
سنة ست وتسعين - وقد حكى أبو جعفر بن جرير على ذلك إجماع أهل السير ، والذى أتم ما بقى من
بنائه أخوه سليمان لاهشام والله سبحانه وتعالى أعلم .

[قلت : نقل من خط ابن عساكر وقد تقدم ، وقد جددت فيه بعد ذلك أشياء ، منها القباب
الثلاث التى فى صحنه . وقد تقدم ذكرها . وقيل إن القبة الشرقية عمرت فى أيام المستنصر العبيدى فى
سنة خمسين وأربعمائة وكتب عليه اسمه واسم الاثنى عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمتهم ، وأما
العمودان الموضوعان فى صحنه فجعلتا للتنوير لبالى الجمع ، وصنعا فى رمضان سنة إحدى وأربعين
وأربعمائة ، بأمر قاضى البلد أبى محمد ^(١)]

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق وذكر وفاته فى هذا العام
هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،
أبو العباس الأموى ، بويغ له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه فى شوال سنة ست وثمانين ، وكان أكبر
ولده ، والولى من بعده ، وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسى . وكان مولده
سنة خمسين ، وكان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ، وكان لا يحسن العربية ، وكان طويلاً أسمر به أثر
جدري خفى ، أفطس الأنف سائله ، وكان إذا شئ يتوكف فى المشية - أى يتبختر - وكان جليلاً
وقيل دميماً ، قد شاب فى مقدم لحيته ، وقد رأى سهل بن سعد وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه سألـه
ما سمع فى أشراط الساعة ، كما تقدم فى ترجمة أنس ، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عن الزهرى وغيره
وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لا يحسن العربية فجمع الوليد جماعة
من أهل النحو عنده فأقاموا سنة ، وقيل ستة أشهر ، فخرج يوم خرج أجمل مما كان ، فقال عبد الملك :
قد أجهد وأعذر ، وقيل إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له : لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر
عينيك ، وتمن حنين الأمة ، ولكن شمر وا نزر ، ودلنى فى حفرى ، واخلنى وشأنى ، وادع الناس إلى
البيعة ، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا . وقال الليث : وفى سنة ثمان وتسعين ^(٢) غزا الوليد

(١) زيادة من المصرية . (٢) كذا بالأصول . وفيها تحريف ظاهر لأنه مات سنة ٩٦ هـ .

بلاد الروم ، وفيها حج بالناس أيضاً . وقال غيره : غزا في التي قبلها وفي التي بعدها بلاد ملطية وغيرها ، وكان نقش خاتمه أو من بالله مخلصاً . وقيل كان نقشه يا وليد إنك ميت ، ويقال إن آخر ما تكلم به سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وقال إبراهيم بن أبي عبلة قال لي الوليد بن عبيد الملك يوماً : في كم نختم القرآن ؟ قلت في كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغلته يختمه في كل ثلاث ، وقيل في كل سبع ، قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة قال إبراهيم رحمه الله : الوليد وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة فأقسمها على قراءة بيت المقدس .

وروى ابن عساكر بأسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال : خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلاً عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً ، فأتاه فوقف عليه فإذا هو يأكل خبزاً وتراًباً ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : القنوع يا أمير المؤمنين ، فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال : إن لك لشأناً فأخبرني به وإلا ضربت الذي فيه عينك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلاً حملاً ، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصداً إلى الكسوة ، إذ زرموني البول فعدلت إلى خربة لأبول ، فإذا سرب فخرته فإذا مال صبيب ، فلأثت منه غراثري ، ثم انطلقت أقود برواحلي وإذا بمخللة ممي فيها طعام فالقيته منها ، وقلت : إني سأتى الكسوة ، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخللة من ذلك المال فلم أهدأ إلى المكان بعد الجهد في الطلب ، فلما أيسرت رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجدها الطعام ، فأليت على نفسي أني لا آكل إلا خبزاً وتراًباً . قال : فهل لك عيال ؟ قال نعم ، ففرض له في بيت المال .

قال ابن جرير : وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها جارسه فوضعها في بيت المال ، وقيل إن الوليد قال له : ذلك المال وصل إلينا وأذهب إلى إبلتك فخذها ، وقيل إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يقبته وعياله . وقال نعيم بن عبيد الله الشعماني عن أبيه قال قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يفعل هذا بذكر .

[قلت : فنفي عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة ، والفاحشة المذمومة ، التي عذب الله أهلها بأنواع العقوبات ، وأحل بهم أنواعاً من المثلات ، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات ، وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلى بها غالب الملوك والأمراء ، والتجار والعوام والكتائب ، والفقهاء والقضاة ونجومهم ، إلا من عصم الله منهم ، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه ، ولأن يقتل المفعول به خير من أن يؤتى في دبره ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، إلا أن يشاء الله ، وينذهب خبر المفعول به . فعلى الرجل حفظ ولده في حال صغره وبعد بلوغه ، وأن يجنبه مخالطة هؤلاء الملاحين ، الذين لعنهم رسول الله (س) .]

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، والصحيح في المسألة أن يقال إن المفعول به إذا تاب توبة صحيحة نصوحاً ، ورزق إنابة إلى الله وصلاحاً ، وبذل سيئاته بحسنات ، وغسل عنه ذلك بأنواع الطاعات ، وغض بصره وحفظ فرجه ، وأخلص معاملته لربه ، فهذا إن شاء الله مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب للتائبين إليه [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] [ومن تاب وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم] . وأما مفعول به صار في كبره شرّاً منه في صغره ، فهذا توبته متعذرة ، وبعيد أن يؤهل لتوبة صحيحة ، أو لعمل صالح يحو به ما قد سلف ، ويخشى عليه من سوء الخاتمة ، كما قد وقع ذلك لخلق كثير ماتوا بأدرانهم وأوساخهم ، لم يتطهروا منها قبل الخروج من الدنيا ، وبعضهم ختم له بشر خاتمة ، حتى أوقعه عشق الصور في الشرك الذي لا يغفره الله . وفي هذا الباب حكايات كثيرة وقعت للوطية وغيرهم من أصحاب الشهوات يطول هذا الفصل بذكرها .

والمقصود أن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له ، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان . فيقع في سوء الخاتمة . قال الله تعالى [وكان الشيطان للإنسان خذولاً] بل قد وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشة اللواط ، وقد كانوا متلبسين بذنوب أهون منها . وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله ، وصدق في أقواله وأعماله ، فإن هذا لم يسمع به كما ذكره عبد الحق الاشبيلي ، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً ، وظاهره عملاً ، ولمن له جرأة على الكبار ، وإقدام على الجرائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة .

والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفسدات ، وكانت لا تعرف بين العرب قديماً كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم . فلهذا قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يملو ذكراً . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ص) قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره . وقد لعن النبي (ص) من عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات ، ولم يلعن على ذنب ثلاث مرات إلا عليه ، وإنما أمر بقتل الفاعل والمفعول به لأنه لا خير في بقاءهما بين الناس ، لفساد طويتهما ، وخبث بواطنهما ، فمن كان بهنئة المثابة فلا خير للخلق في بقاءه ، فإذا أراح الله الخلق منهما صلح لهم أمر معاشهم ودينهم . وأما اللعنة فهي الطرد والبعد ، ومن كان مطروداً مبعداً عن الله وعن رسوله وعن كتابه وعن صالح عباده فلا خير فيه ولا في قربه ، ومن رزقه الله تعالى توسعاً وفراصة ، ونوراً وفرقاناً عرف من سجن الناس وجوههم أعمالهم ، فإن أعمالهم بالباطل بئس ما تكون ، ولا تفتح على وجوههم وفي أعينهم وكلامهم

وقد ذكر الله اللوطية وجعل ذلك آيات للمتوسمين فقال تعالى : [فأخذتهم الصيحة مشرفين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجين إن في ذلك لآيات للمتوسمين] وما بعدها . وقال تعالى : [أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم ولنعرفهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم] ونحو ذلك من الآيات والأحاديث . فاللوطي قد عكس الفطرة ، وقلب الأمر ، فأثى ذكراً قلب الله قلبه ، وعكس عليه أمره ، بعد صلاحه وفلاحه ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى وخصال التائب قد ذكرها الله في آخر سورة براءة ، فقال : [التائبون العابدون] فلا بد للتائب من العبادة والاشتغال بالعمل للآخرة ، وإلا فالنفس همالة متحركة ، إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فلا بد للتائب من أن يبدل تلك الأوقات التي مرت له في المعاصي بأوقات الطاعات ، وأن يتدارك ما فرط فيها وأن يبدل تلك الخطوات بخطوات إلى الخير ، ويحفظ لحظاته وخطواته ، ولفظاته وخطراته . قال رجل للعنيد : أوصني ، قال : توبة تحمل الاصرار ، وخوف يزيل العزة ، ورجاء مزعج إلى طرق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلب . فهذه صفات التائب . ثم قال الله تعالى [الحمدون السائحون الراكعون الساجدون] الآية فهذه خصال التائب كما قال تعالى : [التائبون] فكان قائلاً يقول : من هم ؟ قيل هم العابدون السائحون إلى آخر الآية ، وإلا فكل تائب لم يتلبس بعد توبته بما يقربه إلى من تاب إليه فهو في بعد وإدبار ، لافي قرب وإقبال ، كما يفمل من اغتر بالله من المعاصي المحظورات ، ويدع الطاعات ، فان ترك الطاعات وفعل المعاصي أشد وأعظم من ارتكاب المحرمات بالشهوة النفسية . فالتائب هو من اتقى المحذورات ، وفعل المأمورات ، وصبر على المقدورات ، والله سبحانه وتعالى هو المعين الموفق ، وهو عليم بذات الصدور ^(١)

قالوا : وكان الوليد لحاناً كما جاء من غير وجه أن الوليد خطب يوماً فقرأ في خطبته (يا ليتها كانت القاضية) فظم التاء من ليتها ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك ، وكان يقول : يا أهل المدينة . وقال عبد الملك يوماً لرجل من قریش : إنك لرجل لو لا أنك تلحن ، فقال : وهذا ابنك الوليد يلحن ، فقال : اسكن ابني سليمان لا يلحن ، فقال الرجل : وأخي أبو فلان لا يلحن . وقال ابن جرير : حدثني عمر ثناء على - يعني ابن شهيد المدائني - قال : كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلانهم ، بنى المساجد بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجنومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وفتح في ولايته فتوحات كثيرة عظيمة ، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم ، ففتح الهند والسند

والاندلس وأقاليم بلاد المعجم ، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك ، قال : وكان مع هذا ير بالبقال فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول : بكم تبسح هذه ؟ فيقول : بفلس ، فيقول : زد فيها فانك تربع . وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضى عنهم دينهم ، قالوا : وكانت همه الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك يلتقي الرجل الرجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همه أخيه سليمان في النساء ، وكان الناس كذلك ، يلتقي الرجل الرجل فيقول : كم تزوجت ؟ ماذا عندك من السراري ؟ وكانت همه عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن ، وفي الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلتقي الرجل الرجل فيقول : كم وردك ؟ كم نقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟ .

[والناس يقولون : الناس على دين مليلكم ، إن كان خماراً كثير الخمر ، وإن كان لوطياً فكذلك وإن كان شحيحاً حريصاً كان الناس كذلك ، وإن كان جواداً كريماً شجاعاً كان الناس كذلك ، وإن كان طماعاً ظلوماً غشوماً فكذلك : وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص ، والله أعلم ^(١) .

وقال الواقدي : كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب ، لجوجاً كثير الأكل والجماع مطلقاً ، يقال إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الاماء . قلت : يراد بهذا الوليد بن يزيد الفاسق لا الوليد بن عبد الملك بنى الجامع والله أعلم .

قلت : بنى الوليد الجامع على الوجه الذي ذكرنا فلم يكن له في الدنيا نظير ، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة ، وبنى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه ، وله آثار حسان كثيرة جداً ، ثم كانت وفاته في يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة ، قال ابن جرير : هذا قول جميع أهل السير ، وقال عمر بن علي الفلاس وجماعة : كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة ، عن ست وقيل ثلاث وقيل تسع وقيل أربع وأربعين سنة ، وكانت وفاته بدير مران ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير ، وقيل بمقابر باب الفراديس ، حكاه ابن عساكر . وكان الذي صلى عليه عمر بن عبد العزيز [لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف ، وقيل صلى عليه ابنه عبد العزيز ^(٢) . وقيل بل صلى عليه أخوه سليمان ، والصحيح عمر بن عبد العزيز والله أعلم . وهو الذي أنزله إلى قبره وقال حين أنزله : لنزلنه غير موسى ولا محمد ، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحياب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقبراً إلى ما قدمت ، غنيا عما أخرت . وجاء من غير وجهه عن عمر أنه أخبره أنه لما وضعه - يعني الوليد - في لحده ارتكض في أكفانه ، وجمعت رجلاه إلى عنقه . وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور والله أعلم .

قال المدائني : وكان له من الولد تسعة عشر ولدا ذكرا ، وهم عبد العزيز ، ومحمد ، والعباس ، وإبراهيم ، وتعام وخالد وعبد الرحمن ومبشر ومسرور وأبو عبيدة وصدقة ومنصور ومروان وعنبسة وعمر وروح وبشر ويزيد ويحيى . فأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان ، وأم أبي عبيدة فزارية ، وسائرهم من أمهات أولاد شتى . قال المدائني : وقدرناه جرير فقال : -

يا عين جودي بدمع هاجه الذكر * فما لدمعك بعد اليوم مدخر
إن الخليفة قد وارت شائله * غبراء ملحة في جوفها زور
أضفى بنوه وقد جلت مصيبتهم * مثل النجوم هوى من يذنها القمر
كانوا جميعاً فلم يدفع منيته * عبد العزيز ولا روح ولا عمر

ومن هلك أيام الوليد بن عبد الملك زياد بن حارث التميمي الدمشقي ، كانت داره غربي قصر الثقفين ، روى عن حبيب بن مسلمة الفهري في النهي عن المسألة لمن له ما يفسديه ويمشيه ، وفي النفل . ومنهم من زعم أن له صحبة ، والصحيح أنه تابعي . روى عنه عطية بن قيس ومكحول ويونس ابن ميسرة بن حابس ، ومع هذا قال فيه أبو حاتم : شيخ مجهول ، ووثقه النسائي وابن حبان ، روى ابن عساكر أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة ، فقال : والله ما بعث الله نبيا بعد محمد - س - ، أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت ، قال : فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك .

عبد الله بن عمر بن عثمان

أبو محمد ، كان قاضي المدينة ، وكان شريفاً كثير المعروف جواداً ممدحاً والله أعلم .

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويح له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات ، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكان سليمان بالرملة ، وكان ولي العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك . وقد كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد ، وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك وأمره به ، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة ، وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد ، فلم ينتظم ذلك له حتى مات ، وانعقدت البيعة إلى سليمان ، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على أن لا يبايعه ، فعزله سليمان وولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين ، وأمره بمعاينة آل الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد عن خراسان . ولسمع بقين من رمضان من هذه السنة عزل سليمان عن إمرة المدينة عثمان بن حيان وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وكان أحد العلماء ، وقد

كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة كتب إليه كتاباً يعزّيه في أخيه ، ويهنّئه بولايته ، ويذكّر فيه بلاءه وعناؤه وقاتله وهيبته في صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم السكار على يديه ، وأنه له على مثل ما كان لالويد من الطاعة والنصيحة ، إن لم يعزله عن خراسان ، ونال في هذا الكتاب من يزيد بن المهلب ، ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر ما فعل من القتال والفتوحات وهيبته في صدور الملوك والأعاجم ، وينمّ يزيد بن المهلب أيضاً ، ويقسم فيه لئن عزله وولى يزيد ليخلمن سليمان عن الخلافة ، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان بالسكينة ، وبعث بها مع البريد وقال له : ادفع إليه الكتاب الأول ، فان قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني ، فان قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثالث . فلما قرأ سليمان الكتاب الأول - واتفق حضور يزيد عند سليمان - دفعه إلى يزيد فقرأه ، فناوله البريد الثاني فقرأه ودفعه إلى يزيد ، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فاذا فيه التصريح بعزله وخلمه ، فتغير وجهه ، ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد ، وأمر بانزال البريد في دار الضيافة ، فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ودفع إليه ذهباً وكتاباً فيه ولاية قتيبة على خراسان ، وأرسل مع ذلك البريد بريداً آخر من جهته ليقرره عليها ، فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخليفة ، فدفع يزيد سليمان الكتاب الذي معه إلى يزيد قتيبة ، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع يزيد سليمان .

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته ، وذكر لهم همته وفتوحه وعمله فيهم ، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم ، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته ، فشرع في تأنيبهم وذمهم ، قبيلة قبيلة ، وطائفة طائفة ، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا ، وعملوا على مخالفته ، وسموا في قتله ، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبي سود ، فجمع جمعاً كثيراً ، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذى الحجة من هذه السنة ، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته ، ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم ، وكانت أمه الفراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن ساعد بن زرارة ، فحمته أخواله ، وعمر بن مسلم كان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار ، وهؤلاء أبناء مسلم ، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سود .

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلي ، من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الكبراء ، والشجعان وذوى الحروب والفتوحات السمينة ، والآراء الحميدة ، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصىهم إلا الله ، فأسلموا وادانوا لله عز وجل ،

وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً كما تقدم ذلك مفصلاً مبيناً ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبته وجهاده .

ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء ، وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان ، في ذى الحجة من هذه السنة ، وله من العمر ثمان وأربعون سنة ، وكان أبوه أبو صالح مسلم فبعض قتل مع مصعب بن الزبير ، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين ، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً ، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي فقال : .

كان أبا حفص قتيبة لم يسر * بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله * وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه * وراح إلى الجنات عفاً مطهراً
فا رزى الإسلام بعد محمد * بمثل أبي حفص فبكيه عبثاً

ولقد بالغ هذا الشاعر في بيته الأخير . وعبر ولد له . وقال الطرماح في هذه الواقعة التي قتل

فيها على يد وكيع بن سود :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج * والازد زعزع واستبيح العسكر
وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب * منهم إلى أهل العراق مخبر
واستضلمت عقد الجماعة وازدرى * أمر الخليفة واستحل المنكر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة * والخيل جاعة عليها العثير
بالرج صرج الصين حيث تبينت * مضر العراق من الأعز الأكبر
إذ حالفت جزعاً ربيعة كلها * وتفرقت مضر ومن يتمضر
وتقدمت ازد العراق ومذحج * للموت يجمعها أبوها الأكبر
قحطان تضرب رأس كل مذحج * نحمي بصارهن إذ لا تبصر
والازد تعلم أن نحت لوائها * ملكاً قراسية وموت أحر
فبمزنا نصر النبي محمد * وبنا تثبت في دمشق المنبر

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطاً كثيراً وذكر أشعاراً كثيرة جداً . وقال ابن خلكان

وقال جرير يرثي قتيبة بن مسلم رحمه الله وسامحه ، وأكرم مثواه وعفا عنه :

نستم على قتل الأمير ابن مسلم * وأنتم إذا لا قيم الله أندم

لقد كنتم من غزوه في غنيمة * وأنتم لمن لاقيم اليوم مغنم
 على أنه أفضى إلى حورجنة * وتطبق بالبلوى عليكم جهنم
 قال : وقد ولي من أولاده وذريته جماعة الأمرة في البلدان ، فمنهم عمر بن سعيد بن قتيبة بن
 مسلم وكان جواداً ممدحاً ، رثاه حين مات أبو عمرو وأشجع بن عمرو السلمي المرى نزيل البصرة يقول :
 مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق * ولا مغرب إلا له فيه مادح
 وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبته الصفايح
 وأصبح في لحد من الأرض ضيق * وكانت به حياً تضيق الضحاح
 سأبكيك ما فاضت دموعي فان تفض * فحسبك مني ما تجر الجوائح
 فما أنا من رزني وإن جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح
 كأن لم يمّت حتى سواك ولم تقم * على أحد إلا عليك النوايح
 لئن حسنت فيك المرائي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدايح

قال ابن خلكان : وهي من أحسن المرائي وهي في الحماسة ، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مردولة
 عند العرب ، قال : وقد رأيت في بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال : يا رسول الله أتتكافأ
 دماؤنا ؟ قال : « نعم ! ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك » . وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل
 الجنة وأنت باهلي ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلاً من
 أنت ؟ فقال : من باهلة ، فجعل يرثي له قال : وأزيدك أني لست من الصميم وإنما أنا من مواليهم .
 فجعل يقبل يديه ورجليه ، فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في
 الدنيا إلا ليعوضك الجنة في الآخرة .

ثم قال ابن جرير : وفي هذه السنة توفي قرّة بن شريك العبسي أمير مصر وحاكمها . قلت :
 هو قرّة بن شريك أمير مصر من جهة الوليد ، وهو الذي بنى جامع الفيوم . وفيها حج بالناس
 أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وكان هو الأمير على المدينة ، وكان على مكة عبد العزيز بن
 عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العراق وصلاتها يزيد بن المهلب ، وعلى خراجها صالح بن
 عبد الرحمن ، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب سفيان بن عبد الله الكندي ، وعلى قضائها
 عبد الرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى حرب خراسان وكيع بن سود
 والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية ، وفيها أمر ابنه داود على الصائفة ،

ففتح حصن المرأة ، قال الواقدي : وفيها غزا مسلمة بن عبيد الملك أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي [بناء] الوضاح صاحب الوضاحية . وفيها غزا مسلمة أيضاً برجة ففتح حصونا وبرجة وحصن الحديد وسررا ، وشق بأرض الروم . وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم وشق بها . وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وقدم برأسه على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، مع حبيب بن أبي عبيد الفهرى ، وفيها ولي سليمان نيابة خراسان يزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق ، وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبي سود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريته ، بعث برأس قتيبة إلى سليمان فخطى عنده وكتب له بإمرة خراسان ، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن ابن الأهمم إلى سليمان بن عبد الملك ليحسن عنده أمر يزيد بن المهلب في إمرة خراسان ، وينتقص عنده وكيع بن سود ، فسار ابن الأهمم - وكان ذا دهاء ومكر - إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم يزل به حتى عزل وكيعاً عن خراسان وولي عليها يزيد مع إمرة العراق ، وبعث بهمه مع ابن الأهمم ، فسار في سبع حتى جاء يزيد ، فأعطاه عهد خراسان مع العراق ، وكان يزيد وعده بمائة ألف فلم يف بها ، وبعث يزيد ابنه مخلداً بين يديه إلى خراسان ، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خلع الطاعة ، فإن كان وكيع قد تعرض له وثار عليه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيده وابعث به إلى ، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً فعاقبه وحبسه قبل أن يجيئ أبوه ، فكانت إمرة وكيع بن أبي سود الذي قتل قتيبة تسعة أشهر ، وأربعة أشهر ، ثم قدم يزيد بن المهلب فقتل خراسان وأقام بها ، واستناب في البلاد نواباً ذكراً ابن جرير .

قال : ثم سار يزيد بن المهلب فغزا جرجان ، ولم يكن يومئذ مدينة بأبواب وصور ، وإنما هي جبال وأودية ، وكان ملكها يقال له صول ، فتحول عنها إلى قلعة هناك ، وقيل إلى جزيرة في بحيرة هناك ، ثم أخذوه من البحيرة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا وغنموا . قال : وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الملك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها ، غير أن خراسان عزل عنها وكيع بن سود ، ووليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مع العراق . ومن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أبو محمد القرشي الهاشمي ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً : « من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليتهم غفر الله له ذنوبه » . وعن عبد الله بن جعفر عن علي في دعاء الكرب ، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين ، وعنه ابنه عبيد الله وجماعة ، وفد على عبد الملك بن مروان فأكرمه ونصره على الحجاج ، وأقره وحده على ولاية صدقة على ، وقد ترجمه ابن عساكر فأحسن ، وذكر عنه آثاراً تدل على سيادته ، قيل إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن بن الحسن كاتب

أهل العراق ، فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة ، وقفه للناس ، ولا ترأى إلا قاتله . فأرسل خلفه فعلمه على بن الحسين ^(١) كلمات الكرب فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم ، وهي : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش العظيم . توفي بالمدينة ، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزاري . وقال يوماً لرجل من الرافضة : والله إن قتلك لقربة إلى الله عز وجل ، فقال له الرجل : إنك تمزح ، فقال : الله ما هذا مني بمزح ولكنه الجدل . وقال له آخر منهم : ألم يقل رسول الله (ص) : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ؟ فقال : بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال : أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ثم تركه على لكان أول من ترك أمر الله ورسوله ، وقال لهم أيضاً : والله لئن ولينا من الأمر شيئاً لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لا نقبل لكم توبة ، ويلكم غررتمونا من أنفسنا ، ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤنا إذ لم يملونا بذلك قد ظلمونا وكتبوا عنا أفضل الأمور ، والله إني لأخشى أن يضاعف العذاب للعاصي منا ضعفين ، كما أني لأرجو للمحسن منا أن يكون له الأج مرتين ، ويلكم أحبونا إن أطلعنا الله على طاعته ، وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته .

موسى بن نصير أبو عبد الرحمن اللخمي

مولاهم ، كان مولى لا امرأة منهم ، وقيل كان مولى لبني أمية ، افتتح بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة ، ويقال إنه كان أعرج ، ويقال إنه ولد في سنة تسع عشرة ، وأصله من حين التمر ، وقيل إنه من أراشة من بلي ، سبى أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق ، وكان اسم أبيه نصراً فصفر ، روى عن تميم الداري ، وزوى عنه ابنه عبد العزيز ، ويزيد بن مسروق اليحصبي ، وولى غزو البحر لماوية ، فغزا قبرص ، وبني هنالك حصوناً كما لماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقرص ، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين ، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان ، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز ، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان .

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب ، قال البغوي ^(٢) . ولى موسى ابن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين فافتتح بلاداً كثيرة جداً مدناً وأقاليم ، وقد ذكرنا أنه ^(١) كذا بالأصول وقد تقدمت وفاة علي بن الحسين قبل هذا . ^(٢) في المصرية الفسوى .

افتتح بلاد الاندلس ، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف ، فسبي منها ومن غيرها خلقاً كثيراً ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئاً لا يحصى ولا يعد ، وأما الآلات والمتاع والدواب فشئ لا يدرى ما هو ، وسبي من البلدان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً ، حتى قيل إنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبث فيهم الدين والقرآن ، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العجل لكثرتها وعجز الدواب عنها

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب ، وقتيبة يفتح في بلاد المشرق ، فجزاهما الله خيراً ، فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً ، ولكن موسى بن نصير حفظ بأشياء لم يحفظ بها قتيبة ، حتى قيل إنه لما فتح الاندلس جاءه رجل فقال له : ابعث معي رجلاً حق أدلك على كنز عظيم ، فبعث معه رجلاً فأتى بهم إلى مكان فقال : أحفروا ، فحفروا فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حسنة ، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهرهم ، وأما الذهب فشئ لا يبر عنه ، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس ، الطنفسة منها ملسوجة بقضبان الذهب ، منظومة بالؤلؤ الغالي المفتخر ، والطنفسة منظومة بالجواهر المشن ، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها ، ولقد سمع يومئذ مناد ينادى لابرون شخصه : أيها الناس ، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذرکم . وقيل إنهم وجدوا في هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التي كان يأكل عليها . وقد جمع أخباره وما جرى له في حروبه وغزواته رجل من ذريته يقال له أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير النصيري .

وروى الحافظ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شئ رأيت في البحر ، فقال : انتهينا مرة إلى جزيرة فيها ست عشرة جرة مختومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، قال : فأمرت بأربعة منها فأخرجت ، وأمرت بواحدة منها فنقبت فإذا قد خرج منها شيطان ينفخ رأسه ويقول : والذي أكرمك بالنبوة لأعود بعدها أفسد في الأرض ، قال : ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال : إني لأرى بهاء سليمان وملوكه ، فانسأخ في الأرض فذهب ، قال : فأمرت بالثلاث البواقى فرددن إلى مكانهن .

وقد ذكر السمعاني وغيره عنه أنه سار إلى مدينة النحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر ، في أقصى بلاد المغرب ، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بریق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة ، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها ، ثم أرسل رجلاً من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال ، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها ، فقيل : إنه سار يوماً وليلة حول سورها ، ثم رجع إليه فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها ، فأمرهم فجمعوا ما معهم من المتاع بعضه على بعض ، فلم

يبلغوا أعلى سورها ، فأمر فعزل سلام فصعدوا عليها ، وقيل إنه أمر رجلا فصعد على سورها ، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن ألغاه في داخلها فكان آخر العهد به ، ثم آخر فكنكك ، ثم امتنع الناس من الصمود إليها ، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علما ، ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها ، فقيل : إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها ، ووجد عليها رجلا قائما ، فقال له : ما أنت ؟ قال : رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان ، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره . فقال له : هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو دخلاً إليها ؟ قال : لا ، إلا أن رجلا يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياماً ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها ، والله أعلم ما هو . ثم رجع إلى إفريقية ، والله أعلم بصحة ذلك ، والمهدة على من ذكر ذلك أولاً .

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس في سنة ثلاث ، وتسمين حين أقحطوا بأفريقية ، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء ، ثم خرج بين الناس معز أهل الذمة عن المسلمين ، وفرق بين البهائم وأولادها ، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء ، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوت لأمر المؤمنين ؟ فقال : هذا موطن لا بدك فيه إلا الله عز وجل ، فسقام عز وجل لما قال ذلك . وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه ، فدخل دمشق في يوم الجمعة والوليد على المنبر ، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة ، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرم ، والأسبان ، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة ، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ، وجاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر ، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله ، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيده به ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلى بالناس ، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئاً كثيراً ، وكذلك موسى بن نصير قدم معه بشئ كثير ، من ذلك مائة سليمان بن داود عليهما السلام ، التي كان يأكل عليها ، وكانت من خليطين ذهب وفضة ، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر لم ير مثله ، وجدها في مدينة طليطلة من بلاد الأندلس مع أموال كثيرة . وقيل إنه بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس ، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضاً من البربر ، فلما جاء كتابه إلى الوليد وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس قال الناس : إن هذا أحق ، من أين له أربعون ألف رأس خمس الغنائم ؟ فبلغه ذلك فأرسل أربعين ألف رأس وهي خمس ما غنم ، ولم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب .

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال : ولو انتقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى ، ولما قدم على الوليد قدم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا ، وذلك خمس ما كان غنمه في آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب ، وقدم معه من الأموال والتحف والآلات والجواهر مالا يحصى ولا يوصف ، ولم يزل مقيماً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان ، وكان سليمان عاتباً على موسى فحبسه عنده وطالبه بأموال عظيمة . ولم يزل في يده حتى حج بالناس سليمان في هذه السنة وأخذه معه فأتى بالمدينة ، وقيل بوادي القرى ، وقد قارب الثمانين ، وقيل توفي في سنة تسع وتسعين فآله أعلم ورحمه الله وعفا عنه وفضله آمين .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففي هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين أخاه مسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية وراء الجيش الذين هم بها ، فسار إليها ومعه جيش عظيم ، ثم التفت عليه ذلك الجيش الذين هم هناك وقد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه على ظهر فرسه مدين من طعام ، فلما وصل إليها جمعوا ذلك فاذا هو أمثال الجبال ، فقال لهم مسلمة : أتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه في بلادهم ، وازرعوا في أماكن الزرع واستغلوه ، وابنوا لكم بيوتاً من خشب ، فإنا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله . ثم إن مسلمة داخل رجلاً من النصارى يقال له اليون ، وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم ، فظهر منه نصيح في بادئ الأمر ، ثم إنه توفي ملك القسطنطينية ، فدخل اليون في رسالة من مسلمة وقد خافته الروم خوفاً شديداً ، فلما دخل إليهم اليون قالوا له : رده عنا ونحن نملكك علينا نخرج فاعمل الحيلة في الغدر والمكر ، ولم يزل قبعه الله حتى أحرق ذلك الطعام الذي للمسلمين ، وذلك أنه قال لمسلمة : إنهم ماداموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال ، فلو أحرقتهم لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً ، فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم انشمر اليون في السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل ، وأصبح وهو في البلد محارباً للمسلمين ، وأظهر العداوة الأكيدة ، وتحصن واجتمعت عليه الروم ، وضاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كل شيء إلا التراب ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز ، ففكروا راجعين إلى الشام ، وقد جهدوا جهداً شديداً ، لكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً ، رحب الفناء شاهقاً في السماء .

وقال الواقدي : لما ولي سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس ، ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون ،

حتى يباغ المدينة ، فلا يأتها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها ، فاذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد ، ثم استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يدع مادونها من البلاد ويفتحها عنوة ، ففنى ما فتحت فان باقى مادونها من البلاد والحصون بيدك ، فقال سليمان : هذا هو الرأى ، ثم أخذ فى تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة فجهز فى البر مائة وعشرين ألفاً ، وفى البحر مائة وعشرين ألفاً من المقاتلة ، وأخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية والاقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق وقد اجتمعت له العساكر فأمر عليهم أخاه مسلمة ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف . ثم سار سليمان حتى نزل مرج دابق ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم ير مثله ، ثم أمر مسلمة أن يرحل بالجيوش وأخذ معه إليون الرومى المرعشى ، ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصرها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون نشاؤره ، فأرسله إليهم ، فقالوا له : رد هذه العساكر عنا ونحن تعطيك ونملكك علينا ، فرجع إلى مسلمة : فقال : قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لا يفتحونها حتى تتنحى عنهم ، فقال مسلمة : إني أخشى غدرك ، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها ، فلما تنحى عنهم أخذوا فى ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار . وغدر إليون بالمسلمين قبحه الله .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة أخذ سليمان بن عبد الملك العهد لولده أيوب أنه الخليفة من بعده ، وذلك بعد موت أخيه مروان بن عبد الملك ، فعزل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولاية ولده أيوب ، وتربص بأخيه الدوائر ، فمات أيوب فى حياة أبيه ، فبايع سليمان إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده ، ونعم ما فعل . وفيها فتحت مدينة الصقالبة . قال الواقدي : وقد أغارت البرجان على جيش مسفة وهو فى قلة من الناس فى هذه السنة . فبعث إليه سليمان جيشاً فقاتل البرجان حتى هزمهم الله عز وجل . وفيها غزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الضمين فحاصرها وقاتل عندها قتالاً شديداً ، ولم يزل حتى تسلمها ، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً ، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة مالا يحصى ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً ، ثم سار منها إلى جرجان فاستعجاش صاحبها بالديلم ، فقدموا لنجدته فقاتلهم يزيد بن المهلب وقتلوه ، فحمل محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفى - وكان فارساً شجاعاً باهراً - على ملك الديلم فقتله وهزمهم الله ، ولقد بارز ابن أبي سبرة هذا يوماً بمض فرسان الترك ، فضربه التركى بالسيف على البيضة فنشب فيها ، وضربه ابن أبي سبرة فقتله ، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دماً وسيف التركى ناشب فى

خودته ، فنظر إليه يزيد بن المهلب فقال : ما رأيت منظرًا أحسن من هذا ، من هذا الرجل ؟ قالوا : ابن أبي سبرة . فقال : نعم الرجل لولا انهما كه في الشراب . ثم صمم يزيد على محاصرة جرجان ، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، ومائتي ألف ثوب ، وأربعمائة حمار موقرة زعفراناً ، وأربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس ، على الترس طيلسان وجام من فضة وسرفة من حرير ، وهذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها فتحها صلحا على أن يحملوا الخراج في كل سنة مائة ألف ، وفي سنة مائتي ألف ، وفي بعض السنين ثلاثمائة ألف ، ويمنعون ذلك في بعض السنين ، ثم امتنعوا جملة وكفروا ، فغزاهم يزيد بن المهلب وردها صلحا على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العاص . قالوا : وأصاب يزيد بن المهلب من غيرها أموالا كثيرة جداً ، فكان من جملة ما تاج فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحدا يزهد في هذا ؟ قالوا : نعلمه ، فقال : والله إني لأعلم رجلاً لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ، ثم دعا بمحمد بن واسع - وكان في الجيش مغازياً - فعرض عليه أخذ التاج فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج به من عنده ، فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فرسائل فطلب منه شيئاً فأعطاه [التاج] بكاله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوضه عنه مالا كثيراً

وقال علي بن محمد المدائني قال أبو بكر الهذلي : كان شهر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب فرفعوا إليه أنه أخذ خريطة فيها مائة دينار ، فسأله عنها فقال : نعم وأحضرها ، فقال له يزيد : هي لك ، ثم استدعى الذي وثق به فشنمه ، فقال في ذلك القطامي الكلبى ، ويقال إنها لسنان بن مكل الغميري

لقد باع شهر دينه بخريطة * فمن يأمن القراء بملك ياشهر
أخنت به شيئاً طفيفاً وبعته * من ابن جوبوذ أن هذا هو القدر

وقال مرة بن النخعي :

يا ابن المهلب ما أردت إلى امرئ * لولاك كان كصالح القراء

قال ابن جرير : ويقال إن يزيد بن المهلب كان في غزوة جرجان في مائة ألف وعشرين ألفاً ، منهم ستون ألفاً من جيش الشام أتاهم الله ، وقد تمهت تلك البلاد بفتح جرجان وسلكت الطرق ، وكانت قبل ذلك مخوفة جداً ، ثم عزم يزيد على المسير إلى خوزستان ، وقدم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس ، فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة آلاف . إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم إن يزيد عزم على فتح البلاد لا محالة ، وما زال حتى صالحه صاحبها - وهو الأصهبند - بمال كثير ، سبعمائة ألف في كل عام ، وغير ذلك من المتاع والرقيق ، ومن توفي فيها

عبدالله بن عبدالله بن عتبة

من الأعيان :

كان إماماً حجة ، وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز ، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة .
أبو الحنفى النخعي . عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله سبحانه
وتعالى أعلم . ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين يوم الجمعة لعشر مضين ، وقيل بقين من صفر
منها ، عن خمس وأربعين سنة ، وقيل عن ثلاث وأربعين ، وقيل إنه لم يجاوز الأربعين . وكانت
خلافته سنتين وثمانية أشهر ، وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشر بقيت من رمضان
منها ، وأنه استكمل في خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، وله من العمر تسع وثلاثون
سنة ، والصحيح قول الجمهور وهو الأول ، والله أعلم .

وهو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي
الأموي ، أبو أيوب . كان مولده بالمدينة في بني جذيلة ، ونشأ بالشام عند أبيه ، وروى الحديث عن
أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين في قصة الافك ، رواه ابن عساكر من طريق ابنه عبد الواحد
ابن سليمان عنه ، وروى عن عبد الرحمن بن هنيذ أنه صحب عبد الله بن عمر إلى الغابة قال فسكت
فقال لي ابن عمر : مالك ؟ فقال : إني كنت أتمنى . فقال ابن عمر : فأتيتني يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال
لي : لو أن لي أحداً هذا ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك ، أو قال : ما خشيت أن
يضر بي . رواه محمد بن يحيى الذهلي عن أبي صالح بن الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن
الزهري عنه

قال ابن عساكر : وكانت داره بدمشق موضع ميضأة جيرون الآن في تلك المساحة جميعها ،
وبني داراً كبيرة مما يلي باب الصغير ، موضع الدرب المعروف بدرب محرز ، وجعلها دار الإمارة ،
وعمل فيها قبة صفراء تشبها بالقبة الخضراء ، قال : وكان فصيحاً مؤثراً للعدل محباً للغزو ، وقد أنفذ
الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحهم على بناء الجامع بها .

وقد روى أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيته ، الوليد وسليمان ومسلمة ، بين يديه فاستقرأهم
القرآن فأجادوا القراءة ، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكلوا أو يحكموا شعر الأعشى ،
فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب ولا يفتش ، هات
يا وليد ، فقال الوليد :

مامركب وركوب الخيل يعجبني • كركب بين دملوج وخلخال

فقال عبد الملك : وهل يكون من الشعر أرق من هذا ؟ هات يا سليمان ، فقال :

حبذا رجعها يديها إليها * في يدي درعها تحمل الأزارا

فقال : لم تصب ، هات يا مسلمة ، فأنشده قول امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي * بسهميك في أعشار قلب مقتل

فقال : كذب امرؤ القيس ولم يصعب ، إذا ذرفت عينها بالوجد فما بقي إلا اللقاء ، وإنما يلبني للماشق أن يغتضي^(١) منها الجفاء ويكسوها المودة ، ثم قال : أنا مؤجلكم في هذا البيت ثلاثة أيام فإن أتاني به فله حكمه ، أي مهما طلب أعطيته ، فتهضوا من عنده فبينما سليمان في وكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول :

لو ضربوا بالسيف رأسي في مودتها * لمال يهوي سرياً نحوها راسي

فأمر سليمان بالأعرابي فاعتقل ، ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتكم بما سألت ، فقال : هات ، فأنشده البيت فقال : أحسنت ، وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابي ، فقال : سل حاجتك ولا تنس صاحبك . فقال : يا أمير المؤمنين إنك عهدت بالأمر من بعدك للوليد ، وإنني أحب أن أكون ولي العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك ، وبهته على الحج في إحدى وثمانين ، وأطلق له مائة ألف درهم ، فأعطاهما سليمان لذلك الأعرابي الذي قال ذلك البيت من الشعر ، فلما مات أبوه سنة ست وثمانين وصارت الخلافة إلى أخيه الوليد ، كان بين يديه كالوزير والمشير ، وكان هو المستحث على عمارة جامع دمشق ، فلما توفي أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، كان سليمان بالرملة ، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس ، وقيل إنهم ساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه هناك ، وعزم على الإقامة بالقدس ، وأتته الوفود إلى بيت المقدس ، فلم يروا وفادة هناك ، وكان يجلس في قبة في محن المسجد مما يلي الصخرة من جهة الشمال ، وتجلس أكبر الناس على الكراسي ، وتقيم فيهم الأموال ، ثم عزم على المجئ إلى دمشق . فدخلها وكل عمارة الجامع .

وفي أيامه جددت المقصورة واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ، وقال له : إنا قد ولينا مائري وليس لنا علم بتدبيره ، ففأرأيت من مصلحة العامة فر به فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج وإخراج أهل السجون منها ، وإطلاق الأسرا ، وبذل الأعطية بالعراق ، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول ، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ، مع أمور حسنة كان يسميها من عمر بن عبد العزيز ، وأمر بنزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر عليهم عمر بن هبيرة ، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة ، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك

(١) يغتضي الجفاء أي يغضو عنه . ولعله « يغتضي » بمعنى يخلع ، في مقابل قوله « ويكسوها »

في جماعة من أهل بيته ، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير ، حين قسم عليه من بلاد المغرب ،
والصحيح أنه قدم في أيام أخيه الوليد والله أعلم .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الكوفي عن جابر بن عون الأسدي . قال :
أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة أن قال : الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء
رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع . إن الدنيا دار غرور ، ومثزل باطل ، وزينة قلب ،
تضحك باكيا وتبكي ضاحكا ، وتخيف آمنسا وتؤمن خائفا ، تفقر مثر بها ، وتثرى فقيرها ، ميالة لآفة
بأهلها . يا عباد الله اتخونا كتاب الله إماما ، وأرضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائدا ، فإنه ناسخ لما
قبله ، ولن يفسخه كتاب بعده . اعملوا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضيائه كما
يجلو ضوء الصبح إذا تنفس أديار الليل إذا عسعس . وقال يحيى بن معين عن حجاج بن محمد عن
أبي معشر عن محمد بن قيس قال : سمعت سليمان بن عبد الملك يقول في خطبته : فضل القرآن على
سائر الكلام كفضل الله على خلقه . وقال حماد بن زيد عن يزيد بن حازم . قال : كان سليمان بن
عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول في خطبته : وإنما أهل الدنيا على رحيل ، لم تمض لهم نية
ولم تطمئن بهم حتى يأتي أمر الله ووعده وهم على ذلك ، كذلك لا يدوم نعمها ، ولا تؤمن فجائتها ولا
تبقى من شر أهلها ثم ينلوا [أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا
يتمتعون] وروى الأصمعي أن نقش خاتم سليمان [كان] : آمنت بالله مخلصا ، وقال أبو مسهر عن أبي
مسلم سلمة بن العيار الفزاري . قال : كان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك ، ويقول :
افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقبتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .
ثم أجمع علماء الناس والتواريخ أنه حجج بالناس في سنة سبع وتسعين وهو خليفة ، قال الهيثم
ابن عدي قال الشعبي : حج سليمان بن عبد الملك فلما رأى الناس بالوسم قال لعمر بن عبد العزيز :
ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين
هؤلاء رعيته اليوم ، وهم غدا خصاؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديدا ثم قال : بالله أستمع .
وقال ابن أبي الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ثنا جرير عن عطاء بن السائب . قال : كان عمر بن
عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة ، حتى
فرعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك ، فقال له سليمان : ما يضحكك يا عمر ؟ أما ترى ما نحن
فيه ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمة فيها شدايد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟
ومن كلامه الحسن رحمه الله قوله : الصمت منام العقل والنطق يقظته ، ولا يتم هذا إلا بهذا . ودخل
عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقته ثم فتشه فلم يحمد عقله ، فقال : فضل منطق الرجل على عقله خدعة ،

وفضل عقله على منطقته هجئة ، وخير ذلك ما أشبه بعضه بعضاً وقال : العاقل أحرص على إقامة لسانه منه على طلب معاشه ، وقال أيضاً : إن من تكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن ، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على أن يتكلم فيحسن . ومن شعره يتسلى عن صديق له مات فقال :
وهوّن وجدى فى شراحيل أنى * متى شئت لاقيت امرأ مات صاحبه
ومن شعره أيضاً :

ومن شيمى ألا أفارق صاحبي * وإن ملئى إلا سألت له رُشداً
وإن دام لي بالود دمت ولم أكن * كآخِر لا برعى ذماماً ولا عهداً

وسمع سليمان ليلة صوت غناء فى معسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس لي سهل فتستودق له الرُمكة ، وإن الجمل ليهدر فتضبّع له الناقة ، وإن التيس لينبّ فتستخذى له العنز وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة ، ثم أمر بهم فقال : اخصوم ، فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال : يا أمير المؤمنين إنها مثله ، ولكن انهم ، فنظام . وفى رواية أنه خصى أحدهم ، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة ، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصى من عنده من المغنين الخنثين .

وقال الشافعى : دخل أعرابى على سليمان فدعاه إلى أكل الفالوج وقال له : إن أكلها يزيد فى الدماغ فقال : لو كان هذا صحيحاً لكان ينبغي أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل [رأس] البغل . وذكروا أن سليمان كان نهما فى الأكل ، وقد نقلوا عنه أشياء فى ذلك غريبة ، فمن ذلك أنه اصطبح فى بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة ، ثم أكل مع الناس على العادة فى السباط العام ^(١) . ودخل ذات يوم بستاناً له وكان قد أمر قيمه أن يجئى ثماره ، فدخله ومعه أصحابه فأكل القوم حتى ملوا ، واستمر هو يأكل أكلا ذريعاً من تلك الفواكه ، ثم استندى بشاة مشوية فأكلها ثم أقبل على أكل الفاكهة ، ثم أتى بدجاجتين فأكلهما ، ثم عاد إلى الفاكهة فأكل منها ، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل مملوءاً سويقاً وسمناً وسكراً فأكله ثم عاد إلى دار الخلافة . وأتى بالسباط فما فقدوا من أكله شيئاً ^(٢) . وقد روى أنه عرضت له حتى عقب هذا الأكل أدته إلى الموت ، وقد قيل إن سبب مرضه كان من أكل أربعائة بيضة وسلتين تيناً فآله أعلم .

وذكر الفضل بن أبى المهرب أنه لبس فى يوم جمعة حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء .

(١) هذا وامثاله من مبالغات الاعاجم التى كانوا يتقربون بها إلى بنى العباس . وسيأتى فى ص ١٨٣ أن سليمان رحمه الله أنه كان نحيفاً جميلاً ، وهى صفة لا تتفق مع ما نسبوه إليه (٢) الذى اخترع هذه الأكاذيب نسى أن المدة لا تقبل زيادة على حجمها ، وقد قيل إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً .

واعتم بهامة خضراء وجلس على فراش أخضر وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر في المرأة فأعجب حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال : أنا الخليفة الشاب ، وقيل إنه كان ينظر في المرأة من فرقه إلى قدمه ويقول : أنا الملك الشاب ، وفي رواية أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقاً ، وكان عثمان حبيباً ، وكان علي شجاعاً ، وكان معاوية حليماً ، وكان يزيد صبوراً ، وكان عبد الملك سائساً ، وكان الوليد جباراً ، وأنا الملك الشاب . قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر ، وفي رواية جمعة ، حتى مات . قالوا : ولما حم شرع يتوضأ فذنا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للإنسان

أنت خلوت من الميوب ومما * يكره الناس غير أنك فان

قالوا : فصاح بها وقال : هزبنى في نفسى ، ثم أمر خاله الوليد بن العباس القمقاع العنسى^(١) أن

يصب عليه وقال :

قرب وضوءك يا وليد فأنما * دنياك هذى بلفه ومتاع

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً * فالدهر فير فرقة وجماع

ويروى أن الجارية لما جاءت به بالطست جعلت تضرب من الحى ، فقال : أين فلانة ؟ فقالت : محومة ، قال : فلانة ؟ قالت : محومة ، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين ، فأمر خاله فوضاه ثم خرج يصلى بالناس فأخذته بحمة في الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحى فمات في الجمعة المقبلة ، ويقال : إنه أصابه ذات الجنب فمات بها رحمه الله .

وكان قد أقسم أنه لا يبرح بمرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية ، أو يموت قبل ذلك ، فمات قبل ذلك رحمه الله وأكرم مثواه ، قالوا : وجعل يلجج في مرضه ويقول :

إن بنى صغار * أفلح من كان له كبار

فيعول له عمر بن عبد العزيز : قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين ، ثم يقول

إن بنى صبية صفيون * قد أفلح من كان له ربيون

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به ، والصحيح أن آخر ما تكلم به أن قال : أسألك منقلباً كريماً ، ثم قضى . وروى ابن جرير عن رجاء بن حيوة - وكان وزير صدق لبني أمية - قال : استشارني سليمان بن عبد الملك وهو رريض أن يولى له ابناً صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقلت : إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولى على المسلمين الرجل الصالح ، ثم شاورني في ولاية ابنه داود ، فقلت : إنه غائب عنك بالقسطنطينية ولا تدرى أحي هو أو ميت ، فقال : من ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ،

قال : فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوانك أن لا يرضوا بذلك ، فقال : هو والله على ذلك وأشار رجال ^(١) أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، إني قد وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيقطع فيكم عدوكم . وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة ، فقال له : اجمع أهل بيتي فرم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً ، فمن أبى منهم ضرب عنقه . فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين ، فقال لهم : هذا الكتاب عهدي إليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه ، فبايعوا لذلك رجلاً رجلاً ، قال رجاء : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : أنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة ، فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً . قال : ولقيه هشام بن عبد الملك فقال : يارجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرني هذا الأمر إن كان إلى علمت ، وإن كان لغيري فما مثلي قصربه عن هذا . فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّه إلى أمير المؤمنين ، قال رجاء : ودخلت على سليمان فاذا هو يموت ، فجعلت إذا أخذته السكر من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة ، فاذا أفاق يقول : لم يأن لذلك بعد يارجاء ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يارجاء إن كنت تريد شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فحرفه إلى القبلة فمات رحمه الله . قال : فخطبته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه وأرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق ، فقلت : بايعوا لمن في هذا الكتاب ، فقالوا : قد بايعنا ، فقلت : بايعوا ثانية ، ففعلوا ، ثم قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، وقرأت الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان ، فلما قرأت وإن هشام بن عبد الملك بعده ، تراجعوا بعض الشيء . ونادى هشام لا نبايعه أبداً ، فقلت : أضرب عنقك والله ، قم فبايع ، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخر المسجد ، فلما تحقق ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه فأصعدوه على المنبر ، فسكت حيناً ، فقال : رجاء بن خبوة : ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه ، فنهض القوم فبايعوه ، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال عمر : نعم إنا لله وإنا إليه راجعون الذي صرت أنا وأنت

(١) في المصرية : وأشار سليمان بن رجاء . ولعله : وأشار رجاء .

تتنازع هذا الأمر . ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبليغة ، فكان مما قال في خطبته : أيها الناس ، إني لست بمبتدع ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم ، وإن هم أبوا فلست لكم بوال ، ثم نزل ، فأخذوا في جهاز سليمان ، قال الأوزاعي : فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب ، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب ، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب ، فلما انصرف عمر أتى بمراكب الخلافة [فأبى أن يركبها] وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق ، فقالوا : نهجو دار الخلافة فقال : لا أنزل إلا في منزلي ^(١) حتى تفرغ دار أبي أيوب ، فاستحسنوا ذلك منه ، ثم استدعى بالكاتب فجعل يعلو عليه نسخة الكتاب الذي يبائع عليه الأمصار ، قال رجاء : فما رأيت أفصح منه .

قال محمد بن إسحاق : وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين ، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد ، وكذا قال الجمهور في تاريخ وفاته ، ومنهم من يقول : لعشر بقين من صفر ، وقالوا : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، زاد بعضهم إلا خمسة أيام والله أعلم . وقول الحاكم أبي أحمد : إنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشر بقين من رمضان سنة تسع وتسعين ، حكاه ابن عساكر ، وهو غريب جداً ، وقد خالفه الجمهور في كل ما قاله ، وعندهم أنه جاوز الأربعين فقيل بثلاث وقيل بخمس والله أعلم . قالوا : وكان طويلاً جميلاً أبيض نحيفاً ، حسن الوجه ، مقرون الحاجبين ، وكان فضيحاً بليغاً ، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله ، وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قريبة من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية ، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت ، فمات هنالك كما ذكرنا ، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله ، فهو إن شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس القيلي ماضونه : إن مسلمة ابن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية ، وتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من الممالك ، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان ^(٢) يستنصره على مسلمة ، ويقول له : ليس لهم (١) كان منزله في موضع مدرسة السيساطية الآن مما يلي باب مسجد بني أمية الشمالي . أما قصر الخلافة الذي يسمى (الدار الخضراء) فكان وراء الجدار القبلي من مسجد بني أمية . ويسمى موضعه الآن (المصينة الخضراء) (٢) الأرجح أنهم أمة البلغار ، وهم أقرب الأمم النصرانية إلى القسطنطينية .

همة إلا في الدعوة إلى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، وإنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك ، فهما كذبت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن ، فعند ذلك شرع لعنه الله في المكر والخديعة ، فكتب إلى مسلمة يقول له : إن إلبون كتب إلى يستنصرني عليك ، وأنا معك فمضى بما شئت . فكتب إليه مسلمة : إني لا أريد منك رجالاً ولا عدداً ، ولكن أرسل إلينا بالميرة فقد قلنا ما عندنا من الأزواد . فكتب إليه : إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا ، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها . فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج إليه ، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقاً هائلة ، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة ، فأقبلوا يشترون ، واشتغلوا بذلك ، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من السكائن بين تلك الجبال التي هنالك ، فخرجوا عليهم بغتة واحدة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وأسروا آخرين ، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم ، فأناب الله وإنا إليه راجعون ، فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك ، فأرسل جيشاً كثيراً صحبة شراحيل بن عبيدة هذا ، وأمرهم أن يهبطوا خليج القسطنطينية أولاً فيقاتلوا ملك البرجان ، ثم يعودوا إلى مسلمة ، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقاتلوا إليهم تلك الخلدجان ، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً ، فمزمهم المسلمون بأذن الله ، وقتلوا منهم قتلة عظيمة ، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وخلصوا أسرى المسلمين ، ثم تميزوا إلى مسلمة فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم ، ومن ضيق العيش ، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أنابهم الله .

خليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين ، وقد قيل بقين من صفر من هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - يوم مات سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه إليه من غير علم من عمر كما قدمنا ، وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتشف والصيانة والزهادة ، من أول حركة بدت منه ، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها ، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة ، ويقال إنه خطب الناس فقال في خطبته : أيها الناس ، إن لي نفساً تواقه لا تعطى شيئاً إلا ناقت إلى ما هو أعلى منه ، وإني لما أعطيت الخلافة ناقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها يرحمكم الله . وستأتي ترجمته عند وفاته إن شاء الله ، وكان مما بادر إليه عمر في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصروا القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال وضاق عليهم المجال ، لأنهم عسكر كثير ، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم . وبعث إليهم بطعام كثير وخبول كثيرة عناق ، يقال خمسمائة فرس ، وفرح الناس بذلك ،

وفيها أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين ، فوجه إليهم عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وبعث منهم أسارى إلى عمر وهو بمخاضرة . وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله ، لكثرة الأشغال ، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك والله أعلم . فروى ابن عساكر في ترجمة جرير بن عثمان الرحبي الحمصي قال : رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حتى على الصلاة حتى على الفلاح ، الصلاة قد قاربت .

وفي هذه السنة عزل عمر يزيد بن المهلب عن إمارة العراق وبعث عدي بن أرطاة الفزاري على إمارة البصرة ، فاستقضى عليها الحسن البصري ، ثم استعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور ، وبعث على إمارة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه ، واستقضى عليها عامراً الشعمي . قال الواقدي : فلم يزل قاضيا عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ، وجعل على إمارة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمارة المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة ، وعزل عن إمارة مصر عبد الملك بن أبي وداعة وولى عليها أيوب بن شرحبيل ، وجعل القتيبا إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر ، فهؤلاء الذين كانوا يفتنون الناس ، واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله الحزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر والله سبحانه وتعالى أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن محمد بن الحنفية

تابي جليل ، يقال إنه أول من تكلم في الإرجاء ، وقد تقدم أن أبا عبيد قال : توفي في سنة خمس وتسعين . وذكر خليفة أنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذكر شيخنا الذهبي في الاعلام أنه توفي هذا العام ، والله أعلم .

عبد الله بن محيريز بن جنادة بن عبيد

القرشي الجني المكي ، نزيل بيت المقدس ، تابي جليل ، روى عن زوج أم أبي محذورة المؤذن ، وعبادة بن الصامت ، وأبي سعيد ، ومعاوية ، وغيرهم ، وعنه خالد بن معدان ، ومكحول ، وحسان بن عطية ، والزهرى ، وآخرون . وقد وثقه غير واحد ، وأثنى عليه جماعة من الأئمة ، حتى قال رجاء بن حيوة : إن يفخر هلينا أهل المدينة بعابدم ابن عمر ، فانا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله ابن محيريز . وقال بعض ولده : كان يختم القرآن كل جمعة ، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه .

قالوا : وكان صموئنا معتزلاً للفتن ، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يذكر شيئاً من خصاله المحمودة ، ورأى على بعض الأمراء حلة من حرير فأنكر عليه ، فقال : إنما البسها من أجل هؤلاء . وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين - فقال له ابن محيريز : لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين . وقال الاوزاعي : من كان مقتدياً فليقتد بمثله ، فان الله لا يفضل أمة فيها مثله . قال بعضهم : توفي أيام الوليد ، وقال خليفة بن خياط : توفي أيام عمر بن عبد العزيز ، وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفي في هذا العام ، والله سبحانه أعلم .

دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشتري منه ثوباً فرجع في السوم ، فقال له جاره : ويحك هذا ابن محيريز ضع له ، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال : اذهب بنا ، إنما جئت لنشتري بأموالنا لا بأدياننا ، فذهب وتركه .
محمود بن لبيد بن عقبة

أبو نعيم الأنصاري الأشجلى ولد في حياة النبي (ص) ، وروى عنه أحاديث يمكن حكمها حكم الإرسال . وقال البخاري : له صحبة . وقال ابن عبد البر : هو أحسن من محمود بن الربيع . قيل إنه توفي سنة ست وقيل سبع وتسعين ، وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفي في هذا العام والله أعلم باليقين .
نافع بن جبير بن مطعم

ابن عدي بن نوفل القرشي النوفلي المدني ، روى عن أبيه وعثمان وعلي والعباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان ثقة عابداً يخرج ماشياً ومركوبه يقاد معه ، قال غير واحد : توفي سنة تسع وتسعين بالمدينة .

كريب بن مسلم

مولى ابن عباس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان عنده حمل كتب ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة .

محمد بن جبير بن مطعم

كان من علماء قریش وأشرفها ، وله روايات كثيرة ، وكان يعقل بحجة مجها النبي (ص) ، في وجهه وعمره أربع سنين ، توفي وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة .

مسلم بن يسار

أبو عبد الله البصري ، الفقيه الزاهد له روايات كثيرة ، كان لا يفضل عليه أحد في زمانه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع ، وقيل إنه وقع في داره حريق فأطفأه وهو في الصلاة لم يشعر به ، وله مناقب كثيرة رحمه الله . قلت : وانهدمت مرة ناحية من المسجد ففرع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفي المسجد في صلاته فما التفت . وقال ابنه : رأيته ساجداً وهو يقول : متى ألقاك

وأنت عني راض ، ثم يذهب في الدعاء ، ثم يقول : متى ألتاك وأنت عني راض ، وكان إذا كان في غير صلاة كأنه في الصلاة ، وقد تقدمت ترجمته

حنش بن عمرو الصنعاني

كان والي إفريقية وبلاد المغرب ، وبإفريقية توفي غازي ، وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة .

خارجة بن زيد

ابن الضحاك الأنصاري المدني الفقيه ، كان يفتي بالمدينة ، وكان من فقهاء المعدودين ، كان عالماً بالفرائض وتقسيم الموارث ، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم .

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الامام أحمد : حدثنا علي بن حفص أنبأ ورقاء عن منصور عن المنهال بن عمرو عن نعيم بن دجاجة قال : دخل ابن مسعود على علي فقال : أنت القائل قال رسول الله . : « لا يأتي على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة » ؟ إنما قال رسول الله . : « لا يأتي على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة من هوى » ، وإن رضاء هذه الأمة بعد المائة . تفرد به أحمد . وفي رواية لابنه عبد الله أن علياً قال له : يافروخ أنت القائل لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف من هوى اليوم ، وإنما رضاء هذه الأمة وفرحها بعد المائة ؟ إنما قال رسول الله . : « لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف » ، أخطأت أسنك الحفرة ، وإنما أراد من هو اليوم حى . تفرد به (١) وهكذا جاء في الصحيحين عن ابن عمر . فوهل الناس في مقالة رسول الله . : تلك ، وإنما أراد أنخرام قرنه وفيها خرجت خارجة من الحرورية بالعراق فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة ، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق ، ويتلطف بهم ، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا في الأرض ، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً فكسروهم الحرورية ، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه ، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم ، فأظفروهم الله بهم ، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج - وكان يقال له بسطام - يقول له : ما أخرجك على ؟ فإن كنت خرجت غضاً لله فأنا أحق بذلك منك ، ولست أولى بذلك مني ، وهلم أنا ظرك ، فإن رأيت حقاً اتبعته ، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه . فبعث طائفة من أصحابه إليه فاختار منهم عمر رجلين فسألهما : ماذا تنقون ؟ فقالا : جعلك يزيد بن عبد الملك من بعدك ، فقال : إني لم أجعله أبداً وإنما جعله غيري . قال : فكيف رضيت به أمينا للأمة من بعدك ؟ فقال : أنظراني ثلاثة ، فيقال إن بني أمية دست إليه ما فقتلوه خشية أن يخرج الأمر من أيديهم ويمتصهم الأموال والله أعلم .

(١) كذا بالأصول . ولعله سقط منه لفظ « عبد الله بن أحمد »

وفيهما غزا عمر بن الوليد بن هشام الميظلي ، وهمر بن قيس الكندي من أهل حمص ، الصائفة
وفيهما ولي عمر بن عبد العزيز عمر بن هبيرة الجزيرة فصار إليها . وفيها حمل يزيد بن المهلب إلى عمر
ابن عبد العزيز من العراق ، فأرسله عدي بن أرطاة نائب البصرة مع موسى بن وجيه ، وكان عمر يبنض
يزيد بن المهلب وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، فلما دخل على عمر طالبه بما
قبله من الأموال التي كان قد كتب إلى سليمان أنها محاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت ذلك لأرهب
الأعداء بذلك ، ولم يكن بيني وبين سليمان شيء ، وقد عرفت مكانتي عنده . فقال له عمر : لا أسمع
منك هذا ، ولست أطلقك حتى تؤدي أموال المسلمين ، وأمر بسجنه . وكان عمر قد بعث على إمرة
خراسان الجراح بن عبد الله الحكيم عوضه ، وقدم ولد يزيد بن المهلب ، غنم بن يزيد ، فقال :
يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قد من على هذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكون نحن أشقى الناس بك
فلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم له أتصالني عنه ؟ فقال عمر : لا أصالحك عنه إلا أن تقوم بجميع
ما يطلب منه ، ولا آخذ منه إلا جميع ما عنده من مال المسلمين . فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت
لك بينة عليه بما تقول وإلا فاقبل يمينه أو فصالحني عنه ، فقال : لا آخذ منه إلا جميع ما عنده .
فخرج غنم بن يزيد من عند عمر ، فلم يلبث أن مات غنم . وكان عمر يقول : هو خير من أبيه . ثم
إن عمر أمر بأن يلبس يزيد بن المهلب جبة صوف ويركب على بعير إلى جزيرة دهلك التي كان ينفي
إليها الفساق ، فشفعوا فيه فردوه إلى السجن ، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه ، فهرب
من السجن وهو مريض ، وعلم أنه يموت في مرضه ذلك ، وبذلك كتب إليه كما سيأتي ، وأظنه
كان عالما أن عمر قد سقى سماً .

وفيهما في رمضان منها عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكيم عن إمرة خراسان ،
بعد سنة وخمسة أشهر ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ويقول : أأنتم إنما
تسلمون فراراً منها . فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن
الله إنما بعث محمداً (ص) داعياً ، ولم يبعثه جايياً . وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري
على الحرب ، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج . وفيها كتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم
عن الشر ، ويبين لهم الحق ويوضح لهم ويعظم فيهم بينه وبينهم ، ويخوفهم بأس الله وانتقامه ، وكان
فيما كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيري :

أما بعد فكن عبداً لله ناصحاً لله في عباده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك
من الناس ، وحقه عليك أعظم ، ولاتولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ،

والتوفير عليهم . وأدنى الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق ، فان الله لا يخفى عاينه خافية ، ولا تذهب عن الله مذهباً ، فانه لا ملجأ من الله إلا إليه . وكتب مثل ذلك مواظ كثيرة إلى المال . وقال البخاري في صحيحه : وكتب عمر إلى عدي بن عدي : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسلماً ، من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على محبتكم بحريص .

وفيهما كان بدوء دعوة بني العباس

وذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وكان مقبلاً بأرض انشراة - بعث من جهته رجلاً يقال له ميسرة ، إلى العراق ، وأرسل طائفة أخرى وهم محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج ، وهو أبو محمد الصادق ، وحيان المطار - خال إبراهيم بن سلمة - إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح ابن عبد الله الحكمي قبل أن يعزل في رمضان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب منهم إلى ميسرة الذي بالعراق ، فبعث بها إلى محمد بن علي ففرح بها واستبشر وسره أن ذلك أول مبادئ أمر قد كتب الله إنعامه ، وأول رأى قد أحكم الله إبراهيم ، أن دولة بني أمية قد بان عليها مخايل الوهن والضعف ، ولا سيما بعد موت عمر بن عبد العزيز ، كما سيأتي بيانه . وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً ، وهم سليمان بن كثير الخزاعي ، ولاهز بن قريظ التميمي ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمي ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم - مولى لآل أبي مُعيط - ومالك بن الهيثم الخزاعي ، وطلحة بن زريق الخزاعي ، وعمرو ابن أعين أبو حمزة - مولى لخزاعة - ، وشبل بن طهمان أبو علي الهروي - مولى لبني حنيفة - وعيسى ابن أعين مولى لخزاعة أيضاً . واختار سبعين رجلاً أيضاً . وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثلاً وسيرة يقتدون بها ويسرون بها .

وقد حجج بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، نائب المدينة . والنواب على الأمصار المذكورون في التي قبلها ، سوى من ذكرنا ممن عزل وتولى غيره والله أعلم . ولم ينجح عمر ابن عبد العزيز في أيام خلافته لشغله بالأمر ، ولكنه كان يبرر البريد إلى المدينة فيقول له : سلم على رسول الله (ص) ، عني ، وسيأتي باسناده إن شاء الله .

ومن توفي فيها من الأعيان

(سالم بن أبي الجعد الأشجعي) مولاهم الكوفي . أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران

ومسلم ، وهو تابعي جليل ، روى عن ثوبان^(١) وجابر وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، والنعمان ابن بشير وغيرهم . وعنه قتادة والأعمش وآخرون ، وكان ثقة نبيلًا جليلًا .

أبو أمامة سهل بن حنيف

الأَنْصَارِيُّ الأَوْسِيُّ المدني ، ولد في حياة النبي (س) ، ورواه وحديث عن أبيه وهو عثمان وزيد بن ثابت ومعاوية وابن عباس . وعنه الزهري وأبو جازم وجماعة ، قال الزهري : كان من عليّة الأنصار وعلمائهم ، ومن أبناء الذين شهدوا بدرًا . وقال يوسف بن الماجشون عن عتبة بن مسلم ، قال : آخر خرجة خرجها عثمان بن عفان إلى الجمعة حصبه الناس وحلوا بينه وبين الصلاة ، فصل بالناس يومئذ أبو أمامة سهل بن حنيف . قالوا : توفي سنة مائة والله أعلم

أبو الزاهرية حدير بن كريب المحصي

تابعي جليل ، سمع أبا أمامة صدى بن مجلان ، وعبد الله بن بسر ، ويقال إنه أدرك أبا الدرداء ، الصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسلّة ، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده ، وقد وثقه ابن معين وغيره . ومن أغرب ما روى عنه قول قتيبة : ثنا شهاب بن خراش عن حميد عن أبي الزاهرية قال : أغفيت في صخرة بيت المقدس فجاءت السدنة فأغلقتوا عليّ الباب ، فما انتبهت إلا بتسبيح الملائكة فوثبت مذعورًا فاذا الملائكة صفوف ، فدخلت معهم في الصف . قال أبو عبيدة وغيره : مات سنة مائة .

أبو الطفيل عامر بن واثلة

ابن عبد الله بن عمرو الليثي الكِنَاني ، صحابي ، وهو آخر من رأى النبي (س) ، وفاة بالاجماع قال : رأيت النبي (س) يستلم الركن بمحجنه ، وذكر صفة النبي (س) ، وروى عن أبي بكر وهو وعلى ومعاذ وابن مسعود ، وحدث عنه الزهري وقاتدة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين ، وكان من أنصار علي بن أبي طالب ، شهد معه حروبه كلها ، لكن نقم بعضهم عليه كونه كان مع المختار بن أبي عبيد ، ويقال إنه كان حامل رأيته ، وقد روى أنه دخل على معاوية فقال : ما أبقى لك الدهر من ثكالك عليا ؟ فقال : ثكل المعجوز المقلّة والشيخ الرقوب ، فقال : كيف حبك له ؟ قال حب أم موسى لموسى ، وإلى الله أشكو التفسير . قيل إنه أدرك من حياة النبي (س) ثمان سنين ، ومات سنة مائة وقيل سنة سبع ومائة والله أعلم . قال مسلمة بن الحجاج : وهو آخر من مات من الصحابة مطلقًا ومات سنة مائة .

أبو عثمان النهدي

واسمه عبد الرحمن بن ملّ البصري ، أدرك الجاهلية وحج في زمن الجاهلية مرتين ، وأسلم في حياة

(١) في خلاصة تذهيب الكمال : قال أحمد : لم يلق ثوبان . وقال البخاري : لم يسمع منه ،

النبي (س)، ولم يره، وأدى في زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي (س)، ومثل هذا يسميه أمه الحديث مخضرمًا، وهاجر إلى المدينة في زمان عمر بن الخطاب، فسمع منه ومن علي وابن مسعود وخلق من الصحابة وصحب سلمان الفارسي ثلثي عشرة سنة حتى دفعه، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم، منهم أيوب، وحيد الطويل، وسليمان بن طرخان التيمي، وقال عاصم الأحول: سمعته يقول: أدركت في الجاهلية ينوث صنًا من رصاص يحمل على جبل أجرد، فإذا بلغ واديا برك فيه فيقولون: قد رضى ربكم لكم هذا الوادي فينزلون فيه، قال: وسمعته وقد قيل له أدركت النبي (س)، فقال: نعم! أسلمت على عهده، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات، ولم ألفه، وشهدت اليرموك والقادسية وجولاء ونهاوند. كان أبو عثمان صوامًا قوامًا، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه، وكان يصلي حتى يفشى عليه، وحج ستين مرة ما بين حجة وعمره، قال سليمان التيمي: إني لأحسبه لا يصيب ذنبًا، لأنه ليله قائمًا ونهاره صائمًا، وقال بعضهم: سمعت أبا عثمان النهدي يقول: أنت على ثلاثون ومائة سنة وما مني شيء إلا وقد أنكرته خلا أمني فاني أجده كما هو. وقال ثابت البناني عن أبي عثمان: قال: إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل، قال فيقول: من أين تعلم ذلك؟ فيقول قال الله تعالى [فاذكروني أذكركم] فإذا ذكرت الله ذكرني. قال: وكنا إذا دعونا الله قال: والله لقد استجاب الله لنا، قال الله تعالى، [وقال ربكم ادعوني أستجب لكم] قالوا: وعاش مائة وثلاثين سنة، قاله هشيم وغيره. قال المدائني وغيره: توفي سنة مائة، وقال الفلاس: توفي سنة خمس وتسعين، والصحيح سنة مائة والله أعلم.

وفيها توفي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وكان يفضل على والده في العبادة والانتفاع عن الناس، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه.

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها كان هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز، فواعد غلمانه يلتقونه بالخليل في بعض الأماكن، وقيل بابل له، ثم نزل من محبته ومعه جماعة وأمرأته عاتكة بنت الفرات العامرية، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز: إني والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك، ولو رجوت حياتك ما خرجت، ولكني خشيت من يزيد بن عبد الملك فإنه يتوعدني بالقتل، وكان يزيد يقول: لئن وابت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة، وذلك أنه لما ولي العراق عاقب أصحابه آل عقيل، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان يزيد بن عبد الملك مزوجًا ببنت محمد بن يوسف، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول كما سيأتي. ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال: اللهم إن كان يريد هذه الأمة

سوءاً فأكفهم شره واردد كيده في نحره ، ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بمخاضرة ، من دير سمعان بين حماه وحلب ، في يوم الجمعة ، وقيل في يوم الاربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة - أعنى سنة إحدى ومائة - عن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر فآله أعلم .

وكانت خلافته فيما ذكر غير واحد سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وكان حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً وورعاً دينياً ، لا تأخذه في الله لومة لائم رحمه الله تعالى .

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز الأمام المشهور رحمه الله

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو حمص القرشي الأموي المعروف أمير المؤمنين ، وأمه أم عاصم لبلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ويقال له أشج بن مروان ، وكان يقال : الأشج والناقص أعدلا بنى مروان . فهذا هو الأشج وسبأني ذكر الناقص . كان عمر تابعياً جليلاً ، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، ويوسف صحابي صغير . وروى عن خلق من التابعين . وعنه جماعة من التابعين وغيرهم . قال الأمام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز . بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه له بذلك كما تقدم ، ويقال : كان مولده في سنة إحدى وستين ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي عصر ، قاله غير واحد . وقال محمد بن سعد : ولد سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، فآله أعلم . وكان له جماعة من الأخوة ولكن الذين هم من أبويه أبو بكر وعاصم ومحمد ، وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن بكير عن الليث . قال : بلغني أن عمران بن عبد الرحمن ابن شرحبيل بن حسنة كان يحدث أن رجلاً رأى في المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولي الخلافة شك أبو بكر - أن منادياً بين السماء والأرض ينادي : أتماكم اللين والدين وإظهار العمل الصالح في المصلين ، فقلت : ومن هو ؟ فنزل فكتب في الأرض ع م ر . وقال آدم بن إياس : ثنا أبو علي ثروان مولى عمر بن عبد العزيز . قال : دخل عمر بن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه فضربه فرس فشجه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بنى أمية إنك إذا لسميد . رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف عن ضمرة ، وقال نعيم بن حصاد : ثنا ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فبلغ أمه فأرسلت إليه فقالت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمه . وكان قد جمع القرآن وهو صغير ، وقال الضحاك بن عثمان الخزامي . كان أبوه قد جمعه عند صالح بن كيسان يؤدبه ، فلما حج أبوه اجتاز به في

المدينة فسأله عنه فقال : ماخبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام وروى يعقوب بن سفيان أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً فقال صالح بن كيسان : ما شغلك ؟ فقال : كانت مرّجأتني تسكن شعري ، فقال له : قدّمت ذلك على الصلاة ؟ وكتب إلى أبيه وهو على مصر يعلمه بذلك ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق رأسه . وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص علياً ، فلما أناه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلي ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل على عمر مغضباً وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ قال ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود ، قال : فما سمع بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا أبي ثنا المفضل بن عبيد الله عن داود بن أبي هند . قال : دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب - وأشار إلى باب من أبواب مسجد النبي ص - فقال رجل من القوم : بعث الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن ، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة ، ويسير سيرة عمر بن الخطاب . قال داود : والله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وقال الزبير بن بكار : حدثني العتبي قال : إن أول ما استقبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب ، إن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبة أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترحلني إلى المدينة فأقعد إلى قهاتها وأتأدب بأدابهم . فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدام ، فقدم مع مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهي التي يقول الشاعر فيها :

بنتُ الخليفة والخليفةُ جدُّها * أختُ الخلائف والخليفةُ زوجها

قال : ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها .

قال العتبي : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى متابعتة في النعمة ، والاختيال في المشية ، وقد قال الأحنف بن قيس : الكامل من عدت هفواته ولا تعد إلا من قلة . وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والبواب هو وإخوته ما لم يرثه غيره فيها نعم ، كما تقدم ذلك ، ودخل يوماً على عمه عبد الملك وهو يتجاف في مشيته فقال : يا عمر مالك تمشي غير مشيتك ؟ قال : إن في جُرْحاً ، فقال : وأين هو من جسدك ؟ قال : بين الرائقة والصفن - يعني بين طرف الالاية وجلدة الخصى - فقال عبد الملك لروح بن زنباع : بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل

هذا الجواب . قالوا : ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوماً ، ولما
ولى الوليد عامه بما كان أبوه يعامله به ، وولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة
ثلاث وتسعين ، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين ، وسنة تسعين ، وحج الوليد بالناس سنة إحدى
وتسعين ، ثم حج بالناس عمر سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين .

و بنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي (ص) ، ووسمه عن أمر الوليد له بذلك ، فدخل فيه قبر
النبي (ص) ، وقد كان في هذه المدة من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، كان إذا وقع له أمر
مشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم ، وكان لا يقطع أمراً بدونهم أو من حضر
منهم ، وهم عروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،
وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسالم بن عبد الله ،
وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب ،
وقد كان سعيد بن المسيب لا يأتي أحداً من الخلفاء ، وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة ،
وقال إبراهيم بن عتبة : قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره ، وقد نديهم عمر يوماً إلى رأى

وقال ابن وهب : حدثني الليث حدثني قادم البر يرى أنه ذا كر ربيعة بن أبي عبد الرحمن يوماً
شيئاً من قضايا عمر بن عبد العزيز إذ كان بالمدينة ، فقال له الربيع : كأنك تقول : أخطأ ، والذي
نفسى بيده ما أخطأ قط . وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك . قال : ماصليت وراء إمام أشبه
بصلاة رسول الله (ص) من هذا الفتى - يعنى عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة . قالوا :
وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود ، وفي رواية صحيحة أنه كان يسبح في الركوع
والسجود عشراً عشراً ، وقال ابن وهب : حدثني الليث عن أبي النضر المديني ، قال : رأيت سليمان
ابن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ، قلت :
تعلمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فابرحنا حتى تعلمنا منه .
وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وفي رواية قال ميمون : كان
عمر بن عبد العزيز معلم العلماء . وقال الليث : حدثني رجل كان قد صحب ابن عمرو ابن عباس ،
مكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة ، قال : ما التمسنا علم شيئ إلا وجدنا عمر بن
عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة . وقال
عبد الله بن طاووس : رأيت أبي تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا ،
فلما افترقا قلت : يا أبا من هذا الرجل ؟ قال هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحى هذا البيت -

يعنى بنى أمية - وقال عبد الله بن كثير قلت لعمر بن عبد العزيز ما كان بدء إقامتك ؟ قال : أردت ضرب غلام لى فقال لى : اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة (١)

وقال الامام مالك : لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة - يعنى فى سنة ثلاث وتسعين - وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه : يا مزاحم ، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة - يعنى أن المدينة تنفى خبئها كما ينفى الكبير خبث الحديد - وينصع طيها . قلت : خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له السويداء حيناً (٢) ، ثم قدم دمشق على بنى عمه . قال محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبى حكيم . قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : خرجت من المدينة وما من رجل أعلم منى ، فلما قدمت الشام نسيت . وقال الامام أحمد : حدثنا عفان ثنا حماد بن زيد عن ميمون عن الزهرى قال : سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته ، فقال : كل ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيت . وقال ابن وهب عن الأيث عن عقيل عن الزهرى قال قال عمر بن عبد العزيز : بعث إلى الوليد ذات ساعة من الظهيرة ، فدخلت عليه فإذا هو عابس ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست فقال : ماتقول فيمن يسب الخلفاء أيقتل ؟ فسكت ، ثم عاد فسكت ، ثم عاد فقلت : أقتل يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكن سبب ، فقلت : ينكّل به ، فغضب وانصرف إلى أهله ، وقال لى ابن الريان السيف : اذهب ، قال : فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه . وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأبقال والرجال ، فقال سليمان : ماتقول يا عمر فى هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسئول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ، ونهب نعمة ، فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟ فقال : لا أدري ، فقال : ما ظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبتك ؟ فقال عمر : أعجب من عرف الله فمصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها .

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعزفة ورأى سليمان كثرة الناس فقال له عمر : هؤلاء رعيتك

(١) بالأصول « يوماً صبيحتها يعنى يوم القيامة » ومحممناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صفحة ١٤٩ (٢) السويداء أرض كان يملكها عمر بن عبد العزيز ، واستلبط فيها من عطائه عين ماء ، وله فيها قصر مبنى . ولما تنازل لبيت المال عن جميع ما ورثه عن آبائه أبقى (السويداء) و (خير) لأنه اطمان إلى أنهما حلال خالص ليس فيه أية شبهة . وكان هو خليفة يأكل من غلتها وينفق ما يزيد عن الضرورة

اليوم وأنت مستول عنهم غدا . وفي رواية وهم خصماؤك يوم القيامة ، فبكى سليمان وقال : بالله أستمين .
وتقدم أنهم لما أصابهم ذلك المطر والرعد فزع سليمان وضحك عمر فقال له : أتضحك ؟ فقال : نعم هذه
آثار رحمته ونحن في هذه الحال ، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن في تلك الحال ؟ وذكر الامام مالك
أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام : كذبت ، فقال : تقول كذبت ؟ والله
ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه
سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال له : ما عرض لي أريد مني إلا خطرت على بالي . وقد ذكرنا أنه
لما حضرته الوفاة أوصى بالأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز فانتظم الأمر على ذلك والله الحمد .

فصل

وقد كان منتظرا فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا عبيد العزيز بن عبيد الله بن أبي سلمة الماجشون ثنا عبد الله
ابن دينار قال قال ابن عمر : يا عجبا ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلى رجل من آل عمر
يعمل بمنزل عمل عمر ، قال : وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر ، قال : وكان بوجهه أثر ، فلم يكن
هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وقال البيهقي :
أنبا الحكم أنبا أبو جامد بن عيسى المقرئ ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أحمد بن إبراهيم ثنا عفان ثنا
عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية بن أسماء عن نافع . قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب قال :
إن من ولدي رجلا بوجهه شجان يلى فيملا الأرض عدلا . قال نافع من قبله : ولا أحسبه إلا عمر
ابن عبد العزيز . ورواه مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن نافع . وقال : كان ابن عمر يقول : ليت
شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا ، قال وهيب بن الورد : بينما
أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب بني شبيعة وهو يقول : يا أيها الناس ! ولي عليكم كتاب الله .
فقلت : من ؟ فأشار إلى ظفريه فاذا مكتوب عليه عمر ، قال فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز . وقال
بقية عن عيسى بن أبي رزين حدثني الخزامي عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله ص . في
روضة خضراء فقال له : « إنك ستلى أمر أمتي فزع عن الدم فزع عن الدم »^(١) ، فان اسمك في الناس
عمر بن عبد العزيز ، واسمك عند الله جابر . وقال أبو بكر بن المقرئ : ثنا أبو عمرو بن الحسين بن
محمد بن مودود الحراني ثنا أيوب بن محمد الوزان ثنا ضمرة بن ربيعة ثنا السري بن يحيى عن رياح بن
عبيدة . قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ منوكي على يده ، فقلت في نفسي : إن

(١) وزعه بزعه فاتزع ، أى كف عنه .

هذا الشيخ جاف ، فلما صلى ودخل لحقته فقلت : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ الذي أتتك أنت
 يدك ؟ فقال : يا رياح رأيتك ؟ قلت : نعم ! قال : ما أحسبك يا رياح إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخى
 الخضر أتاني فأعلمني أنى سالى أمر هذه الأمة وأنى سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو عمير ثنا ضمرة عن علي بن خولة عن أبي عنبس . قال :
 كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد ، فقال : هل
 علينا من عين ؟ فقال أبو عنبس : فقلت عليهما من الله عين بصيرة ، وأذن سمعة ، قال : فترقت
 عينا الفتى . فأرسل يده من يد خالد وولى ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخى
 أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى . قلت : قد كان عند خالد بن يزيد بن
 معاوية شئ جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم ، وكان ينظر فى النجوم والطب . وقد ذكرنا فى ترجمة
 سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يسهل إلى بعض أولاده ، فصرفه وزيره الصالح
 رجاء بن حيوة عن ذلك ، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوب ذلك رجاء
 فكتب سليمان العهد فى صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بنى مروان سوى سليمان
 ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة بالحضار الأمراء ورؤوس الناس من بنى مروان وغيرهم ، فبايعوا
 سليمان على ما فى الصحيفة المختومة ، ثم انصرفوا ، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا
 ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فاذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ،
 فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فالتفت له البيعة .

وقد اختلف العلماء فى مثل هذا الصنيع فى الرجل يوصى الوصية فى كتاب ويشهد على ما فيه
 من غير أن يقرأ على الشهود . ثم يشهدون على ما فيه فينفذ ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم ، قال
 القاضى أبو الفرج المغانى بن زكريا الجربرى : أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز ،
 وروى ذلك عن سالم بن عبد الله . وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة الخزومى ومكحول ، ونعيم بن
 أوس وزرعة بن إبراهيم ، والأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز ، ومن وافقهم من فقهاء الشام . وحكى
 نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه وقضاة جنده ، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه
 من فقهاء أهل مصر والمغرب ، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاةهم . وروى عن قتادة وعن سوار
 ابن عبد الله وعبيد الله بن الحسن ومعاذ بن معاذ العبدي فيمن سلك سبيلهم ، وأخذ بهذا عدد
 كثير من أصحاب الحديث ، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه . قلت : وقد اعتنى به البخارى فى
 صحيحه . قال المغانى : وأبى ذلك جماعة من فقهاء العراق ، منهم إبراهيم وحامد والحسن ، وهو مذهب
 الشافعى وأبى ثور ، قال : وهو قول شيخنا أبى جعفر ، وكان بعض أصحاب الشافعى بالعراق يذهب

إلى القول الأول، قال الجريري: وإلى القول الأول نذهب: وتقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان أتى بمراكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول: -

فلولا التقى ثم انتهى خشية الردى * لماصيت في حب الصبا كل زاجر
قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى * له صبوة أخرى الليالي الغواير

ثم قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. قدموا إلى بغلق، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفة فيمن يزيد، وكانت من الخيول الجياد المثمنة، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال. قالوا: ولما رجع من الجنازة وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: مالك هكذا مغتما مهموما وليس هذا بوقت هذا؟ فقال: ويحك ومالي لا أغتم وليس أحد من أهل المشرق والمغرب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه، كتب إلى في ذلك أولم يكتب، طلبه مني أولم يطلب. قالوا: ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جوارها لبكائها، فسمعت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله. وقال له رجل: تفرغ لنا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول:

قد جاء شغل شاغل * وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا فرا * غلنا إلى يوم القيامة

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة خطبها حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من يحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا. يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويميلنا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابنا عندنا أحدا، ولا يعرضن فيما لا يعنيه. فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله. وقال سفيان ابن عيينة: لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم: قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي، فما عندكم؟ فقال محمد بن كعب: اجعل الشيخ أبا، والشاب أخا، والصغير ولدا، وبر أباك وصل أخاك، وتعطف على ولدك. وقال رجاء: ارض للناس ما ترضى لنفسك، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم، واعلم أنك أول خليفة تموت. وقال سالم: اجعل الأمر واحدا وصم فيه عن شهوات الدنيا، واجعل آخر فطرك فيه الموت. فكان قد. فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال غيره: خطب عمر بن عبد العزيز يوما الناس فقال - وقد خنقته العبرة - أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم، وأصلحوا أسراركم يصلح لكم علانيتكم، والله إن عبداً ليس

بينه وبين آدم أب إلا قد مات ، إنه لمرق له في الموت . وقال في بعض خطبه : كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مقتبط عما قليل يظعن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بسهم حنقه ، فسلبه أثارة دنياه ، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلا وتحزن طويلا . وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، وإني لست بقاض ولكني منفذ ، وإني لست بمتبع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم إلا أن الامام الظالم هو العاصي ، ألا لاطاعة المخلوق في معصية الخالق عز وجل . وفي رواية أنه قال فيها : وإني لست بخير من أحد منكم ، ولكني أثقلكم حملا ، ألا لاطاعة المخلوق في معصية الله ، ألا هل أسمعتم .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أحمد بن يحيى الحلواني ثنا محمد بن عبيد ثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان حدثني ابن اسمعيل بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فأنسكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم ممادا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، نغاب وخبر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يآمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانيا بياق ، وفادأ بمالا نفاد له ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب المهالكين ، وسيكون من بعدكم للباقيين ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا وراثما إلى الله لا يرجع ، قد قضى نحبته حتى تنفيوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير موسد ولا ممد ، قد طارق الأحياب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتين بعمله ، غنى عما ترك ، فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، راقبوه قبل نزول الموت بكم ، أما إني أقول هذا ، ثم وضع طرف رداؤه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وفي رواية : وإيم الله إني لأقول قولي هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها سنن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، وأستغفر الله ، ووضع كفه على وجهه فبكى حتى بل لحيته ، فاعاد مجلسه حتى مات رحمه الله .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله (ص) في النوم وهو يقول : « ادن يا عمر ، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه ، فقال : إذا وليت فاعمل نحو ما من عمل هذين ، فإذا كهلان قد اكتنفاه ، فقلت : ومن هذان ؟ قال : هذا أبو بكر وهذا عمر » . وروينا أنه قال : لسالم بن عبد الله بن عمر : اكتب لي سيرة عمر حتى أعلم بها ، فقال له سالم : إنك لا تستطيع ذلك ،

قال : ولم ؟ قال : إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجد على الخير أعوانا ، وأنت لا تجد من يمينك على الخير . وقد روى أنه كان نقش خاتمه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وفي رواية آمنت بالله ، وفي رواية الوفاء عزيز . وقد جمع يوما رموس الناس فخطبهم فقال : إن فذك كانت بيد رسول الله (ص) ، يضعها حيث أراه الله ، ثم وايتها أبو بكر وعمر كذلك ، قال الأصمعي : وما أدري ما قال في عثمان ، قال : ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب ، ووهبني الوليد وسليمان نصيبهما ، ولم يكن من مالي شيء أردته أغلى منها ، وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله (ص) . قال : فيئس الناس عند ذلك من المظالم ، ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا إليه بالناس ، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه شيء ، وقال لهم : لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به ، وقال : والله لو أقت فيكم خمسين عاما ما أقت فيكم إلا ما أريد من العدل ، وإني لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم .

وقال الامام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز ، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد . وقال طاووس : هو مهدي وليس به ، إنه لم يستكمل العدل كله ، إذا كان المهدي ثبت على المسمى من إساءته ، وزيد المحسن في إحسانه ، سمح بالمال شديد على العمال رحيم بالمساكين . وقال مالك عن عبيد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخلفاء أبو بكر والعمران ، فقيل له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر ؟ قال : يوشك إن عشت أن تعرفه ، يريد عمر بن عبد العزيز ، وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو أشج بن مروان . وقال عباد السالك وكان يجالس سفيان الثوري - : سمعت الثوري يقول : الخلفاء خمسة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز . وهكذا روى عن أبي بكر بن عياش والشافعي وغير واحد . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر ، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : « لا يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى يكون فيهم اثني عشر خليفة كلهم من قریش » .

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذي حق حقه ، وكان مناديه في كل يوم ينادي : أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء . وقد اختلف العلماء أيهم أفضل هو أو معاوية بن أبي سفيان ؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدله وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته ومحبة ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله (ص) . خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته . وذكر ابن

عساكر في تاريخه أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بذت عبد الملك ، فكان سألها إياها إما بيميناً أو هبة ، فكانت تأتي عليه ذلك ، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيبتها وأهنتها إليه ووهبتها منه ، فلما أخلتها به أعرض عنها ، فتمرضت له فصدف عنها ، فقالت له : يا سيدي فأين ما كان يظهر لي من محبتك إياي ؟ فقال : والله إن محبتك لبقاية كما هي ، ولكن لا حاجة لي في النساء ، فقد جاءني أمر شغلني عنك وعن غيرك ، ثم سألها عن أصلها ومن أين جلبوها ، فقالت : يا أمير المؤمنين إن أبي أصاب جنابة ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت في الجنابة ، وبعث بي إلى الوليد فوهبني الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك ، فأهدتني إليك . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها .

وقالت زوجته فاطمة : دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضماً خده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : مالك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعمري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذو العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فملت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد (ص) ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته ، فرحت نفسي فيكيت . وقال ميمون بن مهران ولاني عمر بن عبد العزيز عمالة ثم قال لي : إذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض . وكتب إلي بعض عماله : إذا دعيتك قدرتك على الناس إلى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتي إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن جرير بن حازم عن عيسى بن عاصم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للأسلام سناوفاً أئض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فان أعش أيديها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على محبتكم بحريص . وذكر البخاري في صحيحه تعليقاً بحزوماً به . وذكر الصولي أن عمر كتب إلى بعض عماله : عليك بتقوى الله فانها هي التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يناب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . وقال : من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يمني ويمنعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . وقال : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطايا ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وكله رجل يوماً حتى أغضبه فهم به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل : أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان فأقال منك ماتتال مني غداً ؟ قم عاقل الله لا حاجة لنا في مقاولتك . وكان يقول : إن أحب الأمور إلى الله التقصد في الجدة ، والمنو في المقدرة ، والرفق في الولاية ، ومارفق عبد

بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة . وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشججه صبي منهم ، فاحتملوا الصبي الذي شجج ابنه وجاؤا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج اليهم ، فاذا مريثة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت : لا ، قال : فاكتبوه في الذرية . فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجج ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشجج ابنك ثانية . فقال : ويحك ، إنه يتيم وقد أفزعتموه . وقال مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد ، أي زهد عندي ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاعرة فهاها فتركها جملة . قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس ، وقد وقف مرة على راحب فقال له : ويحك عطني ، فقال له : عليك بقول الشاعر : -

نَجِدُ مِنَ الدُّنْيَا فَاثَكَ إِنَّمَا * خَرَجْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ بِمَجْرَدٍ

قال : وكان يعجبه ويكرره وعمل به حق العمل . قالوا : ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهما أو فلساً يشتري له بها عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً ؟ فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأُنكال غداً في نار جهنم . قالوا : وكان سراج بيته على ثلاث قصبات في رأسهن طين ، قالوا : وبعث يوماً غلامه ليشوي له لحمه فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : في المطبخ ، فقال : في مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم . فقال : كلها فاني لم أرزقها ، هي رزقك . وسخنوا له المساء في المطبخ العام فرد بدل ذلك بدرهم حطباً . وقالت زوجته : ما جامع ولا احتلم وهو خليفة . قالوا : وبلغ عمر بن عبد العزيز عن أبي سلام الأسود أنه يحدث عن ثوبان يحدث الحوض فبعث إليه فأحضره على البريد وقال له ، كالتوقيع له : يا أبا سلام ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافني بالحديث مشافهة ، فقال : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله (ص) : «حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد » . فقال عمر : لكنني نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، فلا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا ألقى ثوبي حتى يتسخ . قالوا : وكان له سراج يكتب عليه حوائجه ، وسراج لبית المال يكتب عليه مصالح المسلمين ، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً . وكان يقرأ في المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يعطيل القراءة ، وكان له ثلاثمائة شرطى ، وثلاثمائة حرسى ، وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً فاشتبهه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قد بلغت محلها ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) ، كن يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك ، فقال : إن الهدية

كانت لرسول الله ص. هدية ، فأما نحن فهي لئارشوة . قالوا : وكان يوسع على عماله في النفقة ، يعطى الرجل منهم في الشهر مائة دينار ، ومائتي دينار ، وكان يتناول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ؟ فقال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم . وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً من قبل ذلك ، وقال يوماً لرجل من ولد علي : إني لأستحي من الله أن تنفق بياني ولا يؤذن لك ، وقال لآخر منهم : إني لأستحي من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به . وقال أيضاً : كنا نحن و بنو عينا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا ، فلجأ إليهم ويلجئون إلينا ، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسات كل فافق ، وأخرست كل منافق ، وأسكتت كل ناطق .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أبو بكر ابن أخي خطاب ثنا خالد بن خديش ثنا حماد بن زيد عن موسى بن أيمن الراعي - وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة - قال : كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد ، فمرض ذات يوم لشاة منها ذئب فقلت : إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة . ورواه غيره عن حماد فقال : كان يرعى الشاة بكرمان فذكر نحوه ، وله شاهد من وجه آخر ، ومن دعائه : اللهم إن رجلاً أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم ، اللهم وإن توفيتك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني . ومنه : اللهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر . وقال له رجل : أبقيك الله ما كان البقاء خيراً لك ، فقال : هذا شيء قد فرغ منه ، ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار . وقال له رجل : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئاً بطيئاً ، متلوئاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل . ودخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

وإذا الدر زان حسن وجوه * كان للدر حسن وجهك زينا

قال : فأعرض عنه عمر . وقال رجاء بن حيوة : سمعت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فمشى السراج فقلت : يا أمير المؤمنين : ألا أتبه هذا الغلام يصلحه ؟ فقال : لا ! دعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين . فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ! ليس من المروءة استخدام الضيف ، ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زينا ثم جاء وقال : قت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر ابن عبد العزيز ، وقال : أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها . وقال : إنه ليمنعني من كثرة ذكرها مخافة المباهاة ، وبلغه أن رجلاً من أصحابه توفي ، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه ، فصرخوا في وجهه

بالبكاء عليه ، فقال : مه ، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، وإن الذي يرزقكم حتى لا يموت ، وإن صاحبكم هذا ٤ لم يسد شيئاً من حفركم ، وإنما سد حفرة نفسه ، ألا وإن لكل امرئ منكم حفرة لا بد والله أن يسدها ، إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، وما امتلأت دار خيرة إلا امتلأت عبدة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غداً .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر إلى القبور فقال لي : يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما ترام صرعى قد خلت بهم المثلاث ، واستمعكم فيهم البلاء ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله . وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة فلما دفنت قال لأصحابه : كفوا حتى آتي قبور الأجيّة ، فأتاهم فجعل يبكي ويدعو ، إذ هتف به التراب فقال : يا عمر ألا تسألني ما فعلت في الأجيّة ؟ قال قلت : وما فعلت بهم ؟ قال : مرقت الأكفان ، وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدفين ، ونزعت الكفين من الساعدين ، والساعدين من العضدين ، والعضدين من المنكبين ، والمنكبين من الصلب ، والقدمين من الساقين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الورك ، والورك من الصلب . فلما أراد أن ينهب قال له : يا عمر أدلك على أكفان لا تبلى ؟ قال : وما هي ؟ قال : تقوى الله والعمل الصالح . وقال مرة لرجل من جلسائه : لقد أرقبت الليلة مفكراً ، قال : وفيه يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكته ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره ، وما صار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الألس منك بناحيته ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ، وتخترق فيه الديدان ، ويمجرى فيه الصديد ، مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، قال : ثم شق شقة خر منشياً عليه . وقال مقاتل بن حيان : صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ [وقفوم إنهم مسؤولون] فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها . وقالت امرأته طامة : مارأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحداً أشد فرقا من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه ، قالت : ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللحف رحمة له ، وأنا أقول : ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله مارأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وقال علي بن زيد : ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز .
وقال بعضهم : رأيت يبكى حتى بكى دما ، قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ [إن ربكم الذي خلق
السموات والأرض في ستة أيام] الآية ، ويقرأ [أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون]
ونحو هذه الآيات ، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ،
ثم يبيكون حتى كأن بينهم جنازة ، وقال أبو بكر الصولي : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فما تزودَ مما كانَ يجمعه * سوى خطوطِ غداةِ البينِ في خرقِ
وغيرِ نفعةِ أعوادٍ تشبُّ له * وقلَّ ذلكَ من زادٍ لمنطلقِ
بأما بلادٍ كانت منيته * إن لا يسر طائما في قصدها يسقى

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس ، انحازوا إلى
الظل فبكى وأشد :

من كان حينَ تصيبُ الشمسُ جبهته * أو النبارُ يخافُ الشينَ والشمنا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاشته * فسوف يسكنُ يوما راغما جدنا
في قعرٍ مظلمٍ غبراءَ موحشة * يطيلُ في قعرها نعتُ الثرى اللبنا
تجهزى بجهازٍ تبليغين به * يأنسُ قبلَ الردى لم تخلق عبثا

هذه الأبيات ذكرها الأجرى في أدب النفوس بزيادة فيها فقال : أخبرنا أبو بكر أنبأنا
أبو حفص عمر بن سعد القراطيسي حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا حدثني محمد بن صالح
القرشي أخبرني عمر بن الخطاب الأزدى حدثني ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبي عمرة قال :
أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى اليون طائغية الروم يدعوه إلى الاسلام ، فقال له
عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ! إنن لي في بعض بني يخرج ممي - وكان عبد الأعلى له عشرة من
الذكور - فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك . فقال : عبد الله ، فقال له عمر : إني رأيت ابنك
عبد الله يمشى مشية كرهتها منه ومقته عليها ، وبلغني أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : أما شيتته
تلك ففريزة فيه ، وأما الشعر فأنما هو نواحة ينوح بها على نفسه ، فقال له : مر عبد الله يأتياني وخذ
معك غيره ، فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشد فأنشده ذلك الشعر المتقدم :

تجهزى بجهازٍ تبليغين به * يأنسُ قبلَ الردى لم تخلق عبثا
ولا تكدي لمن يبق وتفتقرى * إن الردى وارثُ الباقي وما ورثا
واخشى حوادثِ صرفِ الدهر في مهل * واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا
عن مديرةٍ كان فيها قطعٌ مدته * فوافت الحث موفورا كما خرنا

لا تأمنى فجع دهرٍ مترقٍ ختلٍ • قد استوى عندمن طاب أو خبثا
 يارب ذي أملٍ فير على وجلٍ • أضحي به آمناً امسى وقد حدثا
 من كان حين تصيب الشمس جهته • أو النبار يخاف الشين والشعنا
 ويألف الظل كي تبقى بشاشته • فكيف يسكن يوماً راغماً جدنا
 قفراء موحشة غبراء مظلمة • يطيل تحت الثرى من قعرها اللبثا
 وقد ذكرها ابن أبي الدنيا فمر أنشدها عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان عمر يشتمل بها كثيراً ويكيه

وقال الفضل بن عباس الجلبى : كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت :
 ولا خير في عيش امرئ لم يكن له • من الله في دار القرار نصيب
 وزاد غيره معه بيتاً حسناً وهو قوله :

فان تعجب الدنيا أناساً قاتها • متاع قليل والزوال قريب
 ومن شعره الذى أنشده ابن الجوزى :

أقامت وعز من لا يموت • قد تيقنت أنى ساموت
 ليس ملك يزيله الموت ملكاً • إنما الملك ملك من لا يموت
 وقال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تسر بما يفنى وتفرح بالئى • كما اغتر بالذات في النوم حالم
 نهارك يامغرور سهو وغفلة • وليك نوم والردى لك لازم
 وسعيك فيما سوف تكره غبة • كذلك في الدنيا تعيش البهائم
 وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم • وكيف يطيق النوم حيران هائم
 فلو كنت يقظان النداء لحرقت • محاجر عينيك الدموع السواجم
 أصبحت في النوم الطويل وقد دنت • إليك أمور مغفلات عظام
 وتكدح فيما سوف تكره غباً • كذلك في الدنيا تعيش البهائم
 فلا أنت في النوم يوماً بسالم • ولا أنت في الايقاظ يقظان حازم

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول :
 لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة ، فقلت : أخبرني بها ، فقال : حتى نصبح ، فلما صلى بالمسلمين دخل

فسأله فقال : رأيت كأنني دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة تخرج منه خارج فنأدي أين محمد بن عبد الله ، أين رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله ص ، حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنأدي : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأدي أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأدي أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأدي أين علي بن أبي طالب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأدي أين عبد العزيز ؟ نعمت فدخلت فجلست إلى جانب أبي عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله ص ، وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله ص رجل ، قلت : لابي : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بيني وبينه نوراً لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنثت عليه ، وأثبتت على ما أنثت عليه ، ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت ، فالتفت فإذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول : الحمد لله الذي نصرني ربي ، وإذا علي في إثره وهو يقول : الحمد لله الذي غفر لي ربي .

فَضِيلَةُ النَّبِيِّ

وقد ذكرنا في دلائل النبوة الحديث الذي رواه أبو داود في سننه أن رسول الله ص قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزي وغيره : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، وإن كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق ، لأمامته وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق ، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به . وقد جمع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي سيرة لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب في مجلد على حدة ، ومسنده في مجلد ضخم ، وأما سيرة عمر بن عبد العزيز فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا ، يستدل به على ما لم نذكره .

وقد كان عمر رحمه الله يعطى من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها ، للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن ، في كل عام من بيت المال مائة دينار ، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ، ويقول : إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ، وكتب إلى سائر البلاد أن لا يركب ذمي من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ، ولا يلبس قباء ولا طيلساناً ولا سراويل ، ولا يمشين أحد منهم إلا بزمار من جلد ، وهو مقرون الناصية ، ومن وجد منهم في منزله سلاح أخذ منه . وكتب أيضاً أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن ، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عنده خير . وكان يكتب إلى عماله : اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة ، فإن من أضاعها فهو لما سواها

من شرائع الاسلام أشد تضييماً . وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ماتقع موعظته منه ، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ . وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة ، وقد كتب إليه الحسن البصري بمواعظ حسان ولو تفصينا ذلك لطلال هذا الفصل . ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك . وكتب إلى بعض عماله : أذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيلها من ليلة وياله من صباح ، وكان يوماً على الكافر بن عسيرا . وكتب إلى آخر : أذكر ك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك ، قالوا : نخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له : مالك ؟ فقال : خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

قصته

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا ، حتى أنه رد فص خاتم كان في يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملابس والمأكل والمتاع ، حتى أنه ترك التمتع بزوجه الحسنة ، فاطمة بن عبد الملك ، يقال كانت من أحسن النساء ، ويقال إنه رد جهازها إلى بيت المال ، والله أعلم . وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار ، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعين ديناراً في كل سنة ، وكان حاصله في خلافته ثلاثمائة درهم ، وكان له من الأولاد جماعة ، وكان ابنه عبد الملك أجلبهم ، فمات في حياته في زمن خلافته ، حتى يقال إنه كان خيراً من أبيه ، فلما مات لم يظهر عليه حزن ، وقال : أمر رضى الله فلا أكرهه ، وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع الابن جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جداً ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه . وكان يلبس الفرو الغليظة ، وكان سراجة على ثلاث قصبات في رأسه طين ، ولم يبن شيئاً في أيام خلافته ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، وقال : ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه ، وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشئ من النعيم ، ولا يتبعه نفسه ولا يوده . حتى قال أبو سليمان الداراني : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني ، لأن عمر ملك الدنيا بحذاقها وزهد فيها ، ولا ندرى حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب . وتقدم قول مالك بن دينار : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز . وقال عبد الله بن دينار : لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً ، وذكروا أنه أمر جارية تروحه حتى ينام فروحه ، فنامت هي ، فأخذ المروحة من يدها وجعل

يروحها ويقول : أصابك من الحر ما أصابني . وقال له رجل : جزاك الله عن الاسلام خيراً . فقال : بل جزى الله الاسلام عني خيراً . ويقال إنه كان يلبس تحت ثيابه مسحاً غليظاً من شعر ، ويضع في رقبته غللاً إذا قام يصلي من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنون أنه مالا أو جوهراً من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك المكان فإذا فيه غل ومسح .

وكان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع ، ويقال إنه بكى فوق سطح حتى سال دمه من الميزاب ، وكان يأكل من العس لسيرق قلبه وتغزر دمهته ، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أو صاله ، وقرأ رجل عنده [وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين] الآية ، فبكى بكاء شديداً ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول : اللهم سلم سلم ، وكان يقول : اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد ص . ، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ص . . وقال : أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم . وقال : لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة . وقال : الدنيا عدوة أولياء الله ، وولية أعداء الله ، أما الأولياء فمعتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء ففرتهم وشتتتهم وأبعدتهم عن الله . وقال : قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . وقال لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله . وقال : أزهدي الناس في الدنيا على بن أبي طالب . وقال : لقد بورك لعبد في حاجة أكره فيها سؤال ربه ، أعطى أو منع . وقال : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال لرجل : علم ولدك الفقه الأكبر : القناعة وكف الأذى . وتكلم رجل عنده فأحسن فقال : هذا هو السحر الحلال . وقصته مع أبي حازم مطولة حين رآه خليفة وقد شحب وجهه من التقشف ، وتغير حاله ، فقال له : ألم يكن ثوبك نقياً ؟ ووجهك وضياً ؟ وطعامك شهيياً ؟ ومركبك وطياً ؟ فقال له : ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول الله ص . قال : « إن من ورائكم عقبة كئودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فذكر أنه لقي في غشيته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعى بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم إلى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم ، ثم دعى هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلني ربي كل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ما ينتظره الموحدون . وفضائله وآثره كثيرة جداً ، وفيما ذكرنا كفاية والله الحمد والمنة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل ، وقيل سببها أن مولى له سممه في طعام أو شراب ، وأعطى على ذلك ألف

دينار ، فحصل له بسبب ذلك مرض ، فأخبر أنه مسموم ، فقال : لقد علمت يوم سقيت السم ، ثم استدعى مولاه الذي سقاه ، فقال له : ويحك ! ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ألف دينار أعطيتها . فقال : هاتها ، فأحضرها فوضعها في بيت المال ، ثم قال له : اذهب حيث لا يراك أحد قهلك . ثم قيل لعمر : تدارك نفسك ، فقال : والله لو أن شغفائي أن أمسّ شحمة أذني أو أوتى بطيب فأشمه ما فعلت ، فقيل له : هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فانهم فقراء ؟ فقال : [إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين] والله لا أعطيهم حق أحد وم بين رجلين إما صالح فالتة يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . وفي رواية فبلا أبالي في أي وادهلك . وفي رواية أفأدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت ؟ ما كنت لأفعل . ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا ، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم . قال : فلقد رأينا بعض أولاد عمر ابن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرس في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكون أولادهم إلى ما يدعون لهم ، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن أيوب قال قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة ، فإن قضى الله موتا دفنت في القبر الرابع مع رسول الله - ، وأبي بكر وعمر ، فقال : والله لأن يمدبني الله بكل عذاب ، إلا النار فانه لا صبر لي عليها ، أحب إلى من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل . قالوا : وكان مرضه بدير سمعان من قرى حصن وكانت مدة مرضه عشرين يوما ، ولما احتضر قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت ، ونهيتني فمضيت ، ثلاثا ، ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر ، فقالوا : إنك لتنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين ، فقال : إني لأرى حضرة مامم بن انس ولا جان ، ثم قبض من ساعته . وفي رواية أنه قال لأهله : اخرجوا عني ، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة ، فسمعه يقول : مرحبا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه انس ولا جان ثم قرأ [تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين] ثم هدا الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : ثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن الدراوردي عن عبد العزيز بن أبي سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب

فقرأوها فاذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . فأدخلوها بين أ كفانه ودفنوها معه .

وروى نحو هذا من وجه آخر ابن عساكر في ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده عن عمير ابن حبيب السلمي ، قال : أسرت أنا وثمانية في زمن بني أمية ، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا ، فقتل أصحابي وشفع في بطريق من بطارقة الملك ، فأطلقني له ، فأخذني إلى منزله ، وإذا له ابنة مثل الشمس ، فعرضها عليّ عليّ أن يقاسمني نعمته وأدخل معه في دينه فأبيت ، وخلصت بي ابنته فعرضت نفسها عليّ فامتنعت ، فقالت : ما يمنعك من ذلك ؟ فقلت : يمنعني ديني ، فلا أترك ديني لامرأة ولا لشيء . فقالت : تريد الذهاب إلى بلادك ؟ قلت : نعم ، فقالت : سر على هذا النجم بالليل واكن بالبار ، فانه يلقيك إلى بلادك ، قال : فسرت كذلك ، قال فبينما أنا في اليوم الرابع مكن إذا بخيل مقبلة فخشيت أن تكون في طلي ، فاذا أنا بأصحابي الذين قتلوا ومعهم آخرون على دواب شهب ، فقالوا : عمير ؟ فقلت : عمير . فقلت : لهم أوليس قد قتلتم ؟ قالوا : بلى ، ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز ، قال : ثم قال لي بعضهم : ناولني يدك يا عمير ، فأردفتي فسرنا يسيراً ثم قذف بي قذفة وقعت قرب منزلي بالجزيرة ، من غير أن يكون لحفي شر . وقال رجاء بن حيوة : كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلى أن أغسله وأكفنه ، فاذا حلت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه فادلى ، ففعلت فاذا وجهه مثل القراطيس بياضا ، وكان قد أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فاذا هي مسودة . وروى ابن عساكر في ترجمة يوسف ابن ماهر قال : بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . ساقه من طريق إبراهيم بن بشار عن عباد بن عمرو عن محمد بن يزيد البصري عن يوسف بن ماهر فذكره ، وفيه غرابة شديدة والله أعلم . وقد رأيت له منامات صالحة ، وتأسف عليه الخاصة والعامة ، لاسيما العلماء والزهاد والعباد . ورثاه الشعراء ، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيباني لكثير غزوة يرثي عمر : -

عمت صنائمه فعم هلاكه * فالتاس فيهم كلهم مأجور
والناس ماتهم عليه واحد * في كل دار رنة وزفير
يثنى عليك لسان من لم توله * خيرا لأنك بالبناء جدير
ردت صنائمه عليه حياته * فكانه من نشرها منشور

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله : -

ينعى النعمة أمير المؤمنين لنا * يا خير من حج بيت الله واعتمرا

جاءت أمراً عظيماً فاضطلعت به * وسرت فيه بأمر الله يا عمراً
الشمس كاسفة ليست بطالعة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر
وقال محارب بن دثار رحمه الله يرضى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : -
لو أعظم الموت خلقاً أن يواقع * لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نشت لهم * كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي * على الدول التي تفتالها الحفر
ثلاثة ما رأيت عيني لهم شهماً * تضم أعظمهم في المسجد الحفر
وأنت تقبهم لم تأل مجتهداً * سقياً لها سنن بالحق تغتفر
لو كنت أملك والاقدار غالباً * تأتى رواحاً وتبينا وتبتكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعة * بدير سمان لكن يغلب القدر

قالوا : وكانت وفاته بدير سمان من أرض حمص ، يوم الخميس ، وقيل الجمعة لخمس مصين ، وقيل
بقين من رجب ، وقيل لعشر بقين منه ، سنة إحدى وقيل ثلاثين ومائة ، وصلى عليه ابن عمه مسلمة
ابن عبد الملك ، وقيل صلى عليه يزيد بن عبد الملك ، وقيل ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ،
وكان عمره يوم مات تسعاً وثلاثين سنة وأشهرآ ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر ، وقيل بسنة .
وقيل بأكثر ، وقيل إنه عاش ثلاثاً وستين سنة ، وقيل ستاً وثلاثين ، وقيل سبعاً وثلاثين ، وقيل
ثمانياً وثلاثين سنة ، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها . وقال أحمد بن عبد الرزاق
عن معمر : مات على رأس خمس وأربعين سنة . قال ابن عساکر : وهذا وهم ، والصحيح الأول
تسماً وثلاثين سنة وأشهرآ . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وقيل أربعة عشر يوماً ،
وقيل سلتان ونصف .

وكان رحمه الله أسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين ، بجمته أثر شجرة
وكان قد شاب وخضب رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

فصل في أخباره

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع
الخلطاء قبله ، فقال له عمر : مالي ولك ؟ تنح عني ، إنما أنا رجل من المسلمين . ثم سار وساروا معه
حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر
عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم
من بيعتي ، فاختروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون . فصاح المسلمون ضيحة واحدة : قد اخترناك

لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطى أحداً باطلاً ، ولا أ منع أحداً حقاً . ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . ثم نزل فدخل فأمر بالاستور فتهتكت والسياب التي كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت ، وأدخل أثمانها في بيت المال ، ثم ذهب يقبواً مقيلاً ، فأناه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ما ذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني أقبل ، قال : تقبل ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟ فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ومن لك أن تمشي إلى الظهر ؟ قال : ادن مني أي بني ، فدنا منه فقبل بين عينييه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . ثم قام وخرج وترك القاتلة وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمى من أهل حمص ^(١) فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي . والعباس جالس ، فقال له عمر : يا عباس ما تقول ؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول يا ذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه . ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فمارفت إليه مظلمة لإردها ، سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم ، مما كان في أيديهم بنير استعقاق ، فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يقدم ذلك شيئاً ، فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان - وكانت عمته - فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ويستنقصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأساً ، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء ، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت إليه ، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها ، لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرع يحادثها ، فرآها غضبي وهي على غير العادة ، فقال لها عمر : يا عمه مالك ؟ فقالت : بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك ولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبون عندك فلا تنكر ؟ فضحك عمر وعلم أنها متحمة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يحادثها والنضب لا يتحيز عنها ، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد ، فقال : يا عمه ! اعلم أن النبي (ص) .

(١) في الأصل « من أهل خضر » وصحناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحوزي صفحة ١٠٤

مات وترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه ، وإيم الله لئن أبقاني الله لأردنّه إلى مجراه الأول ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالى ، والوالى لا يزيل ذلك ، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناء عنه في غيرهم ؟ فقالت : فلا يسبوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته فأخذ له بها . ذكر ذلك ابن أبى الدنيا وأبو نعيم وغيرهما ، وقد أشار إليه المؤلف إشارة خفية .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر في مرضه فاذا عليه قميص وسخ ، فقلت لفاطمة : ألا تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ماله قميص غيره ، وبكى فبكت فاطمة فبكى أهل الدار ، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : ما أبكاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني ذكرت منصرف الخلائق من بين يدي الله ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم صرخ وغطى عليه .

وعرض عليه مرة مسك من بيت المال فسدّ أنفه حتى وضع ، فقيل له في ذلك فقال : وهل ينتفع من المسك إلا بريجه ؟ ولما احتضر دعا بأولاده وكانوا بضعة عشر ذكراً ، فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسى الفتية . وكان عمر بن عبد العزيز يمثل كثيراً بهذه الأبيات : —

يزى مستكيناً وهو للقول ماقت * به عن حديث القوم ما هو شاغل
وأزعجة علم عن الجهل كله * وما عالم شيئاً كمن هو جاهل
عبوس عن الجهال حين يراهم * فليس له منهم خدين يهازله
تذكر ما يبقى من العيش فارغى * فأشغله عن عاجل العيش آجله

وروى ابن أبى الدنيا عن ميمون بن مهران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربرى وهو ينشده شعراً ، فأنهى في شعره إلى هذه الأبيات : —

فكم من صحيح بات للهوت آمناً * أتته المنايا بغتة بعد ما جمع
فلم يستطع إذ جاء الموت بنته * فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكي النساء مقنماً * ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحيد فصار مقيله * وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموت الغنى لاله * ولا معدماً في المال إذا حاجة يدع

وقال رجا بن حيوة : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده

في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال يزيد يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرأى - يعنى عمر ابن عبد العزيز - قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين ، في بيتين في داره مملوءين ، وهما مَقْفُولَان على ذلك الدر والجوهر . فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغنى أن عمر خان جوهرآ ودرآ في بيتين مَقْفُولَيْن . فأرسلت إليه : يا أخى ما ترك عمر من سبد ولا لبد ، إلا ما فى هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فله فوجد فيه قيصا غليظا مرقوعا ، ورداه قشبا ، وجبة محشوة غليظة واهية البطانة . فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هذا أريد ، إنما أسأل عما فى البيتَيْن . فأرسلت تقول له : والذي فجئنى بأمر المؤمنين ما دخلت هذين البيتَيْن منذ ولى الخلافة ، لم ألقى بكراهته لذلك ، وهذه مفاتيحهما فتعال فقول ما فيهما لبيت مالك . فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ففتح أحد البيتَيْن فاذا فيه كرسي من آدم وأربع أجرآت ميسوطات عند الكرسي ، وققم . فقال عمر بن الوليد : أستغفر الله ، ثم فتح البيت الثانى فوجد فيه مسجداً مفروشا بالحصى ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبة ، وربما كان يضعها إذا نكس لئلا ينام ، ووجدوا صندوقا مقفلا ففتح فوجدوا فيه سيفا ففتح فيه دراعة وتبآن ، كل ذلك من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال : يرحمك الله يا أخى ، إن كنت لنتى السريرة ، نقى العلانية . وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قلت ما قيل لى .

وقال رجاء : لما احتضر جعل يقول : اللهم رضى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيرها ، ولا لما أخرت تعجيلها . فلا زال يقول ذلك حتى مات . وكان يقول : لقد أصبحت ومالى فى الأمور هوى إلا فى مواضع قضاء الله فيها .

وقال شعيب بن صفوان : كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة : أما بعد يا عمر فإنه قد ولى الخلافة والملك قبلك أقوام ، فأتوا على ما قد رأيت ، واتوا الله فرادى بعد الجوع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون ، فانفقت عيנם التى كانت لا تنفأ تنظر لذاتها ، وانفذت رقابهم غير مؤسدين بعد لين الوسائد ، ونظاير الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وانشقت بطونهم التى كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال والأطعمة ، وصاروا جيفا بعد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا إلى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهم ، ولنفر منهم ، بعد إنفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والسياب الفاخرة اللينة ، كانوا ينفقون الأموال إسرافا فى أغراضهم وأهوائهم ، ويقترون فى حق

الله وأمره ، فان استطعت أن تلقاهم يوم القيامة وهم محبوسون مرتبهون بما عليهم ، وأنت غير محبوس ولا مرتبه بشئ فافعل ، واستعن بالله ولا قوة إلا بالله تشيحه .

وما ملك عما قليل بسالم * ولو كثرت أحراسه ومواكبه
ومن كان ذاباب شديد وحاجب * فما قليل بهجر الباب حاجبه
وما كان غير الموت حتى تفرقت * إلى غيره أعوانه وحبايبه
فأصبح مسروراً به كل حاسد * وأسلم أصحابه وحبايبه
وقيل إن هذه الأبيات لغيره .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص : حدثنا عاصم بن عامر حدثنا أبي عن عبد ربه بن أبي هلال عن ميمون بن مهران قال : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهط من إخوانه ففتح له منطق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين امض في موعظتك فاني أرجو أن ين الله به على من سمعه أو بلغه ، فقلت إليك عني يا أبا أيوب ، فان في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ، والفعال أولى بالؤمن من المقال . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور !! وروى عبد الرزاق قال : سمعت ميمراً يذكر قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة - وبلغه عنه بعض ما يكره - : أما بعد فانه غرتي بك بحالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت الملاينة فأحسننا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون .

وروى الطبراني والدارقطني وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم إلى عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له : أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد في أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ، ممن قد حارب سنته ، وكفوا مؤنته ، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها - أو قال دليل عليها - فمليك لزوم السنة ، فانه إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل ، والحق والخطأ والتعمق ، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وإنما كان عملهم على الأسد ، ولو كان فيما يحملون أنفسهم فضل لسكانوا فيه أخرى ، وإليه أجرى ، لأنهم السابقون إلى كل خير ، فان قلت : قد حدث بعدم خير ، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وحاد عن طريقهم ، ورغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فأين لا أين ، فمن دونهم مقصر ، ومن فوقهم غير محسن ، ولقد

قصر أقوام دينهم فحفوا ، وطمح عنهم آخرون ففلوا ، فرحم الله ابن عبد العزيز . ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة ، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء وغيرهم ؟ فرحمه الله وعفا عنه .

وروى الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ عن سعيد بن أبي مرثد عن رشيد بن سعيد قال : حدثني عقيل عن شهاب عن عمر بن عبد العزيز . قال : سن رسول الله (ص) ، وخلفاؤه بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في رأى من خالفها ، فمن اقتدى بما سبق هدى ، ومن استبصر بها أبصر ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيرا .

وأمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم فقال في خطبته : إني لم أجمعكم إلا أن المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحق ، والمكذب له كافر . ثم تلا قوله تعالى [ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم] وقوله تعالى [وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون]

وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أرسل أولاده مع مؤدب لهم إلى الطائف يعلمهم هناك ، فكتب إليه عمر : بشئ ما علمت ، إذ قدمت إمام المسلمين صبييا لم يعرف النية - أولم تدخله النية - ذكره في كتاب النية له . وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الرقة والبكاء ، عن مولى لعمر بن عبد العزيز أنه قال له : يا بني ليس الخير أن يسمع لك وتطاع ، وإنما الخير أن تكون قد غفلت عن ربك عز وجل ثم أظمته ، يا بني لا تأذن اليوم لأحد على حتى أصبح ويرتفع النهار ، فاني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني ، فقال له مولاه : رأيته البارحة بكيت بكاء ما رأيته بكيت مثله ، قال فبكيت ثم قال : يا بني إني والله ذكرت الوقوف بين يدي الله عز وجل . قال : ثم غشى عليه فلم يفق حتى علا النهار ، قال : فما رأيته بعد ذلك متبسا حتى مات .

وقرأ ذات يوم [وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا] الآية ، فبكى بكاء شديدا حتى مغمى عليه أهل الدار ، فجاءت فاطمة فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما ، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال ، فقال له : يا أبة ما يبكيك ؟ فقال : يا بني خير ، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار .

وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنبري . قال : رأيت عمر بن عبد العزيز

خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ، وراه خبشي يمشي ، فلما انتهى إلى الناس رجع الخبشي ، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال : هكذا رحكما الله ، حتى صعد المنبر فخطب فقرأ [إذا الشمس كورت] فقال : وما شأن الشمس [وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت] فبكى وبكى أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكي معه ، ودخل عليه أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين جاءت بي إليك الحاجة ، وانتهيت إلى الغاية ، والله سائلك عني . فبكى عمر وقال له : كم أنتم ؟ فقال : أنا وثلاث بنات . ففرض له على ثلثمائة ، وفرض لبناته مائة مائة ، وأعطاه مائة درهم من ماله ، وقال له : اذهب فاستنقعها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم .

وجاءه رجل من أهل أذربيجان فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غدا بين يدي الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، من يوم تلقاه بلائقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال له : ما حاجتك ؟ فقال : إن عاملك بأذربيجان عبدا علي فآخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال . فقال عمر : اكتبوا له الساعة إلى عاملها ، فليرد عليه ، ثم أرسله مع البريد . وعن زياد مولى ابن عياش قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز في ليلة باردة شاتية ، فجعلت أصطلي على كائوت هناك ، فجاء عمر وهو أمير المؤمنين فجعل يصطلي معي على ذلك الكائوت ، فقال لي : يا زياد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قص علي ، قلت ما أنا بفاس ، فقال : تكلم ، فقلت زياد ، فقال : ماله ؟ قلت : لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة ، فقال : صدقت ، ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذي في الكائوت .

وقال له زياد العبدي : يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف واعملها في الخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه ما أنت فيه ، ثم قال له زياد : يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله ؟ قال : سيء الحال ، قال : فان كانا خصمين أدين ؟ قال : فهو أسوأ حالا ، قال : فان كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حيث لا يهنته عيش . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد (ص) إلا وهو خصمك ، قال : فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة وأهل البصرة : أما بعد فان من الناس من شاب في هذا الشراب ، وينشون عنده أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وسفه أعلامهم ، فسفكوا له الدم الحرام ، وارتكبوا فيه الفروج الحرام ، والمال الحرام ، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال ، فن انقبت فلا يفتند إلا من أسقية الأدم ، واستغنوا بما أحل الله عما حرم ، فانا من وجدناه شرب شيئا مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه ، جعلنا له عقوبة شديدة ،

ومن استخف بما حرم الله عليه فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلا

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويج له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولي الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، فلما توفي عمر في رجب من هذه السنة - أغنى سنة إحدى ومائة - بإيمه الناس البيعة العامة ، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة ، فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، فجرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات وضغائن ، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحده حدين فيها

وفيهما كانت وقعة بين الخوارج ، وهم أصحاب بسطام الخارجي ، وبين جنود الكوفة ، وكانت الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس ، وكادت الخوارج أن تكسرهم ، فندامروا بينهم فطحنوا الخوارج طحناً عظيماً ، وقتلوا من آخرهم ، فلم يبقوا منهم نائمة . وفيها خرج يزيد بن المهلب فخلع يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة ، وذلك بعد محاصرة طويلة ، وقتال طويل ، فلما ظهر عليها بسط الدمل في أهلها ، وبذل الأموال ، وحبس عاملها عدى ابن أرطاة ، لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة ، حين هرب يزيد بن المهلب من محبس عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا ، ولما ظهر على قصر الأمارة أتى بعدى بن أرطاة فدخل عليه وهو يضحك ، فقال يزيد بن المهلب : إني لأعجب من ضحكك ، لأنك هربت من القتال كما تهرب النساء ، وإنك جئتني وأنت تثلُّ كما يثل العبد . فقال عدى : إني لأضحك لأن بقائي بقاء لك وأن من ورائي طالبا لا يتركني ، قال : ومن هو ؟ قال : جنود بني أمية بالشام ، ولا يتركونك ، فدارك نفسك قبل أن يرمى إليك البحر بأواجه ، فطالب الأقالمة فلا تقال . فرد عليه يزيد جواب ما قال ، ثم سمعته كما سمعنا أهله ، واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة ، وبعث نوابه في النواحي والجهات ، واستناب في الأهواز ، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان ، ووجه جماعة من المقاتلة ، فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف ، مقدمة بين يدي عمه مسلمة بن عبد الملك ، وهو في جنود الشام ، قاصدين البصرة لقتاله ، ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مروان بن المهلب ، وجاء حتى نزل واسط ، واستشار من معه من الأمراء فيما ذا يعتمد ؟ فاختلفوا عليه في الرأي ، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن في رؤس الجبال ، فقال : إنما تريدون أن نجعلوني طائراً في رأس جبل ؟ وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها بأحسن حصن فيها ، ويجمع

عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام ، وانسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط وجيش الشام قاصده .
وحج بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة ، وعلى مكة عبد العزيز
ابن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعلى
قضاها عامر الشعبي ، وعلى البصرة يزيد بن المهلب . قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد
ابن عبد الملك . وفيها توفي عمر بن عبد العزيز ، ورعي بن حراش ، وأبو صالح السلمى وكان عابداً
صادقاً ثباتاً ، وقد ترجمناه في كتابنا التكميل والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

فيها كان اجتماع مسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب ، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من
واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وسار هو في جيش ، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب ،
حتى بلغ مكاناً يقال له المقر ، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك في جنود لا قبل ليزيد بها ، وقد
التقت المقدمةان أولاً فاقتلوا قتالاً شديداً ، فهزم أهل البصرة أهل الشام ، ثم تذاصر أهل الشام
فحملوا على أهل البصرة فهزمهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان ، منهم المنتوف ، وكان شجاعاً
مشهوراً ، وكان من موالى بكر بن وائل ، فقال في ذلك الفرزدق :

تبكى على المنتوف بكر بن وائل * وتنهى عن ابني مسمع من بكاهما

فأجابه الجعد بن درهم مولى الثوريين من همدان ، وهذا الرجل هو أول الجهمية ، وهو الذي
ذبحه خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى فقال الجعد :-

نبكى على المنتوف في نصر قوم * وليتنا نبكى الشائد بن أباهما

أرادا فناء الحى بكر بن وائل * فعز تميم لو أصيب فئاهما

فلا لقيا روحاً من الله ساعة * ولا رقأت عينا شجى بكاهما

أفى الفش نبكى إن بكينا عليهما * وقد لقيا بالفش فينا رداها

ولما اقترب مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب ، خطب يزيد بن
المهلب الناس وحرضهم على القتال - يعنى قتال أهل الشام - وكان مع يزيد نحو من مائة ألف ،
وعشرين ألفاً ، وقد بايعوه على السمع والطاعة ، وعلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله ، وعلى أن
لا يظأ الجنود بلادهم ، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج ، ومن بايعنا على ذلك قبلنا
منه ، ومن خالفنا قاتلناه .

وكان الحسن البصرى في هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة ،
وينهاهم أشد النهى ، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث ، وما قتل بسبب

ذلك من النفوس العديدة ، وجعل الحسن يخطب الناس ويظهرهم في ذلك ، ويأمرهم بالكف ، فبلغ ذلك نائب البصرة عبيد الملك بن المهلب ، فقام في الناس خطيباً فأمرهم بالجد والجهاد ، والنفر إلى القتال ، ثم قال : ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يسمه - يثبط الناس ، أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولأفعلن ، وتوعد الحسن ، فلما بلغ الحسن قوله قال : أما والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه ، فسلمه الله منه حتى زالت دولتهم ، وذلك أن الجيوش لما تواجعت تبارز الناس قليلاً ، ولم ينشب الحرب شديداً حتى فر أهل العراق سريماً ، وبلغهم أن الجسر الذي جاؤا عليه حرق فانهمزموه ، فقال : يزيد بن المهلب : ما بال الناس ؟ ولم يكن من الأمر ما يفر من مثله ، فقليل له : إنه بلغهم أن الجسر الذي جاؤا عليه قد حرق . فقال : قبحهم الله ، ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ، فثبت في عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي في شردمة قليلة ، وهو مع ذلك يسير قدما لا يمر بخيل إلا هزمهم ، وأهل الشام يتجاورون عنه يميناً وشمالاً ، وقد قتل أخوه حبيب بن المهلب ، فازداد حنقا وغيظاً ، وهو على فرس له أشهب ، ثم قصد نحو مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما واجهه حملت عليه خيول الشام فقتلوه ، وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب ، وقتلوا السبيذع ، وكان من الشجعان ، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب رجل يقال له القجل بن عياش ، فقتل إلى جانب يزيد ابن المهلب ، وجاؤا برأس يزيد إلى مسلمة بن عبد الملك ، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، واستخوذ مسلمة على مافي معسكر يزيد بن المهلب ، وأسر منهم نحواً من ثلاثمائة ، فبعث بهم إلى الكوفة ، وبعث إلى أخيه فيهم ، فجاء كتابه بقتلهم ، فسار مسلمة فنزل الحيرة

ولما انتهت هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط ، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيراً في يده فقتلهم ، منهم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، عدى بن أرطاة رحمه الله وابنه ، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع ، وجماعة من الأشراف ، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال ، وجاء معه عمه الفضل بن المهلب إليه ، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أنتم الجهار واستعدوا للهرب ، فساروا بعيالهم وأثقالهم حتى أتوا جبال كرمان فنزلوها ، واجتمع عليهم جماعة ممن قل من الجيش الذي كان مع يزيد بن المهلب ، وقيد أمروا عليهم الفضل بن المهلب ، فأرسل مسلمة جيشاً عليهم هلال بن ماجور الحاربي في طلب آل المهلب ، ويقال إنهم أمروا عليهم رجلاً يقال له مدرك بن ضب الكلبي ، فلاحقهم بجبال كرمان فاقتلوا هنالك قتلاً شديداً ، فقتل جماعة من أصحاب الفضل وأسرجاعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم ، ثم حرقوا الفضل فقتلوه وحمل رأسه إلى مسلمة بن عبد الملك ، وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أماناً من أمير الشام

منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي ، ثم أرسلوا بالآثقال والأموال والنساء والذرية فوردت على مسلة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب ، فبعث مسلة بالرؤس وتسعة من الصبيان الحسان إلى أخيه يزيد ، فأمر بضرب أعناق أولئك ، ونصبت رؤسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها ، وحلف مسلة بن عبد الملك لبييعن ذراري آل المهلب ، فاشترام بعض الأمراء إيراداً لقسمه بمائة ألف ، فأعتقهم وبخلى سبيلهم ، ولم يأخذ مسلة من ذلك إلا مير شيئا وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ذكرها ابن جرير .

ولاية مسلة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة ، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة ، وبعث إلى خراسان ختنة - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، الملقب بخديته ، فسار إليها فخرض أهلها على الصبر والشجاعة ، وعاقب عمالا ممن كان ينوب لآل المهلب ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة ، ومات بعضهم تحت العقوبة .

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك ، بعث جيشاً إلى الصفد لقتال المسلمين ، عليهم رجل منهم يقال له كورصول ، فأقبل حتى نزل على قصر الباهلي ، فحصره وفيه خلق من المسلمين ، فصالحهم نائب سمرقند - وهو عثمان بن عبيد الله بن مطرف - على أربعين ألفاً ، ودفع إليهم سبعة عشر دهنقانا رهائن عندهم ، ثم ندب عثمان الناس فانتدب رجل يقال له المسيب بن بشر الرياحي في أربعة آلاف ، فساروا نحو الترك ، فلما كان في بعض الطريق [خطبهم] فحنهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة ، فرجع عنه أكثر من ألف ، ثم لم يزل في كل منزل يخطبهم ويرجع عنه بعضهم ، حتى بقي في سبعمائة مقاتل ، فسار بهم حتى غالق جيش الأتراك ، وهم محاصرو ذلك القصر ، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه على قتل نساءهم وذبح أولادهم أمامهم ، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم ، فبعث إليهم المسيب يثبثهم يومهم ذلك ، فثبتوا ومكث المسيب حتى إذا كان وقت السحر فكبر وكبر أصحابه ، وقد جعلوا شعارهم يا محمد ، ثم حملوا على الترك حملة صادقة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعقروا دواب كثيرة ، ونهض إليهم الترك فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى فرأ أكثر المسلمين ، وضربت دابة المسيب في عجزها فترجل وترجل معه الشجعان ، فقاتلوا وهم كذلك قتالاً عظيماً ، والتف الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم ، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لا يلوون على شيء ، وقد كان الأتراك في غاية الكثرة ، فنادى منادى المسيب :

أن لا تتبعوا أحدا ، وعليكم بالقصر وأهله ، فاحتملوهم وحازوا مافي معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين ، وجاءت الترك من الغد فلم يجدوا به داعياً ولا نجيباً ، فقالوا في انفسهم : هؤلاء الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنسا ، إنما كانوا جنأ . ومن توفي فيها من الأعيان والسادة :

الضحاك بن مزاحم الهلالي

أبو القاسم ، ويقال أبو محمد ، الخراساني ، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسابور ، وهو تابعي جليل روى عن أنس وابن عمر وأبي هريرة ، وجماعة من التابعين ، وقيل إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس سماع ، وإن كان قد روى عنه أنه جاوره سبع سنين ، وكان الضحاك إماما في التفسير ، قال الثوري : أخذوا التفسير عن أربعة ، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ، وقال الإمام أحمد : هو ثقة ، وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس ، وقال : إنما أخذ عن سعيد عنه ، وقال ابن سعيد القطان : كان ضعيفا . وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : لم يشافه أحداً من الصحابة ، ومن قال : إنه لقي ابن عباس فقد وهم ، وحملت به أمه سنتين ، ووضعته وله أسنان ، وكان يعلم الصبيان حسبة ، وقيل إنه مات سنة خمس وقيل سنة ست ومائة والله أعلم .

أبو المتوكل الناجي

اسمه علي بن البصري ، تابعي جليل ، ثقة ، رفيع القدر ، مات وقد بلغ الثمانين رحمه الله تعالى ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

فيها عزل أمير العراق وهو عمر بن هبيرة سعيد - الملقب خدينة - عن نيابة خراسان ، وولى عايبها سعيد بن عمرو الجريشي ، باذن أمير المؤمنين ، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين ، انزعج له الترك وخافوه خوفا شديداً ، وتقهقروا من بلاد الصفد إلى ماوراء ذلك ، من بلاد الصين وغيرها ، وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس بين إمرة المدينة وإمرة مكة ، وولى عبد الرحمن الواحد بن عبد الله النضري نيابة الطائف . وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن ابن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان :

يزيد بن أبي مسلم

أبو العلاء المدني . عطاء بن يسار الهلالي ، أبو محمد القاص المدني ، مولى ميمونة ، وهو أخو سليمان ، وعبد الله ، وعبد الملك ، وكلمهم تابعي . وروى هذا عن جماعة من الصحابة ، ووثقه غير واحد من الأئمة ، وقيل إنه توفي سنة ثلاث أو أربع ومائة ، وقيل توفي قبل المائة بالأسكندرية ، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم .

مجاهد بن جبير المكي

أبو الحجاج القرشي الخزومي ، مولى السائب بن أبي السائب الخزومي ، أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخصاء أصحاب ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، حتى قيل إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاوس ، وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابي وقال : وددت أن ابني سالما وغلami نافعاً يحفظان حفظك . وقيل إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقيل مرتين ، أفقه عند كل آية وأسأله عنها ، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة ، وقيل إحدى وقيل ثنتين وقيل ثلاث ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقد جاوز الثمانين والله أعلم .

فضائله

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم ، عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وابن عمرو وأبي سعيد ورافع بن خديج . وعنه خلق من التابعين . قال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا عبد الرزاق عن أبي بكر بن عياش قال : أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول : قال لي ابن عباس : لا تنامن إلا على وضوء فان الأرواح تبعث على ما قبضت عليه . وروى الطبراني عنه أنه قال في قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن) قال : يسلم عليه إذا لقيه وقيل هي المصافحة . وروى عمرو بن مرة عنه أنه قال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتق لا يأخذك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حاجة . وروى ابن أبي شيبه عن أبي أمامة عن الأعشى عن مجاهد . قال : كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة ، عندم رأس شاة فأصابوا شيئاً ، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا ، فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولاً . وروى ابن أبي شيبه عن أبي الأحوص عن منصور عن مجاهد قال : ما من مؤمن يموت إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً . وقال : فلا نفسهم يمدون . قال : في القبر . وروى الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبانة عن مجاهد قال : كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف ، فإذا بلغوا أوصاف الحرم خلعوا ثيابهم ثم دخلوا الحرم حفاة . وقال يحيى بن سعيد القطان قال مجاهد في قوله تعالى : [يا مريم اقنتي لربك] قال : اطلبي الركود . وفي قوله تعالى : [واستغفر من استغفرت منهم بصوتك] قال المزمار . وقال في قوله تعالى [أنكالا وجعيا] قال : قيود . وقال في قوله : [لا حجة بيننا وبينكم] قال لا خصومة . وقال : [ثم لتسألن يومئذ عن النعيم] قال : عن كل لذة في الدنيا . وروى أبو الديبع عن جرير ابن عبد الحسيب عن منصور عن مجاهد . قال : رن إبليس أربع رنات ، حين لمن ، وحين أهبط ،

وحين بعث النبي (ص) وحين أنزلت [الحمد لله رب العالمين] وأنزلت بالمدينة . وكان يقال : الرنة والخرة من الشيطان ، فلمن من رن أو نخر . وروى ابن نجيح عنه في قوله تعالى [أتبنون بكل ريع آية تعبثون] قال : بروج الحمام . وقال في قوله تعالى [أنفقوا من طيبات ما كسبتم] قال : التجارة . وروى ليث عن مجاهد قال [إن الذين ظالوا ربنا الله ثم استقاموا] قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا . وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن ابن أبيجر عن طلحة بن مصرف عن مجاهد [ولم يكن له كفوا أحد] قال : صاحبة . وقال ليث عن مجاهد قال : النملة التي كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم

وروى الطبراني عن أبي نجيح عن مجاهد . قال : كان الغلام من قوم عاد لا يتحتم حتى يبلغ مائتي سنة . وقال : [سأل سائل] دعا داع . وفي قوله [ماء غدقا لنفثهم فيه] حتى يرجعوا إلى على فيه [لا يشركون بي شيئا] قال لا يحبون غيري . [الذين يمكرون السيئات] قال هم المراؤون . وفي قوله تعالى : [قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله] قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم . ثم قرأ [وذكروا بآيات الله] قال : آياته نعمه ونقمه . [فردوه إلى الله والرسول] فردوه إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيا ، فإذا مات فإلى سنته . [وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة] قال : أما الظاهرة فلا سلام والقرآن والرسول والرزق ، وأما الباطنة فإسائر من العيوب والذنوب . وروى الحكم عن مجاهد قال : لما قدمت مكة نساء على سليمان عليه السلام رأته حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان : هل يعرف مولاك كم وزن دخان هذا الحطب ؟ فقال الغلام : دعى مولاي أنا أعرف كم وزن دخانه ، فكيف مولاي ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق الحطب ويوزن رماده فما نقص فهو دخانه . وقال في قوله تعالى : [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين . وقال ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يفيض خاتمه . وقال في قوله تعالى : [يؤتى الحكمة من يشاء] قال : العلم والفقه ، وقال إذا ولي الأمر منكم الفقهاء . وفي قوله تعالى : [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] قال : البدع والشبهات . وقال : أفضل العبادة الرأي الحسن - يعني اتباع السنة - وقال : ما أدرى أي النعمتين أفضل ، أن هداني للإسلام ، أو عافاني من الأهواء ؟ . وقال في رواية : ألو الأمر منكم ، أصحاب محمد ، وربما قال : أولو العقل والفضل في دين الله عز وجل [بما صنعوا قارعة] قال السرية . [بل يخلق ما لا تعلمون] . قال : السوس في الثياب . [وهن العظام مني] قال : الأضراس . [حفيا] قال رحبا . وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : وجدت في كتاب محمد بن أبي حاتم بخط يده : حدثنا

بشر بن الحارث حدثنا يحيى بن يمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال : لو أن رجلاً أنفق مثل أحد في طاعة الله عز وجل لم يكن من المسرفين . وفي قوله تعالى [وهو شديد المحال] قال : العداوة [بينهما برزخ لا يبغيان] قال : بينهما حاجز من الله فلا يبغي الخلو على المالح ولا المالح على الخلو . وقال ابن منده : ذكر محمد بن حميد : حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش قال : كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها ، قال : وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت قال : وذهب إلى بابل قال : وعليها وال صديق لمجاهد : فقال مجاهد : تعرض علي هاروت وماروت ، قال : فدعا رجلاً من السحرة فقال : اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت . فقال اليهودي : بشرط أن لا تدعو الله عندهما ، قال مجاهد : فذهب بي إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال : خذ برجلي ، فهو بي حتى انتهى إلى حوبة ، فاذا هما معلقين منكسين كالجبليين العظيمين ، فلما رأتهما قلت : سبحان الله خالقكما ، قال : فاضطر با فكان جمال الدنيا قد تدككت ، قال : فغشي على وعلى اليهودي ، ثم أفاق اليهودي قبلي ، فقال : قم اكدت أن تهلك نفسك وتهلكوا .

وروى ابن فضيل عن ليث عن مجاهد قال : يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر ، بالغيث ، والمريض ، والعبد المملوك . قال : فيقول الله عز وجل للغيث : ما شغلك عن عبادتي التي إني خلقتك لها ؟ فيقول : يارب أكثر لي من المال فطغيت . فيؤتى يسليمان عليه السلام في ملكه فيقول لدا : أنت كنت أكثر مالا وأشد شغلا أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يارب ، فيقول الله له : فإن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتي . قال : ويؤتى بالمريض فيقول : ما منعتك عن عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب شغلني عن هذا مرض جسدي ، فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضره وبلائه ، فيقول له : أنت كنت أشد ضرا ومرضاً أم هذا ؟ فيقول : بل هذا ، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتي . ثم يؤتى بالمملوك فيقول لله : ما منعتك من عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول رب فضلت علي أرباباً فملكوني وشغلوني عن عبادتك . فيؤتى بيوسف عليه السلام في رقه وعبوديته فيقول الله له : أنت كنت أشد في رقبك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يارب ، فيقول الله : فإن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتي ، وروى حميد عن الأعرج عن مجاهد . قال : كنت أصحب ابن عمر في السفر فاذا أرهت أن أركب مسك ركابي ، فاذا ركبت سويحي علي ثيابي فرآني مرة كأني كرهت ذلك في ، فقال : يا مجاهد إنك لصديق الخلق ، وفي رواية من صحبته ابن عمر وأنا أريد أن أخدعه فكان يخدمني .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن رجل عن مجاهد . قال : جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء ، وجعل له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها

منهم . وقال : لما هبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء . وروى قتيبة عن جرير عن منصور عن مجاهد . [وياهمم اللاعنون] قال : تلعن عصاة بني آدم دواب الأرض وماشاء الله حتى الحيات والعقارب : يقولون : منعنا القطر بذنوب بني آدم . وقال غيره : تسلط الحشرات على العصاة في هجورهم ، لما كان ينالهم من الشدة بسبب ذنوبهم : فتلك الحشرات من العقارب والحيات هي السيئات التي كانوا يعملونها في الدنيا ويستلذونها ، صارت عذاباً عليهم . نسأل الله العافية . وقال : [إن الإنسان لربه لكنود] لكفور . وقال الامام أحمد : حدثنا عمر بن سليمان حدثني مسلم أبو عبد الله عن إيث عن مجاهد قال : من لم يستحي من الحلال خفت مؤنته وأراح نفسه . وقال عمرو بن زروق حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد . قال [فظن أن لن نقدر عليه] أن لن نعاقبه بذنبه . وبهذا الاسناد قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى قمتها في قراءة عبد الله بيتاً من ذهب . وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا خلف بن خليفة عن إيث عن مجاهد : إن الله عز وجل ليصلح بإصلاح العبد ولده . قال : وبلغني أن عيسى عليه السلام كان يقول : طوبى للمؤمن كيف يخلفه الله فيمن ترك بحير . وقال الفضيل بن عياض عن عبيد المكتب عن مجاهد في قوله تعالى [وتقطعتم بهم الأسباب] الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا . وروى سفيان بن عيينة عن سفيان الثوري عن ابن أبي مجيع عن مجاهد في قوله تعالى : [لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة] قال : إلا الله عز وجل . وقال في قوله تعالى [بقية الله خير لكم] طاعة الله عز وجل . وفي قوله تعالى [ولن خاف مقام ربه جنتان] قال : هو الذي يذكر الله عند الهم بالمعاصي . وقال الفضيل بن عياض عن منصور عن مجاهد : [سيام في وجوههم] الخشوع . وفي قوله تعالى . [وهوموا لله قانتين] قال القنوت الركود والخشوع وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله . وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره أو يلتفت أو يقلب الحصا ، أو يعيث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا . إلا خاشعاً مادام في صلاته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عمرو وحدثنا ابن إدريس حدثني عقبة بن إسحاق - وأثنى عليه خيراً - حدثنا إيث عن مجاهد . قال : كنت إذا رأيت العرب استخفيتها وجدتها من وراء دينها ، فإذا دخلوا في الصلاة فكأنما أجساد ليست فيها أرواح . وروى الأعمش عنه قال : إنما القلب منزلة الكف ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا - وضم الخنصر حتى ضم أصابعه كلها أصبغاً أصبغاً - قال : ثم يطبع ، فكأنوا يرون ذلك الران : قال الله تعالى : [كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون] وروى قبيصة عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد : [بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته] قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبني على الشيء المحيط ، كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب حتى تكون هكذا - ثم قبض يده - ثم قال : مؤالان . وفي قوله : [بما

قدم وآخر [قال : أول عمل العبد وآخره [وإلى ربك فارغب] قال : إذا فرغت من أمر الدنيا فممت إلى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ، ونيتك له .

وعن منصور عن مجاهد [النفس المطمئنة] قال : هي النفس التي قد أيقنت أن الله ربهما وضربت حاشا لأمره وطاعته . وروى عبد الله بن المبارك عن ليث عن مجاهد : قال : ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه ، إن كان من أهل الذكر فن أهل الذكر ، وإن كان من أهل اللهوف فن أهل اللهوف . وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد . قال : قال إبليس : إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال : أخذ مال بغير حق ، وإففاقه في غير حقه (١) وقال أحمد : حدثنا ابن نمير قال قال الأعشى : كنت إذا رأيت مجاهداً ظننت أنه حر منديج قد ضل حماره فهو مهم . وعن ليث عن مجاهد قال : من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه . وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد قال قال لي : يا أبا النازي كم لبث نوح في الأرض ؟ قال : قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال : فإن الناس لم يزدادوا في أعمارهم وأجسادهم وأخلاقهم إلا نقصاً ، وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي علي عن ليث عن مجاهد قال : ذهبت العلماء فما بقي إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم . وروى ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن إدريس عن ليث عن مجاهد قال : لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أن حياء منه يمنعه من المعاصي لكان في ذلك خير . وقال : الفقيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه . وقال : إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه . وقال في قوله تعالى : [وثيابك فطهر] قال : عمالك فأصاح ، [واسألوا الله من فضله] قال : ليس من عرض الدنيا [والذي جاء بالصدق وصدق به] قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . وقال : يقول القرآن للعبد إني معك ما اتبعتني ، فإذا لم تعمل بي اتبعتك . [ولا تنس نصيبك من الدنيا] قال : خذ من دنياك لا آخرتك ، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل . وقال داود بن المحبر عن عباد بن كثير عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه مجاهد بن جبير قال : قلت لابن عمر : أي حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجراً ؟ قال : من جمع ثلاث خصال ، نية صادقة ، وعقلاً وافراً ، ونفقة من حلال ، فذكرت ذلك لابن عباس فقال : صدق . فقلت : إذا صدقت نيته وكانت نفقته من حلال فماذا يضره قلة عقله ؟ فقال : يا أبا حجاج ، سألتني عما سألت عنه رسول الله ص ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أطاع العبد الله بشيء أفضل من حسن العقل ، ولا يقبل الله صوم عبد ولا صلاته ، ولا شيئاً مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل . ولو أن جاهلاً فاق المجتهدين في العبادة ، كان ما يفسد أكثر (١) كذا بالأصل . . .

ما يصلح . قلت : ذكر العقل في هذا الحديث ورفعته إلى النبي (ص) من المنكرات والموضوعات ،
والثلاث الخصال موقوفة على ابن عمر ، من قوله من جمع ثلاث خصال ، إلى قوله : قال ابن عباس
سدى ، والباقي لا يصح رفعه ولا وقفه ، وداود بن المحبر كنيته أبو سليمان ، قال الحاكم : حدث ببغداد
عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة ، حدث بها عنه الحارث بن أبي أسامة ، وله كتاب العقل ،
وأكثر ما أودع ذلك الكتاب موضوع على رسول الله (ص) ، وذكر العقل مرفوعاً في هذه الرواية
له من جعلتها ، والله أعلم . وقد كذب أحمد بن حنبل (١)

مصعب بن سعد بن أبي وقاص

تابعي جليل القدر . موسى بن طلحة بن غبيد الله التميمي ، كان يلقب بالمهدي لصلاحه ، كان
تابعياً لجليل القدر من سادات المسلمين رحمه الله

ثم دخلت سنة أربع ومائة

فيها قاتل سعيد بن عمرو الحرشي نائب خراسان أهل الصفد وحاصر أهل خجندة وقتل خلقاً
كثيراً ، وأخذ أموالاً جزيلة ، وأسر رقيقاً كثيراً جداً ، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك ،
لأنه هو الذي ولاه . وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن
ابن الضحاك بن قيس ، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح
عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب
الطائف فولاه المدينة ، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين
وهو متكئ على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب
إلى دمشق واستجار بمسلة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال : إن لي إليك حاجة ، فقال : كل
حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال : هو والله حاجتي ، فقال : والله لا أقبلها ولا
أعفو عنه ، فردّه إلى المدينة فتسلحه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأل
الناس بالمدينة ، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهر ، وكان الزهري قد أشار عليه برأى
سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ، ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء
ثم كان هذا آخر أمره .

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي ، وذلك أنه كان يستخف بأمر ابن هبيرة ،
فلما عزله أحضره بين يديه وعاقبه وأخذ منه أموالاً كثيرة ، وأمر بقتله ثم عفا عنه ، وولى على
خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلبي ، فسار إليها فاستخلص أموالاً كانت منكسرة في

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة من المصرية .

أيام سعيد بن عمرو الحرشي . وفيها غزا الجراح بن عبد الله الحكيم نائب أرمينية وأذربيجان ، أرض الترك ، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذراهم في الماء ، وسبى منهم خلقا كثيرا ، وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر ، وأجلى عامة أهلها ، والتقى هو والحقان الملك فجرت بينهما وقعة هائلة آل الأبر فيها إلى أن انهزم خاقان ، وتبعهم المسلمون ، قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير لا يحصون . وحج بالناس في هذه السنة عبيد الواحد بن عبد الله النضري أمير الحرمين والطائف ، وعلى نيابة العراق وخراسان عمر ، ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ . وفي هذه السنة ولد السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح ، أول خلفاء بني العباس وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق . وفيها توفي من الأعيان :

خالد بن معدان الكلاعي

[له روايات عن جماعة من الصحابة ، وكان تابعيا جليلا ، وكان من العلماء وأئمة الدين المعدودين المشهورين ، وكان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم ، وكان إمام أهل حمص ، وكان يصلي التراويح في شهر رمضان ، فكان يقرأ فيها في كل ليلة ثلث القرآن ، وروى الجوزجاني عنه أنه قال : من اجتراً على الملاوم في سراد الحق ، قلب الله تلك المحامد عليه ذما . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين . عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته ، فإذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته وهما غيب ، فأمن الغيب بالنيب ، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه ، فتراه ينظر فلا ينتفع ، فإذا نظر بقلبه انتفع ، وقال : بصر القلب من الآخرة ، وبصر العينين من الدنيا وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى (١)

عامر بن سعد بن أبي وقاص الليثي

له روايات كثيرة عن أبيه وغيره ، وهو تابعي جليل ، ثقة مشهور

عامر بن شراحيل الشعبي

توفي فيها في قول [كان الشعبي من شعب همدان ، كنيته أبو عمرو ، وكان علامة أهل الكوفة ، كان إماماً حافظاً ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين ، وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين ، قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبي . وقال مكحول : ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه . وقال داود الأودي : قال لي الشعبي : قم معي ها هنا حتى أفيدك علماً ، بل هو رأس العلم . قلت : أي شيء تفيدني ؟ قال : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، فانه

(١) زيادة من المصرية .

علم حسن . وقال : لو أن رجلاً سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيها يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعاً ، ولو سافر في طلب بلاد نيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد ، لرأيت سفره عقوبة وضائعاً . وقال : العلم أكثر من عدد الشعر ، نخذ من كل شيء أحسنه [(١)] .

أبو بردة بن أبو موسى الأشعري

تولى قضاء الكوفة قبل الشعبي ، فان الشعبي تولى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، واستمر إلى أن مات ، ولما أبو بردة كان قاضياً في زمن الحجاج ، ثم عزله الحجاج وولى أخاه أبا بكر ، وكان أبو بردة فقيهاً حافظاً عالماً ، له روايات كثيرة .

أبو قلابة الجرمي

[عبد الله بن يزيد البصري ، له روايات كثيرة من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان من كبار الأئمة والفقهاء ، وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب ، قدم الشام فقتل دارياً وبها مات رحمه الله . قال أبو قلابة : إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ، ولم يكن همك ما تحدث به الناس ، فلمل غيرك يفتنك ويستغنى وأنت في الظلمة تتمتع ، وإني لأرى هذه المجالس إنما هي مناهج البطالين . وقال : إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فأنس له عذراً جهلك ، فان لم تجد له عذراً فقل : لعل لأخى عذراً لا أعلمه] (٢) ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد اللان ، وفتح حصونا كثيرة ، و بلاداً متسعة الأكناف من وراء بلنجر ، وأصاب غنائم جمّة ، وسبي خلقاً من أولاد الأتراك . وفيها غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد ، فصلى عليه ملكها على مال كثير بحملة إليه . وفيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم ، فبعث بين يديه سرية ألف فارس ، فأصيبوا جميعاً وفيها لحس بقين من شعبان منها توفي أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بأربد من أرض البلقاء يوم الجمعة ، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين ، وهذه ترجمته :

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قيل إنها دفنت بقرع عاتكة فنسبت الحلة إليها والله أعلم . بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومائة بعد من أخيه سليمان ، أن يكون الخليفة بعد عمر ابن عبد العزيز ، لحس بقين من رجب ، قال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر ابن برقان حدثني الزهري قال : كان لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم في عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلما ولي الخلافة معاوية ورث المسلم من الكافر . ولم يرث الكافر من

المسلم ، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده ، فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى ، وتبعه في ذلك يزيد بن عبد الملك ، فلما قام هشام أخذ بسنة الخلفاء - يعني أنه ورث المسلم من الكافر - وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : بينما نحن عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسع له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ، يتعلم التواضع .

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولي عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز ، فسا تركه قرناه السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرمة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، فكث كذلك أربعين ليلة ، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب ، وقد اتهم بعضهم في الدين ، وليس بصحيح ، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي ، أما هذا فما كان به بأس ، وقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز : أما بعد فإني لأراي إلا ملماً بي ، وما أرى الأمر إلا سيفضى إليك ، فالله الله في أمة محمد ، فانك عما قليل ميت فتدع الدنيا إلى من لا يمدرك ، والسلام . وكتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام : أما بعد فإن أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة ، وكتب في آخره

تفى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم * متى ميت ما الباغى على بمخلد
منيته تجري لوقت وحفته * يصادفه يوماً على غير موعد
قل للذي يبقى خلاف الذي مضى * تهياً لأخرى مثلها وكأن قدر

فكتب إليه هشام : جعل الله يومى قبل يومك ، وولدى قبل ولدك ، فلا خير في العيش بعدك وقد كان يزيد هذا يحب حظية من خطاياها يقال لها حبابة - بتشديد الباء الاولى - والصحيح تخفيفها - واسمها العالية ، وكانت جميلة جداً ، وكان قد اشتراها في زمن أخيه بأربعة آلاف دينار ، من عثمان بن سهل بن حنيف ، فقال له أخوه سليمان : لقد هممت أحجر على يدك ، فباعها ، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سعدة يوماً : يا أمير المؤمنين ، هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، حبابة ، فبعثت امرأته فاشتريتها له ولبستها وصنعتها وأجلستها من وراء الستارة ، وقالت له أيضاً : يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : أو ما أخبرتك ؟ فقالت : هذه حبابة - وأبرزتها له وأخلته بها وتركنه وإياها - لحظيت الجارية عنده ، وكذلك زوجته أيضاً ، فقال يوماً أشتهي أن أخلو بحبابة في قصر مدة من الدهر ، لا يكون عندنا أحد ، ففعل ذلك ، وجمع إليه في قصره ذلك حبابة ، وليس عنده فيه أحد ، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط المائلة ، والنعمة الكثيرة السابقة ،

فبينما هو معها في ذلك القصر على أسر حال وأنعم بال ، وبين يديهما عذب يأكلان منه ، إذ رماها بحجة عذب وهي تضعك فشرقت بها فماتت ، فمكث أياما يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى أنقنت وجيئت فأمر بدفنها ، فلما دفنها أقام أياما عندها على قبرها هائما ، ثم رجع إلى المنزل ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول :

فان تسلُ عتلك النفسُ أو تدعُ الصبا * فبالياس تساو عتكَ لا بالتجلدِ

وكلُّ خليلٍ زارني فهو قاتلٌ * من أجلك هذا هامة اليوم أو غدِ

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنمسه وكان مرضه بالسل . وذلك بالسواد سواد الاردن يوم الجمعة لحس بقين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة خمس ومائة -

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل أقل من ذلك ، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وقيل ستا وقيل ثمانياً وقيل تسماً وثلاثين ، وقيل إنه بلغ الأربعين فآله أعلم . وكان طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه أقصم الفم لم يشب ، وقيل إنه مات بالجولان ، وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد ، وعمره خمس عشرة سنة ، وقيل بل صلى عليه أخوه هشام بن عبيد الملك ، وهو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد ههد بالأمر من بعده لأخيه هشام ، ومن بعده لولده الوليد بن يزيد ، فبايع الناس من بعده هشاماً

خليفة هشام بن عبد الملك بن مروان

ببيع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه لحس بقين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة خمس ومائة - وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر ، لأنه ولد لما قتل أبوه عبيد الملك مصعب بن الزبير في سنة ثلاثين وسبعين ، فسماه منصور اتفاؤلاً ، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام ، فأقره . قال الواقدي : أتته الخلافة وهو بالديثونة في منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة فركب من الرصافة حتى أتى دمشق ، فقام بأمر الخلافة أتم القيام ، فعزل في شوال منها عن إمرة العراق وخراسان عمر بن هبيرة ، وولى عليها خالد بن عبد الله القسري ، وقيل إنه استعمله على العراق في سنة ست ومائة ، والمشهور الأول . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الحزومي خال أمير المؤمنين ، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل ، ولم تلد من عبيد الملك سواء حتى ملقها ، لأنها كانت حمقاء . وفيها قوى أمر دعوة بني العباس في السرب أرض العراق ، وحصل لدعاتهم أموال جزيلة يستعينون بها على أمرهم ، ومأمم بصدده . وفيها توفي من الأعيان :

أبان بن عثمان بن عفان

تقدم ذكر وفاته سنة خمس وثمانين ، كان من فقهاء التابعين وعلمائهم ، قال عمرو بن شعيب

ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقہ ، وقال يحيى بن سعيد القطان : فقهاء المدينة عشرة ، فله كرابان بن عثمان أحدهم ، وخارجة بن زيد ، وسالم بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة ، وعروة ، والقاسم ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبوسلمة بن عبد الرحمن . قال محمد ابن سعد : كان به صمم ووضح ، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة ، وتوفي سنة خمس ومائة . أبورجاء العطاردي . عامر الشعبي . في قول وقد تقدم ، وكثير عزة في قول . وقيل في التي بعدها كما سيأتي :

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف ، عبد الواحد بن عبد الله النضري ، وولى على ذلك كله ابن خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي ، وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة ، وفيها غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها ، فلقية عندها الترك ، وكانت بينهم وقعة هائلة ، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك ، وفيها أوغل الجراح الحكني في أرض الخزر ، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج . وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللان ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم وسلم . وفيها عزل خالد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان مسلم بن سعيد ، وولى عليها أخاه أسد بن عبد الله القسري . وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين هشام بن الملك ، وكتب إلى أبي الزناد قبل دخوله المدينة ليتلقاه ويكتب له مناسك الحج ، ففعل ، فتلقيه الناس من المدينة إلى أثناء الطريق ، وفيهم أبو الزناد قد أمثل ما أمر به ، وتلقاه فيمن تلقاه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن أهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون آبائهم ، فالعنه أنت أيضاً ، قال أبو الزناد : فشق ذلك على هشام واستثقله ، وقال : ما قدمت لشم أحد ، ولا لعنة أحد ، إنما قدمنا حجاجاً . ثم أعرض عنه وقطع كلامه وأقبل على أبي الزناد يحادثه ولما انتهى إلى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة فتظلم إليه في أرض ، فقال له : أين كنت عن عبد الملك ؟ قال : ظلمني ، قال : فالوليد ؟ قال : ظلمني ، قال : فسليمان ؟ قال : ظلمني ، قال فمصر ابن عبد العزيز ؟ قال ردها علي ، قال : فزيد ؟ قال : انتزعها من يدي ، وهي الآن في يدك ، فقال له هشام : أما لو كان فيك مضرب يضرب بك ، فقال : بلى في مضرب بالسوط والسيف ، فانصرف عنه هشام وهو يقول لمن معه : ما رأيت أفصح من هذا . وفيها كان الهمام على مكة والمدينة والطائف ، إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وعلي العراق وخراسان خالد القسري والله سبحانه أعلم . ومن توفي فيها : سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمرو الفقيه ، أحد الفقهاء وأحد العلماء وله روايات عن أبيه وغيره ، وكان من العباد الزهاد ، ولما حج هشام بن عبد الملك دخل

الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : سالم ؟ ^(١) سئلت حاجة ، فقال : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج بسالم خرج هشام في أثره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسئلت حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال : من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألكم من لا يملكها ؟ وكان سالم خشن الميش ، يلبس الصوف الخشن ، وكان يعالج بيده أرضاله وغيرها من الأعمال ، ولا يقبل من الخلفاء ، وكان متواضعا وكان شديد الأدمة وله من الزهد والورع شيء كثير .

وطاوس بن كيسان اليامي من أكبر أصحاب ابن عباس وقد ترجمنا في كتابنا التكميل والله الحمد انتهى وقد زدنا هنا في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب زيادة حسنة . فأما طاوس فهو أبو عبيد الرحمن طاوس بن كيسان اليامي ، فهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن .

أدرك طاوس جماعة من الصحابة وروى عنهم ، وكان أحد الأئمة الأعلام ، قد جمع العبادة والزهادة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وقد أدرك خمسين من الصحابة ، وأكثر روايته عن ابن عباس ، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم ، منهم مجاهد وعطاء وعمر بن دينار ، وإبراهيم بن ميسرة ، وأبو الثبير ومحمد بن المنكدر ، والزهرى وحبيب بن أبي ثابت ، وليث بن أبي سليم ، والضحاك بن مزاحم . وعبد الملك بن ميسرة ، وعبد الكريم بن الحارث ووهب بن منبه ، والمغيرة بن حكيم الصنعاني ، وعبد الله بن طاوس ، وغير هؤلاء .

توفي طاوس بمكة حاجا ، وصلى عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ، ودفن بهارحه الله تعالى . قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال قال أبي : مات طاوس بمكة فلم يعملوا عليه حتى يموت هشام ابنه بالحرس ، قال فلقد رأيت عبد الله بن الحسن واضعا السرير على كاهله ، قال : ولقد سقطت قلنسوة كانت عليه ومزق رجاؤه من خلفه - يعني من كثرة الزحام - فكيف لا وقد قال النبي (ص) : « الايمان يمان » وقد خرج من اليمن خلق من هؤلاء المشار إليهم في هذا وغيره ، منهم أبو مسلم ، وأبو إدريس ، ووهب وكمب وطاوس وغير هؤلاء كثير . وروى ضمرة عن ابن شاذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة خمس ومائة ، فجمعوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعين حجة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا أبي قال : توفي طاوس بالمزدلفة - أو يعني - حاجا ، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن علي بقائمة سريره . فمأزاه حتى بلغ القبر . وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق

قال : قدم طاوس بمكة ، فقدم أمير المؤمنين ، فقبل طاوس : إن من فضله ومن ، ومن ، فلو أتيتك
قال : مالى إليه حاجة ، فقالوا : إنا نخاف عليك ، قال : فما هو إذا كما تقولون : وقال ابن جرير قال لى
عطاء : جاءنى طاوس فقال لى : يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل
دونه حجاباً . وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعده
الاجابة . وقال ابن جرير عن مجاهد عن طاوس [أوائلك ينادون من مكان بعيد] قال : بعيد من
قلوبهم ، وروى الأحجري عن سفيان عن ليث قال قال لى طاوس : ما تعلمت من العلم فتعلمه
لنفسك ، فان الأمانة والصدق قد ذهباً من الناس . وقال عبد الرحمن بن مهدى عن حماد بن زيد
عن الصلت بن راشد . قال : كنا عند طاوس فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم ، صاحب خراسان ،
فسأله عن شيء فأنهره طاوس ، فقلت : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ، قال : ذاك
أهون له على . وقال لطاوس : إن منزلك قد استرم ، فقال : أمسينا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس فى قوله تعالى [وخلق الانسان ضعيفا] قال : فى
أمر النساء ، ليس يكون فى شيء أضعف منه فى النساء . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا يحيى بن
بكير حدثنا إبراهيم بن نافع عن ابن طاوس عن أبيه قال : لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس
فقال إبليس لعيسى : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم ، قال إبليس : فأوف
بذروة هذا الجبل فتد منه . فانظر أتعيش أم لا ، قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يجرى
عبدى ، فأتى أفعل ما شئت . وفى رواية عن الزهرى عنه قال قال عيسى : إن العبد لا يختبر ربه ،
ولكن الرب يختبر عبده ، وفى رواية أخرى : إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الرب يبتلى عبده .
قال : فخصمه عيسى عليه السلام . وقال فضيل بن عياض عن ليث عن طاوس قال : حج الأبرار
على الرجال ، رواء عبد الله بن أحمد عنه .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو ثيملة عن ابن أبى داود . قال : رأيت طاوساً وأصحاباً له إذا صلوا
المصر استقبلوا القبلة ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا إلى الله تعالى فى الدعاء . وقال : من لم يبخل ولم
يل مال يقيم لم ينله جهد البلاء . روى عنه أبو داود الطيالسى ، وقد رواء الطبرانى عن محمد بن
يحيى بن المنذر عن موسى بن إسماعيل عن أبى داود فذكره . وقال لابنه : يا بنى صاحب العقلاء
تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، واعلم أن
لكل شيء غاية : وغاية المرء حسن عقله . وسأله رجل عن مسألة فأنهره ، فقال : - يا أبا عبد الرحمن
إني أخوك ، قال : أخى من دون الناس ؟ . وفى رواية أن رجلاً من الخوارج سأله فأنهره ، فقال :
إني أخوك ، قال : أمن بين المسلمين كلهم ؟ . وقال عفان عن حماد بن زيد عن أبوب قال : سأل

رجل طاوساً عن شئ فأنهره ، ثم قال : تريد أن تجعل في عنق جبار ثم يطاف بي ؟ ورأى طاوس رجلاً مسكيناً في عينه عمش وفي ثوبه وسخ ، فقال له : عد ! إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟ وروى الطبراني عنه قال : إقرار ببعض الظلم خير من القيام فيه ، وعن عبد الرزاق عن داود ابن إبراهيم أن الأسد حبس الناس ليلة في طريق الحج ، فدى الناس بعضهم بعضاً ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد ، فنزل الناس يمينا وشمالاً فألقوا أنفسهم ، وقام طاوس يصلي ، فقال له رجل - وفي رواية فقال ابنه - : ألا تنام فانك قد سهرت ونصبت هذه الليلة ؟ فقال : وهل ينام السحر أحد ؟ وفي رواية : ما كنت أظن أحداً ينام السحر . وروى الطبراني عن طريق عبد الرزاق عن أبي جريح وابن عيينة . قالوا : حدثنا ابن طاوس قال : قلت لأبي : ما أفضل ما يقال على الميت ؟ قال الاستغفار .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت النعمان بن الزبير الصنعائي يحدث أن محمد بن يوسف - أو أيوب بن يحيى - بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار وقال للرسول : إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك . قال : نخرج بها حتى قدم على طاوس الجند ، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك ، فقال : مالي بها من حاجة ، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، فغفل طاوس فرمى بها الرجل من كوة في البيت ثم ذهب راجعاً إلى الأمير ، وقال : قد أخذها ، فكشوا حيناً ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون - أو شئ يكرهونه - فقالوا : اذهبوا إليه فليبعث إلينا بمالنا ، فجاء الرسول فقال : المال الذي بعثه إليك الأمير رده إلينا ، فقال : ما قبضت منه شيئاً ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذي ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاء فقال : المال الذي جئتكم به يا أبا عبد الرحمن ، قال : هل قبضت منك شيئاً ؟ قال : لا ! قال : فقام إلى المكان الذي رمى به فيه فوجدتها كما هي ، وقد بنت عليها المنكبوت ، فأخذها فذهب بها إليهم .

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال : انظروا إلى قبة أسأله عن بعض الناسك ، قال : نخرج الحاجب يلتصق له ، فرطاوس فقالوا : هذا طاوس البجلي ، فأخذته الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : اعفني ، فأبى ، فأدخله عليه ، قال طاوس : فلما وقفت بين يديه قلت : إن هذا المقام يسألني الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفاً حتى استقرت في قرارها ، أتدري لمن أعدها الله ؟ قال : لا ! ويلك لمن أعدها الله ؟ قال : لمن أشركه الله في حكمه فجاء . وفي رواية ذكرها الأزهري أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالببيت ، له جمال وكال ، فقال : من هذا يا زهري ؟ فقلت : هذا طاوس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل

إليه سليمان فأتاه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني أبو موسى قال : قال رسول الله (ص) : « إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولي من أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم » . فتغير وجه سليمان فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني رجل من أصحاب النبي (ص) . قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد علياً . قال : دعاني رسول الله (ص) ، إلى طعام في مجلس من مجالس قریش ، ثم قال : « إن لكم على قریش حقاً ، ولهم على الناس حق ، يا إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا ائتمنوا أدبوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . قال : بتغير وجه سليمان وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : [واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثني أبو معمر عن ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة قال قال عمر بن عبد العزيز لطاوس : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعني سليمان - فقال طاوس مالى إليه من حاجة ، فكأنه عجب من ذلك ، قال : سفيان وحلف لنا إبراهيم وهو مستقبل الكعبة : ورب هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلا طاوس . قال : وجاء ابن سليمان بن عبد الملك فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟ قال : أردت أن يعظم هو وأبوه أن الله عباداً يزهدون فيهم وفيما في أيديهم . وقد روى عبد الله بن أحمد عن ابن طاوس قال : خرجنا حجلاً فترلنا في بعض القرى ، وكنت أخاف أبى من الحكم لشدة غلظه عليهم ، قال : وكان في تلك القرية عامل لمحمد بن يوسف - أخى الحجاج بن يوسف - يقال له أيوب بن يحيى ، وقيل يقال له ابن نجيع ، وكان من أخبث عمالهم كبراً وتجبراً ، قال : فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ، فإذا ابن نجيع قد أخبر بطاوس . فجاء فقمع بين يدي طاوس ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم كلمه فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قنت إليه وأخذت بيده ثم قلت له : إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، فقال طاوس : بلى ! إني به لعارف ، فقال الأمير : إنه بي لعارف ، ومعرفة بي فعلت بي ما رأيت . ثم مضى وهو ساكت لا يقول شيئاً ، فلما دخلت المنزل قال لي أبى : يا لك ، بينما أنت تقول أريد أخرج عليهم بالسيف لم تستطع أن تجلس عنهم لسانك .

وقال أبو عبد الله الشامي : أتيت طاوساً فاستأذنت عليه فخرج إلى ابنه شيخ كبير ، فقلت : أنت طاوس ؟ فقال : لا ! أنا ابنه ، فقلت : إن كنت أنت ابنه فإن الشيخ قد خرف ، فقال : إن العالم لا يخرف ، فدخلت عليه فقال طاوس : سل فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أوجزت لك ،

يقال تريد أن أجمع لك في مجلسي هذا التوراة والانجيل والفرقان ؟ قال : قلت نعم ! قال : خف
الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منك منه ، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس
ما تحب لنفسك .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه .
قال : سيحيا يوم القيامة بالمال وصاحبه فيحتاجان ، فيقول صاحب المال لأمين : جمعتك في يوم كذا
في شهر كذا في سنة كذا ، فيقول المال : ألم أقض لك الحوائج ؟ أنا الذي حلت بينك وبين أن
تصنع فيما أمرك الله عز وجل من حجتك إلي ، فيقول صاحب المال إن هذا الذي نفذ على حبال أولئك
بها وأقيد ، وقال عثمان بن سائب شيبه : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن الضريس عن أبي سنان عن حبيب
ابن أبي ثابت قال : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم قط ، عطاء وطاوس ، ومجاهد
وسعيد بن جبير ، وعكرمة . وقال سفيان : قلت لعبيد الله بن أبي يزيد : مع من كنت تدخل على
ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والمسامة ، وكان طاوس يدخل مع الخاصة ، وقال حبيب : قال لي طاوس
إذا حدثت حديثا قد أثبتني فلا تسأل عنه أحدا - وفي رواية - فلا تسأل عنه غيري .

وقال أبو أسامة ، حدثنا الأعمش عن عبد الملك بن ميسرة عن طاوس قال : أدركت خمسين من
أصحاب رسول الله ص . . . وقال الأمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أخبرني ابن طاوس
قال : قلت لأبي : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها ، قال : فذهبت فلبست من
صالح ثيابي ، وغسلت رأسي ، واذننت ، فلما رأيته في تلك الحال قال : اجلس فلا تذهب . وقال
عبد الله بن طاوس : كان أبي إذا سار إلى منكة سار شهراً ، وإذا رجع رجع في شهر ، فقلت له في
ذلك قال : بلغني أن الرجل إذا خرج في طاعة لا يزال في سبيل الله حتى يرجع إلى أهله . وقال حمزة
عن هلال بن كعب . قال : كان طاوس إذا خرج من اليمن لم يشرب إلا من تلك الميساء القديمة
الجاهلية ، وقال له رجل : ادع الله لي ، فقال : ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس
عن أبيه . قال : كان رجل فيما خلا من الزمان ، وكان عاقلاً ليلاً ، فكبر فقمع في البيت ، فقال
لابنه يوماً : إني قد اغتممت في البيت ، فلو أغلقت علي رجلاً يكلموني ؟ فذهب ابنه فجمع نفراً
فقال : ادخلوا على أبي فحدثوه ، فإن سمعتم منه منكرًا فاعندوه فإنه قد كبر ، وإن سمعتم منه خيراً
فاقبلوه . قال : فدخلوا عليه فكان أول ما تكلم به أن قال : إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز
العجز الفجور ، وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح ، فإذا اطلعتم على فجرة رجل فاحذروه
فإن لها أخوات

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا أحمد بن نصر بن مالك حدثنا عبد الله بن عمر بن مسلم الجبيري عن أبيه قال قال طاوس لابنه : إذا قبرتنى فانظر في قبري ، فإن لم تجدني فاحمد الله تعالى ، وإن وجدتني فانا لله وإنا إليه راجعون . قال عبد الله : فأخبرني بعض ولده أنه نظر فلم يره ولم يجد في قبره شيئاً ، ورؤى في وجهه السرور ، وقال قبيصة : حدثنا سفيان عن سعيد بن محمد قال : كان من دعاء طاوس يدعو : اللهم احرمنى كثرة المال والولد ، وارزقنى الإيمان والعمل . وقال سفيان عن معمر حدثنا الزهري قال : لو رأيت طاوس بن كيسان علمت أنه لا يكذب .

وقال عون بن سلام : حدثنا جابر بن منصور - أخو إسحاق بن منصور - السلولي عن عمران ابن خالد الخزاعي . قال كنت جالساً عند عطاء فجاء رجل فقال : أبا محمد إن طاوساً يزعم أن من صلى العشاء ثم صلى بعدها ركعتين يقرأ في الأولى : ألم تنزل السجدة ، وفي الثانية تبارك الذي بيده الملك كتب له مثل وقوف عرفة وليلة القدر . فقال عطاء : صدق طاوس ما تركتهما . وقال ابن أبي السري : حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل ، وكان ربما داوى المجانين ، وكانت امرأة جميلة ، فأخذها الجنون ، فجى بها إليه ، فنزلت عنده فأعجبته ، فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : إن علم بها انتضحت ، فأقتلها وادفنها في بيتك ، فقتلها ودفنها ، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها ، قال : ماتت ، فلم يهتموه لصلاحة ومنزلته ، فجاءهم الشيطان فقال : إتهام تمت ، ولكن قد وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها في بيته ، في مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ماتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها ، ومن كان معك ؟ فنبشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذوه فحبسوه وسجنوه ، فجاءه الشيطان فقال : أنا صاحبك ، فإن كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله فأطاع الشيطان فكفر بالله عز وجل ، فقتل فتبرأ منه الشيطان حينئذ . وقال طاوس : ولا أعلم أن هذه الآية نزلت إلا فيه وفي مثله [كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين] .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل له أربعة بنين ، فرض ، فقال أحدهم : إما أن تمرضوا أبانا وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء ، فرضه حتى مات ودفنه ولم يأخذ من ميراثه شيئاً ، وكان فقيراً وله عيال ، فأتى في النوم فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فاحفره تجد فيه مائة دينار نفذها ، فقال للآتي في المنام : بركة أو بلا بركة ؟ فقال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت : اذهب نفذها فإن من بركتها أن تكسوني منها ونعيش منها . فأبى وقال : لا آخذ شيئاً ليس فيه بركة . فلما أسى أتى في منامه فقيل له : إيت مكان كذا وكذا نفذ

منه عشرة دنانير ، فقال : بركة أو بلا بركة ؟ قال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك فأبى أن يأخذها ، ثم أتى في الليلة الثالثة فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : بركة أو بلا بركة ؟ قال : بركة ، قال ، نعم إذاً ، فلما أصبح ذهب إلى ذلك المكان الذي أشير إليه في المنام فوجد الدينار فأخذه ، فوجد صياداً يحمل حوتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار ، فأخذهما منه بذلك الدينار ثم انطلق بهما إلى امرأته فقامت تصلحهما ، فشقت بطن أحدهما فوجدت فيه درة لا يقوم بها شيء ، ولم ير الناس مثلها ، ثم شقت بطن الآخر فإذا فيه درة مثلها ، قال : فاحتاج ملك ذلك الزمان درة فبهت يطلبها حيث كانت ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فقال الملك : إيت بها ، فأتاه بها ، فلما رآها حلاها الله عز وجل في عيبيه ، فقال : بعنيها ، فقال : لا أنقصها عن وقر ثلاثين بغلاً ذهباً ، فقال الملك : أرضوه ، فخرجوا به فوقروا له ثلاثين بغلاً ذهباً ، ثم نظر إليها الملك فأعجبته إعجاباً عظيماً ، فقال : ما تصلح هذه إلا بأختها ، اطلبوا لي أختها ، قال : فأتوه فتألوها له : هل عندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . فأتى الملك بها ، فلما رآها أخذت بقلبه فقال أرضوه ، فأضغفوا له ضعف أختها ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا وهيب بن الورد حدثنا عبد الجبار بن الورد قال حدثني داود ابن سابور قال قلنا لطاوس : أدع بدعوات ، فقال : لا أجدها لك حسبة . وقال ابن جرير عن ابن طاوس عن أبيه قال : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يحب أن له ما في أيدي الناس بالحرام لا يفتن : وقيل الشح هو ترك القناعة ، وقيل : هو أن يشح بما في يد غيره ، وهو مرض من أمراض القلب ينبغي للعبد أن يميزه عن نفسه وينفيه ما استطاع ، وهو يأمرنا بالبخل كما في الحديث الصحيح عن النبي .س. قال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم » [أمرهم] بالبخل فبخلوا وبالقطيعة ففعلوا وهذا هو الحرص على الدنيا وحبها ، وقال ابن أبي شيبة : حدثنا الحارثي عن ليث عن طاوس قال : ألا رجل يقوم بمشرايت من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ، ومن زاد زيد في ثوابه ، وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا سفیان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس . قال : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج . وعن سفیان عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال لي طاوس : لتسكن أولاً قولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو مجور . وقال طاوس : لا يجر زدين المؤمن إلا حفرته . وقال عبد الرزاق عن معمر بن طاوس وغيره أن رجلاً كان يسير مع طاوس ، فسمع الرجل غراباً ينحب ، فقال : خير ، فقال طاوس : أي خير عند هذا أو شر لا تصحبني ولا تمش معي . وقال بشر بن موسى : حدثنا الحيدى حدثنا سفیان عن ابن طاوس عن أبيه . قال : إذا غدا الإنسان اتبعه الشيطان ، فإذا أتى المنزل فسلم نكس الشيطان

وقال : لا مقيل ، فاذا أتى بغدائه فذكر اسم الله قال : ولا غداء ولا مقيل ، فاذا دخل ولم يسلم قال الشيطان : أدركنا المقيل ، فاذا أتى بغدائه ولم يذكر اسم الله عليه قال الشيطان : مقيل وغداء ، وفي الغشاء مثل ذلك . وقال : إن الملائكة يكتبون صلاة بني آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص فيها كذا وكذا . وذلك في الركوع والخشوع والسجود .

وقال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة ، فلما خلق آدم سكنت ، وكان إذا سمع صوت لرعد يقول : سبحان من سبحت له . وقال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح قال قال مجاهد لطاوس يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصلي في الكعبة والنبي صلى الله عليه وآله علي بابها يقول لك : اكشف قناعك ، وبين قراءتك . فقال له : اسكت لا يسمع هذا منك أحد . ثم تخيل إلى أن انبسط في الحديث . وقال أحمد أيضا بهذا الأسناد : إن طاوسا قال لأبي نجيح : يا أبا نجيح ! من قال واتق الله خير ممن صمت واتق . وقال مسعر عن رجل إن طاوسا أتى رجلا في السحر فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن يزيد حدثنا ابن يمان عن مسعود ، فذكره . قال الثوري : كان طاوس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك فقال : حيف الأئمة وفساد الناس .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال أخبرني أبي قال : كان طاوس يصلي في غداة باردة ممتمة ، فربه محمد بن يوسف صاحب اليمن وحاجبها - وهو أخو الحجاج بن يوسف - وطاوس ساجد ، والأمر راكب في مركبه ، فأمر بساج أو طيلسان مرتفع القيمة فطرح على طاوس وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته ، فلما سلم نظر فاذا الساج عليه فانتفض فألقاه عنه ، ولم ينظر إليه ونضى إلى منزله وتركه ملقى على الأرض . وقال نعيم بن حماد : حدثنا حماد بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أفيته في مرضه ، فلما مرض الامام أحمد أن فقيل له : إن طاوسا كان يكره أن ينال المرض فتركه . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبيه عن داود بن شاور . قال : قال رجل لطاوس : ادع الله لنا ، فقال : ما أجد بقلبي خشية فأدعوك . وقال ابن طلوت : حدثنا عبد السلام بن هاشم عن الحسن بن أبي الحصين العنبري . قال : مرّ طاوس برواس قد أخرج رؤسا ففشي عليه . وفي رواية كان إذا رأى الرأس المشوية لم يتعش تلك الليلة .

وقال الامام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الأشجعي عن سفيان الثوري . قال قال طاوس إن الموتى يفتنون في قبورهم مغبا ، وكأنا يستحبون أن يطعمهم عنهم تلك الأيام . وقال ابن إدريس : سمعت لينا يذكّر عن طاوس وذكر النساء فقال : فيهن كفر من مضي وكفر من بقى . وقال

أبو عاصم عن بقیة عن سلمة ابن وهرام عن طاوس قال : كان يقال : اسجد للقرد في زمانه ، ای
أطعمه في المعروف . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أسامة حدثنا نافع بن عمر عن بشر بن عاصم .
قال قال طاوس : ما رأيت مثل ^(١) أحد آمن على نفسه ، ولقد رأيت رجلاً لو قيل لي : من أفضل من
تعرف ؟ قلت : فلان ذلك الرجل ، فكشفت على ذلك حينئذ أخذه وجع في بطنه ، فأصاب منه شيئاً
استنضح بطنه عليه ، فاشتبه ، فرأيت في نطح ما أدرى أي طرفيه أسرع حتى مات عزفاً . وروى
أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن طاوس أنه رأى فتية من قريش يرفلون في مشيتهم ،
فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباءكم تلبسها ، وتمشون مشية ما يحسن الزفافون أن يمشوها .
وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أن طاوساً قام على رفيق له مرض حتى فاته الحج - لعله
هو الرجل المتقدم قبل هذا استنضح بطنه - وقال مسعر بن كدام عن عبد الكبير المعلم قال طاوس
قال ابن عباس : سئل النبي (ص) : من أحسن قراءة ؟ قال : « من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى
الله عز وجل » . وقد روى هذا أيضاً من طريق ابن لميعة عن عمرو بن دينار عن طاوس قال قال
ابن عباس : إن النبي (ص) قال : « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به » . وعنه عن
عبد الله بن عمرو بن العاص قال : رأي رسول الله (ص) ، وعلى ثوبان معصفران فقال : « أملك
أمرتك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : بل أحدهما » رواه مسلم في صحيحه عن داود بن راشد عن
عمر بن أبوب عن إبراهيم بن نافع عن سليمان الأحول عن طاوس به .

وروى محمد بن مسلمة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عمرو قال قال رسول الله
(ص) : « الجلاوة والشرط واعوان الظلمة كلاب النار » . انفرد به محمد بن مسلم الطالقي

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن الأثماطي البغدادي حدثنا عبد المنعم بن إدريس
حدثنا أبي عن وهب بن منبه عن طاوس عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله (ص) يقول
لعلي بن أبي طالب : « يا علي استكثر من المعارف من المؤمنين فكم من معرفة في الدنيا بركة في
الآخرة » . فمضى على فأقام حيناً لا يلقى أحداً إلا اتخذته للآخرة ، ثم جاء من بعد ذلك فقال له
رسول الله (ص) : « ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قال : قد فعلت يا رسول الله ، فقال له النبي (ص) :
إذهب قابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي (ص) وهو منكسر رأسه ، فقال له النبي (ص) : اذهب
قابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي (ص) تبسم [فقال] : ما أحسب يا علي ثبت معك إلا أبناء
الآخرة ؟ فقال له علي : لا والذي بعثك بالحق ، فقال له النبي (ص) : [الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدو إلا المتقين يا عبادي لاخوف عليكم] يا علي أقبل على شأنك ، واملك لسانك ، وأغفل من

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : ما رأيت مثلي أحداً آمناً .

نعلم من أهل زمانك تكن سالماً غامماً . لم يرو إلا من هذا الوجه فيما نعلم والله أعلم

ثم دخلت سنة سبع ومائة

فيها خرج باليمن رجل يقال له عباد الرعيف فسدعا إلى منذهب الخوارج واتبعه فرقة من الناس وحملوا فقاتلهم يوسف بن عمر فقتله وقتل أصحابه ، وكانوا ثلاثمائة . وفيها وقع بالشام طاعون شديد ، وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة وعلى جيش أهل الشام مبدون بن مهران ، فقطعوا البحر إلى قبرص وغزا مسلمة في البر في جيش آخر . وفيها ظفر أسد بن عبد الله القسري بجماعة من دعاة بني العباس بخراسان فصلبهم وأشهرهم . وفيها غزا أسد القسري جبال نمرود ، ملك القرقيسيان ، مما يلي جبال الطالقان ، فصالحه نمرود وأسلم على يديه . وفيها غزا أسد الغور - وهي جبال هراة - فعمد أهلها إلى حواصلهم وأموالهم وأثقالهم فحملوا ذلك كله في كهف منيع ، لا سبيل لأحد عليه ، وهو مستعمل جداً ، فأمر أسد بالرجال فحملوا في توايت ودلام إليه ، وأمر بوضع ما هنالك في التوايت ورفعهم فسلموا وغنموا ، وهذا وأى شديد . وفيها أمر أسد بجمع ماحول بلخ إليها . واستناب عليها برمك والدة خالد بن برمك وبنائها بناء جيداً محكماً وحصنها وجعلها معقداً للمسلمين . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين . ومن توفى فيها من الأعيان :

سليمان بن يسار أحد التابعين

وهو أخو عطاء بن يسار ، له روايات كثيرة ، وكان من المجتهدين في العبادة ، وكان من أحسن الناس وجهاً ، توفى بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة ، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس وجهاً فأرادته على نفسها فأبى وتركها في منزله وخرج هارباً منها ، فرأى يوسف عليه السلام في المنام . فقال له : أنت يوسف ؟ فقال : نعم أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهتم . وقيل إن هذه الحكاية إنما وقعت في بعض منازل الحجاج ، وكان معه صاحب له ، فبعثه إلى سوق الحجاج ليشتري شيئاً فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له : هيت لك ، فبكى واشتد بكاءه فلما رأت ذلك منه ارتفعت في الجبل ، وجاء صديقه فوجده يبكي فقال له : مالك تبكي ؟ فقال خير ، فقال : لعلك ذكرت بعض ولدك أو بعض أهلك ؟ فقال : لا . فقال : والله لتخبرني ما أبكاك أنت . قال : أبكاني حزني على نفسي ، لو كنت مكانك لم أصبر عنها ، ثم ذكر أنه نام فرأى يوسف في منامه كما تقدم والله أعلم

عكرمة مولى ابن عباس

أحد التابعين ، والمفسرين المكثرين والعلماء الربانيين ، والرحالين الجوالين . [وهو أبو عبد الله ، وقد روى عن خلق كثير من الصحابة ، وكان أحد أوعية العلم ، وقد أفق في حياة مولاه ابن عباس ،

قال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة ، وقد طاف عكرمة البلاد ، ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان ، وبث علمه هنالك ، وأخذ الصلوات وجوائز الأمراء ، وقد روى ابن أبي شيبة عنه قال : كان ابن عباس يجلس في رجل السكبل يلحن القرآن والسنن ، وقال حبيب بن أبي ثابت : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبدا ، عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلا فسرهما لهما ، فلما نفذ ما عندهما جمل يقول : أنزلت آية كذا في كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلا . قال جابر بن زيد : عكرمة أعلم الناس وقال الشعبي ، ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وروى الإمام أحمد عن عبد الصمد عن سلام بن مسكين سمعت قتادة يقول : أعلمهم بالتفسير عكرمة . وقال سعيد بن جبير نحوه ، وقال عكرمة : لقد فسرت ما بين اللوحين . وقال ابن علية عن أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل - وأشار إلى سلع - وقال عبد الرزاق عن أبيه : لما قدم عكرمة الجند حمله طاوس على نجيب فقال : ابتمت علم هذا الرجل ، وفي رواية أن طاوسا حمله على نجيب فتمنه ستون دينارا وقال : ألا تشتري علم هذا العبد بستين دينارا !

ومات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد فأخرجت جنازتهما فقال الناس : مات أفعه الناس وأشعر الناس ، وقال عكرمة : قال لي ابن عباس : انطلق فأفت الناس فمن سألك عما يعنيه فأفنه ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفنه ، فانك تطرح عنى ثلثي مؤنة الناس . وقال سفيان عن عمرو قال : كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصنعون ويقتلون . وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت معمرأ يقول : سمعت أيوب يقول : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفتق من الآفاق ، قال فاني لفي سوق البصرة فإذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، قال : واجتمع الناس إليه فما قدرت أنا على شيء أسأله عنه ، ذهبت مني المسائل ، وشردت عنى فقيمت إلى جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه . وقال شعبة عن خالد الحذاء قال قال عكرمة لرجل وهو يسأله : مالك أخبرت ؟ أى فنت . وقال زياد بن أبي أيوب : حدثنا أبو ثيملة حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد قال قلت لعكرمة بنيسابور : الرجل يريد الخلاه وفي إصبعه خاتم فيه اسم الله ، قال : يجمل فسه في باطن يده ثم يقبض عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال : سمعت شعبة يقول قال خالد الحذاء : كل شيء قال فيه محمد بن سيرين : ثبت عن ابن عباس ، إنما سمعته من عكرمة ، لقيه أيام المختار بالكوفة . وقال سفيان الثوري : خذوا الناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة . وقال أيضا : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال عكرمة : أدركت اثنين من أصحاب رسول الله

س. في هذا المسجد . وقال محمد بن يوسف الفريابي : حدثنا إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن عكرمة : قال : كانت الخليل التي شملت سليمان بن داود عليه السلام عشرين ألفا فقراها ، وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة : [الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب] قال : الدنيا كلها قريب ويكلها جهالة . وفي قوله : [الذين لا يريدون علوا في الأرض] قال : عند سلاطينها وملوكها . [ولا فساداً] لا يعملون بمعاصي الله عز وجل . [والعاقبة] هي الجنة . وقال في قوله تعالى : [فلما نسوا ما ذكروا به] أي تركوا ما وعظوا [بمذاب بئس] أي شديد [فلما عتوا عما نهوا عنه] أي تمادوا وأصرّوا . [خاسئين] صاغرين . [فجعلناها نكالا لما بين يديها] أي من الأمم الماضية [وما خلفها] من الأمم الآتية ، من أهل زمانهم وغيرهم [وموعظة] تقي من انغط بها الشرك والمعاصي .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة بعث الله الذين اعتدوا ويحاسب الذين تركوا الأمر والنهي كان المسخ لهم عقوبة في الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال عكرمة : قال ابن عباس : هلك والله القوم جميعاً ، قال ابن عباس فآذنين أمروا ونهوا نجوا ، والذين لم يأمرُوا ولم ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل المعاصي . قال : وذلك أهل ايلة - وهي قرية على شاطئ البحر - وكان الله قد أمر بني إسرائيل أن يفرغوا اليوم الجمعة فقالوا : بل تفرغ ليوم السبت ، لأن الله فرغ من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الأشياء مسبوكة . وذكر واقصة أصحاب السبت ، وتحريم الصيد عليهم ، وأن الحيتان كانت تأتيمهم يوم السبت ولا تأتيمهم في غيره من الأيام ، وذكروا احتيالهم على صيدها في يوم السبت فقال قوم : لا ندعكم تصيدون في يوم السبت ووعظوم ، فجاء قوم آخرون مداهنون فقالوا : [لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟] قال الناهون [معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون] أي ينتهون عن الصيد في يوم السبت . وقد ذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس إن المداهنين هلكوا مع الغافلين ، كساه ثوبين . وقال حوثة عن مغيرة عن عكرمة قال : كانت القضاة ثلاثة - يعني في بني إسرائيل - فأت واحد فجعل الآخر مكانه ، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا فبعث الله ملكا على فرس فر على رجل يسقي بكرة معها عجل ، فدعا الملك العجل فتبع العجل الفرس ، فجاء صاحبه ليرده فقال : يا عبد الله اعجلني وابن بقرتي ، فقال الملك : بل هو عجلي وابن فرسي ، فخاصمه حتى أعيا ، فقال : القاضى بيني وبينك ، قال : لقد رضيت ، فارتفعا إلى أحد القضاة فتكلم صاحب العجل فقال له : مربي على فرس فدعا عجلي فتبعه فأبى أن يرده ، قال : ومع الملك ثلاث درات لم ير الناس مثلهما ، فأعطى القاضى درة وقال : اقض لي ، فقال : كيف يسوغ هذا ؟ فقال : نرسل العجل خلف الفرس والبقرة فأيهما تبعها فهو ابنها ، ففعل ذلك فتبع الفرس فقضى له . فقال

صاحب العجل : لا أرضى ، بينى وبينك القاضى الآخر ، ففعلنا مثل ذلك ، ثم أتيا الثالث فقصا عليه قصتهما ، وناولاه الملك الدرة الثالثة فلم يأخذها ، وقال لا أقضى بينكما اليوم ، فقالا : ولم لا تقضى بيننا ؟ فقال : لأنى حائض ، فقال الملك : سبحان الله ! رجل يحيض ؟ ! فقال القاضى : سبحان الله ! وهل تنتج الفرس عجلا ؟ فقضى لصاحب البقرة . فقال الملك : إنكم إنما ابتليتم ، وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك .

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة أن ملكا من الملوك نادى فى مملكته : إني إن وجدت أحدا يتصدق بصدقة قطعت يده ، فجاء سائل إلى امرأة فقال : تصدق على بشى ؟ فقالت : كيف أتصدق عليك والملك يقطع يد من يتصدق ؟ قال : أسألك بوجه الله إلا تصدقت على بشى ؟ فتصدقت عليه برغيفين ، فبلغ ذلك الملك فأرسل إليها فقطع يديها ، ثم إن الملك قال لأمه : دلينى على امرأة جميلة لا تزوجها ؟ فقالت : إن ههنا امرأة ما رأيت مثلها ، لولا عيب بها ، قال : أى عيب هو ؟ قالت مقطوعة اليدين ، قال : فأرسل إليها ، فلما رآها أعجبته . وكان لها جمال . فقالت : إن الملك يريد أن يتزوجك : قالت : نعم إن شاء الله ، فتزوجها وأكرمها ، فنهده إلى الملك عدو فخرج إليهم ، ثم كذب إلى أمه : انظري فلانة فاستوصى بها خيرا وافعلى وافعلى معها ، فجاء الرسول فنزل على بعض ضرائرها فحبسها فأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه : انظري فلانة فقد بلغنى أن رجالا يأتونها فأخرجيهما من البيت وافعلى وافعلى ، فكتبت إليه الأم إنك قد كذبت ، وإنها لامرأة صدق ، فذهب الرسول إليهن فنزل بهن فأخذن الكتاب فغيرنه فكتبتن إليه : إنها فاجرة وقد ولدت غلاما من الزنا ، فكتب إلى أمه : انظري فلانة فاجعلى ولدها على رقبتها واضربي على جيبها وأخرجيها . قال : فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها : أخرجي ، فجعلت الصبي على رقبتها وذهبت ، فمرت بنهر وهى عطشانة فنزلت لتشرب والصبي على رقبتها فوقع فى الماء ففرق ، فجلست تبكى على شاطئ النهر ، فرىها رجلان فقالا : ما يبكيك ؟ فقالت : ابنى كان على رقبتى وليس لى يدان فسقط فى الماء ففرق . فقالا لها : ماتحبين أن يرد الله عليك يدك كما كانتا ؟ قالت : نعم ! فدعوا الله ربهما لها فاستوت يداها ، ثم قالا لها : أبتدرين من نحن ؟ قالت : لا قالا : نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما . وقال فى قوله : [طيرا آباييل] قال : طير خرجت من البحر لها رؤس كرؤس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم ، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعد . وفى قوله تعالى : [ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة] قال : لا يقولون لا إله إلا الله ، وفى قوله [قد أفلح من تزكى] قال : من يقول لا إله إلا الله ، وفى قوله : [هل لك إلى أن تزكى] إلى أن تقول لا إله إلا الله ، وفى قوله : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا [على شهادة أن لا إله إلا الله . وفي قوله [أليس منكم رجل رشيد] أليس منكم من يقول : لا إله إلا الله ، وفي قوله : [وقال صوابا] قال : لا إله إلا الله . وفي قوله : [إنك لا تخلف الميعاد] لمن قال : لا إله إلا الله . وفي قوله [لا عدوان إلا على الظالمين] على من لا يقول : لا إله إلا الله . وفي قوله : [واذكر ربك إذا نسيت] قال : إذا غضبت [سيأثم في وجوههم] قال : السهر وقال : إن الشيطان يزين للعبد الذنب ، فإذا عمله تبرأ منه ، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسك له ويبيكي حتى يغفر الله له ذلك وما قبله . وقال قال جبريل عليه السلام : إن ربي ليبعثني إلى الشيء لا مضيه فأجد الكون قد سبقني إليه . وسئل عن الماعون قال : العارية . قلت : فإن منع الرجل غربالا أو قدراً أو قصعة أو شيئاً من متاع البيت فله الويل ؟ قال : لا ! ولكن إذا نهى عن الصلاة ومنع الماعون فله الويل . وقال : البضاعة المزجاة التي فيها تجوز . وقال : السائحون ، هم طلبة العلم وقال : [كما يتبس الكفار من أصحاب القبور] قال : إذا دخل الكفار القبور وعانوا ما أعد الله لهم من الخزي ، يتسوا من نعمة الله . وقال غيره : [يتبس الكفار من أصحاب القبور] أي من حياتهم وبهائمهم بعد موتهم . وقال : كان إبراهيم عليه السلام يدعى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ، وقال : أنكالا ، أي قيودا . وقال في كاهن سبأ : إنه قال لقومه لما دنا منهم العذاب : من أراد سفراً بعيداً وحمل شديداً ، فعليه إيمان ، ومن أراد الخمر والخير ، وكذا وكذا والعصير ، فعليه ببصرى - يعنى الشام - ومن أراد الراسخات في الوحل ، والمقبات في الحبل فعليه بيثرب ذات النخل . فخرج قوم إلى عمان وقوم إلى الشام ، وهم غسان ، وخرج الأوس والخزرج - وهم بنو كعب بن عمرو - وخزاعة حتى نزلوا بيثرب ، ذات النخل ، فلما كانوا ببطن مرت قالت خزاعة : هذا موضع صالح لا يريد به بدلا ، فنزلوا ، فنم سميت خزاعة ، لأنهم نخزعوا من أصحابهم . وتقدمت الأوس والخزرج حتى نزلوا بيثرب ، فقال الله عز وجل ليوسف عليه السلام يا يوسف ابعفوك عن إخوانك رفعت لك ذكرك مع الذاكرين . وقال : قال لقمان لابنه : قد دقت المزارق أذق شيئا أصرت من الفقر . وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء . ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . رواه وكيع بن الجراح عن سفيان عن أبيه عن عكرمة : [وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى] قال : ما وقع شيء منها إلا في عين رجل منهم . وقال : في قوله تعالى [زنيم] هو اللثيم الذي يعرف الأومة كما يعرف الشاة بذنمها . وقال في قوله تعالى [الذين يؤذون الله ورسوله] قال : هم أصحاب التصاوير ، [وبلغت القلوب الحناجر] قال : لو أن القلوب تحركت أو زالت لخرجت نفسه ، وإنما هو الخوف والفرع . [فتنم أنفسكم] أي بالشهوات [ونر بعنم] بالتوبة [وغرتكم الأماني] أي التسويف [حتى جاء أمر الله] الموت [وغرکم بالله الغرور]

الشیطان . وقال : من قرأ یس والقرآن الحکیم لم یزل ذلك الیوم فی سرور حتی یمسی .

قال سلمة بن شعیب : حدثنا إبراهیم بن الحکم عن أبان عن أبیه . قال : کنت جالسا مع عکرمة عند البحر فذکروا الذین یفرقون فی البحر فقال عکرمة : الذین یفرقون فی البحر یتقسم لحومهم الحینان فلا یبقى منهم شیء إلا العظام ، حتی تصیر حائلا نخرة فذریها الابل فتأکلها ، ثم تسیر الابل فتبهرها ، ثم یجئ بهدم قوم فینزلون ذلك المنزل فیاخذون ذلك البحر فیوقدونه ثم یحیر رمادا فتجئ الريح فتأخذه فتذریه فی کل مکان من الأرض حیث یشاء الله من بره وبحره ، فاذا جاءت النفخة - نفخة المبعث - فیخرج أولئك وأهل القبور المجوعون سواء . وبهذا الاسناد عنه قال : إن الله أخرج رجلین ، رجلا من الجنة ورجلا من النار ، فقال لصاحب الجنة : عبدي ! کیف وجدت مقيلک ؟ قال : خیر مقیل . ثم قال لصاحب النار : عبدي کیف وجدت مقيلک ؟ فقال : شر مقیل قاله القائلون ، ثم ذکر من عقاربها وحیاتها وزنا بیرها ، ومن أنواع ما فیها من العذاب وألوانه ، فیکول الله تعالى لصاحب النار : عبدي ! ماذا تعطینی إن أنا أعفیتک من النار ، فیکول العبد : إلهی وماذا عندي ما أعطیک ، فقال له الرب تعالى : لو کان لك جبل من ذهب أکنت تعطینی فأعفیک من النار ؟ فقال نعم ، فقال له للرب : کذبت لقد سألتک فی الدنيا ما هو أیسر من ذلك ! تدعونی فأبتجیب لك ، وتستغفرنی فأغفر لك ، وتسألنی فأعطیک ، فسکنت تتولی ذاهبا .

وبهذا الاسناد قال : ما من عبد یقر به الله عز وجل یوم القيامة للحساب إلا قام من عند الله بعفوه ، وبه عنه : لکل شیء أساس ، وأساس الاسلام الخلق الحسن . وبه عنه قال : شکا نبی من الانبیاء إلى ربه عز وجل الجوع والعری ، فأوحى الله إلیه : أما ترضی أنى سددت عنک باب الشر الناشئ عنها ؟ . وبه عنه قال : إن فی السماء ملکا یقال له إسماعیل لو أذن الله له بفتح أذن من آذانه یسبح الرحمن عز وجل لمات من فی السموات والأرض . وبه عنه قال : سعة الشمس سعة الأرض و زیادة ثلاث مرآت ، وسعة القمر سعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت دخلت بحراً نحت العرش تسبح الله حتی إذا أصبحت استعفت ربهما تعالى من الطلوع فیکول لها : ولم ذاک - وهو أعلم - فتقول : لئلا أعبد من دونک ، فیکول لها : اطلعي فلیس علیک شیء من ذاک ، حبسهم جهنم أبینها إلیهم مع ثلاث عشرة ألف ملک تقودها حتی یدخلهم : وهذا خلاف ما ثبت فی الحدیث الصحیح « إن جهنم یؤتی بها تقاد بسبعین ألف زمام ، مع کل زمام سبعون ألف ملک » . وقال مندل عن أسد ابن عطاء عن عکرمة عن ابن عباس . قال قال رسول الله ص . « لا یقن أحدکم علی رجل یضرب ظلما فان اللعنة تنزل من السماء علی من یحضره إذا لم تدفعوا عنه . ولا یقن أحدکم علی رجل یتنل ظلما فان اللعنة تنزل من السماء علی من یحضره إذا لم تدفعوا عنه » . لم یرفعه إلا مندل هذا .

وروى شعبة عن عمارة بن حفصة عن عكرمة عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) « كان إذا عطس غطى وجهه بثوبه ، ووضع يديه على حاجبيه » ، هذا حديث عال من حديث شعبة . وروى بقية عن إسحاق بن مالك الخضري عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) ، قال : « من حلف على أحد يمينا ، وهو يرى أنه سيبره فلم يفعل ، فانما إثمه على الذي لم يبره » . تفرد به بقية بن الوليد مرفوعا . وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه : حدثنا عبيد بن عمر القواريري حدثنا يزيد بن ربيع حدثنا عمارة بن أبي حفصة حدثنا عكرمة حدثنا عائشة أن النبي (ص) ، كان عليه بردان قطريان خشنان غليظان ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ثوبك هذين غليظان خشنان ، ترشح فيهما فيثقلان عليك ، فأرسل إلي فلان فقد أتاه برد من الشام فاشتر منه ثوبين إلى ميسرة ، فأرسل إليه فأناه الرسول فقال : إن رسول الله (ص) ، بعث إليك لتبئعه ثوبين إلى ميسرة . فقال : قد علمت والله ، ما يريد نبي الله إلا أن يذهب بثوبي ويعطاني بثنهما ، فرجع الرسول إلى رسول الله (ص) فأخبره فقال (ص) : كذب ! قد علموا أني أقيم لله ، وآدام للأمانة » . وفي هذا اليوم قال النبي (ص) : « لأن يلبس أحدكم من رفاع شتى خير له من أن يستدين ما ليس عنده » والله سبحانه أعلم [(١)] .

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديقي

كان أحد الفقهاء المشهورين ، له روايات كثيرة ، عن الصحابة وغيرهم ، وكان من أفضل أهل المدينة ، وأعلم أهل زمانه ، قتل أبوه بمصر وهو صغير ، فأخذته خالته فنشأ عندها ، وساد وله مناقب كثيرة . أوردناه المطاردى .

وفيهما توفي كثير عزة الشاعر المشهور

وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، أبو صخر الخزاعي الحجازي ، المعروف بابن أبي جمعة ، وعزة هذه المشهورة المنسوب إليها ، لتغزله فيها ، هي أم عمرو عزة بالعين المهملة ، بنت جميل بن حفص ، من بني حاجب بن غفار ، وإنما صغر اسمه فقبل كثير ، لأنه كان دميم الخلق قصيرا ، طوله ثلاثة أشبار . قال ابن خلدكان : كان يقال له رب الدبان ، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له : طأطأ رأسك لا يؤذيك السقف ، وكان يضحك إليه ، وكان يفد على عبد الملك ، ووفد على عبد الملك بن مروان مرات ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان يقال إنه أشعر المسلمين ، على أنه كان فيه تشيع ، وربما نسب به بعضهم إلى منهب التناسخية ، وكان يحتاج على ذلك من جهله وقلة عقله إن صح النقل عنه ، في قوله تعالى [في أي صورة ما شاء ركبك] وقد استأذن يوما على عبد الملك فلما دخل عليه قال عبد الملك : لأن

تسمع بالعيدي خير من أن تراه ، فقال : حَيْهَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، إِنْ نَطَقَ نَطَقَ بَيِّنَانٍ ، وَإِنْ قَاتَلَ قَاتَلَ بِجَبَانٍ ، وَأَنَا الَّذِي أَقُولُ

وَجَرَبْتُ الْأَوْرُسَ وَجَرَبْتُ * وَقَدْ أَبَدْتُ عَرِيكَتِي الْأَوْرُسَ
وَمَا تَخْفَى الرِّجَالُ عَلَى أُنَى * بِهِمْ لَأَخُو مَشَاقِفَةِ خَبِيرٍ
تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ قَتَرْدَرِيهِ * وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدُ زَيْرٍ
وَيُهْجَبُكَ الطَّرِيرُ فَتُخْزِنُهُ * فَيُخْلِفُ ظَنُكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
وَمَا هَامُ الرِّجَالِ لَهَا بَزِينٍ * وَلَكِنْ زِينُهَا دِينٌ وَخَيْرُ
بَنَاتِ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا جِسْمًا * وَلَمْ تَطُلْ الْبَزَاةُ وَلَا الصَّقُورُ
وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لَبٍ * فَلَمْ يَسْتَفْنِ بِالْعَظَمِ الْبَعِيرُ
فَيَرْكَبُ ثُمَّ يَضْرِبُ بِالْهَرَاوِي * وَلَا عَرَفَ لَدِيرُهُ وَلَا نَكِيرُ
وَعُودُ النَّبْعِ يَنْبَتُ مُسْتَمِرًّا * وَلَيْسَ يَطُولُ وَالضُّبَابُ حُورُ

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل ، قالوا : ودخل كثير عزة يوما على عبد الملك بن مروان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : -

عَلَى ابْنِ أَبِي الْعَاصِي دُرُوعُ حَصِينَةٍ * أَجَادَ الْمَسْدَى سَرْدَهَا وَأَدَالَهَا
قَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفَلَا قَلْتَ كَمَا قَالَ الْأَعَشَى لَقَيْسِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ : -
وَإِذَا تَجَيَّأْتُ كَتِيبَةً مَلُومَةً * شَبَّهَا يَخْشَى الذَّائِدُونَ صِيَالَهَا
كُنْتُ الْمَقْدَمَ غَيْرَ لَابِسِ جَبَّةٍ * بِالسَّيْفِ يَضْرِبُ مَعْلَمًا أَبْطَالَهَا

فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَصْفُهُ بِالْخَرْقِ وَوَصْفَتُكَ بِالْحَزْمِ . ودخل يوما على عبد الملك وهو يتجهز للخروج إلى مصعب بن الزبير فقال : ويحك يا كثير ، ذكرتكَ الْآنَ بِشَعْرِكَ فَإِنْ أَصْبَتَهُ أُعْطِيَتْكَ حَكْمُكَ ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّكَ لَمَّا وَدَعْتَ عَاتِكَةَ بَنَتْ يَزِيدُ بَكَتَ لِفِرَاقِكَ فَبَكَى لِبُكَائِهَا حَشَمَهَا فَذَكَرْتُ قَوْلِي :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تَثْنِ عَزْمُهُ * سَحْصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دَرِيْزِيْنَهَا
نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَبُهُ * بَكَتُ فَبَكَى مِمَّا عَرَاهَا قَطِينَهَا

قال : أَصْبَتَ فَاخْتَمَكُم ، قال : مَائَةٌ نَاقَةٌ مِنْ نَوَاقِ الْخُتَارَةِ ، قال : هِيَ لَكَ ، فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْعِرَاقِ نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كَثِيرِ عَزَّةَ وَهُوَ مُذَكَّرٌ فِي أَمْرِهِ فَقَالَ : عَلَيَّ بِهِ ، فَلَمَّا جِئْتُ بِهِ قَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِمَا كُنْتَ تَفَكَّرُ بِهِ تَعْطِيَنِي حَكْمِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَاللَّهِ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِنَّكَ تَقُولُ فِي نَفْسِكَ : هَذَا رَجُلٌ لَيْسَ هُوَ عَلَى مَذْهَبِي ، وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى قِتَالِ رَجُلٍ لَيْسَ هُوَ عَلَى

منهبي ، فان أصابني سهم شرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة ، فقال : إى والله يا أمير المؤمنين فاحذركم ، قال : أحسنكم حكماً أن أردك إلى أهلك وأحسن جزئتك ، فأعطاه مالا وأذن له بالانصراف وقال حماد الراوية عن كثير عزة : وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، ونحن تمت بصحبتنا إياه وبعاشرتنا له ، لما كان بالمدينة ، وكل منا يظن أنه سيشرکه في الخلافة . فممن نسير ونختال في رحالنا ، فلما اتهمنا إلى خنصرة ولاحت لنا أعلامها ، تلمتنا مسلمة بن عبد الملك فقال : ما أقدمكم ؟ أو ما علمتم أن صاحبكم لا يحب الشعر ولا الشعراء ؟ قال : فوجئنا لذلك ، فأنزلنا مسلمة عنده وأجرى علينا النفقات وعلف دوابنا ، وأقام عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر ، فلما كان في بعض الجمع دنوت منه لآسمع خطبته فأسلم عليه بعد الصلاة ، فسمعتة يقول في خطبته : لسكل سفر زاد ، فزودوا اسفرکم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عين ما أعد الله له من عذابه وثوابه فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الامد فتتسوقوا بكم وتنقادوا لعدوكم . فانه والله ما بسط أهل من لا يدري له لا يمسى بعد إصابحه ولا يصبح بعد إمساته ، وربما كانت له كائنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا ، وإنما يطعمن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة ، فاما من لا يداوى من الدنيا كلما أصابه جارج من ناحية أخرى فكيف يطعمن ، أعوذ بالله أن آمرکم بما أنهى عنه نفسه فيخسر صفته وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق ، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحيبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والمويل : قال : فأنصرفت إلى صاحبي فقلت : خذ مرحا من الشعر غدير ما كنا نقول لعمر وأبائه فانه رجل أخرى ليس برجل دنيا . قال : ثم استأذن لنا مسلمة عليه يوم الجمعة فلما دخلنا عليه سلمت عليه ثم قلت : يا أمير المؤمنين طال الشواء وقلت الغائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب . فقال : [إنما الصدقات للفقراء والمساكين] وقرأ الآية ، فان كنتم من هؤلاء أعطيتم وإلا فلا حق لکم فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني مسكين وعابر سبيل ومنقطع به ، فقال : ألسنم عند أبي سعيد ؟ - يعنى مسلمة بن عبد الملك - فقلنا : بلى . فقال : إنه لا ثواب على من هو عند أبي سعيد ، فقلت : ائذن لى يا أمير المؤمنين بالأنشاد ، قال : نعم ولا تقل إلا حقا ، فأنشدته قصيدة فيه :

وليت فلم تشتم علياً ولم تحف * يريئاً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذى * أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكنى الفتى بمسدد ريعه * من الأود النادى ثقاف المقوم
وقد لبست تسمى اليك ثيابها * تراءى لك الدنيا بكف ومهم
وتوض أحياناً بعين مريضة * وتبسم عن مثل الجمان المنظم

فأعرضت عنها مشمراً كأنما * سقنك مذوقاً من سهامٍ وعلقم
وقد كنت من أحبالها في منع * ومن بجرها في زبد الموج معهم
ومازلت توافاً إلى كل غاية * بلغت بها أعلى البناء المقدم
فلما أتاك الملك عفواً ولم تكن * لطالب دنيا بمسده في تكلم
تركت الذي يقى وإن كان وقتاً * وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وثمرت للذي * أمامك في يوم من الشر مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانع * سوى الله من مال رعيته ولادم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق * بلغت به أعلى المعالي بسلم
فباين شرق الأرض والغرب كلها * منادٍ ينادي من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظمئني * بأخذك ديناري وأخذك درهمي
ولا بسط كفٍ لا مري غير مجرم * ولا السفك منه ظالماً ملء عجم
ولو يستطيع المسدون القسوا * لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فمشت بها ما حجب الله راكب * ملب مطيف بالقسام وزمزم
فأربح بها من صفقة لمبايع * وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال : فأقبل عليَّ عمر بن عبد العزيز وقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة ، ثم استأذنه الأخصى
فأنشده قصيدة أخرى فقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة . ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له وأمر
لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهماً ، وأغزى نصيباً إلى مرج دابق . وقد وفد كثير عزة بعد
ذلك عليَّ يزيد بن عبد الملك فامتدحه بقصائد فأعطاه سبعمائة دينار . وقال الزبير بن بكار : كان
كثير عزة شبيهاً خبيثاً يرى الرجعة ، وكان يرى التناسخ ويحتج بقوله تعالى [في أي صورة
ما شاء ركبك] وقال موسى بن عقبة هو ل كثير عزة ليسة في منامه فأصبح يمتدح آل الزبير ويرى
عبد الله بن الزبير ، وكان يسمى الرأي فيه :

بمفتضح البطحا لأول أنه * أقام بها ما لم ترمها الأناشب
سرحنا سروبا آمين ومن يخف * بوائق ما يخشى تنبه النواشب
تبرأت من عيب ابن أسماء إني * إلى الله من عيب ابن أسماء تائب
هو المرء لا ترزى به أمهاته * وآباؤه فينا السكرام الأتاب

وقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : قالت عائشة بنت طلحة لكثير عزة : ما الذي يدعرك إلى
ما تقول من الشعر في عزة وليست على نصف من الحسن والجمال ؟ فلو قلت ذلك في رافي أمثال فانا

أشرف وأفضل وأحسن منها - وكانت عائشة بنت طلحة قد فقت النساء حسنا وجمالا وأصالة -
وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه فقال :-

ضحى قلبه يا عَزْ أَوْ كَادَ يَذْهَلُ * وَأَفْحَى يَرِيدُ الصَّوْمَ أَوْ يَتَبَدَّلُ
وَكَيْفَ يَرِيدُ الصَّوْمَ مِنْ هُوَ وَامَقْ * لَمَزَةُ لَا قَالُ وَلَا مَتَبَدَّلُ
إِذَا وَاصَلْتُنَا خَلَّةً كَيْ تَزِيلُنَا * أَيْبِنَا وَقَانَا الْحَاجِبِيَّةُ أَوَّلُ
سَنَوَلِيكَ عَرَفًا إِنَّ أَرِدْتَ وَصَالَنَا * وَنَحْنُ لَتِيكَ الْحَاجِبِيَّةُ أَوْصَلُ
وَحَدِيثُهَا الْوَاشُونَ أَنَّى هَجَرْتَهَا * فَعَلَمَهَا غِيظًا عَلَى الْحَمَلُ

فقالت له عائشة : قد جعلتني خلة ولست لك بخلة ، وعسلا قلت كما قال جميل فهو والله أشعر
منك حيث يقول :

يَارَبِّ عَارِضِي عَلَيْنَا وَصَلَامًا * بِالْجِدْرِ تَخْلَطُهُ بِقَوْلِ الْمَازِلِ
فَأَجِبْنَاهَا بِالْقَوْلِ بِمَسَدٍ تَسِيرُ * حَبِي بِثِيْنَةٍ عَنْ وَصَالِكَ شَاغِلِ
لَوْ كُنَّا فِي قَلْبِي بِقَدْرِ قُلَامَةٍ * فَضْلُ وَصْلَتِكَ أَوْ أَتَتْكَ رَسَائِلِ

فقال : والله ما أنكر فضل جميل ، وما أنا إلا حسنة من حسناته ، واستحييا . ومما أنشده ابن
الأببارى لكثير عزة :

بَابِي وَأُمِّي أَنْتِ مِنْ مَعْشُوقَةٍ * طَبْنُ الدَّوْرِ لَهَا فَتَيَّرَ حَالَهَا
وَمَشَى إِلَيَّ بِعَيْبِ عَزَةٍ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهِ خُدُودَهُنَّ نَمَالَهَا
اللَّهُ يَسْلَمُ لَوْ جَمَعْنُ وَمِثْلَتِ * لَأَخَذْتُ قَبْلُ تَأْمَلُ نَمَالَهَا
وَلَوْ أَنَّ عَزَةً خَاصَمْتُ شَمْسَ الصُّحَى * فِي الْحَسَنِ عِنْدَ مَوْقِفٍ لَقَضَى لَهَا

وأنشد غيره لكثير عزة :

فَمَا أَحْدَثَ النَّأْيُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * سَلَوَا وَلَا طَوْلُ اجْتِمَاعٍ تَقَالِيَا
وَمَا زَادَنِي الْوَاشُونَ إِلَّا صَبَابَةً * وَلَا كَثْرَةُ النَّاهِينَ إِلَّا تَمَادِيَا
غَيْرُهُ لَهُ : فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزْ كُلِّ مَصِيبَةٍ * إِذَا وَطَنْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ
هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائِرٍ مَخَامِرٍ * لَمَزَةُ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ
وقال كثير عزة أيضا وفيه حكمة أيضا :

وَمَنْ لَا يَغْمُضُ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ * وَعَنْ بَعْضِ مَا فَيَرِيْمَتْ وَهُوَ عَاتِبُ
وَمَنْ يَنْتَبِعُ جَاهِدًا كُلَّ عَثَرَةٍ * يَجِدُهَا وَلَا يَبْقَى لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبُ

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص أحد بني حاجب بن عبد الله بن غذار أم عمرو الضمرية

وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامه فقال : لا أفضيها لك حتى تنشدني شيئاً من شعره ، فقالت : لا أحفظ لكثير شعراً ، لكنني سمعتهم يحكون عنه أنه قال في هذه الأبيات :

قضى كل ذي دين علة غريبة * وعزة ممطول معنى غريبة
فقال : ليس عن هذا أسألك ولكن أنشدني قوله :

وقد زعمت أني تغيرت بعدها * ومن ذا الذي ياعر لا يتغير
تغير جسمي والمحبة كالذي * عهدت ولم يخبر بذلك مخبر

قال فاستجيت وقالت : أما هذا فلا أحفظه ولكن سمعتهم يحكونه عنه ، ولكن أحفظ له قوله :

كأنني أنادي صخرة حين أعرضت * من الظلم لو تمشي بها العظم ذات
صفوح فسا تلقاك إلا بخيلة * ومن مل منها ذلك الوصل ملت

قال فقضى لها حاجتها وردّها ورد عليها ظلامتها وقال : أدخلوها الحرم لينعلموا من أدبها . وروى عن بعض نساء العرب قالت : اجتازت بنا عزة فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حسننها ، فاذا هي حمراء حلوة لطيفة ، فلم تقع من النساء بذلك الموقع حتى تكلمت فاذا هي أبرع النساء وأحلاهن حديثاً ، فما بقي في أعيننا امرأة تفوقها حسناً وجمالاً وحلاوة . وذكر الأصمعي عن سفيان بن عيينة قال : دخلت عزة على سكينه بنت الحسين فقالت لها : إني أسألك عن شيء فاصدقيني ، ما الذي أراد كثير في قوله لك :

قضى كل ذي دين فوفى غريبة * وعزة ممطول معنى غريبة

فقالت : كنت وعدته قبلة فطلته بها ، فقالت : أنجز بها له وإثمها علي ، وقد كانت سكينه بنت الحسين من أحسن النساء . كان يضرب بحسنها المثل . وروى أن عبد الملك بن مروان أراد أن يزوج كثيراً من عزة بنت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين أبعد ما فضحني بين الناس وشهرني في العرب ؟ وامتنعت من ذلك كل الامتناع ، ذكره ابن عساكر . وروى أنها اجتازت مرة بكثير وهو لا يعرفها فتسكرت عليه وأرادت أن تختير ما عنده ، فتمرض لها فقالت : فأين حبك عزة ؟ فقال : أنا لك الفداء لو أن عزة أمة لي لو هبتها لك ، فقالت : ويحك لا تفعل أليس القاتل :

إذا وصلتنا خلة كي نزيلنا * أيننا وقلنا الحاجية أول ؟

فقال : بآبي أنت وأمي ، أقصرى عن ذكرها واسمعي ما أقول :

هل وصل عزة إلا وصل غانية * في وصل غانية من وصلها بدل

قالت : فهل لك في المجالسة ؟ قال : ومن لي بذلك ؟ قالت : فكيف بما قلت في عزة ؟ قال :

أقلبه فيتحول لك ، قال فسفرت عن وجهها وقالت : أغسداً وتنا كئيباً فاسق ، وإنك لها هنا عذو

الله ، فبهت وأبأس ولم ينطق وتجهير وخجل ، ثم قالت : قاتل الله جيلاً حيث يقول : -
 عفا الله من لا ينفخ الودع عنده * ومن حبل إن صد غير متين
 ومن هو ذو وجهين ليس بدائم * على العهد خلافاً بكل يمين
 ثم شرع كثير يعتذر ويتنصل مما وقع منه ويقول في ذلك الأشعار ذا كراً وآثراً . وقد ماتت
 عزة بمصر في أيام عبد العزيز بن مروان ، وزار كثير قبرها ورثاها وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل :
 ما بال شعرك تغير وقد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة ولا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ،
 ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما يذشأ الشعر عن هذه الخلال .
 وكانت وفاته و وفاة عكرمة في يوم واحد ، ولكن في سنة خمس ومائة على المشهور . وإنما ذكره
 شيخنا الذهبي في هذه السنة - أعني سنة سبع ومائة - والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

[فيها افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم ، وفتح براهيم بن هشام بن عبد الملك
 حصناً من حصون الروم أيضاً ، وفيها غزا أسيد بن عبد الله القسري أمير خراسان فكسر الأتراك
 كسرة فاضحة . وفيها زحف خاقان إلى أذربيجان وحاصر مدينة ورفان ورمها بالمناجيق ، فسار إليه
 أمير تلك الناحية الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك ، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه
 وقتل من جيشه خاق كثير ، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل في جملة من قتل من جيشه ، وقتل
 الحارث بن عمرو شهيداً ، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقاً كثيراً . وفيها غزا معاوية بن هشام بن
 عبد الملك أرض الروم ، وبعث البطل على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئاً كثيراً ^(١)
 وفيها توفي من الأعيان بكر بن عبد الله المزني البصري . [كان عالماً عابداً زاهداً متواضعاً قليل
 الكلام ، وله روايات كثيرة عن خاق من الصحابة والتابعين . قال بكر بن عبد الله : إذا رأيت
 من هو أكبر منك من المسلمين قتل : سبقته إلى المعاصي فهو خير مني ، وإذا رأيت إخوانك يكرهونك
 ويعظمونك قتل : هذا من فضل ربي ، وإذا رأيت منهم تقصيراً قتل : هذا بذنب أحدثته . وقال :
 من مثلك يا ابن آدم ؟ خلى بينك وبين الماء والمحراب متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل
 ليس بينك وبينه ترجان ولا حاجب . وقال : لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقى الطمع تقى الغضب .
 وقال : إذا رأيتم الرجل وكلاباً بيوت الناس فاسموا لهيبه فاعلموا أنه قد مكر به . وقال : كان الرجل
 من بني إسرائيل إذا باغ المبالغ الصالح من العمل فشي في الناس أغلاله غمامة ، قال : فرجل قد
 أغلته غمامة على رجل فأنظمه لما رآه مما آتاه الله ، فاحتقره صاحب الغمامة فأمرها الله أن تتحول

(١) زيادة من المصيرية .

عن رأسه إلى رأس الذي احتقره ، وهو الذي غظم أمر الله عز وجل . وقال : ما سبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشئ قرأ في صدره . وله كلام حسن كثير يطول ذكره [(١) راشد بن سعد المقراني الحصري عمر دهرآ ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وقد كان عابداً صالحاً زاهداً . رحمه الله تعالى ، وله ترجمة طويلة] محمد بن كعب القرظي

توفي فيها في قول [وهو أبو حمزة ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان عالماً بنفسه في القرآن ، صالحاً عابداً ، قال الأصمعي : حدثنا أبو المقدم - هشام بن زياد - عن محمد بن كعب القرظي أنه سئل : ما علامة الخذلان ؟ قال : أن يقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان يقيح . وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن موهب قال : سمعت ابن كعب يقول : لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأردد فيهما الفكر ، أحب إلى من أن أهد القرآن هداً - أو قال أنثره نثرآ - . وقال : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكر يا عليه السلام ، قال تعالى : [آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار] فلو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص له ، ولرخص للذين يقاتلون في سبيل الله ، قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] وقال في قوله تعالى : [اصبروا وصابروا ورابطوا] قال : اصبروا على دينكم وصابروا لوعدهم الذي وعدتم ، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن ، واتقوا الله فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني . وقال في قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] : علم ما أحل القرآن مما حرم [منها قائم وحصيد] قال : القائم ما كان من بنائهم قائماً ، والحصيد ما حصد فهدم . [إن عذابها كان غراما] قال : غرموا ما نعموا به من النعم في الدنيا ، وفي رواية سألهم ممن نعمة فلم يقدروا عليها ولم يؤدوها ، فأغرمهم نعمها . فأدخلهم النار . وقال قتادة بن سعيد : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي قال : سمعت محمد بن كعب في هذه الآية [وما آتيتكم من ربا أيربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله] قال : هو الرجل يعطي الآخر من ماله ليكافئه به أو يزداد ، فهذا الذي لا يربو عند الله ، والمضعفون هم الذين يعطون لوجه الله لا يبتغي مكافأة أحد . وفي قوله تعالى : [أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق] قال : أجعل سريري وعلايتي حسنة . وقيل : أدخلني مدخل صدق في العمل الصالح ، أي الاخلاص ، وأخرجني مخرج صدق أي سالماً . [أو ألقى السمع وهو شهيد] أي يسمع القرآن وقلبه معه في مكان آخر . [فاسمعوا إلى ذكر الله] قال : السعي العمل ليس بالشد . وقال : الكبائر ثلاثة ، أن تأمن مكر الله ، وأن تقتط من رحمة الله ، وأن تياس من روح الله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال ، فقها في الدين ، وزهادة في الدنيا ، وبصراً بعيوب نفسه . وقال : الدنيا دار قلق ، وغب عنها السعداء ، وانتزعت من أيدي الأشتياء ، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها ، وأزهت الناس فيها أسعد الناس بها ، هي الغاوية لمن أضاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها ، علمها جهل ، وغناؤها فقر ، وزيادتها نقصان ، وأيامها دول . وروى ابن المبارك عن داود بن قيس قال سمعت محمد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكي من رجل وتبكي على رجل ، تبكي على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكي ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ [فما بكت عليهم السماء والأرض] وقال في قوله تعالى : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] : من يعمل مثقال ذرة خيراً من كافر يرى ثوابها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له خير . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، من مؤمن يرى عقوبتها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له شر . وقال : ما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع على في بعض ما يكره فمقتني ، وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن تردني على أمور حتى أنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالماً - وكان عابداً خيراً زاهداً - فكتب إليه : - إني قد دبرته ، قال : فازدد فيه ، فأتاه سالم فقال له عمر : إني قد ابتليت بما نرى ، وأنا والله أتخوف أن لا أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول فهذا نجاته ، وإلا فهو الأمر الذي يخاف . قال : يا سالم عظمي ، قال : آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة ، وأنتم مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة ، ثم سكت . قلت : والأمر كما قيل في بعض كتب الله : نزرعون السيئات وترجون الحسنات ، لا يجتني من الشوك العنب .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى * درج الجنان وطيب عيش العابد
ونسيت أن الله أخرج آدم * منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقال : من قرأ القرآن متع بقله وإن بلغ من العمر مائتي سنة . وقال له رجل : ماتت في التوبة ؟ قال : لا أحسنها ، قال : أفرايت إن أعطيت الله عهداً أن لا تعصيه أبداً ؟ قال : فمن أعظم جرماً منك ، تتألى على الله أن لا ينفذ فيك أمره .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني : حدثنا ابن عبد العزيز حدثنا أبو عبيد القاسم ابن سلام حدثنا عباد بن عباد عن هشام بن زياد أبي المقدم . قالوا كلهم : حدثنا محمد بن كعب القرظي قال : حدثنا ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : « من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن

بما في يد الله أو ثقتي بما في يده ، ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفقته ، وجلد عبده ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنباً ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يرجي خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى بن مريم قام في بني إسرائيل خطيباً فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها - وقال مرة فتظلموم - ولا تظلموا ظالماً ، ولا تطاولوا ظالماً فيبطل فضلكم عند ربكم ، يا بني إسرائيل الأمر ثلاثة ، أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله . وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبي (ص) ، بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس ، وقد روى أول الحديث إلى ذكر عيسى من غير طريقه ، وسيأتي أن هذا الحديث تفرد به الطبراني بطوله والله سبحانه وتعالى أعلم [(١)]

وفيها توفي أبو نضرة المنذر بن مالك بن قطعة العبدي ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القيسري عن إمرة خراسان وأمره أن يقدم إلى الحج ، فأقبل منها في رمضان ، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي ، واستناب هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلي ، وأمره أن يكتب خالد بن عبد الله القيسري ، وكان أشرس فاضلاً خيراً ، وكان سمي الكامل لذلك ، وكان أول من اتخذ المراقبة بخراسان ، واستعمل المراقبة عبد الملك بن زياد الباهلي ، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها ، ففرح بها أهلها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها قاتل مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان ، فزحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتواقفوا نحواً من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلمة سالماً غانماً ، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزاة غزاة الطين ، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحد فيها خلق كثير ، فماتوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعباً وشدائد عظيماً ، وفيها دعا أشرس بن عبد الله السلي نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الدخول في الإسلام ، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك ، وأسلم غالبهم ، ثم طالبهم

بالجزية فنصبوا له الحرب وقتلوه ، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة ، أطال ابن جرير بسطها وشرحها فوق الحاجة . وفيها أرسل أمير المؤمنين هشام بن عبيدة إلى إفريقية متولياً عليها ، فلما وصل جهز ابنه وأخاه في جيش فالتقوا مع المشركين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بطريقهم وانهزم باقيهم ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً . وفيها افتتح معاوية بن هشام حصنين من بلاد الروم ، وغنم غنائم جمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام ، وعلى العراق خالد القسري ، وعلى خراسان أشرس السلمي

ذكر من توفي فيها من الأعيان :

جرير الشاعر

وهو جرير بن الخطابي ويقال ابن عطية بن الخطابي واسم الخطابي حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن إلياس ابن مضر بن نزار ، أبو حرزة الشاعر البصري ، قدم دمشق مراراً ، وامتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان في عصره من الشعراء الذين يقارنونهم الفرزدق والأخطل ، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم ، قال غير واحد : هو أشعر الثلاثة ، قال ابن دريد : لما الاثنان داني ثنا الثوري عن أبي عبيدة عن عثمان بن عفان قال : رأيت جريراً وما لضم شفثاء من التسبيح ، فقلت : وما ينفعك هذا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد إن الحسنات يذهبن السيئات ، وعد من الله حق . وقال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال : دخل رجل من بني عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابي ، فقال عبد الملك للأعرابي : هل تعرف أحجى بيت قالت العرب في الاسلام ؟ قال : نعم اقول جرير :

فَنُضُّ الطرفَ إنك من نميرٍ * فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فقال : أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الاسلام ؟ قال نعم اقول جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ من ركب المطايا * وأندى المالمين بطون راح

فقال : أصبت وأحسنت ، فهل تعرف أرق بيت قيل في الاسلام ؟ قال : نعم اقول جرير :

إن العيون التي في طرفها رَضٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لم يُحْيَيْنَا قَتَلْنَا

يصرعن ذاللب حتى لاحرك به * وهن أضف خلق الله أركاناً

فقال : أحسنت ، فهل تعرف جريراً ؟ قال : لا والله ، وإني إلى رؤيته لمشتاق ، قال : فهذا

جريره وهذا الفرزدق وهذا الأخطل ، فأنشأ الأعرابي يقول :

فحسبنا إلهاً أباً جرزة * وأرغم أنفك يا أخطأ
وجد الفرزدق أتمس به * ورق خياشيمه الجندل
فأنشأ الفرزدق يقول :

يا أرغم الله أنفأ أنت حامله * يا ذا الخنا ومقال الزور والخطأ
ما أنت بالحكم الترضي حكومت * ولا الاصيل ولا ذى الرأي والجدل
ثم أنشأ الأخطأ يقول :-

يا شر من حملت ساق على قدم * مماثل قولك في الأقوام يحتمل
ان الحكومة ليست في أيك ولا * في معشر أنت منهم انهم سفل
فقام جرير مغضبا وقال :-

أشتمان سفاهاً خيركم حسباً * فنيكما - وإلهي - الزور والخطأ
شتماه على رفي ووضيكا * لا زلما في سفل أيها السفل

ثم وثب جرير فقبل رأس الأعرابي وقال : يا أمير المؤمنين جازني له ، وكانت خمسة آلاف ، فقال عبد الملك : وله مثلها من مالي ، فقبض الأعرابي ذلك كله وخرج . وحكى يعقوب بن السكيت أن جريراً دخل على عبد الملك مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج فأنشده مديحه الذي يقول فيه :
ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح
فأطالق له هائلة ناقة وثمانية من الرعاء أربعة من النوبة وأربعة من السبي الذين قدم بهم من الصفد قال جرير : وبين يدي عبد الملك جامان من فضة قد أهديت له ، وهو لا يعبا بها شيئاً ، فهو يقرعها بفضيب في يده ، فقلت : يا أمير المؤمنين الحلب ، فألقى إلي واحداً من تلك الجمامات ، ولما رجع إلى الحجاج لم يحبه إكرام أمير المؤمنين له فأطالق الحجاج له خمسين ناقة تحمل طعاماً لأهله .

وحكى نفلويه أن جريراً دخل يوماً على بشر بن مروان وعنده الأخطأ ، فقال بشر لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ومن هذا أيها الأمير ؟ فقال : هذا الأخطأ ، فقال الأخطأ : أنا الذي قذفت عرضك ، وأسهرت ليلك ، وآذيت قومك ، فقال جرير : أما قولك شتمت عرضك فما ضر البحر أن يشتمه من غرق فيه ، وأما قولك وأسهرت ليلك ، فلو تركتني أنام لكان خيراً لك ، وأما قولك وآذيت قومك فكيف تؤذي قوماً أنت تؤذي الجزية إليهم ؟ وكان الأخطأ من نصارى العرب المنتصرة ، قبحه الله وأبعد مثواه ، وهو الذي أنشد بشر بن مروان قصيدته التي يقول فيها :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مہراق

وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلام عن مواضعه ، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً ، فانه إنما يقال استوى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه ، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً ، حتى يقال استوى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضغف من حجيج الجهمية ، حتى أدام الافلاس من الحجيج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم .

وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فكنوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فسأهم ذلك وهموا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير : -

يا أيها الرجلُ المرخى عمامته * هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئاً ، فمر بهم عدي بن أرطاة فقال له جرير منشداً :
يا أيها الراكبُ المرخى مطيته * هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبأنّ خليفتنا إن كنت لاقية * أني لدى الباب كالمصعد في قرن
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة * قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسدومة وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك يا عدي ، مالي وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحه فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروى منها شيئاً ؟ قال : نعم فأنشده : -

رأيتك يا خير البرية كلها * نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنادين الهدى بعد جورنا * عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدلساً * واطفأت بالقرآن ناراً تضرماً
فن مبلغ عني النبي محمدآ * وكل امرئ يجزي بما كان قدماً
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه * وكان قدماً ركنه قد تهتما
تعالى علواً فوق عرش إلحنا * وكان مكان الله أعلا وأعظماً

فقال عمر : من الباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبي ربيعة ، فقال أليس هو الذي يقول :
ثم نبهها فبهت كمايا * طفلة ما تبين رجع الكلام

ساعة ثم إنها بعد قالت * ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى * تنخطى إلى رءوس النيام
ما تجشمت ما تريد من الأمر * ولا حيث طارقاً لخصام
فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه ، لا يدخل والله أبداً ، فمن بالباب سواء ؟ قال :
همام بن غالب - يعني الفرزدق - فقال عمر : أوليس هو الذي يقول في شعره :

هما دليّائي من ثمانين قامة * كما انقض باز أقم الریش كسرة
فلما استوت رجلاي بالأرض قلنا * أحي برجي أم قتيل نحاذرة
لا يظأ والله بساطي وهو كاذب ، فمن سواء بالباب ؟ قال : الأخطل ، قال : أوليس هو الذي يقول :
ولست بصائم رمضان طوعاً * ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيساً بكور * إلى بطحاؤ مكة للنجاح
ولست بزائر بيتاً بعيداً * بمكة أبني فيه صلاحي
ولست بقاتم كالعير أدعو * قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً * وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل على وهو كافر أبداً ، فهل بالباب سوى من ذكرت ؟ قال : نعم الأحوص ، قال :
أليس هو الذي يقول :

الله بيني وبين سيدها * يفر مني بها وأتبعه
فأهو دون من ذكرت ، فمن ههنا غيره ؟ قال جميل بن معمر ، قال : الذي يقول : -
إلا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت * يوافق في الموت خريمي خريميها
فأنا في طول الحياق براغب * إذا قبل قدسوى علمها صفيحها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً ويتوب ، والله لا يدخل على أبداً ، فهل
بالباب أحد سوى ذلك ؟ قلت : جريز ، قال أما إنه الذي يقول :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا * حين الزيارة طارجي بسلام
فإن كان لابد فأذن لجريز ، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول :
إن الذي بعث النبي محمداً * جعل الخلافة للامام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاؤه * حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً * والنفس مولة بحب العاجل
فقال له : ويحك يا جريز ، اتق الله فيما تقول ، ثم إن جريزاً استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم

ينهم ، فأشده قصيدة طويلة مدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير لا أرى لك فيما همنا حثاً ، فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة ، فأمر له بها ، فخرج على الشعراء فقالوا : ما وراءك يا جرير ؟ فقال : ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رَأَيْتُ رَقَّ الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ * وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجَنِّ رَاقِيَا

وقال بعضهم فيما حكاه المصنف بن زكريا الجريري قالت جارية للحجاج بن يوسف : إنك تدخل هذا علينا ، فقال : إنه ما علمت عفيفاً ، فقالت : أما إنك لو أخليتني وإياه سترى ما يصنع ، فأمر باخلاصها مع جرير في مكان يراهما الحجاج ولا يريانه ، ولا يشعر جرير بشيء من ذلك ، فقالت له : يا جرير ، فأطرق رأسه ، وقال : هأنذا ، فقالت : أنشدني من قولك كذا وكذا - شعر فيه رقة - فقال : لست أحفظه ولكن أحفظ كذا وكذا - ويعرض عن ذلك وينشدها شعرا في مدح الحجاج - فقالت : لست أريد هذا ، إنما أريد كذا وكذا - فيعرض عن ذلك وينشدها في الحجاج - حتى انقضى المجلس فقال الحجاج : لله درك ، أبيت إلا كرماً وتكرماً . وقال عكرمة أنشدت أعرابياً بيتاً لجرير الخطافي :

أَبْدَلِ اللَّيْلَ لَا تَجْرِي كَوَاكِبُهُ * أَوْ طَالَ حَتَّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرَانَا

فقال الأعرابي : إن هذا حسن في معناه وأعوذ بالله من مثله ، ولكني أنشدك في ضده من قولي

لَيْلٌ : لَمْ يَقْصِرْ رَقَادُهُ * وَقِصْرُهُ لَنَا وَصَلُ الْحَبِيبِ
نَعِيمُ الْحَبْرِ أَوْ رَقُّ فِيهِ * حَتَّى تَنَاوَلْنَا جَنَاهُ مِنْ قَرِيبِ
بِمَجْلِسٍ لَدَقٍ لَمْ تَقِفْ فِيهِ * عَلَى شَكْوَى وَلَا عَيْبِ الذَّنُوبِ
نَفْسِنَا أَنْ نَقْطَعَهُ بِلَفْظٍ * فَتَرَجَّتْ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ ^(١)

فقلت له : زدني ، قال : أما من هذا فحسبك ولكن أنشدك غيره فأنشدني :

وَكُنْتُ إِذَا عَقَدْتُ رِحَالُ قَوْمٍ * مُحِبُّهُمْ وَشَيْمِيُّ الْوَفَاءِ
فَأَحْسَنُ حِينَ يَحْسَنُ مُحْسِنُومٌ * وَاجْتَنِبُ الْإِسَاءَةَ إِنْ أَسَاءُوا
أَشَاءُ سِوَى مَشِيئَتِهِمْ فَآتِي * مَشِيئَتَهُمْ وَأَتْرُكُ مَا أَشَاءُ

قال ابن مخطئ : كان جرير أشعر من الفرزدق ~~هـ~~ الجهور ، وأغفر بيت قاله جرير :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَيْمٍ * حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

قال وقد سأله رجل : من أشعر الناس ؟ فأخذ بيده وأدخله على ابنه ، وإذا هو يرتفع من ثدي

(١) في هذه الأبيات تعريض ، ولم تقف عليها في مرجع آخر .

عنز ، فاستدعاه فنهض والابن يسيل على لحيته ، فقال جرير الذي سأله : أتبصر هذا ؟ قال : نعم ، قال :
 أنعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا أبي ، وإنما يشرب من ضرع العنز لتلا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب
 ويطلبوا منه لبناً ، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعراً فغلبهم ، وقد كان بين جرير والفرزدق
 ، قباولات ومهاجاة كثيرة جداً يطول ذكرها ، وقد مات في سنة عشر ومائة ، قاله خليفة بن خياط وغير
 واحد ، قال خليفة : مات الفرزدق وجرير بعده بأشهر ، وقال الصولي : ماتا في سنة إحدى عشرة
 ومائة ، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً ، وقال الكريمي عن الأصمعي عن أبيه قال : رأى
 رجل جريراً في المنام بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل : بماذا ؟ قال بتكبيره
 كبرتها بالبادية ، قيل له : فما فعل الفرزدق ؟ قال أيها أهلكه قذف المحصنات . قال الأصمعي لم
 يدعه في الحياة ولا في الممات

وأما الفرزدق

واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن
 حنظلة بن زيد بن مناة بن مر بن أد بن طابخة أبو فراس بن أبي خطل التيمي البصري الشاعر
 المعروف بالفرزدق ، وجدته صعصعة بن ناجية صحابي ، وفد إلى رسول الله س . ، وكان يحبي المؤودة
 في الجاهلية ، حدث الفرزدق عن علي أنه ورد مع أبيه عليه ، فقال من هذا ؟ قال ابني وهو شاعر ،
 قال علمه القراءة فهو خير له من الشعر . وسمع الفرزدق الحسين بن علي وراؤه وهو ذاهب إلى العراق
 وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وعرفة بن أسعد ، وزرارة بن كرب ، والطرماح بن عدي الشاعر ،
 وروى عنه خالد الحذاء ومروان الأصغر وحجاج بن حجاج الأحول ، وجماعة ، وقد وفد على معاوية
 يطلب ميراث عمه الجباب ، وعلى الوليد بن عبد الملك وعلى أخيه ، ولم يصح ذلك ، وقال أشعث بن
 عبد الله عن الفرزدق قال نظر أبو هريرة إلى قدمي فقال : يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرين
 فأطلب لهما موضعاً في الجنة ، فقلت : إن ذنوبي كثيرة ، فقال : لا بأس فاني سمعت رسول الله س . ،
 يقول : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقال معاوية بن
 عبد الكريم عن أبيه قال : دخلت على الفرزدق فتخرك فإذا في رجله قيد ، فقلت : ما هذا ؟ فقال :
 حلفت أن لا أنزع حتى أحفظ القرآن . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت بدويّاً أقام بالحضر إلا فسد
 لسانه إلا روبة بن العجاج والفرزدق فانهما زادا على طول الإقامة جدة واحدة ، وقال راويته أبو نفضل
 طاق الفرزدق امرأته أنوار ثلاثاً ثم جاء فأشبهه على ذلك الحسن البصري ، ثم ندم على طلاقها
 وإشهاد الحسن على ذلك فأنشأ يقول : -

فلو أني ملكك يدي وقلبي * لكان عليّ للتقدير الخيار

ندمت ندابة السحبي لما * غدت منى مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها * كآدم حين أخرجه الضرار

وقل الأصمعي وغير واحد : لما ماتت الزهراء بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق - وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصري - فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسين علي بن علقمة ، والفرزدق علي بن عبيدة ، فسار فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون شهد هذه الجنائزة اليوم خير الناس - يعمنونك - وشر الناس - يعنفون - فقال له : يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فلما أن تكلم عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول :

أخاف وراء القبر أن لم يماضي * أشد من القبر التهاباً وأضيقاً
إذا جاءني يوم القيامة قائداً * عنيفاً وسواقي يسوق الفرزدقا
أقد خاب من أولاد دارم من مشي * إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلاً * سراويل قطران لباساً مخرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم * يذوبون من حر الصديد تمزقا

قال : فبكي الحسن حتى بل الثرى ثم التزم الفرزدق ، وقال : لقد كنت من أبغض الناس إلى ، وإنك اليوم من أحب الناس إلى . وقال له بعض الناس : ألا تخاف من الله في قنف المحصنات ، فقال : والله الله أحب إلى من عيني اللتين أبصر بهما ، فكيف يعذبني ؟ وقد قدها أنه مات سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوماً ، وقيل بأشهر والله أعلم .

وأما الحسن وابن سيرين فقد ذكرنا ترجمة كل منهما في كتابنا التكميل مسوقة وحسبنا الله وذم الوكيل .

فأما الحسن بن أبي الحسن

فاسم أبيه يسار وأبجد هو أبو سعيد البهري مولى زيد بن ثابت ، ويقال مولى جابر بن عبد الله وقيل غير ذلك ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها ، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاكلوا أم سلمة بشيئها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيتها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كن وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان في جملة من يدعوه له عمر بن الخطاب ، قال : اللهم فقها في الدين ، وحجبه إلى الناس . وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها . ولما الحسن ، فانه جمع وممعنا ، فحفظ ونسينا ، وقال أنس مرة : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين - الحسن وابن سيرين - وقال قتادة : ما جالست رجلاً قفياً إلا رأيت فضل الحسن عاياه ،

وقال أيضا : ما رأيت عيناى أفقه من الحسن ، وقال أبو ب : كان الرجل يجالس الحسن ثلاث جمع ما يسأله عن مسألة هيبه له ، وقال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة : إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهمهم فهو الحسن ، فأقرأه مني السلام . وقال يونس بن عبيد : كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه ، وقال الأعشى : ما زال الحسن يعنى الحكمة حتى نطق بها ، وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول : ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء .

وقال محمد بن سعد : قالوا كان الحسن جامعاً للعلم والعمل ، عالماً رفيقاً ثقة مأموراً عابداً زاهداً ناسكاً كثير العلم والعمل فصيحاً جميلاً وسياً ، وقدم مكة فاجلس على سرير ، وجلس العلماء حوله ، واجتمع الناس إليه فحدثهم . قال أهل التاريخ : مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة ، عام عشر ومائة في رجب منها ، بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم .

وأما ابن سيرين

فهو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرو الأنصارى ، ولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبو محمد من سبى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فى جملة السبى ، فاشتراه أنس ثم كاتبه ، ثم ولده من الأولاد الأنخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعيد ويحيى وحفصة وكريمة ، وكلهم ناهيون ثقات أجلاء رحمهم الله . قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأموراً عالماً رفيقاً فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً . وكان به صمم ، وقال مؤرق العجلي : ما رأيت رجلاً أفقه فى ورعه ، وأورع فى فقهه منه ، قال ابن عون : كان محمد بن سيرين أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشد الناس إزاراً على نفسه ، وأشد هم خوفاً عليها . قال ابن عون : ما بكى فى الدنيا مثل ثلاثة ، محمد بن سيرين فى العراق ، والقاسم بن محمد فى الحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام . وكانوا يأتون بالحديث على حروفه ، وكان الشعبي يقول : عليكم بذلك الأسم - يعنى محمد بن سيرين - وقال ابن شاذيب : ما رأيت أحداً أجراً على تعبير الرؤيا منه . وقال عثمان البتى : لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه . قالوا : ومات فى ناسع شوال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم .

فصل فى مناقب

كان اللاتقى بالمؤلف أن يذكر تراجم هؤلاء العلماء الأختيار قبل تراجم الشعراء المتقدم ذكرهم فيبدأ بهم ثم يأتى بتراجم الشعراء ، وأيضاً فإنه أطال القول فى تراجم الشعراء واختصر تراجم العلماء ، ولو كان فيها حسن وحكم بجة يلتفت بها من وقف عليها ، ولعلها أفيد من مدحهم والثناء عليهم ، ولا سيما

كلام الحسن وابن سيرين ووهب بن منبه - كما ذكره بعد وكما سيأتي ذكر ترجمته في هذه الزيادة - فانه قد اختصرها جداً وإن المؤلف أقدر وأوسع علماً ، فما ينبغي أن ينخل ببعض كلامهم وحكمهم ، فإن النفوس مستشرقة إلى معرفة ذلك والنظر فيه ، فإن أقوال الساف لها موقع من القلوب ، والمؤلف غالباً في التراجم يحيل على ما ذكره في التكميل الذي صنّفه في أسماء الرجال ، وهذا الكتاب لم نقف عليه نحن ولا من سألناه عنه من العلماء ، فانا قد سألنا عنه جماعة من أهل الفن فلم يذكر غير واحد أنه اطالع عليه . فكيف حل غيرهم . وقد ذكرت في غالب التراجم زيادات على ما ذكره المؤلف مما وصلت إليه معرفتي واطلعتها عليه ، ولو كان عندي كتب لأشعبت القول في ذلك ، إذ الحكمة هي ضالة المؤمن . ولعل أن يقف على هذا راغب في الآخرة ، طالب ما عند الله عز وجل فينتفع به أعظم مما ينتفع به من تراجم الخلف والملوك والأمراء ، وإن كانت تلك أيضاً نافعة لمتير ومزدجر ، فإن ذكر أئمة العدل والبر بعد موتهم فيها فضل أولئك ، وغم هؤلاء ، ليعلم الظالم أنه وإن مات لم يمت ما كان متباسبه من البساط والظلم ، بل هو مسدون في الكتب عند العلماء . وكذلك أهل العدل والصالح والخير ، فإن الله قد قص في القرآن أخبار الملوك والفراعنة والكفار والمفسدين ، تحذيراً من أحوالهم وما كانوا يعملون ، وقص أيضاً أخبار الأتقياء والحسين والإبرار والأخيار والمؤمنين ، الاقتداء والتأسي بهم والله سبحانه أعلم . فنقول وبالله التوفيق :
أما الحسن

فهو أبو سعيد البصري الإمام الفقيه المشهور ، أخذ التابعين الكبار الأجلاء علماء وعلماء وإخلاصاً فروى ابن أبي الدنيا عنه قال : كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره ، وأحدهم يصلي ليلة أو بعض ليلة فيصبح وقد استطال على جاره ، وإن كان القوم ليجمعهم فيتندأ كرون فتجسّ الرجل عبرته فيردها ما استطاع ، فإن غاب قام عنهم . وقال الحسن : تنفس رجل عند عمر بن عبد العزيز فلكزه عمر - أو قال : لكه - وقال : إن في هذا لفتنة . وقد ذكره ابن أبي الدنيا عن الحسن عن عمر بن الخطاب . وروى الطبراني عنه أنه قال : إن قوماً ألهمهم أمانى المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة ، يقول أحدهم : إني لحسن الظن بالله ، وأرجو رحمة الله ، وكذب ، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجوا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة ، يشك من دخل المغارة من غير زاد ولا ماء أن يهلك . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : حدثوا هذه القلوب فائها سريرة الدثور ، واقتنعوا هذه لأنفس فانها تنزع إلى شرغاية .

وقال مالك بن دينار : قالت للحسن : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟ قال : موت القلب ، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه . وروى النعماني عن أبيه قال : عاد الحسن عليلاً فوجده قد شفى من علمته ، فقال : أيها الرجل إن الله قد ذكرك

فاذكره ، وقد أقالك فاشكره ، ثم قال الحسن : إنما المرض ضربة سوط من ملك كريم ، فأما أن يكون
العليل بحد المرض فرساجوآء ، وإما أن يكون حملاً عثوراً معقوراً . وروى العنبي عن أبيه أيضاً
قال : كتب الحسن إلى فرقد :

أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة
لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقعة
الجاهلين ، وشمر الساق ، فان الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية الجنة أو النار ، فان لي ولك من الله مقاماً
يسألني وإياك فيه عن الحقيق والدقيق ، والجليل والخافي ، ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإياك عنه
وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، وإصغاء الأسماع . وما أعجز عنه .

وروى ابن قتيبة عنه أنه مر على باب ابن هبيرة فرأى القراء - وكانوا هم الفقهاء - جلوساً على
باب ابن هبيرة فقال : طفحتن نعالكم ، وينضتم ثيابكم . ثم أتيتهم إلى أبوابهم تسعون ، ثم قال لأصحابه :
ما ظنكم بهؤلاء الخذاء ؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء ، وإنما مجالسهم مجالس الشرط .
وروى الخرائطي عن الحسن أنه كان إذا اشترى شيئاً وكان في منته كسر جبره لصاحبه . ومر الحسن
بقوم يقولون : نقص دائق أي عن الدرهم الكامل والديار الكامل - إما أن يكون درهماً ينقص
نصفاً أو ربماً ، والعشرة تسعة ونصف ، وقس على هذا ، فكان الحسن يستحب جبران هذه
الأشياء ، وإن كان اشترى السلعة بدرهم ينقص دائقاً كله درهماً ، أو بتسعة ونصف كلها عشرة
مروءة وكرماً . وقال عبد الأعلى السمسار ، قال الحسن : يا عبد الأعلى ! أما يبيع أحدكم الثوب لأخيه
فينة ص درهمين أو ثلاثة ؟ قلت لا والله ولا ذائق واحد ، فقال الحسن : إن هذه الأخلاق فما بقي من
المروءة إذا ؟ قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلا بمروءة . وباع بغلة له فقال له المشتري رأماً
تخط لي شيئاً يا أبا سعيد ؟ قال لك خمسون درهماً ، أزيديك ؟ قال : لا أرضيت ، قال : بارك الله لك .
وروى ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبت بي أمي إلى الحسن فقالت : يا أبا سعيد :
ابني هذا قد أحببت أن يلزمك فلمل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يوماً :
يا بني أدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وإياك في ساعات الليل والنهار في الظلمة
لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين ، قال : وكنت أدخل على الحسن
منزله وهو يبكي ، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثر البكاء ،
فقال يا بني ! ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك ؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة ، فان استطعت أن
تكون عمرك باكياً فافعل لعله تعالى أن يرحمك ، فإذا أنت نجوت من النار ، وقال : ما هو إلا حول الدار
إما الجنة وإما النار ، ما هناك منزل ثالث . وقال : بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تنقطر من دموعه

قطارة حتى تمتلئ رقبته من النار . وقال : لو أن با كيا بكى في ملا من خشية الله لرحموا جميعا ، وليس شئ من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقوم الله بالدمعة منه شيئا . وقال : ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في كتاب اليقين قال : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم في ابن ، وإيمان في يقين ، وحكم في علم ، وحبس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتحمل في فاقة وإحسان في قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورع في رغبة ، وتغلف وصبر في شدة ، لا ترديه رغبته ، ولا يسدده لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقهر به نيته . كذا ذكر هذه الألفاظ عنه ^(١) . قال : حدثنا عبد الرحمن ابن صالح عن الحكم بن ظهير عن يحيى بن المختار عن الحسن فذكره ، وقال فيه أيضا عنه : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله عز وجل .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا علي بن إبراهيم اليشكري حدثنا موسى بن إسماعيل الجيلي حدثنا حماد بن سليمان أبو مقاتل عن عون بن أبي شاذان عن الحسن قال قال لقمان لابنه : يا بني العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضمن يقينه يضمن عمله . وقال : يا بني إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والرب فاعلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاعلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرغبة فاعلمه أن الدنيا مفارقة متروكة . وقال الحسن : ما أيقن عبد بالجنة والنار حتى يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت . وقال : باليقين طمئت الجنة ، وباليقين هربت من النار ، وباليقين أدبت الفرائض على أكمل وجهها ، وباليقين أصبر على الحق وفي معافاة الله خير كثير ، قد والله رأيتهم يتعاونون في العافية ، فإذا نزل البلاء تفارقوا . وقال : الناس في العافية سواء ، فإذا نزل البلاء تبين عنده الرجال . وفي رواية : فإذا نزل البلاء تبين من يعبد الله وغيره ، وفي رواية فإذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه .

وقال الفر ياني في فضائل القرآن : حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن هذا القرآن قد قرأه عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله ، لم يأتوا الأمر من قبل أوله ، قال الله عز وجل : [كتاب أنزلناه مبارك ليبدروا آياته وليتذكر أولوا الألباب] وماتدبر آياته إلا أتباعه ، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا واحدا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ، حتى أن أحدهم ليقول : والله إنى لأقرأ السورة في نفس ، لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا بالحكماء

(١) كذا بالأصل ولم يعين اسم الناكر

ولا الورعة، ومتى كانت القراءة هكذا أو يقول مثل هذا، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء. ثم روى الحسن عن جنسب قال: قال لنا حذيفة: هل تخافون من شيء؟ قال: قلت والله إنك وأصحابك لأهون الناس عندنا، فقال: أما والذي نفسي بيده لا تؤتون إلا من قبلنا، ومع ذلك نشأ آخر يقرؤن القرآن يكونون في آخر هذه الأمة ينثرونه نثر الدقل، لا يجاوز تراقيهم، تسبق قراتهم إيمانهم.

وروى ابن أبي الدنيا عنه في ذم الغيبة له قال: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده. وكان يقول: ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان ذلك شئلك في طاعة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال الحسن: ليس بينك وبين الفاسق حرمة. وقال: ليس لمبتدع غيبة. وقال أصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاجر المعلن بفجوره، ذكرى له بما فيه غيبة؟ قال: لا ولا كرامة. وقال: إذا ظهر فجوره فلا غيبة له. وقال: ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم: المجاهر بالفسق، والامام الجائر، والمبتدع. وقال له رجل: إن قوما يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقعة فيك سبيلا، فقال: هون عليك يا هذا فإني أطعمت نفسي في الجنان فطعمت، وأطعمتها في النجاة من النار فطعمت، وأطعمتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلا، فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورائقهم فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم؟ وقال: كانوا يقولون: من رمى أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب. وقال الحسن: قال لقمان لابنه: يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلهم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه. وقال الحسن: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإن الله عز وجل لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإن سمعت قولا حسنا فريدا بصاحبه، فإن وافق قول عملا فتنعم ولعمت عين أخيه وأخيه، وإذا خالف قول عملا فإذا يشبه عليك منه، أم ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه لا يخدعك كما خدع ابن آدم، إن لك قولا وعملا، فعملك أحق بك من قولك، وإن لك سريرة وعلانية، فسريرتك أحق بك من علانيتك، وإن لك حاجة وعاقبة، فمعاقبك أحق بك من عاجلتك.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا حمزة بن العباس أنبأ عبدان بن عثمان أنبأ معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال: إذا شئت لقيت الرجل أبيض حديد اللسان حديد النظر ميت القلب والعمل، أنت أبصر به من نفسه، ترى أبدانا ولا تاربا، وتسمع الصوت ولا أنيس، أخصب السنة وأجاب قلوبا، يأكل أحدهم من غير ماله ويبيكي على عماله، فإذا كفضته البطنة قال: يا جارية أويأ غلام أيتنى بهاضم، وهل هضمت يا مسكين إلا دينك؟ وقال: من رق ثوبه رق دينه، ومن سمن جسده هزل دينه، ومن طاب طعامه أتن كسبه. وقال فيما رواه عنه الآجري: رأس مال المؤمن

دين حبث ما زال زال معه ، لا يخلفه في الرخا ، ولا ياتمن عليه الرجال . او قال في قوله تعالى :
[فلا أقسم بالنعفس الاوامة] قال : لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمة كذا ، ما أردت
بأكلة كذا ، ما أردت بمجاس كذا ، وأما الفاجر فيمضي قدما قدما لا يلوم نفسه . وقال : تصبروا
وتشددوا فانما هي ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ،
فانقلبوا بصالح ما يحضرتكم ، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما يصبر
على هذا الحق من عرف فضله وعاقبته . وقال : لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت
المحاسبة من همته .

وقال ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس : حدثنا عبد الله حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنا عبد الله
ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن الخثار عن الحسن قال : المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه الله
عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم
القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجأ الشيء ويمجبه فيقول : والله
إنك لمن حاجتي وإني لأشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيئات حيل بيني وبينك ، ويفرط
منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبدا إن شاء الله : إن المؤمنين قوم قد أوثقهم
القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا
حتى يلقي الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها . وقال : الرضا
صعب شديد ، وإنما معول المؤمن الصبر . وقال : ابن آدم عن نفسك فكائس ، فإياك إن دخلت
النار لم تجبر بعدها أبدا . وقال ابن أبي الدنيا : أنبا إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت حماد بن زيد يذكر
عن الحسن قال : المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في غيرها ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله
حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل . وقال : لولا البلاء ما كان في أيام قلائل ما يملك المرء
نفسه . وقال : أدركت صدر هذه الأمة وخيارها وطال عمرى فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحل الله
لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم ، ماطوى
أحدهم توبا ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله فان
قرب إليه شيء أكل وإلا سكت فلا يتكلم في ذلك . وقال إن المناق إذا صلى صلى رياه أو حياء من
الناس أو خوفا ، وإذا صلى صلى فقرأهم الدنيا ، وإن فاتته الصلاة لم يندم عليها ولم يحزنه فواتها .

وقال الحسن فيما رواه عنه صاحب كتاب النكت : من جعل الحمد لله على النعم حصنا وجابسا
وجعل أداء الزكاة على المال سياجا وحارسا ، وجعل العلم له دليلا وسائسا ، أمن العطب ، وبلغ أعلى
الرتب . ومن كان للمال قانصا ، وله عن الحقوق حابسا ، وشغله وألهاه عن طاعة الله كان لنفسه ظالما

ولقلبه بما جنت يدهام كالماء ، وسلطه الله على ماله ساليا وخالسا ، ولم يأمل العطب في سائر وجوه الطلب
وقيل : إن هذا لغيره ، والله أعلم .

وقال الحسن : أربع من كن فيه ألقى الله عليه محبته . ونشر عليه رحمته : من رقى لوالديه ، ورق
لملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضعيف . وسئل الحسن عن النفاق فقال : هو اختلاف السر والملازمة
والمدخل والمخرج ، وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق - يعني النفاق - وحلف الحسن :
ما مضى مؤمن ولا بقى إلا وهو يخاف النفاق ، وفي رواية : إلا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى
منافق ولا بقى إلا وهو من النفاق آمن . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : كيف حبك الدينار
والدرهم ؟ قال : لا أحبهما ، فكذب إليه : تول فانك تعدل . وقال إبراهيم بن عيسى : ما رأيت
أطول حزنا من الحسن ، وما رأيت قط إلا حسبته حديث عهد بصيبة ، وقال مسع : لو رأيت الحسن
لقلت : قد بث عليه حزن الخلائق . وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أحزن من الحسن وعمر بن
عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما . وقال ابن أبيسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يفدحك ،
وأربعين سنة لم يمزح . وقال : ما سمع الخلائق بمودة بادية ، وعين بكية مثل يوم القيامة . وقال :
ابن آدم ! إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تنقيه ، فانك
إذا رأيت غداً في ميزانك شرك^(١) مكانه . وقال : ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم فلائد في أعناقكم
وقال : ابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وهذا
مأثور عن لقمان أنه قاله لولده .

وقال الحسن : تجد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض رقاً : هلوا فانظروا إلى ، قال الحسن :
قد رأيتك يا أفدق الفاسقين فلا أهلاً بك ولا سهلاً ، فأما أهل الدنيا فقد اكتسبوا بنظرهم إليك
مزيد حرص على دنياهم ، وجرأة على شهوات الغنى في بطونهم وظهورهم . وأما أهل الآخرة فقد
كروهك ومقتوك . وقال : إنهم وإن هملجت بهم البراذين ، وزفرت بهم البغال ، ووطئت أعتابهم
الرجال ، إن ذل المصاحف لا يفارق رقابهم ، يأبى الله إلا أن ينزل من عصاه .

وقال فرقد : دخلنا على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد : ألا يعجبك من محمد بن الازهم ؟ فقال : ماله ؟
فقلنا : دخلنا عليه آنفاً وهو يجود بنفسه فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق - وأومأ إلى صندوق في
جانب بيته - فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار - أو قال : درهم - لم أؤد منها زكاة ، ولم
أصل منها رحماً ، ولم يأكل منها [محتاج] . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟ قال : لروعة
الزمان ، ومكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان . فقال : انظروا من أين أتاه شيطانك فخرفه روعة زمانه ،

(١) كذا بالأصل وفيه نقص يظهر بالتأمل .

ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه * ثم قال : أيها الوارث : لا تخدعن كما خدع صوبحك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه عمن ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جموعا منوعا ، من باطل جمعه ، من حق منعه ، ثم قال الحسن : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح والانفاق في وجوه البر ، فيجد ماله في ميزان غيره . وكان الحسن يتمثل بهذا البيت في أول النهار يقول :

وما الدنيا بيباقيةٍ لحى * ولا حى على الدنيا بيباق

وبهذا البيت في آخر النهار :

يسر النبي ما كان قدم من تقي * إذا عرف الداء الذي هو قاتله

ولد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب وأتى به إليه فدعاه وحنكه . ومات بالبصرة في سنة عشر ومائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد بن سيرين

أبو بكر بن أبي عمرو الأنصاري ، مولى أنس بن مالك النضري ، كان أبوه من سبي عين التمر أسره في جملة السبي خالد بن الوليد فاشتراه أنس ثم كاتبه . وقد ولد له من الاخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبود ، ويحيى ، وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلة ، رحمهم الله تعالى .

قال البخاري : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو اصدق من أدركت من البشر . وقد تقدم هذا كله فيما ذكره المؤلف .

كان ابن سيرين إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم . وقال خلف بن هشام : كان محمد بن سيرين قد أعطى هديا وممتا وخشوعا ، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله . ولما مات أنس بن مالك أوصى أن يغسله محمد بن سيرين . وكان محمد محبوسا . فقالوا له في ذلك ، فقال : أنا محبوس فقالوا : قد استأذنا الأمير في إخراجك ، قال : إن الأمير لم يحبسني ، إنما حبسني من له الحق ، فأذن له صاحب الحق فغسله . وقال يونس : ما عرض لمحمد بن سيرين أمران إلا أخذ بأوثقهما في دينه ، وقال : إني لأعلم الذند . الذي حملت بسببه ، إني قلت يوما لرجل : يا فلان ، فذكر هذا لأبي سليمان الداراني فقال : قلت ذنوبهم فعرفوا من أين أتوا . ومثلنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتى ، ولا بأي ذنب نؤخذ . وكان إذا دعى إلى وليمة يدخل منزله فيقول : ايتوني بشربة سويق فيشربها ويقول : إني أكره أن أحمل جوعى إلى موائدهم وطعامهم . وكان يدخل السوق نصف النهار فيكبر الله ويسبحه ويدكره ويقول : إنها ساعة غفلة الناس ، وقال : إذا أراد الله بعبده خيرا جمل له واعظا

من قلبه يأمره وينهاه . وقال : ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيراً .
 مروال : العزلة عبادة ، وكان إذا ذكر الموت مات منه كل عضو على حدته . وفي رواية كان يشخير
 ونه وينكر محله . حتى كآزه ليس بالذي كان ، وكان إذا سئل عن الرؤيا قال للسائل : اتق الله في
 البقطة ولا يفرك ما رأيت في المنام . وقال له رجل : رأيت كأنى أصب الزيت في الزيتون ، فقال : فنتش
 على امرأتك فانها أمك ، فنتش فاذا هي أمه . وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيراً سبيهاً مكث
 في بلاد الاسلام إلى أن كبر ، ثم سبيت أمه فاشتراها جاهلاً بأنها أمه ، فلما رأى هذه الرؤيا وذكرها
 لابن سيرين فأمره أن يفتش على ذلك ، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره . وقال له آخر : رأيت كأنى
 دست أوقال وطئت - ثمرة فخرجت منها فارة . فقال له : تتزوج امرأة . أو قال : تطأ امرأة - صالحة
 تلد بنتاً فاسقة ، فكان كما قال . وقال له آخر : رأيت كأن على سطح بيتي حبات شمعير فجاء ديك
 فلقطها ، فقال له : إن سرق لك شيء في هذه الأيام فأتني . فوضفوا بساطاً على سطحهم فسرق ، فجاء
 إليه فأخبره ، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك فخذ منه ، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه . وقال
 له رجل : رأيت الحمام تلعط الياسمين . فقال : مات علماء البصرة . وأناه رجل فقال : رأيت رجلاً عرياناً
 واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به ، فقال له ابن سيرين : لاتصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا
 إلا للحسن البصري ، فقال : الحسن هو والله الذي رأيت . فقال : نعم ، لأن المزبلة الدنيا وقد جعلها
 تحت رجله ، وعريه تجرده عنها ، والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس .
 وقال له آخر : رأيت كأنى أستاذك والدم يسيل . فقال له : أنت رجل تقع في أعراض الناس وتأكل
 لحومهم وتخرج في بابه وتأتيا ^(١) .

وقال له آخر : رأيت كأنى أرى اللؤلؤ في الحماة ، فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعلم عند
 غير أهله ومن لا ينتفع به . وجاءته امرأة فقالت : رأيت كأن سنوراً أدخل رأسه في بطن زوجي فأخذ
 منه قطعة ، فقال لها ابن سيرين : سرق لزوجك ثلاثمائة درهم ، وستة عشر درهماً ، فقالت : صدقت
 من أين أخذته ؟ فقال : من هجاء حروفه وهي حساب الجمل ، فالسین ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة
 والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر ، وذكرت السنور أسود فقال : هو عبد في جواركم ، فالزهوا
 عبداً أسود كان في جوارهم وضرب فأقر بالمال المذكور . وقال له رجل : رأيت لحيتي قد طالت وأنا
 أنظر إليها . فقال له مؤذن أنت ؟ قال : نعم ، قال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران . وقال له
 آخر : رأيت كأن لحيتي قد طالت حتى جزتها ونسحتها كساء وبعته في السوق . فقال له : اتق الله
 فانك شاهد زور . وقال له آخر : رأيت كأنى آكل أصابعي ، فقال له تأكل من عمل يدك . وقال لرجل

(١) كذا الأصل ، وفيه تحريف .

انظر هل ترى في المسجد أحدا ؟ فذهب فنظر ثم رجع إليه فقال : ليس في المسجد أحد ، فقال :
أليس أمرتك أن تنظر هل ترى أحداً قد يكون في المسجد من الأمراء ^(١) ؟ . وقال عن رجل ذكر له
ذلك الأسود ، ثم قال : أستغفر الله ! ما أراني إلا قد اغتبت الرجل - وكان الرجل أسود - وقال :
اشترك سبعة في قتل امرأة فقتلهم عمر ، فقال لو أن أهل صنعاء اشتركوا في قتلها لأبدت خضراءهم .

وهيب بن منبه الياني

تابعي جليل ، وله معرفة بكتب الأوائل ، وهو يشبه كعب الأحمار ، وله صلاح وعبادة ،
ويروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ ، وقد بسطنا ترجمته في كتابنا التكميل والله الحمد . قال
الواقدي : توفي بصنعاء سنة عشر ومائة ، وقال غيره : بعدها بسنة ، وقيل بأكثر ، والله أعلم .
ويزعم بعض الناس أن قبره غربى بصرى بقرية يقال لها عصم ، ولم أجده لذلك أصلاً ، والله أعلم .
انتهى ما ذكره المؤلف .

فضيلة أهل البيت

أدرك وهب بن منبه عدة من الصحابة ، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير .
وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة ، وعن طاوس . وعنه من التابعين عدة . وقال وهب : مثل
من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به . وعن منير مولى الفضل بن أبي عياش
قال : كنت جالساً مع وهب بن منبه فأتاه رجل فقال له : إني مررت بفلان وهو يشتبك ، فغضب
وقال : ما وجد الشيطان رسولا غيرك ؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم على وهب فرد
عليه السلام ، ومديده إليه وصاحفه وأجلسه إلى جنبه . وقال ابن طاوس : سمعت وهباً يقول : ابن
آدم احتل لدينك فان رزقك سيأتيك . وقال وهب : كسى أهل النار والعري كان خيراً لهم ، وطعموا
والجوع كان خيراً لهم ، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم . وقال : قال داود عليه السلام : اللهم
أيما فقير سأل غنيا فتصام عنه ، فأسألك إذا دعاك فلا تجبه ، وإذا سألك فلا تعطه . وقال : قرأت في
بعض كتب الله : ابن آدم ، لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم ، ولم تعمل بما قد علمت ، فان مثلك كمثل
رجل احتطب حطباً فخرم حزمة فذهب يحملها فمجز عنها فضم إليها أخرى . وقال : إن لله ثمانية
عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء .

وروى الطبراني عنه أنه قال : إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد في نصحك
وعملك لله ، فان العمل لا يقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة
الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل طاعة الله ، النصح ريحها ، والعمل طعمها ، ثم زين طاعتك بالحلم

(١) كذا الأصل ، وفيه تحريف .

والعقل ، والفقه والعمل ، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبيدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعودها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وألزمها سيرة الأتقياء ، واعزبها عن سبيل الخبثاء ، وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ، فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر في نقائص من دونه فيقويها ويرجيها حتى يبلغه ، إن كان فقيها حمل من لافقه له إذا رأى أنه يريد صحابته ومعاونته وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإذا كان مصلحا استغفر للمذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه واستوجب بذلك أجره ، ولا يمتد بالقول حتى يحسن منه الفعل ، فإذا أحسن الفعل نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغا حمد الله على ما بلغ منها ثم طلب ما لم يبلغ منها ، وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس واستغفر الله الذي هو قادر على أن يغفرها ، وإذا علم من الحكمة شيئا لم يشبعه بل يطلب ما لم يبلغ منها ، ثم لا يستعين بشيء من الكذب ، فإن الكذب كالأكل في الجسد تكاد تأكله ، أو كالأكلة في الخشب ، يرى ظهرها حسنا وجوفها فخر تفر من يراها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتربها . وكذلك الكذب في الحديث لا يزال صاحبه يفتربه ، يظن أنه معينه على حاجته ورائد له في رغبته ، حتى يعرف ذلك منه ، ويتبين لذوى العقول غروره ، فتستلبط الفقهاء ما كان يستخفى به عنه ، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ، كذبوا خبره ، وأبأوا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأبغضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسراثرهم ، وكتبوه حديثهم ، وصرفوا عنه أمانيهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم وعيشتهم ، ولم يحضروه شيئا من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرهم ، ولم يحكوه فيما شجر بينهم .

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال لقمان لابنه : إن مثل أهل الذکر والغفلة كمثل النور والظلمة . وقال : قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكك مصيبة نزلت به فاتما يشكور به عز وجل ، ومن أسف على ما فاتته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضرع لغنى ذهب ثلث دينه . وقال وهب : قرأت في التوراة : أيما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها إلى الخراب ، وأيما مال جمع من غير حله أسرع الفقر إلى أهله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا معمر بن محمد بن عمر وقال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب : يقول الله تعالى : إذا أطاعني عبيد استجبت له من قبل أن يدعوني ، وأعطيت من قبل أن يسألني ، وإن عبيد إذا أطاعني لو أن أهل السموات وأهل الأرض أجلبوا

عليه جعلت له المخرج من ذلك ، وإن عبيد إذا عضاني قطعت يديه من أبواب السماء ، وجعلته في الهواء فلا يمتنع من شيء أرادته من خلقي . وقال ابن المبارك أيضا : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتحملون نفس الذباب ، وتتغذون الغذاء من شرايبكم ، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، ثم لا تعينونهم برفع الخناصر ، تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب ، تلتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة ، فبعزتي حلفت لا أضربنكم بفتنة يضل فيها رأى ذي الرأي وحكمة الحكيم .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد الصنعائي حدثنا همام بن مسleme حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن مقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله ليس بحمد أحدًا على طاعة ، ولا ينال أحد من الله خيرا إلا برحمته ، وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرم ، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم ، إن مكروا به أباد مكرم ، وإن خادعوه رد عليهم خداعهم ، وإن كاذبوه كذب بهم ، وإن أدبروا قطع دابرهم ، وإن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئا من حيلة ، ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة ، وإنما يأتي بالخير من الله تعالى رحمته ، ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد بابا غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شيء إلا تعبد لهم ، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ، فإذا رحمهم استخرجت رحمته منهم حاجتهم ، وليس ينال الخير من الله من وجه غير ذلك ، وليس إلى رحمة الله سبيل تؤتى من قبله إلا تعبد العباد له وتضرعهم إليه ، فإن رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له ، فمن ترك المفتاح لم يفتح له ، ومن جاء بالمفتاح فتح له به ، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح ، والله خزائن الخير كله ، وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله ، فمن حفظ ذلك المفتاح فتحت له الخزائن ودخل ، فله فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفيها ما تشاؤون وما تدعون في مقام أمين ، لا يحولون عنه ولا يخافون ولا ينصبون ولا يهرمون ولا يهتقرون ولا يموتون ، في نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم ، نزلا من غفور رحيم . وقال سفيان بن عيينة : قال وهب : أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا ، وأسرعها ردا اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف تنزهك المحارم ، ومن انتهك المحارم بغضب الرب ، وغضب الله ليس له دواء . وقال : يقول الله تعالى في بعض كتبه يمتب به بني إسرائيل : إلى إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ، وإن اللعنة متى تبلغ السابع من الولد . وقال : كان في بني إسرائيل رجل

عصى الله عز وجل ما تئى سنة ، ثم مات فأخذوا برجله فألقوه على مذبلة ، فأوحى الله إلى موسى : أن صل عليه ، فقال : يارب إن بنى إسرائيل شهدوا أنه قد عصاك ما تئى سنة ، قال الله له : نعم هكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ورأى أسم محمد (س) قبله ووضع على عيینه وصلى عليه ، فشكرت ذلك له فغفرت له ذنوبه وزوجته سبعين حوراء . كذا روى وفيه علل ، ولا يصح مثله ، وفي إسناده غرابة وفي متنه نكارة شديدة . وروى ابن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال موسى : يارب احبس عني كلام الناس ، فقال الله له : يا موسى ما فعلت هذا بنفسى : وقال لما دعى يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، حسبي ربي من خلقي ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ثم دخل على الملك ، فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره وخر له ساجداً ثم أقعده الملك معه على السرير ، وقال : [إنك اليوم لدينا مكين أمين] فقال : [اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم] حفيظ بهذه السنين وما استودعني فيها ، عليم بلغة من يأتيني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا منذر بن الزهيمان الأفطس أنه سمع وهباً يقول : لما أمر الله الخوت أن لا يضره ولا يكلمه - يعنى يونس - قال : [فلو لا أنه كان من المسيحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون] قال : من المابدين قبل ذلك ، فذكره الله بعبادته المتقدمة ، فلما خرج من البحر نام فأثبت الله شجرة من يقطين - وهو الدباء - فلما رآها قد أظلمت ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ فإذا هي قد يبست ، فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : أنت لم تخلق ولم تسبق ولم تنبت وتحزن عليها ، وأنا الذى خلقت مائة ألف من النار أوزيريدون ثم رجعتهم فشق ذلك عليك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد النسائي حدثنا رباح حدثني عبد الملك بن عبد المجيد ابن خشك عن وهب قال : لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : يارب كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يارب ، قال : فإني أولف بينهم حتى لا يتضررون .

وقال وهب لمطاء الخراساني : ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟ ويحك يا عطاء ، أتأني من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ، وتترك باب من يقول : [ادعوني أستجب لكم] ؟ ويحك يا عطاء ، إن كان بكفيك ما يكفيك فأوهى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يفنيك ما يكفيك فليس في الدنيا شيء بكفيك ، ويحك يا عطاء ، إنما بطنك بحر من البحور ، وواد من الأودية ، لا يملؤه شيء إلا التراب . وسئل وهب عن رجلين يصليان ، أحدهما أطول قنوتا وصمتا ، والآخر أطول سجودا ، فأيهما أفضل ؟ قال : أنصحهما لله عز وجل . وقال : من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره القم ، أى

يجب أن يحمد على ما لم يفعل ، ويكره أن ينم بما فيه . قال : وقال لقمان لابنه : يا بني اعقل عن الله فان أعقل الناس من عقل عن الله ، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده . وقال لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طباً لا يتعافيه الأطباء ، وفقها لا يتعافيه الفقهاء ، وحلماً لا يتعافيه العلماء ، قال : بلى يا أبا عبد الله ، قلل : أما الطب فلا تأكل طعاماً إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره ، وأما الفقه فان سئلت عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل : لا أدري ، وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تسأل عن شيء . وقال : إذا كان في الصبي خلقتان ، الحياء والرغبة ، طمع في رشده . وقال : لما بلغ ذو القرنين مطامع الشمس قال له ملك هناك : صف لي الناس ، فقال محادثتك من لا يعقل كمن ينفي الموتى ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبيل الصخر الأصم كي يلين ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ، ونقل الحجارة من رؤس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل . وقال : قرأت في بعض الكتب أن منادياً ينادي من السماء الرائحة كل صباح : أبناء الأربعة زرع قد دنا حصاده ، أبناء الحسين ما ذا قدمتم ؟ أبناء الستين لا عذر لكم ، ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، قد أتكم الساعة فغدوا حذركم . وقال : قال داوود : يا ملهي على زمن يلتبس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد ، إلا كالسبلة في أثر الحاصد ، أو كالنحلة في أثر القاطف ، يوشك نوافح أولئك وبواكيرهم أن تبكيهم . وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن مقل . قال : سمعت وهباً يقول في قوله تعالى : [ولضع الموازين القسط ليوم القيامة] قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بمعبد خيراً ختم له بخير عمله ، وإذا أراد الله بمعبد شراً ختم له بشر عمله . وقال وهب : إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال : أنا الله لا إله إلا أنا الذي خلقتكم وأنفيكم بحكمي حق قضائي وناقد أمري ، أنا أعيدكم كما خلقتكم ، وأنفيكم حتى أبقى وحدي ، فان الملك والخلود لا يحق إلا لي ، أدعو خلقي وأجمعهم بقضائي ، يوم أحشر أعدائي ، ونجل القلوب من هيبتي ، وتبهر الأسمعة من عبدي دوني .

قال : وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عصمته وجبروته وكبريائه ، وسلطانه وقدرته وملكوته وربوبيته ، فأنصت كل شيء وأطرق له ، فقال : أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال الملا ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء ، أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض ، ملأت كل شيء عظمتي ، وقهر كل شيء ملكي ، وأحاطت بكل شيء قدرتي ، وأحصى كل شيء علمي ، ووسعت كل شيء رحمتي ، وبلغ كل شيء لعاني ، فانا الله يا معشر الخلائق

فأعرفوا مكانى ، فليس شئ فى السموات والأرضين إلا أنا ، وخلقى كامم لا يقوم ولا يدوم إلا
بى ، وينقلب فى قبضتى ، ويدبش برزقى ، وحياته ودوته وبقاؤه وفناؤه بيدي ، فليس له شئ
ولا ملجأ غيرى ، لو تخليت عنه طرفه عين لدمركاه ، وكنت أنا على حال لا ينقصى ذلك شيئاً ،
ولا ينقص ذلك ملكى شيئاً ، وأنا مستغن بالرزق كله فى جبروتى وملكى ، وبرهان نورى ، ونسب
بطنى ، وعلو مكانى ، ومظلة شائى ، فلا شئ مثلى ، ولا إله غيرى ، وليس ينبغى لى خلفه
أن يعدل بى ولا يسكرنى ، وكيف يسكرنى من خلقته يوم خلقته على معرفتى ؟ أم كيف يكابرنى
من قهر قهره ملكى ؟ أم كيف يسخرنى من ناصبته بيدي ؟ أم كيف يعدل بى من أمره وأسلم جسمه
وأنتفى عقله وأنوفى نفسه وأخلقته وأهرمه فلا يتبع منى ؟ أم كيف يستكف عن عبادى عبدي
وابن عبدي وابن أمتى ، ومن لا ينسب إلى خالق ولا وارث غيرى ؟ أم كيف يبعد دوى من خلقه
الأيام ، ويفنى أجله اختلاف الليل والنهار ؟ وهما شبهة يسيرة من سلطانى ؟ قال : إن ما أهل الموت
والفناء ، لا إل غيرى ، قال : كتبت الرحمة على نفسى وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرنى ، أغفر
الذنوب جميعاً ، صغيرها وكبيرها لمن استغفرنى ، ولا يكبر ذلك على ولا يتماطنى ، فلا تلقوا بأيديكم
إلى التهلكة ولا تقنطروا من رحمتى ، فإن رحمتى سبقت غضفى ، وخزائن الظهور كلها بيدي ، ولم أخلق
شيئاً مما خلقت لم حاجة كانت منى إليه ، واسكن لأعين به قدرى ، وانظر الناظرين فى ملكى
ويتدبروا حكمتى ، وليسبحوا بحمدى ويبدونى لا يشركوا بى شيئاً ، ولتعبدوا الوجوه كلها إلى .

وقال أشرس من ذهب قال قال داود : إلهى أين أبعدك ؟ قال عند المنكسرة فلهم من مخافتى
وقال كان رجل من بنى إسرائيل صام سبعين أسبوعاً يفطر فى كل أسبوع يوماً وهو يسأل الله أن يريه
كيف ينوى الشيطان الناس ، فلما أن طال ذلك عليه ولم يحب ، قال فى نفسه : لو أقبلت على خطيئتى
وعلى ذنوبى وما بينى وبين ربى لكان خيراً من هذا الأمر الذى أطلب ، ثم أقبل على نفسه فقال :
يا نفس من قبلك أتيت ، لو علم الله نيك خيراً لقضى حاجتك . فأرسل الله ملكاً إلى نبيه : أن قل
لنلان العابد : إزراؤك على نفسك وكلامك الذى تكلمت به ، أوجب إلى عما مضى من عبادتك ،
وقد أجلب الله سواك ، وفتح بصرك فانظر الآن ، فنظر فإذا أحبولة لابليس قد أحاطت بالأرض ،
وإذا ليس أحد من بنى آدم الا وحده شياطين مثل الذهب ، فقال : إى رب ، من ينجو من هؤلاء ؟
قال صاحب القلب الواحد الأمين .

وقال ذهب : كان رجل من الساميين قائم على أرض فيها فناء فدعته نفسه إلى أخذ شئ منه ،
فما لبث أن قام مكانه يصل ثلاثة أيام ، فرّ به رجل وقد لوحنه الشمس والريح ، فلما نظر إليه قال :

سبحان الله !! لكأنما أحرق هذا الانسان بالنار ، فقال السائح : هكذا بلغ منى ما ترى خوف النار ، فكيف بي لو قد دخلتها ؟

وقال : كان رجل من الأولين أصاب ذنبا فقال : الله على أن لا يظلمنى ستف بيت ابدأ حتى تأتيني براءة من النار ، فكان بالصحراء فى الحر والقر ، فر به رجل فرأى شدة حاله فقال : يا عبد الله ما بلغ بك ما أرى ؟ فقال : بلغ ما ترى ذكر جهنم ، فكيف بي اذا أنا وقعت فيها ؟ . وقال : لا يكون البطلال من الحكماء أبدا ، ولا يرث الزناة من ملكوت السماء ، وقال وهب فى موعظته : اليوم يعظ السعيد ، ويستكثر من منافعه اللبيب ، يا ابن آدم إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإنما أوقدت فيه مصابيح الهدى لتنبيه لجز بك ، فلم أر كالיום ضل مع نوره منحير داع لمداداة سليم ، يا ابن آدم ! إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أفدر من طلبته فى يده ، ولا أضعف ممن هو فى يد طالبه ، يا ابن آدم إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة فى بقاء ما سيذهب ؟ يا ابن آدم اقصر عن طلب ما لا تدرك ، وعن تناول ما لا تناله ، وعن ابتغاء ما لا يوجد . واقطع الرجاء عنك كما قعدت به عنك الأشياء ، واعلم أنه رب مطلوب هو شر لطالبه ، يا ابن آدم إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها ، يا ابن آدم أى أيام الدهر ترتجى ؟ يوم يحبى فى غم أو يوم تستأخر عاقبته عن أوان مجيئه ؟ فانظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام ، يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بد منه ، ويوم يحبى لا تأمنه ، فأمس شاهد عليك مقبول ، وأمين مؤد ، وحكيم مؤدب ، قد نجعت بنفسه ، وخلف فيك حكمته . واليوم صديق مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظن بإياك ولم يأت ، وقد مضى قبله شاهد عدل ، فان كان ما فيه لك فاشفعه بمثله أوثق لك باجتماع شهادتهما عليك . يا ابن آدم إنما أهل الدنيا سفر لا يحلون عقد رحلهم إلا فى غيرها ، وإنما يتبلغون بالعوارى فيما أحسنه - يعنى الشكر - للنعيم والتسليم للعقاد ، يا ابن آدم إنما الشئ من مثله وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله ؟ إنما يقر الفرع بعد الاصل . يا ابن آدم إنه لا أعظم رزية فى عقله من ضيع اليقين وأخطأ العمل . أيها الناس ! إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، وسنبلى ثم نعود ، ألا وإنما العوارى اليوم والهبات غدا ، ألا وإنه قد تقارب منا سلب فاحش ، أو عطاء جزيل ، فأصاحوا ما تقدمون عليه بما تظعون عنه . أيها الناس ! إنما أنتم فى هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنيا كم نهب للمصائب ، لا تتألون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتخذ له زيادة فى ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحبى له أثر إلا مات له أثر . نسأل الله أن يبارك لنا ولكم فيما مضى من هذه العظة

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن مروان عن وهب بن منبه . عن الطريق ولم تستقم ^(١) لسائقها ، وإن فتر سائقها حزنت ، ولم تتبع قائدها : فإذا اجتمعما استقامتا طوعاً أو كرهاً ، ولا تستطيع الدين إلا بالطوع والكره ، وإن كان كلما كره الإنسان شيئاً من دينه تركه ، أو شك أن لا يبقى معه من دينه شيء . وقال وهب : إن من حكمة الله عز وجل أنه خلق الخلق مختلفاً خلقه ومقاديره ، فمنه خلق يدوم مادامت الدنيا ، لا تنقصه الأيام ولا تنهمسه وتبليه ويموت ، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق ، ومنه خلق يطعم ويرزق ، خلقه الله وخلق معه رزقه ، ثم خلق الله من ذلك خلقاً في البر وخلقاً في البحر ، ثم جعل رزق ما خلق في البحر وفي البر ، ولا ينفع رزق دواب البر دواب البحر ، ولا رزق دواب البحر دواب البر ، لو خرج مافي البحر إلى البر هلك ، ولو دخل مافي البر إلى البحر هلك ، ففي ذلك ممن خلق الله في البر والبحر عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق ، فإنه لا يكون فيها شيء إلا كما قسمه سبحانه بين خلقه ، لا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها ، كما لا يستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر ، ولا دواب البحر بأرزاق دواب البر ، ولو اضطرت إليه هلكت كلها ، فإذا استقرت كل دابة منها فيما رزقت أصاحبها ذلك وأحيائها ، وكذلك ابن آدم إذا استقر وقنع بما قسم الله له من رزقه أحياء ذلك وأصلحه ، فإذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضره وفضحه .

وقال لعطاء الخراساني : كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى مافي أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من شؤم وضعه عندهم ، فإياك يا عطاء وأبواب السلطان فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الابل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله .

وقال إبراهيم الجنيدي : حدثنا عبد الله بن أبي بكر المتقدم حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعاني قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم ، فقال : كيف صلاتك ؟ فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار يأتي عليه ساعة لا يصلي فيها ، قال : فكيف ذكرك للهوت ؟ قال : ما أرفع قدماً ولا أضغ أخرى إلا رأيت أني ميت . فقال : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ فقال : إني لأصلي وأبكي حتى ينبت العشب من دموعي ، فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدل بملك ، فإن المدل لا يرفع له عمل فقال : أوصني فإني أراك حكيماً ، فقال ازهد في الدنيا ولا تنازع أهلها فيها ، وإن فيها كالنخلة ، إن

(١) اكذا بالأصل وفيه نقص أو تحريف فليحرر .

أكلت أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن وقعت على عدو لم تكسره ، وانصح الله
 نصيح الكلب لأهله ، فانهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ،
 وينصح لهم . فكان وهب إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأناه إذا كان الكلب أنصح لأهله
 منك يا ابن آدم لله عز وجل . وفي رواية أنه قال : إني لأصلي حتى ترم قدمي ، فقال له : إنك إن
 تبت تائباً ، وتصبح نادماً ، خير لك من أن تبيت قائماً وتسبح معجبا ، إلى آخره . وروى سفيان
 عن رجل من أهل صنعاء عن وهب . فذكر الحديث كما تقدم .

وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثنا الطلح بن عاصم المرادي
 عن أبيه عن وهب قال : لما أهبط آدم من الجنة استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط عليه جبريل
 فقال : يا آدم ألا أعلمك شيئا تلتفع به في الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى . قال قل : اللهم تم لي النعمة
 حتى تهينني المعيشة ، اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرنني ذنوبي ، اللهم اكفني مؤنة الدنيا وكل هول
 في القيامة حتى تدخلني الجنة في عافية

وقال عبد الرزاق : حدثني بكار بن عبد الله عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب فوجدت
 الله تعالى يقول : يا ابن آدم ما أنصفتني ، تذكرني وتنساني ، وتدعو إلى وتفر مني ، خيري إليك
 نازل ، وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم قد نزل إليك من أجلك ، يا ابن آدم إن أحب ما تكون
 إلى وأقرب ما تكون مني إذا رضيت بما قسمت لك . وأبغض ما تكون إلى ، وأبعد ما تكون مني إذا
 سخطت بما قسمت لك . يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك ، ولا تملني بما يصلحك ، إني عالم بخلق ، وأنا
 أعلم بحاجتك التي ترفعك من نفسك ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وأهين من هان عليه أمرى ،
 لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر العبد في حقى . وقال وهب : قرأت ليغا وتسمين كتابا من كتب
 الله تعالى فوجدت في جميعها : أن من وكل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وقال : لا يسكن ابن
 آدم ، إن الله هو قسم الأرواق متفاضلة ومختلفة ، فان تقلل ابن آدم شيئا من رزقه فليزدد إلى الله
 رغبة ، ولا يقولن : لو اطلع الله على هذا من حالي ، أو شعر به غيره ؟ فكيف لا يطلع على شيء الذي
 خلقه وقدره ؟ أو يعتبر ابن آدم في غير ذلك بما يتفاضل فيه الناس ، كأن الله فاضل بينهم في
 الأجسام والأموال والألوان والعقول والأحلام ، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل عليه في الرزق
 والمعيشة ، ولا يكبر عليه أن يفضل عليه في الحلم والعلم والعقل والدين ، أولا يعلم ابن آدم أن الذي
 رزقه في ثلاثة أزمان من عمره لم يكن له في واحد منها كسب ولا حيلة ، أنه سوف يرزقه في الزمن
 الرابع . أول زمان من أزمانه حين كان في بطن أمه ، يخلق فيه ويرزق من غير مال كسبه ، وهو
 في قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حر ولا برد ، ولا شيء ولا هم ولا حزن ، وليس له هناك يد تبطش ،

ولا وجل نسي ، ولا لسان ينطق . فساق الله عز وجل إليه رزقه هناك على أنم الوجوه وأهناها وأمرها ، ثم إن الله عز وجل أراد أن يحوله من تلك المنزلة إلى غيرها . ويحدث له في الزمن الثاني رزقا من أمه يكفيه ويفنيه ، من غير حول منه ولا قوة ، ولا بطش ولا سعي ، بل تفضلا من الله وجوداً ، ورزقا أجراه وساقه إليه ، ثم أراد الله سبحانه أن ينقله من الزمن الثاني إلى الزمن الثالث من ذلك اللين إلى رزق يحدثه له من كسب أبويه ، بأن يجعل له الرحمة في قلوبهما حتى يؤثره على نفسيهما بكسبهما ، ويفنياه ويفنيه بأطيب ما يقدران عليه من الأغذية ، وهو لا يعينهما على شيء من ذلك بكسب ولا حيلة ، حتى إذا عقل حدث نفسه بأنه إنما يرزق بجعلته ومكسبه وسعيه ، ثم يدخل عليه في الزمن الرابع إساءة الظن بربه عز وجل ، فيضيع أواصر الله في طلب المعاش وزيادة المال وكثرته ، وينظر إلى أبناء الجنس وما عليه من التنافس في طاب الدنيا ، فيكسب بذلك ضعف اليقين والإيمان ، ويمتلئ قلبه فقرآ وخوفاً منه مع المتاع ، ويتلى بموت القلب وعدم العقل ، ولو نظر ابن آدم نظر معرفة وعقل لعل أنه لن يفنيه في الزمن الرابع إلا من أغناه ورزقه في الأزمان الثلاثة قبل ، فلا مقال له ولا معذرة مما سلط عليه في الزمان الرابع إلا برحمة الله ، فان ابن آدم كثير الشك يقصر به حكمه وعلمه عن علم الله والتفكر في أمره ، ولو تفكر حتى يفهم ، وتفهم حتى يعلم ، علم أن علامة الله التي بها يعرف ، خلقه الذي خلق ، ثم رزقه لما خلق ، وقدره لما قدر .

وقال عطاء الخراساني : لقيت وهباً في الطريق فقلت : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامى هذا وأوجز . فقال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : يا داود ، أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته ، فتكيد السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً ، أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بخلق دوني أعلم ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك .

وقال أبو بلال الأشمري عن أبي هشام الصنعاني قال : حدثني عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : كفاني للعبد مآلاً ، إذا كان عسدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له من قبل أن يدعوني ، فاني أعلم بحاجته التي رفق به من نفسه . وقال : قرأت في بعض الكتب أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل لأنه إذا كان مؤمناً عاقلاً ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال الصم ، إنه إذا زال المؤمن العاقل فلا يستطيعه ، فيتحوّل عنه إلى الجاهل فيستأمره ويتمكن من قياده . وقال : قام موسى عليه السلام فلما رآته بنتو إسرائيل قاموا ، فقال : على مكانكم ، ثم ذهب إلى الطور فاذا هو بنهر أبيض

فيه مثل رؤس الكشبان كافور مخفوف بالراحين ، فلما رآه أعجبه فدخل عليه فاغتسل وغسل ثوبه ، ثم خرج وجفف ثوبه ، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه ، فلبسه ثم أخذ نحو الكشيب الآخر الذي فوق الطود ، فاذا هو برجلين يحفران قبراً ، فقام عليهما فقال : ألا أعينكما ؟ قالا : بلى فنزل فحفر ، فقال لهما : لتحدثاني مثل من الرجل ؟ فقالا : على طولك وهيئتك ، فاضطجع فيه لينظروا فالتأمت عليه الأرض ، فلم ينظر إلى قبر موسى عليه السلام إلا الرخم ، فأصمها الله وأبكمها . وقال : يقول الله عز وجل : لولا أنى كتبت المتن على الميت لحبسہ الناس في بيوتهم ، ولولا أنى كتبت الفساد على اللحم لحرمه الأغنياء على الفقراء .

وقال : مرَّ عابد براهب فقال له : منذ كم أنت في هذه الصومعة ؟ قال : منذ ستين سنة ، قال : وكيف صبرت فيها ستين سنة ؟ قال : مرَّ فان الزمان يمر ، وإن الدنيا تمر ، ثم قال له : يا راهب كيف ذكر لك الموت ؟ قال : ما أحسب عبداً يعرف الله تأتى عليه ساعة إلا يذكر الموت فيها ، وما أرفع قدما إلا أظن أن لا أضمرها حتى أموت ، وما أضع قدما إلا وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت ، فحمل العابد يبكي ، فقال له الراهب : هذا بكائك إذا خلوت ؟ - أو قال : كيف أنت إذا خلوت ؟ - فقال العابد : إني لا أبكي عند إفطاري فأشرب شرابي بدموعي ، ويصرعني النوم فأبلى متاعى بدموعي ، فقال له الراهب : إنك إن تضحك وأنت معترف بذنبك خير لك من أن تبكي وأنت مدل على الله بملك . فقال : أوصني بوصية ، قال : كن في الدنيا بمنزلة النخلة ، إن أكات أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن سقطت على شيء لم تضره ، ولا تكن في الدنيا بمنزلة الحمار إنما همته أن يشبع ثم يرمى بنفسه في التراب ، وانصح لله نصيح الكلب لأهله ، فانهم يجيئونونه ويطردونه ، وهو يأبى إلا أن يجرسهم ويحفظهم . قال أبو عبد الرحمن أشرس : وكان طاوس إذا ذكر هذا الحديث بكى وقال : عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها منا لولانا عز وجل . وقد تقدم نحو هذا المتن .

وقال وهب : تخلى راهب في صومعته في زمن المسيح : فأراد إبليس أن يكيدَه فلم يقدر عليه ، فأنابه بكل مراد فلم يقدر عليه ، فأنابه متشبهاً بالمسيح فناده : أيها الراهب اشرف على أكلك فأنا المسيح ، فقال : إن كنت المسيح فإلى إليك من حاجة ، أليس قد أمرتنا بالعبادة ؟ ووعدتنا القيامة ؟ انطلق لشأنك فلا حاجة لي فيك . قال : فذهب عنه الشيطان خاسئا وهو حسير ، فلم يعد إليه . ومن طريق أخرى عنه قال : أتى إبليس راهباً في صومعته فاستفتح عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا المسيح ، فقال الراهب : والله لئن كنت إبليس لأخلون بك ، ولئن كنت المسيح فما عسى أن أصنع بك اليوم شيئا ، لقد بلغت رسالة ربك عز وجل قبلناها عنك ، وشرعت لنا الدين

فمنعني عليه ، فاذهب فلست بفاتح لك فقال : صدقت ، أنا إبليس ولا أريد إضلالك بعد اليوم أبداً
فسلني عما بدا لك أخبرك به . قال : وأنت صادق ؟ قال : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك فيه . قال :
فأخبرني أي أخلاق بني آدم أوثق في أنفسكم أن تضلوهم به ؟ قال ثلاثة أشياء : الجدة ، والشح ، والشكر
وقال وهب : قال موسى : يارب أي عبادك قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرك إذا خلا ،
قال : إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشي ،
وأجعل له في كنفى . وقال وهب : اتق عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له : رحمك الله ما هذا البناء الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : ما سترك من الشمس ، وأكنك من الغيث . قال : فما هذا الطعام الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع من غير تكاف . قال : فما هذا اللباس الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما ستر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوع ولا تلون . قال : فما هذا
الضحك الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما أسفر وجهك ولا يسمع صوتك . قال : فما هذا البكاء الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولا تبك على شيء من الدنيا .
قال : كم أخفى من عملي ؟ قال : ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة . قال : ما أعلن من عملي ؟ قال :
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يأتكم بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس . وقال : لكل
شيء طرفان ووسط ، فإذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا ، فمليكم
بالوسط من الأشياء . وقال : أربعة أحرف في التوراة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ،
والفقر الموت الأحر ، وكما تدين تدان ، ومن تجر فجر .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبيد الله أنه سمع وهب بن مسبه يقول : كان رجل
من أفضل أهل زمانه ، وكان يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال : إنا قد خرجنا عن الدنيا
وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفنا أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان
أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم ، وعلى الملوك في ملكهم ، أرانا يحب أحدنا
أن تقضى له الحاجة ، وإذا اشترى شيئاً أن يجابى لمكان دينه ، وأن يعظم إذا لقي الناس لمكان
دينه ، وجعل يعدد آفات العلماء والعباد الذين يدخل عليهم في دينهم من حب الشرف والتعظيم .
قال : فشاع ذلك الكلام عنه حتى بلغ ملك تلك البلاد ، فعجب منه الملك وقال لرؤس دولته : ينبغي
لهذا أن يزار ، ثم اتعدوا لزيارته يوماً ، فركب إليه الملك ليسلم عليه ، فأشرف العابد . وكان عالماً جيد
العلم بآفات العلوم والأعمال ودسائس النفوس - فرأى الأرض التي تحت مكانه قد سدت بأشغال
والفرسان ، فقال ما هذا ؟ فقيل له : هذا الملك قاصد إليك يسلم عليك لما بلغه من حسن كلامك

فقال : إنا لله ، وما أصنع به ؟ هلكننا والله إن لم نلقن الحجة من عند الله مع هذا الرجل ، وينصرف عنا وهو ماقت لنا ، ثم سأل خادمه : هل عندك طعام ؟ قال : نعم . قال : فأنت به فضمه بين أيدينا ، قال : هو شيء من ثمر الشجر ، وهو شيء من بقل وزيتون ، قال : فأنت به ، فأنت به ، ثم أمر بجماعته فاجتتهوا حول ذلك الطعام ، فقال : إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد منكم إليه ، ولا يقيم له أحد ، وأقبلوا على الأكل العنيف ، ولا يرفع أحد منكم رأسه ، امل الله أن يصرفه عنا وهو كاره لنا فأنت أخاف الفتنة والشبهة وانتلاء القلب منهما ، فلا نخاض إلا بنار جهنم . قال : فبكى القوم وبكى ذلك الرجل العالم ، فلما اقترب الملك من جيلهم الذي هم فيه ، ترجل الملك ومن معه من أعيان دولته وصعد في الجبل ، فلما وصل إلى قرب مكانهم أخذوا في الأكل العنيف ، فدخل عليهم الملك وهم يأكلون فلم يرفعوا رؤوسهم إليه ، وجعل ذلك العالم الفاضل يلف البقل مع الزيتون مع الكسرة الكبيرة من الخبز ويدخلها في فيه ، فلم عليهم الملك وقال : أيكم العابد ؟ فأشاورا إليه ، فقال له الملك : كيف أنت أيها الرجل ؟ فقال له : كالناس - وهو يأكل ذلك الأكل العنيف - فقال الملك : ليس عند هذا خير ، ثم أدبر الملك خارجا عنه ، وقال : ما عند هذا من علم . فلما نزل الملك من الجبل نظر إليه العابد من كوة وقال : أيها الملك ! الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي كاره - أو قال : الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به - وفي رواية ذكر ابن المبارك أنه قال : الحمد لله الذي صرفه عني وهو لي لائم .

وفي رواية أن هذا العابد كان ملكا ، وكان قد زهد في الدنيا وتركها ، لأنه كان قد دخل عليه رجل من بقايا أهل الجنة والعمل الصالح فوعظه ، فاقدم معه أن يصحبه ، وأنه يخرج عن الملك طلبا لما عنده في الدار الآخرة ، وأنه واقفه جماعة من بنيته وأهله ورؤس دولته ، فخرجوا برمتهم ، لا يرى أحد أين ذهبوا ، وكان هذا الملك من أهل المدل والخير والخوف من الله عز وجل ، وكان متسع الملك والمملكة ، كثير الأموال والرجال ، فساروا حتى أتوا جبلا في أطراف مملكته ، كثير الشجر والمياه ، فأقاموا به حيناً ، فقال الملك : إن نحن طال أمرنا ومقامنا في هذا الجبل ، سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدهونا ، وإني أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فنزل مكانا بعيداً عن الناس ، لعل أن نسلم منهم ويسلوا منا ، فساروا من ذلك الجبل طالبين بلاداً لا يعرفون ، فوجدوا بها جبلا فائيا من الناس ، كثير الأشجار والمياه ، قليل الطوارق ، وإذا في خدوته عين ماء جارية وأرض متسعة ، تزرع لمن أراد الزرع بها ، فزولوا به وبنوا به أما كن للعبادة والسكنى ، وزرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدهون بها ، وأشجار زيتون ، وجعلوا يزرعون بأيديهم ويأكلون ثم شاع أمرهم في بعض تلك البلاد القريبة من جيلهم ، فجعلوا يأتونهم ويوزرونهم ، إلى أن شاع

ذلك الكلام المتقدم عن ذلك العالم ، فبلغ ملك تلك البلاد فتصدم للزيارة ، فذكر القصة كما تقدم ، والله أعلم .

وقال وهب : أزهّد الناس في الدنيا - وإن كان عليها حريصا - من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب ، مع حفظ الامانات ، وأرغب الناس فيها وإن كان عنها معرضا ، من لم يبال من أين كسبه منها . حلّالا كان أو حراما ، وإن أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، وإن رآه الناس بخيلا فيما سوى ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل وإن رآه الناس جوادا فيما سوى ذلك .

وقال الطبراني : حدثنا معاذ بن المنثري حدثنا علي بن المديني حدثنا محمد بن عمرو بن مقسم قال سمعت عطاء بن مسلم يقول : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام في ألف مقام ، وكان إذا كلمه رؤي النور على وجهه موسى ثلاثة أيام ، ولم يمض موسى امرأة منذ كلمه ربه عز وجل . وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله بن عامر بن زرارة حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال : حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : سمعت ابن منبه البجلي يقول : إن النبوة أثقلا ومؤنة لا يحملها إلا القوى ، وإن يونس بن متى كان عبدا صالحا ، وكان في خلقه ضيق ، فلما حملت عليه النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل ، فرفضها من يده وخرج هاربا ، فقال الله تعالى لنبيه (ص) : [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] وقال : [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم] الآية ، وقال يونس بن بكير عن أبي إسحاق بن وهب بن منبه عن أبيه قال : أمر الله الريح أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء في الأرض إلا ألقته في أذن سليمان ، فلذلك سمع كلام النملة .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن وهب قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا ساح أربعين سنة أرى شيئا ، كأن يرى علامة القبول ، قال : فساح رجل من ولد ربيعة أربعين سنة فلم ير شيئا ، فقال : يارب إذا أحسنت وأساء والداي فسا ذنبي ؟ قال : فأرى ما كان يرى غيره . وفي رواية أنه قال : يارب إذا كان والداي قد أكلوا أضراسي أنا ؟ وفي رواية عنه أنه قال : يارب إذا كان والداي قد أساءا أحرم أنا إحسانك وبرك ؟ فأظلمته غمامة .

وروى عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن عبد العزيز بن مروان . قال : سمعت وهب ابن منبه يقول : مثل الدنيا والآخرة مثل ضربتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وقال : إن أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك بالله السحر . وروى عبد الرزاق قال : أخبرني أبي عن وهب قال : إذا صام الإنسان زاغ بصره ، فإذا أفطر على حلوة عاد بصره . وقال ابن المبارك

عن بكر بن عبد الله قال سمعت وهباً يقول : مر رجل عابد على رجل عابده فآذنه ففكر آ ، فقال له : مالك ؟ فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا . فقال : لا تعجب من مال كيف مال ، ولكن اعجب من استقام كيف استقام .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكر بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن بني إسرائيل أصابهم عقوبة وشدة ، فقال النبي : « ووددنا أن نعلم ما الذي يرضى ربنا فنقتبه » فأوحى الله عز وجل إليه : إن قومك يقولون : إذا أرضوهم رضيت ، وإذا أسخطوهم أسخطت . وقال عبد الله بن أحمد أيضاً : حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن خالد حدثني عمر بن عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن عيسى عليه السلام كان واقفاً على قبر ومعه الخواريون - أو نفر من أصحابه - قال : وصاحب القبر يدلي فيه ، قال : فذكروا من ظلمة القبر وضيئه ، فقال عيسى : قد كنتم فيما هو أصبق من ذلك ، في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع ، أو كما قال .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكر بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : كان رجل عابده من السياح أرادة الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يستطع منه شيئاً من ذلك ، فتمثل له حية وهو يصلي ، ففضى ولم يلتفت إليه ، فالتوى على قدميه فلم يلتفت إليه ، فدخل ثيابه وأخرج رأسه من عند رأسه فلم يلتفت ولم يستأخر ، فلما أراد أن يسجد التوى في موضع سجوده ، فلما وضع رأسه ليسجد فتح فاه ليلتقم رأسه ، فوضع رأسه فجعل يركه حتى استمكن من السجود على الأرض . ثم جاءه على صورة رجل فقال له : أنا صاحبك الذي أخوفك ، أتيتك من قبل الشهوة والغضب والرغبة ، وأنا الذي كنت أتمثل لك بالسباع والحيات فلم أستطع منك شيئاً ، وقد بدا لي أن أصادقك ولا آتيتك في صلاتك بعد اليوم . فقال له العابد : لا يوم خوفتني خفتك ، ولا اليوم بي حاجة في مصادقتك . قال : سلني عما شئت أخبرك . قال فبدأ عسيت أن أسألك ؟ قال : ألا تسألني عن مالك ما فعل به بعدك ؟ قال : لو أردت ذلك ما فارقته . قال : ألا تسألني عن أهلك من مات منهم ومن بقي ؟ قال : أنا مت قبلهم . قال ألا تسألني عما أضل به الناس ؟ قال : أنت أضلهم . فأخبرني عن أوثق ما في نفسك تضل به بني آدم . قال : ثلاثة أخلاق ، الشح ، والحدة ، والسكر . فان الرجل إذا كان شحيحاً قلنا ماله في عينه ورغبناه في أموال الناس ، وإذا كان حديداً تداولناه بيننا كما يتداول الصبيان الكرة ، ولو كان يحبي الموتى بدعوته لم نياس . وكل ما يدينه نهده ، لنا كلة واحدة . وإذا سكر قدناه إلى كل شروفضيحة وخزى وهوان كما تقاد القط إذا أخذ بأذنيه كيف شئنا

وقال وهب : أصاب أبواب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف في السجن سبع سنين ، وسخ بختنصر في السباع سبع سنين . وسئل وهب عن الدنانير والدرهم فقال : هي خواتيم رب العالمين ، فلا أرض لأيش بن آدم لا تأكل ولا تشرب ، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك ، وهي أرملة المائتين بها يتأدون إلى الشهوات . وروى داود بن عمر الفضي عن ابن المبارك عن معمر عن سالك ابن الفضل عن وهب قال : مثل الذي يدعو بغير عمل مثل الذي يرمي بغير وتر . وقال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن بن وهب قال : سمعت وهبا يقول : قال حكيم من الحكماء : إني لأستحي من الله عز وجل أن أعبد رجاء ثواب الجنة فقط ، وأكون كالأجير السوء ، إن أعطى عمل وإن لم يعط لم يعمل ، وإني لأستحي من الله أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن وهب عمل وإن ترك لم يعمل ، وإني أبتغي من الله ما لا يستخرج مني غيره .

وقال السري بن يحيى : كتب وهب إلى مكحول : إني قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس بحبة بشرقا ، فاطلب بما بطن من علم الأنسان عند الله بحبة ورايا ، واعلم أن إحدى الحبتين تمنع الأخرى . أو قال : سوف تملك الأخرى . وقال زافر بن سليمان عن أبي سفيان الشيباني قال : بلغنا أن وهب بن منبه قال قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله فتمارة تريد بها ربح الدنيا والآخرة ، الإعمال سفينتك التي تحمل عليها ، والنوكل على الله شرائها ، والدنيا بحرك ، والإيام ووجك ، والأعمال الصالحة فجاريتك التي ترجو رحمتها ، والذائلة هي هديتك التي ترجو بها كرامتك ، والحرص عليها يسيرها ويزحمها ، ورد النفس عن هواها مراسيمها ، والموت ساحاتها ، والله ملكها وإليه عيرها . وأحب النجار إلى الله وأقربهم منه أكثرهم بضاعة وأفضلهم نية ، وأخلصهم هدية . وأفضلهم إليه أقام بضاعة ، وأردأهم هدية ، وأخبرهم طرية ، فكأما حسنت تجارتك ازداد ربحك ، وكأما خلصت هديتك نكرم . وفي رواية عنه أنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله بضاعة تألك الأرباح من كل مكان ، واجعل سفينتك تقوى الله ، وحشوها التوكل على الله ، وشرائها الإيمان بالله ، وبحرك العلم النافع والعمل الصالح لعلك أن تنجو ، وما أراك بنجاح . وقال عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن رجل قال : إن لامل متشائما كلفيان المال .

وقال الطبراني : حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني حدثنا أبو قدامة همام بن مسلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا هبة بن منبه قال : سمعت عبيد بن وهب بن منبه يقول : الأجر من الله عز وجل معروض ، واسكن لا يستوجب من لا يعمل لمولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبعثه من لا ينظر إليه ، وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحرصها لا يجدها ، لا تسبق من سعى إليها ، ولا يتروكها من أبطأ عنها ، وطاعة الله تشرف من أكرمها ،

وتبين من أضعافها ، وكتاب الله يدل عليها ، والايمان بالله يحض عليها .

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا عمر بن عبد الرحمن سمعت وهب بن منبه يقول قال داود عليه السلام : يارب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة حسن العمل . قال : يارب أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر حسن الصورة كفر أو شكر ، هذان . وفى رواية ذكرها أحمد بن حنبل : أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر نخرت له فلم يرض به . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنى إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس حدثنا عبد الصمد ابن معقل عن وهب بن منبه قال : كان سائح يعبد الله تعالى ، فجاءه إبليس أو شيطان فتمثل بالإنسان فجعل يريه أنه يعبد الله تعالى ، وجعل يزيد عليه فى العبادة ، فأجبه ذلك السائح لما رأى من اجتهاده وعبادته ، فقال له الشيطان - والسائح فى مصلاه - : لو دخلنا إلى المدينة نغالطنا الناس وصبرنا على أذاهم وأمرنا ونهيننا ، كان أعظم لأجرتنا ، فأجابه السائح إلى ذلك ، فلما أخرج السائح إحدى رجله من باب مكانه لينطلق معه ، هتف به هاتف فقال : إن هذا شيطان أراد أن يقتلك . فقال السائح : رجل خرجت فى معصية الله وطاعة الشيطان لا تدخل معى : فما حولها من موضعها ذلك حتى تارق الدنيا ، فأنزل الله تعالى ذكره فى بعض كتبه فقال : وذو الرجل .

وقال وهب : أتى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظم الناس مكانه ، وهالهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك : سرّاً بينه وبينه - : أيها العالم ، اذبح جدياً مما يحمل لك أكل . ثم ادفعه إلى حق أصنعه لك على حديثه ، فاذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك ، فتأكل منه حلالاً ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذبح ذلك العالم جدياً ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم إلى هذا العالم لحم الخنزير ، أن يضموا بين يديه لحم هذا الجدى واجتمع الناس ، لينظروا أمر هذا العالم فيه أياً كل أم لا ، وقالوا إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحم الخنزير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدي ذلك العالم لحم ذلك الجدى الحلال المذكى ، فألهم الله ذلك العالم فألقى فى روعه وفكره ، فقال : هب أتى أكلت لحم الجدى الذى أعلم حله أنا ، فاذا أصنع من لا يعلم ؟ والناس إنما يتفكرون أكل ليقعدوا بى ، وهم لا يعلمون إلا أتى إنما أكلت لحم الخنزير . فبأكلون اقتداء بى ، فأكون ممن يحمل أوزارهم يوم القيامة ، لا أفل والله وإن قتلت وحرقت بالنار ، وأبى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومئ إليه ويأمره بأكله ، أى إنما هو لحم الجدى ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى ، فألحوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله ، فلما ذهبوا به ليقنلوه . قال له صاحب الشرطة : ما منعك أن تأكل من اللحم الذى ذكيت أنت ودفعته

إلى ؟ أظننت أن أتيتك بذيرة وخنتك فيما اتهمتني عليه ؟ ما كنت لأفعل والله . فقال له العالم : قد علمت أنه هو ، ولكن خفت أن يتأذى الناس بي ، وهم إنما ينتظرون أكل مني ، ولا يملكون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير ، وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنة لهم . فقال رحمه الله . فيلبيني للعالم أن يحذر المايب ، ويجتنب المذورات ، فإن زلته ونافسته مغاورة يقتدى بها الجاهل . وقال معاذ بن جبل : اتقوا زينة الحكيم ، وقال غيره : اتقوا زلة العالم ، فإنه إذا زل زل بزائه عالم كبير . ولا ينبغي له أن يستعين بالزلة وإن صغرت ، ولا يفعل الشخص التي تختلف فيها العلماء ، فإن العالم هو عصاة كل أمي من العوام ، بها يحصل على الحق ليسخصيه ، ويقول : رأيت فلانا العالم ، وفلانا وفلانا يفعلون ويفعلون ، وليجتنب العوائد النفسية ، فإنه قد يفعل أشياء على حكم المادة فيظنها الجاهل بجارته أو سنة أو واجبة ، كما قيل : سل العالم يصدقك ولا تقند بمناله الغريب ، ولكن سله عنه يصدقك إن كان ذا دين ، وكما أنشد النظر إلى غالسهم علماء زمانك هذا من خلق ، فإلى الظن بهما العالم وبجالتهم ولكن [من يهدي الله فهو لما تدرى] (من يضل فلن تجد له وليا مرشدا) .

وقال محمد بن عبد الملك بن زنجويه : حدثنا عبد الرزاق عن أبيه قال : قلت لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها كما رأيتها ، قال : ذهب ذلك عنى منذ ولدت القضاء . قال عبد الرزاق : تحدثت به معمرآ فقال : والحسن بعد ماولى القضاء لم يحمدا فهمه ، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر أنكيف حال من قد غرق في تاذروليت الدنيا من علماء زمانك هذا ، ولا سيما من بعد فتنة عمر لك ؟ فإن القلوب قد امتلأت بحب الدنيا ، فلا يجسد العلم فيها مرشدا ، فبالس من شئت منهم لتنظر مبادئ بحالهم وغاياتها ، ولا تستغنىك البدوات ، وإنما الأمور بمراقبتها وخواتمها ونشأتها ، وغاياتها . [ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب] وقال وهب : البلاء للذين كالتكال الدابة . وقال أبو بلال الأشمري عن أبي شهاب الصنعاني عن عبد الصمد عن وهب قال : من أصيب بشئ من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا منفر قال : سمعت وعبا يقول : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك طريق - أو قال سبيل - أهل البلاء فطلب نفسك فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن خالد حدثني أمية بن شبل عن عثمان بن بزديع قال : كنت مع وهب وسعيد بن جبيرة يوم عرفة فحدثت نخيل ابن عامر ، فقال وهب لسعيد : يا أبا عبد الله اكملك منذ خفت من الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأى وهي حامل لجاءنى الذى فى بطنها وقد خرج [تمر] وجهه ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصابه بلاء عده رجاء ،

وإذا أصابه رجاء عده بلاء . وروى عبد الله بن أحمد بسنده عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب : ليس من عبادي من سحر أو سحر له ، أو تكن أو تكن له ، أو تطير أو تطير له ، فن كان كذلك فليدع غيره ، فإنما هو أنا وخلق كلهم لي . وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا رباح بن جعفر بن محمد عن التيمي عن وهب أنه قال : دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة . قلت : هذا إنما هو لشدة الحساب وطول وقوف الأغنياء في الكرب ، كما قد ضربت الأمثال للشدائد . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار قال سمعت وهبا يقول : ترك المتكافأة من التعطيف . وقال الامام أحمد : حدثنا الحجاج وأبو النصر قالا : حدثنا محمد بن طلحة عن محمد بن جعدة عن وهب قال : من يتعبد يزدد قوة ، ومن يتكسل يزدد فترة . وقد قال غيره : إن حوراء جاءت في المنام في ليلة باردة فقالت له : قم إلى صلاتك فهي خير لك من نومة توهم بدنك . ورأيت في ذلك حديثا لم يحضرني الآن . وهذا أمر مجرب أن العبادة تنشط البدن وتلينه ، وأن النوم يكسل البدن فيفسده ، وقد قال بعض السلف لما تبع ضلة ابن أشيم حين دخل تلك الغيضة ، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح ، قال فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت ولي من الكسل والفتور مالا يملحه إلا الله عز وجل .

وقد قيل للحسن : ما بال المتعبدين أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالليل فالبسهم نورا من نوره . وقال يحيى بن أبي كثير : والله ما رجل يخلو بأهله عروسا أقرب ما كانت نفسه وآس ، بأشد سرورا منهم بمناجاة ربهم تعالى إذا خلوا به . وقال عطاء الخراساني : قيام الليل بحياة للبدن ، ونور في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البصر والأعضاء كلها ، وإن الرجل إذا قام بالليل أصبح فرحا مسرورا ، وإذا نام من حزبه أصبح حزينا مكسورا القلب كأنه قد فقد شيئا ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعا .

وقال ابن أبي الدنيا ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن منيع حدثنا هاشم بن القاسم أبو النصر حدثنا بكر بن حبيش عن محمد القرشي عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن بلال قال قال رسول الله (ص) : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، ونهاية عن الائم ، وتكفير عن السيئات ، ومطردة للشيطان عن الجسد » وقد رواه غيره من طرق : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » ويكفي في هذا الباب ما رواه أهل الصحيح والمسانيد عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويلا فارقده . فإذا استيقظ وذكّر الله انحلّت

عقدة ، وإذا ترضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان . وهذا باب واسع . وقد قال هود فيها أخبر الله عنه : [اعبدوا الله ما لكم من إله غير هـ] ثم قال : [ويزدكم قوة إلى قوتكم] وهذه القوة تشمل جميع القوى ، فيزيد الله ما يديه قوة في إيمانهم ويطهرهم ودينهم وتوكلهم ، وغير ذلك مما هو من جلس ذلك ، ويزدكم قوة في أسماهم وأبصارهم وأجسادهم وأموالهم وأولادهم وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عبيد الكرم حدثني عبد الصمد أنه سمع وهبا يقول : تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدم بين يديه ماله وما خلف مال غيره .

قالت : وهذا كما في الحديث « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ فقالوا : كلنا ماله أحب إليه من مال وارثه ، فقال : إن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » . قال : وسمعت وهبا على المنبر يقول : احفظوا حق ثلاثا ، إياكم وهوى متبعا ، وقرين سوء ، وإهجاب المرء بنفسه . وقد رويت هذه الألفاظ في حديث . وقال الامام أحمد : حدثنا يونس بن عبد الصمد بن معقل حدثنا إبراهيم بن الحجاج قال : سمعت وهبا يقول : أحب بنى آدم إلى الشيطان النورم الأكل .

وقال الامام أحمد : حدثنا غوث بن جابر حدثنا عمران بن عبد الرحمن أبو الهذيل أنه سمع وهبا يقول : إن الله عز وجل يحفظ الصالح القليل من الناس . وقال أحمد أيضا : حدثنا إبراهيم بن هاتيل حدثنا عمران أبو الهذيل من الأنبياء من وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان وكل به ، فأما الكافر فيأكل كل معه ويشرب معه ، ويشام معه على فراشه . وأما المؤمن فهو بجانب له ينظر حتى يصيب منه غفلة أو غرة . وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكل النورم . وقال محمد بن غالب : حدثنا أبو المنذر ابن أخي بشر بن منصور عن داود بن أبي هند عن وهب . قال : قرأت في بعض الكتب الذي أنزلت من السماء على بعض الأنبياء : أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : أنت ترى لم اتخذتك خليلا ؟ قال : لا يا رب ، قال : لئلا مقامك بين يدي في الصلاة .

وقال عبيد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن أيوب حدثنا أبو بكر بن هياش عن إدريس ابن وهب بن منبه قال : حدثني أبي قال : كان سليمان بن داود ألف بيت أهله قوارير وأسفله حديد فركب الريح يوما فر بمرات فنظر إليه الحراث فاستغلم ما أوتي سليمان من الملك ، فقال : لقد أوتي آل داود الملكا عظيما ، فغامت الريح كلام الحراث فألقت في أذن سليمان ، قال : فأمر الريح فوقفت ، ثم نزل بمشي حتى أتى الحراث فقال له : إلى قد سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تمنى مالا تقدر عليه مما أقدرني الله عليه تفضلا وإحسانا منه علي ، لأنه هو الذي أقامني لهذا وأعانني . ثم قال : والله للتسبيحة واحدة يقبلها الله عز وجل منك أو من مؤمن خير مما أوتي آل داود من الملك ، لأن

ما أوتى آل داود من ملك الدنيا يفنى ، والتسبيحة تبقى ، وما يبقى خير مما يقضى . فقال الحراث :
أذهب الله همك كما أذهبت همي

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن عقيل بن معقل حدثني أبي عن وهب بن منبه . قال :
إن الله عز وجل أعطى موسى عليه السلام نوراً ، فقال له هارون : هبه لي يا أخي ، فوهبه له ، فأعطاه
هارون ابنه ، وكان في بيت المقدس آتية لعمامها الأنبياء والملوك ، فكان ابن هارون يسقيان في
تلك الآتية الخمر ، فنزلت نار من السماء فاختطفت ابني هارون فصعدت بهما ، ففزع هارون لذلك
فقام مستغيثاً متوجهاً بوجهه إلى السماء بالدعاء والتضرع ، فأوحى الله إليه : يا هارون هكذا أفعل بمن
عصاني من أهل طاعتي ، فكيف فعلت بمن عصاني من أهل معصيتي ؟ . وقال الحكم بن أبان : نزل
بي ضيف من أهل صنعاء فقال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله عز وجل في السماء السابعة داراً
يقال لها البيضاء يجمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا ملئت الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه
عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم . وقال به من جعل شهوته تحت قدمه
فزع الشيطان من ظله ، فن غلب علمه هواء فذلك العالم الغلاب . وقال فضيل بن عياض : أوحى
الله تعالى إلى بعض أنبيائه : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلى ، وما يكابدون في طلب
مرضاتي ، فكيف بهم إذا صاروا إلى داري ، وتبجحوا في رياض نهمي ؟ هنالك فليبشر المضعفون
لله أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، أتراني أنسى لهم عملاً ؟ وكيف وأنا ذو الفضل العظيم
أجود على المولدين المعرضين عني ، فكيف بالمقبلين علي ؟ وما غضبت على شيء كغضبي على من أخطأ
خطيئة فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو تعاجلت بالعقوبة أحداً ، أو كانت المجلة من شأني ، لما جلت
القائطين من رحمتي . ولو رآني عبادي المؤمنون كيف أستوهمهم من اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن
وهبهم بالخلد المقيم ، انهموا فضلي وكرمي ، أنا الديان الذي لا نحل معصيتي ، والذي أطاعني أطاعني
برحمتي ، ولا حاجة لي بهوان من خاف مقامي . ولو رآني عبادي يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار
فيها الأبصار فيبالوني : لمن ذا ؟ فأقول : لمن وهب لي ذنباً مالم يوجب على نفسه معصيتي والقنوط
من رحمتي ، وإني مكافئ على المدح فامدحوني .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا سلمة بن عاصم حدثنا عبد الله بن محمد بن عقبة حدثنا عبد الرحمن
أبو طالوت حدثني مهاجر الأسدي عن وهب . قال : مرّ عيسى بن مريم ومعه الخواريون بقرية قد
مات أهلها ، إنسها وجنّها ، وهوامها وأنعامها وطيرورها ، فقام عليها ينظر إليها ساعة ثم أقبل على
أصحابه فقال : إنما مات هؤلاء بعباد من عند الله ، ولولا ذلك لما اتوا متفرقين . ثم ناداهم عيسى :
يا أهل القرية ، فأجابه بحبيب : لبيك يا روح الله ، فقال : ما كانت جنبايتكم وسبب هلاككم ؟ قال

والبعضاء لم يوثق منه بالنصيحة ، ومن عرف بالفجور والخسيسة لم يؤمن إليه في المحنة ، ومن انتحل فوق قدره جحد قدره ، ولا تستحسن . فبك ما تستعجب في غيرك . هذه الآثار رواها الطبراني عنه من طرق .

و روى داود بن عمرو عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خيثم . قال : قدم علينا وهب مكة فطلق لا يشرب ولا يتوضأ إلا من زمزم ، فقليل له : مالك في المساء العذب ؟ فقال : ما أنا بالذي أشرب وأتوضأ إلا من زمزم حتى أخرج منها ، إنكم لاتدرون ما ماء زمزم ، والذي نفسي بيده إن بها في كتاب الله طعام طهم ، وشفاء سقم ، ولا يحمد أحد إليها يتصلع منها رياء ، ابتغاء بركتها ، إلا تزعت منه داء وأحدثت له شفاء . وقال : النظر في زمزم عبادة . وقال : النظر فيها يحمل الخطايا حطاً . وقال وهب : مسخ يختنصر أسداً فكان ملك السباع ، ثم مسخ نسرأ فكان ملك الطيور ، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب ، وهو في كل ذلك يعقل عقل الانسان ، وكان ملكه قائماً يدبر ، ثم رد الله عليه روحه إلى حالة الانسان ، فدعا إلى توحيد الله وقال : كل إله باطل إلا إله السماء . فقليل له : أملت مؤمناً ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : آمن قبل أن يموت ، وقال بعضهم : قتل الأنبياء ، وحرق الكتب ، وحرق بيت المقدس ، فلم يقبل منه التوبة . هكذا رواه الطبراني عن محمد بن أحمد بن الفرج عن عباس بن يزيد عن عبد الرزاق عن بكار بن عبد الله . قال : سمعت وهب بن منبه يقول ، فذكره .

وقال وهب : كان رجل بمصر فسألهم ثلاثة أيام أن يطعموه فلم يطعموه ، فمات في اليوم الرابع فكفنوه ودفنوه ، فأصبحوا فوجدوا الكفن في حجرهم مكتوب عليه : قتلتموه حياً وبررتموه ميتاً ؟ قال يحيى : فأنا رأيت القرية التي مات فيها ذلك الرجل ، وما بها أحد إلا وله بيت ضيافة ، لا غنى ولا فقر . هكذا رواه يحيى بن عبيد الباقي عن علي بن الحسن عن عبد الله بن أخي وهب ، قال : حدثني عن وهب بن منبه فذكره . قال : وأهل القرية يمترون بذلك ، فن تم اتخذوا بيوتاً للضيغان والفقراء خوفاً من ذلك . وقال عبد الرزاق عن بكار عن وهب . قال : إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من النكوة . وقال إبراهيم بن الجنييد : حدثنا إبراهيم بن سعيد عن عبيد المنعم بن إدريس عن عبيد الصمد عن وهب بن منبه قال : مر نبي من الأنبياء على عابد في كهف جبل ، فقال إليه فلم عليه وقال له : يا عبد الله منذ كم أنت هاهنا ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قال : من أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر ، قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون ، قال : فأين تكون في الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل ، قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : وكيف لا أصبر وإنما هو يومى إلى الليل ، وأما أمس فقد مضى بما فيه ، وأما غد فلم يأت بعد . قال : فعجب النبي من قوله : إنما هو

وي إلى الليل . وبهذا الاسناد أن رجلاً من العباد قال لأمه : قطع الهوى فليست أهوى من الدنيا شيئاً . فقال له معلمه : أتفرق بين النساء والديوب إذا رأيتن معاً ؟ قال : نعم ، قال أتفرق بين الدنانير والدرهم والخصا ؟ قال نعم ، قال : يا بني إنك لم تقطع الهوى عنك ولكنك قد أو ثقتك فاحذر انقلابه .

وقال غوث بن جابر بن غيلان بن منبه : حدثني عتيل بن معقل عن وهب قال : عمل في نواحي الدين الثلاث ، فإن للدين نواحي ثلاثاً ، هن جماع الأعمال الصالحة أن أراد جمع الصالحات ، أولاهن ، عمل شكر الله على الأنعم الكثيرة المناديات الرائحات ، المظاهرات الباطنات ، الحادثات النذريات ، يعمل المؤمن شكر الله ورجاء تمامين « والناحية الثانية من الدين » رغبة في الجنة التي ليس لها ثمن وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها وفي العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر ، والناحية الثالثة من الدين « أن يعمل المؤمن فراراً من النار التي ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وإيست ، مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالحزان ، نبأها عظيم ، وشأنها شديداً ، والآخرة وحزنها فظيع ، ولا ينفل عن الفرار والله ذو باله منها إلا سفيه أحقر خاسر ، [قد يخسر الدنيا ذلك هو الخسران المبين] .

وقال إسحاق بن راهويه : حدثنا هبند الملك بن محمد الدماذي قال أخبرني محمد بن سعيد بن رمانة قال أخبرني أبي قال قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بل ، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتبع له ، ومن لم يأت الباب بمفتاح بأسنانه لم يفتح له . وقال محمد : حدثنا إسماعيل بن هبند الكريم حدثنا هبند الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : ركب ابن ملك في جند من قومه وهو شاب ، فصرع عن فرسه فسقط عنقه فمات في أرض قريبة من القرية ، فغضب أبوه وحلف أن يقتل أهل تلك القرية عن آخرهم ، وأن يطأهم بالأفيال ، فماتت الأفيال وطنته الخيل ، فماتت الخيل وطنته الرجال ، فتوجه إليهم بعد أن سقى الأفيال والخيل الحرق وقال : طأوم بالأفيال ، وإلا فما أبتت الأفيال فلتطأ الخيل ، فما أخطأته الخيل فلتطأ الرجال فلما سمع بذلك أهل تلك القرية وعرفوا أنه قد قصد قتلهم ، خرجوا بأجمعهم فجاروا إلى الله سبحانه ومجوا إليه وابتهلوا يدعونه تعالى ليكشف عنهم شر هذا الملك الظالم ، وما قصد من هلاكهم . فبينما الملك وجيشه سائرون على ذلك ، وأهل القرية في الأبتال والدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، إذ نزل فارس من السماء فوقع بينهم ، ففترت الأفيال فطنت على الخيل وطنت الخيل على الرجال ، فقتل الملك ومن معه وطأ بالأفيال والخيل ، ونهى الله أهل تلك القرية من بأسهم وشرم . وروى هبند الرزاق عن المنصور بن النعمان أنه سمع وهباً يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت

المقدس : لأضمنّ عليك عرشي ، ولأحشرن عليك خلقي ، وليأتينك داود يومئذ راكباً . وروى
سماك بن الفضل عن وهب قال : إني لأنتقد أخلاق وما فيها شيء يعجبني . وروى عبد الرزاق عن
أبيه قال قال وهب : ربما صليت الصبح بوضوء العتمة . وقال بقية بن الوليد : حدثنا زيد بن خالد
عن خالد بن معدان عن وهب قال : كان نوح عليه السلام من أجل أهل زمانه ، وكان يلبس البرقع
فأصابهم مجاعة في السفينة ، فكان نوح إذا تجلّى لهم شبعوا . وقال قال عيسى : الحق أقول لكم :
إن أشدكم جزعاً على المصيبة أشدكم حبالاً للدنيا . وقال جعفر بن برقان : بلغنا أن وهباً كان يقول :
طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره ، وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذل
والمسكنة ، وتصديق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ، ووسعت السنة
ولم يتعدّها إلى البدعة . وروى سيار عن جعفر عن عبد الصمد بن معقل عن وهب قال : وجدت
في زبور داود : يا داود هل تدري من أسرع الناس مرّاً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي ،
وأسلّتهم رطبة بذكري . وقيل إن عابداً عبد الله تعالى خمسين سنة فأوحى الله إلى نبيهم : إني قد
غفرت له ، فأخبره ذلك النبي ، فقال : أي رب ، وأي ذنب تغفر لي ؟ فأمر عرقاً في عنقه فضرب
عليه ، فلم ينم ولم يهدأ ولم يصل ليلته ، ثم سكن العرق ، فشكا ذلك إلى النبي ، فقال : ما لاقيت
من عرق ضرب على في عنقي ثم سكن . فقال له النبي : إن الله يقول : إن عبادك خمسين سنة
ما تعدل سكون هذا العرق . وقال وهب : رهوس النعم ثلاثة « إحداها » نعمة الاسلام التي لا تتم
نعمة إلا بها . « والثانية » نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها . « والثالثة » نعمة الغنى التي
لا يتم العيش إلا بها . ومر وهب بمبتلى أعشى مجذوم مقعد عريان به وضع وهو يقول : الحمد لله على
نعمه ، فقال له رجل كان مع وهب : أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليه ؟ فقال المبتلى : آدم
بصرك إلى أهل المدينة وانظر إلى كثرة أهلها ، أولاً أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري .
وقال وهب : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليعلم ، ويتكلم ليعلمهم ، ويخلو ليعلم . وقال : المؤمن مذكر
مذكر مدخر ، تذكر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصارحراً ، ألقي عنه
الحسد فظهرت له المحبة ، زهد في كل شأن فاستكمل العقل ، رغب في كل باق فعقل المعرفة ، قلبه
منعلق بهمه ، وهمه موكل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحه إذا
نامت العيون يتلو كتاب الله ويردده على قلبه ، مرة يفرغ قلبه ومرة تدمع عينه ، يقطع عنه الليل
بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالتلاوة والعزلة ، مفكراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله . وقال وهب : فهذا
ينادي يوم القيامة في ذلك الجمع العظيم على رهوس الخلائق : قم أيها الكريم فادخل الجنة .
وقال إبراهيم بن سعيد عن عبيد الرحمن بن مسعود عن ثور بن يزيد . قال قال وهب بن منبه :

الويل لكم إذا ساءكم الناس صالحين ، وأكرمكم على ذلك . وقال الطبراني : حدثنا عبيد بن محمد الكشوري حدثنا همام بن سلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت حمى وهب بن منبه يقول : يا بني ! اخلاص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق بها فعلك في العلانية ، فان من فعل نجياً ثم أسره إلى الله فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضع عند حافظه وإن من أسره عملاً صالحاً لم يطلع عليه إلا الله ، فقد أطلع عليه من هو حسبه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره . فلا تخافن يا بني على من عمل صالحاً أسره إلى الله عز وجل ضياعاً ، ولا تخافن ظلمة ولا هزيمة ، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فان مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجرة مع عرقها ، العلانية ورقها والسريرة أصلها ، إن يحرق العرق هلكت الشجرة كلها ، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة ، ثمها وورقها ، والورق يأتي عليه حين يجف ويصير هباء تذرؤه الرياح ، بخلاف العرق ، فانه لا يزال مظهر من الشجرة في خير وعافية ما كان عرقها مستخفياً لا يرى منه شيء ، كذلك الدين والعلم والعمل ، لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانية العبد ، فان العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، ولا تنفع العلانية مع السريرة الفاسدة ، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياته من قبل عرقها ، فان فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين ، فان العلانية معها تزين الدين وتجمله إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضا ربه عز وجل .

وقال الهيثم بن جميل : حدثنا صالح المري عن أبان عن وهب قال : قرأت في الحكمة : الكفر أربعة أركان ، ركن منه الغضب ، وركن منه الشهوة ، وركن منه الطمع ، وركن منه الخوف . وقال : أوحى الله تعالى إلى موسى : إذا دعوتني فكن خائفاً مشفقاً وجللاً ، وعفراً خدك بالتراب ، واسجد لي بمكارم وجهك ويديك ، وسلني حين تسألني بخشية من قلبك ووجل ، واخشني أيام الحياة ، وعلم الجهال آلائي ، وقل لعبادي لا يتمادوا في غي مام فيه فان أخذني أليم شديد . وقال وهب : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به دخل النقص على أهل مملكته ، وقلت البركات في التجارات والزراعات والضروع والمواشي ، ودخل الحق في ذلك ، وأدخل الله عليه الذل في ذاته وفي ملكه . وإذا هم بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخيرون والبركات . وقال وهب : كان في مصحف إبراهيم عليه السلام أيها الملك المبتي ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا لتبني البليان ، وإنما بعثتك لترفع لي دعوة المظلوم فاني لا أرد لها ولو كانت من كافر .

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن ذا القرنين قال لبعض الملوك : ما بال ملتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ قال : من قبل أنا لا نخادع ولا نفتاب بعضنا بعضاً . وروى

ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه أصاب البر ، سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني سدة بن شبيب حدثنا سهل بن عاصم عن سدة بن ميمون عن المماني بن عمران عن إدريس قال : سمعت وهبا يقول : كان في بني إسرائيل رجالان بلغتهما عبادتهما أنهما مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان على البحر إذاهما برجل يمشي في الهواء ، فقالا له : ما عبد الله بأى شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : يسير من البر فعلته ، ويسير من الشر تركته ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لسائق عما لا يميني ، ورغبت فيما دعاني إليه خالقي ، ولزمت الصمت فإن أقسمت على الله عز وجل أبر قمى ، وإن سألته أعطاني . وقال : حدثني أبو العباس البصري الأزدى عن شيخ من الأزد . قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علمني شيئا ينفعني الله به ، قال : أكثر من ذكر الموت ، واقصر أملك ، وخصلة فائسة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى قال : وما هي ؟ قال : التوكل .

ومن توفي فيها من الأعيان

سليمان بن سعد

كان جيلا فصيحاً عالماً بالعربية ، وكان يملها الناس هو وصالح بن عبد الرحمن الكاتب ، وتوفي صالح بعده بقليل ، وكان صالح فصيحاً جيلاً عارفاً بكتابة الديوان ، وبه يخرج أهل العراق من كتابة الديوان وقد ولاه سليمان بن عبد الملك خراج العراق .

أم الهذيل

لها روايات كثيرة ، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتى عشر سنة ، وكانت فقيهة عالمة ، من خيار النساء ، عاشت سبعين سنة .

عائشة بنت طلحة بن عبد الله التميمي

أمها أم كلثوم بنت أبي بكر ، تزوجت بآبن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم تزوجت بعده بمصعب بن الزبير ، وأصدقها مائة ألف دينار ، وكانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن لم يكن في زمانها أجمل منها . توفيت بالمدينة .

عبد الله بن سعيد بن جبير

له روايات كثيرة ، وكان من أفضل أهل زمانه ،

عبد الرحمن بن أبان

ابن عثمان بن عفان . له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة

ثم دخلت سنة احدى عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى^(١) ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى^(٢) ، حتى بلغ قيسارية من بلاد الزوم . وفيها عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلي عن إمرة خراسان وولى عليها الجنيد بن عبد الرحمن ، فلما قدم خراسان تلقته خيول الاتراك منهزمين من المسلمين ، وهو في سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالا شديداً ، وطعوا فيه وفيمن معه لقتلهم بالنسبة إليهم ، ومعهم ملكهم خاقان ، وكاد الجنيد أن يهلك ، ثم أغفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة ، وأسر ابن أخى ملكهم ، وبعث به إلى الخليفة . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام الخزومي ، وهو أمير الحرمين والطائف ، وأمير العراق خالد البصري ، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المري .

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح حصوناً من ناحية ملاطية . وفيها سارت الترك من اللان فلقبهم الجراح بن عبد الله الحكى فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان ، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه ، فاستشهد الجراح رحمه الله وجماعة معه بمرج أردبيل ، وأخذ العدو أردبيل . فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الجرشى بجيش وأمره بالأسراع إليهم ، فلحق الترك وهم يسرون بأسارى المسلمين نحو ملكهم خاقان ، فاستنقذ منهم الأسارى ومن كان معهم من نساء المسلمين ، ومن أهل الذمة أيضاً ، وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً ، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبرا ، وشفى ما كان تغاث من القلوب ، ولم يكتب الخليفة بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك ، فسار إليهم في برد شديد وشتاء عظيم ، فوصل إلى باب الأبواب واستخلف عنه أميراً وسار هو بمن معه في طلب الاتراك وملكهم خاقان ، وكان من أمره معهم ما سئد كره . ونهض أمير خراسان في طلب الاتراك أيضاً في جيش كثيف ، فوصل إلى نهر بلخ ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفاً ، وأخرى عشرة آلاف يمنية ويسرة ، وجاشت الترك وجيشت ، فأتوا سمرقند فكتب أميرها إليه يعلمه بهم ، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم ، ومعهم ملكهم الأعظم خاقان ، فالتوث الفوث . فسار الجنيد مسرعاً في جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقى بينه وبينها أربعة فراسخ ، فصعبه خاقان في جمع عظيم ، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فأنحازوا إلى السكر والترك تقبعم من كل جانب ، فترامى الجمعان والمسلمون يتغدون ولا يشعرون بالهزام مقدمتهم وأنحيازها إليهم ، فنهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم ، وذلك في مجال واسع ، ومكان بارز ، فالتقوا وحملت الترك على يمينه المسلمين وفيها بنو تميم والازد ، فقتل منهم ومن غيرهم خلق

(١) أى البلاد الواقعة في ساحل بلاد الأناضول (٢) أى بر الأناضول من جهة البلاد الداخلية

كثير ، ممن أراد الله كرامته بالشهادة ، وقد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادى خاقان : إن صرّرت إلينا جملتناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك ، فقال : وبحكم ، إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله . ثم تناهى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان ، وصبروا وصابروا ، وحملوا على الترك حملة رجل واحد ، فبرزهم الله عز وجل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين ، فأتاه الله وإنا إليه راجعون ، وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة فحلبوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم ، فأتاه الله وإنا إليه راجعون . وهذه الواقعة يقال لها وقعة الشهيد . وقد بسطها ابن جرير جداً . ومن توفى فيها من الأعيان :

رجاء بن حيوة الكندي

أبو المقدم ، ويقال أبو نصر ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر ، ثقة فاضل عادل ، وزير صدق خلفاء بني أمية ، وكان مكحول إذا سئل يقول : سألت شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة وثقوه في الرواية ، وله روايات وكلام حسن رحمه الله .

شهر بن حوشب الأشعري الحمصي

ويقال إنه دمشقي ، تابعي جليل ، روى عن مولاته أسباط بنت يزيد بن السكن وغيرها ، وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان عالماً عابداً ناسكاً ، لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بنهر إذن ولي الأمر ، فعابوه وشكوه عرضة ، وتركوا حديثه وألشدوا فيه الشر ، منهم شعبة وغيره ، ويقال إنه سرق غيرها فأنه أعلم . وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثبوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده ، وقالوا : لا يقدح في روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه ، وقد كان والباعليه متصرفاً فيه فأنه أعلم . قال الواقدي : توفى شهر في هذه السنة - أعني سنة اثنى عشرة ومائة وقيل قبلها بسنة وقيل سنة مائة فأنه أعلم . ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش ، وفيها صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها ، وقد أخذ أميرهم رجلاً منهم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك . وفيها غل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الترك فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هاشم الخزومي ، فأنه أعلم . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . ومن توفى فيها من الأعيان قال ابن جرير : فيها كان مهلك

الأمير عبد الوهاب بن بخت

وهو مع البطل عبد الله بأرض الروم قتل شهيداً وهذه ترجمته

هو عبد الوهاب بن بخت أبو عبيدة ويقال أبو بكر ، مولى آل مروان مكي ، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة ، روى عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجماعة من التابعين . وعنه خلق منهم أيوب ومالك ابن أنس ويحيى بن سعيد الأنصاري وعبيد الله العمري ، حديثه عن أنس مرفوعاً « نصر الله امرأ سمع مقالتي هذه فوعاها ثم بلغها غيره ، قرب حامل نفسه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، كأن دعوتهم تحيط من دراهمهم » . وروى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : « إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه فإن حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه » . وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعة من أئمة العلماء . وقال مالك : كان كثير الحج والعمرة والفزوة ، حتى استشهد ولم يكن أحق بما في رحله من رفقائه ، وكان ممحاً جواداً ، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبي محمد عبد الله البطال ، ودفن هناك رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله خليفة وغيره ، وذلك أنه لقي العدو ففر بعض المسلمين ، فحمل ينادي ويركض فرسه نحو العدو : أن هلموا إلى الجنة ، ويحكم أفراراً من الجنة ؟ أتفرون من الجنة ؟ إلى أين ويحكم لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء ؟ ثم قاتل حتى قتل رحمه الله .

مكحول الشامي

تابعي جليل القدر ، إمام أهل الشام في زمانه ، وكان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل مولى امرأة من آل سعيد بن العاص ، وكان نوبياً ، وقيل من سبي كابل ، وقيل كان من الأبناء من سلالة الأكاسرة وقد ذكرنا نسبه في كتابنا التكميل . وقال محمد بن إسحاق : سمعته يقول : طفت الأرض كلها في طلب العلم : وقال الزهري : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن البصري بالبصرة ، والشامي بالكوفة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : كان لا يستطيع أن يقول قل ، وإنما يقول كل وكان له وجاهة عند الناس ، مهما أمر به من شيء يفعل . وقال سعيد بن عبد العزيز : كان أفقه أهل الشام ، وكان أفقه من الزهري . وقال غير واحد : توفي في هذه السنة ، وقيل بعدها قاله أعلم :

[مكحول الشامي هو ابن أبي مسلم ، واسم أبي مسلم شهزاد بن شاذل . كذا نقلته من خط عبد الحمادي ، وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زيد في عقله . وقال مكحول في قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال : بارد الشراب ، وظلال المساكن وشبع البطون ، واعتدال الخلق ، ولذاذة النوم . وقال : إذا وضع الجاهلون أقدامهم عن دوابهم أتمها الملائكة ، فسحبت ظهورها ودعت لها بالبركة ، إلا دابة في عنقها جرس] (١) .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وعلى النبي سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام : وفيها التقى عبد الله البطل وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين ، وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي (ص) ، فأسره البطل ، فأرسله إلى سليمان بن هشام ، فسار به إلى أبيه . وفيها عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وولى عليها أخاه محمد بن هشام فحج بالناس في هذه السنة في قول ، وقال الواقدي وأبو معشر : إنما حج بالناس خالد بن عبد الملك بن مروان والله أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان :

عطاء بن أبي رباح

الفهري مولاهم أبو محمد المكي ، أحد كبار التابعين الثقات الرفقاء ، يقال إنه أدرك مائتي صحابي وقال ابن سعد : سمعت بعض أهل العلم يقول : كان عطاء أسود أعور أفتس أشل أعرج ، ثم عمى بعد ذلك ، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، وقال أبو جعفر الباقر وغير واحد : ما بقي أحد في زمانه أعلم بالناسك منه ، وزاد بعضهم ، وكان قد حج سبعين حجة ، وعمر مائة سنة ، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف ويفدي عن إفطاره ، ويتأول الآية [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] وكان ينادى منادى بنى أمية في أيام منى : لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح ، وقال أبو جعفر الباقر : ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه ، وقال الأوزاعي : مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم . وقال ابن جريج : كان في المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس به صلاة . وقال قتادة : كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار . وقال عطاء إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأنني لم أكن سمعته ، وقد سمعته قبل أن يولد ، فأريه أني إنما سمعته الآن منه . وفي رواية : أنا أحفظ منه له فأريه أني لم أسمع . الجمهور على أنه مات في هذه السنة رحمه الله تعالى والله أعلم .

فضيلة

أسند أبو محمد عطاء بن أبي رباح - واسم أبي رباح أسلم - عن عدد كثير من الصحابة ، منهم ابن عمر وابن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهني ، وأبو سعيد . وسمع من ابن عباس التفسير وغيره . وروى عنه من التابعين عدة ، منهم الزهري ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير ، وقاتادة ، ويحيى بن كثير ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن أبي ثابت ، والأعمش ، وأيوب السخيتاني ، وغيرهم من الأئمة والأعلام كثير . قال أبو هرزان : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول :

من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل . قال أبو هريرة : قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف تعلى ، كيف تصوم ، كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشتري .

وقال العبداني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة الصنعاني . قال : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى : [وكن في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون] قال : كانوا يقرضون الدرام ، قيل كانوا يقهضون منها ويقطعونها . وقال الثوري عن عبد الله بن الوليد - يعني الوصافي - قال : قلت لعطاء : ما ترى في صاحب قلم إن هو كتب به طش هو وعباله في سمة ، وإن هو تركه افتقر ؟ قال : من الرأس ؟ قلت القسري لخالد . قال عطاء : قال العبد الصالح : [رب بما أذنت هل فإن أكون ظهيراً للجرمين] . وقال : أفضل ما أوتي العباد العقل عن الله وهو الدين . وقال عطاء : ما قال العبد : يا رب ، يا رب ، ثلاث مرات إلا انفار الله إليه ، قال : فذكرت ذلك لحسن فقال : أمانترؤن القرآن [ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فافقر لنا ذنوبنا وكفرنا سيئاتنا] إلى قوله : [فاستجاب لهم ربهم] الآيات .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عبد الله السلمي حدثنا ضمرة عن هريرة بن الورد قال قال عطاء : إن استطعت أن تخلو بنفسك حشية حرة فافعل . وقال سميد بن سلام البصري : سمعت أبا حنيفة النعمان يقول : لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة . قال : أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعة ؟ قلت : نعم . قال : فن أي الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لا يسب الساف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب : فقال عطاء : هرفت فإلزم . وقال عطاء : ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من الاسناد . وقيل لعطاء : إن هاهنا قوما يقولون : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فقال : [والذين امنوا زادهم هدى] فاهذا الهدى الذي زادهم ؟ قلت : ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله ، فقال : قال تعالى : [وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة] لجمل ذلك ديننا . وقال يعل بن عبيد : دخلنا على محمد بن سرة فقال : ألا أحدثكم بحديث لله أن ينفعكم ، فإنه نفعي ، قال لي عطاء بن أبي رباح : يا ابن أخي إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يمدون فضول الكلام [نما] ، ما هذا كتاب الله أن يقرأ ، وأمرهم عرف أو نهى عن منكر ، أو ينطاق السبد بما جنته في معيشته التي لا بد له منها ، أتسكرون : [وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين] و : [عن اليمين ومن الشمال كتيبة ، ما ينظرون قول إلا لديه رقيب عتيد] أما يستحي أحدكم

لونشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه .
 وقال : إذا أنت خفت الحر من الليل فاقرا : بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .
 وروى الطبراني وغيره أن الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس ، فلما مات ابن عباس
 كانت لعطاء بن أبي رباح . وروى عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن الفضل بن دكين عن سفيان عن
 سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحدا يطلب بعمله ما عند الله تعالى إلا ثلاثة ، عطاء ، وطاوس ،
 وبجاهد . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا عمر بن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ،
 وما رأيت على عطاء قبضا قط ، ولا رأيت عليه ثوبا يساوي خمسة دراهم . وقال أبو بلال الأشعري :
 حدثنا قيس عن عبيد الملك بن جريج عن عطاء : أن يعلى بن أمية كانت له صحبة ، وكان يقعد في
 المسجد ساعة ينوي فيها الاعتكاف . وروى الأوزاعي عن عطاء قال : إن كانت فاطمة بنت رسول
 الله (ص) لتعجن ، وإن كانت قصتها لتضرب بالجفنة . وعن الأوزاعي عنه قال : [ولا تأخذكم بهما
 رأفة في دين الله] قال : ذلك في إقامة الحد عليهما .

وقال الأوزاعي : كنت باليمامة وعليها رجل وال يمنحن الناس من أصحاب رسول الله (ص) ،
 إنه منافق وما هو بمؤمن ، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسرى منافقا وما يسميه مؤمنا ،
 فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ، قال : فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك فقال : ما أرى بذلك بأسا
 يقول الله تعالى : [إلا أن تتقوا منهم تقاة] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يعطيل الصمت
 فإذا تكلم تخيل الينا أنه يؤيد . وقال في قوله تعالى : [لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله] قال :
 لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التي افترضها عليهم أن يؤدوها في أوقاتها
 وأوائلها . وقال ابن جرير : رأيت عطاء يطوف بالبيت فقال لقائمه : امسكوا احفظوا عني خمسا :
 القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض . وأهل قبلتنا
 مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال والسلاح ، والشهادة
 على الخوارج بالضلالة . وقال ابن عمر : فجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح .

وقال معاذ بن سعد : كنت جالسا عند عطاء فحدث بحديث ، فعرض رجل له في حديثه فنضب
 عطاء وقال : ما هنه إلا خلاق ؟ وما هنه الطبائع ؟ والله إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه
 فأريه أني لأحسن شيئا منه . وكان عطاء يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا خيرا من أن أرى فيه
 وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن علي بن المديني عن يحيى بن سعيد
 عن ابن جرير قال : كان عطاء بعد ما بكر وضف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة

وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك . وقال ابن هبينة : قلت لابن جرير : ما رأيت مصليا مثلك . فقال : لو رأيت خطاء ؟ . وقال عطاء : إن الله لا يحب الفتي يلبس الثوب المشهور ، فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب . وكان يقال : يلبس للمبسد أن يكون كالريض لا بد له من قوت ، وليس كل العلمام يوافقه . وكان يقال : الدهوة تعنى دين الحكيم فكيف بالجاهل ؟ ولا تقنطن ذا لسة بما هو فيه فانك لا تدري إلى ماذا يصير بعد الموت [(١)]

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها وقع طاعون بالشام ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل وهو نائب الحرمين والطائف . والنواب في سائر البلاد المذكورون في التي قبلها والله أعلم . ومن توفى فيها من الأعيان أبو جعفر الباقر

وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر ، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر كثيرا ، أحد أعلام هذه الأمة علماء وعلماء وسيادة وشرفا ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقة ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح في الأثر ، وقال أيضا : ما أدركت أحدا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما . وقد روى عن غير واحد من الصحابة ، وحدث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم . فمن روى عنه ابنه جعفر الصادق ، والحكم بن هنيبة ، وربيع ، والأشعث ، وأبو إسحاق السبيعي ، والأوزاعي والأعرج ، وهو أسن منه ، وابن جريج وعطاء وعمر بن دينار والزهرى . وقال سفيان بن هبينة عن جعفر الصادق قال : مدني أبي وكان خير محمدى يومئذ على وجه الأرض ، وقال العجل : هو مدني تابعي ثقة ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وكانت وفاته في هذه السنة في قول وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها أو في التي هي بعدها وبعد بعدها والله أعلم . وقد جاوز السبعين وقيل لم يجاوز الستين فله أعلم .

قُضِيَ بَلَدُهُ

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان أبوه علي زين العابدين ، وبيته الحسين قتيلا شهيدين بالعراق . وصلى الباقر بقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذا كرا خاشعا صابرا وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالي الحساب ، وكان عارفا بالخطرات ، كثير البسكاء والمبرات معرضا عن الجدال والمصومات .

(١) زيادة من المصرية .

قال أبو بلال الأشعري : حدثنا محمد بن مروان عن ثابت عن محمد بن علي بن الحسين في قوله تعالى : [أولئك يجزون الغرفة بما صبروا] قال : الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر في الدنيا . وقال عبد السلام بن حرب عن زيد بن خيثمة عن أبي جعفر قال : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر . قلت : وقد روى نحو هذا عن ابن عباس قال : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر إني لمحزون ، وإني لمشتغل القاب . قلت : وما حزنك وشغل قلبك ؟ قال : يا جابر إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه ، يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هي إلا مركبا ركبته ؟ أو ثوبا لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر إني المؤمن لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكرك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لحيمة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم كمنزل نزوله ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكما أصبته في مدامك فلما استيقظت إذا ليس في يدك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن علي يقول : قال عمر بن الخطاب : إذا رأيتم القاري يحب الأغنياء فهو صاحب الدنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص . وكان أبو جعفر يصلي كل يوم ليلة بالمكتوبة . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : سلاح اللئام قبيح الكلام . وروى أبو الأحوص عن منصور عنه قال : لكل شيء آفة ، وآفة العلم النسيان . وقال لابنه : إياك والسكل والضجر فانهما مفتاح كل خبيثة ، إنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق . وقال : أشد الأعمال ثلاثة ذكر الله على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال . وقال خلف بن حوشب : قال أبو جعفر : الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه .

وقال لجابر الجعفي : ما يقول فقهاء العراق في قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] قال : رأى يعقوب عاشا على إبهامه . فقال : لا ! حدثني أبي عن جدي علي بن أبي طالب أن البرهان الذي رآه أنها حين همت به وهم بها أي طمع فيها ، قامت إلى صنم لها مكال بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها ، أو استحياء منه . فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت إلهي أستحي

منه أن برأى على هذه الصورة . فقال يوسف : تستعين من صنم لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : والله لا تنالين مني أبدا . فهو البرهان . وقال بشر بن الحارث الحافي : سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول : سمعت محمد بن علي يقول : الفنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه . وقال : إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مدينتنا كان الرجل منهم أجراً من ليث وأمضى من سيف . وقال : شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه . وقال : إياكم والخصومة فانها تفسد القلب ، وتورث النفاق ، وقال : [الذين يخوضون في آيات الله] هم أصحاب الخصومات .

وقال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال : لا بأس به ، قد حلّى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر ! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويقتنلون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عنى أني إلى الله منهم برئ ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدماهم ، لافالتي شفاعة محمد (س) . إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أني برئ منهم ومن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وقال في قوله تعالى : [إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا] الآية ، قال : هم أصحاب محمد (س) ، قال : قلت : يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد (س) .

وقال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي ، قال : رأيت الحكم عنده كأنه متعلم ، وقال : كان لي أخ في عيني عظيم ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، وقال جعفر بن محمد : ذهبت بغلة أبي فقال : لئن ردها الله علي لأحمدنه بمحمد يرضاه ، فما كان بأسرع من أن أتى بها بنسرجها لم يفقد منها شيء ، فقام فركبها ، فلما استوى عليها وجمع إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، لم يزد علي ذلك ، فقيل له في ذلك ، فقال : فهل تركت أو أبقيت شيئاً ؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل . وقال عبد الله بن المبارك : قال محمد بن علي : من أعطى الخلق والرفق فقد أعطى الخير والراحة ، وحسن حاله في دنياه وآخرته ، ومن حرّمهما كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية ، إلا من عصمه الله . وقال : أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ ما يريه تاماً إلا قال : فلستم إخواناً كما تزعمون ، وقال : اعرف ، ودة أخيك لك بماله في قلبك من المودة .

فان القلوب تتكافأ . وسمع عصفير يصحن فقال : أتدري ماذا يقلن ؟ قلت : لا !! قال : يسبلن الله ويسألنه رزقهن يوما بيوم . وقال : تدعو الله بما تحب ، وإذا وقع الذي تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب .

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله عز وجل من أن يسأل . وما يدفع القضاء إلا الدعاء . وإن أسرع الخير ثوابا البر ، وأسرع الشر عقوبة البنى ، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه . وأن يؤذى جليسه بما لا يعنيه . هذه كلمات جوامع موانع لا ينبغي لماتل أن يفعلها . وقال القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق . وقال أبو جعفر : صحب عمر بن الخطاب رجلا إلى مكة فمات في الطريق ، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه ، فقل يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

وبالغ أمر كان يأملُ دونه * ومخْلِجٌ منْ دون ما كان يأملُ

وقال أبو جعفر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد . وقال : ما اغرو رقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فان سألت على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلقة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمة فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن با كيا بكى من خشية الله في أمة رحم الله تلك الأمة . وقال : بئس الأخ أخ يركك غنياً ويقطملك فقيراً . قلت : البيت الذي كان يتسل به قبله بيتان وهو ثاتهما ، وهذه الأبيات تتضمن حكما وزهدا في الدنيا قال :

لقد غرت الدنيا رجالاً فأصبحوا * بمنزلة ما بعدها متحول

فساخط أمر لا يبدل غيره * وراض بأمر غيره سيبدل

وبالغ أمر كان يأمل دونه * ومخْلِجٌ منْ دون ما كان يأمل^(١)

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وفيها وقع طاعون عظيم بالشام والعراق ، وكان معظم ذلك في واسط . وفي المحرم منها توفي الجنيد بن عبد الرحمن المرمي أمير خراسان من مرض أصابه في بطنه ، وكان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فتغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فعزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان ، وقال له : إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه . فاقدم عاصم بن عبد الله خراسان حتى مات الجنيد في المحرم منها بمرو ، وقال فيه أبو الجربير عيسى بن عصمة يرميه :

هلك الجود والجنيد جميعا * فلى الجود والجنيد السلام

أصبعا ثاويين في بطن مرو • ما تغنى على الفصون الحمام
كنما نزهة الكرام فلما • مت مات الندى ومات الكرام

ولما قدم عاصم خراسان أخذ نواب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات ، وعسفهم في المصادرات والجنائيات ، فخرج عن طاعته الحارث بن شريح فبارزه بالحرب ، وجرت بينهما أمور يطول ذكرها ، ثم آل الأمر إلى أن انكسر الحارث بن شريح وظهر عاصم عليه . قال الواقدي : وفيها حجج بالناس الوليد بن يزيد وهو ولي الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها بمث مروان بن محمد - وهو مروان الحمار - وهو على أرمينية بمعين ففتح حصونا من بلاد اللان ، ونزل كثير منهم على الإيمان : وفيها عزل هشام عاصم بن عبد الله الهلالي الذي ولاه في السنة قبلها خراسان مكان الجنيد ، ف عزل عنها وضمها إلى عبد الله بن خالد القسري مع العراق معادة إليه جريا على ما سبق له من العادة ، وكان ذلك عن كتاب عاصم بن عبد الله الهلالي المزعول عنها ، وذلك أنه كتب إلى أمير المؤمنين هشام : إن ولاية خراسان لا تصلح إلا مع ولاية العراق ، رجاء أن يضيفها إليه ، فانعكس الأمر عليه فأجابه هشام إلى ذلك قبولا إلى نصيحته ، وأضافها إلى خالد القسري . وفيها توفي

قتادة بن دعامة السدوسي

أبو الخطاب البصري الأعمى ، أحد علماء التابعين ، والأئمة العاملين ، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ، والبصري ، وأبو العالية ، و زرارة بن أوفى ، وعطاء ومجاهد ، ومحمد بن سيرين ، وسروق ، وأبو مجاز وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من السكار كأيوب وحاد بن مسلمة ، وحبيب الطويل ، وسعيد بن أبي عروبة ، والأعمش ، وشعبة ، والأوزاعي ، وسعر ، ومعم ، وهمام . قال ابن المسيب : ما جاءني عراقي أفضل منه . وقال بكر المزني : ما رأيت أحفظ منه . وقال محمد بن سيرين : هو من أحفظ الناس ، وقال فطر : كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه ، وقال الزهري : هو أعلم من مكحول . وقال معم : ما رأيت أقه من الزهري وحاد و قتادة . وقال قتادة : ما سمعت شيئا إلا وعاه قلبي . وقال أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئا إلا حفظه . وقرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . وذكر يوماً فأنشأ على علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك ، وقال أبو حاتم : كانت وفاته بواسط

في الطاعون - يعني في هذه السنة - وعمره ست أو سبع وخسون سنة
 [قال قتادة : من وثق بالله كان الله معه ، ومن يكن الله منه تكن معه الفشة التي لا تغلب ،
 والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل ، والعالم الذي لا ينسى . وقال . في الجنة كوة إلى النار
 فيقولون : ما بال الأشقياء دخلوا النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديسكم ، فقالوا : إنا كنا نأمركم
 ولا نأمر ، وننهاكم ولا ننهي . وقال : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح
 دينه وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل . وقال قتادة : لو كان يكتفي من العلم بشيء لا كتفى
 موسى عليه السلام بما عنده ، ولكنه طلب الزيادة] ^(١)
 وفيها توفي : أبو الحباب سعيد بن يسار والأعرج ، وابن أبي مليكة ، وعبد الله بن أبي زكريا
 الخزازي ، وميمون بن مهران بن موسى بن وردان

فضيلة الزيادة

فأما سعيد بن يسار فكان من العباد الزهاد ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكذلك الأعرج
 وابن أبي مليكة . وأما ميمون بن مهران فهو من أجلاء علماء التابعين وزهادهم وعبادهم وأئمتهم . كان
 ميمون إمام أهل الجزيرة . روى الطبراني عنه أنه قيل له : مالك لا يفارقك أخ لك عن قلى ؟ قال :
 لأنى لا أماريه ولا أشاركه . قال عمر بن ميمون : ما كان أبى يكثر الصلاة ولا الصيام ، ولكن كان
 يكره أن يعصى الله عز وجل . وروى ابن أبي عدى عن يونس عنه قال : لا تمارين عالما ولا جاهلا ،
 فانك إن ماريت عالما خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلا خشن بصدرك . وقال عمر بن ميمون :
 خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة ، فرزنا بمجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ،
 فاضطجعت له فر على ظهري ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن فطرقت الباب
 فخرجت إلينا جارية سداسية ، فقالت : من هذا ؟ قلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ،
 فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ! قالت : يا شقى ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟
 قال : فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ! إني
 قد أنست من قاي غليظة فاستكن لى منه ، فقرأ الحسن : [أفرأيت إن متعتهم سنين ثم جاءهم
 ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون] فسقط الشيخ مفشيا عليه ، فرأيت يفتح برجليه
 كما تنهض الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلا ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبت الشيخ ، قوموا تفرقوا ،
 فأخذت بيد أبى فخرجت فقلت : يا أبت أهذا هو الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب في

(١) زيادة من المصرية .

نفسى أنه أكبر من هذا ، قال : فوكز فى صدرى وكزة ثم قال : يا بنى لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوما .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : ما أحب أنى أعطيت درهما فى لى وأن لى مكانه مائة ألف ، أخشى أن تصيبنى هذه الآية : [ومن الناس من يشتري لى الحديث ليضل عن سبيل الله] الآية وقال جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كنت عند عمر بن عبد العزيز فلما قت قال عمر : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس إلا مجاجة

وروى الامام أحمد عن معمر بن سليمان الرقى عن فرات بن سليمان عن ميمون بن مهران قال : ثلاث لا تلبون نفسك بهن : لا تدخل على سلطان وإن قلت أمره بطاعة الله ، ولا تدخل على امرأة وإن قالت أهلها كتاب الله ، ولا تصمى بسمك إلى ذى هوى فانك لا تدري ما يملق بقلبك من هواء . وروى عبد الله بن أحمد عنه فى قوله تعالى : [إن جهنم كانت مرصادا] و [إن ربك لبالمرصاد] فقال : التمسوا لهذين المرصادين جوازا . وفى قوله تعالى : [ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون] فيها وعيد شديد للظالم ، وتعزية للمظلوم . وقال : لو أن أهل القرآن صأحوا لصلح الناس . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا عيسى بن سالم الشاشى حدثنا أبو المليح قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : لا خير فى الدنيا إلا رجلين ، رجل قائب - أو قال : يتوب - من الخطيئات ، ورجل يعمل فى الدرجات ، فلا خير فى العيش والبقاء فى الدنيا إلا لهذين الرجلين ، رجل يعمل فى الكفارات ورجل يعمل فى الدرجات ، وبقاء ماسواهما وبأل عليه . وقال جعفر بن برقان : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن هذا القرآن قد خلق فى صدور كثير من الناس فالتمسوا ماسواه من الأحاديث ، وإن فىمن يتبع هذا العلم قوما يتخذونه بضاعة يلتبس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يمارى به ، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عز وجل به . وقال : من اتبع القرآن فاده القرآن حتى يحمل به الجنة ، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن يتبعه حتى يقذفه فى النار .

وقال الامام أحمد : حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : لا يسلم للرجل الحلال حتى يحمل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال . وقال ميمون : من كان يريد أن يعلم مامزله عند الله فليتنظر فى عمله فانه قادم عليه كائنا ما كان . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن عثمان الحربى حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران . قال : نظر رجل من المهاجرين إلى رجل يصلى فأخفى الصلاة فعاتبه ، فقال : إني ذكرت ضيعة لى . فقال : أأكبر الضيعة أضعته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا جعفر بن محمد الدسعى حدثنا أبو جعفر النخيلى حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن عن طلحة بن زيد قال قال ميمون : لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه . وروى

عبد الله بن أحمد عنه أيضا قال : لأن أؤمن على بيت مال أحب إلى من أن أؤمن على امرأة .
وقال أبو يلى الموصلى : حدثنا هاشم بن الحارث حدثنا أبو المليح الرقى عن حبيب بن أبي مرزوق
قال قال ميمون : وددت أن إحدى عيني ذهبت و بقيت الأخرى أتمتع بها ، وأنى لم أَل عملاق
قلت : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لا خير في العمل لالعمر ولا لغيره .
وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا سفيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران
قال : ما عرضت قولى على على إلا وجدت من نفسى اعتراضا . وقال الطبرانى : حدثنا المقدم بن
داود حدثنا على بن ميمون حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر عن ميمون قال : قال لى ميمون : قل
لى فى وجهى ما أكره ، فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره . وروى عبد الله
ابن أحمد عنه فى قوله تعالى : [خافضة رافعة] قال : تخفض أقواما وترفع آخرين . وقال عبد الله بن
أحمد بن حنبل : حدثنى عيسى بن سالم حدثنا أبو المليح حدثنا بعض أصحابى قال : كنت أمشى مع
ميمون فنظر فرأى على ثوب كتان فقال : أما بلغك أنه لا يلبس الكتان إلا غنى أو غاو ؟ وبهذا
الاسناد سمعت ميمون بن مهران يقول : أول من مشى الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس
الكندى ، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب ورجل يحضر معه ، قالوا : قاتله جبار .
وقال عبد الله بن أحمد : بلغنى عن عبد الله بن كريم بن حبان - وقد رأيته - حدثنا أبو المليح
قال قال ميمون : ما أحب أن لى ما بين باب الرها إلى حوران بخمسة دراهم . وقال ميمون : يقول
أحدم : اجلس فى بيتك واغلق عليك بابك وانظر هل يأتىك رزقك ؟ نعم والله لو كان له مثل يقين
مريم وإبراهيم عليهما السلام ، وأغلق عليه بابه ، وأرغى عليه ستره ، لجاءه رزقه . وقال : لو أن كل
إنسان منا يتماهد كسبه فلم يكسب إلا طيبا ، فأخرج ما عليه ، ما احتسب إلى الأغنياء ، ولا احتاج
الفقراء . وقال أبو المليح عن ميمون قال : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا كان إسقاط المكروه
عنه أحب إلى من تخفيفه عليه ، فان قال : لم أقل ، كان قوله لم أقل أحب إلى من ثمانية يشهدون
عليه ، فان قال : قلت ولم يمتد ، أبغضته من حيث أحببته . وقال : سمعت ابن عباس يقول : ما
بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل ، إن كان فوقى عرفت له قدره ، وإن
كان نظيرى تفضلت عليه ، وإن كان دونى لم أحل به . ههنا سيرتى فى نفسى ، فمن رغب عنها
فان أرض الله واسعة .

وقال أبان بن أبى راشد القشيري : كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مهران أو دعه ،
فأزيدنى على كلمتين . اتقى الله ولا يغرنك طمع ولا غضب . وقال أبو المليح عن ميمون قال : العلماء
م ضالقي فى كل بلدة ، وهم أحببى فى كل مصر ، ووجدت صلاح قلبى فى مجالسة العلماء . وقال فى قوله

تعالى : [إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] قال : عزقا . وقال : لأن أتصدق بدرهم في حياتي أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم بعد موتي . وقال : كان يقال : الذكركر ان ، ذكر الله باللسان ، وأفضل من ذلك أن تذكره عند ما أحل وحرم ، وعند المعصية فتكف عنها وقد أشرفت . وقال : ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء ، الأمانة تؤديها إلى من ائتمنتك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تنفي به للمؤمن والكافر . وقال صفوان عن خلف بن حوشب عن ميمون قال : أدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقا من ربه عز وجل .

وقال أحمد بن بزيع : حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا هارون أبو محمد البربري أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فسكت حينئذ كتب إلى عمر يستغفريه عن ذلك ، وقال : كلفتني مالا أطيق ، أقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب ، واقض بما استبان لك ، فاذا التبس عليك أمر فارغه إلى ، فان الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء ، فاذا تاب محبت من قلبه فترى قلب المؤمن مجليا مثل المرأة ، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره ، وأما الذي يتتابع في الذنوب فإنه كلما أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطان من أين يأتيه . وقال الامام أحمد : حدثنا علي بن ثابت حدثنا جعفر عن ميمون قال : ما أقل أكياس الناس : ألا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أدوا به ، وإلى ما قدأكبوا عليه من الدنيا ، فيقول : ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر ، لاهم لها إلا ما تجعل في أجوافها ، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال : والله إنى لأراني من شرم بغيراً واحدا . وبهذا الأسناد عنه : ما من صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر . وقال : لا تغضب المملوك ولا تضربه على كل ذنب ، ولكن احفظ ذلك له ، فاذا عصي الله عز وجل فعاقبه على معصية الله وذكره الذنوب التي أذنب بينك وبينه . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن برقان سمعت ميمون بن مهران يقول : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم من حرام ؟ .

وقال أبو زرعة الدارمي : حدثنا سعيد بن حفص النخيلي حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : الفاسق بمنزلة السبع فاذا كلمت فيه تخليت سبيله فقد خليت سبعا على المسلمين . وقال جعفر بن برقان : قلت لميمون بن مهران : إن فلانا يستبطئ نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة في القلوب فلا

بأس وإن طال المكث . وقال أحمد : حدثنا ميمون الرقي حدثنا الحسن أبو المليح عن ميمون قال : لا تجدد غريماً أهون عليك من بطئك أو ظهرك . وقال الامام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن ميمون حدثنا الحسن عن حبيب بن أبي مرزوق قال : رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له : ما هذا ؟ قال : نعم ! فلا تخبر به أحدا . وقال عبد الله بن أحمد : حدثني يحيى بن عثمان حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : من أساء سرّاً فليتب سرّاً ، ومن أساء علانية فليتب علانية ، فان الله يغفر ولا يعير ، وإن الناس يعبرون ولا يغفرون .

وقال جعفر قال ميمون : في المال ثلاث آفات ، إن نجبا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين ، وإن نجبا من اثنتين كان قيناً أن لا ينجو من الثالثة ، ينبغي أن يكون حلالاً طيباً ، فأبكم الذي يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيباً ؟ فان سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ، فان سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . وقال : سمعت ميموناً يقول : أهون الصوم ترك الطعام والشراب . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا يحيى بن عثمان الحربي حدثنا أبو المليح عن ميمون ابن مهران قال : ما نال رجل من جسيم الخير نبي أو غيره إلا بالصبر . وبهذا الاسناد قال : الدنيا حلوة خضرة قد حفت بالشهوات ، والشيطان عدو حاضر ، فيظن أن أمر الآخرة آجل ، وأمر الدنيا عاجل . وقال يونس بن عبيدة : كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران ، فكتب إليه أسأله عن أهله ، فكتب إلى : بلغني كتابك تسألني عن أهلي ، وأنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً ، وإني أكره البلاء إذا أقبل ، فاذا أدبر لم يسر في أنه لم يكن ، وأما أنت فعليك بكتاب الله ، فان الناس قد بهتوا عنه - يعني يسوا - واختاروا الأحاديث ، أحاديث الرجال ، وإياك والمرائي في الدين . قال أبو عبيد في الغريب بهتوا به مهوراً ، ومعناه : أنسوا به .

وقال عمر بن ميمون : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة فلقى أبي شيخ فماتقه ، ومع الشيخ فتى نحو مني ، فقال له أبي : من هذا ؟ قال : ابني . فقال : كيف رضاك عنه ؟ فقال : ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيته فيها ، إلا واحدة . قال : وما هي ؟ قال : أن يموت فأوجر فيه - أو قال فأحتسبه - ثم فارقه أبي ، فقلت : من هذا الشيخ ؟ فقال : مكحول . وقال : شر الناس العيايون ، ولا يلبس الكتان إلا غنى أو غوى .

وروى الامام أحمد عنه قال : يا ابن آدم خفف عن ظهرك فان ظهرك لا يطيق كل هذا الذي يحمل ، من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وغشم هذا ، وكل هذا على ظهرك تحمله ، تخفف عن ظهرك . وقال : إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل . وقال : ما أتى قوم في ناديتهم المنكر إلا حق هلاكهم . وروى عبد الله بن أحمد عنه أنه قرأ [وامتازوا اليوم أيها المجرمون] ثم طارق حتى بكى ، ثم قال :

ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه . وقال أبو عوانة : حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا خالد عن حصين بن عبد الرحمن عن ميمون قال : أربع لاتكلم فيهم : علي ، وعثمان ، والقدر ، والنجوم . وقال : احذروا كل هوى يسمى بغير الاسلام . وروى شيبانة عن فرات بن السائب قال : سألت ميمون أعلى أفضل عنده أم أبو بكر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال : ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهما غيرهما ، إنهما كانا رداءي الاسلام ، ورأس الاسلام ، ورأس الجماعة . فقلت : فأبو بكر كان أول إسلام أم علي ؟ فقال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بجيرا الراهب حين مر به ، وكان أبو بكر هو الذي يختلف بينه وبين خديجة حتى أنسكحها إياه . وذلك كله قبل أن يولد علي ، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك . وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل ما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به » . وروى عن ابن عمر أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « شر المال في آخر الزمان المماليك » . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : من طلب مرضاة الاخوان بلا شيء فليصادق أهل القبور . وقال : من ظلم أحدا فقاته أن يخرج من مظلمته فاستغفر له دبر كل صلاة خرج من مظلمته . وهذا إن شاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم . وقال ميمون : القاتل والآمر بالمأور والظالم والراضي بالظلم ، كاهم في الوزر سواء . وقال : أفضل الصبر الصبر على ماتكره نفسك . من طاعة الله عز وجل .

روى ميمون عن جماعة من الصحابة ، وكان يسكن الرقة ، رحمه الله تعالى [(١)]

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله المدني أصله من بلاد المغرب ، وقيل من نيسابور ، وقيل من كابل ، وقيل غير ذلك . روى عن موله عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة ، مثل رافع بن خديج ، وأبي سعيد وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم : وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم ، وكان من النقات النبلاء ، والأئمة الأجلاء ، قال البخاري : أصبح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال غيره . كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة وثقوه ومات في هذه السنة على المشهور

نور الرمة الشاعر

واسمه غيلان بن عتبة بن بهيس ، من بني عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، من الحارث أحد فحول الشعراء ، وله ديوان مشهور ، وكان يتغزل في مي بنت مقاتل بن طلحة بن قيس ،

(١) زيادة من المصرية .

ابن عاصم المنقري ، وكانت جميلة ، وكان هو دميم الخلق أسود اللون ، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ولم يكن رأها قط ولا رأته ، وإنما كانت تسمع به ويسمع بها ، ويقال : إنها كانت تنذر إن هي رأته أن تذهب جزورا ، فلما رأته قالت : واسوأناه واسوأناه ، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة ، فأنشأ يقول :

على وجهي لحة من حلاوة * وتحت الثياب العار لو كان باديا

قال فانسخت من ثيابها فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه * وإن كان لون الماء أبيض صافيا

فقالت : تريد أن تذوق طعمه ؟ فقال : إى والله ، فقالت : تذوق الموت قبل أن تذوقه .

فأنشأ يقول :

فواضية الشعر الذي راح وانقضى * بمي ولم أملك ضلال فؤاديا

قال ابن خلكان : ومن شعره السائر بين الناس ما أنشده :

إذا هبت الأرياح من نحو جانب * به أهل مي هاج شوق هبوبها

هوى تذرف العنان منه وإنما * هوى كل نفس أين حل حبيبها

وأنشد عند الموت :

يا قابض الأرواح في جسمى إذا احتضرت * وغافر الذنب زحزحني عن النار

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائة

فيها غزا معاوية وسليمان ابنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بلاد الروم ، وفيها قصد شخص يقال له : عمار بن يزيد ، ثم سمي بخدش ، إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاستجاب له خلق كثير ، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الحزمية الزنادقة ، وأباح لهم نساء بعضهم بعضا ، وزعم لهم أن محمد بن علي يقول ذلك ، وقد كذب عليه فأظهر الله عليه الدولة فأخذ فجى به إلى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق وخراسان ، فأمر به فقطعت يده وسل لسانه ثم صلب بعد ذلك . وفيها حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل أمير المدينة ، وقيل إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك بن مروان ، والصحيح أنه كان قد عزل وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل ، وكان أمير العراق القسري . وفيها كانت وفاة :

علي بن عبد الله بن عباس

ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو الحسن ، ويقال أبو محمد ، وأمه زرعة بنت مسرح بن معديكرب الكندي ، أحد الملوك الأربعة الأقبال المذكورين في الحديث الذي رواه أحمد ، وهم مسرح ، وحمل ، ومخولس ، وأبضعة : وأختهم العمرة وكان مولد علي هذا يوم قتل علي بن أبي

طالب ، فسماه أبوه باسمه ، وكناه بكنيته ، وقيل إنه ولد في حياة علي وهو الذي سماه وكناه ولقبه بأبي
الأملاك ، فلما وفد على عبد الملك بن مروان أجلسه معه على السرير وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره
فقال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ولد لي ولد سميتة محمداً ، فقال له : أنت أبو محمد ، وأجزل عطية ،
وأحسن إليه . وقد كان علي هذا في غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والعدالة والشفقة
كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة ، قال عمرو بن علي الفلاس : كان من خيار الناس ، وكانت وفاته
بالجبهة من أرض البلقاء في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين . وقد ذكر ابن خلكان أنه تزوج لبابة
بنت عبد الله بن جعفر ، التي كانت تحت عبد الملك بن مروان ، فطلقها ، وكان سبب طلاقه إياها أنه
عض تنفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت السكين فخرت من التنفاحة مامس فيه منها ، فقال : ولم تفعلين
هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها . وذلك لأن عبد الملك كان أبخر - فطلقها عبد الملك ، فلما تزوجها
علي بن عبد الله بن عباس هذا نقم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك ، فضربه بالسياط ، وقال
إنما أردت أن تذلل بذمها من الخلفاء ، وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : الخلافة صائرة إلى
بيتته ، فوقع الأمر كذلك . وذكر المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابنه السفاح
والمنصور وهما صغيران ، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه ، وأطابق له مائة وثلاثين ألفاً ، وجعل علي بن
عبد الله يوصيه بأبنيه خيراً ، ويقول : إنهما سيليان الأمر ، فجعل هشام يتعجب من سلامة باطنه
وينسبه في ذلك إلى الحق ، فوقع الأمر كما قال . قالوا : وقد كان علي في غاية الجمال وتمام القامة ، كان
بين الناس كأنه راكب ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ،
وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب ، وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن
يموت علي هذا قبل هذه السنة بسنوات ، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده
عبد الله أبو العباس السفاح ، وكان ظهوره في سنة اثنتين وثلاثين كما سيأتي إن شاء الله تعالى
عمرو بن شعيب ، وعبادة بن نسي ، وأبو صخره جامع بن شداد ، وأبو عياش المماقري .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ففيها غزا الوليد بن القهقاع بلاد الروم . وفيها قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم
خاقان ، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله
على العراق ، ثم سار بجيوشه إلى مدينة ختل فافتتحها ، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون
ويغنمون ، فجاءت العميون إلى ملك الترك خاقان أن جيش أسد قد تفرق في بلاد ختل ، فاعتزم
خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد ، وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً ،
وقديداً وملحاً ، وساروا في حنق عظيم ، وجاء إلى أسد فأعلموه بتقصده خاقان له في جيش عظيم

كثيف ، فتجهز لذلك وأخذ أهبطه ، فأرسل من فوره إلى أطراف جيشه ، فلما وأشباع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه ، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعون إليه ، فرد الله كيدهم في نحورهم ، وجعل تدميرهم في تدميرهم ، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الاسلام وازدادوا حنقا على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالنار ، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد ، فاذا هو حي قد اجتمعت عليه المساكر من كل جانب ، وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد ، وحمل هو منه شاة وخاضوا النهر ، فما خلصوا منه جيئاً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دم ، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضمعة ، فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر ، فتشاور الأتراك فيما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة - وكانوا خمسين ألفاً - فيقتحمون النهر ، فضربوا بكؤوساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم ، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية واحدة ، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير ، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون في معسكرهم ، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تراءى تاراهما ، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي المسلمين فقتل منهم خلقاً وأسراً مما وإبلا موقرة ، ثم إن الجيشين تواجها في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لا يصلوا صلاة العيد ، فما صلوا إلا على وجل ، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو أو في لقاء خاقان ، أو في التحصن ببلخ . فمنهم من أشار بالتحصن ، ومنهم من أشار بملتناه والتوكل على الله ، فوافق ذلك رأى أسد الأسد ، فقصد بجيشه نحو خاقان ، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله ، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان ، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه ، ثم ساق أسد فأنهى إلى أغنامهم فاستنقها ، فاذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة ، ثم التقى معهم ، وكان خاقان إنما معه أربعة آلاف أو نحوها ، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه ، يقال له الحارث بن شريح ، فهو يدلهم على عورات المسلمين ، فلما أقبل الناس هربت الأتراك في كل جانب ، وانهمز خاقان ومعه الحارث ابن شريح بحميه ويتبعه ، فتبعهم أسد ، فلما كان عند الظهيرة انخل خاقان في أربعة مائة من أصحابه ، عليهم الخنزير ومعهم الكؤوسات ، فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤوسات فضربت ضرباً شديداً ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الانصراف ، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه

بما فيه من الأئمة العظيمة ، والأواني من الذهب والفضة ، والنساء والصبيان ، من الأتراك ومن معهم من الأسارى من المسلمات وغيرهم ، مما لا يحصى ولا يوصف لبكثرتة وعظمته وقيمتة وحسنه . غير أن خاقان لما أحس بالهلاك ضرب امرأته بمنجى فقتلها ، فوصل المسلمون إلى المدسكر وهي في آخر رمق تتحرك ، ووجدوا قدورهم تملأ بالطعاماتهم ، وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها ، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض الأمراء فغلبه الأمير ذو القرناء خاقان بقطع اليد ، فخنق عليه ذلك الأمير ثم عمل على قتله فقتله ، وتفرقت الأتراك يمدو بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضا ، وبعث أسد إلى أخيه خالد يملأه بما وقع من النهب والظفر بخاقان ، وبعث إليه بطبول خاقان - وكانت كباراً لها أصوات كالرعد - وبشيء كثير من حواصله وأمتعته ، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأطلق للرسل أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المال . وقد قال بعض الشعراء في أسد يمدحه على ذلك :-

لو سرت في الأرض تقيس الأرض * تقيس منها طولها والعرضا
لم تلق خيراً إمرة ونقضا * من الأمير أسد وأمضى
افضى إلينا الخير حتى افضا * وجمع الشمل وكان ارفضا
ما فاته خاقان إلا ركضا * قد فض من جموعه ما فضا
يا ابن شريح قد لقيت حمضا * حمضاً به تشفى صداع المرضى

وفيها قتل خالد بن عبد الله القسري المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابعوه على باطله ، وكان هذا الرجل ساحراً فاجراً شيعياً خبيثاً ، قال ابن جرير : ثنا ابن حميد ثنا جرير عن الأعمش قال : سمعت المغيرة بن سعيد يقول : لو أراد أن يحيي عاداً وثموداً وقرناً بين ذلك لأحييهم . قال الأعمش : وكان المغيرة هذا يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور ، أو نحو هذا من الكلام . وذكر ابن جرير له غير ذلك من الأشياء التي تدل على سحره وفجوره . ولما بلغ خالد أمره أمر باحضاره فجئ به في ستة نفر أو سبعة نفر ، فأمر خالد فأبرز سريره إلى المسجد ، وأمر باحضار أطباء القصب والنفط فصب فوقها ، وأمر المغيرة أن يحتضن طنباً منها ، فامتنع فضرب حتى احتضن منها طنباً واحداً وصب فوق رأسه النفط ، ثم أضرم بالنار . وكذلك فعل ببقية أصحابه .

وفي هذه السنة خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ويلقب بكثارة ، واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة ، وقصدوا قتل خالد القسري ، فبعث إليهم البعوث فكسروا الجيوش واستفحل أمرهم جداً لشجاعتهم وجلدهم ، وقلة نصيح من يقاتلهم من الجيوش ، فردوا العساكر من الألوف المؤلفة ، ذوات الأسلحة والخيول المسومة ، هذا وهم لم يبلغوا المائة ، ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة

هشام ، ففصدوا نحوها ، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة فاقتتلوا معهم قتالا عظيما ، فقتلوا عامة أصحاب
بطل الخارجي . ثم إن رجلا من جديلة يكنى أبا الموت ضرب بهلولا ضربة فصرعه وتفرقت عنه
بقية أصحابه ، وكانوا جميعهم سبعين رجلا ، وقد رثاهم بعض أصحابهم ^(١) فقال :-

بَدَلْتُ بَعْدَ أَبِي بِشَرٍّ وَصَحْبَةٍ * قَوْمًا عَلَيَّ مَعَ الْأَحْزَابِ أَعْوَانَا
بَاتُوا كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا مِنْ صَحَابَتِنَا * وَلَمْ يَكُونُوا لَنَا بِالْأَمْسِ خِلَانَا
يَا عَيْنُ أَذْرِي دُمُوعًا مِنْكَ تَهْتَانَا * وَابْكِي لَنَا صُحْبَةً بَاتُوا وَجِيرَانَا
خَلُّوا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا * وَأَصْبَحُوا فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ جِيرَانَا

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم فقاتلوا وقتلوا وقتلوا ، وجبرت إليهم العساكر
من عند خالد القسري ، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية . وفيها غزا أسد القسري بلاد
الترك ، فعرض عليه ملكهم طرخان خان ألف ألف فلم يقبل منه شيئا ، وأخذ قهرا فقتله صبرا بين
يديه ، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله ونسائه وأمواله . وفيها خرج الصحاري بن شبيب الخارجي
واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلا ، فبعث إليهم خالد القسري جندا فقتلوه وجميع أصحابه ، فلم
يتروكا منهم رجلا واحدا . وحج بالناس في هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وحج
معه ابن شهاب الزهري ليعلمه مناسك الحج ، وكان أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن
إسماعيل ، وأمير العراق والمشرق وخراسان خالد القسري ، ونائبه على خراسان بكملها أخوه أسد
ابن عبد الله القسري ، وقد قيل إنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة عشرين فله أعلم . ونائب
أرمينية وأذربيجان مروان الحار والله أعلم .

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمان بن هشام بلاد الروم وافتتح فيها حصونا ، وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلي
تومان شاه ، وافتتحها وخرّب أراضيتها . وفيها غزا مروان بن محمد بلاد الترك ، وفيها كانت وفاة أسد
ابن عبد الله القسري أمير خراسان ، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له دُبيلة في جوفه ، فلما كان
مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين - وهم أمراء المدن الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على
أسد ، وكان فيمن قدم نائب هراة ودهقانها ، واسم دهقانها خراسان شاه ، فقدم بهدايا عظيمة وتحف
عزيزة ، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب ، وقصر من فضة ، وأباريق من ذهب ، وصحاف من
ذهب وفضة ، وتفصيل من حرير تلك البلاد ألوان ملونة ، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ
الجلوس ، ثم قام الدهقان خطيبا فامتدح أسدا بخصال حسنة ، على عقله ورياسته وعدله ومنعه أهله
وخاصته أن يظلموا أحدا من الرعايا بشئ قل أو كثر ، وأنه قهر الخان الأعظم ، وكان في مائة ألف

(١) هو الضحّاك بن قيس . أنظر الطبري (٢ : ١٦٢٧) طبع أوربا

فكسره وقتله ، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال ، وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سرورا ،
فأثنى عليه أسد وأجلسه ، ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هناك أجمع على الأمراء
والأكابر بين يديه ، حتى لم يبق منه شيء ، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدبيلة ، ثم أفاق إفاقة
وجىء بهدية كثيرة فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة ، فألقى إلى دهقان خراسان واحدة
فانفجرت دبيلته وكان فيها حنطة ، واستخلف على عمله جعفر بن حنظلة البهراني ، فمكث أميرا أربعة
أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار في رجب منها ، فعلى هذا تكون وفاة أسد في صفر من هذه السنة ،
وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه :

نعي أسد بن عبد الله ناع * فربح القلب للملك المطاع
يبلغ وافق المقدار يسرى * وما لقضاء ربك من دفاع
فجودي عين بالعبوات سحرا * ألم يحزنك تفريق الجماع
أناه حمامه في جوف ضيع * وكما بالصيغ من بطل شجاع
أناه حمامه في جوف صيغ * وكما بالصيغ من بطل شجاع
كتائب قد يجيئون المنادي * على جرد مسومة سراع
سقيت الغيث إنك كنت غيثا * مريما عند مرئير النجاع

وفيها عزلي هشام خالد بن عبد الله القسري عن نيابة العراق ، وذلك أنه انحصر منه لما كان يبلغه
من إطلاق عبارة فيه ، وأنه كان يقول عنه ابن الحقاء ، وكتب إليه كتابا فيه غلظة ، فرد عليه هشام
ردا عنيفا ، ويقال إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات ، حتى قيل إنه
كان دخله في كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وقيل درهم ، ولولده يزيد بن خالد عشرة آلاف
ألف ، وقيل إنه وفد إليه رجل من أئمة المؤمنين من قريش يقال له ابن عمرو ، فلم يرحب به ولم
يعأ به ، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك ، وأنه حال وصول هذا الكتاب إليه يقوم من
فوره من حوله من أهل مجلسه فينطلق على قدميه حتى يأتي باب ابن عمرو صاعرا ذليلا مستأذنا
عليه ، متنصلا إليه مما وقع ، فأن أذن لك وإلا فقف على بابه حولا غير متحلل من مكانك ولا زائل ،
ثم أمرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقيتك ، وإن شاء انتصر ، وإن شاء عفا . وكتب إلى ابن عمرو
يعلمه بما كتب إلى خالد ، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطا على رأسه ، إن رأى
ذلك مصلحة . ثم إن هشاما عزل خالدًا وأخفى ذلك ، وبعث البريد إلى نائبه على اليمن وهو يوسف
ابن عمر فولاه إمارة العراق ، وأمره بالمسير إليها والقُدوم عليها في ثلاثين راكبا ، فقدموا الكوفة وقت
السحر ، فدخلوها ، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالاقامة : فقال : إلى أن يأتي الأمام - يعني خالدًا -

فأنهره وأمره بالاقامة وتقديم يوسف فصلى وقرأ [إذا وقعت الواقعة] و[سأل سائل] ثم انصرف فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما ، فاحضروا فأخذ منهم أموالا كثيرة ، صادر خالداً بمائة ألف ألف درهم ، وكانت ولاية خالد في شوال سنة خمس ومائة ، وعزل عنها في جمادى الأولى من هذه السنة - أعنى سنة عشرين ومائة - وفي هذا الشهر قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد الله القسري ، واستناب على خراسان جديع بن علي الكرمانى ، وعزل جعفر بن حنظلة الذى كان استنابه أسد ، ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعا في هذه السنة عن خراسان ، وولى عليها نصر ابن سيار ، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأموال وهلة واحدة ، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه ، فما أحب منها أخذه وما شاء ترك ، وقالوا له : لأن يذهب البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والاختراق فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل ، ففجأه العزل ، وذهب ما كان حصله وجمعه ومنه ، واستقرت ولاية يوسف بن عمر على العراق وخراسان ، واستقرت نيابة نصر بن سيار على خراسان ، فتمهدت البلاد وأمن العباد لله الحمد والمنة . وقد قال سوار بن الأشعرى في ذلك :

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة * من ظلم كل غشوم الحكم جبار

لما أتى يوسف أخبار ما لقيت * اختار نصراً لها نصر بن سيار

وفي هذه السنة استبطأت شيعة آل العباس كتاب محمد بن علي إليهم ، وقد كان عتب عليهم في اتباعهم ذلك الزنديق الملقب بخدش ، وكان خرميا ، وهو الذى أحل لهم المنكرات ودنس المحارم والمصاهرات ، فقتله خالد القسري كما تقدم ، فعتب عليهم محمد بن علي في تصديقهم له واتباعهم إياه على الباطل ، فلما استبطأوا كتابه إليهم بعث إليهم رسولا يخبرهم أمره ، وبعثوا هم أيضا رسولا ، فلما جاء رسولهم أحله محمد بما ذا عتب عليهم بسبب الخرمي ، ثم أرسل مع الرسول كتابا مختوما ، فلما فتحوه لم يجدوا فيه سوى : بسم الله الرحمن الرحيم ، فعملوا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرمي . ثم أرسل رسولهم إليهم فلم يصدقوه كثير منهم وهوا به ، ثم جاءت من جهته عصي ملوياً عليها حديد ونحاس ، فعملوا أن هذا إشارة لهم إلى أنهم عصاة ، وأنهم مختلفون باختلاف ألوان النحاس والحديد . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها محمد بن هشام الخزومي فيما قاله أبو معشر ، قال : وقد قيل إن الذى حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل ابنه يزيد بن هشام فله سبحانه وتعالى أعلم ،

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح مطامير وهو حصن ، وافتتح مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب ، وأخذ قلاعته وخرّب أرضه ، فأذن له بالجزية في كل سنة بألف رأس يؤديها إليه ، وأعطاه

رها علي ذلك . وفيها في صفر قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي تنسب
 إليه الطائفة الزيدية ، في قول الواقدي ، وقال هشام السكابي : إنما قتل في صفر من سنة ثنتين
 وعشرين فاقه أعلم . وقد ساق محمد بن جرير سبب مقتله في هذه السنة تبعاً للواقدي ، وهو أن زيدا
 هذا وفد علي يوسف بن عمر فسأله هل أودع خالد القسري عندك مالا ؟ فقال له زيد بن علي : كيف
 يردني مالا وهو يشتم أبائي علي منبره في كل جمعة ؟ فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئا ، فأمر يوسف بن
 عمر باحضار خالد من السجن فجاء به في عباءة ، فقال : أنت أودعت هذا شيئا نستخلصه منه ؟
 قال : لا ، وكيف وأنا أشتم أباء كل جمعة ؟ فتركه عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فمعا عن ذلك ، ويقال
 بل استحصرهم فحلفوا بما حلفوا . ثم إن طائفة من الشيعة الذنت علي زيد بن علي ، وكانوا نحواً من
 أربعين ألفاً ، فقام بعض النصحاء عن الخروج ، وهو محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، وقال له :
 إن جسدك خير منك ، وقد الذنت علي بيعته من أهل الدراق ثمانون ألفاً ، ثم خانوه أحوج ما كان
 إليهم ، وإني أخذك من أهل الدراق . فلم يقبل بل استمر يبايع الناس في الباطن في الكوفة ، علي
 كتاب الله وسنة رسوله حتى استفعل أمره به في الباطن ، وهو يتحول من منزل إلى منزل ،
 ومارال كذبتك حتى دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة ، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً . وفيها
 غزا نصر بن سيار أمير خراسان غزوات متعددة في الترك ، وأسر ملكهم كورصول في بعض
 تلك الحروب وهو لا يعرفه ، فلما تيقنه ونحققته ، سأل منه كورصول أن يطلقه علي أن يرسل له ألف
 بعير من إبل الترك . وهي البخاني . وألف برذون ، وهو مع ذلك شيخ كبير جداً ، فشاور نصر بن
 سيار بمحضرتة من الأمراء في ذلك ، ففهم من أشار بالطلاق ، ومنهم من أشار بمقتله . ثم سأل نصر بن سيار
 كم غزوت من غزوة ؟ فقال : ثنتين وسبعين غزوة ، فقال له نصر : ما مثلك يطلق ، وقد شهدت
 هذا كله ، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه ، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يبحرون
 ويكون عليه ، وجندوا لحام وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياما كثيرة ، وقتلوا أنعاما كثيرة ،
 فلما أصبح أمر نصر بالحرقه لئلا يأخذوا جثته ، فكان حريقه أشد عليهم من قتله ، وانصرفوا
 خائبين صاغرين خلسرين . ثم كر نصر علي بلادهم قتل منهم خلقا وأسرا أما لا يحصون كثرة ،
 وكان فيمن حضر بين يديه هجوم كبير جداً من الأعاجم أو الأتراك ، وهي من بيت مملكة ،
 فقالت لنصر بن سيار : كل ذلك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك ، وزير صادق يفصل
 خصومات الناس ويشاروه ويتأخرون ، وطباخ يصنع له ما يشتهي ، وزوجة حسناء إذا دخل عليها
 منها نظر إليها سرته وذهب عنه ، وحصن منيع إذا فزع وعليه جلاؤا إليه فيه ، وسيف إذا قارع به
 الأقران لم يخش شيئا منه ، وذخيرة إذا حملها فإن مازع من الأرض عاش بها .

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف ، ونائب العراق يوسف بن عمر ، ونائب خراسان نصر بن سيار ، وعلى أرميلية مروان بن محمد .
ذكر من توفي فيها من الأعيان :

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

والشهور أنه قتل في التي بعدها كما سيأتي بيانه إن شاء الله

مسلمة بن عبد الملك

ابن مروان القرشي الأموي ، أبو سعيد وأبو الأصبع الدمشقي ، قال ابن هساكر : وداره بدمشق في حجة القباب عند باب الجامع القبلي ، ولي الموسم أيام أخيه الوليد ، وغزا الروم غزوات وحاصر القسطنطينية ، وولاه أخوه يزيد إمارة المراقين ، ثم عزله وتولى أرميلية . وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز ، وعنه عبد الملك بن أبي عثمان ، وعبيد الله بن قزعة ، وهيبنة والد سفيان بن عيينة وابن أبي عمير ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى النسابي .

قال الزبير بن بكار : كان مسلمة من رجال بني أمية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء ، وله آثار كثيرة ، وحروب ونكاية في العدو من الروم وغيرهم . قلت : وقد فتح حصونا كثيرة من بلاد الروم . ولما ولي أرميلية غزا الترك فباع باب الأبواب فهدم المدينة التي هنده ، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين . وفي سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . قال الأوزاعي : فأخذوه وهو يناديهم صداع عظيم في رأسه ، فبعث ملك الروم إليه بقلنسوة وقال : ضعها على رأسك يذهب صداعك ، نفثي أن تكون مكينة فوضعها على رأسه بهيمة فلم ير إلا خيرا ، ثم وضعها على رأسه بذهاب صداعه ، ففتقها فاذا فيها سبعون سبطا هذه الآية [إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا] الآية مكررة لاغير ، رواه ابن هساكر .

وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعا شديدا ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، لحلف مسلمة أن لا يقطع عنهم حتى يبنوا له جامعا كبيرا بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعا ومئذنة ، فوجهها إلى الآن يصل فيه المسلمون الجمعة والجماعة ، قلت : وهي آخر ما يتمتع به المسلمون قبل خروج الدجال في آخر الزمان ، كما ستورده في الملاحم والفتن من كتابنا هذا إن شاء الله . ونذكر الأحاديث الواردة في ذلك هناك ، وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساخر مشكورة ، وغزوات متتالية مشهورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعاً ، وأحيا بزمه قصورا وبقاها ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد

في أيامه ، في كثرة منازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه في نفسه ، وإيمانه ، وهذا مع الكرم والفضاحة ، وقال يوماً لنصيب الشاعر : سألني ، قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن كفتك بالجزيل أكثر من مسألتي بالأسان . فأعطاه ألف دينار . وقال أيضاً : الأنبياء [لا يتأبون] كما يتأب الناس ما تاب نبي قط [وقد أوصى بثلاث ماله لأهل الأدب ، وقال : إنها صنعة جعفت أهلها . وقال الوايد بن مسلم وغيره : توفي يوم الأربعاء اسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل في سنة عشرين ومائة ، وكانت وفاته بوضع يقال له الخانوت ، وقد رثاه بعضهم ، وهو ابن أخيه الوايد بن يزيد بن عبد الملك يقال :

أقول وما البعد إلا الردى * أمسلم لا تبعدن مسلمة
فقد كنت نوراً لنا في البلاد * مضياً فقد أصبحت مظلمة
وزنكم وتلك نخشى اليقين * فأبدي اليقين لنا الجملة

نمير بن قيس

الأشعري قاضي دمشق ، تابعي جليل ، روى عن حذيفة مرسل وأبي موسى مرسل ، وأبي الدرداء ، وعن معاوية مرسل وغير واحد من التابعين ، وحدث عنه جماعة كثيرون ، منهم الأوزاعي وسعيد ابن عبد العزيز ويحيى بن الحارث الذمري . ولاد هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن ابن الأشعث المذري ، ثم استخفى هشاماً فنادى بولي مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ملك . وكان نمير هذا لا يحكم باليمن مع الشاهد ، وكان يقول : الأدب من الآباء ، والصلاح من الله . قال غير واحد : توفي سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقيل سنة خمس عشرة ومائة ، وهو غريب والله سبحانه أعلم

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة

ففيها كان قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة ، أمرهم في أول هذه السنة بالخروج والتأهب له ، فشرعوا في أخذ الأثمة لذلك . فأنطلق رجل يقال له سليمان بن سراقه إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره . وهو بالجزيرة بوشند . فحضر زيد بن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة ، فبعث يوسف بن عمر يطلبه ويبلغه ، فطلبه ، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له : ماتوك برحمتك الله في أبي بكر وعمر ؟ فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا : فلم تطلب إذا بدم أهل البيت ؟ فقال : إنما كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم ساءلوا علينا به ودفنونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا قتلوا ، وعملوا بالسكتاب

والسنة . قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم ، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإحياء السنن وإقامة البدع ، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه ، فلم يبق سوا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة ، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية ، وفي مذهبهم حق ، وهو تعديل الشيخين ، وباطل وهو اعتقاد تقديم علي عليهما ، وإيس علي مقدما عليهما ، بل ولا عثمان على أصح قولي أهل السنة الثابتة ، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك في سيرة أبي بكر وعمر فيما تقدم . ثم إن زيدا عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه ، فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر من هذه السنة ، فباع ذلك يوسف بن عمر ، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم في المسجد الجامع ، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء سلخ الحرم ، قبل خروج زيد بيوم ، وخرج زيد ليلة الأربعاء في برد شديد ، ورفع أصحابه النيران ، وجعلوا ينادون يامنصور يامنصور ، فلما طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانمائة عشر رجلاً ، فجعل زيد يقول : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقليل : هم في المسجد محصورون . وكتب الحكم إلى يوسف يعلمه بخروج زيد بن علي ، فبعث إليه سرية إلى الكوفة ، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة ، وجاء يوسف بن عمر أيضاً في طائفة كبيرة من الناس ، فالتقى بمن معه جرثومة منهم فيهن خمسمائة فارس ، ثم أتى الكوفة فدخل على جميع من أهل الشام فهزمهم ، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل ، وزيد في مائتي فارس ولو قصد يوسف بن عمر لقتله ، ولكن أخذ ذات اليمين ، وكلمه لقي طائفة هزمهم ، وجعل أصحابه ينادون : يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا ، فانكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا ، ثم لما أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة ، وقد قتل بعض أصحابه في أول يوم ، فلما كان اليوم الثاني اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلاً ، وانصرفوا عنه بشر حال ، وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً ، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة ، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بني سليم ، ثم تبعهم في خيله ورجله حتى أخذوا على الساء ، ثم اقتتلوا هناك قتالاً شديداً جداً ، حتى كان جنح الليل رمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فوصل إلى دماغه ، فرجع ورجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا لأجل المساء والليل ، وأدخل زيد في دار في سكة البريد ، وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته ، فاعدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله .

فاختلف أصحابه أين يدفونه ، فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه في الماء ، وقال بعضهم :

احتزوا رأسه وأتركوا جثته في القتلى ، فقال ابنه : لا والله لا تأكل أبي الكلاب . وقال بعضهم :
ادفنيه في العباسية ، وقال بعضهم : ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ، ففعلوا ذلك وأجروا على
قبره الماء لتلا يعرف ، وانفلى أصحابه حيث لم يبق لهم رأس يقاتلون به ، فما أصبح الفجر ولهم قائمه
ينهمضون بها ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحي هل يجد زيدا بينهم ، وجاء مولى لزيد سندی قد شتمه ،
دفنه فدل على قبره فأخذ من قبره ، فأمر يوسف بن عمر بضربه على خشبة بالكناسة ، ومعه نضر بن
خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري ، وزيد النهدي ، ويقال إن زيدا مكث
مصلوبا أربع سنين ، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق فأنه أعلم . وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبري
أن يوسف بن عمر لم يعلم بشيء من ذلك حتى كتب له هشام بن عبد الملك : إنك لفاقل ، وإن زيد
ابن علي غار ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح في طلبه وأعطاه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله ، فمطلبه
يوسف حتى كان من أمره ماتقدم ، فلما ظهر على قبره حز رأسه وبشه إلى هشام ، وقام من بعده الوليد
ابن يزيد فأمر به فأنزل وحرق في أيامه قبض الله الوليد بن يزيد . فأما ابنه يحيى بن زيد بن علي فاستجار
بعبد الملك بن بشر بن مروان ، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهده حتى ينفذ به ، فقال له عبيد الملك
ابن بشر : ما كنت لأوى مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا . فصدق يوسف بن عمر في
ذلك ، ولما هدا الطلب عنه سيره إلى خراسان فخرج يحيى بن زيد في جماعة من الزيدية إلى خراسان
فأقاموا بها هذه المدة .

قال أبو مخنف : ولما قتل زيد خطب يوسف بن عمر أهل الكوفة فتهدهم وتوعدهم وشتمهم وقال
لهم فيما قال : والله لقد استأذنت أمير المؤمنين في قتل خلق منكم ، ولو أذن لي لقتلت مقاتلتكم
وسبيت ذراريكم ، وما صعدت لهذا المنبر إلا لأسميكم ما تكرهون .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل عبيد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم ، ولم
يزد ابن جرير على هذا ، وقد ذكر هذا الرجل الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير فقال :
عبد الله أبو يحيى المعروف بالبطال

كان ينزل إنطاكية ، حكى عنه أبو مروان الأنطاكي ، ثم روى بأسناده أن عبيد الملك بن
مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، ولي على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال ،
وقال لابنه : سيره على طلائعك ، وأمره فليهب بالليل المسكر ، فإنه أمين ثقة مقدم شجاع . وخرج
مهم عبيد الملك يشيهم إلى باب دمشق . قال : فقدم مسلمة البطال على عشرة آلاف يكونون بين
يديه نرساً من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين . قال محمد بن عائذ الدمشقي : ثنا الوليد بن مسلمة
حدثني أبو مروان - شيخ من أهل إنطاكية - قال : كنت أغازي مع البطال وقد أوطأ الروم ذلاً .

قال البطال فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمرى في مغازى فيهم ، فقلت له : خرجت في سرية ليلا فدفعتنا إلى قرية فقلت لأصحابي : ارخوا لجم خيلكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشئ حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا في أزقتها ، فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيت يزهر سراجبه ، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه ، وهي تقول له : لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتشلتني من سريريه وقالت : خذني يا بطال ، قال : فأخذته .

وروى محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم عن أبي مروان الأنطاكي عن البطال قال : انفردت مرة ليس معي أحد من الجند ، وقد سمعت خلفي مخللة فيها شمير ، ومعى منديل فيه خبز وشواء ، فبينما أنا أسير على ألقى أحداً منفرداً ، أو أطلع على خبر ، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البقل بالخبز والشواء مع النقل ، فأخذني إسهال عظيم فمت منه مراراً ، ففحمت أن أضعف من كثرة الإسهال ، فركبت فرسي والإسهال مستمر على حاله ، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بي الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بمنان الفرس ونمت على وجهي لا أدري أين يسير الفرس بي ، فلم أشمر إلا بقرع نعاله على بلاط ، فأرفع رأسي فإذا دهر ، وإذا قد خرج منه نسوة مصحبة امرأة حسناء جميلة جسداً ، فجعلت تقول بلسانها : أنزلني فغسلني عنى ثيابي وسرجي وفرسي ، ووضعتني على سرير وصلمان لي طعاماً وشرباً فمكثت يوماً وليلة مستوية ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلى حالي ، فبينما أنا كذلك إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لخطبتها ، فأخبره من كان هناك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس ، فهمم بالهجوم على فئنته المرأة من ذلك ، وأرسلت تقول له : إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته ، فشناه ذلك عن الهجوم على ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق . قال البطال : فتهضت في أثرهم فهمت أن تمنعني خوفاً على منهم فلم أقبل ، وسقت حتى لحقتهم ، فجعلت عليه فانفرج عنه أصحابه ، وأراد الفرار فألحقه فأضرب عنقه واستأبته وأخذت رأسه مسطاً على فرسي ، ورجعت إلى الدير ، فخرجت إلى ووقف بين يدي ، فقلت : اركبن ، فركبن ما هنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش فدفعتن إليه ، فنقلني ماشئت منهن ، فأخذت تلك المرأة الحسنة بعينها ، فهي أم أولادي . والبطريق في لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم ، وكان أبوها بطريقاً كبيراً فيهم - يعني تلك المرأة - وكان البطال بعد ذلك يكتب أباهاً ويهاديه .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولاء المصيصة بعث البطال سرية إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرها فلم يدر ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل عمورية ، فطرق بابها ليلاً

فقال له البواب : من هذا ؟ قال البطال : فقلت أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذني طريقاً إليه ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئتكم في رسالة فمر هؤلاء فليصرفوا ، فأمن من عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة على وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاختلطت سيفي وضربت به رأسه صفحاً وقلت له : أنا البطال فأصدقني عن السرية التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة ، فأخبرني ما خبرها ، فقال : هم في بلادى ينتهبون مائتها لهم ، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادى كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان ، فأعطاني الأمان ، فقلت : إيتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاءوا بطعام فوضع لي ، فأكلت فقامت لأصرف فقال لأصحابه : اخرجوا بين يدي رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يدي ، وانطلقت إلى ذلك الوادى الذى ذكر فاذا أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة . فهذا أغرب ماجرى

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطال وهو قافل من حجته ، وكان قد شغل بالجهاد من الحج ، وكان يسأل الله دائماً الحج ثم الشهادة ، فلم يتمكن من حجة الاسلام إلا في السنة التي استشهد فيها رحمه الله تعالى ، وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذى البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطال يخبره بذلك ، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك ، وكان الأمير مالك بن شبيب ، وقال له : المصلحة تقتضى أن تتحصن في مدينة حران ، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش ، فاقبلوا قتالاً شديداً والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوء باسمه خوفاً عليه من الروم ، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه جملة واحدة ، فاقتلوه من سرجه برماحهم فالتوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون ، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها ، وأصبح البيون فوقف على مكان المعركة فاذا البطال باخر رمق فقال له ليون : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكنا تقتل الأبطال ، فاستدعى ليون بالأطباء ليدأوا به فاذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له ليون : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فأمر من ملك من المسلمين أن يلوا غسل والصلاة على ودفني ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصروهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البرد بقسود سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، ففر ليون في جيشه الخبيث هارباً راجعاً إلى بلاده ، قبحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصن بها .

قال خليفة بن خياط : كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقال ابن جرير : في سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقال ابن خشان الزياتي : قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة ، قيل وقد قاله غيره . وإنه قتل هو والأمين عبد الوهاب بن يثخت في سنة ثلاث عشرة ومائة كما ذكرنا ذلك فالحق أعلم ، ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا في هذه السنة فالحق أعلم .

قلت : فهذا ما يخص ابن عساكر في ترجمة البطال مع تفصيله للأخبار وإطلاعه عليها ، وأما ما يذكره العسامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلمة والبطال والأمين عبد الوهاب والقاضي عقبة ، فكذب وافتراء ووضع بارد ، وجهل وتخطيط فاحش ، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي . كما يروج عليهم سيرة عنزة العبسي المكذوبة ، وكذلك سيرة البكري والدنف وغير ذلك ، والكذب المتعمد في سيرة البكري أشد إنما وأعظم جرما من غيرها ، لأن واضعها يدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ عقده من النار » . ومن توفي في هذه السنة من الأعيان :

إياس الذكي

وهو إياس بن معاوية بن مرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن دريد بن أوس بن سواه ابن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، هكذا نسبه خليفة بن خياط ، وقيل غير ذلك في نسبه ، وهو أبو وائلة المزني قاضي البصرة ، وهو تابعي ولجده صحبة ، وكان يضرب المثل بذكائه ، روى عن أبيه عن جده مرفوعا في الحياء عن أنس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وأبي مجلز ، وعنه الحمادان وشعبة والأصمعي وغيرهم . قال عنه محمد بن سيرين : إنه لفهم إنه لفهم ، وقال محمد بن سعد والمجلى وابن معين والنسائي : ثقة . زاد ابن سعد وكان عاقلا من الرجال فطنا ، وزاد المجلى وكان فقيها عفيفا . وقدم دمشق في أيام عبد الملك بن مروان ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، ومرة أخرى حين عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة . قال أبو عبيدة وغيره : تحاكم إياس وهو صبي شاب وشيخ إلى قاضي عبد الملك بن مروان بدمشق ، فقال له القاضي : إنه شيخ وأنت شاب فلا تساوه في الكلام ، فقال إياس : إن كان كبيرا فالحق أكبر منه ، فقال له القاضي : اسكت ، فقال : ومن ينكلم بمحجى إذا سكنت ؟ فقال القاضي : ما أحسبك تنطق بحق في مجلسي هذا حتى تقوم ، فقال إياس : أشهد أن لا إله إلا الله ، زاد غيره فقال القاضي : ما أظنك إلا ظالما له ، فقال : ما على ظن القاضي خرجت من منزلي . فقام القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره خبره فقال : اقض حاجته وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس .

وقال بعضهم : لما عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة فرمته إلى عمر بن عبد العزيز فوجده

قد مات ، فكان يجلس في حلقة في جامع دمشق ، فتكلم رجل من بني أمية فرد عليه إياس ، فأغلق له الأموي ققام إياس ، فقبل للأموي : هذا إياس بن معاوية المزني ، فلما عاد من الغد اعتذر له الأموي وقال : لم أعرفك ، وقد جلست إلينا بذياب السوق وكلمتنا بكلام الاشراف فلم نحتمل ذلك .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا نعيم بن حماد ثنا ضمرة عن أبي شاذب قال : كان يقال يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل ، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم . وقال المعجلي : دخل على إياس ثلاث نسوة فلما رآهن قال : أما إحداهن فوضع ، والأخرى بكر ، والأخرى ثيب ، فقبل له بم علمت هذا ؟ فقال : أما الموضع فكلما قدمت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فكلما دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيب فكلما دخلت نظرت ورمت بعينها . وقال يونس بن صعلب (١) : ثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان ثنا حماد بن سلمة سمعت إياس بن معاوية يقول : أعرف الليلة التي ولدت فيها ، وضمت أمي على رأسي جفنة . وقال المدائني قال إياس بن معاوية لأمه : ما شئ سميت به وأنت حامل بي وله جلبة شديدة ؟ قالت : ذاك طست من نحاس سقط من فوق الدار إلى أسفل ، ففرغت فوضعتك تلك الساعة . وقال أبو بكر الخرائطي عن عمر بن شيبه النخعي قال : بلغني أن إياساً قال : ما يسرني أن أكنب كذبة يطلع عليها أبي معاوية . وقال : ما خاصمت أحدا من أهل الاهواء بعقلي كله إلا القدريه ، قلت لهم أخبروني عن الظالم ما هو ؟ قالوا : أخذ الانسان ماله من الله : قال الله له كل شئ . قال بعضهم عن إياس قال : كنت في الكتاب وأنا صبي فجعل أولاد النصارى يضحكون من المسلمين ويقولون : إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة ، فقلت للقتية - وكان نصرانيا - : ألست تزعم أن في الطعام ما ينصرف في غذاء البدن ؟ قال : بلى ، قلت فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم ؟ فقال له معلمه : ما أنت إلا شيطان .

وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بهعله قد ورد به الحديث الصحيح كما سنذكره إن شاء الله في أهل الجنة أن طعامهم ينصرف جشاه وعراً كالكسك ، فإذا البدان ضامر . وقال سفيان : وحين قدم إياس واسط فجاءه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها ، فقال له : أأأذن لي أن أسألك ؟ قال : سل وقد ارتببت حين استأذنت ، فسأله عن سبعة من مسألة يجيبه فيها ، ولم يختلفوا إلا في أربع مسائل ، رده إياس إلى قوله ، ثم قال له إياس : أقرأ القرآن ؟ قال : نعم . قال أن يحفظ قوله [اليوم أكملت لكم دينكم] ؟ قال : نعم . قال : وما قبلها وما بعدها ؟ قال : نعم . قال : فهل أثبت هذه الآية لآكل شبرمة رأياً ؟ وقال عباس بن يحيى بن معين : حدثنا سعيد بن عامر بن عمر بن علي قال قال رجل لإياس ابن معاوية : يا أبا وائلة حتى متى يبقى الناس ؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون ؟ فقال جلسائه : أجيبوه فلم يكن عندهم جواب ، فقال إياس : حتى تنكاهم المعدتان ، عدة أهل الجنة ، وعدة أهل الدار .

(١) كذا . ولم نجد له ترجمة

وقال بعضهم : أكثرى إياس بن معاوية من الشام قاصدا الحج ، فركب معه في المحارة غيلان القدرى ، ولا يعرف أحدهما صاحبه ، فمكثا ثلاثا لا يكلم أحدهما الآخر ، فلما كان بعد ثلاث تماديا فتعارفا وتمعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه ، لمباينة ما بينهما في الاعتقاد في القدر ، فقال له إياس : هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة : [الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] ويقول أهل النار [ربنا غلبت علينا شقوتنا] وتقول الملائكة [سبعاذك لا علم لنا إلا ما علمتنا] ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال المعجم ما فيه إثبات القدر ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز فنظر بينهما فقهره إياس ، وما زال يحصره في الكلام حتى اعترف غيلان بالمعجز وأظهر التوبة ، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذبا ، فاستجاب الله منه فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك والله الحمد والمنة .

ومن كلام إياس الحسن : لأن يكون في فعال الرجل فضل عن مقاله خير من أن يكون في مقاله فضل عن فعاله . وقال سفيان بن حسين : ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر في وجهي وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا . قال : السند ، والهند والترك ؟ قلت : لا . قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال : فلم أعد بعدها . وقال الأصمعي عن أبيه : رأيت إياس بن معاوية في بيت ثابت البناني ، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب ، يلون عمامته ، وهو قد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه ، وقد قال له بعضهم : ليس فيك هيب سوى كثرة كلامك ، فقال : بحق أتكلم أم بباطل ؟ فقيل بل بحق ، فقال : كلما كثر الحق فهو خير ، ولما بعضهم في لباسه الثياب الغليظة فقال : إنما ألبس ثوبا يخدمنى ولا ألبس ثوبا أخدمه ، وقال الأصمعي قال إياس بن معاوية : إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان ، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه . وقال بعضهم : سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام ، فقال الرجل : فأخبرني عن الماء فقال : حلال ، قال : فالكسور ، قال : حلال ، قال فالتمر قال حلال ، قال فما باله إذا اجتمع حرم ؟ فقال إياس : أرايت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك ؟ قال : لا ، قال : فهذه الحفنة من التبن ؟ قال لا توجعنى ، قال : فهذه الغرفة من الماء ؟ قال لا توجعنى شيئا ، قال : أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينا ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أتوجعك ؟ قال : إى والله وتقتلنى ، قال : فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت . وقال المدائنى : بعث عمر بن عبد العزيز عدى ابن أوطاة على البصرة نائبا وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشنى ، فأيهما كان أفعه فليوله القضاء ، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى : أيها الرجل سل فقيهى البصرة ، الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به . - يعنى بالقاسم - لأنه كان

يأتيهما ، فقال القاسم لعدى : والله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفضل منى وأقبح منى ، وأعلم بالقضاء ، فان كنت صادقاً فوله ، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولى كاذباً القضاء . فقال إياس : هذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتدى منها يمين كاذبة يستغفر الله ، فقال عدى : أما إذ فطنت إلى هذا فقد ولينك القضاء . فكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم ، وإذا تبين له الحق حكم به ، ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستغفاه القضاء ، فولى عدى بعده الحسن البصرى .

قالوا : لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أبوب : لقد رموها بحجرها ، وجاءه الحسن وابن سيرين فسلما عليه ، فبكى إياس وذكر الحديث « القضاء ثلاثة ، قاضيان فى النار وواحد فى الجنة » . فقال الحسن [وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرف] إلى قوله [وكلا آتينا حكما] علما [قالوا : ثم جالس للناس فى المسجد واجتمع عليه الناس لاختصومات ، فما قام حتى فصل سبعين قضية ، حتى كان يشبه بشرح القاضى . وروى أنه كان إذا أشكل عليه شئ بعث إلى محمد بن سيرين فسأله منه . وقال إياس : إني لا أكلم الناس بنصف عقل ، فإذا اختصم إلى اثنين جمعت لهما دقلى كله . وقال له رجل : إنك لتعجب برأيك ، فقال : لولا ذلك لم أقض به ، وقال له آخر : إن فيك خصالاً لا تهجبنى ، فقال : ما هى ؟ فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة . فقال له : أيها أكثر الثلاثة أو الاثنين ؟ قال : الثلاثة . فقال : ما أسرع ما فهمت وأجبت ، فقال أو يجهل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لى قنبرى أحب إلى من أن أجلس مع من لا يعرف لى قنبرى ، وأما الثياب الغلاظ فأنما ألبس منها ما يقينى لا ما أقيه أنا . قالوا ، ونحاكم إليه اثنان فادعى أحدهما عند الآخر مالا ، وجمعه الآخر ، فقال إياس للودع : أين أودعته ؟ قال : عند شجرة فى بستان . فقال : انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر ، وفى رواية أنه قال له : هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتى بورق منها ؟ قال : نعم ! قال فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعد إلى المكان ؟ فقال : لا بعد أصلحك الله . فقال له : قم يا عدو الله فاد إليه حقه ، وإلا جعلتك نكالا . وجاء ذلك الرجل فقام معه فدفع إليه وديعته بكاملها . وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدنى ، فقال له : اذهب الآن واتقنى غدا ، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نراه أميناً نضمه عنده إلا أنت ، فضمه عندك فى مكان حرير . فقال له سمعاً وطاعة ، فقال له اذهب الآن واتقنى غدا ، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له أعطنى حتى وإلا رفعتك إلى القاضى ، فقال له ذلك تخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله بكامله ، فجاء إلى

إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد وجاء أن يودع فأنشده إياس وطرده وقال له : أنت خان .
وتحاكم إليه إثنان في جارية فادعى المشتري أنها ضعيفة العقل ، فقال لها إياس : أى رجليك أطول ؟
فقلت : هذه ، فقال لها : أتدكرين ليلة ولدت ؟ فقلت نعم . فقال للبائع رد رد .

وروى ابن عسلاكر أن إياس سمع صوت امرأة من بيتها فقال : هذه امرأة حامل يصبي ، فلما
ولدت ولدت كما قال . فسئل بم عرفت ذلك ؟ قال : سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل ، وفي
صوتها ضحك فعلمت أنه غلام . قالوا ثم مر يوماً ببعض المكاتب فإذا صبي هنالك فقال : إن كنت
أدرى شيئاً فهذا الصبي ابن تلك المرأة ، فإذا هو ابنها . وقال مالك عن الزهرى عن أبي بكر قال شهد
رجل عند إياس نيقان له : ما اسمك ؟ فقال أبو العنفر فلم يقبل شهادته . وقال الثوري عن الأعمش :
دعوني إلى إياس فإذا رجل كلباً فرغ من حديث أخذ في آخر . وقال إياس : كل رجل لا يعرف عيب
نفسه فهو أحمق ، فقليل له : ما عيبك ؟ فقال كثرة الكلام . قالوا : ولما ماتت أمه بكى عليها فقليل له
في ذلك فقال : كان لي أبان ، فتوحيان إلى الجنة فغلبت أحدهما . وقال له أبوه : إن الناس يلدون أبناء
وولدت أنا أباً . وكان أصحابه يجاسون حوله ويكتبون عنه الفراسة ، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى
رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت ، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه ، ثم قام فنظر في وجه رجل ثم
عاد ، فقال لأصحابه : هذا فقيه كتاب قد أبق له غلام أعور فهو يتطلبه ، فقاموا إلى ذلك الرجل
فسألوه فوجدوه كما قال إياس ، فقالوا لإياس : من أين عرفت ذلك ؟ فقال : لما جلست على دكة الحانوت
علمت أنه ذو ولاية ، ثم نظرت فإذا هو لا يصلح إلا لفتح المسكن ، ثم جعل ينظر إلى كل من مر به
فعرفت أنه قد فقد غلاماً ، ثم لما قام فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر ، عرفت أن
غلامه أعور . وقد أورد ابن خلكان أشياء كثيرة في ترجمته ، من ذلك أنه شهد عنده رجل في
بستان فقال له : كم عدد أشجاره ؟ فقال له : كم عدد جذوع هذا المجلس الذي أنت فيه من مدة
سنتين ؟ فقلت : لا أدرى وأقررت شهادته .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة

ذكر المدائني عن شيوخه أن خاقان ملك الترك لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله القسري على
خراسان ، تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يغير على بعض ، وبعضهم يقتل بعضاً ، حتى كادت
أن تخرب بلادهم ، واشتغلوا عن المسلمين . وفيها سأل أهل الصفد من أمير خراسان نصر بن سيار
أن يردمهم إلى بلادهم ، وسألوه شرطاً أنكرها العلماء ، منها أن لا يعاقب ممن ارتبه منهم عن الاسلام ،
ولا يؤخذ أسير المسلمين منهم ، وغير ذلك ، فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم في المسلمين ،
فعاب عليه الناس ذلك ، فكتب إلى هشام في ذلك فتوقف ، ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على

ممانعتهم للمسلمين كان ضررهم أشد ، أجابهم إلى ذلك ، وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفدا إلى أمير المؤمنين يسأل منه أن يضم إليه نيابة خراسان ، وتكلموا في نصر بن سيار بأنه وإن كان شهما شجاعا ، إلا أنه قد كبر وضمف بصره فلا يعرف الرجل إلا من قريب بصوته ، وتكلموا فيه كلاما كثيرا ، فلم يلتفت إلى ذلك هشام ، واستمر به على إمرة خراسان وولايتها . قال ابن جرير : وخرج بالناس فيها يزيد بن هشام بن عبد الملك ، والعمال فيها من تقدم ذكركم في التي قبلها . وتوفي في هذه السنة ربعة بن يزيد القصير من أهل دمشق ، وأبو يونس سليمان بن جبير ، وسماك بن حرب ، ومحمد ابن واسع بن حيان ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل والله الحمد

[قال محمد بن واسع : أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وقال : خمس خصال تميت القلب : الذنب على الذنب ، ومجالسة الموتى ، قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غنى مترف ، وسلطان جائر . وكثرة مشاقة النساء ، وحديثهن ، ومخالطة أهله . وقال مالك بن دينار : إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا فيمتنع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله - عندي من يصبح جائعا وهو عن الله راض . وقال : ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا عوججت قومي ، وصلاة في جماعة يحمل عنقه سهوها وأقوز بفضلها ، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة ، ولا لله على فيه تبعة . وروى رواد بن الربيع قال : رأيت محمد بن واسع بسوق بزور وهو يعرض حمرا له للبيع ، فقال له رجل : أنرضاه لي ؟ فقال لو رضيت لم آبه .

ولما ثقل محمد بن واسع كثر عليه الناس في العيادة ، قال بعض أصحابه : قد دخلت عليه فإذا قوم يعودون وقوم قيام ، فقال : ماذا يعني هؤلاء عني إذا أخذ بناصيتي وقدمي غدا وألقيت في النار ؟ وبعث بعض الخلفاء مالا مستكثرا إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه فلم يقبله ولم يلتصق منه شيئا ، وأما مالك بن دينار فإنه قبل ما أمر له به ، واشترى به أرقاء وأعتقهم ولم يأخذ لنفسه منه شيئا ، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان . فقال له : يا مالك قبالت جوائز السلطان ؟ فقال له مالك : يا أبا عبد الله أسأل أصحابي ماذا فعلت منه ، فقالوا له : إنه اشترى به أرقاء وأعتقهم ، فقال له : سألتك بالله أأقبلك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يصلوك . فقام مالك وحنى على رأسه التراب وقال : إنما يعرف الله محمد بن واسع ، إنما مالك حمار إنما مالك حمار ، وكلام محمد بن واسع كثير جدا رحمه الله [(١)

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فآقى ملك الروم اليون تقاتله وسلم سديان وغنم .

(١) زيادة من المصرية

وفيهما قدم جماعة من دعاة بني العباس من بلاد خراسان قاصدين إلى مكة ففروا بالكوفة فبلغهم أن في السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسري ، قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا بهم في السجن فدعواهم إلى البيعة لبني العباس ، وإذا عندهم من ذلك جانب كبير ، فقبلوا منهم ووجدوا عندهم في السجن أبا مسلم الخراساني ، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن مقبل المعجلي ، وكان محبوبا فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر ، فاشترى بكر بن ماهان منه بأربعمائة درهم وخرجوا به معهم فاستقنطروه لهذا الأمر ، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب وتبع ما يوجهونه إليه ، ثم كان من أمره ما سئد كره إن شاء الله تعالى فيما بعد . قال الواقدي : ومات في هذه السنة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو الذي يدعو إليه دعاة بني العباس ، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح ، والصحيح أنه إنما توفي في التي بعدها . قال الواقدي وأبو معشر : وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، ومعه امرأته أم مسلم بن هشام بن عبد الملك ، وقيل إنما حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل قاله الواقدي ، والأول ذكره ابن جرير والله أعلم . وكان نائب الحجاز محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على باب أم مسلم ويهدي إليها الألفاظ والتحف ويمتدح إليها من التقصير ، وهي لا تلتفت إلى ذلك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها ، وفيها توفي :

القاسم بن أبي بزة (١)

أبو عبد الله المكي القاري ، مولى عبد الله بن السائب ، تابعي جليل ، روى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، وعنه جماعة ، ووثقه الأئمة . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل سنة أربع عشرة ، وقيل سنة خمس عشرة فله أعلم

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، أبو بكر القرشي الزهري أحد الأعلام من أئمة الإسلام ، تابعي جليل ، سمع غير واحد من التابعين وغيرهم . روى الحافظ ابن عساكر عن الزهري قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندي عيال كثيرة ، فحشت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال : إنه قد نزل بأمر المؤمنين مسألة - وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئا وقد شذ عنه في أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب - قلت : إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، فأخذني فأدخلني على عبد الملك : فسألني ممن أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتي وعيالي ، فسألني هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسنن ،

(١) في نسخة القسطنطينية : القاسم بن أبي يسرة . وفي المصرية : القاسم بن مرة .

فسألني عن ذلك كله فأجبت ، فقضى ديني وأمر لي بجائزة ، وقال لي : اطلب العلم فاني أرى لك عينا حافظة وقلبا ذكيا ، قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتبعه ، فبلغني أن امرأة بقاء رأت رؤيا عجيبية ، فأتيتها فسألتها عن ذلك ، فقالت : إن بدلي غاب وترك لنا خادما وداجنا ونخيلات ، نشرب من لبنها ، ونأكل من ثمرها ، فبينما أنا بين النائمة والية ظلي رأيت كأن ابني الكبير - وكان مشتدا - قد أقبل فأخذ الشفرة فذبح ولد الداجن ، وقال : إن هذا يضيق علينا الابن ، ثم نصب القدر وقطعها ووضعها فيه ، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه ، وأخوه صغير كما قد جاء ، ثم استيقظت مذعورة ، فدخل ولدي الكبير فقال : أين الابن ؟ فقلت : يا بني شربه ولد الداجن ، فقال : إنه قد ضيق علينا الابن ، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه في القدر ، فبقيت مشقة خائفة مما رأيت ، فأخذت ولدي الصغير ففنيته في بعض بيوت الجيران ، ثم أقبلت إلى المنزل وأنا مشقة جدا مما رأيت ، فأخذتني عيني ففنت فرأيت في المنام قائلا يقول : مالك مقنعة ؟ فقلت : إني رأيت مناما فأنا أحذر منه فقال : يارؤيا يارؤيا ، فأقبلت امرأة حسناء جميلة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ قالت : ما أردت إلا خيرا ، ثم قال يا أحلام يا أحلام ، فأقبلت امرأة دونها في الحسن والجمال ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : ما أردت إلا خيرا ، ثم قال : يا أضفأ يا أضفأ ، فأقبلت امرأة سوداء شليمة فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت إنها امرأة صالحة فأحببت أن أعلمها ساعة ، ثم استيقظت فجاء ابني فوضع الطعام وقال : أين أخي ؟ فقلت : درج إلى بيوت الجيران ، فذهب وراه فكأنما هدى إليه ، فأقبل به يقبله ، ثم جاء فوضعه وجلسنا جميعا فأكلنا من ذلك الطعام

ولد الزهري في سنة ثمان وخمسين في آخر خلافة معاوية ، وكان قصيرا قليل اللحية ، له شعرات طوال خفيف المارفين . قالوا : وقد قرأ القرآن في نحو من ثمان وثمانين يوما ، وجالس سميد بن المسيب ثمان سنين ، تمس ركبته ركبته ، وكان يختم عبيد الله بن عبد الله يستقي له الماء المالح ، ويأور على مشايخ الحديث ، ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري قال : كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين . وقال أبو إسحاق : كان الزهري يرجع من عند هريرة فيقول لجلارية عنده فيها السكنة : ثنا هريرة ثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه ، فتقول له الجلارية : والله ما أدرى ما تقول ، فيقول لها : اسكتي لكاع ، فاني لا أريدك ، إنما أريد نفسي . ثم وفد على عبد الملك بن دمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دينه وفرض له في بيت المال ، ثم كان بمد من أصحابه وجلسائه ، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده ، الوليد وسليمان ، وكانها عند هريرة

ابن عبد العزيز، وعند يزيد بن عبد الملك، واستقضاها يزيد مع سليمان بن حبيب، ثم كان حظيا عند هشام، وحج معه وجمعه معلم أولاده إلى أن توفي في هذه السنة، قبل هشام بسنة. وقال ابن وهب: سمعت الليث يقول: قال ابن شهاب: ما استودعت قلبي شيئا قط فأنسيته، قال: وكان يكره أكل التماسيح وسور الفأرة، ويقول: إنه ينفى، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكي، وفيه يقول فايد بن أقرم.

زرذا وأثن على الكريم محمد * واذا كر فواضله على الأصحاب

وإذا يقال من الجواد بالله * قيل الجواد محمد بن شهاب

أهل المدائن يعرفون مكانه * وربيع نادية على الأعراب

يشنوي وفاة جفانه ويمدها * بكسور انتاج وقتق لباب

وقال ابن مهدي: سمعت مالك يقول: حدث الزهري يوماً بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال: أنتفهمني؟ ما استفهمت علما قط، ولا رددت علي عالم قط، ثم جمل ابن مهدي يقول فتلك الطوال وتلك المغازي.

وروى يعقوب بن سفيان عن هشام بن خالد السلمي عن الوليد بن مسلم عن سميد - يعني ابن عبد العزيز - أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبيه شيئا من حديثه، فأمل على كتابه أربعمائة حديث ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها، ثم إن هشام قال للزهري: إن ذلك الكتاب ضائع، فقال: لا عليك، فأمل عليهم تلك الأحاديث فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يقدح حرفا واحدا، وإنما أراد هشام امتحان حفظه. وقال عمرو بن عبد العزيز: ما رأيت أحدا أحسن سوقا للحديث إذا حدث من الزهري. وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار: ما رأيت أحدا أنص للحديث من الزهري، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده، وما الدرهم والدنانير عند الزهري إلا بمنزلة البعر. قال عمرو بن دينار: ولقد جالست جارا وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فمأ رأيت أحدا أسبق للحديث من الزهري.

وقال الامام أحمد: أحسن الناس حديثا وأجودهم إسنادا الزهري، وقال النسائي: أحسن الأسانيد الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي عن رسول الله ص. وقال سميد عن الزهري: مكنت خمسا وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى الحجاز، فما كنت أسمع حديثا أنشطره. وقال الليث: ما رأيت علما قط أجمع من إبراهيم شهاب، ولو سمعته يحدث في الترهيب والترهيب لقلت: ما يحسن غير هذا، وإن حدث عن الأئمة لقلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا، وكان يقول: اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به عليك

وأعوز بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة . قال الليث : وكان الزهري أسخى من رأيت ، يعطى كل من جاء وسأله ، حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف . وكان يطعم الناس الثريد ويستقيهم العسل ، وكان يستمر على شراب العسل كما يستمر أهل الشراب على شرابهم ، ويقول استقونا وحديثونا ، فإذا نعن أحدهم يقول له : ما أنت من سمار قر يش ، وكانت له قبة معصرة ، وعليه ملحقة معصرة ، وتحتة بساط معصر ، وقال الليث قال يحيى بن سعيد : ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب .

وقال عبد الرزاق : أنبأ معمر قال قال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه ، وكذا قال مكحول . وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري ، فقليل له : ولا الحسن ؟ فقال : ما رأيت أعلم من الزهري ، وقيل لمكحول : من أعلم من لقيت ؟ قال : الزهري ، قيل : ثم من قال الزهري ، قيل ثم من ؟ قال الزهري . وقال مالك : كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج . وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة : محدثو أهل الحجاز ثلاثة ، الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج . وقال علي بن المديني : الذين أفتوا أربعة ، الزهري ، والحكم ، وحماد وقتادة ، والزهري أبقتهم عندي . وقال الزهري : ثلاثة إذا كن في القاضى فليس بقاض ، إذا كره الملاوم وأحب المحامد ، وكره العزل . وقال أحمد بن صالح : كان يقال فصحاء زمانهم الزهري وعمر بن عبد العزيز وموسى بن طلحة وعبيد الله ، ورحمهم الله . وقال مالك عن الزهري : أنه قال : إن هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله (ص) ، وأدب رسول الله به أمته أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه ، فمن سمع علماً فليجمله أمانة حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

وقال محمد بن الحسين عن يونس عن الزهري قال : الاعتصام بالستة نجاة ، وقال الوليد عن الأوزاعي عن الزهري قال : أمروا أحاديث رسول الله (ص) ، كما جاءت . وقال محمد بن إسحاق عن الزهري : إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، وفي رواية أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب ، فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله النسيان والكذب ، وهو أشد الغوائل . وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد عن محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال : القراءة على العالم والسماع عليه سواء إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : إذا طال الجلاس كان للشيطان فيه حظ ونصيب ، وقد قضى عنه هشام مرة ثمانين ألف درهم ، وفي رواية سبعة عشر ألفاً ، وفي رواية عشرين ألفاً . وقال الشافعي : عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الاسراف وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهري أن يقصر ،

فر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذي
فارقنا عليه ، فقال له الزهري : انزل فان السخى لا تؤدبه التجارب . وقد أشد بعضهم في هذا المعنى
له سبحانه جود في أنامله * أمطارها الفضة البيضاء والذهب
يقول في السر إن أيسر ثانية * أقصرت عن بعض ما أعطى وما أهب
حتى إذا عاد أيام اليسار له * رأيت أمواله في الناس تنهب

وقال الواقدي : ولد الزهري سنة ثمان وخمسين ، وقدم في سنة أربع وعشرين ومائة إلى أمواله
بثلاث بشعب زبدا ، فأقام بها فرض هناك ومات وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ، وكانت وفاته
سبع عشرة من رمضان في هذه السنة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، قالوا : وكان ثقة كثير الحديث
والعلم والرواية ، فقبها جامعا ، وقال الحسين بن المتوكل العسقلاني : رأيت قبر الزهري بشعب زبدا
من فلسطين مسما بمجصصا ، وقد وقف الأوزاعي يوماً على قبره فقال : يا قبر كم فيك من علم ومن حلم
* يا قبر كم فيك من علم ومن كرم * وكم جمعت روايات وأحكاما . وقال الزبير بن بكار : توفي الزهري
بأمواله بشعب ثنين ، ليلة الثلاثاء لسبع عشر ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة ، عن
ثنتين وسبعين سنة ، ودفن على قارعة الطريق ليدعوه المارة ، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وعشرين
ومائة ، وقال أبو معشر : سنة خمس وعشرين ومائة ، والصحيح الأول والله أعلم .

فَضْلُ الْمَالِكِ

وروى الطبراني عن إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرني صالح بن
كيسان قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا : نحن نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء
عن النبي (ص) ، ثم قال لي : هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فانه سنة ، قلت : إنه ليس بسنة فلا
نكتب ، قال : فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب ، فأنهج وضيمت . وروى الامام أحمد عن معمر
قال : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حلت على الدواب من
خزائنه يقول : من علم الزهري . وروى عن الليث بن سعد قال : وضع العليست بين يدي ابن
شهاب فتذكر حديثاً فلم تزل يده في العليست حتى طلع الفجر ومججحه . وروى أصبغ بن الفرغ عن
ابن وهب عن يونس عن الزهري قال : لعلم واد فإذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه ،
فإنك لا تقطعه حتى يقطع بك .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى ثقات حدثنا الزبير بن بكار حدثني محمد بن الحسن بن
زبالة عن مالك بن أنس عن الزهري قال : خدمت عبيد الله بن عتبة ، حتى أن كان خادمه ليخرج
فيقول : من الباب ؟ فنقول الجارية : غلامك الأعمش ، فتظن أنني غلامه ، وإن كنت لأخدمه

حتى أستقي له وضوءه . وروى عبد الله بن أحمد عن محمد بن عباد عن الثوري عن مالك بن أنس
أراه عن الزهري . قال : تبعه سعيد بن المسيب ثلاثة أيام في طلب حديث . وروى الأوزاعي عن
الزهري قال : كنا فاق العالم فما تعلم من أدبه أحب إلينا من علمه . وقال سفيان : كان الزهري يقول
حدثني فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول كن عالما . وقال مالك : أول من دون العلم ابن شهاب .
وقال أبو المليح : كان هشام هو الذي أكره الزهري على كتابة الحديث ، فكان الناس يكتبون بمد
ذلك . وقال رشيد بن سعد قال الزهري : العلم خزانة وتفتحها المسائل . وقال الزهري : كان يصطاد
العلم بالمسألة كما يصاد الوحش . وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم ، وقال : إنما
ينهب العلم النسيان وترك المذاكرة . وقال : إن هذا العلم إن أخذته بالكسابة غلبك ولم تظفر منه
بشيء ، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رقيقاً تظفر به . وقال : ما أحدث الناس مروءة أعجب إلى
من الفصاحة . وقال : العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ويكرهه مؤنثهم . وروى الزهري عن أبي
حازم وهو يقول : قال رسول الله (ص) ، فقال : مالي أرى أحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ؟ . وقال :
ما عبد الله بشيء أفضل من العلم .

وقال ابن مسلم أبي عاصم : حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن القاسم بن هزان أنه سمع الزهري
يقول : لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به ، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى . وقال ضمرة عن يونس عن
الزهري قال : إياك وغلول الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها . وروى الشافعي عن
الزهري قال : حضور المجلس بلا نسخة ذل . وروى الأصمعي عن مالك بن أنس عن ابن شهاب
قال : جلست إلى ثعلبة بن أبي مدين فقال : أراك تحب العلم ؟ قلت : نعم ! قال : فعليك بذلك
الشيخ - يعني سعيد بن المسيب - قال : فلزمت سعيداً سبع سنين ثم تحولت عنه إلى عروة ففجرت
تبعج بحره . وقال الليث : قال ابن شهاب : ما صبر أحد على العلم صبري ، وما نشره أحد قط نشرى ،
فأما عروة بن الزبير فيثرت لا تكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس فذهب اسمه كل مذهب .
وقال مكى بن عبيدان : حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الله الأوصي حدثنا مالك بن أنس أن
ابن شهاب سأله بعض بني أمية عن سعيد بن المسيب فذكر علمه بخير وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك
سعيداً فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلم على سعيد فلم يرد عليه ولم يكلمه ، فلما انصرف سعيد
مشى الزهري معه فقال : مالي سلمت عليك فلم تكلمني ؟ ماذا بلغك عني وما قلت إلا خيراً ؟ قال
له : ذكرتني لبني مروان ؟ . وقال أبو حاتم : حدثنا مكى بن عبيدان حدثنا محمد بن يحيى حدثني عطاء
ابن خالد الخزومي عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة عن ابن شهاب قال : أصاب أهل
المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد ، وقد خيل إلى أنه قد أصابنا أهل

البيت من ذلك ما لم يصب أحداً من أهل البلد ، وذلك لخبرتي بأهلي ، فتذكرت : هل من أحيد
أنت إليه برحم أو ودة أرجو أن خرجت إليه أن أصيب عنه ؟ فلما علمت من أصدق أخرج
إليه ، ثم قلت : إن الرزق بيد الله عز وجل ، ثم خرجت حتى قدمت دمشق فوضعت رجلي ثم أتيت
المسجد فنظرت إلى أعظم حلقة رأيته وأكبرها فجلست فيها ، فبينما نحن على ذلك إذ خرج رجل
من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، كأجبه الرجال وأجملهم وأحسنهم هيئة ، فجاء إلى المجلس الذي
أنا فيه فتحدثوا له - أي أوسعوا - فجلس فقال : لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله
منذ استخلفه الله ، قالوا : ما هو ؟ قال : كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل يذكر أن ابنا
لمصعب بن الزبير من أم ولد مات ، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثاً منه فنهها عروة بن الزبير ، وزعم
أنه لا ميراث لها ، فتوهم أمير المؤمنين حديثاً في ذلك سمعه من سعيد بن المسيب يذكر عن أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد ، ولا يحفظه إلا أن ، وقد شد عنه ذلك الحديث . قال ابن شهاب
قلت : أنا أحدثه به ، فقام إلى قبيصة حتى أخذ بيدي ثم خرج حتى دخل الدار على عبد الملك فقال
السلام عليك ، فقال له عبد الملك بحسبنا : وعليك السلام . فقال قبيصة : أندخل ؟ فقال عبد الملك
ادخل ، فدخل قبيصة على عبد الملك وهو أخذ بيدي وقال : هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث
الذي سمعته من ابن المسيب في أمهات الأولاد . فقال عبد الملك : إيه ، قال الزهري قلت : سمعت
سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بأمهات الأولاد أن يقرن في أموال
أبنائهم بقيمة عدل ثم يمتقن ، فكتب عمر بذلك صدرأ من خلافته ، ثم توفي رجل من قریش كان له
ابن من أم ولد ، وقد كان عمر يعجب بذلك الغلام ، فز ذلك الغلام على عمر في للمسجد بعد وفاة أبيه
بليال ، فقال له عمر : ما فعلت يا ابن أخي في أمك ؟ قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خير وافر
بين أن يسترقوا أمي ^(١) فقال عمر : أولست إنما أمرت في ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأياً وما
أمرت بأمر إلا قلتم فيه ، ثم قام فجلس على المنبر فاجتمع الناس إليه حتى إذا رضى من جماعتهم قال :
أيها الناس ! إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث رأي غير ذلك ،
فأيما امرئ كان عنده أم ولد فليكنها يمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل له عليها .

فقال لي عبد الملك : من أنت ؟ قلت أنا محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب ، فقال : أما والله إن
كان أبوك لأباً نعاراً في الفتنة مؤذياً لنا فيها . قال الزهري قلت : يا أمير المؤمنين قل كما قال العبد
الصالح : [لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم] فقال : أجل ، [لا تريب عليكم اليوم يغفر الله
لكم] قال قلت : يا أمير المؤمنين افرض لي فاني منقطع من الديوان ، فقال : إن بلدك ما فرضنا فيه

(١) كذا بالأصل وهو ناقص .

لأحد منذ كان هذا الأمر . ثم نظر إلى قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه ، فكأنه أوماً إليه أن افرض له ، فقال : قد فرض إليك أمير المؤمنين ، فقلت : إني والله ما خرجت من عند أهلي إلا وهم في شدة وحاجة ما يعلمها إلا الله ، وقد عمت الحاجة أهل البلد . قال : قد وصلك أمير المؤمنين . قال قلت : يا أمير المؤمنين وخادم يخدمنا ، فإن أهلي ليس لهم خادم إلا أختي ، فأنها الآن تعجن وتخبز وتطحن قال : قد أخدمك أمير المؤمنين .

وروى الأوزاعي عن الزهري أنه روى أن رسول الله (ص) قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » به فقلت للزهري : ما هذا ؟ فقال : من الله العلم ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم ، أمروا أحاديث رسول الله (ص) كما جاءت . وعن ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال : كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لبديد بن ربيعة التي يقول فيها :

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ * وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَالْعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَدَى لَهُ * بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مِنْ هَدَاهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى * نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

وقال الزهري : دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة منزله فإذا هو مغتاض ينفخ ، فقلت : مالي أراك هكذا ؟ فقال : دخلت على أميركم آنفاً - يعني عمر بن عبد العزيز - ومعه عبيد الله بن عمرو بن عثمان فسلمت عليهما فلم يردا على السلام ، فقلت :

لَا تَعْجَبَا أَنْ تَوُتِيَا فَتَسْكَمَا * فَمَا حَشَى الْأَقْوَامُ شَرَّ أَمْنِ الْكِبَرِ
وَمَسَاتِرَابِ الْأَرْضِ مِنْهُ تَخْلَقَتَا * وَفِيهَا الْمَمَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْخَشَرِ

فقلت : يرحمك الله ! ! مثلك في فقهك وفضلك وسنك تقول الشعر ؟ فقال : إن المصدور إذا نفث برأ . وجاء شيخ إلى الزهري فقال : حيدثنى ، فقال : إنك لا تعرف اللغة ، فقال الشيخ : لعل أعرفها ، فقال : فما تقول في قول الشاعر :

تَصْرِيعٌ لَدَائِمِي يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ * وَقَدَمَاتُ مَنْهُ كُلُّ عَضْوٍ وَمَفْصَلِ ؟

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال : عد على أحدثك . وكان الزهري يتمثل كثيراً بهذا :

ذَهَبَ الشَّيَابُ فَلَا يَدُودُ جَمَانَا * وَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ كَانَا
فَطَوَّيْتُ كَفِّي يَاجَانُ عَلَى الْمَصَا * وَكَفِّي جَانُ بِطَيِّهَا حَدَثَانَا

وكان نقش خاتم الزهري : محمد يسأل الله العافية . وقيل لابن أخي الزهري : هل كان عمك يتعاطب ؟ قال : كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهري . وقال : استكنروا من شيء لا تسمه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وامتدحه رجل مرة فأعطاه قيصبه ، فقيل له : أعطى على كلام

الشیطان؟ فقال: إن من ابتغاء الخيراتقاء الشر. وقال سفیان: سئل الزهري عن الزاهد فقال: من لم يمنع الحلال شكره؛ ولم يغلب الحرام صبره. وقال سفیان: قالوا للزهري: لو أنك الآن في آخر عرك أقت بالمدينة، فقمعت إلى مسجد رسول الله (ص)، ودرجت وجلستنا إلى عمود من أعمدته فذكرت الناس وعلمتهم؟ فقال: لو أني فعلت ذلك لوطئ عقي، ولا ينبغي لي أن أفعل ذلك حتى أزهق في الدنيا وأرغب في الآخرة. وكان الزهري يحدث أنه هلك في جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبيا، ماتوا من الجوع والعمل. كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا، ولا يلبسون إلا ما عرفوا وكان يقول: العبادة هي الورع والزهد، والعلم هو الحسنة، والصبر هو احتمال المسكاره، والدعوة إلى الله على العمل الصالح (١).

ومن توفي في خلافة هشام بن عبد الملك كما أورده ابن عساكر
بلال بن سعد

ابن تميم السكوني أبو عمرو، وكان من الزهاد الكبار، والعباد الصوام القوام، روى عن أبيه وكان أبوه له صحبة، وعن جابر وابن عمر وأبي الدرداء وغيرهم، وعنه جماعات منهم أبو عمرو والأوزاعي وكان الأوزاعي يكتب عنه ما يقوله من الفوائد العظيمة في قصصه ووعظه، وقال: مارأيت واعظا قط مثله. وقال أيضا: ما بلغني عن أحد من العبادة ما بلغني عنه، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة. وقال غيره وهو الأصمعي: كان إذا نكس في ليل الشتاء ألقى نفسه في ثيابه في البركة، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال: إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم. وقال الوايد بن مسلم: كان إذا كبر في المحراب سمعوا تكبيره من الأوزاع. قلت: وهي خارج باب الفراديس. وقال أحمد بن عبد الله الدجلى: هو شامي تابعي ثقة. وقال أبو زرعة الدمشقي: كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص، وقد اتهمه رجاء بن حيوة بالفساد حتى قال بلال يوما في وعظه: رب مسرور ومرور، ورب منور ولايشع، فويل لمن له الويل وهو لايشع، يأكل ويشرب، ويضحك، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار، فياويل لك روحاً، ياويل لك جسداً، فلتبك ولتبك عليك البواكي لطول الأبد. وقد ساق ابن عساكر شيئاً حسناً من كلامه في مواظبه البليغة، فمن ذلك قوله: والله لاكني به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها، زاهدكم راغب، وعالمكم جاهل، ومجتهدكم مقصر. وقال أيضاً: أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بميب فيك، أحب إليك، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارا. وقال أيضاً: لا تكن ولياً لله في الملاينة وعدوه في السر ولا تكن خدو إبليس والنفس والشهوات في الملاينة وصديقهم في السر، ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين

فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر . وقال أيضا : أيها الناس إنكم لم تخلتوا للفناء وإعما خلقتم لبقاء ، ولكنكم تفتقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصباب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار . وقال أيضا : عباد الرحمن إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال إلى دار مقام ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلا تنفعن ، عباد الرحمن لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا ، ولو عملتم بما تعلمون لكان لكم مقتدا وملائجا ، عباد الرحمن أماما وكلم به فتضيعونه ، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه ، ما هكذا نعت الله عباده المؤمنين ، أذو وعقل في الدنيا وبله في الآخرة ، وعى عما خلقتكم له بعراء في أمر الدنيا ؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته ، فكذلك اشفقوا من عذابه بما تتهكئون من معاصيه ، عباد الرحمن اهل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من أعمالكم قد تقبل منكم ؟ أو شيئا من خطاياكم قد غفر لكم ؟ [أم حسبتم أنما خلقناكم عبنا وأنكم إلينا لا ترجعون] والله لو عمل لكم الثواب في الدنيا لاستقلتم ما فرض عليكم . أترغبون في طاعة الله لدار معمرة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون في جنة أكلها دائم وظلها ، وعرضها عرض الأرض والسموات [تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار] وقال أيضا : الذكر ذكران ذكر الله باللسان حسن جميل ، وذكر الله عند ما أحل وحرم أفضل . عباد الرحمن يقال لأحدنا : نحب أن نموت ؟ فيقول : لا فيقال له : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول سوف أعمل ، فلا نحب أن نموت ، ولا نحب أن نعمل ، وأحب شيء إليه يحب أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه . عباد الرحمن إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ماسواها ، فما يزال ينيه الشيطان ويزين له حتى ما يرى شيئا دون الجنة ، مع إقامته على معاصي الله . عباد الرحمن قبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ماذا تريدون بها ، فإن كانت خالصة فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا ، فانه قال [إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه] وقال أيضا : إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ، يقبل المقبل ويدعو المدير ، وقال أيضا : إذا رأيت الرجل متعرجا لحوحا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال الأوزاعي : خرج الناس بدمشق يستسقون فقام بهم بلال بن سعد فقال : يا مشرك من حضر السم مقرن بالاساءة ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك قلت [ماعلى الحسين من سبيل] وقد أقرنا بالاساءة فاعف عنا واغفر لنا . قال : فسقوا يومهم ذلك : وقال أيضا : سمعته يقول : لقد أدركت أقواما يشنون بين الأفراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا جنهم الليل كانوا رهباناً . وسمعته أيضا يقول : لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى من عصيت . وسمعته يقول : من بادأك بالود فقد استرقك بالشكر .

وكان من دعائه : اللهم إني أعوذ بك من زينغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال
ومضلات العين . وقال الأوزاعي عنه أنه قال : عياد الرحمن لو أنتم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها
ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا لسكناكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل . وقال :
إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها ، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف المبد عليها يوم القيامة .

ترجمة الجعد بن درهم

هو أول من قال بخلق القرآن ، وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي ، وهو مروان الحمار ، آخر
خلفاء بني أمية . كان شيخه الجعد بن درهم ، أصله من خراسان ، ويقال إنه من موالى بني مروان ،
سكن الجعد دمشق ، وكانت له بها دار بالقرب من القلايين إلى جانب الكنيسة ، ذكره ابن
عساكر . قلت : وهي محلة من الخوامين اليوم قربها عند حمام القطنين الذي يقال له حمام قليس .
قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن مسمان ، وأخذها بيان عن طلوت ابن
أخت لبيد بن أعصم ، زوج ابنته ، وأخذها لبيد بن أعصم الساجر الذي سحر رسول الله (ص) ،
عن يهودى باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري ، وقيل الترمذي ، وقد أقام ببلخ ،
وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران ، حتى نفى إلى ترمذ ، ثم قتل الجهم بأصبهان ،
وقيل بمر و ، قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً ، وأخذ بشر المريسي عن
الجهم ، وأخذ أحمد بن أبي دواد عن بشر ، وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق
القرآن ، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ، فلقبه نبتاً الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ،
ثم إن خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الاضحى بالكوفة ، وذلك أن خالداً خطب الناس
فقال في خطبته تلك : أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مضج بالجعد بن درهم ، إنه زعم
أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً . ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم
نزل فذبحه في أصل المنبر :

وقد ذكر هذا غير واحد من الحفاظ منهم البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي وعبد الله بن أحمد
وذكره ابن عساكر في التاريخ ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه ، وأنه كان كلما راح إلى
وهب ينتسل ويقول : أجمع للمقل ، وكان يسأل وهباً عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوماً :
ويلك يا جعد ، أقم المسألة عن ذلك ، إني لأظنك من المالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له
يدا ما قلنا ذلك ، وأن له عينا ما قلنا ذلك ، وأن له نفساً ما قلنا ذلك ، وأن له سمماً ما قلنا ذلك ،
وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ثم قتل . ذكره ابن
عساكر ، وذكر في ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف و يروي لعمران بن حطان :

ليث على وفي الحروب فعمامة * فتخاء تجفل من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى * بل كان قلبك في جناحي طائر

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا رزق الله بن موسى ثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال قال رسول الله (ص) : ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة ، وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي كريب عن ابن أبي فديك عن عبد الملك بن سعيد بن زيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب عن الزهري به . قلت : وهذا حديث غريب منكر ، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف الزهري تكلم فيه وضعفه علي بن الحسين بن الجنيد : وكذا تكلم في الراوى عنه أيضا والله أعلم . وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة من بلاد الروم ، وفي ربيع الآخر منها توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي ، أمير المؤمنين . وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل الخزومي ، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين ، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد التي يقال لها النورية الكبيرة ، وتعرف بدار القبايين - يعني الذين يبيعون القباب وهي الخيام - فكانت تلك المحلة داره والله أعلم . وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك بعهد منه إليه ، وذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة ، وكان جميلا أبيض أحول يخضب بالسواد ، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في الحراب أربع مرات ، ففس إلى سعيد بن المسيب من سألته عنها ففسرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة ، فوقع ذلك ، فكان هشام آخرهم ، وكان في خلافته حازم الرأي جماعا للأموال يبعث ، وكان ذكيا مدبرا له بصير بالأمور جليلا وحتيها ، وكان فيسه حلم وأناة ، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال : أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيا وقال : اقتص مني بدما أو قال بمثلها ، فقال : إذا أكون سفيها . مثلك ، قال فخذ عوضا قال : لا أفعل ، قال : فتركها الله ، قال : هي لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لا أعود إلى مثلها .

وقال الأصمعي : أسمع رجلا هشاما كلاما يقال له : أقول لي مثل هذا وأنا خليفتك ؟ وغضب مرة على رجل فقال له : اسكت وإلا ضربتك سوطا ، وكان علي بن الحسين قيد اقترض من مروان

ابن الحكم مالا أربعة آلاف دينار ، فلم يتعرض له أحد من بني مروان ، حتى استخلف هشام فقال :
ما فعل حقتنا قبلك ؟ قال : موفور مشكور ، فقال : هو لك .

[قلت : هذا الكلام فيه نظر ، وذلك أن علي بن الحسين مات سنة الققاء ، وهي سنة أربع
وتسعين ، قبل أن يلي هشام الخلافة بأحدى عشرة سنة ، فانه إنما ولي الخلافة سنة خمس ومائة ، فقول
المؤلف : إن أحداً من خلفاء بني مروان لم يتعرض لمطالبة علي بن الحسين حتى ولي هشام فطالبه
بالمال المذكور ، فيه نظر ولا يصح . لتقدم موت علي على خلافة هشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم]
وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وأبيه يحيى أمر
شديد وقال : وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك . وقال المدائني عن رجل من حبي عن بشر بن
هشام قال : أتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : أكره الطنبور على رأسه
فبكى الشيخ ، قال بشر : فضربه ، قال أتراني أبكي للضرب ، إنما أبكي لاحتقارك البربط حتى سميت
طنبوراً ، وأغلاظ له هشام رجل يوماً في الكلام فقال : ليس لك أن تقول هذا لا مملك . وتقدم أحد أولاد
يوم الجمعة فبعث إليه مالك لم تشهد الجمعة ؟ فقال : إن بغلتي عجزت هنى ، فبعث إليه أما كان يمكنك
المشى ، ومنعه أن يركب سنة ، وأن يشهد الجمعة ماشياً

وذكر المدائني أن رجلاً أهدى إلى هشام طيرين فأوردتهما السفير إلى هشام ، وهو جالس على
سرير في وسط داره ، فقال له : أرسلهما في الدار ، فأرسلهما ، ثم قال : جازني يا أمير المؤمنين فقال :
وبحك وما جازتك على هدية طيرين ؟ خذ أحدهما ، فجعل الرجل يسمى خلف أحدهما ، فقال :
وبحك ما مالك ؟ فقال أختار أجودهما : قال : وتختار أيضاً الجيد وتترك الرديء ؟ ثم أمر له بأربعين
أو خمسين درهما . وذكر المدائني عن محرم ، كاتب يوسف بن عمر . قال : بعثني يوسف ، إلى هشام
بباقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرابعة ، جارية خالد بن عبد الله القسري ، مشتري الباقوتة ثلاثة وسبعون
ألف دينار ، قال : فدخلت عليه وهو على سرير فوقه فرش لم أر رأس هشام من علو تلك الفرش ،
فأوريتها له ، فقال : كم زنتها ؟ فقلت : إن مثل هذه لا مثل لها ، فسكت . قالوا : ورأي قوما يفرطون
الزيتون فقال القطوه لقطا ولا تنفضوه ففضا ، فتفتأ عيونهم وتنكسر غصونهم ، وكان يقول : ثلاثة
لا يضمن الشريف : تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل . وقال أبو بكر الخزاز ملي :
يقال إن هشاماً لم يقل من الشعر سوى هذا البيت :

إذا أنت لم تهن المرى قاذك الموى * إلى كل مانفهِ عليك مقال

وقد روى له شعر غير هذا ، وقال المدائني عن ابن يسار الأهرجى حدثني ابن أبي بيجية عن هشام بن

شبهة قال : دخلت على هشام وعليه قباء فتك أخضر ، فوجهني إلى خراسان ، ثم جعل يوصيني وأنا أنظر إلى القباء ، ففطن فقال : مالك ؟ قلت : عليك قباء فتك أخضر ، [وكنت رأيت عليك مثله] قبل أن تلي الخلافة ، فجملت أتأمل هذا هو ذلك أم غيره ، قال : والله الذي لا إله غيره هو ذلك ، مالي قباء غيره ، وما ترون من جمعي لهذا المال وصونه إلا لكم . قال عقاب : وكان هشام محشوا بخلا .

وقال عبد الله بن علي عم السفاح : جمعت دواوين بني أمية فلم أر أصلح للامانة والسلطان من ديوان هشام . وقال المدائني عن هشام بن عبيد الحميد : لم يكن أحد من بني مروان أشد نظراً في أصحابه ودواوينه ، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام ، وهو الذي قتل غيلان القدرى ، ولما أخضر بني يديه قال له : ويحك قل ما عندك ، إن كان حتماً أنبئناه ، وإن كان باطلاً رجعت عنه ، فناظره ميمون بن مهران فقال لميمون أشياء فقال له : أيمسى الله كارها ؟ فسكت غيلان فتيده حينئذ هشام وقتله . وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي وقال : أصبنا في خزان هشام اثني عشر ألف قميص كلها قد أثر بها . وشكى هشام إلى أبيه ثلثاً إحداً أنه يهاب الصعود إلى المنبر ، والثانية قلة تناول الطعام ، والثالثة أن عنده في القصر مائة جاريد من حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن . فكتب إليه أبوه : أما صعودك إلى المنبر فاذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى وخر الناس فانه أهون عليك ، وأما قلة الطعام فرب الطباخ فليكثر الألوان فملك أن تتناول من كل لون لقمة ، وعليك بكل بيضاء بضعة ، ذات جمال وحسن . وقال أبو عبد الله الشافعي : لما بني هشام بن عبد الملك الرصافة قال : أحب أن أخلوها يوماً لا يأتيني فيه خبر غم ، فما انقصف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور ، فقال : ولا يوماً واحداً ؟ وقال سفيان بن عيينة : كان هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ثنا الحسين ابن زيد عن شهاب بن عبد ربه عن عمر بن علي قال : مشيت مع محمد بن علي - يعني ابن الحسين - إلى داره عند الحمام فقلت له : إنه قد طال ملك هشام وسلطانه ، وقد قرب من العشرين سنة ، وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فزعم الناس أنها العشرون ، فقال : ما أدري ما أحاديث الناس ، ولكن أبي حدثني عن أبيه عن علي عن النبي (ص) قال : « لن يعمر الله ملكاً في أمة نبي مضى قبله ما بلغ ذلك النبي من العمر في أمته ، فإن الله عمر نبيه (ص) ثلاث عشرة سنة بمكة وعشراً بالمدينة » . وقال ابن أبي خيثمة : ليس حديث فيه توقيت غير هذا ، قرأه يحيى بن معين على كتابي فقال : من حدثك به ؟ فقلت : إبراهيم ، فتلف أن لا يكون سمعه ، وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن أحمد بن زهير عن إبراهيم بن المنذر الحزامي . وروى مسلم بن إبراهيم ثنا القاسم بن الفضل . حدثني عباد بن المرزا الفتكي (١) عن عاصم بن

المنذر بن الزبير عن عبد الله بن الزبير أنه سمع علياً يقول : هلاك ملك بني أمية على رجل أحول - يعني هشاماً - .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن أبي معاذ النخعي عن أبيه عن عمرو بن كليع عن سالم كاتب هشام بن عبد الملك : قال خرج علينا يوماً هشام وعليه كآبة وقد ظهر [عليه] الحزن ، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه فقال : يا أمير المؤمنين مالي أراك هكذا ؟ فقال : مالي لا أكون وقد زعم أهل العلم بالنجوم أني أموت إلى ثلاث وثلاثين من يومى هذا . قال : فكتبنا ذلك ، فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءني رسول في الليل يقول : احضر معك دواء للذبحة ، وكان قد أصابته قبل ذلك ، فاستعمل منه فعوفي ، فذهبت إليه ومضى ذلك الدواء فتناوله وهو في وجع شديد ، واستمر فيه عامة الليل ، ثم قال : يا سالم اذهب إلى منزلك فقد وجدت خفة وخر الدواء عندي ، فذهبت فما هو إلا أن وصلت إلى منزلي حتى سمعت الصباح عليه ، فجئت فإذا هو قد مات .

وذكر غيره أن هشاماً نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال : جادلتم هشاماً بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له . ولما مات جاءت الخزنة تفتحوا على حواصله وأرادوا تسخين الماء فلم يقدرُوا له على فحم حتى استعاروا له ، وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم . وكانت وفاته بالرصافة يوم الأربعاء لست بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن بضع وخمسين سنة ، وقيل إنه جاوز الستين ، وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي ولي الخلافة بعده ، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشر يوماً ، وقيل وثمانية أشهر وأيام فإله أعلم .

وقال ابن أبي فديك : ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول الله (ص) قال : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » . قال ابن أبي فديك : زينتها نور الإسلام وبهجته ، وقال غيره - يعني الرجال - والله أعلم .

قلت : لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ، وتولى وأدير أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعدهم نحو من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة كما سيأتي إن شاء الله تعالى ذلك ، وبسوطاً مقدراً في مواضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

❦❦❦

بحمد الله مد تم الجزء التاسع من البداية والنهاية ويليه الجزء العاشر

وأوله خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فهرست الجزء الثاني

من كتب البداية والنهاية

صحيفة	صحيفة
٣٣ جبير بن نفير	٢ ثم دخلت سنة اربع وسبعين
عبدالله بن جعفر بن ابي طالب	٣ ذكر من توفي فيها من الأعيان
٣٤ ابو ادريس الخولاني	ابو سعيد الخدري
معبد الجهني القدري	٤ عبدالله بن عمر
ثم دخلت سنة احدى وثمانين	٥ عبيد بن عمير
٣٥ فتنة ابن الأشعث	٦ ابو جحيفة سلمة بن الأكوع
٣٧ سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر	مالك بن ابي عامر ابو عبد الرحمن السلمي
عبدالله بن شداد ابن الهاد	ابو معرض الأسدي
٣٨ محمد بن علي بن ابي طالب	٧ بشر بن مروان
ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين	ثم دخلت سنة خمس وسبعين
٤٠ وقعة دير الجماجم	١١ ابو ثعلبة الخشني
٤٣ اسامة بن خارجة الفزاري الكوفي	١٢ لأسود بن يزيد حران بن أبان
المغيرة بن المهلب الحارث بن عبدالله	ثم دخلت سنة ست وسبعين
محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة	١٥ سلمة بن اشيم العدوي
عبدالله بن ابي طلحة بن ابي الأسود	١٦ زهير بن قيس الهلوي
عبد الله بن كعب بن مالك	١٧ ثم دخلت سنة سبع وسبعين
٤٤ عفان بن وهب جميل بن عبدالله	١٩ مقتل شبيب عند ابن الكلبي
٤٦ عمر بن عبيد الله كميل بن زياد	٢١ عياض بن غنم الأشعري
٤٧ ذاذان ابو عمرو الكندي	مطرف بن عبدالله
ام الدرداء الصفري	ثم دخلت سنة ثمان وسبعين
ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين	٢٢ شريح بن الحارث
٥١ بناء واسط عبد الرحمن بن جحيزة	٢٦ عبدالله بن غنم جنادة بن أمية الأزدي
طارق بن شهاب عبيدالله بن عدي	العلاء بن زياد البصري
٥٢ ثم دخلت سنة اربع وثمانين	٢٧ ثم دخلت سنة تسع وسبعين
ايوب بن القرية	٣١ ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة
٥٣ روح بن زنباع الجذامي	٣٢ ومن توفي في هذه السنة من الأعيان
٥٤ ايوب بن القرية	اسلم مولى عمر بن الخطاب
روح بن زنباع	

- ٥٥ ثم دخلت سنة خمس وثمانين
 ٥٧ عبد العزيز بن مروان
 ٦٠ بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم
 من بعده لولده سليمان
 ٦١ ثم دخلت سنة ست وثمانين
 عبد الملك بن مروان والد الخلفاء
 الأمويين
 ٦٩ ارطاة بن زفر مطرف بن عبدالله
 ٧٠ خلافة الوليد بن عبد الملك
 ٧١ ثم دخلت سنة سبع وثمانين
 ٧٣ غيبة بن عبد السلمي
 المقدام بن معدى كرب
 ابو امامة الباهلي قبيصة بن زؤيب
 عروة بن المغيرة بن شعبه
 ٧٤ شريح بن الحارث بن قيس القاسبي
 ثم دخلت سنة ثمان وثمانين
 ٧٥ ومن توفي فيها من الأعيان
 عبدالله بن بسر بن أبي بسر المازني
 عبدالله بن أبي أوفى
 ٧٦ وفيها توفي هشام بن اسماعيل
 عمير بن حكيم
 ثم دخلت سنة تسع وثمانين
 ٧٧ ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة
 ٨٠ يتاذوق الطابوب خالد بن يزيد بن معاوية
 عبدالله بن الزبير
 ٨١ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين
 ٨٢ سهل بن سعد الساعدي
 ٨٣ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين
 ٨٤ طويس المغني

- ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين
 ٨٥ فتح سمرقند
 ٨٨ انس بن مالك
 ٩٢ عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة
 ٩٣ بدل بن أبي الدرداء بشر بن سعيد
 زرار بن أوفى خبيب بن عبدالله
 حفص بن عاصم سعيد بن عبد الرحمن
 فروة بن مجاهد ابو الشعثاء جابر بن زيد
 ٩٥ ثم دخلت سنة أربع وتسعين
 ٩٦ مقتل سعيد بن جبير رحمه الله
 ٩٨ ذكرى من توفي فيها من المشاهير
 ٩٩ سعيد بن المسيب
 ١٠١ طلق بن حبيب العنزي
 عروة بن الزبير بن العوام
 ١٠٣ علي بن الحسين
 ١١٥ ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث
 ١١٦ ثم دخلت سنة خمس وتسعين
 ١١٧ ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي ووفاته
 قُضِيَ نَزْلُهُ
 ١٢٨ قُضِيَ نَزْلُهُ
 فيما روى عنه من الكلمات النافعة
 والجرأة الباقية
 ١٤٠ ومن توفي فيها من الأعيان
 الحسن بن محمد بن الحنفية
 حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري
 ثم دخلت سنة ست وتسعين
 قُضِيَ نَزْلُهُ
 ١٥٤ فيما روى في جامع دمشق من الآثار وما

ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من

السادة الأخيار

١٥٦ الكلام على ما يتعلق برأس يحيى

بن زكريا عليها السلام

١٥٨ ذكر الساعات التي على يده

١٥٩ ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الاموي

١٦٠ فضيلة

١٦١ وهذه ترجمة الوايد بن عبد الملك باني

جامع دمشق وذكر وفاته في هذا العام

١٦٦ عبد الله بن عمر بن عثمان

خليفة سليمان بن عبد الملك

١٦٧ مقتل قتيبة مسلم رحمه الله

١٦٩ ثم دخلت سنة سبع وتسعين

١٧٠ الحسن بن الحسن بن علي

١٧١ موسى بن نصير

١٧٤ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

١٧٧ عبد الله بن عبد الله بن عتبة

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

١٨٤ خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

١٨٥ الحسن بن محمد بن الحنفية

عبد الله بن محيريز بن جنادة بن عبيد

١٨٦ محمود بن لبيد بن عتبة

نافع بن جبير بن مطعم كريب بن مسلم

محمد بن جبير بن مطعم مسلم بن يسار

١٨٧ حنش بن عمرو الصنعاني

خارجة بن زيد

سنة مائة من الهجرة النبوية

١٨٩ وفيها كان بدو دعوة بني العباس

ومن توفي فيها من الأعيان

١٩٠ ابو امامة سهل بن حنيف

ابو الزاهرية حدير بن كريب الحصري

ابو الطفيل عامر بن واثلة

ابو عثمان النهدي

١٩١ ثم دخلت سنة احدى ومائة

١٩١ وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز

الامام المشهور رحمه الله

١٩٦ فضيلة

وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

٢٠٧ فضيلة

٢٠٩ فضيلة

٢٠٨ ذكر سبب وفاته رحمه الله

٢١٢ فضيلة

٢١٩ خلافة يزيد بن عبد الملك

٢٢٠ ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

٢٢٢ ولاية مسلمة على بلاد العراق

وخراسان

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

٢٢٣ الضحاك بن مزاحم الهذلي

ابو المتوكل الناجي

١٩١ ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

يزيد بن ابي مسلم

٢٢٤ مجاهد بن جبير المكي

فضيلة

٢٢٩ مصعب بن سعد بن ابي وقاص

ثم دخلت سنة اربع ومائة

٢٣٠ خالد بن سعدان الكلاعي

عامر بن سعد بن ابي وقاص الليثي

عامر بن شراحيل الشامي

صحيفة

- ٢٣١ ابو بردة بن ابو موسى الأشعري
ابو قلادة الحرمي
ثم دخلت سنة خمس ومائة
٢٣٣ خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان
أبان بن عثمان بن عفان
ثم دخلت سنة ست ومائة
٢٣٤ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق
وفيها توفي كثير عزة الشاعر المشهور
ثم دخلت سنة ثمان ومائة
٢٥٦ محمد بن كعب القرظي
ثم دخلت سنة تسع ومائة
٢٥٩ سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية
٢٦٥ جرير الشاعر
وأما الفرزدق
٢٦٦ فأما الحسن بن أبي الحسن
وأما ابن سيرين
فصل
٢٦٨ أما الحسن
٢٧٤ محمد بن سيرين
٢٧٦ وهيب بن منبه البجلي
فصل
٣٠٢ سليمان بن سعد أم الهذيل
عائشة بنت طلحة بن عبد الله التميمي
عبد الله بن سعيد بن جبير
عبد الرحمن بن أبان
ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائة
ثم دخلت سنة ثني عشرة ومائة
٣٠٤ رجاء بن حيوة الكندي

صحيفة

- شهر بن حوشب الأشعري الحمصي
ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة
الأمير عبد الوهاب بن بخت
٣٠٥ مكحول الشامي
٣٠٦ ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة
عطاه بن أبي رباح
٣٠٩ ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة
ابو جعفر الباقر
فصل
٣١٢ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة
ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة
٣١٣ قتادة بن دعامة السدوسي
فصل
٣١٤ نافع مولى ابن عمر
ذو الرمة الشاعر
٣٢٠ ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائة
علي بن عبد الله بن عباس
٣٢١ ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة
٣٢٤ سنة عشرين ومائة من الهجرة
٣٢٦ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة
٣٢٨ يزيد بن علي بن الحسين بن علي بن
أبي طالب
مسلمة بن عبد الملك
٣٢٩ نمير بن قيس
ثم دخلت سنة ثنين وعشرين ومائة
٣٣١ عبد الله أبو يحيى المعروف بالبطل
٣٣٤ أياس اللكي

صيفة

٣٣٨ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة
 ٣٣٩ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة
 ٣٤٠ القاسم بن أبي بزة (١)

الزهري

٣٤٤ فضيلة

٣٤٨ بلال بن سعد

٣٥٠ ترجمة الجعد بن درهم

٣٥١ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة
 ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

انتهى القهرست





جميع الحقوق محفوظة

للمنشر

مكتبة المصنف
بيروت

الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هـ

الْبَدَائِيَةُ وَالْمُسَائِرَةُ

الجزء العاشر

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذيلت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر

الطبعة الثانية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م
بيروت - لبنان

مكتبة المحرارف
ص. ب. : ١٧٦١ - ١١
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خُلُوفَةُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

قال الواقدي : بويغ له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وقال هشام بن الكلبي : بويغ له يوم السبت في ربيع الآخر ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة . وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا ، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخلطاء السوء ومجالس اللهو ، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه ، فأمره على الحج سنة ست عشرة ومائة ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه ، حتى يقال إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فينه كلب فسمع صوته فاحلوا ذلك على الجبال فضرب على ذلك . قالوا : واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخوارج والآلات الملاحى وغير ذلك من المنكرات ، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه ، من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك ، فلما تحقق عمه ذلك منه نهى مراراً فلم يفته ، واستمر على حاله القبيح ، وعلى فعله الردي ، فعزم عمه على خلعها من الخلافة - وليته فعل - وأن يولى بعده مسلمة بن هشام ، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء ، ومن أخواله ، ومن أهل المدينة ومن غيرهم ، وليت ذلك تم . ولكن لم يلتزم حتى قال هشام يوماً لوليد : ويحك ! والله ما أدرى أعلى الأسلام أنت أم لا ، فانك لم تدع شيئاً من

المنكرات إلا أتيتته غير متحاش ولا مستتر . فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائل عن ديننا * ديني على دين أبي شاكر
نشرها صرفاً ومزوجة * بالسخن أحياناً وبالغار

فغضب هشام على ابنه مسعدة ، وكان يسمى أبا شاكر ، وقال له : تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد
أن أرقبك إلى الخلافة ، وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار ، وقسم بمكة
والمدينة أموالاً ، فقال مولى لأهل المدينة :

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها * ليس بزنديق ولا كافر

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد ما كان يتماطاه من
الفواحش والمنكرات ، فتشكر له هشام وعزم على خلعهم وتولية ولده مسعدة ولاية العهد ، ففر منه الوليد
إلى الصحراء ، وجهلاً لا يرسلان بأقبح المراسلات ، وجعل هشام يتوعدده وعيداً شديداً ، ويتهدده ،
ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البرية ، فلما كانت الليلة التي قدم في صبيحتها عليه البرد
بالخلافة ، قاتق الوليد تلك الليلة قلقاً شديداً ، وقال لبعض أصحابه : ويحك قد أخذني الليلة قلق
عظيم فأركب لعلنا نبسط ، فسارا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به ، من كتمه إليه بالتهديد
والوعيد ، ثم رأيا من بعد رجلا وأصواتاً وغباراً ، ثم انكشف ذلك عن برد يقصده بالولاية ، فقال
لصاحبه : ويحك إن هذه رسل هشام ، اللهم اعطنا خيرها ، فلما اقتربت البرد منه وتبينوه ترجلوا
إلى الأرض وجاؤا فسلوا عليه بالخلافة ، فبهت وقال : ويحكم أمات هشام ؟ قالوا : نعم ، قال : فمن
بمشكم ؟ قالوا : سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل ، وأعطاه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن
أحوال الناس وكيف مات عمه هشام ، فأخبروه . فكتب من فور ، بالاحتياط على أموال هشام
وحواصله بالرصافة وقال :

ليت هشاماً عاش حتى يرى * مكيله الأوفر قد مله
كاناه بالمصاع الذي كاله * وما ظلمناه به إصمها
وما أتينا ذلك عن بدعة * أحله الفرقان لي أجما

وقد كان الزهري يحث هشاماً على خلع الوليد هذا ويستنخذه في ذلك ، فيحجم هشام عن ذلك
خوف الفضيحة من الناس ، ولئلا تنسك قلوب الأجناد من أجل ذلك ، وكان الوليد يفهم ذلك من
الزهري ويبغضه ويتوعدده ويتهدده ، فيقول له الزهري : ما كان الله ليسطاك على يافاسق ، ثم مات
الزهري قبل ولاية الوليد ، ثم فر الوليد من عمه إلى البرية فلم يزل بها حتى مات ، فأحاط على أموال

عنه ثم ركب من فوره من البرية وقصد دمشق ، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق ، وجاءته الوفود ، وكتب إليه مروان بن محمد - وهو إذ ذاك نائب أرمينية - يبارك له في خلافة الله له على عباده والتمسكين في بلاده ، ويهنئه بموت هشام وظفره به ، والتحكم في أمواله وحواصله ، ويذكر له أنه جدد البيعة له في بلاده ، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك ، ولولا خوفه من الثغر لاستناب عليه وركب بنفسه شوقاً إلى رؤيته ، ورغبة في مشافهته ، ثم إن الوليد سار في الناس سيرة حسنة بادی الرأي وأمر باعطاء الزمنى والمجنومين والعميان لكل إنسان مائة ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد في أعطيات الناس ، ولانسيا أهل الشام والوفود ، وكان كريماً ممدحاً شاعراً مجيداً ، لا يسأل شيئاً قط فيقول لا ، ومن شعره قوله يمدح نفسه بالكرم :

ضمنت لكم إن لم تغفنى عوائق * بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاقق معاً وزيادة * وأعطيه منى إليكم تبرع
محرّمكم ديوانكم وعطاؤكم * به يكتب الكتاب شهراً وتطبع

وفي هذه السنة عقد الوليد البيعة لابنه الحكم ثم عثمان ، على أن يكونا ولي العهد من بعده ، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر أمير العراق وخراسان ، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيار ، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمه مدحه طويلة ، ساقها ابن جرير بكاملها ، واستوثق الوليد الممالك في المشارق والمغرب ، وأخذت البيعة بولديه من بعده في الآفاق ، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان ، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردّها إليه كما كانت في أيام هشام ، وأن يكون نصر بن سيار ونوابه من تحت يده ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله ، وأن يكثّر من استصحاب الهدايا والتحف . فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل ، وألف وصيفة وشيخاً كثيراً من أباريق الفضة والذهب ، وغير ذلك من التحف ، وكتب إليه الوليد يستعجه سريماً ويطلب منه أن يحمل معه طنابير وبرابط ومغنيات وبازات وبراذين فره ، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق ، ففكره الناس ذلك منه وكرهوه . وقال المنجمون لنصر بن سيار : إن الفتنة قريباً ستقع بالشام ، فجعل يتشاغل في سيره ، فلما أن كان ببعض الطريق جاءته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت الفتنة العظيمة في الناس بالشام ، فعدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها ، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور ، وذلك بسبب قتل الخليفة على ماسند كره ، وبالله المستعان .

وفي هذه السنة ولي الوليد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ولاية المدينة ومكة والطائف ، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة مهانين لكونهما خالي هشام ، ثم يبعث

بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه . فما زال يعتنيهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالاً كثيرة . وفي هذه السنة ولي يوسف بن محمد بن يحيى بن سعيد الأنصاري قضاء المدينة ، وفيها بعث الوليد بن يزيد إلى أهل قبرص جيشاً مع أخيه وقال : خيرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام ، ومن شاء أن يتحول إلى الروم ، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام ، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم . قال ابن جرير : وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهزم بن قريظ وقحطبة بن شبيب فلقوا - في قول بعض أهل السير - محمد بن علي فأخبروه بقصة أبي مسلم فقال : أحر هو أم لا ؟ فقالوا : أما هو فيزعم أنه حر ، وأما ولاه فيزعم أنه عبده ، فاشتروه فأعتقوه ، ودفنوا إلى محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفاً ، وقال لهم : لعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا ، فان مات فان صاحبكم إبراهيم بن محمد - يعني ابنه - فانه ابني ، فأوصيكم به . ومات محمد بن علي في مستهل ذي القعدة في هذه السنة بعد أبيه بسبع سنين . وفيها قتل يحيى بن زيد بن علي بخراسان . وحج بالناس فيها يوسف ابن محمد الثقفي أمير مكة والمدينة والطائف . وأمير العراق يوسف بن عمر ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وهو في حمة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف ، فقتل الوليد قبل أن يجتمع به . ومن توفى فيها من الأعيان :

محمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس أبو عبد الله المدني ، وهو أبو السفاح والمنصور . روى عن أبيه وجده وسعيد بن جبير وجاعة ، وحدث عنه جماعة منهم ابنه الخليفة ، أبو العباس عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده وكان عنده علم بالأخبار ، فبشره بأن الخلافة ستكون في ولدك ، فدعا إلى نفسه في سنة سبع وثمانين ، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفى في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها ، عن ثلاث وستين سنة ، وكان من أحسن الناس شكلاً ، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم ، فسا أكرم الأمر إلا لولده السفاح ، فاستلب من بني أمية الأمر في سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتي .

وأما يحيى بن يزيد

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فانه لما قتل أبوه زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة ، لم يزل يحيى مختفياً في خراسان عند الحريش بن عمرو بن داود ببلخ ، حتى مات هشام ، فكتب إليه ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سيار إلى نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلي ، فأحضر الحريش فعاقبه سنائة سوط فلم يدل عليه ، وجاء ولد الحريش فدلهم عليه فجلس ، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بذلك ، فبعث إلى الوليد بن يزيد .

يخبر بذلك ، فكاتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره بإطلاقه من السجن وإرساله إليه صحبة أصحابه ، فأطلقهم وأطلق لهم وجههم إلى دمشق ، فلما كانوا ببعض الطريق توسم نصر منه غدرآ ، فبعث إليه جيشا عشرة آلاف فكسروهم يحيى بن زيد ، وإنما معه سبعون رجلا ، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالا كثيرة ، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحسك ، أبو العباس الأموي الدمشقي ، بويع له بالخلافة بعد عمه هشام في السنة الخالية بعد من أبيه كما قدمنا . وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي . وكان مولده سنة تسعين ، وقيل ثنتين وتسعين ، وقيل سبع وثمانين ، وقتل يوم الخميس ليلتين بقيتا في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله ، ومع ذلك إنما قتل لفسقه ، وقيل وزندقته . وقد قال الامام أحمد : حدثنا أبو المنيرة ثنا بن عياش حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : ولد لأخي أم سلمة زوج للنبي (ص) ، غلام فسموه الوليد ، فقال النبي (ص) : « سميتموه باسم فراعيسكم ، ليكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد ، هو أشد فسادا لهذه الأمة من فرعون لقومه » . قال الحافظ ابن عساكر : وقد رواه الوليد بن مسلم ومقل بن زياد ومحمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعي فلم يذكر وا عمر في إسناده وأرساله ، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب ، ثم ساق طريقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها . وحكى عن البيهقي أنه قال : هو مرسل حسن ، ثم ساق من طريق محمد بن محمد بن عمر بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت : « دخل النبي (ص) ، وعندى غلام من آل المغيرة اسمه الوليد ، فقال : من هذا يا أم سلمة ؟ قالت : هذا الوليد ، فقال النبي (ص) : قد اتخذتم الوليد خنانا (حسانا) غيروا اسمه ، فانه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد » . وروى ابن عساكر من حديث عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا عبد بن غالب الأنطاكي ثنا محمد بن سليمان بن أبي داود ثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة ابن الجراح عن النبي (ص) ، قال : « لا يزال هذا الأمر قائما بالتسقط حتى ينله رجل من بني أمية » .

مقتله وزوال دولته

كان هذا الرجل مجاهرا بالزنا وحش مصرا عليها ، منتهكا محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من مصيبة . وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين ، والله أعلم ، لكن الذي يظهر أنه كان عاضيا شاعرا ما جفا متعاطيا للمعاصي ، لا يتحاشاها من أحد ، ولا يستحي من أحد ، قبل أن يلي

الخلافة وبعد أن ولي ، وقد روى أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى في قتله ، قال : أشهد أنه كان شروباً للخمر ما جئنا فاسقاً ، ولقد أرادني على نفسي الفاسق . وحكى المعافى بن زكريا عن ابن دريد عن أبي حاتم عن العتيبي أن الوليد بن يزيد نظر إلى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفري فأحبها ، فبعث يراودها عن نفسها فأبت عليه ، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه ، فاتفق اجتماع النصارى في بعض كنائسهم لعيد لهم ، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتسكر وأظهر أنه مصاب ، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان ، فرأينه فأحسقن به ، فجعل يكلم سفري ويحادثها وتضاحكه ولا تعرفه ، حتى اشتكى من النظر إليها ، فلما انصرفت قيل لها : ويحك أتدريين من هذا الرجل ؟ فقالت : لا ! فقيل لها هو الوليد . فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها قبل أن تحن عليه . فقال الوليد في ذلك أبياتا :

أضحك فؤادك يا وليد عميذاً * صباً قديماً للحسان صيودا
في حبٍّ واضحة العوارض طفلةٍ * برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
مازلت أرميها بعيني وأق * حتى بصرت بها تقبل عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى * منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه * وأكون في لمب الجحيم وقودا
وقال فيها أيضا لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس . وقيل إن هذا وقع قبل أن يلى الخلافة :

ألا حبذا سزى وإن قيل إننى * كلفت بنصرانية تشرب الخرا
يهون علينا أن نظل نهارنا * إلى الليل لا ظهراً نصلي ولا غصرا

قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار النهراني بعد إبراده هذه الأشياء : لا وليد في نحو هذا من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره ، وقد ناقضناه في أشياء من منظوم شعره المنضمين ريك ضلالة وكفره . وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صاف بالخيرة فقصدته حتى شرب منه ثلاثة أرطال من الخمر ، وهو راكب على فرسه ، ومعه اثنان من أصحابه ، فلما انصرف أمر للخمار بخمسمائة دينار . وقال القاضي أبو الفرج : أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة ، وقد جمعت شيئاً من سيرته وأخباره ، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحقه وهزله ومجونه وسخافة دينه ، وما صرح به من الالحاد في القرآن العزيز ، والكفر بمن أنزل عليه ، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف ، وباطله بحق نبيه شريف ، وترجيت رضاء الله عز وجل واستيعجاب مغفرته .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان ، قال : أراد الوليد

ابن يزيد الحج وقال : أشرب فوق ظهر البكعبة الحجر ، فهموا ان يفتكوا به إذا خرج ، فجاؤا إلى خالد ابن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى ، فقالوا له : فاكتم علينا ، فقال : أما هذا فنعم ، فجاء إلى الوليد فقال : لا تخرج فاني أخاف عليك ، فقال : ومن هؤلاء الذين تخافهم علي ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر ، قال : وإن بعثت بي إلى يوسف ابن عمر ، فبعثته إلى يوسف فعاقبه حتى قتله . وذكر ابن جرير أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله ، وقد قيل إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف يخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله ، ففضبت أهل اليمن من قتله ، وخرجوا على الوليد .

قال الزبير بن بكار : حدثنا مصعب بن عبد الله قال سمعت أبي يقول : كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس : كان زنديقاً ، فقال المهدي : خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها في زنديق . وقال أحمد بن عمر بن حوصاء الدمشقي : ثنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا الوليد ابن مسلم ثنا حصين بن الوليد عن الأزهر بن الوليد قال : سمعت أم الدرداء تقول : إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم يزل طاعة مستخف بها ودم مسفوك على وجه الأرض بغير حق . قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري :

قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعه وبجائته وفسقه وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها . فانه لم يزد في الخلافة إلا شراً ولها ولذة وركوباً للصيد وشرب المسكر ومناذمة الفساق ، فما زادت خلافة على ما كان قبلها إلا تمادياً وغروراً ، فنقل ذلك على الأمراء والرعية والجند ، وكرهوه كراهة شديدة ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه ، إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده الجمانية ، وهي أعظم جند خراسان ، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك ، فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءم قتله كما سنذكره في ترجمته . ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد ، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك ، فكلّمه فيها عمر بن الوليد فقال : لا أردّها ، فقال : إذا تكثرت لصواهل حول عسكري . وحبس الأقمم يزيد بن هشام ، وباع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون

البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضا ونصحوه فلم ينتصحو ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل .
قال المدائني في روايته : ثقل ذلك على الناس ورماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر والزندقة
وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وباللواط وغيره ، وقالوا : قد اتخذ مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل
من بني هاشم ليقتله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان
الناس إلى قوله أميل ، لأنه أظهر النسك والتواضع ، ويقول ما يسمعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس
على الفتك به ، قالوا : وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاة واليانية وخلق من أعيان الأمراء وآل
الوليد بن عبد الملك ، وكان القائم بأعباء ذلك كله والداعي إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ،
وهو من سادات بني أمية ، وكان ينسب إلى الصلاح والدين والورع ، فبايعة الناس على ذلك ، وقد
نهاه أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل ، فقال : والله لولا ألى أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه ،
واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها ، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين
في طائفة من أصحابه نحو المائتين ، إلى ناحية مشارف دمشق ، فانظم إلى يزيد بن الوليد أمره وجمل
أخوه العباس ينهاه عن ذلك أشد النهي ، فلا يقبل ، فقال العباس في ذلك :

إني أعيذكُم بالله من قتل * مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملئت سياستكم * فاستمروا به ودد الدين وارتدعوا
لا تلحقن ذئاب الناس أنفسكم * إن الذباب إذا ما ألحق رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم * فم لا حشرة تنفي ولا جزع

فلما استوثق ليزيد بن الوليد أمره ، وبايعة من بايعة من الناس ، قصد دمشق فدخلها في غيبة
الوليد فبايعة أكثر أهلها في الليل ، وبلغه أن أهل المرة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مصاد ، فغى
إليه يزيد ماشيا في نفر من أصحابه ، فأصابهم في الطريق خطر شديد ، فأنوه فطرقوا بابه ليلا ثم دخلوا
فكلمه يزيد في ذلك فبايعة معاوية بن مصاد ، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القنطرة
وهو على حمار أسود ، خلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا في السلاح ، فلبس سلاحا من تحت ثيابه
فدخلها ، وكان الوليد قد استناب على دمشق في غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
الثقي ، وعلى شرطها أبو العجاج كثير بن عبيد الله السلمي ، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد
بين المشائين عند باب الفرادين ، فلما أذن العشاء الآخرة دخلوا المسجد ، فلما لم يبق في المسجد
غيرهم بعثوا إلى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصدوا باب المقصورة ففتح لهم خادم ، فدخلوا فوجدوا أبا العجاج
وهو سكران ، فأخذوا خزائن بيت المال وتسلبوا الخواصل ، وتوقوا بالأسلحة ، وأمر يزيد باغلاق
أبواب البلد ، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف ، فلما أصبح الناس قدم أهل الخواضر من كل جانب

فدخلوا من سائر أبواب البلد ، كل أهل محلة من الباب الذي يليهم ، فكثرت الجيوش حول يزيد
ابن الوليد بن عبد الملك في نصرته ، وكلهم قد بايعه بالخلافة . وقد قال فيه بعض الشعراء في ذلك : -

فجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا * سكاسكها أهل البيوت الصنادير
وكاتب فجأؤهم بخيل وعدة * من البيض والابدان ثم السواعد
فأكرم بها أحياء أنصار سنّة * هم منعو حرمتها كل جاحد
وجاءتهم شيبان والأزد شرعاً * وعبس ونظم بين حاتم وذائد
وغسان والحيان قيس وتغلب * واحجم عنها كل وإن زاهد
فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها * قد استوثقوا من كل عاتٍ ومارد

وبعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس إلى قطننا ليأتوه بعبد الملك بن محمد
ابن الحجاج نائب دمشق وله الأمان ، وكان قد تحصن هناك ، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين
في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار ، فلما مروا بالمزة قال أصحاب ابن مصاد : خذ هذا المال فهو
خير من يزيد بن الوليد ، فقال : لا والله لا تحدث العرب أني أول من خان ، ثم أتوا به يزيد بن
الوليد فاستخدم من ذلك المال جنداً للقتال قريباً من ألفي فارس ، وبعث به مع أخيه عبدالعزيز بن
الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد ليأتوا به ، وركب بعض ولى الوليد فرسا سابقاً فساق
به حتى انتهى إلى مولاة من الليل ، وقد نفق الفرس من السوق ، فأخبره الغلبر فلم يصدقه وأمر
بضربه ، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حصن فانها
حصينة . وقال الأبرش سعيد بن الوليد السكابي : انزل على قومي بتدمر ، فأبى أن يقبل شيئاً من
ذلك ، بل ركب بمن معه ، وهو في مائتي فارس ، وقصد أصحاب يزيد فالتقوا بثقله في أثناء الطريق
فأخذوه ، وجاء الوليد فقتل حصن البخره الذي كان للزمان بن بشير ، وجاء رسول العباس بن
الوليد إلى آتيك - وكان من أنصاره - فأمر الوليد بابرار سريره فجلس عليه وقال : أعلى يتوئب
الرجال وأنا أثب على الأسد وأتخصر الأفاعي ؟ وقدم عبد العزيز بن الوليد بمن معه ، وإنما كان قد
خلص معه من الأفي فارس ثمانمائة فارس ، فتصافوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من أصحاب العباس
جماعة حملت رؤوسهم إلى الوليد ، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد ، فبعث إليه
أخوه عبد العزيز بن يحيى به قهراً حتى بايع لأخيه يزيد بن الوليد ، واجتمعوا على حرب الوليد بن
يزيد ، فلما رأى الناس اجتماعهم فروا من الوليد إليهم ، وبقي الوليد في ذل وقل من الناس ، فلجأ
إلى الحصن فجأؤا إليه وأحاطوا به من كل جانب يحاصرونه ، فسدنا الوليد من باب الحصن فنادى
ليكنمى رجل شريف ، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي ، فقال الوليد : ألم أدفع الموت عنكم ؟

ألم أعط قراءكم ؟ ألم أخدم نساءكم ؟ فقال يزيد : إنما نتقم عليك انتهاك المحارم وشرب الخمر
ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل . فقال ، حسبك يا أخا السكاسك ، لقد
أكثر وأغرت ، وإن فيما أحل الله لي لسعة عما ذكرته . ثم قال : أما والله لئن قتلتني لا ترقن
فتنتكم ولا يلم شمسكم ولا يجتمع كلتكم . ورجع إلى القصر فجلس ووضع بين يديه مصحفا فنشره
وأقبل يقرأ فيه وقال : يوم كيوم عثمان ، واستسلم ، وتسور عليه أوثانك الحائط ، فكان أول من نزل
إليه يزيد بن عنبسة ، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف قتال : له منك ، فقال الوليد : لو أردت القتال
به لكان غير هذا ، فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد ، فبادره
عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتله ، ثم جروه
برجله ليخرجوه ، فصاحت النسوة فتكروه ، واحتز أبو خلافة القضاء رأسه ، واحتاطوا على ما كان
معه مما كان خرج به في وجهه ذلك ، وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر ، منهم منصور بن جمهور
وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب ، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفرس ، فلما انتهوا إليه
بشروه بقتل الوليد وسلوا عليه بالخلافة ، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف ، فقال له
روح بن بشر بن مقبل : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق ، فسجد شكرا لله ورجعت
الجيش إلى يزيد ، فكان أول من أخذ يده المباينة يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده
وقال : اللهم إن كان هذا رضى لك فأعني عليه ، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف
درهم ، فلما جرى به - وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء - الليلتين بقيتا من جمادى الآخرة
سنة ست وعشرين ومائة . فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد ، فقيل له إنما
ينصب رأس الخارجى ، فقال : والله لا نصبته ، فشهده في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم
بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد ، فقال أخوه بعد آله : أشهد أنك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً
والقد أرادنى على نفسى هذا الفاسق وأنا أخوه ، لم يأنف من ذلك . وقد قيل إن رأسه لم يزل معلقاً
بحائط جامع دمشق الشرقى مما إلى الصحن حتى انقضت دولة بني أمية ، وقيل إنما كان ذلك أثره ،
وكان عمره يوم قتل ستاً وثلاثين سنة ، وقيل ثمانياً وثلاثين ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل ثنتان وقيل
خمس ، وقيل ست وأربعون سنة . ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر ، وقيل ثلاثة أشهر . قال
ابن جرير : كان شديد البعاش طويل أصابع الرجلين ، كانت تضرب له سكة الحديد في الأرض ويربط
فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس ، فتنتلع تلك السكة من الأرض
مع وثبته .

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو الملقب بالناقص لانه من أعطيهم -م ما كان زاده الوليد بن يزيد في أعطيهم ،

وهي عشرة عشرة ، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام ، ويقال إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد ، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة - حتى سنة ست وعشرين ومائة - وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك ، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوليد زادهم ، وذلك في كل سنة عشرة عشرة ، فسمى الناقص لذلك ، ويقال في المثل الأشج والناقص أعداء خلفاء بني مروان - يعني عمر بن عبد العزيز وهذا - ولكن لم تطل أيامه ، فانه توفي من آخر هذه السنة ، واضطربت عليه الأمور ، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان فنهض سليمان بن هشام ، وكان معتقلا في سجن الوليد بعمان فاستحوذ على أموالها وحواصلها ، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعب الوليد ويعيبه ويرميه بالكفر ، فأكرمه يزيد ورد عليه أمواله التي كان أخذها من الوليد ، وتزوج يزيد أخت سليمان ، وهي أم هشام بنت هشام ، ونهض أهل حمص إلى دار العباس بن الوليد التي عندهم فهدموها ، وحبسوا أهلها وبنيها ، وهرب هو من حمص فلاحق يزيد بن الوليد إلى دمشق ، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوليد بن يزيد ، وأغلقوا أبواب البلد ، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد ، وكتبوا الأجناد في طلب الأخذ بالنار ، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم ، على أن يكون الحكم بن الوليد بن يزيد الذي أخذ له العهد هو الخليفة ، وخلصوا ناصيتهم ، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتابا مع يعقوب بن هاني ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شورى ، فقال عمرو ابن قيس : فإذا كان الأمر كذلك فقد رضينا بولي عهدنا الحكم بن الوليد ، فأخذ يعقوب بلحيته وقال : ويحك ! لو كان هذا الذي تدعو إليه يقيم تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله ، فكيف أمر الأمة ، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم . وقال لهم أبو محمد السفياي : لو قدمت دمشق لم يختلف على منهم اثنان ، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمروا عليهم السفياي ، فتلقاهم سليمان بن هشام في جيش كثيف قد جهزهم معه يزيد ، وجهز أيضا عبد العزيز بن الوليد في ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب ، وجهز هشام بن مصاد المزي في ألف وخمسمائة ليكونوا على عقبة السمية ، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان ابن هشام ذات اليسار وتمدود ، فلما سمع بهم سليمان ساق في طلبهم فلمحقهم عند السلمانية فجعلوا الزيتون عن أيمنهم والجبل عن شمائلهم والحيات من خلفهم ، ولم يبق نخلص إليهم إلا من جهة واحدة ، فاقبلوا هنالك في قبالة الحر قتالا شديدا ، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين ، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الوليد بمن معه فحمل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب النبل الذي

في وسطهم ، وكانت المزيمة ، فهرب أهل حمص وتفرقوا ، فاتبعهم الناس يقتلون ويأسرون ، ثم تناحروا بالسيف عنهم على أن يبايعوا يزيد بن الوليد ، وأسروا منهم جماعة ، منهم أبو محمد السفيناني ويزيد ابن خالد بن معاوية ، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز قزلا عسكرا ومعهما الجيوش وأشراف الناس ، وأشراف أهل حمص من الأسارى ومن استجاب من غير أسرى ، بعد ما قتل منهم ثلاثمائة نفس ، فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد ، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم ، وأطلق الأعطيات لهم ، لاسيما لأشرافهم ، وولى عليهم الذي اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين ، وطابت عليه أنفسهم ، وأقاموا عنده في دمشق سامعين مطيعين له .

وفيها بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن بنى سليمان كانت لهم أملاك هناك ، وكانوا يتركونها يبذلونها لهم ، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم ، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سميد بن روح بن زنباع - وكان رئيس تلك الناحية - إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى المبايعة له ، فأجابوه إلى ذلك . فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضا محمد بن عبد الملك ابن مروان ، وأمره عليهم ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام في الدماشقة وأهل حمص الذين كانوا مع السفيناني ، فصالحهم أهل الأردن أولا ورجعوا إلى الطاعة ، وكذلك أهل فلسطين . وكتب يزيد بن الوليد ولاية الامرة بالرملة وتلك النواحي إلى أخيه إبراهيم بن الوليد ، واستقرت الممالك هنالك ، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، أما والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي إلى لظلم نفسي ، إن لم يرحمني ربى فاني هالك ، ولكني خرجت غضبا لله ولرسوله ولدينه ، وداعيا إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد (ص) ، لما هدمت معالم الدين ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار الغنيذ المستحل لكل حرمة ، والراكب كل بدعة ، مع أنه والله ما كان مصدقا بالكتاب ، ولا مؤمنا بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفوى في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته أن لا يكلفني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجايفي من أهل ولايتي ، وصعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد ، بحول الله وقوته لا يحول ولا يفوت . أيها الناس ! إن لكم على أن لا تضع حجرا على حجر ، ولا لبننة على لبننة ، ولا أكرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة ، ولا ولدا . ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد ، وخصاصة أهله ، ما يغنيهم ، فلن فضل عن ذلك فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجتركم في ثغوركم فافتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويمكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل

جزيتكم ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع سبلهم ، وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر ، حتى تستدبر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصام كأدنام ، فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المأزرة ، وإن أنا لم أوف لكم فليكن أن تخلموني وإلا أن تستتيبوني ، فإن تبست قبلتم مني ، وإن علمتم أحدا من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيك فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله فأطيعوه ما أطاع الله ، فإذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يعصى ولا يطاع ، بل يقتل ويهان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الخلق على البغائية ، وهم قوم خالد بن عبد الله القسري ، حتى قتل الوليد بن يزيد ، وكان قد سجن غالب من ببلاده منهم ، وجعل الأرصاد على الثغور خوفاً من جند الخليفة ، فمزله عنها أمير المؤمنين يزيد بن الوليد ، وولى عليها منصور بن جمهور مع بلاد السند وسجستان وخراسان ، وقد كان منصور بن جمهور أعرابياً جلفاً ، وكان يدين بمذهب الفيلانية القدريّة ، وليسكن كانت له آثار حسنة ، وعناء كثير في مقتل الوليد بن يزيد ، فخطى بذلك عند يزيد بن الوليد ، ويقال إنه لما فرغ الناس من الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها إلى يزيد ، وقرر بالأقاليم نواباً وعمالاً وكر راجعاً إلى دمشق في آخر رمضان ، فلذلك ولاه الخليفة ما ولاه والله أعلم .

وأما يوسف بن عمر فانه فر من العراق فلحق ببلاد البلقاء ، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره إليه ، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته - وكان كبير الاحية جدا ، ربما كان تجاوز سترته وكان قصير القامة - فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه . ولما انتهى منصور بن جمهور إلى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم في كيفية مقتل الوليد ، وأن الله أخذه أخذه عزيز مقتدر ، وأنه قد ولى عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب ، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد ، وكذلك أهل السند وسجستان .

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فانه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور ، وأبى أن يتقاد لأمره ، وقد كان نصر هذا جهز هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له . وفي هذه السنة كتب مروان الملقب بالبحار كتاباً إلى عمر بن يزيد أخى الوليد بن يزيد ، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد ، وكان مروان يومئذ أميراً على أذربيجان وأرمينية ، ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور ابن جمهور عن ولاية العراق وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقال له : إن أهل العراق يحبون أباك فقد وليتكم ، وذلك في شوال ، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق بوصيهم به

خشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه ، فسلم إليه وسمع وأطاع وبسلم . وكتب الخليفة إلى نصر بن سيار باستمراره بولاية خراسان مستقلاً بها ، فخرج عليه رجل يقال له السكرمان ، لأنه ولد بكرمان ، وهو أبو علي جديع بن علي بن شبيب المغني ، واتبعه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة في نحو من ألف وخمسمائة ، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده ، فتحير نصر بن سيار وامراؤه فيما يصنع به ، فاتفق رأيهم بمسجد الجعد على سجنه ، فسجن قريباً من شهر ، ثم أطلقه فاجتمع إليه ناس كثير ، وجم غفير ، وركبوا معه ، فبعث إليهم نصر من قاتلهم فقتلهم وقهرهم وكسرهم واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمة ، وألحوا عليه في أعطياتهم وأسموه غليظ ما يكره وهو علي المنبر ، بسفارة سلم بن احوز أدى إليه ذلك ، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب ، وانفض كثير من الناس عنه ، فقال لهم نصر فيما قال : والله لقد نشرتكم وطويتكم وطويتكم ونشرتكم فما عندي عشرة مشكم على دين ، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليشتمن الرجل منكم أن يتخلع من أهله وماله وولده ، ولم يكن رأها ، ثم تمثل بقول النابغة :

فإن يغلب شقاؤكم عليكم * فإني في صلاحكم سعت

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن الورد بن المغيرة الجعد : -

أبيت أرى النجوم مرتقيا * إذا استقلت نحوى أوائلها
من فتنه أصبحت بحلّة * قد عمّ أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاة شاغلها
يمشي السفينة الذي يمتف بال * جهل سواء فيها وعافلها
فالناس منها في لون مظلمة * دماء ملتجة غياطلها
والناس في كربة يكاد لها * تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة * عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس من عواقبها * إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حب * لي طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا تزدى بوجهته * فيها خطوب حمز زلازله

وفي هذه السنة أخذ الخليفة البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، وذلك بسبب مرضه الذي مات فيه . وكان ذلك في شهر الحجة منها ، وقد حرصه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء . وفيها عزل يزيد عن إمرة الحجاز يوسف بن محمد التقي وولى عليها

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، فقدمها في أواخر ذي القعدة منها ، وفيها أظهر مروان الحمار انطلاف ليزيد بن الوليد ، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه يطلب بدم الوليد بن يزيد ، فلما وصل إلى حران أظهر الموافقة وباع لأمر المؤمنين يزيد بن الوليد . وفيها أرسل إبراهيم بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس أبا هاشم بكر بن ماهان إلى أرض خراسان ، فاجتمع بجماعة من أهل خراسان بمرور ، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمد الإمام إليه وإليه ، ووصيته ، فثقلوا ذلك بالقول ، وأرسلوا معه ما كان عندهم من النفقات . وفي سابع ذي القعدة ، وقيل في سابع ذي الحجة ، وقيل لستمر مضين منه ، وقيل بعد الأضحى منها كان وفاة أمير المؤمنين .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحارث بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي . أبو خالد الأموي ، أمير المؤمنين ، بويع له بالخلافة أول ما بويع بها في قرية المزة ، من قرى دمشق ، ثم دخل دمشق فلقب عليها ، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله ، واستحوذ على الخلافة في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان يلقب بالناقص لضعفه الناس العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيد ، وقيل إنما سماه بذلك مروان الحمار ، وكان يقول : الناقص ابن اليد ، وأمه شاهزاد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، كسروية .

وقال ابن جرير : وأمه شاه آفرید بنت فيروز بن يزدجرد بن شهر يار بن كسرى ، وهو القائل :

أنا ابن كسرى وأبي مروان * وقيصر جدي وجدى خاقان

وإنما قال ذلك لأن جده فيروز ، وأم أمه بنت قيصر ، وأمه شيرويه وهي بنت خاقان ملك الترك ، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم ، هي وأخت لها فبعثهما إلى الحجاج ، فأرسل بهن إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى ، فولدت هذه الوليد بن يزيد الناقص هذا ، وهذه أخذها الحجاج فكانت عنده بالعراق ، وكان مولده في سنة تسعين ، وقيل في سنة ست وتسعين ، وقد روى عنه الأوزاعي مسألة السلم . وقد ذكرنا كيفية ولايته فيما سلف في هذه السنة ، وأنه كان عادلاً ديناً محباً للخير مبغضاً للشر . قاصداً للحق . وقد خرج يوم عيد الفطر من هذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسللة عن يمينه وشماله ، ورجع من المصل إلى الخضراء كذلك ، كان رجلاً صالحاً ، يقال في المثل الأشج والناقص أعدل من مروان ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا . وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني إبراهيم بن محمد المروزي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الحر وينذل ما يفعل المسكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فإنه داعية الزنا . وقال ابن عبد الحكم

عن الشافعي : لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان . قاله ابن عساكر . قال : ولعله قرب أصحاب غيلان ، لأن غيلان قتله هشام بن عبد الملك . وقال محمد بن المبارك : آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد الناقص وأحزناه واشقآه . وكان نقش خاتمه المظلة لله . وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه ، وذلك يوم السبت لسبع مئتين من ذى الحجة ، وقيل يوم الاضحى منه ، وقيل بعده بأيام ، وقيل لعشر بقين منه ، وقيل في سابعه ، وقيل في سابع ذى القعدة من هذه السنة . وأكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة ، وقيل ثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك فالحق أعلم . وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر ، وقيل خمسة أشهر وأيام . وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله . وذكر سعيد بن كثير بن عمار أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير ، وقيل إنه دفن بباب الفرديس ، وكان أسمر نحيفا حسن الجسم حسن الوجه . وقال علي بن محمد المديني : كان يزيد أسمر طويلا صغير الرأس بوجهه خال ، وكان جميلا ، في فمه بعض السمة وليس بالمفرط . وحج بالناس فيها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز ، وأخوه عبد الله نائب العراق ، ونصر بن سيار على نيابة خراسان ، والله سبحانه أعلم . ومن توفي في هذه السنة من الأعيان :

خالد بن عبد الله بن يزيد

ابن أسد بن كرز بن عامر بن عبقرى ، أبو الهيثم البجلي القسرى الدمشقي ، أمير مكة والحجاز للوليد ثم سليمان ، وأمير العراقيين لهشام خمس عشرة سنة . قال ابن عساكر : كانت داره بدمشق في أربعة أقر وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي ، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب توما ، روى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا أسد^(١) أتحب الجنة ؟ قال : نعم ! قال : فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك » . رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار عن أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك . ومن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد ، وحبيب بن أبي حبيب ، وحبيب الطويل . وروى أنه روى عن جده عن النبي (ص) في تكفير المرض الذنوب . وكانت أمه نصرانية ، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف ، فيمن أمه نصرانية . وقال المدائني : أول ما عرف من رياسته أنه وطأ صبيها بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه ، فان مات فعليه دية ، وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع ومائتين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان ، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة ، وسأله إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فعاقبه وأخذ منه أموالا ثم أطلقه ، وأقام بدمشق إلى الحريم من هذه السنة فسلمه الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر يستخلص منه خمسين ألف ألف ، فمات تحت

(١) في تاريخ ابن عساكر (٥ : ٦٧) : « يا يزيد بن أسد » .

العقوبة البليغة ، كسر قدميه ثم ساقيه ثم نخذه ، ثم صدره ، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ، ولا تأوه حتى خرجت روحه رحمه الله .

قال الليثي عن أبيه : خطب خالد القسري يوما فأرتج عليه فقال : أيها الناس ! إن هذا الكلام يحمي أحيانا ويعزب أحيانا ، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتمنر عند عزو به مطلبه ، وقد يرد إلى السابط . بيانته ويثيب إلى الحصر كلامه ، وسيعود إلينا ما تحبون ، ونعود لكم كما تريدون . وقال الأصمعي وغيره : خطب خالد القسري يوما بواسط فقال : يا أيها الناس تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغاير واشتروا الحمد بالجود ، ولا تسكتسبوا بالمطل ذما ، ولا تمتدوا بمعروف لم تعجوه ، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فإله أحسن له جراه ، وأجزل عطاءه ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقما ، فإن أفضل المال ما كسب أجرا وأورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف رأيتموه رجلا حسنا جميلا يسر الناس إذا نظروا إليه ، ويفوق العالمين . ولو رأيتم البخل رأيتموه رجلا مشوها قبيحا تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار . إنه من جاد ساد ومن بخل ذل ، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه ، ومن عفا عن قدرة ، وأفضل الناس من وصل عن قطيعة ، ومن لم يطب حرثه لم يرك نبتة ، والفروع عند مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمر . وروى الأصمعي عن عمر ابن المهيم أن أعرابيا قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها :

إليك ابن كرز الخيزر أقبلت راعباً * لنجبر مني ما وها وتبددا
إلى الماجد البهلولى ذى الحلم والندى * واكرم خلق الله فرعاً ومحتدا
إذا ما أناس قصروا بفعلهم * نهضت فلم تلق هنالك مقتدا
فيالك بحرّاً يغمر الناس موجة * إذا يسأل المعروف جاش وأزبدا
بلوت ابن عبد الله في كل موطن * فالفيت خير الناس نفساً وأمجدا
فلو كان في الدنيا من الناس خالداً * لجود بمروفي لكنت مخلدا
فلا تحرمي منك ما قد رجوت * فيصبح وجهي كالخ الآون أربدا

قال : فحفظها خالد ، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشدها فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال : أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه . فتمض الشيخ فولى ذاهباً فأتبعه خالد من بسمع ما يقول فاذا هو ينشد هذه الأبيات .

ألا في سبيل الله ما كنت أرتجى * لديه ومالاقيت من نكدر الجهد
دخلت على بحر يجود بالمر * ويعطى كثير المال في طلب الحمد
نخالفني الجد المشوم لشقوتي * وقاربنى نحسى وفارقتى سمدى

فلو كان لي رزق لدير ليلته * ولكنه أمر بن الواحد الفرد
فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بمشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : سأل أعرابي
خالداً القسري أن يسلأ له جرابه دقيقاً فأمر بملكه له دراهم ، فقيل للأعرابي حين خرج : ما فعل
ملك ؟ فقال : سألته بما أشتى فأمر لي بما يشتهي هو . وقال بعضهم : بينما خالد يسير في موكبه إذ
تقدم أعرابي فسأله أن يضرب عنقه ، فقال ويحك ولم ؟ أقطعت السديل ؟ أخرجت يدا من طاعة ؟
فكل ذلك يقول لا ! قال : فلم ؟ قال : من الفقر والفاقة . فقال : سل حاجتك ، قال ثلاثين ألفاً . فقال
خالد : ما ربح أحد مثل ما ربحتم اليوم ، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسأل ثلاثين
فربحت سبعين . ارجعوا بنا اليوم ، وأمر له بثلاثين ألفاً . وكان إذا جلس يوضع [المال] بين يديه
ويقول . إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها . وسقط خاتم لجاريته رابعة يساوي ثلاثين ألفاً ،
في بالوعة الدار ، فسألت أن تؤتى بمن يخرجها ، فقال : إن يدك أكرم على من أن تلبسه بعد ما صار
إلى هذا الموضع القذر ، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله . وقد كان لرابعة هذه من الحلوى شيء عظيم ،
من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة ، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار .

وقد روى البخاري في كتاب أفعال العباد ، وابن أبي حاتم في كتاب السنة ، وغير واحد ممن
صنف في كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسري خطب الناس في عيد أضحى فقال : أيها الناس ،
ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجمع بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم
يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجهم بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فأنبأه في أصل المنبر .
قال غير واحد من الأئمة : كان الجهم بن درهم من أهل الشام ، وهو مؤدب مروان الحمار ، ولهذا
يقال له مروان الجهمي ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية
الذين يقولون إن الله في كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان الجهم بن درهم
قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سحمان ، وأخذته أبان عن طالوت ابن أخت لبيد
ابن أعصم ، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي (ص) في مشط وماشطة وجف طلعة
ذكر له ، ونجحت راعوفة ببئر ذي اروان الذي كان مأواها نقاعة الحناء . وقد ثبت الحديث بذلك في
الصحيحين وغيرهما . وجاء في بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتي المودنتين .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد الرقاعي سمعت أبا بكر بن عياش قال : رُبّت
خالداً القسري حين أتى بالمنيرة وأصحابه ، وقد وضع له سرير في المسجد ، فجلس عليه ثم أمر برجل
من أصحابه فضربت عنقه ثم قال للمنيرة : أحبيه - وكان المنيرة يزعم أنه يحيى الموتى - فقال : والله
صلحك الله ما أحى الموتى . قال : لتحيينه أولاً ضرب بن عنقك . قال : والله ما أقدر على ذلك ، ثم أمر

بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال المنيرة : اعتنقه ، فأبى ، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة . قال خالد : هذا والله أحق بالرياسة منك . ثم قتله وقتل أصحابه . وقال المدائني : أتى خالد بن عبد الله برجل تنكباً بالكوفة فقيل له ما علامة نبوتك ؟ قال : قد نزل على قرآن ، قال : إنا أعطيناك الكتاب ، فصل لربك ولا تجاهر . ولا تطع كل كافر وفاجر . فأمر به فصلب فقال وهو يصرخ : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، فأنا ضامن لك ألا تعود . وقال المبرد : أتى خالد بشاب قد وجد في دار قوم وادعى عليه السرقة ، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت حسناء فقالت :

أخالد قد أوطأت والله عثرة * وما الداشق المسكين فينا بسارق

أقر بما لم يجز غير أنه * رأى القلع أولي من فضيحة عاشق

فأمر خالد باحضار أبيها فزوجها من ذلك الغلام وأمرها عنه عشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : دخل أعرابي على خالد فقال : إني قد مدحتك بيتين ولست أنشدما إلا بعشرة آلاف وخادم ، فقال : نعم ! فأنشأ يقول :

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن * سمعت من الأشياء شيئاً سوى نعم

وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن * سمعت بها في سالف الدهر والأهم

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها . قال : ودخل عليه أعرابي فقال له : سل حاجتك فقال : مائة ألف . فقال : أكثر حط منها . قال : أضع تسعين ألفاً ، فتعجب منه خالد فقال : أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعت على قدرى ، فقال له : لن تغلبني أبداً ، وأمر له بمائة ألف ، قال : ودخل عليه أعرابي ، فقال : إني قد قلت فيك شعراً وأنا أستصغره فيك ، فقال : قل فأنشأ يقول :

تعرضت لي بالجوهر حتى لعشتني * وأعطيني حتى ظننتك تلمب

فأنت الندي وابن الندي وأخو الندي * حليف الندي ما للندي عنك مذهب

فقال : سل حاجتك . قال : على خمسون ألف دينار ، فقال : قد أمرت لك بها وأضعفتها لك ، فأعطاه مائة ألف . قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوسائي : دخل أعرابي على خالد القسري فأنشده

كتبته نعم ببابك فهي تدعو * إليك الناس مسفرة النقاب

وقلت لا عليك بباب غيري * فانك لن ترى أبداً ببابي

قال فأعطاه على كل بيت خمسين ألفاً . وقد قال فيه ابن معين : كان رجل سوء يقع في على بن أبي طالب رضي الله عنه .

ودكر الأصمعي عن أبيه : أن خالداً حفر بئراً بمكة ادعى فضلها على زمزم ، وله في رواية عنه

تفضيل الخليفة على الرسول ، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم .
[والذى يظهر أن هذا لا يصح عنه ، فانه كان قائما في إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجمد
ابن درهم وغيره من أهل الاتحاد ، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح ، لأن صاحب العقد
كان فيه تشيع شنيع ومغالاة في أهل البيت ، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد
اغتر به شيخنا الذهبي فدحه بالحفظ وغيره] (١) .

وقد ذكر ابن جرير وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج في إمارته
فن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة ، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله ونولية
غيره من الجماعة ، فحضر خالد أمير المؤمنين منهم ، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فعاقه عقابا شديدا ،
ثم بعث به إلى يوسف بن عمر فعاقه حتى مات شرقا شرقا وأسوأها ، وذلك في محرم من هذه السنة - أعني
سنة ست وعشرين ومائة - وذكره القاضي ابن خلصان في الوفيات وقال : كان متهما في دينه ، وقد
بنى لأمه كنيسة في داره ، قال فيه بعض الشعراء وقال صاحب الأعيان كان في نسبه يهود فانتسبوا
إلى القرب ، وكان يقرب [من] شق وسطيح . قال القاضي ابن خلصان : وقد كانا ابني خلة ،
وعاش كل منهما ستائة ، وولدا في يوم واحد ، وذلك يوم مانت طريفة بذت الحر بعد ما تفلت في قم
كل منهما وقالت : إنه سيرة قوم مقامى في السكمانية ، ثم مانت من يومها .

ومن توفى في هذه السنة جبلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق في قول ، وسليمان
ابن حبيب المحاربي ، قاضي دمشق ، وعبد الرحمن بن قاسم شيخ مالك وعبيد الله بن أبي يزيد
وعمر بن دينار . وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية أخيه يزيد الناقص إليه ، وبايعه
الأمراء بذلك ، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه ، وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب
بالحار كان نائبا بأذربيجان وأرمينية ، وتلك كانت لأبيه من قبله ، وكان قعم على يزيد بن الوليد في
قتله الوليد بن يزيد ، وأقبل في طلب دم الوليد ، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد ،
فلم يلبث إلا قليلا حتى بلغه موته ، فأقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فقتلوا على
طاعته ، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد
فحاصروهم حتى يبايعوا لإبراهيم بن الوليد ، وقد أصروا على عدم مبايعته ، فلما بلغ عبد العزيز قرب
مروان بن محمد ترحل عنها ، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق ، ومعهم جنود

(١) وجدت هذه العبارة في نسخة ثانية بالامتنان .

الجزيرة وجند قلسرين ، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفا ، وقد بعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبيد الملك في مائة وعشرين ألفا ، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع ، فدعاهم مروان إلى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابني الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما ، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق ، فأبوا عليه ذلك ، فاقترعوا قتالا شديدا من حين ارتفاع النهار إلى العصر ، وبعث مروان سرية تآتى جيش ابن هشام من ورائهم ، فتم لهم ما أرادوه ، وأقبلوا من ورائهم يكبرون ، وحمل الآخرون من تلقاهم عليهم ، فسكات المزينة في أصحاب سليمان ، فقتل منهم أهل حمص خلقا كثيرا ، واستبيح عسكرهم ، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريبا من سبعة عشر ألفا أو ثمانية عشر ألفا وأسر منهم منلهم ، فأخذ عليهم مروان البيعة للفلامين ابني الوليد ، الحكم وعثمان ، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العمار والوليد ابن مصاد الكلبيان ، فضر بهما بين يديه بالسياط وحبسهما فساتا في السجن ، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حين قتل . وأما سليمان وبقية أصحابه فانهم استمروا منهزمين ، فلما أصبح لهم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع ، فاجتمع معهم رؤس الأمراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، وأبو علافة السكسكي ، والأصبغ بن ذؤالة الكلبي وانظراؤهم ، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان ، خشية أن يلبيا الخلافة فيهلكا من عاداهما وقتل أباهما ، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا ، ويقال وولد لاحدهما ولد فشدخها بالعمد ، وقتل يوسف بن عمر - وكان مسجوناً معهم - وكان في سجنهما أيضاً أبو محمد السفياي فهرب فدخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردما ، فحاصروه فامتنع ، فأتوا بنار ليحرقوا الباب . ثم اشتغلوا عن ذلك بقدم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين .

دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة

لما أقبل مروان بن معاوية من الجنود من عين الجر وأقرب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس ، هرب إبراهيم بن الوليد وعبد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحوه وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش ، وثار موالى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها واتهبوها ونهبوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان بن محمد دمشق فقتل في أعمالها وأتى بالفلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه . وأتى بأبي محمد السفياي وهو في حبسه فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان : مه ، قتال : إن هذين الفلامين جملاها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم في السجن وهي طويلة منها قوله :

الا من مبلغ مروان عني * وعني الغمر طال بدا حنيننا
باني قد ظلمت وصار قومي * على قتل الوليد متابعينا
فان أهلك أنا وولي عهدي * فروان أمير المؤمنين

ثم قال أبو محمد السفيناني لمروان : أبسط يدك ، فكان أول من بايعه بالخلافة ، فعاوية بن يزيد بن حصين بن نعيم ثم بايعه رؤس أهل الشام من أهل دمشق وحصن وغيرهم ، ثم قال لهم مروان : اختاروا أمراء نوابهم عليكم ، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم ، فعلى دمشق زامل بن عمرو والجبراني ، وعلى حصن عبد الله بن شجرة الكندي ، وعلى الأردن الوليد بن معارية بن مروان ، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجندامي . ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فأمتهما ، وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه ، ثم لما استقر مروان في حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرؤم له من مبيعة أهل الشام ، فنقض أهل حصن وغيرهم ، فأرسل إلى أهل حصن جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين ، فنازلها مروان في جنود كثيرة ، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد الخلويع ، وسليمان بن هشام ، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء ، فلما حاصر حصن نادوه إنا على طاعتك ، فقتال : افتحوا باب البلد ففتحوه . ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستمائة ، فأمر بهم فصلبوا حول البلد ، وأمر بهدم بعض سورها . وأما أهل دمشق فأما أهل الغوطة فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد ابن خالد القسري وثبت في المدينة نائبا ، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حصن عسكرا نحو عشرة آلاف ، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقواهم والمسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها ، واستجار يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة السكابي برجل من أهل المزة من نخم ، فدل عليهم زامل بن عمرو وقتلهمما وبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بمحمص . وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها ، فبعث الخليفة إليهم جيشاً فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم ، وفر ثابت بن نعيم هارباً إلى فلسطين فاتبعه الأمير أبو الورد فهرمه ثانية وتفرق عنه أصحابه ، وأسروا أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمدواوتهم ، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكنتاني يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان ، فمزال يتلطف به حتى أخذه سيراً ، وذلك بعد شهرين ، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه ، وكذلك جماعة كانوا معه ، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها ، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب

إلى ديار مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها ، فأرسل إليهم مقطع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا . وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنه عبد الله ثم هب يد الله وزوجهما ابنتي هشام ، وهما أم هشام وعائشة ، وكان مجرماً حافلاً وعقداً هائلاً ، ومبايعة عامة ، ولكن لم تكن في نفس الأمر تامة . وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعد ما كانوا تقطعوا أن يصلحوا على أبواب البلد ، ولم يستبق منهم أحداً إلا واحداً وهو عمرو بن الحارث السكبي ، وكان عنده قبا زعم علم بودايح كان ثابت بن نعيم أودعها عند أقوام . واستوسق أمر الشام لمروان ماعدا تدمر ، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حصص ، وبلغه أن أهل تدمر قد غوروا ما بينه وبينهم من المياه ، فاشتد غضبه عليهم ومعه جماعة من الجيوش ، فتكلم الأبرش بن الوليد وكانوا قومه فسأل منه أن يرسل إليهم أولاً ليعذر إليهم ، فبعث عمرو بن الوليد أخا الأبرش ، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولاً فرجع ، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يذهب إليهم بنفسه فأرسله ، فلما قدم عليهم الأبرش كلمهم واستألمهم إلى السمع والطاعة ، فأجابه أكثرهم وامتنع بعضهم ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بما وقع ، فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها ، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه ، ففعل . فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية ، ومعه من الرؤس إبراهيم بن الوليد الخلويع ، وسليمان بن هشام ، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان ، فأقام بالرصافة أياماً ثم شغف إلى البرية ، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له ، فانحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فأقام ثلاثاً ثم مضى إلى قرقيسيا ، وابن هبيرة بها ليبعثه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري ، واشتغل مروان بهذا الأمر ، وأقبل عشرة آلاف فارس من كان مروان قد بعثهم في بعض السرايا ، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان استأذن الخليفة في المقام هناك للراحة ، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربتة ، فاستنزه الشيطان فأجابهم إلى ذلك ، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين ، وكان أهل الشام فانفضوا إليه من كل وجه ، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذي جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي يأمره بالمسير إليه ، فالتف إليه نحو من سبعين ألفاً ، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم في نحو من سبعين ألفاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجاء مروان والناس في الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزمهم وقتل يومئذ إبراهيم بن سليمان بن هشام ، وكان أكبر ولده ، وقتل منهم نيفا وثلاثين ألفاً ، وذهب سليمان مغلوباً فأتى حصص فالتف عليه من انهزم من الجيش فمسكر بهم فيها ، وبني ما كان مروان هدم من سورها . فجاء مروان لمحاصرها ونصب عليهم نيفا وثمانين

منجنيقا ، فمكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلا ونهاراً ، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلون ثم يرجعون . هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان في الطريق وهموا بالفتك به وأن يذهبوه فلم يمكنهم ذلك ، ونهياً لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريباً من ستة آلاف وهم تسعمائة ، وانصرفوا إلى تدمر ، ولزم مروان محاصرة حمص كال عشرة أشهر ، [فلما تتابع عليهم البلاء ، ولزمهم النذل ، سألوه أن يؤمنهم فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، ثم سألوه الأمان على أن يمكنهم من سعيد بن هشام]^(١) وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكي الذي كان حبس معه ، ومن الحبشي كان يفترى عليه ويشتمه فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك ، ثم سار إلى الضحاك ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب المراق قد صالح الضحاك الخارجي على ما بيده من الكوفة وأعمالها ، وجاءت خيول مروان قاصدة إلى الكوفة ، فتلقاهم نائبها من جهة الضحاك - ملحان الشيباني - فقاتلهم فقتل ملحان ، واستناب الضحاك عليها المشي بن عمران من بني عائدة ، وسار الضحاك في ذي القعدة إلى الموصل ، وهار ابن هبيرة إلى الكوفة فانزعها من أيدي الخوارج ، وأرسل الضحاك جيشاً إلى الكوفة فلم يجد شيئاً .

وفي هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيباني ، وكان سبب خروجه أن رجلاً يقال له سعيد بن بهدل - وكان خارجياً - اغتشم غفلة الناس واشتغلهم بمقتل الوليد بن يزيد ، فثار في جماعة من الخوارج بالمراق ، قاتل عليه أربعة آلاف - ولم تجتمع قبلها لخارجي - فقصدهم الجيوش فاقتتلوا معهم ، فثار يَكسرون وثار يَكسرون ، ثم مات سعيد بن بهدل في طاعون أصابه ، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا ، قاتل أصحابه عليه ، والنقي هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقاً كثيراً ، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز - أخو أمير المراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - فرأه بأشعار ، ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز بالكوفة ، فنهض إليه أهلها فكسروهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها ، واستناب بها رجلاً اسمه حسان ، ثم استناب ملحان الشيباني في شعبان من هذه السنة ، وسار هو في طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب المراق ، فالتقوا فحرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها .

وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعوة إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعه أبو مسلم الخراساني ، فهدفوا إليه نفقات كثيرة ، وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة ، والتتن الواقعة بين الناس . وفي هذه السنة خرج بالكوفة معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدعا إلى نفسه وخرج إلى محاربة أمير المراق عبد الله بن عمر

ابن عبد العزيز، فحرت بينهما حروب يطول ذكرها، ثم أجلاه عنها فلحق بالجبال فتغلب عليها .
وفي هذه السنة خرج الحارث بن سريج الذي كان لحق ببلاد الترك ومالاًم على المسلمين فمن الله عليه
بالمداية ووقفه حتى خرج إلى بلاد الشام، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الاسلام
وأهله فأجابه إلى ذلك، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائب سورة^(١)، واستمر الحارث
ابن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الامام، وعنده بمض المناوأة لنصر بن سيار .

قال الواقدي وابو معشر : وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير
الحجاز ومكة والمدينة والطائف، وأمير العراق نصر بن سعيد الحرشي، وقعد خرج عليه الضحاك
الحروري، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وأمير خراسان نصر بن سيار، وقد خرج عليه
الكرماني والحارث بن سريج . ومن توفي في هذه السنة :

يكر بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الملك بن مالك الجزري وعمر بن
ماني ومالك بن دينار وهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعي .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الحارث بن سريج، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب
إليه كتاب أمان، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاته المشركين إلى
نصرة الاسلام وأهله . وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار نائب خراسان وحشة ومنافسات كثيرة
يطول ذكرها، فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك . وتولى
ابن هبيرة نيابة العراق، وجاءت البيعة لمروان، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم في مروان، وجاءه
مسلمة بن أحوز أمير الشرطة، وجماعة من رؤس الأجناد والأمراء، وطلبوا منه أن يكف لسانه
ويده، وأن لا يفرق جماعة المسلمين، فأبى وبرز فاجية عن الناس، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو
عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته، واستمر هو على خروجه على الاسلام .
وأمر الجهم بن صفوان مولى بني راسب ويكنى بأبي محرز - وهو الذي نسبت إليه الفرقة الجهمية - أن
يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث على الناس، وكان الحارث يقول أنا صاحب الرايات السود . فبعث إليه
نصري يقول : لئن كنت ذاك فلعمرى إنكم الذين تخربون سور دمشق وتزيلون بني أمية، تغدمني
خمسائة رأس ومائة بعير، وإن كنت غيره فقد أهلكك عشيرتك . فبعث إليه الحارث، يقول :
لعمرى إن هذا لسكائن . فقال له نصر : فابدأ بالكرماني أولاً، ثم سر إلى الري، وأنا في طاعتك
إذا وصلتها . ثم تناظر نصر والحارث ورضيا أن يحكم بينهما قتال بن حيان والجهم بن صفوان [فحكما
(١) كذا . وادل فيه تحريفاً صوابه (نائب خراسان) .

أن يعزل نصر ويكون الأمر شوري . فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم بن صفوان ^(١) وغير قراءة سيرة الحارث على الناس في الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق كثير ، وجم غفير فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار ، فقصدوه فحارب دونه أصحابه ، فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله ، ويقال بل أسر الجهم فأوقف بين يدي سلم بن أحوز فأمر بقتله ، فقال : إن لي أماتا من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله ولو كنت في بطني لشقت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . ثم اتفق الحارث بن سريج والكرماني على نصر ومخالفته ، والدعوة إلى الكتاب والسنة واتباع أئمة الهدى وتحريم المنكرات إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة ، ثم اختلفا فيما بينهما واقتتلا قتالا شديدا ، فغلب الكرماني وانهزم أصحاب الحارث . وكان راكبا على بغل فتحول إلى فرس فخرنت أن تمشي ، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه منهم سوى مائة ، فأدركه أصحاب الكرماني فقتلوه تحت شجرة زيتون ، وقيل تحت شجرة عبيرا . وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة ، وقتل معه مائة من أصحابه ، واحتاط الكرماني على حواصله وأمواله ، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً ، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو ، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث في ذلك :

يا مدخل الذل على قومه * بعداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك أردى مضراً كلها * وغض من قومك بالحارث
ما كانت الازد وأشباعها * تطمع في عمرو ولا مالك
ولا بني سعد إذ ألجوا * كل طير لونه حالك
وقد أجابه عباد ^(٢) بن الحارث بن سريج فيما قال :

ألا يا نعمر قد برح الخفاء * وقد طال التمي والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو * تقضي في الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم * على مضرو وإن جار القضاء
وحير في مجالسها قعوك * ترقق في رقابهم الدماء
فإن مضربنا رضىت وذلت * فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلا * فخل على عساكرها العفاء

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أباسلم الخراساني إلى خراسان

(١) زيادة من المصرية (٢) في المصرية عتاب وفي نسخة القسطنطينية غياث وصحناه من

تاريخ ابن جرير الطبري ٩ : ٧٤

وكتب معه . كتبنا إلى شيعتهم بها : إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد وليته على ماغلب عليه من أرض خراسان . فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب ، لم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبدوه وراء ظهورهم ، فرجع إلى إبراهيم بن محمد أيام الموسم ، فاشتكاكم إليه وأخبره بما قابله من المخالفة ، فقال له : يا عبد الرحمن ! إنك رجل منا أهل البيت ، إرجع إليهم وعليك بهذا الحى من اليمن فأكرمهم وانزل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . ثم حذره من بقية الأحياء وقال له : إن استطعت أن لاتدع بتلك البلاد لسانا عربيا فافعل ، لمن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله ، وعليك بذلك الشيخ فلا تقصه - يعنى سليمان بن كثير - وسباني ما كان من أمر أبي مسلم الخراساني فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجي في قول أبي مخنف ، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط وواقفه على محاصرته منصور بن جمهور ، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه : إنه لافائدة لك في محاصرتي ولكن عليك مروان بن محمد فسر إليه ، فان قتلته اتبعتك . فاصطاحا على مخالفة مروان بن محمد أمير المؤمنين ، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها فال إليهم فدخلها ، وقتل نائبا واستحوذ عليها ، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حص ، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه ، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان - وكان الضحاك قد التفت عليه مائة ألف وعشرون ألفا فحاصروا نصيبين - وساق مروان في طلبه فالتقيا هنالك ، فاقتلا قتالا شديدا فقتل الضحاك في المعركة وحجز الليل بين الفريقين ، وقد أصحبا الضحاك الضحاك وشكوا في أمره حتى أخبرهم من رآه قد قتل ، فبكوا عليه وناحوا ، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى ، وجاء الخبر إلى مروان وهو مقتول ، وفي رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة ، فأمر وأمر برأسه لطيف به في مدائن الجزيرة . واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلا يقال له الخبيري ، فالتفت عليه بقية جيش الضحاك ، والتفت مع الخبيري سليمان ابن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ، والجيش الذين كانوا قد بايعوه في السنة الماضية على الخلافة ، وخلصوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله ، فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان ، فحمل الخبيري في أربعائة من شجعان أصحابه على مروان ، وهو في القلب ، ففكر منهزما واتبعه حتى أخرجه من الجيش ، ودخلوا عسكره وجلس الخبيري على فرسه ، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله ، وميسرته أيضا ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي . ولما رأى عبد الله المسكر فارين مع الخبيري ، وأن الميمنة والميسرة من جهتهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها ، وبلغ قتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة ، فرجع مسرورا وانهمز أصحاب الضحاك ،

وقد ولوا عليهم شيبان ، فقصدهم مروان بعد ذلك ، فكان يقال له الكراديس فهزمهم .
وفيهما بعث مروان الحمار على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل من بها من الخوارج .
وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبيد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف ،
وأمر العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار .
ومن توفي في هذه السنة بكر بن سودة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان ، مقتولا كما تقدم ، والحارث
ابن سريج أحد كبراء الأمراء ، وقد تقدم شيء من ترجمته ، وعاصم بن عبدلة ، وأبو حصين عثمان بن
عاصم ، ويزيد بن أبي حبيب ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وأبو حمزة النعنعبي ، وأبو الزبير المكي
وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المغافري . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخيبر على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي
فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلا لهم ، فتحولوا إليها وتبعهم مروان
ابن محمد أمير المؤمنين ، فمسكروا بظواهرها وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان . وقد خندق مروان
على جيشه أيضا من ناحيتهم ، وأقام سنة يحاصروهم ويقتلون في كل يوم بكرة وعشية ، وظفر مروان
بإبن أخ سليمان بن هشام ، وهو أمية بن معاوية بن هشام ، أسره بعض جيشه ، فأمر به فقطعت
يداه ثم ضرب عنقه ، وعنه سليمان والجيش ينظرون إليه . وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن
عمر بن هبيرة يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده . فجرت له معهم وقعات عديدة ، فظفر بهم
ابن هبيرة . وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية بالعراق ، واستنقذ الكوفة من أيدي الخوارج ، وكان
عليها المشي بن عمران العائذي - عائذة قریش - في رمضان من هذه السنة ، وكتب مروان إلى ابن
هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمد بهمار بن صبرة - وكان من الشجيمان - فبعثه إليه في سبعة آلاف
أو ثمانية آلاف ، فأرسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاسترضوه في الطريق فهزمهم ابن صبرة
وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي ، وأقبل نحو الموصل ، ورجع فل الخوارج إليهم .
فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل ، فإنه لم يكن يمكنهم الإقامة بها ، ومروان من
أمامهم وابن صبرة من ورائهم ، قد قطع عنهم الميرة حتى لم يجدوا شيئا يأكلونه ، فارتحلوا عنها
وساروا على حلوان إلى الأهواز ، فأرسل مروان ابن صبرة في آثارهم في ثلاثة آلاف ، فاتبعهم يقتل
من تخلف منهم ويلحقهم في مواطن فيقاتلهم ، وما زال وراءهم حتى فرق شملهم شذرا مذر ، وهلك
أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة التالية ، قتله خالد بن مسعود بن جعفر بن
خليد الأزدي . وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند ، ورجع

مروان من الموصل فأقام بمنزله بجران وقد وجد سروراً بزوال الخوارج ، ولكن لم يتم سروره ، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعاً ، وأشد بأساً من الخوارج ، وهو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس .

أول ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الامام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان ، فسار إليه في سبعين من النقباء ، لا يمرون ببلد إلا سألوهم إلى أين تذهبون ؟ فيقول أبو مسلم : نريد الحج . وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلاً إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم : إني بعثت إليك برأية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة ، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الامام فيوافيه في الموسم ، فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه : أن أظهر دعوتك ولا تتر بص . فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس ، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان ، وأمير خراسان - نصر بن سيار - مشغول بقتال السكراني ، وشيبان بن سلمة الحروري ، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم علمه أصحابه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج ، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب ، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية ، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً ، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة . ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في هذه السنة ، عقد أبو مسلم الاواء الذي بعث إليه الامام ، ويدعى الظل ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، وعقد الراية التي بعث بها الامام أيضاً ، وتدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، وهما سوداوان ، وهو يتلو قوله تعالى [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة ، السواد ، وصارت شعارهم ، وأوقدوا في هذه الليلة نارا عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي ، وكانت علامة بينهم فتجمعوا . ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض ، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . وأقبل الناس إلى أبي مسلم من كل جانب ، وكثر جيشه .

ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم وسليمان بن كثير أن يصلي بالناس ، ونصب له منبراً ، وأن يخالف في ذلك بني أسيه ، ويعمل بالسنة ، فنودي للصلاة جامعة ، ولم يؤذن ولم يقيم خلافاً

لهم . وبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وكبر ستاً في الأولى قبل القراءة ، لا أربعاً . وخمساً في الثانية لا ثلاثاً ، خلافاً لهم . وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة ، وانصرف الناس من صلاة العشاء . وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدي الناس ، وكتب إلى نصر بن سيار كتاباً بدأ فيه بنفسه ثم قال إلى نصر بن سيار . بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإن الله غير أقواماً في كتابه فقال [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم] إلى قوله [تحويلاً] فمظم على نصر أن قدم اسمه على اسمه ، وأطال الفكر ، وقال : هذا كتاب له جواب .

قال ابن جرير : ثم بعث نصر بن سيار خيلاً عظيمة لمحاربة أبي مسلم ، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً ، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن المهيم الخزاعي ، فالتقوا ، فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول الله - . فأبوا ذلك ، فتصافوا من أول النهار إلى العصر ، فجاء إلى مالك مدد فقوى فظفر بهم مالك ، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه جند بني العباس وجند بني أمية .

وفي هذه السنة غلب خازم بن خزيمية على مرو الروذ وقتل عاملها من جهة نصر بن سيار ، وهو بشر بن جعفر السعدي ، وكتب بالفتح إلى أبي مسلم ، وكان أبو مسلم إذ ذاك شاباً حدثاً قد اختاره إبراهيم لدعوتهم . وذلك لشهامته ، بصرامته ، وقوة فهمه وجودة ذهنه ، وأصله من سواد الكوفة ، وكان مولى لادريس بن معقل العجلي ، فاشترى بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم أخذه محمد بن علي ثم آل ولاؤه لآل العباس ، وزوجه إبراهيم الإمام بابنة أبي النجم إسماعيل بن عمران ، وأصدقها عنه وكتب إلى دعائهم بخراسان والعراق أن يسمعوا منه ، فامتثلوا أمره ، وقد كانوا في السنة الماضية قبل هذه السنة ردوا عليه أمره لصغره فيهم ، فلما كانت هذه السنة أكد الإمام كتابه إليهم في الوصاية به وطاعته ، وكان في ذلك الخير له ولهم [وكان أمر الله قدراً مقدوراً] ولما فشا أمر أبي مسلم بخراسان تماقت طوائف من العرب الذين بها على حربه ومقاتلته ، ولم يكره الكرمانى وشيبيان لأنهما خرجا على نصر وأبو مسلم مخالفان نصر كحالهما ، وهومع ذلك يدعو إلى خلع مروان الحمار ، وقد طلب نصر من شيبيان أن يكون معه على حرب أبي مسلم ، أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه ، فإذا قتل أبا مسلم عادا إلى عداوتهما ، فأجاباه إلى ذلك ، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى الكرمانى يعلمه بذلك فلام الكرمانى شيبيان على ذلك ، وثناه عن ذلك ، وبعث أبو مسلم إلى هراة النضر بن نعيم فأخذها من عاملها عيسى بن عقيل الليثي ، وكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وجاء عاملها إلى نصر هارباً ، ثم إن شيبيان وادع نذر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه ، وذلك عن كره من الكرمانى ، فبعث ابن الكرمانى إلى أبي مسلم إني معك على قتال نصر ، وركب أبو مسلم في خدمة الكرمانى فاتفقا على حرب نصر ومخالفته . وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه ، واستعمل على الحرس والشرط

والرسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج إليه الملك عمالا ، وجعل القاسم بن مجاشع النخعي - وكان أحد النقباء - على القضاء وكان يصلي بأبي مسلم الصلوات ، ويقص بعض القصص فيذكر محاسن بني هاشم ويندم بني أمية . ثم تحول أبو مسلم إلى قرية يقال لها بالين ، وكان في مكان مستخفى ، فخشى أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء ، وذلك في سادس ذي الحجة من هذه السنة ، وصلى بهم يوم النحر القاضي القاسم بن مجاشع ، وصار نصر بن سيار في جحافل كالحجاب فأصدا قتال أبي مسلم ، واستخلف على البلاد نوابا وكان من أمرهما ما سند كرمي السنة الآتية .

مقتل ابن الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين ابن الكرماني - وهو جديع بن علي الكرماني - فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكتب كلا من الطائفتين ويستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر وإلى ابن الكرماني : إن الامام قد أوصاني بكم خيراً ولست أعدو رأيه فيكم ، وكتب إلى الكور يدعوه إلى بني العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وأقبل أبو مسلم فنزل بين خندق نصر وخندق ابن الكرماني ، فهابه الفريقان جميعاً ، وكتب نصر بن سيار إلى مروان يبعثه بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب في جملة كتابه :

أرى بين الرماد وميض جمر * وأحرى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعيدان تذكى * وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري * أيقاظ أمية أم نيام

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده . وبعضهم يروونها بلفظ آخر :

أرى خلل الرماد وميض نار * فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكى * وإن الحرب أولها كلام
فإن لم يطفأ عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري * أيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا حينئذ نياماً * فقل قوموا فقد حان القيام

قال ابن خلكان : وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسين على المنصور أخى السفاح :

أرى ناراً تشب على بقاع * لها في كل ناحية شماغ
وقد رقدت بنو العباس عنها * وباتت وهي آمنة رناع
كما رقدت أمية ثم هبت * تدافع حين لا ينفي الدفاع

وكتب نصر بن سيار أيضا إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده وكتب إليه :

أبلاغ يزيد وخير القول أصدقه * وقد تمقت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها * بيضا إذا أفرخت حدثت بالمعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت * ولم يطرن وقد سر بلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لمن بها * يلهن نيران حرب أيا لها

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق في وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولا من جهة إبراهيم الامام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم ، وهو يشتمه فيه ويسبه ، ويأمره أن يناهض نصر بن سيار وابن الكرماني ، ولا يترك هناك من يحسن العربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بمران كتابا إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره فيه أن يذهب إلى الحيمة ، وهي البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد الامام ، فيقيده ويرسله إليه . فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم الامام جالسا فقيده وأرسل به إلى دمشق ، فبعث نائب دمشق من فوره إلى مروان ، فأمر به فسجن ثم قتل كما سيأتي .

وأما أبو مسلم فإنه لما توسط بين جيش نصر وابن الكرماني ، كاتب ابن الكرماني : إني مملك فال إليه ، فكتب إليه نصر ويحك لا تغتر فانه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك ، فلم حتى نكتب كتابا بيننا بالوادعة ، فدخل ابن الكرماني داره ثم خرج إلى الرحبة في مائة فارس ، وبعث إلى نصر هلم حتى نتكاتب ، فأبصر نصر غرة من ابن الكرماني فنهض إليه في خلق كثير ، فحملوا عليه فقتلوه وقتلوا من جماعته جماعة ، وقتل ابن الكرماني في المعركة ، طعنه رجل في خاصرته فخر عن دابته ، ثم أمر نصر بصلبه وصلب معه جماعة ، وصلب معه سمكة ، وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه طوائف من الناس من أصحاب ابن الكرماني ، فصاروا كتفا واحدا على نصر .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها ، وعلى حلوان وقومس واصبهان والري ، بعد حرب يطول ذكرها ، ثم التقى عامر بن ضبارة معه باصطخر فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا . فكان منهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنسبه ابن ضبارة وقال له : ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمر المؤمنين ؟ فقال : كان علي دين فأتيته فيه . فقام إليه [حرب بن] قحطان بن وهب الهلالي فاستوجه منه وقال : هو ابن أختنا فوجه له ، وقال : ما كنت لأقدم على رجل من قريش ، ثم استعلم ابن ضبارة منه أخبار ابن معاوية فذمه ورماه هو وأصحابه باللواط ، وجى من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة ، وقد كان يعمل معهم الفاحشة ، وحمل ابن ضبارة عبد الله بن علي على البريد لابن هبيرة ليخبره بما أخبر به

ابن ضبارة عن ابن معاوية ، وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك بني أمية يكون على يدي هذا الرجل ، وهو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولا يشتر واحد منهم بذلك .
قال ابن جرير : وفي هذه السنة ول الموسم أبو حمزة الخارجي فأغار التحكم والمهاجرة إلى مكة .
وتبرأ منه . فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ أمير مكة والمدينة والباقيات .
وإليه أمر الحجاج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فوقفوا على حدة من الناس برفات ، ثم تعجزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول جعل عبد الواحد وترك مكة فذهب إلى
الخارجي بغير قهقري ، فقال لبعض الشعراء في ذلك : -

زار الحجاج عصابة قد خالفوا * دين الإله فز عبد الواحد

ترك الحلال والامارة عارها * ومضى يخط كالسيف الشارد

لو كان والده تنصل هرقه * لعنت واردة برق الوارد

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخارجي ، وبتل الثقات وزاد في أعطية الأجناد ، وسبهم مبرماً . وكان أمير العراق يزيد بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني . ومن تولى فيها من الأعيان :
سالم أبو النضر ، وعلي بن زيد بن جندب ، في قول ، ويحيى بن أبي كثير . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله الحمد .

سنة ثلاثين ومائة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأولى منها ، دخل أبو مسلم الخراساني مرو ، ونزل دار الامارة بها ، وانزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شدة قليلة من الناس ، فهو من ثلاثة آلاف ، ومنه امرأته أكر زبانه ، حتى طلق سرخس وترك امرأته وراه ، ونجا بنفسه ، واستنحل أمر أبي مسلم حياء ، والنفت عليه الساكر .

مقتل شيبان بن سلمة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار إلى شيبان وكان بمائتة على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلاً لمحبهم فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بن ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله ، فسار إليه فالتلا ففرمه بسام فقتله واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم ، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان بن الكرماني ، ثم رجع أبو مسلم إلى داود إلى بلخ فأخذ منها من زياد بن عبد الرحمن التميمي ، وأخذ منهم أموالا جريفة . ثم إن أبا مسلم اتفق مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا ، وفي ذلك اليوم نبت يقتل أبو مسلم على بن جديع الكرماني ، فوقع ذلك كذلك .

وفي هذه السنة وجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار ، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء ، منهم خالد بن برمك . فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس ، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة ، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة ممدداً نحو عشرة آلاف فارس ، عليهم حملى بن معقل ، فاقتتلوا فقتلوا من أصحاب نصر خلقاً كثيراً ، وقتلوا تميم بن نصر ، وغنموه أموالاً جزيلة جداً ، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية ممدداً لنصر بن سيار ، فالتقى معهم قحطبة في مستهل ذي الحجة ، وذلك يوم الجمعة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهمزم جنود بني أمية ، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف ، منهم نباتة بن محظلة عامل جرجان ، فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم .

ذكر دخول أبي حمزة الخارجي المدينة النبوية واستلانه عليها

قال ابن جرير : وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد بين أبي حمزة الخارجي الذي كان عام أول في أيام الموسم ، فقتل من أهل المدينة من قریش خلقاً كثيراً ، ثم دخل المدينة وهرب نائبها عبد الواحد ابن سليمان ، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً ، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة ، ثم خطب على منبر رسول الله (ص) ، فويع أهل المدينة ، فقال : يا أهل المدينة إني مرت بكم أيام الأحوال - يعني هشام بن عبد الملك - وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فكتبتم إليّ تسألونه أن يضع الخرص عنكم فوضعه ، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً ، فكتبتم إليّ جزاك الله خيراً ، فلا جزاء الله خيراً . في كلام طويل . فأقام عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهر ربيع و بعض جمادى الأول فيما قل الواقدي وغيره . وقد روى المدائني أن أبا حمزة رقى يوماً منبر رسول الله (ص) ، ثم قال : تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من بلادنا بطراً ولا أشراً ، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار ، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحق طمست ، وضعف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله [ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض] أقبلنا من قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم ، يتماورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض ، فأوأانا الله وأيدنا بنصره ، فأصبحنا والله بنعمة الله إخواناً ، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان ، فشتان لعمر الله بين النى والرشد ، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله ، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب ، بكل مهند ذى روثق ، فصدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضرب يرتاب منه المبطلون ، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحقكم الله بمذاب من عنده أو

بأيدينا ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركا عابدا وثنا أو كافرا أهل كتاب ، أو إماما جائرا . يا أهل المدينة من زعم أن الله يكاف نفسا فوق طاقتها ، أو يسألها ما لم يؤتها ، فهو لله عدو ، وأنا له حرب . يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوى والضعيف ، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذها لنفسه ، مكابرا محاربا لربه ، يا أهل المدينة بلغني أنكم تلتفتصون أصحابي قلتهم شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف ، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله (ص) ، إلا شبابا أحداثا ، شبابا والله مكتملون في شبابهم ، غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم ، قد باعوا لله أنفسهم بموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلامهم بكلامهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة . فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت ، وإلى الرماح قد شرعت ، وإلى السهام قد فوقت ، وارتعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن ، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مأب ، فكم من عين في مناقير الطير طال ما فاضت في جوف الليل من خشية الله ، وطال ما بكّت خالية من خوف الله ، وكم من يد زالت عن مفصلها طال ما ضربت في سبيل الله وجاهدت أعداء الله . وطال ما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيري ، وما توفيقي إلا بالله .

ثم روى المدائني عن العباس عن هارون عن جده قال : كان أبو حمزة الخارجی قد أحسن السيرة في أهل المدينة فمالوا إليه حتى ممدوه [يقول] برح الخلفا أين عن بابك نذهب [ثم قال] من زنا فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، فمنع ذلك أبغضوه ورجعوا عن محبته . وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبدا الملك بن محمد بن عطية أحمد بنى سعد في خيل أهل الشام أربعة آلاف ، قد انتخبها مروان من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرسا عربية ، وبغلا ثقله ، وأمره أن يقاتله ولا يرجع عنه ، ولو لم يلحقه إلا باليمن فليتبعه إليها ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى . فسار ابن عطية حتى بلغ وادي القرى فلتقاه أبو حمزة الخارجی قاصدا قتال مروان بالشام ، فاقتنلوا هنالك إلى الليل ، فقال له : ويحك يا ابن عطية ! إن الله قد جعل الليل سكنا فأخر إلى غد ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله ، فما زال يقاتلهم حتى كسروهم فولوا ورجع فلمهم إلى المدينة ، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ودخل ابن عطية المدينة ، وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها ، فيقال إنه أقام بها شهرا ثم استخلف عليها ، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن فخرج إليه عبد الله ابن يحيى نائب صنعاء ، فاقتنلوا فقتله ابن عطية وبعث برأسه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليه

يأمره بإقامة الحج للناس في هذه السنة ، ويستعجله في المسير إلى مكة . فخرج من صنعاء في اثني عشر راكبا ، وترك جيشه بصنعاء ، ومعه خرج فيه أربعون ألف دينار ، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جمانة من سادات تلك الناحية ، فقالوا ويحكم أنتم لصوص . فقال : أنا ابن عطية وهذا كتاب أمير المؤمنين إلى بأمرة الحج ، فنهجن لنمجل السير لنذكر الموسم ، فقالوا : هذا باطل ، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، وأخذوا مائتهم من المال .

قال أبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت إليه إمرة المدينة ومكة والطائف ، ونائب المراق ابن هبيرة ، وإمرة خراسان إلى نصر بن سيار ، غير أن أبا مسلم قد استحوذ على مدن وقرى كثيرة من خراسان ، وقد أرسل نصر إلى ابن هبيرة يستمده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائة ألف ، وكتب أيضا إلى مروان يستمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يمه بما أراد .

ومن توفى فيها من الأعيان شعيب بن الحبحاب ، وعبد العزيز بن صهيب ، وعبد العزيز بن ربيع ، وكعب بن علقمة ، ومحمد بن المنكدر . والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

في الحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قوميس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالامداد ، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فتنزل الرى ، فأقام بها يومين ثم مرض فصار منها إلى همدان . فلما كان بساوه قريبا من همدان توفى لمضى ثلثي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة . فلما مات نصر تمكن أبو مسلم وأصحابه من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم جدا ، وسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري ، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم ، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراه جيشا فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، وبعث ابنه بين يديه إلى الرى ثم ساق وراه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك . وارتحل أبو مسلم من مرو فتنزل نيسابور واستفحل أمره ، وبعث قحطبة بعد دخوله الرى ابنه الحسن بين يديه إلى همدان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن آدم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فتنزلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همدان ثم سار وراه إلى نهاوند ، وبعث إليه أبوه بالامداد فحاصروا حتى افتتحها .

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى

فحطبة وأمدّه بالعساكر ، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة في عشرين ألفاً ، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادى : يا أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى مافى هذا المصحف ، فشتوا المنادى وشتوا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة ، واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خاتماً كثيراً ، وقتلوا ابن ضبارة في العسكر [لشجاعته فإنه لم يول] وأخذوا من عسكرهم مالا يحد ولا يوصف .

وفىها حاصر قحطبة نهاوند حصاراً شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يمهّل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أماناً ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : ما فعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أماناً ، فخرجوا ظانين أنهم في أمان ، فقال قحطبة للامراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه ، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان هرب من أبي مسلم أحد ، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً . ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهر زور ، عن أمر أبي مسلم في ثلاثين ألفاً فافتتحها ، وقتل نائبيها عثمان بن سفيان . وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك ، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما ، تحول مروان من حران فنزل بمكان يقال له الزاب الأكبر .

وفىها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة . فلما اقترب منه تقهقر ابن هبيرة إلى ورائه ، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة فجازها وراه ، وكان من أمرهما ما سئد كره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلي الفلوجة ، في خلق كثير وجم غفير ، وقد أمدّه مروان بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة . ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبه ابن هبيرة . فلما كانت ليلة الأربعاء ثمان ماضين من المحرم اقتتلوا قتالاً شديداً وكثراً القتل في الفريقين ، ثم ولى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان ، وقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر . وقتل في هذه الليلة جماعة من الأمراء . والذي قتل قحطبة مع ابن زائدة ، ويحيى بن حصين . وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثار ابني نصر بن سيار فأن الله أعلم . ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك ، وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة ، وقد خرج بها

محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوّد ، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هذه السنة ، وأخرج عامها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، ونحوه محمد بن خالد إلى قصر الامارة فتصدد حوثة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثة يذهبون إلى محمد بن خالد فيبأيونه لبني العباس ، فلما رأى حوثة ذلك ارتحل إلى واسط ، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع السكوني في الخلال ، وهو بالكوفة ، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البعث إلى كل جانب يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها مسلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخذت البيعة لأبي العباس السفاح ، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة فاته أعلم .

ذكر مقتل إبراهيم بن محمد السام

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة أن مروان أطلع علي كتاب من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم الخراساني ، يأمره فيه بأن لا يبقى أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعريية إلا أباده ، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له هو باللقاء ، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره فبعث نائب دمشق بريداً معه صفته وبعثه ، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح ، فاعتقد أنه هو فأخذه فقيل له : إنه ليس به ، وإنما هو أخوه ، فدل على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له كان يحبها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من يومهم إليها ، منهم أعمامه الستة وهم : عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنوا علي ، وأخوه أبو العباس السفاح ، ومحمد ابنا محمد بن علي ، وابناء محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الامام الممسوك ، وخلق سوام . فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعيد ، مولى بني هاشم ، وكنتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من القواد

والأمراء ، ثم ارتحل بهم إلى موضع آخر ، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان حتى فتحت البلاد .
ثم بويج السفاح . وأما إبراهيم بن محمد الامام فانه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان
ابن محمد وهو بخران فحبسه ، وما زال في السجن إلى هذه السنة ، فمات في صفر منها في السجن ، عن
ثمان وأربعين سنة . وقيل إنه غم بمرققة وضمت على وجهه حتى مات عن إحدى وخمسين سنة ،
وصلى عليه رجل يقال له بهلول بن صفوان ، وقيل إنه هدم عليه بيت حتى مات ، وقيل بل سقى
لبنا سموماً فمات ، وقيل إن إبراهيم الامام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك لأنه
وقف في أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له : إن أبا مسلم
يدعو الناس إلى هذا ويسمونه الخليفة ، فبعث إليه في المحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر
من هذه السنة ، وهذا أصبح مما تقدم : وقيل إنه إنما أخذه من الكوفة لامن حمية البلقاء فالله أعلم .
وقد كان إبراهيم هذا كريماً جواداً له فضائل وفواضل ، وروى الحديث عن أبيه عن جده ،
وأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ،
وأبو سلمة عبد الرحمن بن مسلم الخراساني ، ومالك بن هاشم . ومن كلامه الحسن : الكامل المروءة
من أحرز دينه ، ووصل رحمه ، واجتنب ما يلام عليه .

خبر من زنى العباس السفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي
ابن أبي طالب ، فقلبه بقية النقباء والأمراء ، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلوا عليه بالخلافة ،
وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة . وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة
الخلال ، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت
صلاة الجمعة خرج السفاح على بردون أبيض ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الامارة ، ثم خرج
إلى المسجد الجامع وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر وبايعه الناس وهو على المنبر في أعلاه ، وعنه داود
ابن علي واقف دونه بثلاث درج ، وتكلم السفاح ، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذي
اصطفى الاسلام لنفسه ديناً ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه
والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ، ووضعنا بالاسلام وأهله في الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على
أهل الاسلام كتاباً يتلى عليهم . فقال تعالى [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيراً] وقال [قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى] وقال : [وأنذر عشيرتك

الأقربين] وقال: [ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين] الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النى والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبائية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشامت وجوههم . أيها الناس بنا هدى الله الناس بعد ضلالهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر لنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منكم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم النقيصة وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم ، وإخوانا على سرر متقابلين في أخراهم ، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بحمد الله . فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعلم أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحورا مواريث الأمم فمدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خفاصاً منها . ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم ، وتداولوها . فجاروا فيها واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأبى الله لهم حيناً [فلما آسفونا انتقمنا منهم] فانتزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ، ورد الله علينا حقنا ، وتدارك بنا أمثنا ، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا لئلا يبتزها على الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو [أن] لا يأتىكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبةنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدكم في أعطيائكم مائة درهم ، فاستمدوا فانا السفاح الهاج والثائر المبير . وكان به وعك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهض معه داود فقال : الحمد لله شكر آ الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا . أيها الناس الآن انقضت حنادس الظلمات وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، فطلعت شمس الخلافة من مظلماها ، ورجع الحق إلى نصابه ، إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والمطاف عليكم ، أيها الناس إنا والله ما أخرجنا لهذا الأمر لنسكنز لجينا ولا غيباناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبنى قصراً ولا لنجمع ذهباً ولا فضة ، وإنما أخرجتنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا ، ولسوء سيرة بني أمية فيكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيضكم وصدقاتكم ، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا لبني أمية وبني مروان ، آثروا العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأثام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسلبتهم في البلاد التي بها استلذوا قسر بل الأوزار ، ونجلبب الآصار ، ومرحوا في أهنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الفنى ، جهلاً منهم باستدراج الله ، وعمياً عن أخذ الله . وأما المسكر الله ، فأثام بأس الله بيئاتهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ،

فبعد للقوم الظالمين . وأدان الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور ، أرسل عدو الله في عنانه حتى
 عثر جواده في فضل خطابه ، أظن عدو الله أن لن يتمر عليه أحد ؟ فنادى حربه وجمع جنده ورمى
 بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمته
 ما أمت باطله ، وبحق ضلاله ، وأحل دائرة السوء به ، وأحاط به خطيئته ، ورد إلينا حقنا وآوانا .
 أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نذر الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة لأنه
 كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله
 لا أمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتيح للسفلة
 الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون المتوكل على الله المقتدى بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا
 الأرض بعد فسادها بمبالم الهدى ، ومناهج التقى . قال فميج الناس له بالدعاء ثم قال : واعلموا يا أهل
 الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ص) ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 وأمير المؤمنين هذا - وأشار بيده إلى السفاح - واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا ، حتى
 نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو
 العباس وداود حتى دخلا القصر . ثم دخل الناس يبأيون إلى المعصر ، ثم من بعد المعصر إلى الليل .
 ثم إن أبا العباس خرج فمسك بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود ، وبث عمه عبد الله
 ابن علي إلى أبي عون بن أبي يزيد ، وبث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة . وهو
 يومئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة ، وبث يحيى بن [جعفر بن] تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة
 بالمدائن ، وبث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام
 بالأهواز ، وبث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالمسكن أشهراً ، ثم
 ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الإمارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه
 من العدول بالخلافة عن ابن العباس إلى آل علي بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أمية ، ونحول الخلافة إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى [والله يؤتي ملكه
 من يشاء] وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآية . وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه
 وما جرى بأرض خراسان ، تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل ، يقال له الزاب من
 أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والنهضت عليه الجنود ، واجتمع له أمره ، شق
 عليه جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو أحد أمراء السفاح ،
 فنارله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ، ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل

بيته . فانتدب له عبد الله بن علي فقال : سر على بركة الله ، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي
عون فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه ، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش
ابن حبيب الطائي ، ونصير بن المحتفز ، ووجه ، أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على
البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان ، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور ،
وتبرد نيران الحرب . فقدم عبد الله بن علي بجنوده حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان في
جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار ، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفا ،
ويقال مائة وعشرون ألفا ، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفا . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر
ابن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم ،
وإن قاتلونا قبل الزوال فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله
المواعدة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله ، وكان
ذلك يوم السبت لاثني عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان : قفوا
لا تبتدون بقتال ، وجعل ينظر إلى الشمس يخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان
على ابنته - فجعل يهضب مروان فشتته فقاتل أهل الميمنة فانهماز أبو عون إلى عبد الله بن علي ،
فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي ، فأمر الناس فقتلوا ونودي الأرض الأرض ، فقتلوا وأشروعوا
الرماح وجثوا على الركب وقاتلهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يدفعون ، وجعل عبد الله يمشي
قدما ، وجعل يقول : يارب حتى متى تقتل فيك ، ونادى : يا أهل خراسان ، ياشارات إبراهيم الامام ،
يا محمد يا منصور ، واشتد القتال جدياً بين الناس ، فلا تسمع إلا وقعاً كالمراب على النحاس ، فأرسل
مروان إلى قضاة يأمرهم بالنزول فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا ، وأرسل إلى السكاسك أن يحملوا
فقالوا : قل لبني عامر أن يحملوا ، فأرسل إلى السكون أن يحملوا فقالوا : قل إلى غطفان فليحملوا .
فقال لصاحب شرطته : انزل فقال لا والله لا أجمل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوءئك . قال :
وددت والله لو قدرت على ذلك .

ويقال : إنه قال ذلك لابن هبيرة . قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان في أدبارهم
يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن
الوليد بن عبد الملك الخلويع ، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر ، واستخراج من غرق في الماء ،
وجعل يتلو قوله تعالى [إذ فرقناكم بالبحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون] وأقام عبد الله
ابن علي في موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد سميد بن العاص في مروان وفراره يومئذ :
لج الفرار بمروان فقلت له * عاد الظلوم ظليماً هم الهرب

أَبْنُ الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْمَلِكُ إِذْ ذَهَبَتْ * عَنْكَ الْهُوَيْنَا فَلَا دِينَ وَلَا حِسْبَ
فِرَاشَةُ الْحِلْمِ فَرَعُونَ الْعَقَابَ وَإِنْ * تَطْلُبُ نِدَاهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلْبُ

واحتاز عبد الله ماني معسكر مروان من الأموال والامتعة والحواصل ، ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان ، وكتب إلى أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال . فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خسمائة ، ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله [فلما فصل طالوت بالجنود] الآية

صفة مقتل مروان

لما انهزم مروان سار ليلوى على أحد ، فأقام عبد الله بن علي في مقام المعركة سبعة أيام ، ثم سار خلفه بن معه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذلك ، فلما مر مروان بحران اجتازها وأخرج أبا محمد السفيناني من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد - وهو ابن أخته ، وزوج ابنته أم عثمان - فلما قدم عبد الله على حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبد الله بن علي وأقره على عمله ، وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم الإمام ، واجتاز مروان قلنسرين قاصداً حصص ، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق والمعاش ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخص منها ، فلما رأى أهل حصص قلة من معه اتبعوه ليقنلوه ونهبوا ماله ، وقالوا : مرعوب مهزوم ، فأدركوه بواد عند حصص فأكن لهم أميرين ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهم فنأشدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته ، فثار القتال بينهم وثار الكينان من ورائهم ، فانهمز الخصبون ، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتهما من جهته زوج ابنته الوليد ابن معاوية بن مروان ، فتركها بها واجتاز عنها قاصداً إلى الديار المصرية ، وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد وقد سودوا فيبايمونه ويمطيهم الأمان ، ولما وصل إلى قلنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد ابن علي في أربعة آلاف ، قد بهمهم السفاح مدداً له ، ثم سار عبد الله حتى أتى حصص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة ، ثم وصل إليه أخوه صالح ابن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح ، فنزل صالح بمرج عنده ، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي ، ونزل صالح أخوه على باب الجابية ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، ونزل بسام على الباب الصغير ، وحديد بن قحطبة على باب تونس ، وعبد الحميد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفرديس ، فحاصرها أياماً ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات ، وهدم سورها ، ويقال إن أهل دمشق لما حاصروهم عبد الله اختلّفوا فيما بينهم ، ما بين عباسي وأموي ، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً ، وقتلوا نائبيهم ثم سلموا البلد ، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي ، ومن

ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً .

وذكر ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصرها خمسة أشهر ، وقيل مائة يوم ، وقيل شهراً ونصفاً ، وأقرب البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيماً ، واسكن مختلف أهلها فيها بينهم بسبب البغائية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتنة ، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبليتين حتى في المسجد الجامع منبرين ، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع ، وغريب ما اتفق ، وقطيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية ، نسأل الله السلامة والعافية . وقد بسط ذلك ابن عساكر في هذه الترجمة المذكورة ، وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق ، دخلها بالسيف ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلًا لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة ، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي ، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير ، سبعاً سوطاً ، ثم نفاه إلى الحيمة بالبلقاء . قال : ثم تقبّع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين ألفاً عند نهر بالرملة ، و بسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سباطاً فأكل وهم يمتنعون تحته ، وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه الله عليه ، وقد مضى ولم يدم له ما أرادته ورجاه ، كما سيأتي في ترجمته . وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها . ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم . وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً .

وقد استدعى بالأوزاعي فأوقف بين يديه فقال له : يا أبا عمرو ما تقول في هذا الذي صنعناه ؟ قال فقلت له : لا أدري ، غير أنه قد حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (ص) : « إنما الأعمال بالنيات » فذكر الحديث . قال الأوزاعي : وانتظرت رأسي أن يسقط بين رجلي ثم أخرجت ، وبعثت إلى بمائة دينار . ثم سار

وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائبا على دمشق ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر ، وجاءه كتاب السفاح : ابعث صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائبا عليها ، فسار صالح يطلب مروان في ذى القعدة من هذه السنة ، ومعه أبو عمرو وعامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما ، وقيل الفيوم ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد ، فعب مروان النيل وقطع الجدير وحرق ما حوله من الملف والطعام ، ومضى صالح في طلبه . فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان فدلهم عليه ، وإذا به في كنيسة أبو صير ، فوافوه من آخر الليل فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير معه فأحاطوا به حتى قتلوه ، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له معود ، ولا يعرفه حتى قال رجل صرع أمير المؤمنين . فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الزمان فاحتز رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيم بن يزيد بن هاني كان على شرطته ، لأمر المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة ، وقيل يوم الخميس لست مضين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور ، واختلفوا في سنة قتل أربعون سنة ، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة ، وقيل ثمانون فالحق أعلم .

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه أعلم .

وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية ، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة ، وكانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا ، ويقال إنها كانت أولا لمصعب بن الزبير ، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكايفين ، قاله ابن عساكر . بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة . وقال أبو معشر : بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يقال له مروان الجعدي ، نسبة إلى رأى الجعد بن درهم ، وتلقب بالحمار ، وهو آخر من ملك من بني أمية ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقيل

خمس سنين وشهرآ ، وبقى بعد أن بويج للسفاح تسعة أشهر ، وكان أبيض مشرباً حمرة ، ارق العيين ، كبير اللحية ، ضخمة الهامة ، ربة ، ولم يكن يخضب . ولاء هشام نيابة أذر بيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشرة ومائة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم ، وقد كان شجاعاً بطلاً مقبلاً حازم الراى ، لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته . ولكن من يخذل الله يخذل ، ومن يهن الله فله من مكرم .

قال الزبير بن بكار عن عمه مسمب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أمه أمة ، فلما وليها مروان هذا أخذت منهم في سنة ثنتين وثلاثين ومائة . وقد قال الحافظ ابن عساکر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسين أخبرنا سهل بن بشر أنبأ الخليل ابن هبة الله بن الخليل أنبأ عبد الوهاب الكلبي حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبأ العباس ابن الوليد بن صبيح ثنا عباس بن يحيى أبو الحارث حدثني الهيثم بن حميد حدثني راشد بن داود عن أسماء عن ثوبان قال . قال رسول الله ص : « لا تزال الخلافة في بنى أمية يتلقونها تلقف الغلمان الكرة ، فإذا خرجت من أيديهم فلا خير في عيش » . هكذا أورده ابن عساکر وهو منكر جداً ، وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش : من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم للصلاة ، فأعطاه ستة آلاف . قالوا وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب ، يعجبه الله والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

قال ابن عساکر : قرأت بخط أبي الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له : كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزماً :

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى * فأبى ويدني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً أن تبتقى وبيننا * حجاب قد أمسى منى على عشر
وأنكاهما والله للقلب فاعلى * إذا زدت مثليها فصرت على شهر
وأعظم من هذين والله أننى * أخاف بأن لانتقى آخر الدهر
سأبكيك لمستبقياً فيض عبدة * ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

وقال بعضهم : اجتاز مروان وهو هارب يراهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له : ياراهب هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم . عندي من تلونه ألوان . قال : هل تبلغ الدنيا من الانسان أن نجعله مملوكاً بعد أن كان مالكا ؟ قال : نعم . قال : فكيف ؟ قال : بحبه لها وحرصه على نيل شهواتها

وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرص . فان كنت تحبها فان عبدها من أحبها قال فما السبيل إلى المتقى ؟ قال : بينفضها والتجافى عنها . قال : هذا مالا يكون . قال الراغب : اما إنه سيكون ، فبادر بالحرب منها قبل أن تسلبها . قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم أنت ملك العرب مروان ، تقتل في بلاد السودان : وتدفن بلا أكفان ، فلولا أن الموت في طلبك لدللتك على موضع هربك . قال بعض الناس : كان يقال في ذلك الزمان يقتل ع بن ع بن ع م بن م بن م يعمنون يقتل عبد الله بن علي بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم ، فقال مروان لبعض من يخاطبه : ألا ترى ما نحن فيه ؟ لمنى على أيد ما ذكرت ، ولنعم ما شكرت ، ودولة ما نصرت . فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكبر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر ، وآخر فعل اليوم لقد ، حل به أكثر من هذا . فقال مروان : هذا القول أشد على من فقد الخلافة . وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وقد جاوز الستين وبلغ الثمانين . وقيل إنما عاش أربعين سنة . والصحيح الأول . وهو آخر خلفاء بني أمية به انقضت دولتهم .

ما ورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية

قال العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : « إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً ، وعباد الله خولاً ، ومال الله دولاً » . ورواه الأعمش عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه ، وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن وهب أنه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال : اقض حاجتي فاني لأبوعشرة ، وأخوعشرة وعم عشرة . فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله (ص) قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتاب الله دغلاً ، فاذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة ، كان هلاكهم أسرع من لوك تمر » . فقال ابن عباس : اللهم نعم ؟ فلما أدبر مروان قال معاوية : أنشدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله (ص) ذكر هذا فقال : « أبو الجبابرة الأربعة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا القاسم بن الفضل ثنا يوسف بن مازن الراسبي قال : قام رجل إلى الحسين بن علي فقال : يا مسود وجوه المؤمنين ! فقال الحسين : لا تؤذني رحمتك الله ، فان رسول الله (ص) رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فسأه ذلك فنزلت [إنا أعطيناك السكون] وهو نهر في الجنة ، ونزلت [إنا أنزلناه

في آية القدر [السورة إلى قوله [خير من ألف شهر] مملكة بني أمية . قال : فحسبنا ذلك فإذا هو كما قال لا يزيد ولا ينقص . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن أبي داود الطيالسي ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد ويقال يوسف بن مازن ، رجل مجهول ، ولا يعرف هذا اللفظ إلا من هذا الوجه . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث القاسم بن الفضل الحداني ، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث في التفسير بكلام مبسوط ، وإنما يكون متجها إذا قيل إن دولتهم ألف شهر بأن نستقط منها أيام ابن الزبير ، وذلك أن معاوية يبيع به مستقلا بالملك في سنة أربعين ، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد ستة أشهر من قتل علي ، ثم نالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة ، وهي سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك ثنتان وتسعون سنة ، وإذا أسقط منها تسع سنين خلافة ابن الزبير بقي ثلاث وثمانون سنة ، وهي مباحنة لما ورد في هذا الحديث ، ولكن ليس هذا الحديث مرفوعاً إلى النبي (ص) ، أنه فسر هذه الآية بهذا المدد ، وإنما هذا من قول بعض الرواة ، وقد تكلمنا على ذلك مطولا في التفسير ، وتقدم في الدلائل أيضا تقريره والله أعلم .

وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله (ص) قال : « رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي » فأنزلت . إنا أنزلناه في ليلة القدر » فيه ضعف وإرسال . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا يحيى بن معين ثنا عبد الله بن نمير عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب في قوله [وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس] قال : رأى ناساً من بني أمية على المنابر فساء ذلك ، فقليل له : إنما هي دنيا يملونها وتضمحل عن قليل فسرى عنه . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع قال : لما أسرى برسول الله (ص) رأى فلاناً وهو من بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله [وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين] وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول والله ليؤمنن الله ملك بني أمية كما أعز ملك من كان قبلهم ، ثم لينزلن ملكهم كما نزل ملك من كان قبلهم ، ثم تلا قوله تعالى [وتلك الأيام نداولها بين الناس] . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن سعيد ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة أخبرني عمر بن سيف مولى أميان بن عفان قال سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة - وذكروا بني أمية - فقال : لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا كيف ؟ قال : بهلك خلفائهم ويبقى شرارهم فيقتنافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم . وقال يعقوب بن سفيان : أنبأ أحمد بن محمد الأزرق ثنا الزنجبي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « رأيت في النوم بني أبي

الحكم أو بنى أبي العاص ينزون على منبرى كما تنزو القردة : قال فاروقى رسول الله (س) : مستجماً ضاحكاً بعدها حتى توفى . قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى [له الدارمى] : حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - عن علي بن الحكم البنائى عن أبي الحسن هو الحمصى عن عمرو بن مرة - وكانت له صحبة - قال : جاء الحكم بن أبي العاص يسئلاً عن رسول الله (س) ، فعرف كلامه فقال : « ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل مأم ، يشرفون فى الدنيا ويوضعون فى الآخرة ، ذروا دهاء وخديعة ، يعطون فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق » .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادى : أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد بن المظفر الحافظ أنبأ أبو القاسم تمام بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقى أنبأ أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملايس ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد [مولى أم الحكم بنت عبد العزيز ، حدثنا يزيد] (١) بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعائى عن ثوبان قال : « كان رسول الله (س) ، قائماً واضعاً رأسه على فخذه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فنحب ثم تبسم ، فقالوا : يا رسول الله رأيناك نحببت ثم تبسمت ، فقال : رأيت بنى أمية يتماورون على منبرى فساءنى ذلك ، ثم رأيت بنى العباس يتماورون على منبرى فسررت ذلك » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى محمد بن خالد بن العباس ثنا الوليد بن مسلم حدثنى أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطى عن أبان بن الوليد عن عقبة بن أبي معيط . قال : قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته ، ثم قال : يا أبا العباس ! هل يكون لكم دولة ؟ فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرنى ، قال نعم ! قال فن أنصارك ؟ قال : أهل خراسان . ولبنى أمية من بنى هاشم لطحات .

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير : سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح ، والمنصور ، والمهدى . رواه البيهقى من غير وجه ، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً ، وروى ابن أبي خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يفتحنا بنا . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكذا وقع ويقع للمهدى إن شاء الله . وروى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد . قال قال رسول الله (س) : « يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح ، يعطى المال حثياً » . وقال عبد الرزاق : حدثنا الثورى عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال قال رسول

الله (س) : « يقتل عند حركتكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تقبل
الرايات من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلهما . ثم ذكر شيئاً فإذا كان كذلك فأتوه ولو حبوا على
الشامخ ، فإنه خليفة الله المهدي » . ورواه بعضهم من ثوبان فوقه وهو أشبهه والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا راشد بن سعد حدثني يونس
ابن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله (س) ، أنه قال :
« يخرج من خراسان رايات سود لا يردنها شيء حتى تنصب بابلها » . وقد رواه البيهقي في الدلائل من
حديث راشد بن سعد المصري ، وهو ضعيف . ثم قال : قد روى قريباً من هذا عن كعب الأحبار
وهو أشبهه . ثم رواه عن كعب أيضاً قال : « تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام ، ويقتل
الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم » . وروى إبراهيم بن الحسين عن ابن أبي أويس عن ابن أبي
ذؤيب عن محمد بن عبيد الرحمن العامري عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة . أن رسول الله (س) ،
قال للعباس : « فيكم النبوة وفيكم المملكة » . وروى عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن
أبي قررة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال سمعت العباس يقول : كنت عند
رسول الله (س) ، ذات ليلة فقال : « انظر هل ترى في السماء من شيء ؟ قلت : نعم قال : ما ترى ؟
قلت : الثريا ، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك » . قال البخاري : عبيد بن أبي
قررة لا يتابع على حديثه . وروى ابن عسدي من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن نعيم عن
ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « مررت برسول الله (س) ، ومعه جبريل وأنا أظنه دحية
السكاكي ، فقال جبريل لرسول الله (س) : إنه لوسخ الثياب ، وسيلبس ولده من بعده السواد » .
وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن بني العباس كان السواد من شعارهم ، أخذوا ذلك من دخول
رسول الله (س) . مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فأخذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد
والجمع والمحافل . وكذلك كان جندهم لا بد أن يكون على أحدهم شيء من السواد ، ومن ذلك الشرابوش
الذي يلبسه الأمراء إذا خلع عليهم . وكذلك دخل عبد الله بن علي دمشق يوم دخلها وعليه
السواد ، فجعل النساء والعلماء يعجبون من لباسه ، وكان دخوله من باب كيسان . وقد خطب الناس
يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد . وقد روى ابن عساكر عن بعض الخراسانية قال : لما صلى
عبد الله بن علي بالناس يوم الجمعة صلى إلى جانبي رجل فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبحمدك
وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، أنظروا إلى عبدا لله بن علي ما أقبح وجهه وأشنع
سواده ؟ ! وشعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد .

استقرار أبي العباس السفاح

واستقلاله بالخلافة وما اعتمده في أيامه من السيرة الحسنة

قد تقدم أنه أول ما بيع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر ، وقيل الأول من هذه السنة ، سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ثم جرد الجيوش إلى مروان فطردوه عن المملكة وأجلوه عنها ، وما زالوا خلفه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد ، بأرض مصر ، في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة على ما تقدم بيانه ، وحينئذ استقل السفاح بالخلافة واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية ، خلا بلاد الأندلس ، فانه لم يحكم عليها ولا وصل سلطانه إليها ، وذلك أن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي بيانه . وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف ، فمنهم أهل قنسرين بمد ما يأموه على يدى عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلبي ، وكان من أصحاب مروان وأمرائه ، نفع السفاح ولبس البياض ، وحمل أهل البلد على ذلك فوافقوه ، وكان السفاح يومئذ بالحيرة ، وعبد الله بن علي مشغول بالبقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المزني ومن وافقه من أهل البلقاء والبتئية وهوران على خلع السفاح ، فلما بلغه عن أهل قنسرين ما فعلوا صالح حبيب بن مرة وسار نحو قنسرين ، فلما اجتاز بدمشق - وكان بها أهله وثقله - استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربيعة الكندي في أربعة آلاف ، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حصص ، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه فحلموا السفاح وبيضوا وقتلوا الأمير أبا غانم وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله ، ولم يتعرضوا لأهله . وتفاقم الأمر على عبد الله وذلك أن أهل قنسرين ترأسوا مع أهل حصص وتزمروا واجتمعوا على أبي محمد السفياي ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعوه بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفا قصدهم عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم ، فاقتتلوا مع مقدمة السفياي وعليها أبو الورد فاقتتلوا قتالا شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألف ، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتتلوا قتالا شديداً جداً ، وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد . وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد ، وثبت أبو الورد في خمسمائة فارس من أهل بيته وقومه ، فقتلوا جميعاً وهرب أبو محمد السفياي ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة ، ثم كر عبد الله راجعاً إلى دمشق وقد بلغه ما صنعوا ، فلما دنا منها تفرقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأمسهم ودخلوا في الطاعة . وأما أبو محمد السفياي فانه ما زال مضيقاً ومشقياً حتى لحق بأرض الحجاز فقاتله

نائب أبي جعفر المنصور في أيام المنصور، فقتله وبعث رأسه وبأذنين له أخذهما أسيرين فأطلقهما المنصور في أيامه. وقد قيل إن وقعة السفيناتي يوم الثلاثاء آخر يوم من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة فإله أعلم.

ومن خلع السفاح أيضاً أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا، فوافقهم وبيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح - وهو موسى بن كعب - وكان في ثلاثة آلاف قد اعتمد بالبلد، فحاصروه قريباً من شهرين، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسطة محاصري ابن هبيرة، فر في مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فخلقوا أبوابها دونه، ثم مر بالركة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك، ثم بمحاجر وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة يحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرها، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جنود حران فتلقاه المنصور ودخلوا في جيشه، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين، ورئيسهم حروري يقال له بريك، فصارا حزبا واحداً، فقصده إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتلاً شديداً، فقتل بريك في المعركة، وهرب بكار إلى أخيه بالرها، فاستخلفه بها ومضى بمظلم المسكر [حق نزل] سميساط وخندق على عسكره، وأقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها، وجرت له معه وقعات. وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة، فسار إليهم عبد الله واجتمع إليه أبو جعفر المنصور، فكاتبهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك، على إذن أمير المؤمنين. وولى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، فلم يزل عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلي إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان قد قتل، وذلك بعد مضي سبعة أشهر وهو محاصر، وقد كان صاحباً لأبي جعفر المنصور فآمنه.

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني وهو أميرها، ليستطلع رأيه في قتل أبي سلمة، لأنه كان يريد أن يعرف الخلافة عنهم، فيسأله هل ذلك كان عن مملأة أبي مسلم لأبي سلمة في ذلك أم لا؟ فسكت القوم، فقال السفاح: لئن كان هذا عن رأيه إنا ليمرّ بلاء عظيم، إلا أن يدفعه الله عنا. قال أبو جعفر فقال لي أخى: ما نرى؟ فقلت: الرأي رأيك. فقال: إنه ليس أحد أحسن بأبي مسلم منك، فأذهب إليه فاعلم لي علمه، فإن كان عن رأيه احتلنا له، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا. قال أبو جعفر: فخرجت إليه فاصفاً على وجل. قال المنصور: فلما وصلت إلى الري إذا كتاب أبي مسلم إلى نائبها يستحثني إليه في المسير، فازددت وجلاً، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثني أيضاً وقال لنا بها: لاندفعه بقر ساعة

واحدة . فان أرضك بها خوارج ، فانشرح لذلك فلما صرت من مرو على فرسخين ، خرج يتلقاني ومعه الناس ، فلما واجهني ترجل فقبل يدي ، فأمرته فركب . فلما دخلت مرو نزلت في داره فمكث ثلاثا لا يسألني في أي شيء جئت ، فلما كان في اليوم الرابع سألني ما أقدمك ؟ فأخبرته بالأمر . فقال : أفعلها أبو سلمة ؟ أنا أكنيكموه . فدعا مرار بن أنس الضبي فقال : اذهب إلى السكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله ، وانه في ذلك إلى رأي الامام . فقدم مرار السكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح ، فلما خرج قتله مرار وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغالقت البلد . ثم صلى عليه يحيى بن محمد بن علي أخو أمير المؤمنين ، ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له وزير آل محمد . ويقال لأبي مسلم أمير آل محمد . قال الشاعر : -

إن الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشنأك كان وزيرا

ويقال إن أبا جعفر إنما سار إلى أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة وكان معه ثلاثون رجلا على البريد ، منهم الحجاج بن أرطاة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي ، وجماعة من السادات . ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه : لست بخليفة مادام أبو مسلم حيا حتى تقتله ، لما رأى من طاعة المساكين له ، فقال له السفاح : اكتبها فسكت . ثم إن السفاح بعث أخاه أبا جعفر إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبياع له بالخلافة فأبى عليه جوابه ، فمال إلى مصالحة أبي جعفر ، فاستأذن أبو جعفر أخاه السفاح في ذلك فأذن له في المصالحة ، فكتب له أبو جعفر كتابا بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية ، فلما دنا من سرادق أبي جعفر هم أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل . وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان ، ثم أذن له في الدخول فقال : أنا ومن معي ؟ قال : لا بل أنت وحدك ، فدخل ووضعت له وسادة فجلس عليها ، فحادثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جمل يأتيه يوما بعد يوم في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر فقال أبو جعفر للحاجب : مره فليأت في حاشيته ، فكان يأتي في ثلاثين نفسا ، فقال الحاجب : كأنك تأتي متأهبا^(١) ؟ فقال : لو أمرتموني بالمشي لمشييت إليكم ، ثم كان يأتي في ثلاثة أنفس . وقد خاطب ابن هبيرة يوما لأبي جعفر فقال له في غبون كلامه : يا هناه - أو قال يا أيها المرء - ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعذره . وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشير في مصالحة ابن هبيرة فنهاه عن ذلك ، وكان السفاح لا يقطع أمرا دونه ، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، وكتب إلى أبي جعفر يأمره بقتله ، فراجع أبو جعفر مرارا

(١) في تاريخ ابن جرير « مباهيا » .

لا يفيد ذلك شيئاً ، حتى جاء كتاب السفاح أن اقتله لا محالة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كيف يعطى الأمان وينكث ؟ هذا فعل الجبارة وأقسم عليه في ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود وفي حجره صبي صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه ، وخلصوا إليه ، فألقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد ، واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر في الناس بالأمان إلا عبد الملك بن بشر وخاله ابن سلمة الخزومي وعمر بن ذر . فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضاً .

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة الخلال فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولي السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة ، وعزله عن السكوفة وولى مكانه عليهما عيسى بن موسى ، وولى قضاءها ابن أبي ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبى ، وعلى قضائها الحجاج ابن أرطاة ، وعلى السند منصور بن جمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث . وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور ، وعلى الشام وأعمالها عبد الله بن علي عم السفاح ، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد . وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فيها داود بن علي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموي ، آخر خلفاء بني أمية ، فقتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة كما تقدم ذلك مبسوطاً ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي ، الكاتب البليغ الذي يضرب به المثل ، فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وكان إماماً في الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها . وله رسائل في ألف ورقة ، وأصله من قيسارية ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً في الكتابة أيضاً ، وقد كان أولاً يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال أن صار وزيراً لمروان ، وقتله السفاح ومثل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه . ومن مستجاد كلامه : العلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه وقد رأى رجلاً^(١) يكتب خطاً رديئاً فقال : أطل جلفسة قلبك وأسمها ، وحرف قطنتك وأسمها . قال الرجل : ففعلت ذلك فجاء خطي . وسأله رجل أن يكتب له كتاباً إلى بعض الأكارب يوصيه به ، فكتب إليه : حق موصل كتابي إليك كحقة علي

(١) هو إبراهيم بن جبلة

إذ رآك . وضماً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد قضيت أنا حاجته فصدق أنت أمله . وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت : —

إذا خرج الكتابُ كانَ دويهم * قسيّاً وأقلامُ القسي لها نبلا
وأبو سلة حفص بن سليمان ، هو أول من وزر لآل العباس ، قتلته أبو مسلم بالأندلس من أمر
السفاح ، بعد ولايته بأربعة أشهر ، في شهر رجب . وكان ذا هيئة فاضلة حسن المفاكهة ، وكان السفاح
يأبى به ويحب مسامحته لطيب محاضراته ، ولكن توهم ميله لآل علي فدس أبو مسلم عليه من قبله
غيلة كما تقدم ، فأشدد السفاح عند قتله :

إلى النارِ فليذهبْ ومن كان مثله * على أي شيءٍ فانتنا منه نأسفُ
كان يقال له وزير آل محمد ، ويعرف بالخلخال ، لسكنائه بدرب الخلالين بالكوفة ، وهو أول من
سمى بالوزير ، وقد حكى ابن خلكان عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل ، فكان
السلطان حمله أثقالاً لاستناده إلى رأيه ، كما يلجأ الخائف إلى جبل يعتصم به .
ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

فيها ولي السفاح عمه سليمان البصرة وأعمالها ، وكوردجلة والبحرين وعمان . ووجه عمه إسماعيل
ابن علي إلى كور الأهواز . وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية ، وفيها توفي داود
ابن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول ، واستخلف ابنه موسى على عمله ، وكانت ولايته على الحجاز
ثلاثة أشهر ، فلما بلغ السفاح موته استناب على الحجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي ،
وولي اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الدار ، وجعل إمرة الشام لعميه عبيد الله
وصالح بن علي ، وأقر أباهون على الديار المصرية فائبا . وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية
فقاتلهم قتلاً شديداً حتى فتحها . وفيها خرج شريك بن شيخ المهري ببخارى على أبي مسلم وقال :
ما على هذا يا بني آل محمد ، على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفاً ،
فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله .

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل ، وولى عليه عمه إسماعيل . وفيها ولي الصائفة
من جهة صالح بن علي بن شعيب بن عبيد الله وغزا ما وراء الدروب . وحج بالناس خال السفاح زياد
ابن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي . ونواب البلاد هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه
عزل . ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح ، فبعث إليه خازم بن خزيمه
فقاتله فقتل عامة أصحابه ، واستباح عسكره . ورجع فرجعاً من بني عبد الدار أخوال السفاح فسألم

عن بعض ما فيه اصره للخليفة ، فلم يردوا عليه ، واستهانوا به ، وأمر بضرب أعناقهم - وكانوا قريباً من عشرين رجلاً ومثلهم من مواليهم - فاستمدى بنو عبد الدار على خازم بن خزيمه إلى السفاح ، وقالوا : قتل هؤلاء بلا ذنب ، فهم السفاح يقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليبعثه بمناصبها ، فان سلم فذاك ، وإن قتل كان الذي أراد . فبعثه إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجهز معه سبعمائة رجل ، وكتب إلى عمه سليمان بالبصرة أن يحملهم في السفن إلى عمان ففعل ، فقاتل الخوارج فكسرهم وقهرهم وأستحوذ على ما هنالك من البلاد ، وقتل أمير الخوارج الصفريه وهو الجندى ، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف ، وبعث برؤسهم إلى البصرة ، فبعث بها نائب البصرة إلى الخليفة . ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً .

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصند وغزا أبو داود أحد نواب أبي مسلم بلاد كش ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأواني الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . وفيها بعث السفاح موسى ابن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً ، فالتقاه موسى بن كعب وهو في ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره . وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الدار ، فاستخلف السفاح عليها عمه ، وهو خال الخليفة . وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى ، ونواب الأقاليم هم . وفيها توفي من الأعيان أبو هارون العبدي ، وعمارة بن جوين ، ويزيد بن يزيد بن جابر الدمشقي والله أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبي مسلم فأظفره الله بهم فبدد ثملهم واستقر أمره بذلك النواحي . وحج بالناس فيها سليمان بن علي نائب البصرة . والنواب هم المذكورون قبلها . ومن توفي فيها من الأعيان : يزيد بن سنان ، وأبو عقيل زهرة بن معبد ، وعطاء الخراساني

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح ، وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم عليه ، فكتب إليه أن يقدم في خمسمائة من الجند ، فكتب إليه : إني قد وثرت الناس ، وإني أخشى من قلة الخمسمائة . فكتب إليه أن يقدم في ألف ، فقدم في ثمانية آلاف ، فرقهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئاً كثيراً . ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند ، فنلقاه القواد والأمراء إلى مسافة بعيدة . ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريباً منه ، وكان يأتي إلى

الخليفة كل يوم ، واستأذن الخليفة في الحج فأذن له ، وقال : لولا أني عينت الحج لأخى أبي جعفر لأمرتك على الحج . وكان الذي بين أبي جعفر وأبي مسلم خراباً وكان يبعثه ، وذلك لما رأى ما هو فيه من الحرمة حين قدم عليه نيسابور في البيعة للسفاح والمنصور بعده ، فخار في أمره لذلك ، فحمد عليه المنصور وأشار على السفاح بقتله ، فأمره بكنتم ذلك . وحين قدم أمره بقتله أيضاً وحرصه على ذلك ، فقال له السفاح : قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدواتنا ، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغدي بك هو . فقال له : كيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال : إذا دخل عليك فحادثه ثم أجيء أنا من ورائه فأضربه بالسيف . قال : كيف بمن معه ؟ قال : هم أذل وأقل . فأذن له في قتله ، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه ، فبعث إليه الخادم يقول له : إن ذاك الذي بينك وبينه ندم عليه فلا تفعله . فلما جاءه الخادم وجده محتبياً بالسيف قد تهيأ لما يريد من قتل أبي مسلم . فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح ، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراساني عن أمر الخليفة ، وأذن له في الحج ، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر إلى أبي جعفر . وكان يسير قبل أبي مسلم بمرحلة - بموت أخيه السفاح ، فكتب إلى أبي مسلم أن قد حدث أمر فالحجل العجل ، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه ، فلحقه إلى الكوفة . وكانت بيعة المنصور على ماسياتي بيانه وتفصيله قريباً والله سبحانه وتعالى أعلم .

ترجمة أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس

هو عبد الله السفاح - ويقال له المرتضى ، والقاسم أيضاً - ابن محمد ابن الامام ابن علي السجاد ابن عبد الله الخبر ابن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أمير المؤمنين ، وأمه ريطة - ويقال رايطة - بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثي ، كان مولد السفاح بالحريمة من أرض الشراء من البلقاء بالشام ، ونشأ بها حتى أخذ مروان أخاه إبراهيم الامام فانتقلوا إلى الكوفة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول بالكوفة كما تقدم . وتوفي بالجدري بالأندلس يوم الأحد الحادي عشر ، وقيل الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وكان عمره ثلاثاً ، وقيل اثنتين ، وقيل إحدى وثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين سنة . قاله غير واحد . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان أبيض جميلاً طويلاً ، أقي الأنف ، جمع الشعر ، حسن اللحية ، حسن الوجه ، فصيح الكلام ، حسن الرأي ، جيد البديهة . دخل عليه في أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا

المصحف . قال : فاشفق عليه الحاضرون أن يجعل السفاح عليه بشيء أو يترك جوابه فيبقى ذلك مسبة عليه وعليهم . فأقبل السفاح عليه غير منضب ولا منزعج ، فقال : إن جديك علياً كان خيراً مني وأعدل ، وقد ولي هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيراً منك ، شيناً قد أعطيتك وزدتك عليه ، فما كان هذا جزائي منك . قال : فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً ، وتعجب الناس من سرعة جوابه وجودته وجودته على البديهة .

وقد قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري . قال قال رسول الله (ص) : « يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح ، يكون إعطاؤه المال حثياً » وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به . وهذا الحديث في إسناده عطية السوفى وقد تكلموا فيه . وفي أن المراد بهذا الحديث هذا السفاح انظر والله أعلم . وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بني أمية أخباراً وآثاراً في مثل هذا المعنى . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن سلمة بن محمد بن هشام أخبرني محمد بن عبد الرحمن الخزومي حدثني داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو والد السفاح - قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر : من تجدون الخليفة بعد سليمان ؟ قال له : أنت . فأقبل عمر بن عبد العزيز عليه فقال له : زدني من بيانك . فقال ثم آخر ، إلى أن ذكر خلافة بني أمية إلى آخرها . قال محمد بن علي : فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصراني في بالي فرأيت يوماً فأمرت غلامي أن يحبسه علي ، وذهبت إلى منزلي فسألته عما يكون في خلفاء بني أمية فذكرهم واحداً واحداً ، وتجاوز عن مروان بن محمد . قلت : ثم من ؟ قال : ثم ابن الحارثية ، وهو ابنك . قال : وكان ابني ابن الحارثية إذ ذاك حملاً . قال ووفد أهل المدينة على السفاح فبادروا إلى تقبيل يده غير عمران بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع العدوي ، فإنه لم يقبل يده ، وإنما حياه بالخلافة فقط . وقال : والله يا أمير المؤمنين لو كان تقبيلها يزيدك رفعة ويزيدني وسيلة إليك ماسبقني إليها أحد من هؤلاء ، وإني لغني عما لا أجر فيه ، وربما قادنا عمله إلى الوزر ثم جلس . قال : فوالله ما نقصه ذلك عنده حظاً من حظ أصحابه ، بل أحبه وزاده . وذكر القاضي المعافى بن زكريا أن السفاح بعث رجلاً ينادي في عسكر مروان بهذين البيتين ليلاً ثم رجع :

يا آل مروان إن الله مهلككم * ومبديل أمنكم خوفاً وتشريدا

لاعدر الله من أنسابكم أحداً * وبشكم في بلاد الخوف تطريدا

وروى الخطيب البغدادي أن السفاح نظر يوماً في المرأة - وكان من أجمل الناس وجهاً - فقال :

اللهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الخليفة الشاب ، ولكن أقول : اللهم عمرني طويلاً في

طاعتك ممناً بالعافية . فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لا آخر : الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام . فتطير من كلامه وقال : حسبى الله لا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين . فمات بعد شهرين وخمسة أيام . وذكر محمد بن عبد الله بن مالك الخزازي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائماً ، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : فحادثته حتى أخذته النوم فقامت عنه . وقلت : أقبل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك . فذهبت فتمت قليلاً ثم قمت فأقبلت إلى داره فاذا على بابي بشير يبشر بفتح السند وبيعهم للخليفة وتسلم الأمور إلى نوابه . قال : فحمدت الله الذي وفقني في الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فاذا بشير آخر معه بشارة بفتح إفريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : سبحان الله ، كل شيء بآئد سواء ، نعت والله إلى نفسي ، حدثني إبراهيم الإمام عن أبي هشام عن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عن رسول الله (ص) أنه قال : « يقدم على في مدينتي هذه واندان واند السند والآخر واند إفريقية بسمهم وطاعتهم وبيعهم » ، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت . قال : وقد أتاني الوافدان فأعظم الله أجرك يا عم في ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا أمير المؤمنين إن شاء الله . قال بلى إن شاء الله ! لكن كانت الدنيا حبيبة إلى فالأخرة أحب إلى ، ولقاء ربي خير لي ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب إلى منها ، والله ما كذبت ولا كذبت . ثم نهض فدخل منزله وأمرني بالجلوس ، فلما جاء المؤذن يملأه بوقت الظهر خرج الخادم يعلمني أن أصلي عنه ، وكذلك العصر والمغرب والعشاء ، وبت هناك ، فلما كان وقت السحر أتاني الخادم بكتاب منه يأمرني أن أصلي عنه الصبح والعيد ثم أرجع إلى داره ، وفيه يقول : يا عم إذا مت فلا تعلم الناس بموتى حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبايعوا إن فيه . قال : فصليت بالناس ثم رجعت إليه فاذا ليس به بأس ، ثم دخلت عليه من آخر النهار فاذا هو على حاله غير أنه قد خرجت في وجهه حبتان صغيرتان ، ثم كبرتاه ، ثم صار في وجهه حب صفار بيض يقال إنه جدري ، ثم بكترت إليه في اليوم الثاني فاذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتي ومعرفة غيري ، ثم رجعت إليه بالعشى فاذا هو انتفخ حتى صار مثل الزق ، وتوفي اليوم الثالث من أيام التشريق ، فسجنته كما أمرني ، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم كتابه فاذا فيه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأولياء وجماعة المسلمين ، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين اخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا وأطيعوا ، وقد قلدها من بعده عيسى بن موسى كذا كان . قال : فاختلف الناس في قوله « إن كان » قيل إن كان أهلاً لها . وقال آخرون إن كان حياً . وهذا القول الثاني هو الصواب ، ذكره الخطيب

وابن عساكر مطولا . وهذا ملخص منه . وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جدا . وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ يقول عند ذلك :
انظر إلى ضعف الحرا * كـِ وذل بهد السكون * ينبئك أن بيانه * هذا مقدمة المنون
فقال له الطبيب : أنت صالح . فأنشأ يقول :

يدشرفني باني ذو صلاح * يبين له وبى داء دفين * لقد أيقنت أنى غير باقر * ولا شك إذا وضع اليقين
قال بعض أهل العلم : كان آخر ما تكلم به السفاح : الملك لله الحى القيوم ، ملك الملوك ، وجبار الجبابرة . وكان نقش خاتمه الله ثقة عبده الله . وكان موته بالجدري في يوم الأحد الثالث عشر من
ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأبواب المائة ، عن ثلاث وثلاثين سنة . وكانت خلافته أربع
سنتين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال . وصلى عليه عمه عيسى بن علي . ودفن في قصر الامارة من
الأبواب . وترك تسع جبات وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالة وثلاثة مطارف خز . وقد
ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردناه والله أعلم .

ومن توفى فيها من الأعيان السفاح كما تقدم ، وأشعث بن سوار ، وجعفر بن أبي ربيعة ، وحسين
ابن عبد الرحمن ، وزبيدة الراعى ، وزيد بن أسلم ، وعبد الملك بن عمير ، وعبد الله بن أبي جعفر ،
وعطاء بن السائب . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله الحمد .

خلافة أبي جعفر المنصور

واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

قد تقدم أنه لما مات السفاح كان في الجباز قبل موته وهو بذات عرق راجعا من الحج ، وكان
معه أبو مسلم الخراساني ، فمجل السير وعزاد أبو مسلم في أخيه ، فبكى المنصور عند ذلك ، فقال له :
أتبكي وقد جاءتك الخلافة ؟ أنا أكفيكها إن شاء الله . فسرى عنه ، وأمر زياد بن عبيد الله أن
يرجع إلى مكة واليا عليها ، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد الله بن معبد بن عباس فأقره
عليها . والنواب على أعمالهم حتى انساخت هذه السنة ، وقد كان عبد الله بن علي قدم على ابن
أخيه السفاح الأبواب فأمره على الصائفة ، فركب في جيوش عظيمة إلى بلاد الروم ، فلما كان ببعض
الطريق بلغه موت السفاح فمكر راجعا إلى حران ، ودعا إلى نفسه ، وزعم أن السفاح كان عهد إليه
حين بعثه إلى الشام أن يكون ولي العهد من بعده ، فالتفت عليه جيوش عظيمة ، وكان من أمره
ما سنده في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن علي ابن أخيه المنصور

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح ، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم

الجمعة وصلى بهم ، ثم ارتحل منها إلى الأنبار وقد أخذت له البيعة من أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام ، وقد ضبط عيسى بن علي بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم ، فسلم إليه الأمر ، وكتب إلى عمه عبد الله بن علي يعلمه بوفاة السفاج ، فلما بلغه الخبر نادى في الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الأمراء والناس ، فقرأ عليهم وفاة السفاج ، ثم قام فيهم خطيباً فذكر أن السفاج كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده ، وشهد له بذلك بعض أمراء العراق ، ونهضوا إليه فبايعوه ، ورجع إلى حران فتسلها من نائب المنصور بعد محاصرة أربدين ليلة ، وقتل مقاتل العسكى نائبها . فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن علي بخران ، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئاً كثيراً جداً ، فسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي ، فلما تحقق عبد الله قدوم أبي مسلم إليه خشى من جيش العراق أن لا يناصره ، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم ، فركب عبد الله بن علي فئزلاً نصيبين وخنندق حول عسكره ، وأقبل أبو مسلم فئزلاً ناحية وكتب إلى عبيد الله : إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما بعثني أمير المؤمنين واليا على الشام فأنا أريدها . تخاف جنود الشام من هذا الكلام فقالوا : إنا نخاف على ذرارينا وديارنا وأموالنا ، فنحن نذهب إليها نمنعهم منه . فقال عبد الله : ويحكم ! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا . فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام ، فتحول عبيد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام ، فمض أبو مسلم فئزلاً موضعه وغور ما حوله من المياه - وكان موضع عبيد الله الذي تحول منه موضعاً جيداً جداً - فاحتاج عبيد الله وأصحابه فئزلوا في موضع أبي مسلم فوجدوه منزلاً رديئاً ، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فحاربهم خمسة أشهر ، وكان على خيل عبيد الله أخوه عبد الصمد بن علي ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي . وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيم ، وقد جرت بينهم وقعات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات ، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول :

من كان ينوي أهله فلا رجع * فر من الموت وفي الموت وقع

وكان يعمل له عرش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى في جيشه من خلل أرسل فأصلحه . فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التوا فافتلوا قتلاً شديداً ، فكر بهم أبو مسلم ! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معه إلا القليل إلى الميسرة ، فلما رأى ذلك أهل الشام انمازوا إلى الميمنة بإزاء الميسرة التي تعمرت ، فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام لخطومهم ، فجاء أهل القلب

والمينة من الشاميين فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة : وانهمزم عبيد الله بن علي
بمسد تلوم ، واحتار أبو مسلم ما كان في معسكرهم ، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً ،
وكتب إلى المنصور بذلك ، فأرسل المنصور مولاة أبا الخصيب ليحصى ما وجدوا في معسكر عبيد الله ،
فغضب من ذلك أبو مسلم الخراساني . واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور ، ومضى عبيد الله بن
علي وأخوه عبيد الصمد على وجهيهما ، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبيد الصمد ، فلما رجع أبو الخصيب
بجسده بها فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأمن له
المنصور ، وقيل بل استأمن له إسماعيل بن علي . وأما عبيد الله بن علي فإنه ذهب إلى أخيه سليمان
ابن علي بالبصرة فأقام عنده زمناً مختفياً ، ثم علم به المنصور فبعث إليه فسجنه [في بيت بنى أسامة
على الملح ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبيد الله فمات . وهذه من بعض دواهي
المنصور والله سبحانه أعلم] ^(١) . فليث في السجن سبع سنين ثم سقط عليه في البيت الذي هو فيه
فمات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

مرسلات أبي مسلم الخراساني

في هذه السنة أيضاً لما فرغ أبو مسلم من الحج سبق الناس بمرحلة فجاءه خبر السفاح في الطريق
فكتب إلى أبي جعفر يعزیه في أخيه ولم يهنئه بالخلافة ، ولا رجع إليه . فغضب المنصور من ذلك
مع ما كان قد أضمر له من سوء إذا أفضت إليه الخلافة ، وقيل إن المنصور هو الذي كان قد تقدم
بين يدي الحج بمرحلة ، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبي مسلم يستعجله في السير كما
قدمنا . فقال لأبي أيوب : اكتب له كتاباً غليظاً ، فلما بلغه الكتاب أرسل يهنئه بالخلافة وانقطع
من ذلك . وقال بعض الأمراء للمنصور : إنا نرى أن لانجاءه في الطريق فإن معه من الجنود من
لا يخافه ، وهم له أهيب ، وعلى طاعته أحرص ، وليس معك أحد ، فأخذ المنصور برأيه ثم كان من
أمره في مبايعته لأبي جعفر ما ذكرنا ، ثم بعثه إلى عمه عبيد الله فكمسه كما تقدم ، وقد بعث في
غبن ذلك الحسن بن قحطبة لأبي أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بأن أبا مسلم منهم عند
أبي جعفر ، فإنه إذا جاءه كتاب منه يقرأه ثم يلوى شذقيه ويرمى بالكتاب إلى أبي نصر ويضحكان
استمراء ، فقال أبو أيوب : إن تهمة أبي مسلم عندنا أظهر من هذا . ولما بعث أبو جعفر مولاة أبا
الخصيب يقطن ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبيد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها ،
غضب أبو مسلم فشم أبا جعفر وهم بأبي الخصيب ، حتى قيل له : إنه رسول فتركه ورجع . فلما قدم
أخبر المنصور بما كان وبما هم به أبو مسلم من قتله ، فغضب المنصور وخشى أن يذهب أبو مسلم إلى

خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك ، وأن تحدث حوادث ، فكتب إليه مع يقطين إلى قد
وليتك الشام ومصر وهما خير من خراسان . فابعث إلى مصر من شدت وأقم أنت بالشام ،
لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين ، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً . فغضب أبو مسلم وقال : قد ولاني
الشام ومصر ، ولي ولاية خراسان ، فإذا أذهب إليها وأستخلف على الشام ومصر . فكتب إلى
المنصور بذلك فقلق المنصور من ذلك كثيراً . ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم
على مخالفة المنصور . فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه ،
فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان : إنه لم يبق لأمر المؤمنين عدو
إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت
الدماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة
غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت

إلا أن تعطى نفسك إراداتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل
والاهانة . فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم : قد فهمت كتابك وليست صفتك
صفة أولئك الوزراء المنشئة إلى ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما
راحتهم في تبديد نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعت بما
حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريعة التي أوجبت منك جميع ولا طاعة ،
وقد حل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة ليسكن إليها قلبك إن أصفيت إليها ، وأسأله
أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من هذا
ولا أقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك . ويقال إن أبا مسلم كتب إلى المنصور : أما بعد
فاني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نارلاً وفي قرابته من
رسول الله - قريباً ، فاستجلبني بالقرآن خرفه عن مواضع طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه ،
وكان كالذي دلى بنور ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع المرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقبل العثرة .
فعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يجهلكم ، وأطاعكم من كان عدوكم ، وأظهركم الله
بي بعد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استغفرتني الله بالتوبة . فان ينف عنى فقدم عرف به ونسب
إليه ، وإن يعاقبنى فما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد . ذكره المدائني عن شيوخه .

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله اليجلي - وقد كان أوحده أهل زمانه - في
جماعة من الأمراء ، وأمره أن يكلم أبا مسلم بالآتين كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون في جملة ما يكلمه به

انه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك ولاطلاقات لك ، فان جاء بهذا فذاك ، وإن أبى فقل هو برى من العباس إن شقت العصا وذهبت على وجهك ليسدركك بنفسه وليقاتلك دون غيره ، ولو خضت البحر انخضم لخاضه خلعتك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك . ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتى هي أحسن فلما قدم عليه أمراء المنصور يحملون دخلوا عليه ولاموه فيما هم به من منابذة أمير المؤمنين ، وما هو فيه من مخالفته ، ورغبوه فى الرجوع إلى الطاعة ، فشاور ذوي رأى من أمرائه فكلامهم نهاه عن الرجوع إليه ، وأشاروا بأن يقيم فى الرى فتكون خراسان تحت حكمه ، وجنوده طوعاً له ، فان استسلم له الخليفة وإلا كان فى عز ومنعة من الجند . فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم : ارجعوا إلى صاحبكم فليست ألقاه . فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذى كان المنصور أمرهم به . فلما سمع ذلك كسره جداً وقال قوموا عني الساعة .

وكان أبو مسلم قد استخاف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد ، فكتب إليه المنصور فى غيبة أبى مسلم حين اتهم : إن ولاية خراسان لك ما بقيت ، فقد وليتها وعزلت عنها أبا مسلم . فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبى مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة : إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام . فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم : إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به . فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعدته بضيافة العراق إن هو رده . فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له : ما وراك ؟ قال : رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك . ففره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة ، فاستشار أميراً يقال له نيزك ، فهناه ، فصمم على الذهاب ، فلما رآه نيزك عازماً على الذهاب تمثل بقول الشاعر : -
ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقسام

ثم قال له : احفظ عني واحدة . قال : وما هي ؟ قال : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فان الناس لا يخالفونك . وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدمه عليه . قال أبو أيوب كاتب الرسائل : فدخلت على المنصور وهو جالس فى خباء شعر جالس فى مصلاه بعد العصر ، وبين يديه كتاب فالتاه إلى فاذا هو كتاب أبى مسلم يعلمه بالتقدم عليه ، ثم قال الخليفة : والله لئن ملأت عيني منه لأقتله . قال أبو أيوب : فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون . وبت تلك الليلة لا يأتيني نوم : أفكر فى هذه الواقعة ، وقلت : إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والمصلحة تقتضى أن يدخل آمننا ليتمكن منه الخليفة . فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له : هل لك أن تتولى مدينة كسكر فانها مغللة فى هذه السنة ؟ فقال : ومن لى بذلك ؟ فقلت له : فاذهب إلى أبى مسلم فتأقاه فى الطريق فاطلب منه أن يوليكَ تلك البلد ، فان أمير المؤمنين يريد أن يولى ما وراء بابه

و يسرّح لنفسه . واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له ، وقال له : سلم عليه وقل له : إنا بالاشواق إليه . فسار ذلك الرجل - وهو سلمة بن فلان - ^(١) إلى أبي مسلم فأخبره بأشتياق الخليفة إليه ، فسرّه ذلك وانشرح ، وإنما هو غرور ومكر به ، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته ، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والامراء أن ينلقوه ، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم ، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد ، وقبل ذلك منه . فلما دخل أبو مسلم على المنصور من المشي أظهر له الكرامة والتعظيم ، ثم قال : اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإذا كان الغد فأتني . فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه ، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له : كيف بلائي عنك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها . قال : فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم ؟ قال : فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب : مالك لا تتكلم ؟ فقال : قوله ضعيفة : أقبله . ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله ، وقال لهم : كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه . ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلا تترى يتبع بعضها بعضاً ، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم ، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يماثبه في الذي صنع واحدة واحدة ، فيمتدح عن ذلك كله . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت علي . فقال المنصور : أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً عليك . ثم ضرب باحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولغوه في عباة ثم أمر باللقائه في دجلة ، وكان آخر العهد به ، وكان مقتله في يوم الأربعاء بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة .

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور أن قال : كتبت إلى مرات تبدأ بنفسك ، وأرسلت تخطب عمتي أمينة ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا وقد سمعت في أمركم بما علمه كل أحد . فقال : ويلك ! لو قامت في ذلك أمة سوداء لأثمه الله لجدنا وحيطتنا . ثم قال : والله لأقتلنك . فقال : استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك . فقال : وأي عدوى أعدى منك . ثم أمر بقتله كما تقدم : فقال له بعض الأمراء : يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة . ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك :

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرّ عيناً بالأيامير المسافر

وذكر ابن خلكان أن المنصور لما أراد قتل أبي مسلم تحير في أمره هل يستشير أحداً في ذلك أو يستبد هو به أشلاً يشيع وينشر ، ثم استشار واحداً من نصحاء أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين

(١) كذا بالأصلين . وفي الطبري : سلمة بن سعيد بن جابر .

قال الله تعالى [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا] فقال له : لقد أودعتها أذنًا واعية . ثم عزم على ذلك

زوجته زبيبة بنت أبي سلمة

هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس ، ويقال له أمير آل بيت رسول الله ص . ، وقال الخطيب : يقال له عبد الرحمن بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزي ، صاحب الدولة العباسية ، يروى عن أبي الزبير وثابت البناني وإبراهيم وعبد الله ابني محمد بن هلي بن عبد الله بن عباس ، زاد ابن عساكر في شيوخه محمد بن علي وعبد الرحمن بن حرملة وعكرمة مولى ابن عباس . قال ابن عساكر : روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وبشر والد مصعب بن بشر ، وعبد الله بن شهرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزي وقديد بن منيع صهر أبي مسلم . قال الخطيب : وكان أبو مسلم فاتكا ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ، قتله أبو جعفر المنصور بالمداين . وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصفهان : كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ، قيل إنه ولد بأصفهان ، وروى عن السدي وغيره ، وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس ابن حوذون ، من ولد بزر جهر ، وكان يكنى أبا إسحاق ، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى ابن موسى السراج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له : غير اسمك وكنيتك . فسمى عبد الرحمن بن مسلم ، واكتنى بأبي مسلم ، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكبا على حمار با كاف ، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة ، فدخل خراسان وهو كذلك ، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمته وحذاقها ، وذكر أنه في ذهابه إليها عدا رجل من بعض الخانات فقطع ذنب حماره ، فلما تمكن أبو مسلم جعل ذلك المكان دكا فكان بعد ذلك خراباً . وذكر بعضهم أنه أصابه سبي في صفرة وأنه اشتراه بمض دعة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم إن إبراهيم بن محمد الإمام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم إسماعيل الطائي ، أحد دعايمهم ، لما بعثه إلى خراسان ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقت ، ووطمة لم تعقب .

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة ، وكيف نشر دعوة بني العباس ، وقد كان ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور . وقد روى ابن عساکر بأسناده أن رجلاً قام إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد الذي أرى عليك ؟ فقال : حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله « أن رسول الله ص . دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء » . وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة . يا غلام اضرب عنقه . وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله

س : « من أراد هوان قريش أهانه الله » . وقد كان إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة ، وكان يعمده إذا ظهر أن يقيم الحدود ، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم ابن ميمون في القيام بما وعده به حتى أخرج ، فأمر بضرب عنقه ، وقال له : لم لا كنت تنسرك على نصر بن سيار وهو يعمل أو أتي الخمر من الذهب فيبيعها إلى بني أمية ؟ فقال له : إن أولئك لم يقرّبوني من أنفسهم ويعدوني منها ما وعدتني أنت . وقد رأى بعضهم لإبراهيم بن ميمون هذا منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانه كان آمراً ناهياً قائماً في ذلك ، فقتله أبو مسلم رحمه الله .

وقد ذكرنا طاعة أبي مسلم للسفاح واعتناؤه بأمره وامتناله مراسيمه ، فلما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحتقره ، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره واستنقذ منه الشام وردّها إلى حكم المنصور . ثم شتمت نفسه على المنصور وهم بقتله ، فظن لذلك المنصور مع ما كان مبطناً له من البغضة ، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه ، فلما تولى المنصور ما زال يماكره ويخادعه حتى قدم عليه فقتله . قال بعضهم : كتب المنصور إلى أبي مسلم أما بعد فانه يرين على القلوب ويطيع عليها المعاصي ، فع أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مفرور بأضغاث أحلام كاذبة ، في برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سواف القرون [هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا] وإن الله لا ينجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تغتر بمن معك من شيعة وأهل دعوتي ، فيكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدالك من الله ما لم تكن تحسب ، مهلاً ، احذر البني أبا مسلم فانه من بني واعتدى نخلي الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين قد خلوا من قبلك ، ومثله لمن يأتي بعدك ، فقد قامت الحاجة وأعذرت إليك ، وإلى أهل طاعتي فيك . قال تعالى [واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين]

فأجابه أبو مسلم : أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً ، وعن الحق حائداً إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إلى فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، وما يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وإني والله ما انسلخت من آيات الله ، وليكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متدينيناً أحسبني هادياً مهتدياً ، وأخطأت في التأويل وقدماً في الخطأ المتأولون ، وقد قال تعالى [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على

نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم [وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانتكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم . ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستغفرتني بالتوبة ، فإن يوف غني ويصنع فانه كان للأوابين غفورا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

فكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، فإن أخى كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخى اقتديت لما كنت عن الحق حائلاً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسمع لك أمران إلا كنت لأرشدتهما تاركا ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطلش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبرى أيها الفاسق أنى قد وليت موسى ابن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بليسا بور ، فإن أردت خراسان لتيك بمن معه من قوادى وشيعى ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل .

ولم يزل المنصور يرسله تارة بالرغبة وتارة بالرهبة ، ويستخف أحلام من حوله من الأمراء والزسل الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويمدحهم ، حتى حسنوا لأبى مسلم في رأيه القدوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك ، فانه لم يوافق على ذلك ، فلما رأى أبا مسلم وقد انطاع لهم أنشد عند ذلك البيت المتقدم ، وهو : مالم رجال مع القضاء محالة • ذهب القضاء بحيلة الأتوام

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك ، فانه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة ، فلما وصل إلا آخر النهار ، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل أن لا يقتله يومه هذا كما تقدم [فلما وقف بين يدى الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه ، وقال : اذهب الليلة فأذهب عنك وعشاء السفر ثم التنى من الغد .] ^(١) فلما كان الندأرصد له من الأمراء من يقتله ، منهم عثمان بن نهيك ، وشبيب بن وارج ، فقتلوه كما تقدم . ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الاكرام والاحترام ، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به ، وقال : إني أخافه على نفسى ، فقال : لا بأس عليك فانطلق فاني آت وراك ، أت في ذمتى حتى آتيك ، - ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة - فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له : اجلس ههنا فان أمير المؤمنين يتوضأ ، فجلس وهو يود أن يطول مجلسه ليحسب عيسى بن موسى فأبطأ ، وأذن له الخليفة

(١) زيادة من المعرية .

فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً ، حتى قال له : فلم قتلتي سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمرى . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ وصدق بيديته وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله . ، فتبادروا إليه ليقنلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه : فقال : يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك ، فقال : وأى عدوى أعدى منك . ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولغوه في عباءة ، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا أبو مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له المنصور : الحمد لله الذي هجمت على نعمة ، ولم تهجم على نعمة ، ففي ذلك يقول أبو دلالة : -

أبا مسلم ما غيّر الله نعمة * على عبده حتى يغيرها العبد

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى * عليك بما خوفتني الأسد الورد

وذكر ابن جرير أن المنصور تقدم إلى عثمان بن نهيك وشبيب بن واثق وأبي عذينة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريباً منه ، فإذا دخل عليه أبو مسلم وخاطبه وضرب بأحدى يديه على الأخرى فليقتلوه . فلما دخل عليه أبو مسلم قال له المنصور : ما فعل السيفان اللذان أصبتكما من عبد الله بن علي ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال : أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له : ما حملك على أن تكتب لأبي عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : إني ظننت أن أخنسه لا يحل ، فلما جاءني كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم . قال : فلم تقدمت على في طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت التماس الرفق . قال : فلم لا رجعت إلى حين أمالك خبر موت أبي العباس ؟ قال : كرهت التضيق على الناس في طريق الحج ، وعرفت أنا منجتمع بالكوفة ، وليس عليك مني خلاف . قال : فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ! ولكن خفت أن تضيق لحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها . ثم قال له : ألسنت الكاتب إلى تبدأ بنفسك والكاتب إلى تخطب آمنة بنت علي ؟ ونزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ هذا كاه ويد المنصور في يده يمر كاهاً ويقبلها ويعتذر ، ثم قال له : فما حملك على مراغمتي ودخولك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون دخلك مني شيء فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بمذري . قال : فلم قتلتي سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافي . فقال : ويحك وأنت أردت خلافي وعصيتني ، قتلني الله إن لم أقتلك . ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليه أولئك فضربه عثمان فقطع حمائل سيفه ، وضربه شبيب فقطع رجله ، وحمل عليه بقتلهم بالسيوف ، والمنصور يصيح : ويحكم اضربوه قطع الله أيديكم . ثم ذهبوه

وقطعوه قطعاً قطعاً ، ثم ألقى في دجلة . ويروي أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بآيتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفيناك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمتنا عليك حكمتك على نفسك لنا . ويقال إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله . قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك : —

زعمت أن الدين لا يقتضى * فاستوفى بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها * أمر في الخلق من العقيم

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : أيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتعمل بكم النعم ، ولا تفسروا غش الأئمة فان أحدا لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وطوالع نظره وإنا لن نجعل حقوقكم ما عرقتم حقنا ، ولا نلبي الا حسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميص أو طائفاً من رأسه ، حتى يستقيم رجالكم ، وترتدع عمالكم . وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من ذكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر وفجر وكفر ، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء منتهياً ، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا . ورجح قبيلح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو علم اللأم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله ، وعذفنا في إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمتنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان - يعني ابن المنذر :-

فمن أطاعك فانعمه بطاعته * كما أطاعك واقهر على الرشد
ومن عصاك فمأقبة معاقبة * تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمير

وقد روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه ، قد أنهمهم بعضهم على الاسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أرفأ ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه ، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره .

وقد روى الخطيب عنه أنه قال : ارتدبت الصبر ، وآثرت الكفاف ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وشاخنت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتي ، وأدركت نهاية بعيتي . ثم أنشأ يقول :

قد نلت بالعزم والكتان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أضربهم بالسيف فانتقموا * من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
وطفت أسعى عليهم في ديارهم * والقوم في ملكهم في الشام قد رقدوا
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقد كان قتل أبي مسلم بالمدين يوم الأربعاء لسبع خلون ، وقيل لخمس بقين ، وقيل لأربع ،
وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة - أعني سنة سبع وثلاثين ومائة - قال بعضهم : كان
ابتداء ظهوره في رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة .
وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين ، وهذا غلط من قائله ، فإن ببغداد لم تكن بذيت بعد
كما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ، ورد هذا القول .

ثم إن المنصور شرع في تأليف أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرهبة والولايات ، واستدعى
أبا إسحاق - وكان من أعز أصحاب أبي مسلم - وكان على شرطة أبي مسلم ، وهم بضرب عنقه فقتل : يا أمير
المؤمنين والله ما أمنت قط إلا في هذا اليوم ، وما من يوم كنت أدخل عليك إلا تمنعت ولبست
كفني . ثم كشف عن ثيابه التي تلي جسده فإذا هو محنط وعليه أذراع أكفان ، فرق له المنصور وأطلقه
وذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتماطله لأجل دولة بني العباس ستائة ألف
صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك . وقد قال للمنصور وهو يعاتبه على ما كان يصنعه : يا أمير المؤمنين
لا يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني . فقال له : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأجزأت
فاحيتها ، إنما عملت ما عملت بدولتنا وبريحتنا ، لو كان ذلك إليك لما وصلت إلى فنيل . ولما قتله
المنصور لف في كساء وهو مقطع إرباً إرباً ، فدخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم ؟
قال : قد كان هاهنا آنفاً . فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى إبراهيم الإمام
فيه . فقال له : يا أنوك والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، هاهو ذاك في البساط . فقال :
إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر
أو نهى مع أبي مسلم ؟ ثم استدعى المنصور برؤس الأمراء فجعل مستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن
يصلوا بقتله ، فكلهم يشير بقتله ، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا ينقل إليه ،
فلما أطلعتهم على قتله أفرغهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً . ثم خطب المنصور الناس بذلك كما تقدم .
ثم كتب المنصور إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصده بكتاب على لسان أبي مسلم أن
يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر ، وختم السكتاب بخاتم أبي مسلم
بكاله ، مطبوعاً بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب في الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى

خازنه أنه إذا جاءك كتابي فإن رأيته مخنوماً بنصف الفص فامض لما فيه ، فاني إنما أختم بنصف فصه على كني ، وإذا جاءك الكتاب مخنوماً عليه بكلمة فلا تقبل ولا تفض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور ، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن ، وكتب المنصور إلى أبي داود إبراهيم بن خالد بأمره خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم .

وفي هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبي مسلم ، وقد كان سنباذ هذا بجوسياً تغلب على قومس وأصبهان ، ويسمى بغيروز أصبهيد ، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً هم عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار المجلي . فالتقوا بين همدان والري بالمغازة ، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم ، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً . وأخذ ما كان استحوذ عليه من أموال أبي مسلم التي كانت بالري . وخرج في هذه السنة أيضاً رجل يقال له ملبد [بن حرمة الشيباني] في ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز إليه المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تنفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة ، فهزمه ملبد وتمصن منه حميد في بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وتقلع عنه .

وحج بالناس في هذه السنة عم الخليفة اسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس قاله الواقدي . وكان نائب الموصل - يعني عم المنصور - وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة سليمان ابن علي ، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة ، وعلى مصر صالح بن علي ، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم ابن خالد ، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله . ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل الخليفة بسنباذ وغيره . ومن مشاهير من توفي فيها أبو مسلم الخراساني كما تقدم ، ويزيد بن أبي زياد أحد من تكلم فيه كما ذكرناه في التكميل ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة .

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عن قدر عليه من مقاتلتها . وفيها غزا الصائفة صالح بن علي نائب مصر ، فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية ، وأطلق لأخيه عيسى بن علي أربعين ألف دينار ، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن علي أربعين ألف دينار . وفيها بايع عبد الله بن علي الذي كسره أبو مسلم وانهزم إلى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن علي ، حتى بايع للخليفة في هذه السنة ورجع إلى طاعته . ولكن حبس في سجن بغداد كما سيأتي . وفيها خلع جهور بن مرار المجلي الخليفة المنصور بعد ما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وعلى أموال أبي مسلم ، فقويت نفسه بذلك وظن أنه لا يقدر عليه بعد ، فأرسل إليه

الخليفة عهد بن الأشعث الخزاعي في جيش كثيف فاقتلوا قتالا شديداً ، فهزم جهور وقتل عامة من معه ، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل والذخائر ، ثم لحقوه فقتلوه . وفيها قتل الملبد الخارجي على يدي خازم بن خزيمه في ثمانية آلاف ، وقتل من أصحاب الملبد ما يزيد على ألف وانهمزم بقيتهم . قال الواقدي : وحج بالناس فيها الفضل بن علي ، والنواب فيها هم المذكورون بالتى قبلها

ومن توفي فيها من الأعيان زيد بن واقد ، والملاء بن عبد الرحمن ، وليث بن أبي سليم في قول ، وفيها كانت خلافة الداخل من بني أمية إلى ملاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الهاشمي . قلت : ليس هو بهاشمي إنما هو من بني أمية ويسمى أمويًا ، كان قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبيد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاجتاز بمن معه من أصحابه الذين فروا معه يقوم يقتتلون على عصبية البجائية والمضرية ، فبعث مولاة بدرأ إليهم فاستألمهم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الأندلس واستحوز عليها وانزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع النهري وقتله . وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد من هذه السنة إلى سنة ثنتين وسبعين ومائة . فتوفي فيها وله في الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر . ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهرًا . ثم مات فولي بعده الحكم بن هشام ستا وعشرين سنة وأشهرًا ثم مات . ثم ولي بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثا وثلاثين سنة ثم مات . ثم ولي بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستا وعشرين سنة . ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد بن المنذر . وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر ، ثم زالت تلك الدولة كما سذكركم من زوال تلك السنون وأهلها وما قضوا فيها من النعيم والعيش الرغيد والنساء الحسان ثم انقضت تلك السنوات وأهلها كأنهم على ميعاد ، ثم أضحوا كأنهم ورق جف ألوت عليه الصبا والذبول

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة فيها أكل صالح بن علي بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث ، فوغل في بلاد الروم ، وغزا معه أخته أم عيسى ولبانة ابتغا على ، وكانتا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن يجاهدا في سبيل الله عز وجل . وفيها كان الفداء الذي حصل بين المنصور وبين ملك الروم ، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة في هذه السنة إلى سنة ست وأربعين ، وذلك لاشتغال المنصور بأمر ابني عبد الله بن حسن كما سذكركم . ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الامام سنة أربعين فله أعلم .

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام ، وكانت هذه السنة خصبة جداً - أي كثيرة الخصب فكان

يقال لها السنة الخصبية - وقيل إنما كان ذلك في سنة أربعين . وفيها عزل المنصور عمه سليمان عن إمرة البصرة ، فاختلف عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة ، وهو سفيان بن معاوية ، يستحثه في إحضار عبد الله بن علي إليه ، فبعثه في أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن علي عمه ، وبعث بقية أصحابه إلى أبي داود نائب خراسان فقتلهم هناك وحجج بالناس فيها العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي عمرو بن مجاهد ، وبزيد بن عبد الله بن الهاد ، ويونس بن عبيد ، أحد العباد وصاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فيها ثار جماعة من الجند على أبي داود نائب خراسان ، وحاصروا داره ، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بمجنده ليحضروا إليه ، واتكأ على آجرة في الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره . فمات ، فخلفه على خراسان عاصم ، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير من جهة الخليفة عليها ، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، فتسلم بلاد خراسان ، وقتل جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب ، وحبس آخرين ، وأخذ نواب أبي داود بمجباية الأموال المنكسرة عندهم .

وفيها حجج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة ، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره ، ثم سلك الشام إلى الرقة ، ثم سار إلى الهاشمية - هاشمية الكوفة - ونواب الأقاليم المذكورون في التي قبلها ، سوى خراسان فإنه مات نائبها أبو داود ، فخلفه مكانه عبد الجبار الأزدي . وفيها توفي داود بن أبي هند ، وأبو حازم سلمة بن دينار ، وسهيل بن أبي صالح ، وعمار بن غزية بن قيس السكوني .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

فيها خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور . ذكر ابن جرير عن المدائني أن أصلهم من خراسان ، وهم على رأي أبي مسلم الخراساني ، كانوا يقولون بالتناسخ ، ويؤمنون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويستقيهم أبو جعفر المنصور . وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، قبضهم الله .

قال ابن جرير : فأتوا يوماً قصر المنصور فحملوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فنضبوا من ذلك وقالوا : علام تحبسهم ؟ ثم عمدوا إلى نيش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد ، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة ، واجتازوا بباب السجن ، فألقوا النيش ودخلوا السجن قهراً واستخرجوا من فيه من أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور

وهم في سبائة ، فتنادى الناس وغلقت أبواب البلد ، وخرج المنصور من القصر ماشياً ، لأنه لم يجد دابة يركبها ، ثم جرى بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية ، وجاء معن بن زائدة ، فلما رأى المنصور ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور ، وقال : يا أمير المؤمنين أرجع ! نحن نكفيناكم . فأبى وقام أهل الأسواق إليهم فقاتلهم ، وجاءت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فحصدوم عن آخرهم ، ولم يبق منهم بقية . وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه ، فرض أياماً ثم مات ، فصلى عليه الخليفة ، وقام على قبره حتى دفن ودعاه ، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس ، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر في آخر وقتها ، ثم أتى بالطعام فقال أين معن بن زائدة ؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذ في شكره لمن يحضرته لما رأى من شهامته يومئذ . فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإني لوجل ، فلما رأيت استنهايتك بهم وإقدامك عليهم قوى قلبي وأطمأن ، وما ظننت أن أحداً يكون في الحرب هكذا ، فذاك الذي شجعتني يا أمير المؤمنين . فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضى عنه وولاه اليمن . وكان معن بن زائدة قبل ذلك مخفياً ، لأنه قاتل المسودة مع ابن هبيرة ، فلم يظهر إلا في هذا اليوم . فلما رأى الخليفة صدقه في قتاله رضى عنه . ويقال : إن المنصور قال عن نفسه : أخطأت في ثلاث : قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة ، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً . وهذا من حزمه وصرامته .

وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً المهدى من بعده ودعاه بالمهدى وولاه بلاد خراسان وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة ، فشكاه المنصور إلى أبي أيوب كاتب الرسائل فقال : يا أمير المؤمنين أكتب إليه ليمت جيشاً كثيفاً من خراسان إلى غزو الروم ، فإذا خرجوا بعثت إليه من شئت فأخرجوه من بلاد خراسان ذليلاً . فكتب إليه المنصور بذلك ، فرد الجواب بأن بلاد خراسان قد طاشت بها الأتراك ، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها . فقال المنصور لأبي أيوب : ماذا ترى ؟ قال : فكتب إليه : إن بلاد خراسان أحق بالمدد لثغور المسلمين من غيرها ، وقد جهزت إليك بالجنود . فكتب إليه أيضاً : إن بلاد خراسان ضيقة في هذا العام أقواتها ، ومتى دخلها جيش أفسدها . فقال الخليفة لأبي أيوب : ما تقول ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره . فحينئذ بعث المنصور ابنه محمداً المهدى ليقم بالرى ، فبعث المهدى بين يديه خازم بن خزيمه مقدسة إلى عبد الجبار ، فزال به بخدعه ومن معه حتى هرب من معه وأخذوه هو فأركبوه بعيراً محولاً وجهه إلى ناحية ذنب البعير . وسيره كذلك

في البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله ، ففرض المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه إلى جزيرة في طرف اليمن ، فأمرتهم الهند بمسد ذلك ، ثم فودى بعضهم بمسد ذلك . واستقر المهدي نائباً على خراسان ، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان ، وأن يحارب الأصهبند بن معه من الجنود وأمدّه بجيش عليهم عمر بن العلاء ، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

قلّ للخليفة إن جنته * نصيحاً ولا خير في المنهم

إذا أيقظتك حروب العدى * فنبّة لها محرّآ ثم ثم

فتى لا ينام على دمنه * ولا يشرب الماء إلا بدم

فلما توافقت الجيوش على طبرستان فتحوها وحاصروا الأصهبند حتى ألجؤه إلى قلعته فصالحهم على ما فيها من الدخائر ، وكتب المهدي إلى أبيه بذلك ، ودخل الأصهبند بلاد الديلم فأت هناك . وكسروا أيضاً ملك الترك الذي يقال له المصمغان ، وأسروا أمما من الذراري ، فهذا فتح طبرستان الأول . وفيها فرغ بناء المصيصة على يدي جبريل بن يحيى الخراساني ، وفيها رابط محمد بن إبراهيم الامام ببلاد ملطية . وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد القسري وقدمها في رجب . وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العمكي . وفيها توفي موسى بن كعب وهو على شرطة المنصور . وعلى مصر من كان عليها في السنة الماضية ، ثم ولى مصر محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات . وحج بالناس فيها صالح بن علي وهو نائب قلسرين وحص ودمشق ، وبقية البلاد عليها من ذكرنا في التي قبلها والله أعلم .

وفيها توفي أبان بن تغلب ، وموسى بن عقبة ، صاحب المغازي ، وأبو إسحاق الشيباني في قول والله سبحانه أعلم . ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة

فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة ، فجهز إليه العساكر محبة عمر بن حفص ابن أبي صفرة ، وولاه السند والهند ، فخاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه . وفيها نكث أصهبند طبرستان العهد الذي كان بينه وبين المسلمين ، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان ، فجهز إليه الخليفة الجيوش محبة خازم بن خزيمه ، وروح بن حاتم ، ومعهم مرزوق أبو الحصيب ، مولى المنصور ، فحاصروه مدة طويلة ، فلما أعيام فتح الحصن الذي هو فيه احتالوا عليه ، وذلك أن أبا الحصيب قال : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ، ففعلوا ذلك ، فذهب إليه كأنه مفاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته ، فدخل الحصن ففرح به الأصهبند وأكرمه وقربه ، وجعل أبو الحصيب يظهر له النصيح والخدمة حتى خدعه ، وحظى عنده جدا وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه ، فلما تمكن من ذلك كاتب المسلمين وأعلمهم أنه في الليلة الفلانية يفتح لهم ، فاقتربوا من الباب حتى

أفتحه لكم ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامتص الأصمهبند خاتماً مسموماً فبات . وكان فيمن أسروا يومئذ أم منصور بن المهدي ، وأم إبراهيم ابن المهدي ، وكانتا من بنات الملوك الحسان .

وفيها بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التي يصلون عندها بالجبان ، وتولى بناءها سلمة بن سعيد ابن حابر نائب الفرات والأبلة . وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد في ذاب المصلى . وفيها عزل المنصور نوفل بن الفرات عن إمرة مصر وولى عليها حميد بن قحطبة . وحج بالناس فيها إسماعيل بن علي . وفيها توفي سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة . كان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وهو ابن تسع وخمسين سنة ، وصلى عليه أخوه عبد الصمد . روى عن أبيه وعكرمة وأبي بردة بن أبي موسى . وعنه جماعة منهم بنوه جعفر ، ومحمد ، وزيلب والأصمى . وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب في ذلك السن ، وكان كريماً جواداً ممدحاً . كان يمتق عشية عرفة في كل سنة مائة نسمة ، وبلغت صلاته ابني هاشم وسائر قریش والألصار خمسة آلاف ألف واطلع يوماً من قصره فرأى نسوة يفرزن في دار من دور البصرة ، فاتفق في نظره هذا اليهن أن قالت واحدة منهن : لو أن الأمير نظر إلينا واطلع على حالنا فأغنانا عن الفزل ؟ فنهض من فوره فجعل يدور في قصره ويجمع من حلى نسائه من الذهب والجواهر وغيرها ما ملأ به منديلاً كبيراً ، ثم دلاه إليهن ونثر عليهن من الدنانير والدرهم شيئاً كثيراً ، فانت إحداهن من شدة الفرح ، فأعطى ديتها وما تركته من ذلك لورثتها . وقد ولى الحج في أيام السفاح ، وولى البصرة أيام المنصور ، وكان من خيار بني العباس ، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد ، وهو عم السفاح والمنصور .

ومن توفي فيها من الأعيان خالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، وعمر بن عبيد القدرى في قول . وهو عمرو بن عبيد بن ثوبان ، ويقال ابن كيسان ، التيمى مولام أبو عثمان البصرى ، من أبناء فارس ، شيخ القدرية والمرتلة . روى الحديث عن الحسن البصرى وعبيد الله بن أنس ، وأبي العالية وأبي قلابة ، وعنه الحادان وسفيان بن عيينة والأعمش . وكان من أقرانه . وعبد الوارث ابن سعيد ، وهارون بن موسى ، ويحيى القطان ، ويزيد بن زريع . قال الامام أحمد بن حنبل : ليس بأهل أن يحدث عنه . وقال علي بن المدينى ويحيى بن معين : ليس بشيء ، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة . كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدي لا يحدث عنه . وقال أبو حاتم : متروك . وقال النسائي ليس بثقة . وقال شعبة عن يونس بن عبيد : كان عمرو بن عبيد يكتب في الحديث .

وقال حماد بن سلمة : قال لي حميد : لا تأخذ عنه فإنه كان يكذب على الحسن البصري . وكذا قال
أبوب وعوف وابن عون . وقال أبوب : ما كنت أعده عقلا ، وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه
في شيء . وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر . وقد ضعفه غير واحد من
أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته ورهده وتشفه . قال الحسن البصري : هذا سيد
شباب القراء ما لم يحدث . قالوا : فأحدث والله أشد الحديث . وقال ابن حبان : كان من أهل الورع
والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة ، وكان يشتم
الصحابة ويكذب في الحديث ، وهما لا يعمدا . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت تبت يدا أبي لهب
في اللوح المحفوظ فما نعد منه على ابن آدم حجة . وروى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق
المصدوق « أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما » حتى قال : « فيؤمر بأربع كلمات ، رزقه
وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » إلى آخره . فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ، ولو سمعته
من زيد بن وهب لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله رس .
لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ما على هذا أخذت علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ،
لأنه الله إن كان قال هذا . وإذا كان مكذوبا عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه وقد قال عبد الله
ابن المبارك رحمه الله :

أيتها الطالبُ علماً * إيتِ حمادَ بنَ زيدٍ * نغزِ العلمَ بحلمٍ * ثمَّ قيدهُ بقيدٍ
وذُرِ البدعةُ من * آثارِ عمرو بنِ عبَّيدٍ

وقال ابن عسدي : كان عمرو يفر الناس تشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جدا ، معلن
بالبدع . وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادي : جالس الحسن واشتهر بصحبته
ثم أزاله [واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه ، واعتزل أصحاب الحديث ،
وكان له سميت وإظهار زهد . وقد قيل : إنه ^(١) وواصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين ، وحكى البخاري
أن عمراً مات سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة ، وقد كان عمرو محظياً عند أبي
جعفر المنصور ، كان المنصور يحبه ويعظمه لأنه كان يفد على المنصور مع القراء فيعطاهم المنصور
فيأخذون ، ولا يأخذ عمرو منه شيئاً ، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه ، فكان
ذلك مما يفر المنصور ويروج به عليه حاله ، لأن المنصور كان بخيلاً وكان يعجبه ذلك منه وينشد :

كلكم يشي رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبَّيد

ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبَّيد ،

والزهد لا يدل على صلاح ، فان بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين في زمانه . وقد روينا عن إسماعيل بن خالد القعنبي قال : رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بهبادان فقال لي : أيوب ويونس وابن عون في الجنة . قلت : فعمر وبن عبيد ؟ قال : في النار . ثم رآه مرة ثانية وروى ثالثة ، فيسأله فيقول له مثل ذلك . وقد رؤيت له منامات قبيحة ، وقد أطل شيخنا في تهذيبه في ترجمته وخلصنا حاصلها في كتابنا التكميل ، وأشرنا ههنا إلى نبت من خاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقا ، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً فليذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها . وفيها توفي حجاج الصواف ، وحيد بن ربيعة الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمي ، وقد ذكرناه في التي قبلها ، وعمرو بن عبيد في قول ، وليث بن أبي سليم على الصحيح . ويحيى بن سعيد الأنصاري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة

فيها سار محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة واسط والموصل والجزيرة . وفيها قدم محمد بن جعفر المنصور المهدي على أبيه من بلاد خراسان ودخل بابنة عمه رابطة بنت السفاح بالحيرة . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الحيرة والعسكر خازم بن خزيمه ، وولى رباح بن عثمان المزني المدينة وعزل عنها محمد بن خالد القسري ، وتلقى الناس أبا جعفر المنصور إلى أثناء طريق مكة في حجة في سنة أربع وأربعين ومائة . وكان في جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، فأجلسه المنصور معه على السباط ، ثم جعل يحادثه باقبال زائد بحيث إن المنصور اشتغل بذلك عن عامة غدائه ، وسأله عن ابنه إبراهيم ومحمد لم لا جآآني مع الناس ؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدرى أين صار من أرض الله . وصدق في ذلك ، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان ، وكان في جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور ، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً .

وذلك لأن المنصور توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجاه عليه كما أرادا أن يخرجاه على مروان ، والذي توهم منه المنصور وقع فيه ، فذهب هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن ، ثم سارا إلى الهند فاختفيا

بها ، فدل على مكانتهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر ، فاستبدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما ، ثم كذلك . وانتصب إلباً عليهما عند المنصور . والمعجب منه أنه من أتباعهما . واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يفتق له ذلك ، وإلى الآن . فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدرى أين صارا من أرض الله ، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال : والله لو كنا تحت قدمي ما دلتك عليهما . فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله ، فلبث في السجن ثلاث سنين ، وأشاروا على المنصور بحبس بنى حسن عن آخرهم فحبسهم ، وجد في طلب إبراهيم ومحمد جدا ، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين ويكنان في المدينة في غالب الأوقات ، ولا يشعر بهما من يتم عليهما والله الحمد . والمنصور يعزل نائبا عن المدينة ويولى عليهما غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما ، وبذل الأموال في طلبهما ، وتمجزه المقابر عنهما لما يريد الله عز وجل .

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان ، فمزوا في بعض الحفلات على الفتك بالمنصور بين الصفا والمروة ، فنهاهم عبد الله بن حسن لشرف البقعة . وقد اطاع المنصور على ذلك وعلم بما مالا هما ذلك الأمير ، فعذبه حتى أقر بما كانوا يمالؤا عليه من الفتك به . فقال : وما الذي صرفكم عن ذلك ؟ فقال : عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك ، فأمر به الخليفة فغيب في الأرض فلم يظهر حتى الآن . وقد استشار المنصور من يعلم من أمراءه ووزرائه من ذوى رأى في أمر ابنى عبد الله بن حسن ، وبعث الجواسيس والقصاد في البلاد فلم يقع لهما على خبر ، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر ، والله غالب على أمره . وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه ! إني قد شفت على أبي وعموتي ، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي . فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها ، فقالوا : لا ولا كرامة ، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً ، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله إن شاء فرج عنا ، وإن شاء ضيق . وتمالؤا كلهم على ذلك رحمهم الله .

وفيهما نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود ، وفي أعناقهم الأغلال . وكان ابتداء تقييدهم من الرتبة بأمر أبي جعفر المنصور ، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وقد حملت قريباً ، فاستحضره الخليفة وقال : قد حلفت بالعناق والطلاق إنك لم تثنى ، وهذه ابنتك حامل ، فإن كان من زوجها فقد حبست منه وأنت تعلم به ، وإن كان من غيره فأنت دبرث . فأجابته العثماني بحجاب أحفظه به ، فأمر به فجردت عنه ثيابه فاذا جسمه مثل الفضة النقية ، ثم

ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطاً ، منها ثلاثون فوق رأسه ، أصاب أحدها عينه فسالت ، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقة الضرب ، وتراكم الدماء فوق جلده ، فأجلس إلى جانب أخيه لأنه عبد الله بن حسن ، فاستسقى ماءً فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلّوزة الموكلين بهم . ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة ، وعليهم الفيود والأغلال ، فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه ، فناداه عبد الله بن حسن : والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسرائكم يوم بدر ، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر عنهم . ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية ، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وكان جميلاً فتياً ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى حسنه وجهه . وكان يقال له : الديباج الأصفر ، فأحضره المنصور بين يديه وقال له : أما لاقتلتك قتلة ما قتلتها أحداً . ثم ألقاه بين أسطوانتين وسد عليه حتى مات . فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته . وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور على ما سنده . فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وقد قيل والأظهر أنه قتل صبراً ، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما ، وقل من خرج منهم من الحبس ، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذاناً ، ولا يرفعون فيه وقت صلاة إلا بالآلوة ، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العثماني ، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان ، لا جزاء الله خيراً ، ورحم الله محمد بن عبد الله العثماني .

وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي رحمه الله ، أبو عبد الله المدني المعروف بالديباج ، لحسن وجهه . وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي ، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجه بن زيد وطاوس وأبي الزناد والزهرى ونافع وغيرهم ، وحدث عنه جماعة ، وثقه النسائي وابن حبان ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأنه ، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله ، وكانت من أحسن النساء ، وبسببها قتله أبو جعفر المنصور في هذه السنة . وكان كريماً جواداً ممدحاً . قال الزبير بن بكار : أنشدني سليمان بن عباس السعدي لأبي وجرة السعدي يمدحه .

وجدنا الخضر الأبيض من قريش * فتى بين الخليفة والرسول
أماك المجد من هنا وهناك * وكنت له بمعلج السيول
فما للمجد دونك من مبيت * وما للمجد دونك من مقيل
ولا يمضي وراءك يبتغيه * ولا هو قابل بك من بديل

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

فما كان فيها من الأحداث مخرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة ،

على ما سنبينه إن شاء الله . أما محمد فانه خرج على أثر ذهاب أبي جعفر المنصور بأهله إلى بني حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والنعمة الذي تقدم ذكره ، وسجنهم في مكان ساء مستقراً ومقاماً ، لا يسمعون فيه أذاناً ولا يعرفون فيه دخول أوقات صلوات إلا بالأذكار والتلاوة . وقد مات أكثر أكابرهم هنالك رحمهم الله . هذا كله ومحمد الذي يطلبه مخنف بالمدينة ، حتى أنه في بعض الأحيان اختفى في بئر نزل في مائه كله إلا رأسه ، وبأقيه مذمور بالماء ، وقد تواعد هو وأخوه وقتناً معينا يظهران فيه ، هو بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، ولم يزل الناس - أهل المدينة وغيرهم - يؤنبون محمد بن عبد الله في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج ، وذلك لما أضرب به شدة الاختفاء وكثرة إلحاح رياح نائب المدينة في طلبه ليلًا ونهاراً ، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور في الليلة الفلانية ، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولى المدينة فأعلمه بذلك ، فضاق ذرعاً وانزعج لذلك انزعاجاً شديداً ، وركب في جحافل فطاف بالمدينة وحول دار مروان ، وهم مجتمعون بها ، فلم يشمر بهم . فلما رجع إلى منزله بعث إلى بني حسين بن علي فجهمهم ومعهم رؤس من سادات قریش وغيرهم ، فوعظهم وأتهم وقال : يا معشر أهل المدينة ، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل في المشارق والمغارب وهو بين أظهركم ، ثم ما كفاكم حتى بايعتموه على السمع والطاعة ؟ والله لا يبلغني عن أحد منكم خرج معه إلا ضربت عنقه . فأنكر الذين هم هنالك حاضرون أن يكون عندهم علم أو شعور بشيء من هذا ، وقالوا : نحن نأتيك برجال مسلحين يقتلون دونك إن وقع شيء من ذلك . فنهضوا فجأؤه بجماعة مسلحين فاستأذنوه في دخولهم عليه ، فقال : لا إذن لهم ، إني أخشى أن يكون ذلك خديعة . فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم لا يتكلم إلا قليلاً حتى ذهب طائفة من الليل ، ثم ما فجئ الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير ، فانزعج الناس في جوف الليل ، وأشار بعض الناس على الأمير أن يضرب أعناق بني حسين ، فقال أحدهم : سلام ونحن مقرون بالطاعة ؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر ، فافتنموا الغفلة ونهضوا سراعاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك .

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن في مائتين وخمسين ، فر بالسجن فأخرج من فيه ، وجاء دار الإمارة فحاصرها فافتتحها ومسك الأمير رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه في دار مروان ، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة ، وهو الذي أشار بقتل بني حسين في أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به . وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استظهر على المدينة ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السنة . وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة في هذا اليوم ، فتكلم في بني العباس وذكر عنهم أشياء ذمهم

بها ، وأخبرهم أنه لم ينزل بلدًا من البلدان إلا وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل .

وقد روى ابن جرير عن الامام مالك أنه أفق الناس بمبايعته ، فقليل له فان في أعناقنا بيعة المنصور ، فقال : إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة . فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته . وقد قال له إسماعيل بن عبيد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته : يا ابن أخي إنك مقتول . فارتدغ بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه ، فاستناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائهما عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله الخزومي ، وعلى شرطتهما عثمان بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخزومة ، وتلقب بالمهدي طمعاً أن يكون هو المذكور في الأحاديث فلم يكن به ، ولا ثم له ما رجاه ولا ما تمناه ، فانا لله . وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ، فطوى المراحل البعيدة إلى المنصور في سبع ليال ، فورد عليه فوجده نائماً في الليل ، فقال للربيع الحاجب : استأذن على الخليفة ، فقال : إنه لا يوقف في هذه الساعة . فقال : إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ فقال : إنه خرج ابن حسن بالمدينة . فلم يظهر المنصور لذلك أكثرًا وانزعاجاً ، بل قال : أنت رأيته ؟ قال : نعم ! فقال : هلك والله وأهلك معه من اتبعه . ثم أمر بالرجل فسجن ، ثم جاءت الأخبار بذلك فتواترت . فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم .

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً ، فقال له بعض المنجمين : يا أمير المؤمنين لا عليك منه ، فوالله لو ملك الأرض بخدافيرها فانه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً . ثم أمر المنصور جميع رؤس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمهوا بمحمد بن حسن - والد محمد - فيخبروه بما وقع من خروج ولده ويسموا ما يقول لهم . فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال : ما ترون ابن سلافة فاعلا ؟ - يعني المنصور - فقالوا : لا ندري . فقال : والله لقد قتل صاحبكم البخل يلبني له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال ، فان ظهر فاسترجاع ما أنفق سهل ، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن وكان ما خزن لغيره . فرجموا إلى الخليفة فأخبروه بذلك ، وأشار الناس على الخليفة بمناجزته ، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك ، ثم قال : إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ا من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : [إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً] الآية إلى قوله [فاعلموا أن الله غفور رحيم] ثم قال : فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤثرك

ومن اتبعك ، ولأعطيتك ألف ألف درهم ، ولأدعئك تقيم في أحب البلاد إليك ، ولأقضين لك جميع حوائجك ، في كلام طويل . فكتب إليه محمد جواب كتابه :

من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله بن حسن : [بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستتبعون طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استتبعونا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين] ثم قال : وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علي ، فأنا أحق بهذا الأمر منك ، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا ، فان علياً كان الوصي وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً ، فرسول الله خير الناس وهو جدنا ، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته ، وفاطمة ابنته أمنا وهي أكرم بناته ، وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة ، وإن رسول الله (ص) ولد أبي مرتين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً ، [وأمرهم أباً ، لم تمرق في المعجم . ولم تنازع في أمهات الأولاد] ^(١) فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأخفهم عذاباً في النار . فأنا أولى بالأمر منك ، وأولى بالمهد وأوفى به منك ، فانك تعطى المهد ثم تنسك ولا تفي ، كما فعلت بابن هبيرة فانك أعطيت المهد ثم غدرت به ، ولا أشد عذاباً من إمام غادر ، وكذلك فعلت بمك عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني . ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه ، ولكن الوفاء بالمهد من مثلك لمثل بعيد والسلام .

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله : أما بعد فقد قرأت كتابك فاذا جل غفرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفأة والغواء ، ولم يجعل الله النساء كالمومة والآباء ، ولا كالمصيبة والأولياء ، وقد أنزل الله [وأنذر عشيرتك الأقربين] وكان له حيلند أربعة أعمام ، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا ، وكفر اثنان أحدهما أبوك - يعني جده أبا طالب - فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما إلا ولائمة ، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب [إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء] وقد غفرت به وأنه أخف أهل النار عذاباً ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن أن يفخر بأهل النار ، وغفرت بأن عليا ولده هاشم مرتين . وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، فهذا رسول الله (ص) ، إنما ولده عبد الله مرة واحدة ، وقولك إنك لم تترك أمهات أولاد ، فهذا إبراهيم ابن رسول الله (ص) ، من مارية ، وهو خير منك ، وعلي بن الحسن من أم ولد وهو خير منك ، وكذلك ابنه محمد بن علي ، وابن جعفر بن محمد ، جداتهما أمهات أولاد وهما خير منك ،

(١) زيادة من الطبري جئنا بها للمناسبة .

وأما قولك بنو رسول الله (ص)، فقد قال تعالى: [ما كان محمد أباً أحد من رجالكم] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أب الأم والخال والخالة لا يورثون، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله (ص)، بنص الحديث: وقد مرض رسول الله (ص)، وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس، بل أمر غيره. ولما توفي لم يعدل الناس بأبي بكر وعمر أحداً، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى والخلافة، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به، وقاتله طلحة والزبير على ذلك، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية، ثم طلبها أبوك وقاتل عليها الرجال، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودرام، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله، وسلم الأمر إلى غير أهله، وترك شيعته في أيدي بني أمية ومعاوية. فان كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمنها. ثم خرج حمك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأنوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وحرقوكم بالنار، وحملوا نساءكم على الإبل كالسبايا إلى الشام، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وذكرنا فضل سلفكم، فجعلت ذلك حجة علينا، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حمزة والعباس وجعفر، وليس الأمر كما زعمت، فان هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن، وسلموا من الدنيا فلم تنقصهم شيئاً، فاستوفوا ثوابهم كاملاً، وابتلى بذلك أبوك. وكانت بنو أمية تلهنسه كما تلعن الكفرة في الصلوات المكتوبات، فأحيينا ذكره وذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية بسقاية الحجاج الأعظم، وخدمة زمزم، وحكم رسول الله (ص)، لنا بها. ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله (ص)، إلا العباس، فالسقاية سقايته، والوراثه وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف في الجاهلية والاسلام إلا والعباس وارثه ومورثه، في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة. وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم.

فَضْلُ الْمَوْلَى

مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسولا إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه، وقالوا: قد ضجرتنا من الحروب وهللنا من القتال. وجعل يستميل رؤس أهل المدينة، فتنهم من أجباه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايملك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى قتل محمد. وبعث محمد هذا الحسين بن معاوية في سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس إلى مكة نائباً إن هو دخلها

فساروا إليها ، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في ألف من المقاتلة ، فقال لهم الحسين بن معاوية :
علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر ؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة : إن برده جاءتنا من
أربع ليال وقد أرسلت إليه كتاباً فأتانا أنتظر جوابه إلى أربع ، فان كان ما تقولون حقاً سلمتكم البلد
وعلى رؤنة رجالكم وخيلكم . فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة ، وحلف لا يبيت
الليلة إلا بمكة ، إلا أن يموت . وأرسل إلى السري أن أبرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء
في الحرم . فلم يخرج ، فتقدموا إليهم فصافوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزمهم وقتلوا
منهم نحو سبعة ، ودخلوا مكة . فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وأغرام بأبي جعفر ،
ودعاهم إلى محمد بن عبد الله بن حسن المهدي .

خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وجاء البريد إلى أخيه محمد فأتته إلى
ليلاً فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها . فقال : اللهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل
والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . ثم خرج فأخبر أصحابه عن أخيه فاستبشروا جداً وفرحوا
كثيراً ، وكان يقول للناس بعد صلاة الصبح والمغرب : ادعوا لله لاخوانكم أهل البصرة ، وللعسرين
ابن معاوية بمكة ، واستنصروه على أعدائكم .

وأما ما كان من المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد الله بن حسن ، وصحبة عيسى بن
موسى عشرة آلاف فارس من الشجيمان المنتخبين ، منهم محمد بن أبي العباس السفاح وجعفر بن
حنظلة البهراني ، وحמיד بن قحطبة ، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال : يا أمير المؤمنين ادع بمن
شئت ممن تثق به من مواليك فابعث بهم إلى وادي القرى بمنهونهم من ميرة الشام ، فيموت هو ومن
معه جوعاً ، فإنه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح . وقدم بين يديه كثير بن الحصين
العبدى وقد قال المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه : يا عيسى ! إني أبعثك إلى جنبي هذين ، فان
خلفت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان وإن تغيب فضمتهم إياهم حتى يأتوك به ، فانهم أعلم
بمذاهبه . وكتب معه كتباً إلى رؤساء قریش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعهم
إلى الرجوع إلى الطاعة . فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه
حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة
من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيدهم قيوداً ثقالاً ، وأودعهم السجن . ثم إن محمد استشار
أصحابه بالقيام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصروهم بها ، أو أنه يخرج بمن معه فيقاتل أهل
العراق ؟ فمنهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بذلك ، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة ، لأن رسول

الله (س) ، ندم يوم أحد على الخروج منها ، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله (س) ، يوم الأحزاب ، فأجاب إلى ذلك كله ، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول الله (س) ، وقد ظهر لهم لبننة من الخندق الذي حفره رسول الله (س) ، وفرحوا بذلك وكبروا وبشروه بالنصر . وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض وفي وسطه منطقة ، وكان شكلاً ضخماً أسمر عظيم الهامة . ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة ، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد - وكانوا قريباً من مائة ألف - فقال لهم في جملة ما قال : إني جعلتكم في حل من بيعتي ، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل . ومن أحب أن يتركها فعل . فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه ، ولم يبق إلا شذمة قليلة معه ، وخرج أكثر أهل المدينة بأهلهم منها لثلاث يشهدوا القتال بها ، فنزلوا الأعراض ورؤس الجبال . وقد بعث محمد أبا الليث ليردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم ، واستمروا ذاهبين . وقال محمد لرجل أتأخذ سيفاً ورحاً وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة ؟ فقال : نعم إن أعطيتني رحاً أطعمهم وهم بالأعراض ، وسيفاً أضربهم وهم في رؤس الجبال فعلت . فسكت محمد ثم قال لي : ويحك ؟ إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا - يعني لبسوا البياض - موافقة لي وخلصوا السواد . فقال : وما ذا ينفعني أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء - وأنا في مثل صوفة الدواة ، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص . ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة ، على ميل منها ، فقال له دليله ابن الأصم : إني أخشى إذا كشفتهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهم الخيل . ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبيد الملك على أربعة أميال من المدينة ، وذلك يوم السبت لصباح اثنى عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة . وقال : إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل .

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة في طريق مكة ، وقال لهم هذا الرجل إن هرب فليس له ملجأ إلا مكة ، فحولوا بينه وبينها . ثم أرسل عيسى إلى محمد يدعوهم إلى السمع والطاعة لأمر المؤمنين المنصور ، وأنه قد أعطاه الأمان له ولا هل بينه إن هو أجابه . فقال محمد للرسول : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك . ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له : إني أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل ، أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى الله ورسوله . ثم جعلت الرسل تتردد بينهم ثلاثاً أيام . هذا يدعو هذا ، وهذا يدعو هذا . وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي : يا أهل المدينة إن دماءكم علينا حرام فن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن أتى سلاحه فهو آمن ، فليس لنا في قتالكم أرب ، وإنما نريد محمداً

وحده لذهب به إلى الخليفة . فجعلوا يسبونونه وينالون من أمه ، ويكلمونه بكلام شنيع ، ويخاطبونه بخاطبة فظيمة . وقالوا له : هذا ابن رسول الله . معنا ونحن معه ، نقاتل دونه .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها ، فناداه يا محمد ! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة ، فإن فعلت أمك وقضى دينك وأعطاك أموالاً وأراضى ، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة . فناداه محمد : إنه ليس لكم عندي إلا القتال . فذهبت الحرب حينئذ بينهم ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة ، وعلى ميمنته محمد بن السباع ، وعلى ميسرته داود بن كزار ، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة ، ومعهم عدد لم ير مثلها . وفرق عيسى أصحابه في كل قطار طائفة . وكان عهد وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً جداً ، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلاً من أبطالهم ، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن ، فالتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعملوا أبواباً على قدره ، وقيل إنهم ردوه بمحاريج الجبال حتى أمكنهم أن يجوزوه ، وقد يكونون فعلوا هذا موضع منه ، وهذا في موضع آخر والله أعلم .

ولم تزل الحرب ناشبة بينهم حتى صليت العصر . فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلم فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحملت الحرب حينئذ جداً ، فاستنظر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع ، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ولصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا : أخذت المدينة ، وهربوا وبقي محمد في شرذمة قليلة جداً . ثم بقي وحده وليس معه أحد ، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه ، فكان لا يقوم له شيء إلا أنامه ، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجمان ، ويقال إنه كان في يده يومئذ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط ركبتيه وجعل يحكي نفسه ويقول : ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم . وجعل حميد بن قحطبة يقول : ويحكم ادعوه لا تقتلوه ، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضه بين يديه . وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه ، فما أدركه إلا كذلك . ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش .

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بمسجد العصر ، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع

رأسه بين يديه : ما تقولون فيه ؟ فقال منه أقوام وتكلموا فيه ، فقال رجل : كذبتم والله ! لقد كان صواماً قواماً ، ولـسكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصي المسلمين فقتلناه على ذلك . فسكتوا حينئذ .
وأما سيفه ذو الفقار فانه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جرب به بعضهم فضرب به كلباً فانقطع .
ذكره ابن جرير وغيره . وقد بلغ المنصور في غيـون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال : هذا لا يكون ، فانا أهل بيت لا نفر .

وقال ابن جرير : حدثني عبد الله بن راشد حدثني أبو الحجاج قال : إني لقائم على رأس المنصور وهو يسألني عن مخرج محمد ، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد انهزم وكان متكبشاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال : كلا وأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ما أنى لذلك بعد .
وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام ، وأمر بدفن الجنة فدفن بالبقيع ، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلع . ثم نقلوا إلى خندق هناك . وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له المنصور ، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم ، حكاه ابن جرير . ونودي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم ، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد ، وجعل يلتاب المسجد من الجرف ، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان ، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد ، وكان محمد قد كتب إليه يقدم عليه ، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد ، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى أخى محمد إبراهيم بن عبد الله ، الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنده .
ولما جرى المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك ، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشرف أهل المدينة ، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضرباً مبرحاً ، ومنهم من عفا عنه . ولما توجه عيسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين ، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيايتها عبد الله بن الربيع ، فمات جنده في المدينة فصاروا إذا اشترى من الناس شيئاً لا يعطونهم ثمنه ، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب وخوفوه بالقتل ، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة ، وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة : لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة ، وقيل لخمس بقين من شوال منها ، فقتلوا من الجند طائفة كثيرة بالزاريق وغيرها ، وهرب الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة . وكان رؤس السودان : وثيق ويمقل ورمقة وحديا وعنفود ، ومسر ، وأبو النار . فلما رجع عبد الله بن الربيع ركب في جنوده

والتقى مع السودان فهزموه أيضا فملحقوه بالبقيع فألقى لهم رداءه يشغلهم فيه حتى نجا بنفسه ومن اتبعه ، فملحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة ، ووقع السودان على طمام المنصور كان مخزونا في دار مروان قد قدم به في البحر فنهبوه ونهبوا ما للجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وغيره ، وباعوا ذلك بأرخص ثمن . وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان ، وخاف أهل المدينة من مرة ذلك ، فاجتمعوا وخطبهم ابن أبي سبرة - وكان مسجوناً - فصعد المنبر وفي رجله القيود ، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور ، وخوفهم شرماسنعه مواليهم ، فانفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم وينهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله ، ففعلوا ذلك ، فسكن الأمر وهدأ الناس والطفأت الشرور ، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبى النار ويقتل ومسمر .

ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة

كان ابراهيم قد هرب إلى البصرة فنزل في بني ضبيعة من أهل البصرة ، في دار الحارث بن عيسى ، وكان لا يرى بالنهار ، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً ، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة ، وانعقد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة ، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة ، بعد منصرف الحجيج . وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة ، قاله الواقدي . قال : وكان يدعو في السر إلى أخيه ، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة ، والمشهور أنه قدمها في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما تقدم والله أعلم .

ولما قدم البصرة نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي ، فاخفى عنده هذه المدة كلها ، حتى ظهر في هذه السنة في دار أبي فروة ، وكان أول من بايعه نائلة بن مرة ، وعبد الله بن سفيان ، وعبد الواحد بن زياد ، وعمر بن سلمة الهجيمي ، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي . وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثير فتحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة ، واستفحل أمره ، وبايعه فثام من الناس ، وتفاقم الخطب به ، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بأخيه محمد ، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان سبب تعجيله الظهور كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه ، فانتظم أمره بالبصرة ، وكان قائمها من جهة المنصور سفيان بن معاوية وكان ممالاً لابراهيم هذا في الباطن ، ويباغضه أخباره فلا يكثر ثبثها ، ويكذب من أخبره ويود أن يتضح أمر ابراهيم ، وقد أمده المنصور بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل ، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة ابراهيم ، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع في عمارتها - إلى الكوفة ، وجعل كما اتهم رجلاً من أهل الكوفة في أمر ابراهيم بعث إليه من يقتله في الليل في منزله ، وكان الفرافصة

العجلى قدم بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها ، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم ، ويفدون إليها جماعات وفرادى ، وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطريق ويأتونه برؤسهم فيصلبها بالكوفة ليمعظ بها الناس . وأرسل المنصور إلى حرب الراوندى - وكان مرابطاً بالجزيرة في أنفى فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إليه إلى الكوفة ، فأقبل بمن معه فاجتاز ببليدة بها أنصار لا إبراهيم فقالوا له : لا ندعك تبحر ، لأن المنصور إنما دعاك لقتال إبراهيم . فقال : ويحكم ! دعوتى ، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤسهم إلى المنصور . فقال : هذا أول الفتح . ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، خرج إبراهيم فى الليل إلى مقبرة بنى يشكر فى بضعة بمشر فارسا ، وقدم فى هذه الليلة أبو حماد الأبرص فى أنفى فارس مدداً سفيان ابن معاوية ، فأنزلهم الأمير فى القصر ، ومال إبراهيم وأصحابه على دواب أولئك الجيش وأسلحتهم فأخذوها جميعاً ، فتقوتوا بها ، فكان هذا أول ما أصاب . وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً ، فصلى بالناس صلاة الصبح فى المسجد الجامع ، والتف الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر ، وتحصن سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الامارة وحبس عنده الجنود فحاصروا إبراهيم ، فطلب سفيان ابن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان ، ودخل إبراهيم قصر الامارة فبسطت له حصير ليجلس عليها فى مقدم إيوان القصر ، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن ، فتطير الناس بذلك ، فقال إبراهيم : إنا لا نتطير . وجلس على ظهر الحصير ، وأمر بحبس سفيان بن معاوية قتيلاً وأراد بذلك براءة ساحته عند المنصور ، واستحوذ على ما كان فى بيت المال فاذا فيه ستمائة ألف ، وقيل ألفا ألف . فقوى بذلك جداً .

وكان فى البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن على ، وهما أبناء عم الخليفة المنصور ، فركبا فى ستمائة فارس إليه فهزمهما ، وأركب إبراهيم المضاء بن القاسم فى ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً فهزم ستمائة فارس كانت لهما . وآمن من بقى منهم ، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه وأطاعوه ، وأرسل إلى نائبها مائى فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد فى أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد ، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها ، وكذلك واسط والمدائن والسواد ، واستفحل أمره جداً ، ولكن لما جاءه نعى أخيه محمد انكسر جداً ، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور . قال بعضهم : والله لقد رأيت الموت فى وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً ، فازداد الناس حنقا على المنصور وأصبح فمسكروا بالناس واستناب على البصرة نميلة وخلف ابنه حسنا معه .

ولما بلغ المنصور خبره تمير فى أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده فى الممالك ، وكان قد

بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفاً إلى الري ، وبعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية أربعين ألفاً والباقيون مع عيسى بن موسى بالحجاز ، ولم يبق مع المنصور سوى ألفي فارس . وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلاً ، فيحسب الناظر إليها أن ثم جنوداً كثيراً . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : إذا قرأت كتابي هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه . فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له : اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولك كثرة من معه ، فانهم جملة بني هاشم المقتولان جميعاً ، فأبسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور . وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن يوجه خازم بن خزيمه في أربعة آلاف إلى الأهواز ، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم - وهو المغيرة - وأباحها ثلاثة أيام ، ورجع المغيرة إلى البصرة ، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التي نقضت بيعته جنوداً يردون أهلها إلى الطاعة . قالوا : ولزم المنصور موضع مصلاه فلا يبرح منه ليلاً ونهاراً في ثياب بذلة قد اتسخت ، فلم يزل مقبلاً هناك بضعا وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه . وقد قيل له في غيـوب ذلك : إن نساءك قد خبثت أنفسهن لفيتك عنهن . فأنهر القائل وقال : ويحك ليست هذه أيام نساء ، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي ، أو يحمل رأسي إليه . وقال بعضهم : دخلت على المنصور وهو مهووم من كثرة ما وقع من الشرور ، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة همه ، وما تفنق عليه من الفتوق والخروق ، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله به ، وقد خرجت عن يده البصرة والأهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد ، وفي الكوفة عنده مائة ألف مغمدة سيوفها تلتظر به صيحة واحدة ، فيثبون مع إبراهيم ، وهو مع ذلك يترك النوائب ويمر سها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر :

نفسُ عصامٍ سودتْ عصاماً * وعلمتهُ الكُرُ والِإقداما * فصيرتهُ مُلِكاً هُمَاماً

وأقبل إبراهيم بمساكر من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف . وجاء إبراهيم فنزل في باخرى في جحافل عظيمة ، فقال له بعض الأمراء : إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخذت بقفاه فانه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه . وقال آخرون : إن الأولى أن نناجز هؤلاء الذين بارأنا ، ثم هو في قبضتنا . ففهم ذلك عن الرأي الأول . ولو فعله لثم لهم الأمر . ثم قال بعضهم : خندق حول الجيش . وقال آخرون : إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله ، فترك ذلك . ثم أشار بعضهم أن يبني جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم : أنا لا أرى ذلك ، فتركه . ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فإن غلب كردوس ثبت الآخر . قال آخرون : الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعالى [إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله مفا]

كانهم بليان مرصوص] . والامر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لم له الأمر مع تقدير الله تعالى

وأقبل الجيشان فتصافوا في باخرى وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتلاً شديداً فانهم حميد بن قحطبة بن معه من المقدمة ، فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والسكر فلا يلوى عليه أحد ، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله ، فقتل له : لو تنحيت من مكانك هذا لثلا يحطملك جيش إبراهيم فقال : والله لا أزول منه حتى يفتح الله لي أو أقتل هاهنا . وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له ، فاستمر المنهزمون ذاهبين فأنهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه ففكروا راجعين بأجمعهم ، وكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كان أول من انهزم . ثم اجنلوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتلاً شديداً ، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة ، وقيل في أربعمائة : وقيل في تسعين رجلاً ، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه ، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤس أصحابه ، فجعل حميد يأتي بالرؤس إلى عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور ، وكان نبيخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيئ الرأس فأخبره أن إبراهيم مقتول فلم يصدقه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فأحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت فاقتلني . فبينما هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم ، ولما جرى بالرأس تمثل المنصور ببیت مَعْقَر بن أوس بن حمار البارقى : فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرء عينا بالاياب المسافر

وقيل إن المنصور لما رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال : والله لقد كنت لهذا كارها ، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك . ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق . وأقطع نبيخت المنجم الكذاب ألفي جريب .

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة ، فهم كذبه كفره وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك خلال لا يجوز

وذكر صالح مولى المنصور قال : لما جرى برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنثونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم ، حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله

أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقتك . قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له : يا أبا خالد مرحباً وأهلاً ، ههنا فاجلس . فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقفاً جيداً . فجلس كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة . قال أبو نعيم الفضل بن دكين : كان مقتل إبراهيم في يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة من هذه السنة .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

فن أعيان أهل البيت عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم ، وأخوه حسن بن حسن ، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج . وقد تقدمت ترجمته . وأما أخوه عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي فتابعي ، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو صحابي جليل ، وغيرهم . وروى عنه جماعة منهم سفيان الثوري والدروري ومالك ، وكان معظماً عند العلماء ، وكان عابداً كبير القدر . قال يحيى بن معين : كان ثقة صدوقاً ، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه ، وفد على السفاح فعمّاه وأعطاه ألف ألف درهم ، فلما ولي المنصور عامله بمكس ذلك ، وكذلك أولاده وأهله ، وقد مضوا جميعاً والتقوا عند الله عز وجل ، وأخذ المنصور وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية ، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا ، فمات أكثرهم فيه ، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة ، وقد قيل إنه قتل في السجن عمداً . وكان عمره يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن علي . ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم قتل بعدهما وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم .

وأما ابنه محمد الذي خرج بالمدينة فروى عن أبيه ونافع ، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهوى إلى السجود ، وحدث عنه جماعة ، وثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري : لا يتابع على حديثه . وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين ، وكان طويلاً سميناً أسمر ضخماً ذا همة سامية ، وسطورة عالية وشجاعة باهرة ، قتل بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة . وقد حملوا برأسه إلى المنصور ، وطيف به في الأقاليم . وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكان مقتله بعد مقتل أخيه في ذى الحجة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة ، وحكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال : كان إبراهيم وأخوه محمد خارجين . قال داود : ليس كما قال ، هذا رأى الزيدية . قلت : وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما .

وفيهما توفي من المشاهير والأعيان

الأجلح بن عبد الله ، وإسماعيل بن أبي خالد في قول ، وحبيب بن الشهيد ، وشهد الملك بن أبي سليمان ، وعمرو مولى عفرة ، ويحيى بن الحارث الذماری ، ويحيى بن سعيد أبو حيان النخعي ، ورؤبة بن المعجاج والمعجاج لقب واسمه أبو الششاء عبد الله بن رؤبة ، وأبو محمد النخعي البصري ، الراجز بن الراجز ، ولكل منهما ديوان رجز ، وكل منهما بارع في فنسه لا يجاري ولا يساري ، عالم باللاغة . وعبد الله بن المقفع الكاتب المغمور ، أسلم على يد شيسى بن علي عم السفاح والمنصور ، وكذب له ، وله رسائل وألفاظ صحيحة ، وكان منهما بالزندقة ، وهو الذي صنف كتاب كيلة ودمنة ، ويقال : بل هو الذي عربها من الجوسية إلى العربية . قال المهدي : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد . قالوا ونسى الجاحظ وهو رايعهم . وكان مع هذا فاضلا بارعا فصيحاً . قال الأصمعي : قيل لابن المقفع من أدبك ؟ قال : نفسي ، إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيته ، وإذا رأيت حسناً أبيته . ومن كلامه : شربت من الخطب رياء ، ولم أضبط خاروياً ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هي نظاما ، ولا نسيت غيرها كلاما ،

وكان قتل ابن المقفع على يد سفیان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة ، وذلك أنه كان يعيث به ويسب أمه ، وإنما كان يسميه ابن المعلم ، وكان كبير الأنف ، وكان إذا دخل عليه يقول : السلام عليكما - على سبيل التهنيم - وقال لسفیان بن معاوية مرة : ما ندمت على سكوت قط . فقال : صدقت ، الخرس لك خير من كلامك . ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفیان بن معاوية هذا أن يقتله ، فأخذه فأحى له تنورا وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، وقيل غير ذلك في صفة قتله . قال ابن خلدكان : ومنهم من يقول إن ابن المقفع نسب إلى بيع القناع وهي من الجريد كالزنبيل بلا آذان ، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبو دارويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفمت يده والله أعلم .

وفيهما خرج الترك والخزر بباب الأبواب قتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة . وحج بالناس في هذه السنة نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي . وعلى الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة مسلم بن قتيبة ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام بغداد ، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة ، وكان مقبلاً قبل

ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة ، وكان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة ، وقيل في سنة أربع وأربعين ومائة فإله أعلم .

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم ، بقيت منهم بقية نفسي على جنده منهم ، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موطئا لبناء مدينة ، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موطئا أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن ، وذلك بأنه موضع يغدا إليها ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر ، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا ، لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر ، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح تهب به ليلا ونهاراً من غير أنجمار ولا غبار ، ورأى طيب تلك البقعة وطيب هوائها ، وقد كان في موضعها قرى وديور لبلاد النصارى وغيرهم . ذكر ذلك مفصلاً بأسمائه وتعداد أبي جعفر ابن جرير . فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فحشي في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك ، ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه ، وأحضر من كل البلاد فعالا وصناعاً ومهندسين ، فاجتمع عنده ألوف منهم ، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله . وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفلها خمسون ذراعاً ، ومن أعلاها عشرون ذراعاً ، وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني ، ومثلها في الجواني ، وليس كل واحد نجاه الآخر ، ولكن جعله أزور عن الذي يليه ، ولهذا سميت ببغداد الزوراء ، لازورار أبوابها بعضها عن بعض ، وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها . وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء ، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر ، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة . وقال ابن جرير : ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصل فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة ، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بنى قبل القصر ، وجامع المدينة بنى على القصر ، فاختلفت قبلته بسبب ذلك . وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فأبى وامتنع فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن ، وأخذ الرجال بالعمل ، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة بما يلي الخندق ، وكان استتمامه في سنة أربع وأربعين ومائة . قال ابن جرير : وذكر عن المهيم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع ، فحلف أن لا يطلع عنه حتى يعمل له ، فأخبر بذلك أبو حنيفة فدما بقصة فعد اللبن ليبر بذلك يمين أبي جعفر ، ومات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك . وذكر أن خالد بن برمك هو الذي أشار على المنصور ببنائها ، وأنه كان مستحثاً فيها للصناع ، وقد شاور المنصور

الأمراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الإمارة بها ، فقالوا : لا تفعل فإنه آية في العالم ، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه ، ونقل أبواب قصر واسط إلى أبواب قصر الإمارة ببغداد . وقد كان الحجاج نقل حجراته من مدينة هناك كانت من بناء سليمان بن داود ، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب ، وهي حجارة هائلة . وقد كانت الأسواق وضجيجها تسمع من قصر الإمارة ، فكانت أصوات الباعة وهوسات الأسواق تسمع منه ، فعاب ذلك بعض بطارقة النصاري من قدم في بعض الرسائل من الروم ، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر ، وأمر بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً ، ومن بنى في شيء من ذلك هدم .

قال ابن جرير : وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : وجدت في خزان المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق وغير ذلك ، أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثمانين ألف درهم ، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة ، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة . قال الخطيب البغدادي : وقد رأيت ذلك في بعض الكتب ، وحكى عن بعضهم أنه قال : أنفق عليه ثمانية عشر ألف ألف فالف أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهما عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستعشرين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهما فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً . قال الخطيب : وبنها مدورة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدورة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم . ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطالع لها ، فنظرت في طالعها . وكان المشتري في القوس . فأخبرته بما تدل عليه النجوم ، من طول زمانيها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها وقرر الناس إلى ما فيها . قال : ثم قلت له : وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً . قال : فرأيت أنه يبتسم ثم قال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه :

قضى ربها أن لا يموت خليفة * بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينتهضه بشيء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته . قال : وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن حسن التنوخي فقال : محمد الأمين لم يقتل بالمدينة ، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة لينتزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك . ذكر ذلك الصولي وغيره .

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال : اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً ، وذلك بقدر ميلين في مياين ، قال الامام أحمد : بغداد من الصراة إلى باب التبن . وذكر الخطيب أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلاً ، وقيل أقل من ذلك . وذكر الخطيب صفة قصر الامارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً ، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فأى جهة استقبلها واستمر مستقبلاً ، علم الساطن أن في تلك الجهة قد وقع حدث فلم يلبث أن يأتي الخليفة خبره . [وهذه القبة وهي على مجلس في صدر إوان المحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً . وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق ، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة] . (١)

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور الكيخسرو الغنم بدرهم والحل بأربعة دوايق ، وينادي على لحم الغنم كل ستين طلاً بدرهم ، ولحم البقر كل تسعين رطلاً بدرهم ، والتمر كل ستين رطلاً بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم . ولهذا الأمن والرخص كثير ساكنوها وعظم أهلها وكثر الدارج في أسواقها وأزقتها ، حتى كان المار لا يستطيع أن يجتاز في أسواقها لكثرة زحام أهلها . قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق : طال والله ما طردت خلف الأرائب في هذا المكان .

وذكر الخطيب أن المنصور جلس يوماً في قصره فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب : ما هذا ؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة في الأسواق ، فقال الرومي : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، بعينه من الماء ، وقرب الأسواق منه ، وليس عنده خضرة ، والعين خضرة تحب الخضرة . فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك ، ثم بعد ذلك ساق إليها الماء وبنى عندها البساتين ، وحول الأسواق من ثم إلى الكرخ . قال يعقوب بن سفيان : كمل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة ، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشمير وباب الحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ألفاً ، وبعد شهرين من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد ، فكل سنة ثمان وخمسين ومائة .

وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح ، وبنى للعامة جامعاً للصلاة والجمعة لئلا يدخلوا إلى جامع المنصور ، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد بعد ذلك فاتها كانت للحسن بن سهل ، فانتقلت من بعده إلى بوران زوجة المأمون ، فطلبها منها المعتضد - وقيل المعتز - فأنعمت له بها ، ثم استنظرته أياماً حتى تلتفت منها فألفظها ، فشرعت في تلك الأيام في ترميمها وتبييضها وتحسينها ، ثم فرشتها

بأنواع الفرش والبسط ، وعلقت فيها أنواع الستور ، وأرصدت فيها ما ينبغي للخلافة من الجوارى والخدم ، وألبستهم أنواع الملابس ، وجمعت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمأكول ، وجمعت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر ، ثم أرسلت بمنايعها إليه ، ثم دخلها فوجد فيها ما أرصدته بها ، فهاله ذلك واستعظمه جداً ، وكان أول خليفة سكنها وبنى عليها سوراً . ذكره الخطيب .

وأما التاج فبناه المكتفى على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش . وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن المقتدر بالله ، وما فيها من الفرش والستور والخدم والممالك والحشمة الباهرة ، والدنيا الظاهرة ، وأنها كان بها إحدى عشر ألف طواشي ، وسبعمائة حاجب . وأما الممالك فالوف لا يحصون كثرة ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في أيامهم ودولتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم ، بعد سنة ثلثمائة . وذكر الخطيب دار الملك التي بالبحر ، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمع ، وذكر الأنهار والجسور التي بها ، وما كان في ذلك في زمن المنصور ، وما أحدث بعده إلى زمانه ، وأبشد لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة :

يوم سرقنا العيش فيه خلصة * في مجلس ببناء دجلة مفرد
رق الهواء برقة وقدامة * فغدوت رقا للزمان المسمر
فكان دجلة طيلسان أبيض * والجسر فيها كالطراز الأسود
وقال آخر :
يا حبذا جسر على متن دجلة * باتقان تأسيس وحسن وروني
جمال وحسن للعراق ونزهة * وسلوة من أضناء فرط التشوي
تراء إذا ما جئت متاملاً * كسطر عبير خط في وسط مرق
أو العاج فيه الأبنوس مرش * مثال فيول تحنها أرض زئبق

وذكر الصولي قال : ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب ، وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام ، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء ، وأن بازاء كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر - يعني إماماً وقيماً ومأذوناً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك ، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورية ومعنى . على ما سيأتي بيانه في موضعه .

وقال الحافظ أبو بكر البغدادي : لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلاله قدرها ، ونظامه أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ،

وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة
 ماؤها وبرد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة رييمها وخريفها ، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في
 أيام الرشيد ، ثم ذكرتنا قص أحوالها وهلم جرا إلى زمانه . قلت : وكذا من بعده إلى زماننا هذا ،
 ولا سببا في أيام هولاكو بن تولى بن جنكيز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقنسل خليقتها وعالمها
 وخرّب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام ، وأخذ الأموال
 والحواسل ، ونهب الداراي والأصائل ، وأورث بها حزنا يعدد به في المبكرات والأصائل ،
 وصيرها مثلة في الأقاليم ، وعبرة لكل معتبر عليم ، وتذكرة لكل ذي عقل مستقيم ، وبدلت بعد
 تلاوة القرآن بالنغمات والألحان ، وإنشاد الأشعار ، وكان ، وكان . وبعد سماع الأحاديث النبوية
 بدرس الفلسفة اليونانية ، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية ، وبعد العلماء بالأطباء ، وبعد
 الخليفة العباسي بشر الولاة من الأتاسي ، وبعد الرياسة والنباهة بالخصاسة والسفاهة ، وبعد الطلبة
 المشتغلين بالظلمة والميادين ، وبعد العلم بالفتنة والحديث وتعبير الرؤيا ، بالموشع ودوبيت وموالي .
 وما أصابهم ذلك إلا يبعث ذنوبهم [وما ربك بظلام للعبيد] والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة
 ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية ، وأكل الحشيشة ، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل
 الله بأهلها أفضل وأكل وأجل . وقد روى الامام أحمد عن رسول الله (ص) ، أنه قال : « لا تقوم
 الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، وشرار أهل الشام إلى العراق » .

ما ورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداد بهمال الذال الثانية وإجماعها ، وبغدان بالنون آخره وبالميم مع
 ذلك أولا مغدان ، وهي كلمة أمجية قيل إنها مركبة من بـغ وداد فـقيل بـغ بستان وداد اسم رجل ،
 وقيل بـغ اسم صنم وقيل شيطان وداد عطية أي عطية الصنم ، ولهذا كره عبد الله بن المبارك
 والأصمعي وغيرهما تسميتها ببغداد وإنما يقال لها مدينة السلام ، وكذا أسماها بابها أبو جعفر المنصور ،
 لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام ، ومنهم من يسميها الزوراء .

فروى الخطيب البغدادي من طريق عمار بن سيف - وهو منهم - قال : سمعت عاصم الأجل
 يحدث عن سفيان الثوري عن أبي عثمان عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) : « تبني
 مدينة بين دجلة ودجيل وقطر بل والصرافة تسمى إليها خزائن الأرض ، وملكها جبابرة ، فلهي أسرع
 ذهابا في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة » . قال الخطيب : وقد رواه عن عاصم الأجل
 سيف ابن أخت سفيان الثوري ، وهو أخو عمار بن سيف . قلت : وكلاهما ضعيف منهم يرمى
 بالكذب ، ومحمد بن جابر اليماني ضعيف ، وأبو شهاب الخطاطي ضعيف . وروى عن سفيان الثوري

عن عاصم من طرق ثم أسند ذلك كله . وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي كثير عن
عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي (ص) . وقال أحمد ويحيى :
يس لهذا الحديث أصل . وقال أحمد : ما حدث به إنسان ثقة ، وقد علاه الخطيب من جميع طرقه
وسقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل ، عن أنس بن
مالك ، ولا يصح أيضاً . ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربي عن حذيفة
مرفوعاً بنحوه ، ولا يصح . ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس ،
وفي بعضها ذكر السفياتي « وأنه يخربها » ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث . وقد أوردنا
الخطيب بأسانيدنا وألفاظها ، وفي كل منها نكارة ، وأقرب ما فيها عن كعب الأحبار وقد جاء في
آثار عن كتب متقدمة أن بابها يقال له مقلص وذو الدوائيق لبخله .

فصل في مناقب

محاسن بغداد ومساوئها وما روى في ذلك عن الأئمة

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي : قال لي الشافعي : هل رأيت بغداد ؟ قلت لا فقال : ما رأيت
الدنيا . وقال الشافعي : ما دخلت بلدا قط إلا عدته سفرا ، إلا بغداد فاني حين دخلتها عدتها
وطنا . وقال بعضهم : الدنيا بادية وبغداد حاضرتها . وقال ابن علية : ما رأيت أعقل في طلب
الحديث من أهل بغداد ، ولا أحسن دعة منهم . وقال ابن مجاهد : رأيت أبا عمرو بن السلاء في
النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي : دعني من هذا ، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات
نقل من جنة إلى جنة . وقال أبو بكر بن عياش : الاسلام ببغداد ، وإنها لصيادة تصيد الرجال ،
ومن لم يرها لم ير الدنيا . وقال أبو معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة . وقال بعضهم : من محاسن الاسلام
يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . قال الخطيب : من شهد يوم
الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الاسلام ، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم
العيد في غيرها من البلاد . وقال بعضهم : كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل
فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائلا يقول : تركت الصلاة في جامع المدينة وإنه ليصلي فيه
كل جمعة سبعون ولياً . وقال آخر : أردت الانتقال من بغداد فرأيت كأن قائلا يقول في المنام :
أنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل ؟ وقال بعضهم : رأيت كأن ملكين أتيا ببغداد
فقال أحدهما لصاحبه : اقبلها . فقد حق القول عليها : فقال الآخر كيف أقلب ببلد يختم فيها
القرآن كل ليلة خمسة آلاف ختمة ؟ وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز بن سليمان بن موسى
قال : إذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقي وصلاته شامية فقد كمل . وقالت زبيدة لمنصور

الغمرى قل شعرا تحبب فيه بغداد إلى . فقد اختار عليها الراققة فقال :
 ما ذا ببغداد من طيب الأمانين * ومن منازة الدنيا ولدين
 تحبب الرياح بها المرضى إذا نسمت * وجوشت بين أغصان الرياحين
 قال . فأعطته ألفي دينار . وقال الخطيب : وقرأت في كتاب ظاهر بن مظفر بن طاهر الخازن
 بخطه من شعره :

سقى الله صوب الغاديات محلة * ببغداد بين الكرخ والخلد والجسر
 هي البلدة الحسناء خصت لأهلها * بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
 هواء رقيق في اعتدال وصحة * وماء له طعم الذن من الخمر
 ودجلتها شيطان قد نظا لنا * بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
 تراها كسك والمياه كفضة * وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وفيها ذكرنا كفاية . وقد كان الفراغ من بناء بغداد
 في هذه السنة - أعني سنة ست وأربعين ومائة - وقيل في سنة ثمان وأربعين ، وقيل إن خندقها
 وسورها كمل في سنة سبع وأربعين ، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى
 فيها قصر الخلد ، فظن أنه يخلد فيها ، أو أنها تخلد فلا تخرب ، فعند كاله مات . وقد خربت بغداد
 مرات كما سيأتي بيانه .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن
 سليمان بن علي ، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن
 فتوائى في ذلك فعزله ، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً ، وهدم دوراً كثيرة . وعزل
 عبد الله بن الربيع عن إمارة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان ، وعزل عن مكة السري بن
 عبد الله وولى عليها عبد الصمد بن علي . قال : وحج بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم
 ابن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره . قال : وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة
 البهراني . وفيها توفي من الأعيان أشعث بن عبد الملك ، وهشام بن السائب الكلابي ، وهشام بن
 عروة . وبزيد بن أبي عبيد في قول .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار اشترخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا
 خلقاً كثيراً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل النعمة ، ومن قتل يومئذ حرب بن عبد الله الراوندي
 الذي تنسب إليه الحربية ببغداد ، وكان مقبلاً بالموصل في ألفين لمقابلة الخوارج ، فأرسله المنصور

لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية ، وكان في جيش جبريل بن يحيى ، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله . وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور .

وهو الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية ، كان عليها واليا حتى مات السفاح ، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان ابن علي وإلى البصرة فاختفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعى به وسجنه ، فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب عمه عيسى بن موسى - وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح - وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له : إن هذا عدوى وعدوك ، فاقتله في غيبتك ولا تتواني . وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحضره في ذلك ويقول له : ماذا صنعت فيما أودعت إليك فيه ؟ مرة بعد مرة . وأما عيسى بن موسى فإنه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأى أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وأبقه عندك وأظهر قتله فأنما نخشى أن يطالبك به جبهة فتقول : قتلته ، فيأمر بالقود فتدعى أنه أمرك بقتله بالسريينك وبينه فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به ، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معا . فتغير عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله . فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا في عمه عبد الله بن علي ، وألحوا في ذلك فأجابهم إلى ذلك ، واستدعى عيسى بن موسى وقال له : إن هؤلاء شفَعُوا في عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ذلك فسلمه إليهم . فقال عيسى : وأين عبد الله ؟ ذاك قتلته منذ أمرتني . فقال المنصور : لم أذكر بذلك ، وجحد ذلك وأن يكون تقدم إليه منه أمره في ذلك ، فأحضر عيسى الكتب التي كتبها إليه المنصور مرة بعد مرة في ذلك فأنكر أن يكون أراد ذلك ، وصمم على الإنكار ، وصمم عيسى ابن موسى أنه قد قتله ، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله ، فخرج به بنو هاشم ليقتلوه ، فلما جاؤا بالسيف قال : ردوني إلى الخليفة ، فردوه إليه فقال له : إن عليك حاصر ولم أقتله ، فقال : هلم به . فأحضروه فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح ، فلما كان من الليل أرضل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك . ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي ، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه ، ثم كان لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الأذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده ، ثم ما زال يقصيه ويمعه ويتهده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه ، وبايع الحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم ، وإنصلح أمر عيسى بن موسى وبليه عند

المنصور، وأقبل عليه بعد ما كان قد أعرض عنه . وكان قد جرت بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً ، ومارودات في تهديد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه ، وأن العامة لا يستأمنون بالمهدي أحداً . وكذلك الأمراء والخواص . ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرهاً ، فموضه عن ذلك ما ذكرنا ، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً ، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالة [ذلك تقدير العزيز العليم] .

وفيها توفي عبيد الله بن عمر العمري ، وهاشم بن هاشم ، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بهت المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين عاثوا في السنة الماضية ببلاد تفلّيس ، فلم يجد منهم أحداً فانهم انشعروا إلى بلادهم . وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر ، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي جعفر بن محمد الصادق المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه . وفيها توفي سليمان بن مهران الأعمش أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها . وعمر بن الحارث ، والعوام بن حوشب ، والزيبيدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . ومحمد بن عجلان .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها . وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فسدخل بلاد الروم ومعه الحسين بن قحطبة ومحمد بن الأشعث . ومات محمد بن الأشعث في الطريق . وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي . وعمل الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها . وفيها توفي زكريا بن أبي زائدة ، وكهمس بن الحسن ، والمثنى بن الصباح . وعيسى بن عمر أبو عمرو الثقفى البصرى النخوى شيخ سيديويه . يقال إنه من موالى خالد بن الوليد ، وإنما نزل في تقيف فنسب إليهم . كان إماماً كبيراً جليلاً في اللغة والنحو والقراءات ، أخذ ذلك عن عبيد الله بن كثير وابن الخيص . وعبد الله بن أبي إسحاق ، وسمع الحسن البصرى وغيرهم . وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيديويه . ولزمه وعرف به وانتفع به ، وأخذ كتابه الذي سماه بالجامع فزاد عليه وبسطه ، فهو كتاب سيديويه اليوم ، وإنما هو كتاب شيخه ، وكان سيديويه يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه ، فسأله الخليل أيضاً عما صنف عيسى بن عمر فقال : جمع بعضاً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب الأكل ،

وهو بأرض فارس . وهو الذي أشتغل فيه وأسالك عن غوامضه ، فاطرق الخليل ساعة ثم أنشد :

ذهب النحورُ جميعاً . كله * غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمالٌ وهذا جامع * وهما للناس شمسٌ وقر

، قد كان عيسى يغرب ويتقرر في عبارته جداً . وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح أنه سقط يوماً عن حمارة فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأ كأتم على تكأ كؤم على ذى مرة ؟ افرقوا عني . معناه : مالكم تجمعتم على تجمعكم على مجنون ؟ انكشفوا عني . وقال غيره : كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع . فجعلوا يعودونه ويقرؤن عليه ، فلما أفاق من غشيته قال ، ما قال . فقال بعضهم : إني حسبتك - يتكلم بالفارسية - وذكر ابن خلدكان أنه كان صاحباً لأبي عمرو بن العلاء ، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معد بن عدنان . فقال له أبو عمرو كيف تقرأ هذا البيت .

قد كن يخبأن الوجوه تستراً * فالיום حين بدان للنظار

أو بدين ؟ فقال بدين . فقال أبو عمرو : أخطأت ، ولو قال : بدان لأخطأ أيضاً . وإنما أراد أبو عمرو تغليظه ، وإنما الصواب بدون من بداييد وإذا ظهر ، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء .

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف ، وقتلوا من المسلمين هنالك خلقاً كثيراً ، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد ، وسبوا خلقاً كثيراً ، وتحكم الفساد بسببهم ، وتفاقم أمرهم ، فوجه المنصور خازم بن خزيمه إلى ابنه المهدي ليوليّه حرب تلك البلاد ، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك . فنهض المهدي في ذلك نهضة هاشمية ، وجمع لخازم بن خزيمه الامرة على تلك البلاد والجيوش ، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً ، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب ، وواجههم بالطن والضرِب ، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً ، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز في جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته ، وأن يعتق من معه من الأجناد - وكانوا ثلاثين ألفاً - ففعل خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع استاذسيس ثوبين ، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي ، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور . وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاه الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة . وتوفي فيها

جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور ودفن أولاً بمقابر بني هاشم من بغداد ، ثم نقل منها إلى موضع آخر .
وفيها توفي عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز ، ويقال إنه أول من جمع
السنن . وعثمان بن الأسود ، وعمر بن محمد بن زيد . وفيها توفي الامام أبو حنيفة .

ذكر ترجمته

هو الامام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي ، فقيه العراق ، وأحد أئمة
الاسلام ، والسادة الأعلام ، وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ،
وهو أقدمهم وفاة ، لأنه أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم
أنه روى عن سبعة من الصحابة فأنه أعلم .

وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحداد بن أبي سليمان ، وسلمة بن كهيل ، وعامر
الشعبي ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والزهرى ، ونافع مولى ابن عمر ، ويحيى بن سعيد الأنصارى
وأبو إسحاق السبيعي . وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان ، وإسحاق بن يوسف
الأزرق ، وأسد بن عمرو القاضى ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وحزرة الزيات ، وداود الطائى ، وزفر ،
وعبد الرزاق ، وأبو نعيم ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وهشيم ، ووكيع ، وأبو يوسف القاضى . قال
يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب ، ولقد ضربه ابن هبيرة على
القضاء فأبى أن يكون قاضياً . وقد كان يحيى بن سعيد يختار قوله فى الفتوى ، وكان يحيى يقول :
لا نكذب الله ! ما سمعنا أحسن من رأى أبى حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله . وقال عبد الله بن
المبارك : لولا أن الله أعاننى بأبى حنيفة وسفيان الثورى لكنت كسائر الناس . وقال فى الشافعى :
رأيت رجلاً لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته : وقال الشافعى : من أراد الفقه فهو
عيال على أبى حنيفة ، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد الحديث فهو
عيال على مالك ، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وقال عبد الله بن داود الحاربي :
يلبغى للناس أن يدعوا فى صلاتهم لأبى حنيفة ، لحفظه الفقه والسنن عليهم . وقال سفيان الثورى
وابن المبارك : كان أبو حنيفة أقره أهل الأرض فى زمانه . وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص فى
المسائل . وقال مكى بن إبراهيم : كان أعلم أهل الأرض . وروى الخطيب بسنده عن أسد بن عمرو
أن أبا حنيفة كان يصلى بالليل ويقرأ القرآن فى كل ليلة ، ويبكى حتى يرحمه جيرانه . ومكث أربعين
سنة يصلى الصبح بوضوء العشاء ، وختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعين ألف مرة ، وكانت
وفاته فى رجب من هذه السنة - أعنى سنة خمسين ومائة - وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين .
وقال غيره : سنة ثلاث وخمسين . والصحيح الأول .

وكان مولده في سنة ثمانين قتم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام بن عمرو التغلبي ، وكان سبب عزله عنها أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر بميث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة يهدية وخيول عتاق إلى عمر بن حفص هذا إلى السند فقبلها ، فدعوه إلى دعوة أبيه محمد بن عبد الله بن حسن في السرفأجابهم إلى ذلك ولبسوا البياض . ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة سقط في أيديهم وأخذوا في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد ، فقال له عبد الله : إني أخشى على نفسي . فقال : إني سأبدئك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا ، وإنه من أشد الناس تمظيلاً لرسول الله (ص) ، وإنه متى عرفك أنك من سلالته أحببك . فأجابه إلى ذلك ، وسار عبد الله ابن محمد إلى ذلك الملك وكان عنده آمناء ، وصار عبد الله يركب في موكب من الزيدية ويتصيد في جحفل من الجنود ، وانضم إليه خلق وقدم عليه طوائف من الزيدية .

وأما المنصور فإنه بميث يعتب على عمر بن حفص نائب السند ، فقال رجل من الأمراء ابمشي إليه واجعل القضية مسندة إلى ، فاني سأعتذر إليه من ذلك ، فان سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء . فأرسله سفيراً في القضية إلى المنصور ، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه ، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها ، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد ، فجعل يتوانى في ذلك ، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك ، ثم اتفق الحال أن سيفاً أخاً هشام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتلى فلم يقدروا عليه . فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله ، فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه ، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها وللاً أسماه محمداً ، فاذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله ، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام والملك إلى المنصور ، ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة ، وكتب المنصور إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه ، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لئلا يضيع نسبه ، فهو الذي يقال له أبو الحسن بن الأشتر . وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من خراسان فتلقاء أبوه والأمراء والأكابر

إلى أثناء الطريق ، وقدم بعد ذلك نواب البلاد والشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر .
وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يحصى ولا يوصف .

بناء الرصافة

قال ابن جرير : وفي هذه السنة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان ، وهي في الجانب الشرقي من بغداد ، وجعل لها سوراً وخندقاً ، وعمل عندها ميداناً وبستاناً ، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي . قال ابن جرير :

وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعدهما ، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبلون يد المنصور ويد ابنه ويلبسون يد عيسى بن موسى ولا يقبلونها . قال الواقدي : وولى المنصور معن بن زائدة سجستان .

وحجج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو نائب مكة والطائف ، وعلى المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرة جابر بن زيد الكلبي ، وعلى مصر يزيد بن حاتم . ونائب خراسان حميد بن قحطبة ، ونائب سجستان معن بن زائدة . وغزا الصائفة فيها عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

وفيها توفي حنظلة بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عون ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علماً يهتدى به ، ونفراً يستجلى به ، والناس كلهم عيال عليه في ذلك ، كما قال الشافعي وغيره من الأئمة .

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاه محمد بن سعيد ، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصي وخالف ، فلما جئ به أمر بضرب عنقه . وعزل عن البصرة جابر ابن زيد الكلبي وولاه يزيد بن منصور . وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان . وفيها توفي عباد بن منصور ، ويونس بن يزيد الأيلي .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة

وفيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبنى أخيه الأربعة سجيناً ومسموداً ومخلداً ومحمدآ ، وطالبهم بالأموال الكثيرة . وكان سبب ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور ، وهو أنه كان في زمن شببته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه شيء ، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة ، ثم جعل يعبثها ويمتها أنه من بيت سيصير الملك إليهم سريراً ، فاتفق حبلاها منه ، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها

وتركها حاملاً ، ووضع عندها رقعة فيها نسبه ، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ،
 وأمرها إذا بلغت أمره أن تأتيه ، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفرآ . فولدت غلاماً فسمته جعفرآ .
 ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى المربية والأدب ، وأتقن ذلك إتقاناً جيداً ، ثم آل الأمر إلى بني
 العباس ، فسألت عن السفاح فإذا هو ليس صاحبها ، ثم قام المنصور وصار الولد إلى بغداد فاختلط
 بكتاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الانشاء للمنصور ، وحظي عنده وفداه
 على غير هـ ، فاتفق حصوره معه بين يدي الخليفة فعمل الخليفة يلاحظه ، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه
 بكتاب فدخل ومعه ذلك الغلام ، فكتب بين يدي المنصور كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله ،
 ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر ، فقال : ابن من ؟ فسكت الغلام ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال :
 يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت ، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره ، وسأله عن
 أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتمجب . ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال : أنت ابني . ثم
 بعثه بمقدنين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة الأمر وحال الولد . وخرج الغلام ومعه
 ذلك من باب سر الخليفة فأمر ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال : ما بطأ بك عند الخليفة ؟ فقال :
 إنه استكتبني في رسائل كثيرة ، ثم تقاولا ، ثم فارقه الغلام مغضباً ونمض من فوره فاستأجر إلى
 الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد ، إلى أبيه الخليفة . فسار مراحلاً ، ثم سأل عنه أبو أيوب
 فقيل سافر فظن أبو أيوب أنه قد أفشى شيئاً من أسرارهِ إلى الخليفة وفر منه ، فبعث في طلبه
 رسولاً وقال : حيث وجدته فردّه علي . فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخفقه وألقاه
 في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب . فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده
 وندم على بعثه خلفه . وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه وكشف عن خبره فإذا رسول أبي
 أيوب قد لحقه وقتله . فحينئذ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة ، وما زال في العقوبة حتى أخذ
 جميع أمواله وحواصله ثم قتله ، وجعل يقول : هذا قتل حبيبي . وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن
 عليه حزناً شديداً .

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية . فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون
 ألفاً ، ما بين فارس وراجل ، وعليهم أبو حاتم الانماطي ، وأبو عباد . وانضم إليهم أبو قرة الصفرى
 في أربعين ألفاً ، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه ، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفرة الذي
 كان نائب السند كما تقدم ، قتله هؤلاء الخوارج رحمسه الله . وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد ،
 وقتلوا الحريم والأولاد . وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا
 يسمنون على رفعها من داخلها بالقضب ، فقال أبو دلالة الشاعر في ذلك :

وكنا نرجى من إمام زيادة * فزاد الامام المرتضى في القلائس
 تراها على هام الرجال كأنها * دنانير يهودي جلات بالبرانس
 وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري فأسر خلقاً كثيراً من الروم يذيف على سنة
 آلاف أسير، وغنم أموالاً جزيلة. وحجج بالناس المهدي بن المنصور [وهو ولي العهد الملقب بالمهدي .
 وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم ، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن
 سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور ، وعلى مصر محمد بن سعيد . وذكر الواقدي أن يزيد بن
 منصور كان ولاه المنصور في هذه السنة اليمن . والله أعلم] (١) .

وفيها توفي أبان بن صمعة ، وأسامة بن زيد الليثي ، وثور بن يزيد الحمصي ، والحسن بن عمار ،
 وقطر بن خليفة ، ومممر وهشام بن الغازي والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجيز يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وولاه بلاد
 إفريقية ، وأمره بقتال الخوارج ، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف درهم ، وغزا
 الصائفة زفر بن عاصم الهلالي . وحجج بالناس فيها محمد بن إبراهيم . ونواب البلاد والأقاليم هم
 المذكورون في التي قبلها ، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن طليان . وفيها توفي أبو
 أيوب الكاتب وأخوه خالد ، وأمر المنصور ببنى أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد
 ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم . وفيها توفي :

أشعب الطامع

وهو أشعب بن جبير أبو العلاء ، ويقال أبو إسحاق المدني ، ويقال له أبو حميدة . وكان أبوه
 مولى لآل الزبير ، قتله المختار ، وهو خال الواقدي . روى عن عبد الله بن جعفر أن رسول الله
 (ص) كان يتختم في اليمن . وأبان بن عثمان ، وسالم وعكرمة ، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه
 لخلاصته وطمعه ، وكان حميد الغناء ، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة
 ذكر عنه فيها أشياء مضحكة ، وأسند عنه حديثين . وروى عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال :
 حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال : « خصلتان من عمل بهما دخل الجنة » ثم
 سكت فقبل له : وما هما ؟ فقال : نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى . وكان سالم بن عبد الله
 ابن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة ، وكذلك كان غيره من أكابر
 الناس . وقال الشافعي : عبت الولدان يوماً بأشعب فقال لهم : إن ههنا أناساً يفرقون الجوز - ليتردهم

عنه - فتسارع الصبيان إلى ذلك ، فلما رأهم مسرعين قال : لعله حق فتبهمهم . وقال له رجل : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلى فأ كسح داري وأنظف بابي وأكنس بيتي . واجتاز يوماً برجل يصنع طبقة من قش فقال له : زد فيه طورا أو طورين لعله أن يهدي يوماً لنفسه هدية . وروى ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد الله بن عمر قول بعض الشعراء :

مضين بها والبدر يشبه وجهها * مطهرة الأثواب والدين وافر
لها حسب ذلك وعرض مهذب * وعن كل مكروه من الأمر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ربيته * ولم يستملها عن ثقي الله شاعر
فقال له سالم : أحسنت فزدنا . ففناه :

ألمت بنا والليل داج كأنه * جناح غراب عنه قد نفص القطرا
فقلت أعمار توى في رحالنا * وما علمت ليلي سوى ربحها عطرا

فقال له : أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزات لك الجائزة ، وإنك من الأمر لمبكان . وفيها توفي جعفر بن برقان ، والحكم بن أبان ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقرة بن خالد ، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء ، واسمه كنيته ، وقيل اسمه ريان والصحيح الأول .

وهو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن المريان بن عبد الله بن الحصين التيمي المازني البصري ، وقيل غير ذلك في نسبه ، كان علامة زمانه في الفقه والنحو وعلم القراءات ، وكان من كبار العلماء العاملين ، يقال إنه كتب مل بيت من كلام العرب ، ثم تزهّد فأحرق ذلك كله ، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب ، وكان قد لقي خلقاً كثيراً من أعراب الجاهلية ، كان مقدماً أيام الحسن البصري ومن بعده . ومن اختياراته في العربية قوله في تفسيره الغرة في الجنين : إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية . فهم ذلك من قوله عليه السلام : « غرة عبد أو أمة » ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة ، وإنما الغرة البياض . قال ابن خلكان : وهذا غريب ولا أعلم هل بواقعه قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا . وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد بيتاً من الشعر حتى يسلخ ، وإنما كان يقرأ القرآن وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً ويربها طرياً ، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين .

كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وخمسين . وقيل تسع وخمسين فأنه أعلم . وقد قارب التسعين ، وقيل إنه جاوزها فأنه أعلم ، وقبره بالشام وقيل بالكوفة فأنه أعلم .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة صالح بن حلى بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله

ابن عباس مرفوعاً « لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو و كلب خير له من أن يربي ولداً لصنبيه ». وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر . ذكره من طريق تمام عن خيثمة بن سليمان عن محمد بن عوف الجصى عن أبي المغيرة عبد الله بن السمط عن صالح به ، وعبد الله بن السمط هذا لأعرس ، وقد ذكره شيخنا الحافظ الذهبي في كتابه الميزان وقال : روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عوداً على بدء ، وقتل من كان فيها من ثغاب عليها من الخوارج ، وقتل أمراءهم وأسرى كبارهم وأذل أشرفهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمناً وسلامة ، وبإلاهة كرامة ، وكان من جملة من قتل من أمراءهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان . ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فهدمها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محنورها والله سبحانه أعلم .

نبأ الرافقة وهي المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد في هذه السنة ، وأمر فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة ، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها ، من كل إنسان من أهل اليسار أربعين درهما . وقد فرضها أولاً خمسة دراهم ، خمسة دراهم ، ثم جباها أربعين أربعين ، فقال في ذلك بعضهم يا لقوى ما رأينا * في أمير المؤمنين * قسم الخمسة فينا * وجباها أربعين . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي . وفيها طلب ملك الروم الصلح من المنصور على أن يحمل إليه الجزية . وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالاً كثيرة . وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة ، فقبل لأمر بلفته عنه في تعاطي منكرات ، وأمر لاتباق بالعمال ، وقيل لقتله محمد بن أبي الموجه . وقد كان ابن أبي الموجه هذا زنديقاً . يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحمل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال ، ويصوم الناس يوم الفطر ويفطرون في أيام الصيام ، فأراد المنصور أن يحمل قتله له ذنباً فنزله به ، وإنما أراد أن يقيد منه ، فقال له عيسى بن موسى : يا أمير المؤمنين لا تمزله بهذا ولا تقتله به ، فإنه إنما قتله على الزندقة ، ومتى عزلته به شكره العامة وذموك ، فتركه حينئذ عزله وولى مكانه على الكوفة عمرو بن زهير . وفيها عزل عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي ، وجعل معه قليح بن سليمان مشرفاً عليه . وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد ، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية ، وعلى مصر محمد بن سعيد ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم . وفيها توفي مفزان

ابن عمرو وعثمان بن أبي المانكة الدمشقيان ، وعثمان بن عطاء ، ومسمر بن كدام .

حماد الراوية

وهو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سبابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، مولى بكير ابن زيد الخيل الطائي ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها ، وهو الذي جمع السمع المملقات الطوال ، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب ، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين في ذلك فأنشده تسماً وعشرين قصيدة على حروف المعجم ، كل قصيدة نحواً من مائة بيت ، وزعم أنه لا يسمي شاعر من شعراء العرب إلا أنشده له ما لا يحفظه غيره . فأطلق له مائة ألف درهم . وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص ، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر ، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام والذهب ، وإذا عنده جاريتان حسنتان جداً ، فاستنشد شيئاً فأنشده ، فقال له : سل حاجتك : فقال : كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : وما هي ؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين . فقال : هما وما عليهما لك ، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم . هذا ملخص الحكاية ، والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد ، فإنه ذكر أنه شرب معه الخمر ، وهشام لم يكن يشرب . ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر ، إنما كان نائبه خالد بن عبيد الله القسري ، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز . كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة . قال ابن خلكان : وقيل إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فأنشده ما أعلم .

وفيها قتل حماد عميرد على الزندقة . وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي ، ويقال إنه واسطي ، مولى بني سواد ، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً زنديقاً متهماً على الإسلام ، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يشتهر إلا في أيام بني العباس ، وكان يدينه وبين إشار بن برد مهاجرة كثيرة ، وقد قتل بإشار هذا على الزندقة أيضاً كما سيأتي ، ودفن مع حماد هذا في قبره ، وقيل إن حماداً عميرد مات سنة ثمان وخمسين ، وقيل إحدى وستين ومائة فأنشده ما أعلم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب المنصور على البصرة ، بعمر بن شداد الذي كان عاملاً لابراهيم ابن محمد على فارس . فقتل أسر فقطعت يداؤه وجلاه وضربت عنقه ثم صلب . وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية هذا الذي فعل هذه الفعلة عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله ، فجمع له بين القضاء والصلاة ، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج ، ورجع الهيثم بن معاوية قاتل عمرو بن شداد إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة ، وهو على بطن جارية له ، وصلى عليه

المنصور ودفن في مقابر بني هاشم ، ويقال إنه أصابته دعوة عمر بن شداد الذي قتله تلك القتلة ،
فلينق العبدُ الظلم .

وحج بالناس العباس بن محمد أخو المنصور ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وعلى فارس
والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة ، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو . وفيها توفي حمزة الزيات
في قول . وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين ، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة
اصطلاحاً من عنده ، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة وأنكروها عليه . وسعيد بن أبي عروبة ،
وهو أول من جمع السنن في قول ، وعبد الله بن شاذب ، وعبد الرحمن بن زياد بن أعم الأفریقی ،
وعمر بن ذر . ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد ، تفاؤلاً بالتخليد في الدنيا ، فعند كماله مات
وخرّب القصر من بعده ، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة ، والربيع مولى المنصور وهو
حاجبه . وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الإمارة إلى باب الكرخ . وقد ذكرنا فيما تقدم
سبب ذلك . وفيها أمر بتوسعة الطرقات . وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشمير . وفيها استعرض
المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لا بس سلاحاً عظيماً ، وكان ذلك عند دجلة . وفيها
هزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها سعيد بن الخليل . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد
السلي فأوغل في بلاد الروم ، وبث سناناً مولى البطل مقدمة بين يديه ففتح حصونا وسبي وغنم .
وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وفيها
توفي الحسين بن واقد ، والامام الجليل علامة الوقت أبو عمرو وعبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي فقيه
أهل الشام وإمامهم . وقد بقى أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين
سنة . شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي . والأوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم ،
قاله محمد بن سعد . وقال غيره : لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع ، وهي قرية خارج
باب الفرديس من قرى دمشق ، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني . قال أبو زرعة : وأصله من
سبي السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها . وقال غيره : ولد ببعلبك ونشأ بالبقيع بدمشق
حجر أمه ، وكانت تلتقل به من بلد إلى بلد ، وتأدب بنفسه ، فلم يكن في أبناء الملوك وانحلفا ،
والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أروع ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوفر ولا أحلم ، ولا أكثر
صبراً منه ، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه ، من حسنها ،

وكان يمانى الرسائل والكتابة ، وقد اكتب مرة في بعث إلى الإمامة فسمع الحديث من يحيى بن
أبي كثير وانقطع إليه فأرشدته إلى الرحلة إلى البصرة ليدسمع من الحسن وابن سيرين . فصار إليها
فوجد الحسن قد توفي من شهرين ووجد ابن سيرين مريضاً ، فجعل يتردد لميادته ، فقوى المرض
به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً . ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراديس ،
وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام . وقد
أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين ، كمالك بن أنس والثوري
والزهري ، وهو من شيوخه . وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته .
قال مالك : كان الأوزاعي إماماً يقتدى به . وقال سفیان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعي إمام
أهل زمانه ، وقد حج مرة فدخل مكة وسفیان الثوري أخذ بزمام جملة ، ومالك بن أنس يسوق به ،
والثوري يقول : افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه . وقد
تذاكر مالك والأوزاعي مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر ، ومن العصر حتى صليا المغرب ،
فغمره الأوزاعي في المغازي ، وغمره مالك في الفقه . أو في شيء من الفقه . وتناظر الأوزاعي
والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه . فاحتج الأوزاعي على الرفع
في ذلك بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه « أن رسول الله (ص) كان يرفع يديه في الركوع
والرفع منه » . واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد : فغضب الأوزاعي وقال :
لعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف ؟ فحار وجه الثوري ، فقال
الأوزاعي : لعلك كرهت ما قلت ؟ قال : نعم . قال : قم بنا حتى نلتعن عند الركن أينما على الحق .
فسكت الثوري . وقال هقل بن زياد : أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة بحدثننا . وأخبرنا . وقال
أبو زرعة : روى عنه ستون ألف مسألة . وقال غيرهما : أفتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ
ذاك خمس وعشرون سنة ، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله ذاك . وقال يحيى القطان عن مالك :
اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت : أيهم أرجح ؟ قال : الأوزاعي . وقال محمد بن
عجلان : لم أر أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي . وقال غيره : ما روى الأوزاعي ضاحكاً مقهياً
قط ، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه ، وما رأيته يبكي في مجلسه
قط وكان إذا خلى بكى حتى يرحم . وقال يحيى بن معين : العلماء أربعة : الثوري ، وأبو حنيفة ،
ومالك ، والأوزاعي . قال أبو حاتم : كان ثقة متبعاً لما سمع . قالوا : وكان الأوزاعي لا يلحن في
كلامه ، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتمتع من فصاحتها وحلاوة عبارتها .

وقد قال المنصور يوما لأخطى كتابه عنده - وهو سليمان بن جبال - : ينبغي أن نجيب الأوزاعي على ذلك دائما ، لنستمع بكلامه فيما نكتب به إلى الآفاق إلى من لا يعرف كلام الأوزاعي . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه . وقال الوليد بن مسلم : كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس ، وكان يأثر عن السلف ذلك . قال : ثم يقومون فينشدون في الفقه والحديث . وقال الأوزاعي : رأيت رب العزة في المنام فقال : أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقلت : بفضلك أي رب . ثم قلت : يا رب أمتني على الإسلام . فقال : وعلى السنة . وقال محمد بن شعيب بن شابور : قال لي شيخ بجامع دمشق : أنا مبيت في يوم كذا وكذا . فلما كان في ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتغلى ، فقال لي : اذهب إلى سرير الموتى فاحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه . فقلت : ما تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، وإني رأيت كأن قائلا يقول فلان قدرى ، وفلان كذا وعثمان بن العاصمك نعم الرجل ، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض ، وأنت ميت في يوم كذا وكذا . قال محمد بن شعيب : فما جاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بدمعها وأخرجت جنازته . ذكر ذلك ابن عساكر . وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعا فاسكا طويلا الصمت ، وكان يقول : من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة ، أخذ ذلك من قوله تعالى [ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا] ، إن هؤلاء يحبون العاجلة وينفرون وراءهم يوما ثقيلا [وقال الوليد بن مسلم : ما رأيت أحدا أشد اجتهادا من الأوزاعي في العبادة . وقال غيره : حج فنام على الراحلة ، إنما هو في صلاة ، فإذا نكس استند إلى القتب ، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى . ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصر الذي يصل عليه مبلولا فقالت لها : لعل الصبي بال ههنا . فقالت : هذا أنردموع الشيخ من بكائه في سجوده ، هكذا يصبح كل يوم . وقال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم . وقال أيضا : اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم ، وقل ما قالوا وكف عما كفوا ، وليس لك ما وسعهم . وقال : المسلم ما جاء عن أصحاب محمد ، وما لم يجهز عنهم فليس بعلم . وكان يقول : لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلب مؤمن . وإذا أراد الله بقوم شرآ فتح عليهم باب الجبل وسد عنهم باب العلم والعمل . قالوا : وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخامهم ، وكان له في بيت المال على الخلفاء أقطاع صار إليه من بنى أمية وقد وصل إليه من خلفاء بنى أمية وأقاربهم وبنى العباس نحو من سبعين ألف دينار ، فلم يمك منها شيئا ، ولا اقتنى شيئا من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه ، بل

كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين .

ولما دخل عبد الله بن علي - عم السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام ، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده - دمشق فطلب الأوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه . قال الأوزاعي : دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسودة عن يمينه وشماله ، معهم السيوف مصلنة - والعمد الحديد - فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال : يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلة عن العباد والبلاد ؟ أجهداً ورباطاً هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله (ص) يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . قال فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية ؟ فقلت : قال رسول الله (ص) : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فنكت بها أشد من ذلك ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تجل لك إلا بطريق شرعي . فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : ألا توليك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك ، وإني أحب أن يتم ما ابتدؤني به من الاحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ فقلت : إن وراني حراماً وهم محتاجون إلى القيام عليهم وسترهم ، وقلوبهم مشغولة بسببي . قال : وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف . فلما خرجت إذا برسوله من ورائي ، وإذا معه مائتا دينار ، فقال يقول لك الأمير : استنفق هذه . قال : فنصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً . قال : وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده .

قالوا : ثم رحل الأوزاعي من دمشق فنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده ، قال الأوزاعي : وأعجبني في بيروت أنني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القبور فقلت لها : أين العمارة يا هنتاه ؟ فنالت : إن أردت العمارة فهي هذه - وأشارت إلى القبور - وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة بها . وقال محمد بن كثير : سمعت الأوزاعي يقول : خرجت يوماً إلى الصحراء فإذا رجل جراد وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد ، وكلمة قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل باطل باطل ، وما فيها باطل

باطل باطل . وقال الأوزاعي : كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة فحسف ببغلتيه فلم يبق منها إلا أذناها ، وخرج الأوزاعي يوما من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول : يا بصل أحلى من العسل ، أو قال أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئا من الكذب يباح ؟ فكان هذا ما يرى في الكذب بأسا .

وقال الواقدي قال الأوزاعي : كنا قبل اليوم نضع ونلعب ، أما إذ صرنا أمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسمنا ذلك ، ويلبني أن نتحفظ . وكتب إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر العهد بك والسلام .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح - كاتب الليث - يذكر عن المهمل ابن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الحرب من نار الله الموقدة ، التي تطلع الأفتدة ، فانكم في دار الثراء فيها قليل ، وأنتم عما قليل منها راحلون ، خلافت بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آتقها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً ، وأعظم أحلاماً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فغددوا الجبال وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا في البلاد ، مؤيدين ببطش شديد ، وأجساد كالمداد ، فالبثت الأيام والليالي أن طوت آثارهم ، وأخرت منازلهم وديارهم ، وأنست ذكركم ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزا ؟ كانوا يلهو الأمل آمنين ، وعن ميقات يوم موتهم غافلين ، فأبوا ليلاب قوم ناديين ، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بيانا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين ، وأصبح الباقون المتخلفون يبصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نعمته ، وزوال نعمته عن تقدمهم من المالكين ينظرون والله في مساكن خالية خاوية ، قد كانت بالمرحومة ، وبالنعم مرفوعة ، والقلوب إليها مصروفة ، والأعين نحوها ناظرة ، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم بعدكم في أجل منقوص ودنيا منقوصة ، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه ، فلم يبق منه إلا جهة شر ، وصباية كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال قتن ، وتتابع زلازل ، ورذالة خلف بهم ظلم الفساد في البر والبحر ، يضيقون الديار وينفلون الأسفار بما يرتكبونه من العار والشنار ، فلا تكبروا أشباها لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، ولعبت به الأماني ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دعى بدر ، وإذا نهى انتهى ، وعقل مثواه فهد لنفسه . وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه ، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع

الحاجب : الحق فأسأله لم كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أنى قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأنى لم أرمحما أحرم فيه ، ولا ميتا كفن فيه ، ولا عروسا جلست فيه ، فلماذا أكرهه . وقد كان الأوزاعى فى الشام معظمًا مكرما أمره أعز عندهم من أمر السلطان ، وقد هم به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه : دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك . ولما مات جلس على قبره بعض الولاة فقال : رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذى ولانى - يعنى المنصور - . وقال ابن أبى العشرين : مات الأوزاعى حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه .

وقال أبو بكر بن أبى خيشمة : حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى قال : كنت جالسا عند الثورى فجاء رجل فقال : رأيت كأن ربحانة من المغرب - يعنى قلمت - . قال : إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعى . فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعى فى ذلك اليوم . وقال أبو مسهر : بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه ، ولم تكن عامدة ذلك ، فأمرها سميد بن عبد العزيز بعتق رقبة . قال : وما خلف ذهبًا ولا فضة ولا عقارًا ، ولا متاعًا إلا ستة وثمانين ، فضلت من عطائه . وكان قد اكتتب فى ديوان الساحل . وقال غيره : كان الذى أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام ، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتا قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله .

قلت : لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطًا ، واختلفوا فى سنه ووفاته ، فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال قال أحمد : رأيت الأوزاعى وتوفى سنة خمسين ومائة . قال العباس بن الوليد البيروتى : توفى يوم الأحد أول النهار لليلتين بقينا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو الذى عليه الجمهور وهو الصحيح ، وهو قول أبى مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم - فى أصح الروايات عنه - ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبى عبيد وسميد بن عبد العزيز وغير واحد . قال العباس بن الوليد : ولم يبلغ سبعين سنة . وقال غيره : جاوز السبعين ، والصحيح سبع وستون سنة ، لأن ميلاده فى سنة ثمان وثمانين على الصحيح . وقيل إنه ولد سنة ثلاث وسبعين ، وهذا ضعيف . وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : دلنى على عمل يقربنى إلى الله . فقال : ما رأيت فى الجنة درجة أعلا من درجة العلماء العاملين ، ثم المحزونين .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

فبها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياما يسيرة ثم مات وتركه ، وفيها مات طاغية الروم . وفيها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل ، وأن يولى عليها خالد بن برمك ، وكان ذلك بعد نكته غريسة اتفقت ليحيى بن خالد ، وذلك أن

المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك ، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف ، فضاق ذرعاً بذلك ، ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثرها ، وقد أجله ثلاثة أيام ، وأن يحمل ذلك في هذه الثلاثة الأيام وإلا فدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم ، فكان منهم من أعطاه مائة ألف ، ومنهم أقل وأكثر . قال يحيى بن خالد : فبينما أنا ذات يوم من تلك الأيام الثلاثة على جسر بغداد ، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا مما لا طاقة لنا به ، إذ وثب إلى زاجر من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية ، فقال لي : ابشر ، فلم ألفت إليه ، فتقدم إلى حق أخذ بلجام فرسى ثم قال لي : أنت مهموم ، ليفرجن الله همك ولتفرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك ، فان كان ما قلت لك حقاً فلي عليك خمسة آلاف . فقلت : نعم . ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم ، لبعد ذلك عندي . وذهبت لشأني ، وقد بقي علينا من الحل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد فيها ، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح الموصل ؟ فأشار بعضهم بخالد بن برمك ، فقال له المنصور : أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ؟ فقال : نعم ، وأنا الضامن أنه يصلح لها ، فأمر باحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه ، وعقد له اللواء ، وولى ابنه يحيى أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما . قال يحيى : فقررنا بالجسر فثار لي ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به ، فأمرت له به فقبض خمسة آلاف .

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدى معه ، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات به وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر ودركه في المواجر ، وأخذته إسهال وأفرط به ، فتوى مرضه ، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لتست مضين من ذى الحجة ، وصلى عليه ودفن بكدا عند ثنية باب المملاة التي بأعلا مكة ، وكان عمره يومئذ ثلاثاً وقليل أربعمائة وقليل خمسين ، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة فله أعلم . وقد تيمم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القواد ودؤس بنى هاشم ، ثم دفن . وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي ، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة .

ترجمة المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور . وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح ، وأمه أم ولد اسمها سلامة . روى عن جده عن ابن عباس « أن رسول الله (ص) كان يتختم في يمينه » أوردته ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به ، ويوع له بالخلافة بعد أخيه في ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة ، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين

على المشهور في صفر منها بالحكمة من بلاد البلقاء ، وكانت خلافته ثنتين وعشرين سنة إلا أياماً ، وكان أسمر اللون موفر اللثة خفيف اللحية ، رطب الجبهة ، ألقى الأنف ، أعين كأن عينييه لسانان ناطقان ، يخالطه أبهة الملك ، وتقبله القلوب ، وتقبه العيون ، يعرف الشرف في مواضعه ، والعنف في صورته ، والليث في مشيته ، هكذا وصفه بعض من رآه . وقد صح عن ابن عباس أنه قال : « منا السفاح والمنصور » وفي رواية « حتى نسلها إلى عيسى بن مريم » . وقد روى مرفوعاً ولا يصح ولا وقفه أيضاً . وذكر الخطيب أن أمه سلامة قالت : رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزأر وأقفا على يديه ، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له . وقد رأى المنصور في صفره مناما غريباً كان يقول : ينبغي أن يكتب في ألواح الذهب ، ويعلق في أعناق الصبيان . قال : رأيت كأنى في المسجد الحرام وإذا رسول الله (ص) في الكعبة والناس مجتمعون حولها ، فخرج من عنده مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخى السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها ، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود . ثم تودى أين عبد الله ؟ فقامت أنا وعمى عبد الله بن علي نستبق ، فسبقته إلى باب الكعبة فدخلتها ، فإذا رسول الله (ص) ، وأبو بكر وعمر وبلال ، فمقد لي لواء وأوصاني بأمرته وعمى عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً ، وقال : « خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة » . وقد اتفق سجن المنصور في أيام بنى أمية فاجتمع به نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له : من تكون ؟ فقال : من بنى العباس ، فلما عرف منه نسبه وكنيته قال : أنت الخليفة الذى تلى الأرض . فقال له : ويحك ماذا تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، فضع لى خطك فى هذه الرقعة أن تعطينى شيئاً إذا وليت . فكتب له ، فلما ولى أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه ، وكان قبل ذلك مجوسياً . ثم كان من أخص أصحاب المنصور . وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة ، وأحرم من الحيرة ، وفى سنة أربع وأربعين ، وفى سنة سبع وأربعين . وفى سنة ثنتين وخمسين ، ثم فى هذه السنة التى مات فيها . وبني بغداد والرصافة والرافقة وقصره الخلد .

قال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، وأنا . وقال مالك : قال لى المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله (ص) ؟ فقلت : أبو بكر . وعمر . فقال : أصبت بذلك رأى أمير المؤمنين . وعن إسماعيل البهرى قال سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بنو فقه ورشده ، وخازنه على ماله أقسمه بارادته وأعطيه بأذنه ، وقد جعلنى الله عليه قفلاً فإن شاء أن يفتحنى لأعطيتكم وقسم أرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلنى عليه قفلنى . فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى

وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول : [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً] . أن يوقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، فانه سميع مجيب .

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل ، فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذا كره ، واثق الله فيما تأتيه وتندره . فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال : أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه [وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم] أو أن أكون جباراً عصبياً ، أيها الناس ! إن الموعظة علينا نرات ومن عندنا نبئت . ثم قال للرجل : ما أظنك في مقاتلتك هذه تريد وجه الله ، وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين ، أيها الناس لا يفرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها ، ثم قال لمن هو عنده : أعرض عليه الدنيا فان قبلها فأعلمني ، وإن ردها فأعلمني ، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدنيا فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة ، وثياب وشارة وهيئة دنيوية ، فقال له الخليفة : ويحك ! لو كنت محققاً صريداً وجه الله بما قلت على رؤس الناس لما قبلت شيئاً مما أرى ، ولكن أردت أن يقال عنك إنك وعظت أمير المؤمنين ، وخرجت عليه ، ثم أمر به فضربت عنقه . وقد قال المنصور لابنه المهدي : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة . والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالمعروف أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه . وقال أيضاً : يا بني استدم النعمة بالشكر ، والقسرة بالمعروف ، والطاعة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله .

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع والسيف ، فقال له مبارك : سمعت الحسين يقول قال رسول الله (ص) : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » فأمر بالمعروف عن ذلك الرجل . ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائم ذلك الرجل وما صنعه . وقال الأصمعي : أتى المنصور برجل ليعاقبه فقال : يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والمعفو فضل ، وتعوذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين ، وأدنى القسمين ، دون أرفع الدرجتين . قال فعفا عنه .

وقال الأصمعي : قال المنصور لرجل من أهل الشام : أحمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا . فقال إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ، ولا يتكلم الطاهرون . والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً . [ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذا كر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة ، واذا كر ليلة تمخض عن

يوم لاليلة بعده . قال : فأفهم المنصور قوله وأمر له بقال فقال : لو احتجت إلى مالك لما وعظنتك^(١) ودخل عمرو بن عبيد القدرى على المنصور فأكرمه وعظمه وقر به وسأله عن أهله وعياله ، ثم قال له : عظمى . فقرأ عليه سورة الفجر إلى [إن ربك لبالمرصاد] فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك ، ثم قال له : زدنى . فقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صار لمن بعدك ، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة . فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجنافه . فقال له سليمان بن بجالد : رفقاً بأمر المؤمنين . فقال عمرو : وماذا على أمير المؤمنين أن يبكى من خشية الله عز وجل . ثم أمر له المنصور بمشرة آلاف درهم فقال : لا حاجة لى فيها . فقال المنصور : والله لتأخذنها . فقال : والله لا آخذنها . فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت إلى المنصور فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا ابني محمد ولي العهد من مهدي . فقال عمرو : إنك سميتك اسماً لم يستحقه لعمله ، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ، ولقد مهدت له أمراً أمتنع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدي فقال : يا ابن أخي ! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلأن يحث أبوك أيسر من أن يحث عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم ! قال : وما هي ؟ قال : لا تبعث إلى حق آتيك . ولا تعطى حق أسألك . فقال المنصور : إذا والله لا نلتقى . فقال عمرو : من حاجتى سألتنى . فودعه والصرف . فلما ولى أمده بصره وهو يقول :

كلكم يمشى رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد
ويقال إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في مواعظته إياه وهي قوله :

يا أيها الذى قد غره الأمل * ودون ما يامل التنغيص والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها * كنزل الركب حلوا ثم ارتحلوا
حتوقها رصة وعيشها نكد * وصفوها كدر وملكها دول
تظل تفرع بالروعات ساكنها * فما يسرع له لين ولا جنل
كأنه للمنايا والردى غرض * تظل فيه بنات الدهر تنقل
تديره ما تدور به دوائرها * منها المصيب ومنها المخطئ الزلل
والنفس هاربة والموت يطلبها * وكل عسرة رجل عندها جلل
والمرء يسى بما يسى لوارثه * والقبر وارث ما يسى له الرجل

وقال ابن دريد عن الريثي عن محمد بن سلام قال : رأت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فقالت :
خايقة وقيص مرقوع ؟ فقال : ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة

قد يدرك الشرق الفتي ورداؤه * خلق وبعض قيصر مرقوع
وقال بعض الزهاد للمنصور : اذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة مثلها ، واذكر ليلة
تمخض عن يوم القيامة ليلية بمسما فأفحم المنصور قوله فأمر له بقال . فقال : لو احتججت إلى مالك
ما وعظمتك . ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم : -

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة * فإن فسد الرأي أن يترددا
ولا تهمل الأعداء يوماً لفدرة * وبأدرهم أن يملكوا مثلها غدا
ولما قتله وراه طريقاً بين يديه قال : -

قد اكتنفتك خلأت ثلاث * جلبن عليك محتوم الحمام
خلافك وامتناعك من يميني * وقودك للجماهير المظالم
ومن شعره أيضاً : -

المرء يأمل أن يمد * ش وطول عمره قد يضره
تبلى بشاشته ويه * في بعد حل العيش مرة
وتخونه الأيام حتى * لا يرى شيئاً يسره
كم شمت بي إن هلك * مت وقائل لله دره

قالوا : وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل
والنظر في مصالح العامة ، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر ، فإذا صلاها جلس لأهل
بيته ونظر في مصالحهم الخاصة ، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ،
وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر ،
فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه .
وقد ولي بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلاباً وبزاة ، فكذب إليه
تكلتك أمك وعشيرتك ، ويحك إنا إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين ، ولم نستكفك
أمر الوحوش في البراري ، فسلم ماتلى من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وأتى يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور : ويحك
يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش ؟ فقال الخارجى : ويلك سواء لك بيني وبينك أمس السيف
والقتل واليوم القذف والسب ، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فما أستقبلها أبداً .

قال فاستحي منسه المنصور وأطلقه . فما رأى له وجهها إلى الحول [وقال لابنه لما ولاه العهد : يا بني ائتمم النعمة بالشكر ، والقدره بالمغو ، والنصر بالتواضع ، والتألف بالطاعة ، ولا تقس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله] (١)

وقال أيضا : يا بني ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه . وقال المنصور : يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندهك من أهل الحديث من يحدثك ، فان الزهرى قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهه إلا مؤنثون ، وصدق أخو زهرة . وقد كان المنصور في شببته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقهاء فنال جانباً جيداً وطرفاً صالحاً ، وقد قيل له يوما : يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تذله ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول الحديث للشيخ من ذكرت رحمتك الله . فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : ليل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم اللئسة ثيابهم ، المشقة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالمراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن . فهؤلاء نقلة الحديث .

وقال يوما لابنه المهدي : كم عندك من دابة ؟ فقال لا أدري . فقال : هذا هو التقصير ، فأنت لأمر الخلافة أشد تضيقاً فائق الله يا بني . وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي : دخلت يوما على المنصور وهو يشتكي ضرسه ويداه على صدغيه فقال لي : كم عندك من المال يا خالصة ؟ فقلت ألف درهم . فقال : ضعي يدك على رأسي واحلني ، فقلت : عندي عشرة آلاف دينار . قال : اذهبي فاحملها إلي . فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه فوكزني برجله وقال : ويحك ! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأس مالا قمارض ، وإنه لا يسمعك إلا ما أمرك به . فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار ، فاستدعي بالمهدي فقال له : تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة ؟ وقال المنصور لخازنه : إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلقان الشباب قبل أن يجيء ، فجاء بها فوضعهما بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقلبها ، فجعل المهدي يضحك ، فقال : يا بني من ليس له خلق ليس له جديد ، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد . فقال المهدي : على كسوة أمير المؤمنين وعياله ، فقال : دونك فافعل .

وذكر ابن جرير عن الهيثم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبنض أعمامه ألف ألف درهم . وفي هذا اليوم فرق في بيته عشرة آلاف درهم ، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد . وقرأ بعض القراء عند المنصور [الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل] فقال : والله لولا أن المال حتم

للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزها ما بث ليلة واحدة وأنا أحرص منه ديناراً ولا درهما لما جد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة . وقرأ عنده قارئ آخر [ولا تجعل يدك منلوذة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط] الآية . فقال : ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل . وقال المنصور : سمعت أبي يقول سمعت علي بن عبيد الله يقول : سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء ، وسادة أهل الآخرة في الآخرة الأتقياء .

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة دعا ولده المهدي فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً ، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور ، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وخرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فان بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجب إليهم من الخراج درهم عشرين ، وعهد إليه أن يقضى ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار ، فانه لم يرتضها من بيت المال . فامتثل المهدي ذلك كله . وأحرم المنصور بمحج وعمره من الرصافة وساق بدنه وقال : يا بني إني ولدت في ذى الحجة وتدد وقع لي أن أموت في ذى الحجة ، وهذا الذي جرأتني على الحج عامي هذا . وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو ثقیل جداً ، فلما كان بآخر منزل نزله دين مكة إذا في صدر منزله مكتوب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) .

أبا جعفر سانت وفاتك وانتقضت * سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من كرب النية مالمع
فدعا بالحجة فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعى إليه . قالوا : ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول : -

أما ورب السكون والحرك * إن الدنيا كثيرة الشرك
عليك يا نفس إن أسأت وإن * أحسنت يا نفس كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا بنقل السلطان عن ملك * إذا انتفضى ملكه إلى ملك
حتى يصير أنه إلى ملك * ماعز سلطانه بمشرك
ذاك بديع السماء والأرض والمر * سى الجبال السخر الفلك

فقال المنصور : هذا أوان حضور أجلي وانتضاء عمري . وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد لدى بناء وتألّق فيه مناماً أفزعه فقال للزبيع : ويحك يا زبيع لقد رأيت مناماً هالتي ، رأيت قائلاً يقف في باب هذا القصر وهو يقول :

كأنى بهذا القصر قد بادأ أهله * وأوحش منه أهله ومنازله

وصار رئيس القصر من بعدهمجة * إلى جدث يبنى عليه جنادله

فما أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى مرض في طريق الحج ، ودخل مكة مدنفًا ثقيلًا . وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل اسبع . مضى من ذى الحجة ، وكلن آخر ما تكلم به أن قال : اللهم بارك لى فى لقاءك . وقيل : إنه قال يارب إن كنت عفتك فى أمور كثيرة فقد أظمتك فى أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصا . ثم مات . وكان نقش خاتمه . الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . وكان عمره يوم وفاته ثلاثا وستين سنة على المشهور ، منها ثنتان وعشرون سنة خليفة . ودفن بباب الملاة رجة الله . قال ابن جرير : ومما رنى به قول سلم الخلس الشاعر :

عجبا للذى نسى الناعمين * كيف فاهت بهوته الشفتين
ملك أن عدا على الدهر يوما * أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفاحت عليه ترابا * لم تعد فى يمينها يمينان
حين دانت له البلاد على المد * فوأغضى من خوفه الثقلان
أين رب الزوراء قد قلته الـ * ملك عشرين حجة واثنتان
إنما المرة كالزناد إذا ما * أخذته قوادح النيران
ليس يثنى هواه زجر ولاية * مدح فى حيله ذوو الأذهان
قلته أعنة الملك حتى * قاد أعداءه بغير عنان
يكسر الطرف دونه وترى الـ * مدى من خوفه على الأذقان
ضم أطراف ملكهم ثم أضحى * خلف أقصام ودون الداني
هاشمى التشير لا يحمل النة * لى على غارب الشرود المدان
ذو آفة يندى لها الخائف الخو * ف وعزم يلوى بكل جنان
ذهبت دونه النفوس حذارا * غير أن الارواح فى الأبدان

وقد دفن عند باب الملاة بمكة ولا يعرف قبره لأنه أعمى قبره ، فان الربيع الحاجب جفر مائة قبر ودفنه فى غيرها لئلا يعرف .

أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده ، وجعفر الأكبر مات فى حياته ، وأمهما أروى بنت منصور . وعيسى ، ويعقوب ، وسليمان ، وأمههم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله . وجعفر الأصغر من أم ولد كردية ، وصالح المسكين من أم ولد رومية . يقال لها قالى الفراشة . والقاسم من أم

ولد أيضاً . وإمالية من امرأة من بني أمية .

خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبوه بمكة استأوى لسبع ماضين من ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت البيعة للمهدي من رؤس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه ، وبعث الربيع الحاجب بالبيعة مع البرد إلى المهدي وهو ببغداد ، فدخل عليه البريد بذلك يوم الثلاثاء النصف من ذى الحجة ، فسلم عليه بالخلافة وأخطاه الكتب بالبيعة ، وبايعه أهل بغداد ، ونفذت بيعة إلى سائر الأفاق . وذكر ابن جرير أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجحد البيعة لابنه المهدي ، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه . وحج بالباس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه المنصور ، وهو الذي صلى عليه ، وقيل إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي ، والصحيح الأول ، لأنه كان نائب مكة والطائف ، وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن علي ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي - أخو المسيب ابن زهير أمير الشرطة للخليفة - وعلى خراسان حميد بن قحطبة ، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة ابن حمزة ، وعلى صلاتها وقضاها عبد الله بن الحسن العنبري ، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج .

قال الواقدي : وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم هذير ، منهم أفلح بن حميد ، وحياة بن شريح ، ومروية بن صالح بمكة ، وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان ، يقال له النجيمي العنبري الكوفي القتيبي الحنفي ، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة ، وأكثرهم استمالة للقياس ، وكان عابداً ، اشتغل أولاً بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس . ولد سنة ست عشرة ومائة ، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثلثين وأربعين سنة رحمه الله وإيانا .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استلمت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله محمد بن المنصور المهدي ، فبعث في أولها العباس ابن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف ، وركب معهم مشيماً لهم ، فساروا إليها فالتحقوا بمدينة عظيمة للروم ، وغنموا غنائم كثيرة وزجروا سائمين لم يفتقد منهم أحد . وفيها توفي حميد بن قحطبة نائب خراسان ، فولى المهدي مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد ، وولى حمزة بن مالك سجستان ، وولى جبريل بن يحيى سمرقند . وفيها بنى المهدي مسجد الرسافة وشيخها . وفيها جهز جيشه لقتل إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتية ، وكان من أمرهم ما سندرهم . وفيها توفي نائب البند سعيد بن الحليل فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله . وفيها أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوباً على دم ، أو من سعى في الأرض فساداً ، أو من كان عنده

حق لأحد . وكان في جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بنى سليم ، والحسن بن إبراهيم ابن عبد الله بن حسين ، وأمر بصيرورة حسن هذا إلى نصير الخادم ليحترز عليه . وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه ، فلما خرج يعقوب بن داود ناصح الخليفة بما كان عزم عليه فنقله من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه ، وحظي يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان ، وجملة على أمور كثيرة ، وأطلق له مائة ألف درهم . وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عنده . وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد وولى بدلهم . وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي ، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً ، وهي أم الرشيد . وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي في دجلة بغداد . ولما ولى المهدي سأل عيسى بن موسى - وكان ولى المهدي من بعده - أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي ، وسأل المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فأذن له ، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم ، فكتب إلى المهدي : إن عيسى بن موسى لا يأتي الجمعة ولا الجمعة مع الناس إلا شهرين من السنة ، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصل الناس . فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى المسجد إلا مشاة . فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته - وكانت ملاصقة للمسجد - وكان يأتي إليها من يوم الخميس ، فإذا كان يوم الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل إلى هناك وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله ، ثم ألح المهدي عليه في أن يخلع نفسه وتوعده إن لم يفعل ، ووعدته إن فعل فأجابه إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة ، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف ، وقيل عشرين ألف ألف ، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي ، ثم هارون الرشيد كما سيأتي .

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي ، وكان نائباً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه ، وغالب نواب البلاد عزلهم المهدي ، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد ابن سليمان أبو حمزة ، وعلى خراسان أبو عون ، وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة ، وعلى اليمن رجاء بن روح ، وعلى البصرة بشر بن المنذر ، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى المدينة عبيد الله بن صديان الجمحي ، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح السكندی ، وعلى خراجها ثابت بن موسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي ، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاتها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النخعي ، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري .

وفيهما توفي عبد العزيز بن أبي رواد ، وعكرمة بن عمار ، ومالك بن مغول ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذيب المدني : فظفر مالك بن أنس في الفقه ، وربما أنكر على مالك أشياء ترك الأخذ فيها ببعض الأحاديث ، كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل .
ثم دخلت سنة ستين ومائة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكرآ عليه أحواله وسيره وما يتعاطاه ، يقال له يوسف البرم ، والتف عليه خلق كثير ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب به ، فتوجه إليه يزيد بن يزيد فلقبه فاقنتلا قتالا شديداً حتى تنازلا وتماثقا ، فأسر يزيد بن يزيد يوسف هذا ، وأسر جماعة من أصحابه فبمنهم إلى المهدي فأدخلوا عليه ، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذناب الابل ، فأمر الخليفة هرثة أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأمامي بمأبى عسكر المهدي وأطلقا الله نائزتهم وكفى شرم .

البيعة لموسى الهاشمي

ذكرنا أن المهدي ألح على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه وهو مع كل ذلك يمتنع وهو مقيم بالكوفة ، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لاحتضاره إليه ، وأمر كل واحد منهم أن يحمل طبلًا ، فاذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم على طبله ، ففعلوا ذلك فارتجت الكوفة ، وخاف عيسى بن موسى ، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه يشتكي ، فلم يقبلوا ذلك منه بل أخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة ، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع ، ثم لم يزل الناس به بالرغبة والرغبة حتى أجاب في يوم الجمعة لأربع مضين من المحرم بمسد العصر . وبويع لولدي المهدي موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة عظيمة في إيوان الخلافة ، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المنبر وجلس ابنه موسى الهاشمي تحته ، وقام عيسى بن موسى على أول درجة ، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الإيمان التي له في أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهاشمي . فصديق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدي على ذلك . ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم ، وكتب على عيسى بن موسى مكتوبا مؤكدا بالإيمان البالغة من العتاق والعتاق ، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم وأعطاه ما ذكرنا من الأموال وغيرها .

وفيها دخل عبيد الملك بن شهاب المسمى مدينة باربد من الهند في جحفل كبير فحاصروها

ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها ، وفتحوها سنة ١٠٠٠ وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر ، فأقاموا هناك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح ، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح ففرق طائفة أيضا ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير ، فيهم بنت ملكهم . وفيها حكم المهدي بالخاق ولد أبي بكره الثقفى إلى ولاء رسول الله (ص) ، وقطع نسبهم من ثقيف ، وكتب بذلك كتابا إلى والى البصرة . وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففى ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار : —

إن زياداً ونافعا وأبا * بكره عندي من أعجب العجب

ذا قرشي كما يقول وذا * مولى وهذا بزعم عري

وقد ذكر ابن جرير أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك .

وفى هذه السنة حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء ، منهم يعقوب بن داود على منزله ومكاته ، وكان الحسن ابن إبراهيم قد هرب من الخادم فلاحق بأرض الحجاز ، فاستأنى له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأنجزل جائزته ، وفرق المهدي في أهل مكة مالا كثيرا جداً ، كان قد قدم معه ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، وجاء من مصر ثلثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فأعطاهما كلها في أهل مكة والمدينة . وشكت الحجة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهم من كثرة ما عليها من الكساوى ، فأمر بتجريدتها ، فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج نخين جداً ، فأمر بإزالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده ، فلما جردها طلائها بالخلاف وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال إنه استغنى مالكا في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناء ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فاني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هي .

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسع المسجد النبوى ، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبى سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع ، فتركه . وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية ، وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرسا بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم .

وفىها توفى الربيع بن صبيح ، وسفيان بن حسين ، أحد أصحاب الزهرى ، وشعبة بن الحجاج بن الورد العتيكى الأزدي أبو بسطام الواسطى ، ثم انتقل إلى البصرة . رأى شعبة الحسن وابن سيرين ،

وروى عن أمم من التابعين ، وعحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الاسلام . وهو شيخ
المحدثين الملقب فيهم بأمير المؤمنين قاله الثوري . وقال يحيى بن معين : هو إمام المتقين ، وكان في
غاية الزهد والورع والتقشف والحفظ وحسن الطريقة . وقال الشافعي : لولاه ما عرف الحديث بالعراق .
وقال الامام أحمد : كان أمة وحده في هذا الشأن ، ولم يكن في زمانه مثله . وقال محمد بن سعد : كان
ثقة مأمونا حجة صاحب حديث . وقال وكيع : إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبه
عن حديث رسول الله (ص) . وقال صالح بن محمد بن حرزة : كان شعبة أول من تكلم في الرجال
وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين . وقال ابن مهدي : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا أشد
تقشفا من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك ، ولا أحفظ للحديث من الثوري ، وقال مسلم بن
إبراهيم : ما دخلت على شعبة في وقت صلاة الا ورأيتته يصلي ، وكان أباه للقراء وأما لهم . وقال النضر
ابن قيس : ما رأيت أرحم بمسكين منه ، كان إذا رأى مسكينا لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه .
وقال غيره : ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بسطحه . وقال يحيى القطان : ما رأيت
أرق للمسكين منه ، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه . قال محمد بن سعد وغيره : مات
في أول سنة ستين ومائة في البصرة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة ثمانية بن الوليد فنزل دابق ، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من
الدخول إليها بسبب ذلك . وفيها أمر المهدي بحفر الركبا وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة
وولى يقطان بن موسى على ذلك ، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، مقدار
عشر سنين ، حتى صارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرق وآمنها وأطيبها . وفيها وسع
المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه . وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد
جماعة ، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله (ص) ، ففعل ذلك في المساجد كلها . وفيها
اتضمت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي وظهرت عنده خيانتة فضم إليه المهدي من يشرف عليه ،
وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علي ، ثم أبسده وأقصاه وأخرجه من معسكره . وفيها رلى القضاء
عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علاثة في عسكر المهدي بالرصافة . وفيها خرج رجل يقال
له المقنع بخراسان في قرية في قرى مرو ، وكان يقول بالتناسخ وتبعه على ذلك خلق كثير فجهز
إليه المهدي عدة من أمرائه وأنفذ إليه جيوشا كثيرة ، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان ، وكان من
أمره وأمرهم ماسند كره .

وحج بالناس فيها موسى الهادي بن المهدي . وفيها توفي إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي

وزائدة بن قدامة و سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أحد أئمة الاسلام وعبادهم والمقتدى به أبو عبد الله الكوفي . روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم ، قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد : هو أمير المؤمنين في الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم . وقال أيوب : ما رأيت كوفياً أفضله عليه . وقال بولس بن عبيد : ما رأيت أفضل منه . وقال عبيد الله : ما رأيت أفقه من الثوري . وقال شعبة : ساد الناس بالورع والعلم . وقال أصحاب المذاهب الثلاثة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه . وقال الامام أحمد : لا يتقدمه في قلبي أحد . ثم قال : تدرى من الامام ؟ الامام سفيان الثوري . وقال عبد الرزاق : سمعت الثوري يقول : ما استودعت قلبي شيئاً قط نخافني حتى إني لأمر بالهلك يتغنى فأسد أذني مخافة أن أحفظ ما يقول . وقال : لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبني الله عليها أحب إل من أن أحتاج إلى الناس .

قال محمد بن سعد : أجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة ، وراه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقرأ [الحمد لله الذي صدقنا وعده] الآية . وقال : إذا ترأس الرجل سريماً آخر بكثير من العلم . ومن توفي فيها : أبو دلالة

زيد بن الجون الشاعر الماجن ، أحد الظرفاء ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحك ويأشده الأشعار ويمدحه ، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور - وكانت ابنة عمه - يقال لها حمادة بنت عيسى ، وكان المنصور قد حزن عليها ، فلما سورا عليها التراب وكان أبو دلالة حاضراً ، فقال له المنصور : ويحك يا أبا دلالة ، ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور حتى استلقى ، ثم قال : ويحك فضحتنا . ودخل يوماً على المهدي بهنئته يقدمه من سفره وأنشده :

إني حلفت لئن رأيتك سالماً * بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبي محمد * ولتلاّن دراهماً حجري

فقال المهدي : أما الأول فنعم ، نصلى على النبي محمد (س) ، وأما الثاني فلا . فقال : يا أمير المؤمنين هما كلمتان فلا تفرق بينهما . فأمر أن يملأ حجره دراهم ، ثم قال له : قم ! فقال : ينخرق منها قميصي فأفرغت منه في أكياسها ثم قام فحملها وذهب . وذكر عنه ابن خلكان أنه مرض ابن له فداواه طبيب فلما عوفي قال له : ليس عندنا ما نعطيك ، ولكن ادع على فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور . قال : فذهب الطبيب إلى قاضي الكوفة محمد

ابن عبد الرحمن بن أبي ليل - وقيل ابن شبرمة - قادم عليه عنده فأنكر اليهودي فشده عليه أبو دلالة وابنه ، فلم يستطع القاضي أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى الطبيب المدمي المال من عنده وأطلق اليهودي . وجمع القاضي بين المصالح . توفى أبو دلالة في هذه السنة ، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فأنه أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري بأرض قلसरين وأتبعه خلق كثير ، وقويت شوكرته فقاتله جماعة من الأمراء فلم يقدروا عليه ، وجهر إليه المهدي جيوشا وألفق فيهم أموالا فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بمسد ذلك . وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفا من المرتزقة سوى المتطوعة ، فدمر الروم وحرق بلدانا كثيرة ، وغرب أمانكن وأسر خلقا من الذراري . وكذلك غزا يزيد بن أبي أسيد السلمي بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبي خلقا كثيرا .

وفيها خرجت طائفة يجرجان فلبسوا الحرمة مع رجل يقال له عبد القهار ، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان ففهر عبد القهار وقتله وأصحابه . وفيها أجرى المهدي الأرزاق في سائر الأقاليم والآفاق على المحدثين والمحبوسين ، وهذه منوبة عظيمة ومكرمة جسيمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور . وفيها توفى من الأعيان :

إبراهيم بن آدم

أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد . كانت له همة عالية في ذلك رحمه الله . فهو إبراهيم بن آدم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق النخعي ، ويقال له البجلي ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق ، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة وأبي إسحاق السبيعي وخلق . وحدث عنه خلق منهم بقية والثوري وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن حميد . وحكى عنه الأوزاعي . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزي عن إبراهيم بن آدم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة . قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي جالسا فقلت : يا رسول الله إنك تصلي جالسا فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . قال : فبكيت فقال : لا تبك فان شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا . » ومن طريق بقية عن إبراهيم بن آدم حدثني أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزيرة عن أبي هريرة . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الفتنة نجى فتتلف العباد لسفا ، وينجو العالم منها بملء » .

قال النسائي : إبراهيم بن آدم ثقة مأمون أحد الزهاد . وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان ، وكان قد حجب إليه العبيد ، قال : فخرجت مرة فأثرت ثعلبا فهتف بي هاتف

من قريوس سرجي : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني
 نذير من رب العالمين . فرجعت إلى أهلي فخلعت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه
 جبة وكساء . ثم ألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها الحلال ،
 فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر
 البساتين وأحصه الحصاد ، وكان يقول : ما نهيت بالعيش إلا في بلاد الشام . أفر يدني من شاهر
 إلى شاهر ومن جبل إلى جبل ، فمن يراني يقول هو موسوس . ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب
 الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد
 وهمل الفاعل وحفظ البساتين وغير ذلك . وما روى عنه أنه وجد رجلاً في البادية فملمه اسم الله
 الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له : إنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم ، ذكره
 القشيري وابن عساكر عنه بأسناد لا يصح . وفيه أنه قال له : إن إلياس علمك اسم الله الأعظم .
 وقال إبراهيم : أطلب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللهم انقلني من ذل مصيبتك إلى عز طاعتك . وقيل له
 إن اللحم قد غلا فقال : ارضصوه أي لا تشتروه فإنه يرخص . وقال بعضهم : هتف به الهاتف من
 فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث [أنخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون] اتق الله وعليك
 بالزاد . ليوم القيامة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة . وروى ابن عساكر
 بأسناد فيه نظر في ابتداء أمره قال : بينما أنا يوماً في منظر لي ببلخ وإذا شبح حسن الهيئة حسن
 اللحية قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قمبي ، فأمرت غلاماً فدعاه فدخل فمرضت عليه الطعام فأني
 فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت : أين تريد ؟ قال الحج . قلت في هذا
 الوقت ؟ - وقد كان أول يوم من ذى الحجة أو ثمانيه - فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصجبة .
 قال : إن أحببت ذلك فوعدك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم بسم الله فأخذت ثياب
 سفرى وسرنا نمشي كأنما الأرض تجنب من نحتنا ، ونحن نمر على البلدان ونقول : هذه فلانة هذه
 فلانة ، فإذا كان الصبح فارقتني ويقول : موعدك الليل ، فإذا كان الليل جاءني ففعلنا مثل ذلك .
 فأنهيناه إلى مدينة النبي (ص) ، ثم سرنا إلى مكة فجمناها ليلاً فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام
 فزورنا بيت المقدس وقال : إني عازم على المقام بالشام ، ثم رجعت أنا إلى بلدي ببلخ كسائر الفضلاء
 حتى رجعنا إليها ولم أسأله عن اسمه ، فكان ذلك أول أمرى .

[وروى من وجه آخر فيه نظر . وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال :
 كان إبراهيم بن آدم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة كان رجلاً فاضلاً له سر أثر وما رأيت]

يظهر تسبيحاً ولا شيئاً ولا أكل مع أحد طامناً إلا كان آخر من يرفع يديه . (١)

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر ومعاملات بينه وبين الله عز وجل وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله ، ولا أكل مع أحد طامناً إلا كان آخر من يرفع يده . قال بشر بن الحارث السافي : أربعة رفعهم الله بطيب المطعم ، إبراهيم بن آدم ، وسليمان بن داود ، وهيب بن الورد ، ويوسف بن أسباط . وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حنص قال : إنما سمع إبراهيم بن آدم حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه . قال : حدثنا منصور عن ربي بن خراش قال : جاء رجل إلى رسول الله (ص) ، فقال : يا رسول الله داني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « إذا أردت أن يحبك الله فابض الدنيا ، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبهه إليهم » . وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس : فعاتبه به بعض أصحابه في ذلك فقال : إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قباي إلى اليوم . وقال رشدين بن سعد : مر إبراهيم بن آدم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال : لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم . فقام الأوزاعي وتركهم . وقال إبراهيم بن بشر قيل لابن آدم : لم تركت الحديث ؟ فقال : إني شغول عنه بثلاث ، بالشكر على النعم ، والاستغفار من الذنوب ، والاستعداد للوثة . ثم صاح وغشى عليه فسمعوا هاتفاً يقول : لا تدخلوا بيدي وبين أوليائي . وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن آدم : قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن اندم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين . فقال له إبراهيم : وأنت فليكن العبادة والعمل بالعمل من بالك وإلا هلك . وقال إبراهيم : ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين الأغنياء . وقال شقيق بن إبراهيم : لقيت ابن آدم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكر يا . فقلت له : تركت ملك خراسان ، وخرجت من نعمتك ؟ فقال : اسكت ما تهيت بالعيش إلا ههنا ، أفر بيدي من شامق إلى شامق ، فن يراني يقول « ووسوسن أو جمال أو ملاح » ، ثم قال : بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له : يا عبدي مالك لم تصح ؟ فيقول : يا رب لم تعطني شيئاً أحج به . فيقول الله : صدق عبدي اذهبوا به إلى الجنة . وقال أقت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز حلال . وقال : الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك ، فحزنك على الآخرة لك . وحزنك على الدنيا وزينتها عليك . وقال : الزهد ثلاثة ، واجب ،

ومستحب ، و زهد سلامة ، فأما الواجب فالزهد في الحرام ، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب ،
والزهد عن الشهوات سلامة . وكان هو وأصحابه يذعنون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يحملون
في محرم أوزاراً ، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رعى بطيخها إلى أصحابه وأكل هو الخبز
والزيتون . وقال قسمة الحرص والطمع تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تورث النعم
والجزع . وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني . فقال : إن كنت غنياً قبلتها ، وإن كنت
فقيراً لم أقبلها . قال : أنا غني . قال : كم عندك ؟ قال ألفان . قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟
قال : نعم ، قال فأنت فقير ، لا أقبلها منك . وقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : لو أمكنتني أن أطلق
نفسى لطلقتها . ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء له ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء ، وصلى بوضوء
واحد خمس عشرة صلاة ، وأكل يوماً على حافة الشريعة كسرات مبلولة بالماء وضعها بين يديه أبو
يوسف النسوي ، فأكل منها ثم قام فشرب من الشريعة ثم [جاء واستلقى على قفاه وقال : يا أبا يوسف
لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ
العيش . فقال له أبو يوسف : طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم إبراهيم
وقال : من أين لك هذا الكلام ؟ وبينما هو بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه ركب فقال :
أيكم إبراهيم بن آدم ؟ فأرشد إليه ، فقال : يا سيدي أنا غلامك ، وإن أباك قد مات وترك مالا هو
عند القاضي ، وقد جئتكم بمشرة آلاف درهم لنتمتعها عليكم إلى بلخ ، وفرس وبغلة . فسكت
إبراهيم طويلاً ثم رفع رأسه فقال : إن كنت صادقاً فالدرهم والفرس والبغلة لك ، ولا تخبر به أحداً .
ويقال : إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله .

وكان معه بعض أصحابه فمكثوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلونه ، فقال له إبراهيم : ادخل إلى
هذه الغيضة . وكان ذلك في يوم شات . قال : فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فلأت
منه جرابي ثم خرجت ، فقال : ما معك ؟ قلت : خوخ . فقال : يا ضيف اليقين ! لو صبرت لو وجدت
رطباً جنياً ، كما رزقت مريم بنت عمران . وشكاً إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فإذا حوله
دنانير كثيرة فقال لصاحبه : خذ منها ديناراً ، فأخذه واشترى لهم به طعاماً . وذكروا أنه كان
يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشتري البيض والزبدة وقارة الشواء والجوزبان والخبيص فيطعمه أصحابه
وهو صائم ، فإذا أفطراً كل من ردى الطعام وبحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم
وتحبيبا وتودداً إليهم .

وأضاف الأوزاعي إبراهيم بن آدم قصر إبراهيم في الأكل فقال : مالك قصرت ؟ فقال :
لأنك قصرت في الطعام . ثم هل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي : أما تخاف

أن يكون سرفاً فقال : لا ! إنما السرف ما كان في معصية الله ، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين . وذكروا أنه حصده مرة بعشرين ديناراً ، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم ، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن تحاق رأسى وتحجمنى ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً ، وقال : أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً . وقال مضاء بن عيسى : مافاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء .

وكان إبراهيم يقول : فروا من الناس كفراكم من الأسد الضارى ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة . وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يحدّثه إبراهيم ، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا . وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة الشاتية إلى الصبح ، وكان الثوري يتحرز معه في الكلام . ورأى رجلاً قتل له : هذا قاتل خلّك ، فذهب إليه فسلم عليه وأهدى له وقال : بلغنى أن الرجل لا يبلغ درجة البقين حتى يأمنه عدوه . وقال له رجل : طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وتركت الدنيا والزوجات . فقال : ألك عيال ؟ قال : نعم . فقال : لروعة الرجل بعياله - يعنى فى بعض الأحيان من الناقة - أفضل من عبادة كذا وكذا سنة . وراه الأوزاعى ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا . فقال له : اسكت يا أبا عمرو فقد بلغنى أنه إذا وقف الرجل موقف منزلة فى طلب الحلال وجبت له الجنة . وخرج ابن آدم من بيت المقدس فر بطريق فأخذته المسلحة فى الطريق فقالوا : أنت عبد ؟ قال : نعم . قالوا : آبق ؟ قال نعم . فسجنوه . فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاءوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا : علام سجنتم إبراهيم بن آدم ؟ قال : ماسجنته . قالوا : بلى هو فى سجنك . فاستحضره فقال : علام سجنتم . فقال : سل المسلحة ، قالوا : أنت عبد ؟ قلت نعم وأنا عبد الله . قالوا : آبق ؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبى . نفلى سبيله .

وذكروا أنه مر مع رقعة فاذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن آدم فقال له : يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشئ فامض لما أمرت به وإلا فودك على بدئك . قالوا : فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبه ، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال : قولوا : اللهم راعنا بعينك ألقى لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذى لا يرام ، وارحنا بقدرتك علينا ، ولا تتركنا وأنت رجاؤنا يا الله ، يا الله ، يا الله . قال خلف بن نعيم : فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لى أص ولا غيره .

وقد روى لهذا شواهد من وجوه أخر . وروى أنه كان يصلى ذات ليلة فجاءه . أسد

ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشتم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه ، وجاء الثاني ففعل مثل ذلك ، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك ، واستمر إبراهيم في صلاته ، فلما كان وقت السحر قال لهم : إن كنتم أمرتم بشئ ففعلوا ، وإلا فأنصرفوا فأنصرفوا . وصعد مرة جبلاً بمكة ومعه جماعة فقال لهم : لو أن ولياً من أولياء الله قال لجبل زل لزال . فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال : اسكن فانما ضربتك مثلاً لأصحابي . وكان الجبل أبا قبيس . وركب مرة سفينة فأخدم الموح من كل مكان فلما إبراهيم رأسه بكسائه واضمأجمع وعج أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء ، وأيقظوه وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذه شدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك . فصار البحر كأنه قدح زيت . وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حملة دينارين وألح عليه ، فقال له : اذهب معي حتى أعطيك ديناراً ، فأتى به إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وحمل ركبتين ودعا وإذا ما حواه قد ملي دنائير ، فقال له : خذ حتمك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد . وقال حذيفة المرعشي : أريت أنا إبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم تأكل فيها شيئاً ، فقال لي : كأنك جائع . قلت : نعم . فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال ، المشار إليه بكل معنى ،

أنا حامدٌ أنا ذاكرٌ أنا شاكرٌ • أنا جائعٌ أنا حاسرٌ أنا عارى
هي ستة وأنا الضمين لنصفها • فكن الضمين لنصفها يا باري
مدعى لغيرك وهج نار خضتها • فأجر عبيدك من دخول النار

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه . فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتهما إليه فلما قرأها بكى ودفع إلى ستائة ديناراً وأنصرف ، فسألت رجلاً من هذا الذي على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصراني . فحدث إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يحى فيسلم . فما كان غير قريب حتى جاء فأكب على رأس إبراهيم وأسلم . وكان إبراهيم يقول : دارنا أمامنا وحياتنا بئد وظانتنا . فاما إلى الجنة وإما إلى النار . مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعرانه لقبض روحك وانظر كيف تكون ، حينئذ ، ومثل له هول المضجع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون ، ومثل له القيامة وأهوالها وأقزاعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خرمشياً عليه . ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له : لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تلس ما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع في البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين ينهب به إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا تفسر ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساء . ثم قال : أوه أوه ! ثم خرّ مغشياً عليه . وكان يقول : مالنا نشكو قهرنا إلى

مثلما ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : ثكأت عهداً أمه أحب الدنيا ونسبي ما في خزائن مولاه
وقال : إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المصطفى دائماً فكيف ترضى من هو بأمرورك قائماً .
ورآه بهضي أمحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك ؟
فقال : ذكرت يوماً تنقلب فيه القلوب والأبصار . وقال : إنك كلما أمنت النظر في مرآة النوبة
بان لك قبح شين المعصية .

وكتب إلى الثوري : من سرف ما يطلب هان عليه ما يبتل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن
أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وسأله بعض الولاة من أين معيشتك ؟ فأنشأ يقول :

نرفعُ ديناً بتزويقِ ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرفعُ
وكان كثيراً ما يمثل بهذه الأبيات :

لما نعد الدنيا به من شرورها * يكون بكاء الطفل ساعة يوضعُ
والآفا يكبر منها وإنما * لأرواح مما كان فيدر وأوسعُ
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما * يرى ما سيلقى من أذاها ويسعُ

وهن يمثل أيضا :

رأيت الذنوب نمت القلوب * وبورثها الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وما أفسد الدين إلا ملوك * وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا * ولم يفل بالبيع أنمانها
لقد رقع القوم في جيفة * تبين لدى اللبر أنثانها

وقال : إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بذهنبك ، وعليك
بالإفظ الجليل من قلب ذليل لرب جليل ، فكر في ذنبك وتب إلى ربك يذبت الورع في قلبك ،
واقطع الطمع إلا من ربك . وقال : ليس من أعلام الحب أن تحب ما ينفذه حبيبك ، ذم ، ولانا
الدنيا فمدحناها ، وأنفصها فأحببناها ، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها ، ووعدكم خراب
الدنيا فخدمناها ، ونهاكم عن طلبها فطلبناها ، وأنذركم الكنوز فكثرتهموها ، دعتمكم إلى هدمه
المرارة دواعيها ، فأجبتهم مسرعين مناديا ، خدعتكم بفرورها ، ومنتمكم فانقدتم خاضعين لأمانها
تشرخون في زهراتها وزخارفها ، وتنعمون في لذاتها وتنقلبون في شهواتها ، وتتلوثون بقبائلها ،
تدشون بمخالب الخرص عن خرائقها ، وتحفرون بماول الطمع في معادننا . وشكى إليه رجل كثرة
عياله فقال : ابث إلى منهم من لا رزقه على الله . فسكت الرجل . وقال : مررت في بعض جبال
فاذا حجر مكتوب عليه بالمرية :

كلُّ حَيٍّ ، وإنْ بقي • فمن العيشِ يستقي

فاعمل اليوم واجتهد * واحذر الموت يا شقي

قال : فبينما أنا واقف أقرأ وأبكي ، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال : مم تبكي ؟ فقلت : من هذا . فأخذ يبدى ومضى غير بعيد فاذا بصخرة عظيمة مثل المحراب فقال اقرأ وابك ولا تقصر . وقام هو يصلي فاذا في أعلاه نقش بين عربي :

لا تبغين جاهاً وجاهك ساقط * عند المليك وكن لجاهك مصلحاً

وفي الجانب الآخر نقش بين عربي :

من لم يثق بالتضام والتدبر * لا في هموماً كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي :

ما أزين التقى وما أقبح الخنا * وكل مأخوذ بما جنا * وعنده الله الجزا

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر :

انما النور والفرى * في ثقي الله والعمل

قال : فلما فرغت من القراءة التفت فاذا ليس الرجل هناك ، فما أدري انصرف أم حجب عني . وقال : أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان ، ومن وفي العمل وفي له الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير . وقال : كل سلطان لا يكون عادلاً فهو والفساد بمنزلة واحدة ، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذنب بمنزلة واحدة ، وكل من خدم سوى الله فهو والكاذب بمنزلة واحدة . وقال : ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في مجاعته ، فكيف بمن هو يتقلب في نعم الله وكفائته ؟ وقال : أعربنا في كلامنا فلم نلحن ، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب . وقال : كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره . وقال : جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين الأسترابادي قال : أنبأ عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن خرزاد الأهوازي حدثني علي بن محمد القصوي حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سرياً السقطي يقول سمعت بشر ابن الحارث الحنفي يقول : قال إبراهيم بن آدم : وقفت على راهب فأشرف على فقلت له : عظمي فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانباً • كن بمدوك راهباً

إن دهرًا أظلني * قد أراي المجانيبا
 قلب الناس كيف شد * مت تجدم عقاربا
 قال بشر فقلت لا إبراهيم هذه موعظة الراهب لك ، فمظني أنت . فأنشأ يقول :
 نوحش من الاخوان لا تبغ مولسا * ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحبا
 وكن سامري الفمل من نسل آدم * وكن أوحديا ما قدرت بحانبا
 فقد فسد الاخوان والحب والاخا * فليست ترى إلا مذوقا وكاذبا
 فقلت وثولا أن يقال مدهدة * وتذكر لحالاتي لقد صرت راهبا
 قال سرى : فقلت لبشر : هذه موعظة إبراهيم لك فمظني أنت ، فقال : عليك بالحوول ولزوم
 بيتك . فقلت بلمظني عن الحسن أنه قال : لولا الليل وملاقة الاخوان ما باليت متى مت . فأنشأ بشر
 يقول :
 يا من يسر برؤية الاخوان * مهلا أمنت مكاييد الشيطان
 خلت القلوب من الممار وذكرم * وتشاغلوا بالحرص والخسران
 صارت مجالس من ترى وحديثهم * في هتك مستور وموت جنان
 قال الحلبي فقلت لسرى : هذه موعظة بشر فمظني أنت . فقال : عليك بالاخمال فقلت
 أحب ذاك ، فأنشأ يقول :

يا من يروم بزعم إخمالا * إن كان حقا فاستعد خصالا
 ترك المجالس والتذاكر يا أخى * واجعل خروجك للصلاة خيالا
 بل كن بها حيا كأنك ميت * لا يرتجى منه القريب وصالا
 قال علي بن محمد القصري : قلت للحلبي هذه موعظة سرى لك فمظني أنت . فقال : يا أخى
 أحب الأعمال إلى الله ما صمد إليه من قلب زاهد في الدنيا ، فازهد في الدنيا بحبك الله . ثم أنشأ يقول :
 أنت في دار شتات * فتأهب لشتاتك * واجعل الدنيا كيوم * صمته عن شهواتك
 واجعل الفطر إذا * ما صمته يوم وفانك
 قال ابن خزيمة فقلت لعل : هذه موعظة الحلبي لك فمظني أنت . فقال لي : احفظ وقتك
 واسمع من الله عز وجل ، وانزع قلبك عن الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سررك ويندو به
 ذكرك . ثم أنشأ يقول :

حياتك أنفاس تمس فكلها * نضى من منها انتقصت به جزءا
 فتسبح في تقص وتسمى بشهر * ومالك معقول فحسن به رزما
 يمينك ما يمينك في كل ساعة * ويحدوك حاد ما يزيد بك المرءا

قال أبو محمد قلت لأحمد : هذه موعظة على لك فمظني . فقال : يا أخى عليك بلزوم الطاعة
 وإياك أن تغارق باب القناعة ، وأصلح شواك ، ولا تؤثر هواك ، ولا تتبع آخرتك بدنياك ، واشتغل
 بما يمينك بترك ما لا يمينك . ثم أنشدني :

ندمت على ما كان مني ندامة * ومن يتبع ما تشتهي النفس يندم
 تخافوا لئلا تأمنوا بعد موتكم * ستلقون رباً عادلاً ليس يظلم
 فليس للغرور بدنياه زاجر * سيئد إن زلت به النمل فاعلموا

قال ابن زامين فقلت لأبي محمد : هذه موعظة أحمد لك فمظني أنت فقال : اعلم رحمك الله أن
 الله عز وجل ينزل المييد حيث نزلت قلوبهم بهوهم ، فانظر أين ينزل قلبك ، واعلم أن الله
 سبحانه يقرب من القلوب على حسب ما تقرب منه . وتقرب منه على حسب ما قرب إليها . فانظر
 من القريب من قلبك . وأنشدني :

قلوب رجال في الحجاب نزول * وأرواحهم فيما هناك حلول
 تروح نعيم الأنس في عز قريب * بأفراد توحيد الجليل تحول
 لهم بفناء القرب من محض بر * عوائد بذل خطيئهم جليل

قال الخطيب : فقلت لابن زامين : هذه موعظة الحميدى لك فمظني أنت . فقال : اتق الله واتق
 به ولا تهمه فان اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدني :

اتخذ الله صاحباً * ودع الناس جانباً
 جرب الناس كيف شئت * ت نجزهم عقارباً

قال أبو الفرج غيث الصوري : فقلت للخطيب : هذه موعظة ابن زامين لك فمظني أنت .
 فقال : احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها ، فذاك أعضل دالك ، واستشرف
 الخوف من الله تعالى بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعمتها وأوصافها ، فانها الأمانة بالسوء والفحشاء ،
 والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء ، واعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق ، ولا تتبع
 الهوى فيضلك عن سبيل الله . وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل الجنة الخلد قراره ومأواه
 ثم أنشد نفسه :

إن كنت تبغى الرشاد محضاً * في أمر دنياك والمعاد
 نخالف النفس في هواها * إن الهوى جامع الفساد

قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن آدم توفي سنة ثنتين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى
 وستين وقيل سنة ثلاث ، والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . وذكروا أنه توفي في جزيرة من

جزائر بحر الروم وهو مراكب ، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة مات نحواً من عشرين مرة ، وفي كل مرة يجدد الوضوء بعد هذا ، وكان به البطن ، فلما كانت غشية الموت قال : أوتروا لي قوسى ، فأوتروه فقبض عليه فأت وهو قابض عليه يريد الرمي به إلى المدور رحمه الله وأكرم مثواه .

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي : حدثنا محمد بن علي بن يزيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول : كان سفيان متهجياً به :

[أجمعهم الدنيا فخافوا ولم يزل * كذلك ذواته تقوى عن العيش ملجماً
أخو طيء داود منهم ومسمر * ومنهم وهيب والمريبط ابن أدهما
وفي ابن سعيد قدوة البر والنهي * وفي الوارث الفاروق صدقاً مقدماً
وحسبك منهم بالنضيل مع ابنه * ويوسف أن لم يأن أن يتسلما
أولئك أصحابي وأهل مودتي * فعلى عليهم ذو الجلال وسلا
فما ضر ذا التقوى لصال أسنة * وما زال ذو التقوى أحرز وأكرما
وما زالت التقوى تريك على الفتى * إذا محض التقوى من المرئيسها]

وروى البخاري في كتاب الأدب عن إبراهيم بن آدم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً معلقاً في المسح على الخفين ، والله سبحانه أعلم ، [(١)]

وفيها توفي أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي الفقيه الزاهد ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة . قال سفيان بن عيينة : ثم ترك داود الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه . قال عبد الله بن المبارك : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي . وقال ابن معين : كان ثقة ، وفد على المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة . ذكره الخطيب البغدادي . وقال : مات في سنة ستين ومائة ، وقيل في سنة ست وخمسين ومائة . وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة ثنتين وستين ومائة -

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

فبها حصر المقتع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأنعام ، والسفلة من الدوام ، فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحريشي فألح عليه في الحصار ، فلما أحس بالقلبة تحصى بها وسم نساء فأتوا جميعاً ، عليهم لعائن الله . ودخل الجيش الإسلامي قلعة فاحتزوا رأسه وبشوا به إلى المهدي ، وكان المهدي بحلب . قال ابن خلدكان : كان اسم المقتع عطاء ، وقيل جكيم ، والأول أشهر . وكان أولاً قصاراً ثم ادعى الربوبية ، مع أنه كان أهور قبيح المنظر ، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب ، وتابسه على جهالته خلق

(١) زيادة من المصرية .

كثير ، وكان يرى الناس قرأ يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب ، فمظم اعتقادهم له ومنعوه بالسلاح ، وكان يزعم لعنه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم ، ولهذا سجدت له الملائكة ، ثم في نوح ، ثم في الأنبياء واحداً واحداً ، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إليه . ولما حاصره المسلمون في قلعة التي كان جددوها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنم ، تحسبى هو ونساؤه سمياً فماتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم ، وأمر على الجميع ولده هارون الرشيد ، وخرج من بغداد مشياً له ، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى المادي ، وكان في هذا الجيش الحسين بن قحطبة والربيع الحاجب و خالد بن برمك - وهو مثل الوزير لارشيد ولي المهدي - ويحيى بن خالد - وهو كاتبه وإليه النفقات - وما زال المهدي مع ولده مشياً له حتى بلغ الرشيد إلى بلاد الروم ، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم ، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جماعات عظيمة ، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره ، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجزل عطائه .

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي . وفيها ولى المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذر بيجان وأرمينية ، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك ، وولى وعزل جماعة من النواب . وحج بالناس فيها على بن المهدي .

وفيها توفي إبراهيم بن طهمان ، وحرير بن عثمان الحمصي الرحبي ، وموسى بن علي الأنصبي المصري وشعيب بن أبي حمزة ، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وإليه ينسب قصر عيسى ، ونهر عيسى ببغداد ، قال يحيى بن معين : كان له مذهب جميل ، وكان معتزلاً للسلطان . توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة . وهام بن يحيى ، ويحيى بن أبي أيوب المصري ، وعبيدة بنت أبي كلاب العابدة ، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت . وكانت تقول : أشتهي الموت فاني أخشى أن أجنى على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميهائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً ، فيهم طاراذ الأرمني البطريق فقتل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف راجعاً - فأراد المهدي ضرب عنقه فحكم فيه فحبسه في المطبق .

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصرآ من ابن عيسى هاذ ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فأصابه حمى فرجع من أثناء الطريق ، فمطش الناس في الجمعة حتى كاد بعضهم يهلك ، فغضب المهدي على يقعين صاحب المصانع ، وبث من حيث رجع المهلب بن صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس الحج بهم طائفة . وفيها توفي شيبان بن عبد الرحمن النحوي ، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الصائفة ، وألف معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون ديناراً ، ومن الفضة إحدى وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف ، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم . قال ابن جرير . فباغ بجذوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الرم يوشد أغسطة امرأة أليون ، وهما ابنيها في حجرها من الملك الذي توفي منها ، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة ، قبل ذلك منها ، وذلك بعد ما قتل من الروم في الواقع أربعة وخمسين ألفاً وأسروا من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وأربعة وأربعين رأساً ، وقتل من الأسرى إلى قتل صبرآ ، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس . وبيع البرذون بدرم والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفاً بدرم . فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

أطفت بـمـانطيلية الروم مسنداً • إليها القنا حتى اكتسى اللؤلؤ سورها

وما ريتها حتى أمتك ملوكها • بهزيتها والحرب تفل قدورها

وحج بالناس صالح بن أبي جعفر المنصور ، وفيها توفي سليمان بن المنيرة ، وعبد الله بن الملا ابن دبر ، وعبد الرحمن بن نائب بن ثوبان ، ووهب بن خالد .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في الحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أهبة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره . وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ، ولقب بالرشيد . وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظى عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة ، وفي ذلك يقول بشار بن برد :

بنو أمية مبوا طال نومكم • إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا • خليفة الله بين الحر والمواد

(١) رواية ابن جرير : بين الذهب والمواد .

فلم نزل السماء والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجه عليه ، وكما سمعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره معه ، حتى وقع من أمره ما سأذكره ، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدي في مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير ، وحول ذلك المكان أصحان مزهرة بأنواع الأزهير ، فقال : يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحسن منه . فقال : هو لك بما فيه ، وهذه الجارية ليتم بها سرورك ، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها . قلت : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حتى تقول نعم . فقلت : نعم ! وعلى السمع والطاعة . فقال : الله ! الله ! فقلت : الله . قال : وحياة رأسى قلت وحياة رأسك . فقال : ضع يدك على رأسى وقل ذلك ، فضلت . فقال : إن هنا رجلا من العلويين أحب أن تكفيليه ، والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب . فقلت : نعم ، فقال : وعجل على ، ثم أمر بتحويل ما في ذلك المجلس إلى منزلي وأمر لي بمائة ألف درهم وتلك الجارية ، فما فرحت بشئ فرح بها . فلما صارت بمنزلي حجبتهما في جانب الدار في خدر ، فأمرت بذلك العلوي فجئ به فجلس إلى فتكلم ، فما رأيت أعقل منه ولا أفهم . ثم قال لي : يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله (ص) . فقلت : لا والله ولكن اذهب حيث شئت وأين شئت . فقال : إني أختار بلاد كذا وكذا . فقلت : اذهب كيف شئت ، ولا يظهرن عليك المهدي قهلك وأهلك . فخرج من عندي وجهزت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد ، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علما بما جرى ، وأنها كالجاسوس على ، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمته بما جرى ، فبعث المهدي إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوي بنفسه عنده في بيت من دار الخلافة ، وأرسل إلى من اليوم الثاني فذهبت إليه ولم أشعر من أمر العلوي بشئ ، فلما دخلت عليه قال : ما فعل العلوي ؟ قلت : مات . قال : الله ! الله ! قلت : الله . قال : فضع يدك على رأسى واحلف بحياته ، ففعلت . فقال : يا غلام أخرج ما في هذا البيت ، فخرج العلوي فأسقط في يدي ، فقال المهدي : دمك لي حلال . ثم أمر به فألق في بئر في المطبق . قال يعقوب : فكنت في مكان لا أسمع فيه ولا أبصر ، فذهب بصري وطال شعري حتى صرت مثل البهائم ، ثم مضت على مدد متطاولة ، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر فقبل لي : سلم على أمير المؤمنين . فسلمت وأنا أظنه المهدي ، فلما ذكرت المهدي قال : رحمه الله المهدي . فقلت : الهادي ؟ فقال : رحمه الله الهادي . فقلت : الرشيد ؟ قال نعم . فقلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعلّة ، فإن رأيت أن تطلقني . فقال : أين تريد ؟ قلت : مكة . فقال : اذهب راشداً ، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلا حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في أتعاطيه شرب النبيذ بين يديه ، وكثرة سماع القناء فكان

يلومه على ذلك ويقول : ما على هذا استوزرتي ، ولا على هذا صحبتك ، أبعد الصلوات الحسن في المسجد الحرام يشرب الخمر ويفنى بين يديك ؟ فيقول له المهدي : فقد سمع عبيد الله بن جعفر : فقال له يمهوب : إن ذلك لم يكن له من حسناته ، ولو كان هذا قرينة لكان كلما داوم عليه العبد أفضل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء حساً للمهدي على ذلك :

فدع عنك يمهوب بن داود جانباً * وأقبل على صهباء طيبة النشر

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بعميسا باذ - بنى له بالآجر بعد القصر الأول الذي بناه باليمن - فسكنه وضرب هناك لدرام والدناير . وفيها أمر المهدي باقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة . وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان . وفيها ولي القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة . ولم يكن في هذه السنة صائفة لاهدنة التي كانت بين الرشيد وبين الروم . وفيها توفي صدقة بن عبيد الله السمين ، وأبو الأشهب المطاردى ، وأبو بكر النهشلي ، وعفير بن معدان .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله ، وجعل على رسائله أمان بن صدقة . وفيها توفي عيسى بن موسى الذي كان ولي العهد من بعد المهدي : مات بالكوفة فاشهد ثلثها روح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الأعيان . ثم دفن . وكان قد امتنع من الصلاة عليه فكتب إليه المهدي يذمّه أشد الذم ، وأمر بمحاسبته على عمله . وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس الحاجب ، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته . وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، وأظلمت الدنيا حتى كانت كالليل حتى تعالي النهار ، وكان ذلك ثلثال بقين من ذى الحجة من هذه السنة . وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الأفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه ، وكان المتولى أمر الزنادقة عمر الكلواذى . وفيها أمر المهدي بزيادة كثيرة في المسجد الحرام ، فنزل في ذلك دور كثيرة ، وولى ذلك ليعطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين ، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتي . ولم يكن للناس صائفة لاهدنة . وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد . وتوفي بعد فراقه من الحج بأيام . وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس . ومن توفي فيها من الأعيان .

بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى هذيل ، ولد أعمى ، وقال الشعر وهو دون عشر سنين ، وله التشبيهات التي لم يهند إليها البصراء . وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة ، وقال

له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر . فلما بلغ المهدي أنه همداء وشهد عليه قوم أنه رنديق أمر به بضرب
حتى مات من بضع وسبعين سنة . وقد ذكره ابن خلكان في الرقيات ، فقال : بشار بن برد بن
برجوخ الثقيل مولاهم ، وقد نسب صاحب الأغانى ماطال نسبته . وهو بصري قدم بغداد أسلمه من
طخارستان ، وكان ضخما عظيم الملقى ، وشعره في أول طبقات المولدين ، ومن شعره البيت المشهور :

هل تظنين وراء الحب منزلة • تدين إليك هل الحب أوصان

وقوله : أنا والله أشبهى سحر عيب • لك وأخفى مضارع الشاق

وله : يا قوم أذن لبعض المني عاتقة • والأذن تشق نال العين أسبانا

قالوا لم لا ترى عيبك قلت لهم • الأذن كالبنزور في القلب مكافاة^(١)

وله : إذا بلغ الرأي الشاذ حسن • محرم نصيح أو نصيحة محرم

ولأنه في الشورى عليك فضاعة • فريش الطوائف نوة القوام

وما خير كفي أسك النمل أنما • وما خير سيف لم يؤيد بقتل

كان بشار يمدح المهدي حتى وثق إليه الوزير^(٢) أنه همداء وقدمه إليه إلى شي من الرندقة ،

وأنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعدم إلبس في السجود لآدم ، وأنه أشد ثبات

الأرض مظلة والنار مشرقة • والنار مسودة منذ كانت للبر

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات . ويقال : إنه فرق ثم نقل إلى البصرة في هذه السنة .

وفيه توفى الحسن بن صالح بن حي ، وهما من سلعة ، والربيع بن مسلم ، وسعيد بن عبد العزيز

ابن مسلم ، وعتبة النخلام ، وهو عتبة بن أمان من صعدة أحد العباد المشهورين بالكفاية المذكورين ،

كان يأكل من عمل يده في الخوص ، ويصوم الدهر ويستر على الخبز والماء . والقاسم الحسائي ،

وأبو حلال محمد بن سليم ، ومحمد بن طلبة ، وأبو حمزة البشكري محمد بن ميمون .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

فيها في رمضان منها قضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصالح الذي عنده هارون الرشيد

عن أمر أبي المهدي ، ولم يشهدوا على الصالح إلا ثنتين وثلاثين شهرا ، فبث نائب الجزيرة

حبلا إلى الروم قتلوا وأسروا وغنموا وسلبوا . وفيها أخذ المهدي دواوين الأرملة^(٣) ولم يكن سوا أبي

يبرغون ذلك . وفيها حج بالناس علي بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ربيعة . وفيها توفى الحسن

(١) في هذا البيت تحريف (٢) بهامش التريكة : أي نائب الوزير بشار .

(٣) رئيس واحدتها (ديوان الزمام) . وروى أنه لما جمعت الدواوين لم ير بربري ففكر فإذا

هو لا يضبطها إلا برمام يكون له كل ديوان فأنشد دواوين الأرملة في خلافة المهدي .

ابن يزيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ولله المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه فضر به وجبسه وأخذ جميع ماله . [وحامد مجرد . كان طريقاً ماجناً شاعراً ، وكان ممن يماثر الوليد ابن يزيد ويهاجى بشار بن برد . وقدم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة . قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء : ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة حماد الراوية ، وحامد مجرد ، وحامد بن الزبرقان النحوي . وكانوا يتشاعرون ويتماجنون . ^(١) وخارجة بن مصعب ، وعبد الله بن الحسن ابن الحصين بن أبي الحسن البصري ، قاضي البصرة بعد سوار . مع خالد الحذاء وداود بن أبي هند ، وسعيد الجري . وروى عنه ابن مهدي . وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تمرى إليه غريبة في الأصول والفروع ، وقد سئل عن مسألة فأخطأ في الجواب فقال له قائل : الحكم فيها كذا وكذا . فأطرق ساعة ثم قال : إذا أرجع وأنا صاغر ، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل . توفي في ذي القعدة من هذه السنة ، وقيل بعد ذلك بعشر سنين فله أعلم . غوث ابن سليمان بن زياد بن ربيعة أبو يحيى الجرمي ، قاضي مصر ، كان من خيار الحكام ، ولي الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي . وفليح بن سليمان ، وقيس بن الربيع في قول ، ومحمد بن عبد الله بن علانة بن علقمة بن مالك ، أبو اليسر العقيلي ، قاضي الجانب الشرقي من بغداد للمهدي ، هو وعافية بن يزيد . وكان يقال لابن علانة قاضي الجن ، لأنه كانت يثرى صاب من أخذ منها شيئاً فقال : أيها الجن ! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار . فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء . قال ابن معين : كان ثقة . وقال البخاري : في حفظه شيء .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فيها في الحرم منها توفي المهدي بن المنصور بمكان يقال له ما سبذان ، بالحلي ، وقيل مسموماً وقيل عضه فرس فمات . وهذه ترجمته

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو عبد الله المهدي ، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به ، وإن اشتركا في الاسم فقد افترقا في الفعل ، ذاك يأتي في آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . وقد قيل إن في أيامه ينزل عيسى بن مريم بمشرق كما سيأتي ذلك في أحاديث الفتن والملاحم . وقد جاء في حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس ، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأحمري ولا يصح ، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون علي التميمي ، وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم . وأم المهدي بن المنصور أم موسى

(١) زيادة من المصرية .

بنت منصور بن عبد الله الحيرى . روى عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم . رواه عنه يحيى بن حمزة النهشل قاضى دمشق ، وذكروا أنه
صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فخير في السورتين بالبسلة ، وأسند ذلك عن رسول الله صلى
رواه غير واحد عن يحيى بن حمزة ، ورواه المهرى عن المبارك بن فضالة ، ورواه عنه أيضا جعفر
ابن سليمان الضبي ، ومحمد بن عبد الله الرقاشى ، وأبو سفيان سميد بن يحيى بن مهدي .

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو في سنة إحدى وعشرين ومائة
ولى الخلافة بعد موت أبيه في ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون
سنة ، ولد بالحيرة من أرض البلقاء ، وتوفى في الحرم من هذه السنة . أعنى سنة تسع وستين ومائة
عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشرين شهرا و بعض شهر ، وكان أسمر طويلا
جمد الشعر ، على إحدى عينيه فكتة بيضاء ، قيل على عينه اليمنى ، وقيل اليسرى . قال الربيع
الحاجب : رأيت المهدي يصلى في ليلة مقمرة في بهوله عليه ثياب حسنة ، فما أدري هو أحسن أم
القمر ، أم بهوه ، أم ثيابه . فقرأ [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم]
الآية . ثم أمرني فأحضرت رجلا من أقاربه كان مسجونا فأطلقه . ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما
تقدم ، كنتم الأمر يومين ثم نودي في الناس يوم الخميس الصلاة جامعة ، فقام فيهم خطيبا فأعلمهم
بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعى فأجاب فعند الله أحقب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة
المسلمين . ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ . وقد عزاه أبو دلامة وهذا في قصيدة له يقول فيها :

عيناي واحدة ترى مسرورة * بأمرها جندلاً وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ويسوها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوها موت الخليفة محرماً * ويسرها أن قام هذا الأراف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى * شعراً أرجله وآخر ينف
هلك الخليفة يال أمة أحمد * وأناكم من بعد من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة * ولذاك جنات النعيم تزحف

وقد قال المهدي يوماً في خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلمون من طاعتنا تهتمكم العاقبة ،
وتحمدوا العاقبة ، واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر مدانته فيكم ، ويعطوي ثوب الاصر عنكم .
وأهال عليكم السلامة وابن المعيشة من حيث أراه الله ، مقدما ذلك على فعل من تقدمه ، والله لأعفين
عمرى من شقوتكم ، ولأحملن نفسي على الاحسان إليكم . قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن
كلامه . ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التي كانت لا تعد ولا توصف كثرة ، ففرقها

في الناس ، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئاً ، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال ، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات . وقد كان أبوه حريصاً على توفير بيت المال ، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال السراة . وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها ، وبني مدناً ذكرناها فيما تقدم .

وذكر له عن شريك بن عبد الله القاضي أنه لا يرى الصلاة خلفه ، فأحضره فتكلم معه ثم قال له المهدي في جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال له شريك : مه مه يا أمير المؤمنين . فلقد كانت صوامع قوامه . فقال له : يا زنديق لأقتلنك . فضحك شريك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات ، واتخاذهم القينات . فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه . وذكروا أنه حاجت ريح شديدة ، فدخل المهدي بيتاً في داره فألق خده بالغراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة درن الناس فما أناذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نمل فقال : هذه نمل رسول الله (ص) ، قد أهديتها لك . فقال : هاتها ، فنار له إياها ، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله (ص) لم ير هذه النمل ، فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نمل رسول الله (ص) ، فردها علي ، فتصدقته الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالماً ، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ، ورأينا هذا أرجح وأصلح .

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها ، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة : « لاسبق إلا في خوف أو نمل أو حافر » . وزاد في الحديث « أو جناح » فأمر له بعشرة آلاف . ولما خرج قال : والله إني لأعلم أن عتاباً كذب على رسول الله (ص) . ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر عتاباً بعدها . وقال الواقدي : دخلت على المهدي يوماً فحدثته بأحاديث فكتبها عني ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلئ غيظاً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على الخيزران فقامت إلى ومزقت ثوبي وقالت : ما رأيت منك خيراً ، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس ، وقد نالت عندي ما نالت ، وقد بايعت لولديها بامرة المؤمنين من بعدي . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قال : « إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللثام » . وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله » ، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته . وحدثته في هذا الباب بكلام حضري . فأمر لي بألفي دينار ، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير ، وإذا معه أثواب أخر ، وبعثت تشكرني وتثنى على معروفها .

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف ، فدخل الرجل بغداد متنكراً فلقبه رجل فأخذ بمجامع ثوبه وفأدى : هذا طلبه أمير المؤمنين . وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر ، فبينهما ، يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما ، إذ مر أمير في مركبه - وهو ممن بن زائدة - فقال الرجل يا أبا الوليد خائف مستجير ، فقال ممن : ويلك مالك وله ؟ فقال هذا طلبه أمير المؤمنين ، جعل لمن جاء به مائة ألف . قال ممن : أما علمت أني قد أجرته ؟ أرسله من يدك . ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله ، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر ، فبلغ المهدي فأرسل إلى ممن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه السلام وقال : يا ممن أبلغ من أمرك أن تجير علي ؟ قال : نعم قال : وأنعم أيضاً قال : نعم ! قد قتلت في دولتك أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد ؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال : قد أجرنا من أجرت يا ممن . فقال : يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف ، فأمر له بثلاثين ألفاً . فقال : إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية . فأمر له بمائة ألف ، فحملت بين يدي ممن إلى ذلك الرجل ، فقال له ممن : خذ المال وادع لأمر المؤمنين وأصلح نيتك في المستقبل .

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ - يعني المؤذنين - فأمرهم بانتظاره ، ووقف المهدي في المحراب لم يكبر حتى قيل له هذا لأعرابي قد جاء . فكبر ، فتهجب الناس من سماحة أخلاقه . وقدم أعرابي ومعه كتاب مخنوم فجعل يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين إلى ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فاذا هو قطعة أديم فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي ، هذا خطي ، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضمت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله (ص) ، فرفع لي نار من بعيد فقصدتها فاذا هذا الشيخ وامراته في خباء يوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا السلام وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن مشوب بماء ، فما شربت شيئاً إلا وهى أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها . فقام إلى شويبة له فذبحها فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك . فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويبة وقلت له : أعندك شيء ؟ أكتب لك فيه كتاباً ؟ فأنا في هذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف ، وإنما أردت خمسين ألفاً ، والله لا نفذها له كلها ولولم يكن في بيت المال سواها . فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابي واستمر مقبياً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يقرئ الضيف ومن مر به من الناس ، فعرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي .

وعن سوار - صاحب رجة سوار - قال : انصرفت يوماً من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بهض حظاياي لأتلمس بها فلم تنبسط نفسي إليها ، فتهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه الفادرم ، فقلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد . فاستصحبته ممي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فترلت لأصلي فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال : إن لي إليك حاجة ، فقلت : وما حاجتك ؟ فقال : إني رجل ضريب ولكنني لما شحمت راحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة ، فأحببت أن أفضي إليك بما جئني . فقلت : وما هي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي ، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئا أتبلغ به لعملي أجمع بسوار ، فانه كان صاحباً لأبي ، فله أن يكون عنده سعة يجود منها علي . فقلت : ومن أبوك ؟ فذكر رجلاً كان أصحب الناس إلى ، فقلت : إني أنا سوار صاحب أبيك ، وقد منعتني الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك ، وأجلسني بين يديك ، وأمرت وكيلى فدفع له الألفى الدرهم التي معه ، وقلت له : إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا . وركبت فجئت دار الخلافة وقلت : ما أتخف المهدي الليلة في السر بأغرب من هذا . فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر لذلك الأعمى بألفي دينار ، وقال لي : هل عليك دين ؟ قلت نعم . قال : كم ؟ قلت : خمسون ألف دينار . فسكت وحادثني ساعة ثم لما قت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الجمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار وألفي دينار للأعمى ، فانتظرت الأعمى أن يجيء في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت عدت إلى المهدي فقال : قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى . فلما كان اليوم الثالث جاءني الأعمى فقلت : قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً ، ودفعت له الألفى الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً .

ووقفت امرأة للمهدي فقالت : يا عصابة رسرا انا اقض حاجتي . فقال المهدي : ما سمعتها من أحد غيرها ، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درم . ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول : -

أخذت بكفى كفى أبتنى الغنى • ولم أدر أن الجود من كفى يُعيرني
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى • أفنت وأعداني فبددت ما عندي

قال : فبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً . وبالجملة فإن المهدي مآثر ومحاسن كثيرة ، وقد كانت وفاته بما سبذان ، كان قد خرج إليها ليعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخلعه من ولاية العهد ويجمعه بمسد هارون الرشيد ، فامتنع الهادي من ذلك ، فركب المهدي إليه قاصداً إخضاره ، فلما كان بما سبذان مات بها . وكان قد رأى في النوم وهو يقصره ببغداد - المسمى بقصر السلامة - كأن شيخاً وقف بباب القصر ، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول : -

كأنى بهذا القصر قد باد أهلُهُ * وأزحشُ نُهُ رُبْعُهُ ومنازلُهُ
وصارَ حميدُ التومِ من بعد بهجةٍ * وملكٍ إلى قبرٍ عليه جنادلهُ
ولم يبقَ إلا ذكرُهُ وحديثُهُ * تنادى عليه معولاتُ حلاللهُ

فأحاش بعدها إلا عشرأ حتى مات . وروى أنه لما قال له الهاتف : -

كأنى بهذا القصر قد باد أهلُهُ * وقد درست أعلامهُ ومنازلهُ
فأجابه المهدي : كذلك أمورُ الناسِ يلبى جديدها * وكلُّ فتى يوماً ستبلى فمائلهُ
فقال الهاتف : تزود من الدنيا فانك ميتٌ * وإنك مسئولٌ فما أنت قائلهُ
فأجابه المهدي : أقولُ بأن الله حقٌ شهادتهُ * وذلك قولٌ ليسَ تهمي فضائلهُ
فقال الهاتف : تزود من الدنيا فانك راحلٌ * وقد أرف الأمرُ الذي بك نازلُ
فأجابه المهدي : متى ذلك خبرني هديت فاني * سأفعل ما قد قلت لي وأعاجلهُ
فقال الهاتف : تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلةً * إلى منتهى شهرٍ وما أنت كاملهُ

قالوا : فلم يعيش بعدها إلا تسعاً وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير اختلافاً في سبب موته ، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل بشواره فدخل الخربة فكسر ظهره ، وكانت وفاته بسبب ذلك . وقيل إن بعض حظاياهم بعثت إلى أخرى لبناً مسموماً ثم أرسلوا بالمهدي فأكل منه فمات . وقيل بل بعثت إليها بصيلة فيها السمك ترى وفي أعلاها واحدة كبيرة مسمومة ، وكان المهدي يعجبه السمك ترى ، فرت به الجارية ومعها تلك الصينية فأخذت في أعلاها فأكلها فمات من ساعته ، فجعلت الحظية تنديه وتقول : وأمير المؤمنين ، أردت أن يكون لي وحدي فقتلته بيدي . وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة - أعني سنة تسع وستين ومائة - وله من العمر ثلاثاً وأربعون سنة على المشهور ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً ، ورثاه الشعراء بمرائي كثيرة قد ذكرها ابن جرير وابن عساكر .

وفيهما توفى عبيد الله بن زياد ، ونافع بن عمر الجمحي ، ونافع بن أبي نعيم القاري .

مختصر موكي الرهاوي بن المهدي

توفي أبوه في الحرم من أول سنة تسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه ، وكان أبوه قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد ، فلم يتفق ذلك حتى مات المهدي بمسبذان . وكان الهادي إذ ذاك بجرجان ، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له ، وكان الرشيد حاضراً ببغداد ، وعزموا على النفقة على الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك . فأسرع الهادي السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر ، فساق منها إليها في عشرين يوماً ، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً ، وأخذ البيعة منهم فبايعوه ، وتغيب الربيع الحاجب فتمطلبه الهادي حتى حضر بين يديه ، فعفا عنه وأحسن إليه وأقره على حجو بيته ، وزاده الوزارة ولايات أخر . وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة ، واقتدى في ذلك بأبيه ، وقد كان موسى الهادي من أفكك الناس مع أصحابه في الخلوة ، فاذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه ، لما يعلوه من المهابة والرياسة ، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً .

وفيها - أعنى سنة تسع وستين ومائة - خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي ، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين ، والتف عليه جماعة فبايعوه على الكتاب والسنة والرضى من أهل البيت . وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد لينثي الخليفة بالولاية ويمزيه في أبيه . ثم جرت أمور اقتضت خروجه ، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي ، ومنعوا الناس من الصلاة فيه ، ولم يجبه أهل المدينة إلى ما أرادوه ، بل جعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد ، حتى ذكر أنهم كانوا يقدرون في جنبات المسجد ، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتل من هؤلاء وهؤلاء . ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج ، فبعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه ، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذر مذر . فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان كريماً من أجود الناس : دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة ، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص ، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص .

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة . وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معنوق بن يحيى في جعفل كثيف ، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث ، وفيها توفي الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قتل في أيام التشريق كما تقدم .

والربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور ، وكان حاجبه ووزيره ، وقد ورر للمهدي والهادي ، وكان بعضهم يظمن في نسبه . وقد أورد الخطيب في ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكر ، وفي صحته عنه نظر . وقد ولى الحجووية بعده ولده الفضل بن الربيع ، ولاء إياها الهادي .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

وفيها عزم الهادي علي خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادي فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب ، واستدعى الهادي جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك ، وأبت ذلك أمهما الخيزران ، وكانت تميل إلى ابنتها هارون أكثر من موسى ، وكان الهادي قد منعها من التصرف في شيء من المملكة لذلك ، بعد ما كانت قد استحوذت عليه في أول ولايته ، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جنابها ، فخلف الهادي لئن عاد أمير إلى بابها ليضرب عنقه ولا يقبل منه شفاعة ، فامتنعت من الكلام في ذلك ، وحلفت لا تكلمه أبداً ، وانتقلت عنه إلى منزل آخر . وألح هو على أخيه هارون في الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك - وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد - فقال له : ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر ؟ فقال له خالد : إني أخشى أن تهون الإيمان على الناس ، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفر آوياً للمهد من بعد هارون ، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر ، لأنه دون البلوغ ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس . فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلاً - ثم أمر بسجنه ثم أطلقه . وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً ، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً ثم قال : يا هارون ! أطمع أن تكون ولياً للمهد حقاً ؟ فقال : إي والله ، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت ، ولأنصفن من ظلمت ، ولأنزجن بنيك من بناتي . فقال ذاك الظن بك . فقام إليه هارون ليقبل يده فخلف الهادي لينجلس معه على السرير فجلس معه ، ثم أمر له بألف ألف دينار ، وأن يدخل الخزان فيأخذ منها ما أراد ، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه . ففعل ذلك كله ورضى الهادي عن الرشيد . ثم سافر الهادي إلى حديشة الموصل بعد الصلح ، ثم عاد منها فأت بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول ، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وكانت خلافته ستة أشهر^(١) وثلاثة وعشرون يوماً . وكان طويلاً جميلاً ، أبيض ، بشفته العليا تقلص . وقد توفي هذه الليلة خليفة وهو الهادي ، وولى خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد . وقد قالت الخيزران أمهما في أول الليل : إنه بلغني أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة . يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمدة ، وقد سرها ذلك جداً . ويقال : إنها

(١) في المصرية : سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً .

سمت ولدها الهادي خوفا منه على ابنها الرشيد ، ولأنه كان قد أبعدا وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها فأنه أعلم .

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو موسى بن محمد المهدي بن عبيد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي . ولي الخلافة في محرم سنة تسع وستين ومائة . ومات في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل ست وعشرون سنة ، والصحيح الأول ، ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنه ، وكان حسناً جميلاً طويلاً ، أبيض ، وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان أبوه يسميه ريماني . ذكر عيسى بن دأب قال : كنت يوماً عند الهادي إذ جرى بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا ، لم أر أحسن صوراً منهما ، ولا مثل شعورهما ، وفي شعورهما اللآلي والجواهر منضدة ، ولا رأيت مثل طيب ريحهما . فقال لنا الخليفة : أتدرون ما شأن هاتين ؟ قلت : لا . فقال : إنه ذكر أنه تركب إحداها الأخرى يفعلان الفاحشة ، فأمرت الخادم فرصدتهما ثم جاءني فقال : إنيما مجتمعتان ، فحسنت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة ، فأمرت بحز رقابهما . ثم أمر برفع رؤسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً . وكان شهيداً خبيراً بالملك كريماً ، ومن كلامه : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني ، والعفو عن الزلات ، ليقبل الطمع عن الملك . وغضب يوماً على رجل فاسترضى عنه فرضى ، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي : إن الرضا بكفاك مؤنة الاعتذار . وعزى رجلاً في ولد ، فقال له : سرّك وهو عدو وفتنة ، وساء لك وهو ضلالة ورخلة . وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها قوله : -

تشابه يوماً بأسه ونواله * فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : أيما أحب إليك ؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تكون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين . فقال الهادي : أو أحسن من ذلك ، نعلج الجميع لك . فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة . قال الخطيب البغدادي : حدثني الأزهرى ثنا سهل بن أحمد الديباجي ثنا الصولي ثنا الغلابي حدثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المسكي حدثني المطلب بن عكاشة المزني قال : قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا أنه شتم قريشاً وتخطى إلى رسول الله (ص) ، فجلس لنا فجلسنا أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه ، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه . فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال : إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور

عن أبيه علي بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشاً أهانه الله ، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن
ذبت قريشاً حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله (ص) ؟ اضربوا عنقه : فما برحنا حتى قتل .
توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة ، وصلى عليه أخوه هارون ، ودفن في قصر بناء
رساء الأبيض بميساباذ من الجانب الشرقي من بغداد ، وكان له من الولد تسعة ، سبعة ذكور وابنتان ،
فألكور جعفر ، وعباس ، وعبد الله ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وسليمان ، وموسى الأعشى ، الذي ولد
بعد وفاته فسمى باسم أبيه . والبنتان هما أم عيسى التي تزوجها المؤمنون ، وأم العباس تلقب توبة .

خلفته هارون الرشيد بن المهدي

بيع له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة
وكان عمر الرشيد يومئذ ثنتان وعشرين سنة ، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ،
وقد كان الهادي عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد ، وكان الرشيد ابنه من الرضاة ،
فولاه حينئذ الوزارة ، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الأانشاء . وكان هو الذي قام خطيباً
بين يديه حتى أختت البيعة له على المنبر بميساباذ ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى
ابن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال : قم يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : كم تريدني ،
لو سمعت هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده ؟ فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون فقال :
أشر على في الولايات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيولاهم الرشيد ، فبينما هما كذلك إذ
جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام . فقال : هو عبد الله وهو المؤمن . ثم
أصبح فعلى على أخيه الهادي ، ودفنه بميساباذ ، وحلف لا يصلى الظهر إلا ببغداد . فلما فرغ من
الجنائز أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي ، فزاحوا الرشيد على جسر
فقال أبو عصمة : اصبر وقف حتى يجوز لي المهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير . فجاز
جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً . فلما ولى أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى
بغداد . فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالعواصين فقال إني سقطت مني ههنا خاتم كان والدي
المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلى الهادي يعالجه فألقته إلى الرسول فسطط
ههنا . ففأص العواصون وراة فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . ولما ولى الرشيد يحيى بن
خالد الوزارة قال له : قد فوضت إليك أمر الرعية وخلصت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك ، فول
من رأيت واعزل من رأيت . ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي : —

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن هارون أمر يحيى بن خالد أن لا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزران . فكانت هي المشاورة في الأمور كلها ، فتبرم وتحمل وتمضي وتحكم .

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوى القربى أن يقسم بين بنى هاشم على السواء . وفيها تتبع الرشيد خنثى من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة . وفيها خرج عليه بعض أهل البيت . وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد ابن زبيدة . وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة . وفيها كمل بناء مدينة طرسوس على يدى فرج الخادم التركي ونزلها الناس . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد ، وأعطى أهل الحرم أموالاً كثيرة ، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضاً . وفى ذلك يقول داود بن رزين الشاعر : —

بهارونَ لاحَ النورُ في كلِّ بلدةٍ * وقامَ بهِ في عدلٍ سيرتهُ النهجُ
إمامٌ بذاتِ اللهِ أصبحَ شغلُهُ * وأكثُرُ ما يعنى بهِ الغزوُ والحجُ
تضيّقُ عيونُ الناسِ من نورِ وجهِهِ * إذا ما بدا للناسِ منظرُ البليجِ
وإنَّ أمينَ اللهِ هارونَ ذا النداءِ * ينيلُ الذى يرجوه أضعافَ ما يرجو
وغزا الصائفةَ فيها سليمان بن عبد الله البكائى .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيسى ، ويقال الفرهودى الأزدى ، شيخ للنحاة ، وعنه أخذ سيديبه والنضر بن شميل ، وغير واحد من أكابرهم ، وهو الذى اخترع علم العروض . قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بحراً ، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبيب ، وقد قال بعض الشعراء : —

قد كانَ شمرُ الورى صحيحاً * من قبل أن يخلق الخليلُ

وقد كان له معرفة بعلم النغم ، وله فيه تصنيف أيضاً ، وله كتاب العين فى اللغة ، ابتداءه وأمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحاب الخليل ، كـثـورج السدوسى ، ونصر بن على الجهمضى . فلم يناسبوا ما وضعه الخليل . وقد وضع ابن درستويه كتاباً وصف فيه ما وقع لهم من الخلال فأفاد . وقد كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً وقوراً كاملاً ، وكان متقللاً من الدنيا جداً ، صبوراً على خشونة العيش وضيقه ، وكان يقول : لا يجاوز همى ما وراء بابى ، وكان ظريفاً حسن الخلق ، وذكر أنه اشتغل رجل عليه فى العروض وكان بعيد الذهن فيه ، قال فقلت له يوماً : كيف تقطع هذا البيت ؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معى فى تقطيعه على قدر معرفته ، ثم إنه نهض من عندى فلم يعد إلى ، وكأنه فهم ما أشرت

إليه . ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي (ص) ، بأحد سوى أبيه . روى ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم . ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور ، وقيل سنة ستين ، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة ، وهذا غريب جداً . والمشهور الأول .

وفيهما توفي الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم ، المصري المؤدب راوية الشافعي ، وآخر من روى عنه . وكان رجلاً صالحاً تفرس فينه الشافعي وفي البويطي والمزني وابن عبد الحكم ألهم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر . ومن شعر الربيع هذا :

صبراً جليلاً ما أسرع الفرجا * من صدق الله في الأمور نجبا

من خشي الله لم ينله أذى * ومن رجا الله كان حيث رجا

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فإنه روى عن الشافعي أيضاً . وقد مات في سنة ست وخسين ومائتين والله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة . وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه . وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروي قتل . وفيها قدم روح بن حاتم نائب إفريقية . وفيها خرجت الخيزران إلى مكة فأقامت به إلى أن شهدت الحج ، وكان الذي حج بالناس فيها عبد الصمد بن علي عم الخلفاء .

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف مما فيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موطناً يسكنه غير بغداد فتشوش فرجع . وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي بالبصرة محمد بن سليمان فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء ، فوجسوا من ذلك شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والأمتعة وغير ذلك ، فنضدوه ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين . وهو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمه أم حسن بنت جعفر بن حسن بن علي ، وكان من رجالات قريش وشجعانهم . جمع له المنصور بين البصرة والكوفة ، وزوجه المهدي ابنته العباسية ، وكان له من الأموال شيء كثير ، كان دخله في كل يوم مائة ألف . وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم يرمثله . وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر ،

وهو حديث مرفوع في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه ، ومسح رأس من له أب إلى مؤخر رأسه .
وقد وفد على الرشيد فهناه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً . ولما أراد الخروج
خرج معه الرشيد يشيعه إلى كواذا . توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين
سنة ، وقد أرسل الرشيد من أصطفي من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار ،
ومن الدراهم ستة آلاف ألف ، خارجا عن الأملاك .

وقد ذكر ابن جرير أن وفاته و وفاة الخيزران في يوم واحد ، وقد وقفت جارية من جواريه على
قبره فأنشأت تقول :

أمسى التراب لمن هويت مبيتا * اقر التراب قتل له حيتا

إنا نحبك يا تراب وما بنا * إلا كرامة من عليه حيتا

وفيها توفيت الخيزران جارية المهدي وأم أمير المؤمنين الهادي والرشيد ، اشتراها المهدي
وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين : موسى الهادي والرشيد . ولم يتفق هذا
لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العباسية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، وهي أم الوليد
وسليمان . وكذلك لشاه فرند بنت فيروز بن يزجرد ، ولدت لمولاه الوليد بن عبد الملك : مروان
وإبراهيم . وكلاهما ولي الخلافة . وقد روى من طريق الخيزران عن ولدها المهدي عن أبيه عن
جده عن ابن عباس عن النبي (ص) ، قال : « من اتقى الله وقاه كل شيء » . ولما عرضت الخيزران
على المهدي ليشتريها أمحبته لإدقة في ساقها ، فقال لها : يا جارية إنك لعل غاية المنى والجمال لولا
دقة ساقك وخوشهما . فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ماتكون إليهما لا تراهما فاستحسن
جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً . وقد حجبته الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب إليها وهي
بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر : -

نحن في غاية السرور ولسكن * ليس إلا بكم يتم السرور

عيب . ونحن فيه يا أهل ودي * أنكم غيب ونحن حضور

فأجدوا في السير بل إن قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته أو أمرت من أجابه :

قد أنانا الذي وصفت من الشو * ق فكنا وما قدرنا تطير

ليت أن الرياح كن يؤدين * إليكم ماقد يكن الضمير

لم أزل صبة فان كنت بعدى * في سرور فدام ذاك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذي مات في اليوم الذي ماتت فيه مائة

وصيفة ، مع كل وصيفة جام من فضة مملوء مسكا . فكتبت إليه : إن كان ما بعثته ثمننا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت ، وقد بخسنا في الثمن ، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتنى في المودة . وردت ذلك عليه . وقد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام .

وكان مثل ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفا . واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . وخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يحب في الطين . فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجلبيه ولبس خفاً وصلى عليها ، ونزل لحدها . فلما خرج من القبر أتى بسرير نجاس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنقعات . وأنشد الرشيد قول ابن نيرة حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندمانى جذيمة برهة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكاً * لطول اجتماع لم نبث ليلة معا

غادر

وفيها توفيت :

جارية كانت لموسى الهادى ، كان يحبها حباً شديداً جداً ، وكانت تحسن الغناء جداً ، فبينما هى يوماً لتغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه ، فسأله بعض الحاضرين : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخذتنى فكرة أنى أموت وأخى هارون يتولى الخلافة بعدى ويتزوج جاريق هذه . فغداه الحاضرون ودعوا له بطول العمر . ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع فعوذ الرشيد من ذلك ، فاستحلفه الهادى بالآيمان المغلظة من الطلاق والعناق والحج ماشياً خافياً أن لا يتزوجها ، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له ، فلم يكن إلا أقل من شهرين حتى مات ، ثم خطبها الرشيد فقالت : كيف بالآيمان التى حلفناها أنا وأنت ؟ فقال : إنى أكفر عنى وعنك . فتزوجها وحظيت عنده جداً ، حتى كانت تنام فى حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها . فبينما هى ذات ليلة نائمة إذ انقبت مذعورة تبكى ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين رأيت الهادى فى منامى هذا وهو

يقول : أخلفت عهدى بعد ما * جاورت سكان المقابر

ونسيتنى وحنثت فى * أيمانك الكذب الفواجر

ونكحت غادرة أخى * صدق الذى سماك غادر

أمسيت فى أهل البلى * وعددت فى الموتى الغواجر

لا بينك الألف الجديد * دولا تدر عنك الدوائر

ولحقت بى قبل الصبا * حوصرت حيث غدت صائر

فقال لها الرشيد : أضغاث أحلام . فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي . ثم ما زالت تر تمد وتضطرب حتى ماتت قبل الصباح . وفيها ماتت : هيلانة جارية الرشيد ، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لانه . قال الأصمعي : وكان هذا محباً ، وكانت قبله لخالد بن يحيى بن برمك ، فدخل الرشيد يوماً منزله قبل الخلافة فاعترضته في طريقه وقالت : أمالنا منك نصيب ؟ فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ فقالت : استوهبني من هذا الشيخ . فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده ، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها وكان من قوله فيها : —

قد قلت لما ضمنوك الثرى * وجالت الحسرة في صدري
أذهب فلاق الله لا سرنى * بعدك شيء آخر الدهر
وقال العباس بن الأحنف في موتها :

يامن تباشرت القبور بموتها * قصد الزمان مساكن فرماك
أبني الأنيس فما أرى لي مؤنساً * إلا التردد حيث كنت أراك
قال : فأمر له الرشيد بأربعين ألفاً ، لكل بيت عشرة آلاف ، فأنشأه .
ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة

فيها وقعت عصبية بالشام وتخبط من أهلها . وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه نعي . وفيها غزا الصائفة عبيد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم . وفيها حج بالناس الرشيد ، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف وقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسمى ثم ارتحل ولم ينزل بها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين ، وعمره إذ ذاك خمس سنين ، فقال في ذلك سلم الخاسر :

قد وفق الله الخليفة إذ بني * بيت الخلافة للهجان الأهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده * شهدا عليه بمنظر وبمخير
قد بايع الثقلان في مهدي * محمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقد كان الريد يتوسم النجاة والرجاحة في عبد الله المأمون ، ويقول : والله إن فيه حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعرة نفس الهادي . ولو شئت أن أقول الرابعة منى لقلت ، وإني لأقدم محمد بن زبيدة وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك . ثم أنشأ يقول :

لقد بان وجه الرأي لي غير أننى * غلبت على الأمر الذى كان أحزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما * نوزع حتى سار نهبا مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه * وأن ينقض الأمر الذى كان أبرما
وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح ، فى قول الواقدى . وحج بالناس الرشيد . وفيها سار يحيى
ابن عبد الله بن حسن إلى الديلم ونحرك هناك . وفيها توفى من الأعيان .

شعوانة العابدة الزاهدة

كانت أمة سوداء كثيرة العبادة ، روى عنها كلمات حسان ، وقد سألها الفضيل بن عياض الدعاء
فقلت : أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك ؟ فشق الفضيل ووقع مغشيا عليه . وفيها توفى
الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى مولاهم . قال ابن خلكان : كان مولى قيس بن رفاعه
وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمى ، كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة ، وولد
بقرقشنة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين . وكانت وفاته فى شعبان من هذه السنة ، ونشأ بالديار
المصرية . وقال ابن خلكان : أصله من قرقشنة وضبطه بلامين الثانية متحركة . وحكى عن بعضهم
أنه كان جيد الذهن ، وأنه ولى القضاء بمصر فلم يحمدوا ذهنه بعد ذلك ، ولد سنة أربع وعشرين
ومائة ، وذلك غريب جدا فكروا أنه كان يدخله من ماله فى كل سنة خمسة آلاف دينار .
وقال آخرون : كان يدخله من الغلة فى كل سنة ثمانون ألف دينار ، وما وجبت عليه زكاة ، وكان
إماما فى الفقه والحديث والعربية . قال الشافعى : كان الليث أقره من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه .
وبعث إليه مالك يستهديه شيئا من المصفر لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملا ، فاستعمل
منه مالك حاجته وباع منه بخمسة دنانير ، وبقيت عنده منه بقية . وحج مرة فأهدى له مالك طبقا
فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار . وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما
يقارب ذلك . وكان يخرج إلى الاسكندرية فى البحر هو وأصحابه فى مركب ومطبخه فى مركب .
ومناقبه كثيرة جدا . وحكى ابن خلكان أنه سمع قائلا يقول يوم مات الليث :
ذهب الليث فلا ليت لكم * ومضى العلم غريبا وقبر
فالتفتوا فلم يروا أحدا . وفيها توفى :

المنذر بن عبد الله بن المنذر

القرشى ، عرض عليه المهدي أن يلى القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم ، فقال : إني
عاهدت الله أن لا ألى شيئا ، وأعيد أمير المؤمنين بالله أن أخيس بهدي . فقال له المهدي : الله ؟
قال : الله . قال : انطلق فقد أعفيتك .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم ، واتبعه خاق كثير وجم غفير ، وقويت شوكته ، وارتحل إليه الناس من السكور والأمصار ، فانزعج لذلك الرشيد وخلق من أمره ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً ، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك . فسار الفضل بن يحيى إلى تلك الناحية في أمة عظيمة ، وكتب الرشيد تلمحته مع البرد في كل منزلة ، وأنواع التحف والبر ، وكاتب الرشيد صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى إليهم ، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يمينه ويؤمله ويرجيه ، وأنه إن خرج إليه أن يقيم له العسكر عند الرشيد . فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده . فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعا عظيما . وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة ، الفقهاء ، مشيخة بني هاشم ، منهم عبد الصمد بن علي ، وقبعت الأمان وأرسل معه جوائز وتحفا كثيرة إليهم ، لينفذوا ذلك جميعه إليه . ففعلوا وسلموه إليه فدخلوا به بغداد ، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له في العطاء ، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة ، بحيث إن يحيى بن خالد كان يقول : خدمته بنفسى وولدى : وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى بالصلح بين العباسيين والفاطميين ، ففى ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على صلته هذا :

ظفرت فلا شلت يده برمكية * رقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعياء الراتقين الثمامة * فكفوا وقالوا ليس بالسلام
فأصبحت قد فازت بذاك بخطرة * من المجد باق ذكرها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فازاً * لكم كلما ضمت قداح المسام

قالوا : ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه ، ويقال : إنه سجنه ثم استحضره وعنده جماعات من الهاشميين ، وأحضر الأمان الذى بمث به إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أمحيح هو ؟ قال : نعم . فتنظيظ الرشيد عليه . وقال أبو البختري : ليس هذا الأمان بشئ فاحكم فيه بما شئت ، ومزق الأمان . وبصق فيه أبو البختري ، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : هيه هيه ، وهو ييسم تبسم الغضب ، وقال : إن الناس يزعمون أنا سمناك . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحما وحقا ، فعلام تعذبنى وتحبسنى ؟ فرق له الرشيد ، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال : يا أمير المؤمنين لا يفرنك هذا الكلام من هذا ، فإنه عاص شاق ، وإنما هذا منه مكر وخبت . وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر

فيها العصيان فقال له يحيى : ومن أنتم عاقلكم الله ؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائي وآباء هذا
ثم قال يحيى : يا أمير المؤمنين لقد جاءني هذا حين قتل أخى محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ،
وأشدنى فيه نحواً من عشرين بيتاً ، وقال لى ، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك ،
وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك ؟ قال : فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيرى وأذكر وشرع
يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب فى ذلك ، وتخير الرشيد . ثم قال ليحيى : اتحفظ شيئاً من
المرئية ؟ قال : نعم . وأشدته منها جانباً . فازداد الزبيرى فى الإنكار ، فقال له يحيى بن عبد الله :
فقل : إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته ، ووكلى الله إلى حولى وقوته . فامتنع من
الحلف بذلك ، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه ، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد
فرماه الله بالفالج فمات من ساعته . ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله .

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله وأطلق له مائة ألف دينار ، ويقال إنما حبسه بعض يوم
وقيل ثلاثة أيام . وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال ، وعاش
بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله .

وفيها وقعت فتنة عظيمة بالشام بين التزارية ، وهم قيس ، واليمانية وهم يمن ، وهذا كان أول بدو
أمر العشيرتين بحوران ، وهم قيس ويمن ، أعادوا ما كانوا عليه فى الجاهلية فى هذا الآن . وقتل
منهم فى هذه السنة بشر كثير . وكان على نيابة الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى ،
وقيل عبد الصمد بن على فأن الله أعلم . وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندی بن سهل أحد موالى
جعفر المنصور ، وقد هدم سور دمشق حين نارت الفتنة خوفاً من أن يتغلب عليها أبو الهيثم المزى
رأس القيسية ، وقد كان مزى هذا دميم الخلق . قال الجاحظ : وكان لا يحلف المكارى ولا الملاح
ولا الحائك ، ويقول : القول قولهم ، ويستخير الله فى الحال ومعلم الكتاب . وقد توفى سنة أربع
ومائتين . فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد
ورؤس الكتاب ، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الرعية ، وحلوا جماعات من
رؤس الفتنة إلى الرشيد فرد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم ، وفى ذلك يقول بعض
الشعراء :

قد هاجت الشام هيجاً * يشيب رأس وليدة
فصب موسى عليها * بخيل وجنوده
فدانت الشام لما * أتى بسنح وحيدة
هذا الجواد الذى * ند كل جود بجوده

أعداهُ جودُ أبيسر * يحيى وجودُ جدوده
 فجادُ موسى بن يحيى * بطارفٍ وتليده
 ونالَ موسى ذرى الحج * بر وهو حشُو مهوده
 خصصته . بمديحي * منشوره وقصيده
 ونَ البراءك عوداً * له فأكرم بعوده
 حووا على الشعر طراً * خفيفه ومديده

وفيهما عزل الرشيد النطريف بن عطاء عن خراسان وولاهما حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس . وفيها ولي الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد نيابة مصر ، فاستناب عليها جعفر عمر بن مهران ، وكان ردئ الخلق ردئ الشكل زمن الكف أحول ، وكان سبب ولايته إياها أن نائبا موسى ابن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد . فقال الرشيد : والله لأعزلنه ولأولين عليها أحسن الناس . فاستدعى عمر بن مهران هذا فولاه عليها عن نائبه جعفر بن يحيى البرمكي . فسار إليها على بغل وشلاه أبو درة على بغل آخر ، فدخلها كذلك فأنهى إلى مجلس نائبا موسى بن عيسى فجلس في آخر يات الناس ، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو ، فقال : ألك حاجة يا شيخ ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير . ثم دفع الكتاب إليه فلما قرأها قال : أنت عمر بن مهران ؟ قال : نعم . قال : لمن الله فرعون حين قال : أليس لي ملك مصر ؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل منها ، وأقبل عمر بن مهران على عمله ، وكان لا يقبل شيئا من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قماشاً ، ثم يكتب على كل هدية اسم مهديها ، ثم يطالب بالخراج ويلج في طلبه عليهم ، وكان بعضهم يماطله به ، فأقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل . فجمع من ذلك شيئاً كثيراً ، وكان يبعث ما جمعه إلى بغداد ، ومن ماضله بعثه إلى بغداد . فتأدب الناس معه . ثم جاءهم القسط الثاني فمعجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا ، فإن كان نقداً أداه عنهم ، وإن كان برأ باعه وأداه عنهم ، وقال لهم : إني إنما ادخرت هذا لكم إلى وقت حاجتكم . ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله ، ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشيد أنه إذا مهد البلاد وجب الخراج ، فذلك إذنه في الانصراف . ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه ، وهو منفذ أموره . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً . وفيها حجّت زبيدة زوجة الرشيد ومعهما أخوها ، وكان أمير الحج سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها توفي :

إبراهيم بن صالح

ابن علي بن عبد الله بن يمان ، كان أميراً على مصر ، توفي في شعبان . وإبراهيم بن هرمة

كان شاعراً . وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهرى المدني ، وفد على المنصور في وفد أهل المدينة حين استوفدم عليه ، فجلسوا إلى ستر دون المنصور ، يرى الناس من ورائه ولا يرونه ، وأبو الخصيب الحجاب واقف يقول : يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب ، فيأمره فيخطب ، ويقول : هذا فلان الشاعر فيأمره فينشد . حتى كان من آخرهم ابن هرمة هذا ، فسمعه يقول : لا مرحباً ولا أهلاً ولا أنعم الله بك حيناً . قال : قتلت : هلك ، ثم استندتني فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها :
سرى ثوبة عند الصبا المتجايل^(١) * وقربَ للبين الخليل المزايل
حتى انتهيت إلى قول :

فأما الذي أمنتَه يأمن الردي * وأما الذي حاولت بالشكل ناكل

قال : فأمر برفع الحجاب فإذا وجهه كأنه فلق قر ، فاستندتني بقية القصيدة وأمر لي بالتقرب بين يديه ، والجلوس إليه ، ثم قال : ويحك يا إبراهيم ! لولا ذنوب بلغتني عنك لفضلتك على أصحابك ، قتلت : يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغتني عنك لم تفر عنه فأنا مقربه . قال : فتناول الخصرة فضر بني بها ضربتين وأمر لي بمشرة آلاف وخمسة وعفا عني وألحقني بنظرائي . وكان من جملة مائة المنصور عليه قوله :

ومهما ألام على جهنم * فاني أحب بني قاطمة

بني بلتر من جاء بالحسنة * ترو بالدن وبالسنة القائمة

فلست أبالى بحبي لهم * سواهم من النعم السائمة

قال الأخفش . قال لنا ثعلب قال الأصمى : ختمت الشعراء بابن هرمة . ذكر وفاته في هذه السنة أبو الفرج ابن الجوزي . وفيها توفي الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح ، وسعيد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المدني ، ولي قضاء بغداد سبعة عشر سنة لمسك المهدى ، وثقه ابن معين وغيره . وفيها توفي :

صالح بن بشير المرقى

أحد العباد الزهاد ، كان كثير البكاء وكان يهبط فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء ، ويقول : سفيان هذا نذير قوم ، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء إليه راكباً على سمار فدان من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنه - ولي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد - أن يقوموا إليه لينزلوه عن دابته ، فابتدراه فأنزلوه ، فأقبل صالح على نفسه فقال : لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم ، وفي هذا اليوم . فبسط إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه ، ثم قال له : اعلم أن رسول الله (ص) ، خصم من خالفه في أمته ، ومن كان محمد خذله كان الله خصمه ، فأعد لخصمه الله ومخاصمة رسوله حجماً تضمن لك النجاة ، وإلا فاستسلم للهلكة ، واعلم أن أبطأ الصرع نهضة صريع هوى بدعته ، واعلم أن الله قاهر فوق عباده ، وأن أثبت الناس قدماً

(١) كذا ولعل فيه تحريفاً .

آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكلام طويل . فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه .
وفيها توفي عبد الملك بن محمد بن محمد بن أبي بكر عمرو بن حزم قدم قاضياً بالعراق . وفرج بن
فضالة التنوخي الحمصي ، كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد ، فتوفي في هذه السنة ، وكان
مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة . ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر
الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه : لم لم تقم ؟ قال : خفت أن يسألني الله
عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك ، وقد كره رسول الله (ص) القيام للناس . قال : فبكى المنصور
وقر به وقضى حوائجه . والمسيد بن زهير بن عمرو أبو سلمة الضبي ، كان والي الشرطة ببغداد في أيام
المنصور والمهدي والرشيد ، وولي خراسان مرة للمهدي . عاش ستاً وتسعين سنة . والوضاح بن عبد الله
أبو عوانة السري مولاهم ، كان من أئمة المشايخ في الرواية . توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان ، وعزل حمزة بن مالك
عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافاً إلى ما كان بيده من الأعمال بالرى وسجستان
وغير ذلك . وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر الحرم من هذه السنة ،
وكذلك في أواخر صفر منها . وفيها حج بالناس الرشيد . وفيها توفي (شريك بن عبد الله) القاضي
الكو في النخعي ، سمع أبا إسحاق وغير واحد ، وكان مشكوراً في حكمه وتنفيذ الأحكام ، وكان لا يجلس
للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من خفه فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه ، فحرص بعض أصحابه
على قراءة ما في تلك الورقة فاذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله
اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل . كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها .
وفيها توفي عبد الواحد بن زيد ، ومحمد بن مسلم وموسى بن أعين .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاة على عامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت
فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لإسحاق ، فقاتلهم
حتى أذعنوا بالطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج والوظائف ، واستمر هرثة نائباً على مصر نحواً من
شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان ، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبد الملك بن صالح . وفيها
وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب ،
فبعث إليهم الرشيد هرثة فرجعوا إلى الطاعة على يديه . وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى
يحيى بن خالد بن برمك . وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها ، ثم

منفى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سذكره . وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فحسن
السيرة فيها وبنى فيها الرباط والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، وأخذ بها جنوداً من المعجم مهابم
العباسية ، وجعل ولدهم له ، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف ، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى
بغداد ، فكانوا يعرفون بها بالكرمينية ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ما الفصل إلا شهاب لا أقول له • عند الحروب إذا ما تأمل الشهاب
حاصر على ملك قوم غر سبهم • من الوراثة في أيديهم سبب
أمسث يدرلني ساق الحبيج بها • كئائب ما لما في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت • ما ألف الفضل منها المعجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم • من الألوف التي أحصت لها الكتب
يقارون عن القوم الذين هم • أوتى بأحد في الفرغان إن نسوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا رقة • بقي على جود كعبه ولا ذهب
ما مرة يوم له مذ شدة مزره • إلا نول أقوام بما يوب
كم غاية في الندى والبأس أحرزها • لأعاليين قداها دوتها نعب
يعلى النهى حين لا يعلى الجواد ولا • يبدو إذا سلكت الهندية الفضب
ولا الرضى والرضى نثر غاية • إلى سوى الحق يدعو ولا العصب
قد طامس عرفك حتى ما يماذه • غبت منيت ولا يجر له حسب
وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان :

ألم تر أن الجود بن يدر آدم • تحدر حتى صار في راحة الفصل
إذا ما أبو العباس سمعت مهاؤه • فبالك من هطل وبالك من • بل
وقال فيه أيضاً :

إذا أم طفل راحها جوع طفلها • دعته باسم الفضل فاعنهم الطفل
ليحي بك الإسلام إنك هزه • وإلك من قوم منيرم كهل
قال فأمر له بمائة ألف درهم ذكره ابن جرير . وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً :

وكيف تخاف من بلاس بدار • يجاردها^(١) البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى • نسير ما يوازنه غير
له يومان يوم ندى وبأس • كأن الدهر بينهما أسير

(١) في المصرية والطبري : تكنفها .

إذا ما البرمكي غدا ابن عشرين * فمته أمير أو وزير

وقد اتفق للفضل في هذه السفارة إلى خراسان أشياء غريبة ، وفتح بلادا كثيرة ، منها كابل وما وراء النهر ، وقهر ملك الترك وكان ممتعا ، وأطلق أموالا جزيلة جدا ، ثم قفل راجعا إلى بغداد ، فلما اقترب منها خرج الرشيد وجوه الناس إليه ، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس ، فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفذ في ذلك من الأموال شيئا كثيرا لا يمكن حصره إلا بتمب وكافة ، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال :

كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالد * وجود يديه بخل كل بخيل

فأمر له بمال جزيل . وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم . وغزا الشامية سليمان ابن راشد . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نائب مكة . وفيها توفي جعفر بن سليمان ، وعنتر بن القاسم ، وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد ، وصلى عليه الرشيد ودفن بها ، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فالحق أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمر بن جميل ، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري . وفيها عزل الرشيد خالد بن برمك عن الحجوبة وردها إلى الفضل بن الربيع . وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني ، وكان من أمره ما سيأتي طرف منه . وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه ، فقالت الفارعة في أخيها الوليد ابن طريف ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى * ولا المال إلا من قنأ وسيوف

وفيها خرج الرشيد معتمرا من بغداد شكرا لله عز وجل ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة ، فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشيا ، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة . وفيها توفي :

اسماعيل بن محمد

ابن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسعيد ، كان من الشعراء المشهورين المبرزين فيه ، ولكنه كان رافضيا خبيثا ، وشبيها غثيا ، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة - أي بالدور - قال أبو لرجل : أقرضني ديناراً ولك غنمى مائة دينار إذا رجعتنا إلى الدنيا . فقال له

الرجل : إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب دينارى .

وكان قبجه الله يسب الصحابة في شعره . قال الأصمعى : ولولا ذلك ما قدمت عليه أحدآ في طبقة ، ولا يسب الشيعين وابنيهما . وقد أورد ابن الجوزى شيئاً من شعره في ذلك كرهت أن أذكره لبشاعته وشناعته ، وقد اسود وجهه عند الموت وأصابه كرب شديد جداً . ولما مات لم يدفنوه لسبه الصحابة رضى الله عنهم . وفيها توفي . حماد بن زيد

أحد أئمة الحديث . وخالد بن عبد الله أحد الصالحاء ، كان من سادات المسلمين ، اشترى نفسه من الله أربع مرات . ومالك بن أنس الامام ، والقل بن زياد صاحب الأوزاعى ، وأبو الأحوص . وكلهم قد ذكرناهم في التكميل . والامام مالك

هو أشهرهم وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فهو مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحيرى ، أبو عبد الله المدنى إمام دار الهجرة في زمانه ، روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة ، منهم السفينان ، وشعبة ، وابن المبارك ، والأوزاعى ، وابن مهدي وابن جريج والليث والشافعى والزهرى شيخه ، ويحيى بن سعيد الأنصارى وهو شيخه ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن يحيى الأندلسى ، ويحيى بن يحيى النيسابورى . قال البخارى : أصبح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال سفينان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، إلا أبا أمية . وقال غير واحد : هو أثبت أصحاب نافع والزهرى . وقال الشافعى : إذا جاء الحديث فمالك النجم . وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك . ومناقبه كثيرة جداً ، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان . قال أبو مصعب : سمعت مالكا يقول : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك . وكان إذا أراد أن يحدث تنظف وتطيب وشرح طيبته ولبس أحسن ثيابه ، وكان يلبس حسناً . وكان نقش خاتمه حسبى الله ونعم الوكيل ، وكان إذا دخل منزله قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وكان منزله مبسوطاً بأنواع المفارش . ومن وقت خروجه محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يأتى أحداً لا لعزاء ولا لهناء ، ولا يخرج الجمعة ولا الجمعة ، ويقول : ما كل ما يعلم يقال ، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم جعل يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، ثم قبض في ليلة أربعة عشر من صفر ، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة ، وله خمس وثمانون سنة . قال الواقدى : بلغ سبعين سنة ودفن بالقيع . وقد روى الترمذى عن سفينان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل

يعلمون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة . ثم قال : هذا حديث حسن . وقد روى عن ابن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس . وكذا قال عبد الرزاق . وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري . وقد ترجمه ابن خلدكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمينية ، فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفر البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود ، فدخل الشام فانقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا ربحاً إلا استلبه من الناس ، وأطلقاً الله به يار تلك الفتنة . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تحمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانكسارها
رماها بميمون النقيب ماجد * تراضى به قحطائها ونزارها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى العكي ، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه ، وشرع جعفر يذكّر كثرة وحششته له في الشام ، ويحمد الله الذي من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه . وفيها ولي الرشيد جعفر آخراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة ، ثم عزل الرشيد جعفر آ عن خراسان بعد عشرين ليلة . وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج ، وجعل الرشيد جعفر آ على الحرس ، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقين ، وعزل هرثة عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس . وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الاسكندرية . وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي . وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها الحمرة لبسوا الحررة واتبعوا رجلاً يقال له عمرو بن محمد العمركي ، وكان ينسب إلى الزندقة ، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل وأطلقاً الله نارهم في ذلك الوقت . وفيها غزا الصائفة زفر بن عاصم . وحج بالناس موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها كانت وفاة جعفر من الأعيان :

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري

قارئ أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد . وقد مات علي بن المهدي في هذه السنة أيضاً . وقد ولي إمارة الحج غير مرة ، وكان أسن من الرشيد بشهور .

حسان بن أبي سنان

ابن أبي أوفى بن عوف التنوخي الأنباري ، ولد سنة ستين ، ورأى أنس بن مالك ودنا له فجاء من

نسله قضاة ووزراء وصلحاء ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية . وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه .
وكان يكتب بالعربية والفارسية والسرانية ، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح
الأنبار . وفيها توفي : عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد الثقات

وعافية بن يزيد

ابن قيس القماضي المهدي على جانب بغداد الشرقي ، هو وابن علاثة ، وكانا يمحكان بمجمع
الرصافة ، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً ، دخل يوماً على المهدي في وقت الظهيرة فقال : يا أمير المؤمنين
اعفني ، فقال له المهدي : ولم أعتريك ؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء ؟ فقال له : لا ولكن كان
بين اثنين خصومة عندي فعند أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدي إلى منه
طبقاً لا يصلح إلا لأمير المؤمنين ، فرددته عليه ، فلما أصبحنا : وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا
عندي في قلبي ولا نظري ، بل مال قلبي إلى المهدي منهما ، هذا مع أني لم أقبل منه ما أهداه فكيف
لو قبلت منه ؟ فاعفني غفا الله عنك فأعفاه . وقال الأصمعي : كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد
أحضره لأن قوماً استمدوا عليه إلى الرشيد ، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله .
وطال المجلس فمطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمه عافية ، فقال له الرشيد : لم لم تشمتني مع الناس ؟
فقال : لأنك لم تحمد الله ، واحتج بالحديث في ذلك . فقال له الرشيد : أرجع لعمالك فوالله ما كنت
لتفعل ما قيل عنك ، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها . ثم رده رداً جميلاً إلى ولايته .

سبيويه

وفيها توفي :

إمام النحاة ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر ، المعروف بسبيويه ، مولى بني الحارث بن
كعب ، وقيل مولى آل الربيع بن زياد ، وإنما سمي سبيويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك ،
ومعنى سبيويه رائحة التفاح ، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء ، وكان يستملي
على حماد بن سلمة ، فلحق يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك ، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو ،
ودخل بغداد وناظر الكسائي . وكان سبيويه شاباً حسناً جميلاً نظيفاً ، وقد تعلق من كل علم بسبب ،
وضرب مع كل أهل أدب بسهم ، مع حداثة سنه . وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وشرحه
أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا من درره ، ولم يبلغوا إلى قعره . وقد زعم
ثعلب أنه لم ينمرد بتصنيفه ، بل ساعده جماعة في تصنيفه نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم ، وهو
أصول الخليل ، فدعاه سبيويه إلى نفسه . وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة .
قال : وقد أخذ سبيويه اللغات عن أبي الخطاب والأخفش وغيرهما ، وكان سبيويه يقول : سمعت بن
أبي العروبة ، والعروبة يوم الجمعة ، وكان يقول : من قال عروبة فقد أخطأ . فذكر ذلك ليونس فقال

أصاب الله دره ، وقد ارتحل إلى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فانه كان يحب النحو ففرض هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت :

يؤمل دنيا لتبقى له * فأت المؤمل قبل الأمل

يربى فسيلاً ليبقى له * فعاش الفسيل ومات الرجل

ر يقال : إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فراه يبكي فقال :

وكننا جميعاً فرق الدهر بيننا * إلى الأمد الأقصى فنأمن الدهرا

قال الخطيب البغدادي : يقال إنه توفي وعمره ثمان وثلاثون سنة . وفيها توفيت :

عفيرة العابدة

كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء . قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي ، فقيل لها في ذلك فقالت : لقد ذكرني قدوم هذا الفتي يوم القدوم على الله ، فسروا ومشهور . وفيها مات مسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي ، كان من أهل مكة ، ولقد تكلموا فيه لسوء حفظه .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين ومائة .

فيها غزا الرشيد بلاد الروم فافتتح حصناً يقال له الصفصاف ، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

إن أمير المؤمنين المنصفا * قد ترك الصفصاف قاعاً صنفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطبوعة . وفيها تغلبت الحمرة على جرجان . وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله (ص) بعد التشاء على الله عز وجل . وفيها حج بالناس الرشيد وتمجل بالنفرة ، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بحكمة . وفيها توفي : الحسن بن قحطبة

لمحمد أ كابر الأمراء ، وحمزة بن مالك ، ولي إمرة خراسان في أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ

الحسن بن عرفة عن مائة سنة : وعبد الله بن المبارك

أبو عبد الرحمن المروزي ، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همدان ، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خوارزمية ، ولد لثمان عشرة ومائة ، وسمع إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحيد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . وحدث عنه خلأئق من الناس ، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر ، له النصائيف الحسان ، والشعر الحسن المتضمن حكماً جمة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان ، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه ، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله . قال

سفيان بن عيينة : نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتمهم يفضلون عليه إلا في محبتهم رسول الله (ص) . وقال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله ، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في . ابن المبارك ، ولقد حدثني أصحابي أنهم محبوبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهمهم الخبيص وهو الدهر صائم . وقدم مرة الرقة وبها يهارون الرشيد ، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله ، فأشرفت أم ولد الرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس ؟ قليل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبيد الله بن المبارك فأنجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك ، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والمصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بالقائه على منزلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو ورائهم ، فلما مر بالمنزلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الأزار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقي على هذه المنزلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله : كم مملك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقال : عدد منها عشرين دينارا تكفيننا إلى مرو واعطها الباقي . فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ، ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فإذا قضوا حاجتهم فيقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمينية وغيرها ، فإذا جاؤا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحهم وبيضت أبوابها ورمم شمسها ، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجليل . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وتحير ذلك ، ثم يطعم الناس ، وهو الدهر صائم في الحر الشديد .

وسأله مرة سائل فأعطاه درهما فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالودج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالودج والشواء فانه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم . وفضائله ومناقبه كثيرة جدا .

قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله . توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة

ومفضل بن فضالة

ولى قضاء مصر مرتين ، وكان ديناً ثقة ، فسأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهب ، فكان بعد ذلك لا يهتبه الميش ولا شيء من الدنيا ، فسأل الله أن يردّه عليه فردّه فرجع إلى حاله .

ويعقوب التائب

الماجد الكوفي ، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار : خرجت ذات ليلة وأنا أظن أنى قد أصبحت ، فاذا على ليل ، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمصيتك مخالفتك ولكن سوت لى نفسى ، وغلبتني شقوتى ، وغرنى سترك المرخى على فلاّن من عذابك من يستغنى ؟ وبجبل من أنصل إن أنت قطعت حبلك عنى ؟ واسواتاه على ما غنى من أيامى فى مصية ربى ، يا ولى كم أتوب بكم أعود ، قد حان لى أن أستغنى من ربى عز وجل . قال منصور فقامت : أعود بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) قال : فسمعت صوتا واضعابا شديدا فذهبت لحاقتى ، فلما رجعت مررت بذلك الباب فاذا جنازة موضوعة ، فسألت عنه فاذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة ، وذلك بالرفقة بعد ترجمه من الحج ، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكى وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، وسماه المأمون . وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكى من مجاورته بمكة إلى بغداد . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف . وفيها سملت الروم عيسى ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه ريفى وتلقب أغسطه . وخرج بالناس موسى بن عيسى بن العباس .

وفيها توفي من الأعيان إسماعيل بن عياش الحمصى أحد المشاهير من أئمة الشاميين بموفيه كلام . ومروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور المشكور ، كان يمدح الخلفاء والبرامكة .

ومعن بن زائدة

حصل من الأموال شيئا كثيرا جدآ ، وكان مع ذلك من أبخل الناس ، لا يكاد يأكل اللحم من بخله ، ولا يشمل فى بيته سراجا ، ولا يلبس من الثياب الا الكرباسى والفرو الغليظ ، وكان رفيقه

سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتي على بردون وعليه حلة تساوي ألف دينار، والطيب ينفخ من ثيابه، ويأتي هو في شر حالة وأسوأها. وخزج يوماً إلى المهدي فتالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لي منه شيئاً. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاهما أثر بعة دوايق. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك.

والقاضي أبو يوسف

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة، وهي أمه، وأبوه مجير بن معاوية، استصغر يوم أحد، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبي حنيفة، روى الحديث عن الأنعمش وهمام ابن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سميد وغيرهم. وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى ابن معين. قال علي بن الجهم: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلتني أمي إلى قصار فكذت أمر علي حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكأنت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي. فقال لها: اسكتي يا رعناء، هاهوذا يتعلم العلم وسياً كل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفير وزج فتالت له: إنك شيخ قد خرفت. قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء - وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاء، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة - قال أبو يوسف: فبينما أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتني بفالوذج في صحن فيروزج فقال لي: كل من هذا، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت. وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال فتبسمت فقال: مالك تقبسم؟ فقلت: لا شيء أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه. وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه. وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث. وقال ابن المديني: كان صدوقاً. وقال ابن معين: كان ثقة. وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم. وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه. ومن كلامه الذي ينبئ كنهه بما أذهب قوله: من طلب المال بالكفا أفسس، ومن تتبع شرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق. ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضر اوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيغان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضر اوات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين. فقال

أبو يوسف : لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه .

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم ، حتى إن أحمد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضا . وقال : وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد ، إلا يوما واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لي اشتراه لي المهدي . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه . فأحضره فادعى بالبستان فقلت : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستاني . فقلت للرجل : قد سمعت ما أجاب . فقال الرجل : يحلف ، فقلت ، أتخلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين . فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان للمدعي . قال : فكنت في أثناء الخصومة أو دأن ينفصل ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة . وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافى بن زكريا الجريري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي إسحاق عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف . قال : بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش ، إذا رسول الخليفة يطرق الباب ، فخرجت منزجاً فقال : أمير المؤمنين يدعوك ، فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى ابن جعفر فقال لي الرشيد : إن هذا قد طلبت منه جارية يهبها فلم يفعل ، أو يبيعها ، وإني أشهدك إن لم يبيعني إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى : لم لم تفعل ؟ فقال : إني حال بالطلاق والمناق وصدقة مالي كله أن لا أبيعها ولا أهبها . فقال لي الرشيد : فهل له من مخلص ؟ فقلت : نعم يبيعك نصفها ويهبك نصفها . فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار ، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ، فلما رآها الرشيد قال : هل لي من سبيل عليها اليسلة ؟ قلت : إنها مملوكة ولا بد من استبرائها ، إلا أن تمتقها وتزوجها فإن الحرية لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار ، وأمر لي بمائتي ألف درهم وعشرين نختماً من ثياب ، وأرسلت إلى الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين : كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبق وطيب وغانيل فد وغير ذلك ، فذا كرتي رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف : إنما ذاك في الأقط والنمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ماترون ، يا غلام ارفع هذا إلى الخزانة ، ولم يعطهم منها شيئاً . وقال بشر بن غياث المريسي : سمعت أبا يوسف يقول : سمعت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة ، وما أظن أجلى إلا أن اقترب . فمات بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة ، ومكث في القضاء بعده ولده يوسف . وقد كان نائبه على الجانب الشرقي من بغداد . ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك ، إنما ورد [الشافعي] بغداد في أول قدمه قدمها إليها في سنة أربع وثمانين . وإنما اجتمع الشافعي بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه ، ولم يكن بينهما شئان كما يذكره بعض من لا خبرة له في هذا الشأن والله أعلم . وفيها توفي :

يعقوب بن داود بن طهمان

أبو عبد الله ، مولى عبد الله بن حازم السلمي ، استوزره المهدي وحظي عنده جداً ، وسلم إليه أئمة الأمور ، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدي في بئر وبليت عليه قبة ، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأعمام ، وعصى ، ويقال بل غشى بصره ، ومكث نحواً من خمسة عشر سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يملونه بذلك ، ويدلى إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء ، فكث كذلك حتى انتقضت أيام المهدي وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد ، قال يعقوب : فأتاني آت في منامي فقال :

عسى الكرب الذي أمسيته فيه * يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان * ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة ، ودلى إليّ حبل وقيل لي : اربط هذا الحبل في وسطك ، فأخرجوني ، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً ، وأوقعت بين يدي الخليفة فقبل لي : سلم علي أمير المؤمنين ، فظننته المهدي فسلمت عليه باسمه ، فقال : لست به ، فقلت الهادي ؟ فقال : لست به . فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد . فقال : نعم ، ثم قال : والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد ، ولكنني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك . ثم أنعم عليه وأحسن إليه . فغار منه يحيى بن خالد بن برمك ، وخشى أن يعيده إلى منزله التي كان عليها أيام المهدي ، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة فأذن له ، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله . وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً ، ولوردت إلى مكاني . وفيها (توفي يزيد بن زريع) أبو معاوية شيخ الإمام أحمد بن حنبل في الحديث ، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً ، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة درهم ، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً ، وكان يعمل الخوص بيده ويقتات منه هو وعياله . توفي بالبصرة في هذه السنة ، وقيل قبل ذلك والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

ففيها خرجت الخزر على الناس من ثلثة أرمينية فعاثوا في تلك البلاد فساداً ، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف ، وقتلوا بشراً كثيراً ، وانهمزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم ، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمه ويزيد بن يزيد في جيوش كثيرة كثيفة ، فأصلحوا ما فسد في تلك البلاد ، وحجج بالناس العباس بن موسى الهادي .

وفيها توفي من الأعيان علي بن الفضيل بن عياض في حياة أبيه . كان كثير العبادة والورع والخوف والخشية . ومحمد بن صبيح أبو العباس مولى بني عجل المذكر . ويعرف بابن السماك . روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم ، ودخل يوماً على الرشيد فقال : إن لك بين يدي الله وقفاً فانظر أين منصرفك ، إلى الجنة أم النار ؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت .

وموسى بن جعفر

ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو الحسن الهاشمي ، ويقال له السكاظم ، ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة ، وكان كثير العبادة والبروة ، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتمحف ، ولد له من الذكور والاثاث أربعون نسمة . وأهدى له مرة عبد مصيدة فاشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه ، ووهب المزرعة له . وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه ، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له : يا محمد [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلاً فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه ، وأخذ عليه المهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده ، فقال : والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي ، فقال : صدقت : وأمر له بثلاثة آلاف دينار ، وأمر به فرداً إلى المدينة ، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق ، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فخرج ، فلما دخل ليسلم على قبر النبي (ص) ومعه موسى بن جعفر السكاظم ، فقال الرشيد : السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم . فقال موسى : السلام عليك يا أبت . فقال الرشيد : هذا هو الفخر يا أبا الحسين . ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه فأطال سجنه ، فمكتب إليه موسى رسالة يقول فيها : أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينتقض عني يوم من البلاء إلا انتقض عنك يوم من الرخاء ، حتى يفضى بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون . توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور . وفيها توفي :

هاشم بن بشير بن أبي حازم

القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي الواسطي ، كان أبوه طباً خالاً للنجاج بن يوسف الثقفي ، ثم كان

بعد ذلك يبيع الكواخ ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله ، فابى إلا أن يسمع الحديث . فاتفق أن هاشما مرض فجاءه أبو شيبة قاضى واسط عائداً له ومعه خاق من الناس ، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال : يا بنى أبلغ من أمرك أن جاء القاضى إلى منزلى ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث . كان هاشم من سادات العلماء ، وحدث عنه مالك وشعبة والثورى وأحمد بن حنبل وخلق غير هؤلاء ، وكان من الصلحاء العباد . ومكث يصلى الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت بعشر سنين .

ويحيى بن زكريا

ابن أبى زائدة قاضى المدائن ، كان من الأئمة الثقات . ويونس بن حبيب أحد النحاة النجباء ، أخذ النحو عن أبى عمرو بن العلاء وغيره ، وأخذ عنه الكسائى والفراء ، وقد كانت له حلقة بالبصرة يلتابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والغرباء . توفى فى هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذى عليهم ، وولى رجلاً يضرب الناس على ذلك ويحبسهم ، وولى على أطراف البلاد . وعزل وولى وقطع ووصل . وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشارعى فبعث إليه الرشيد من قبله شهر زور . وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد المباسى . وفيها توفى :

أحمد بن الرشيد

كان زاهداً عابداً قد تنسك ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى الطين ، كان يعمل فاعلاً فيه ، وليس يملك الاثروا وزنبيلاً - أى بحفرة وقعة - وكان يعمل فى كل جمعة بدرهم ودانق يتقوت بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلا فى يوم السبت فقط . ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . وكان من زبيدة فى قول بعضهم ، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاه خاتماً من ياقوت أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتبه . فلما صارت الخلافة إليه لم تأتبه ولا ولدها ، بل اختفيا ، وبلغه أنهما ماتا ، ولم يكن الأمر كذلك ، وفحص عنهما فلم يطلع لهما على خبر ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل فى الطين ويأكل مدة زمانية . هذا وهو ابن أمير المؤمنين ، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه فى دار من كان يستعمله فى الطين فرضه عنده ، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت فى سكرتك هذه فتندم - حيث لا ينفع نادماً ندمه ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر العهد بك ، فان ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى

قال : فلما مات دفنته وطلبت الحضور عند الخليفة ، فلما أوقفت بين يديه قال : ما حاجتك ؟ قلت : هذا الخاتم دفعه إلى رجل وأمرني أن أدفعه إليك ، وأوصاني بكلام أقوله لك ، فلما نظر الخاتم عرفه فقال : ويحك وأين صاحب هذا الخاتم ؟ قال فقلت : مات يا أمير المؤمنين . ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به ، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوايق ، أو بدرهم ودائق ، يتقوت به سائر الجمعة ، ثم يقبل على العبادة . قال : فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً بطناً ويقول : والله لقد نصحتني يا بني ، ثم بكى ، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال : أتعرف قبره ؟ قلت : نعم أنا دفنته . قال : إذا كان العشي فأتني . قال : فأتيته فذهب إلى قبره فلم يزل يبكي دنده حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم . وكتب له ولعياله رزقاً . وفيها مات :

عبدالله بن مصعب

ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي ، والد بكر . أزمه الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط عدل اشترطها ، فأجابته إلى ذلك ، ثم أضاف إليه نيابة اليمن ، فكان من أعدل الولاة ، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة .

عبدالله بن عبد العزيز العمري

أدرك أبا طوالة ، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد ، وكان عابداً زاهداً ، وعظ الرشيد يوماً فأطرب وأطيب . قال له وهو واقف على الصفا : أنتظركم حولها - يعني الكعبة - من الناس ؟ فقال : كثير . فقال : كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاءً كثيراً ، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل يلشف به دموعه . ثم قال له : يا هارون إن الرجل يسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم ؟ ثم تركهم وانصرف الرشيد يبكي . وله معه مواقف محمودة غير هذه . توفي عن ست وستين سنة .

ومحمد بن يوسف بن معدان

أبو عبد الله الأصمعي ، أدرك التابعين ، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة . كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد . وقال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أفضل منه ، كان كأنه قد طين . وقال ابن مهدي : ما رأيت مثله ، وكان لا يشترى خبزه من خباز واحد ، ولا بقله من بقل واحد ، كان لا يشترى إلا ممن لا يعرفه ، يقول : أخشى أن يجابوني فأكون ممن يعيش بدينه . وكان لا يضع يده للنوم صيفاً ولا شتاء . ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متواليهم ، هرويه الرازي ، فولى الرشيد عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي . وفيها قتل عبد الرحمن الأتباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج العلقة . وفيها عاث حمزة الشاري ببلاد باذغيس من خراسان ، فمض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم ، وسار وراء حمزة إلى كابل وزابلستان . وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوى أمره . وفيها توفي يزيد بن يزيد بهرذعة ، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن يزيد . واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له ، ثم رابط بجنده إلى وقت الحج . وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي :

عبد الصمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور . ولد سنة أربع ومائة ، وكان ضخماً الخلق جدياً ولم يبدل أسنانه ، وكانت أصولها صفيحة واحدة ، قال يوما الرشيد : يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين ، وعم عمه ، وعم عمه ، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد ، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان ، وعبد الصمد بن علي عم السفاح ، وتلخيص ذلك أن عبيد الصمد عم عم الرشيد لأنه عم جده . روى عبد الصمد عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس عن النبي (ص) أنه قال : « إن البر والصلة لطيلان الأعمار ، ويمران الديار ، ويثريان الأموال ، ولو كان القوم فجراً » . وبه أن رسول الله (ص) ، قال : « إن البر والصلة ليخفان الحساب يوم القيامة » ثم تلا رسول الله (ص) : [والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب] . وغير ذلك من الأحاديث .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، المعروف بالامام ، كان على إمارة الحاج ، وإقامة سقايته في خلافة المنصور عدة سنين . توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من هذه السنة ، ودفن بالعباسية .

وفيها توفي من مشايخ الحديث تمام بن إسماعيل ، وعمر بن عبيد . والمطلب بن زياد . والمعافى ابن عمران . في قول . ويوسف بن الماجشون . وأبو إسحاق الفزاري إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة .

ورابعة العدوية

وهي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية العابدة المشهورة . ذكرها أبو نعيم في الحلية والرسائل ، وابن الجوزي في صفوة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف ، والقشيري . وأثني عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، وأتهمها بالزندقة ،

فعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهر وردى في المعارف : —

إني جعلتك في الفؤاد محبتي * وأبحث جسمي من أراد جلوسي
فاجلس مني للجلوس موانسي * وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيام نهار وقيام ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة فآله
أعلم . توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصيب إلى نسا فقاتله بها ، وسبي
لساءه وذراجه . واستقامت خراسان . وحج بالناس فيها الرشيد ومعه ابنه محمد الأمين ، وعبد الله
المأمون ، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وذلك أنه كان
يعطي الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهـم ، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهـم . وكان إلى الأمين
ولاية الشام والعراق ، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق . ثم تابع الرشيد لولده القاسم من
إمد ولديه ، ولقبه المؤمن ، وولاه الجزيرة والثغور والمواسم ، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه
القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح ، فلما تابع الرشيد لولديه كتب إليه :

يا أيها الملك الذي * لو كان نجماً كان سمدا
أعقبت للقاسم بيعة * وأقدح له في الملك زندا
فأله فرد واحد * فأجمل ولاية المهدي فردا

ففعل الرشيد ذلك ، وقد حده قوم على ذلك ، وذمه آخرون . ولم ينظم للقاسم هذا أمر ، بل
اجتعلفته المذون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار . ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من
الأمرأ والوزراء ، وأحضر ولي العهد محمد الأمين وعبد الله المأمون . وكتب بمضمون ذلك
صحيفة ، وكتب فيها الأمرأ والوزراء بخطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها في
الكعبة فسقطت فتيل : هذا أمر سريع انتفاضه . وكذا وقع كما سيأتي . وقال إبراهيم الموصلي في
عقد هذه البيعة في الكعبة :

خير الأمور منبة * وأحق أمر بالتسام
أمر قضى أحكامه الر * حن في البلد الحرام

وقد أطلال القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزي في المنتظم .

وفيها توفي من الأعيان

أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبوريان في رمضان مثلاً . وحسان بن إبراهيم قاضي

كرمان عن مائة سنة . وسلم الخاسر الشاعر

وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفنا واشترى به ديوان شعر لا يرى القيس ، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب . وقد كان شاعراً منطيقاً له قدرة على الانشاء على حرف واحد ، كما قال في موسى الهادي :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمز كم اعتبر ثم فترز كم قدر ثم غفر عدل السير باقى الأثر
خير البشر فرع مضر بدر بدر لمن نظر هو الوزر لمن حضر والمفتخر لمن غير
وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق ، وأنه كان من تلاميذ بشار
ابن برد ، وأن نظمه أحسن من نظم بشار ، فما غلب فيه بشاراً قوله :

من راقب الناس لم يظفر بجانتهم * وفاز بالطيبات الفاتك اللهب

فقال سلم من راقب الناس مات غماً * وفاز بالندى الجسور

ففضب بشار وقال : أخذ معاني كلامي فكساها ألفاظاً أخف من الفاظي . وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحواً من أربعين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك . ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي الشعر الغساني ، ففنى إبراهيم الموصلي يوماً الرشيد فأطرب به فقال له : سل . فقال : يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً ليس فيه من مالك شيء ، ولا أرزأك شيئاً سواه . قال : وما هو ؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر ، وأنه لم يترك وارثاً . فأمر له بها . ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار .

والعباس بن محمد

ابن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد ، كان من سادات قریش ، ولى إمارة الجزيرة في أيام الرشيد ، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلاف ألف درهم ، وإليه تنسب العباسية ، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة ، وصلى عليه الامين .

ويقطين بن موسى

كان أحد الدعاة إلى دولة بني العباس ، وكان داهية ذا رأى ، وقد احتال مرة حيلة عظيمة لما حبس مروان الحمار إبراهيم بن محمد بخران ، فتحررت الشيعة العباسية فيمن يولون ، ومن يكون ولى الأمر من بعده إن قتل ؟ فذهب يقطين هذا إلى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال : يا أمير المؤمنين إني قد بعث إبراهيم بن محمد بضاعة ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك ، فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالى فعل . قال : نعم فأرسل به إليه مع غلام ، فلما رآه قال : يا عبد الله إلى من أوصيت بعدك آخذ مالى منه ؟ فقال له : إلى ابن الحارثية - يعنى أخاه عبد الله السفاح - فرجع يقطين إلى الدعاة إلى بني العباس فأعلمهم بما قال ، فبايعوا السفاح ، فكان من أمره

ما ذكرناه . ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

فيها كان مهلك البرامكة على يد الرشيد ، قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، ودمر ديارهم واندرست آثارهم ، وذهب صغارهم وكبارهم . وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره ، قيل إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكي ليسجنه عنده ، فلما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه ، فتم الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فقال له الرشيد : ويلاك لا تدخل بيني وبين جعفر ، فلمله أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر . ثم سأل الرشيد جعفر آ عن ذلك فصده فتنظير عليه وحلف ليقبلنه ، وكره البرامكة ، ثم قتلهم وقلاهم بعد ما كانوا أحظى الناس عنده ، وأحبهم إليه ، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشيد من الرضاعة ، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكارم والرؤساء ، بحيث إن جعفر بن ديار غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وكان ذلك من جملة ما نكبه عليه الرشيد . ويقال : إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر ، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة . وقيل إنما قتلهم بسبب العباسية . ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره .

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال : لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته . وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى كان يدخل عليه وهو في الفراش مع حظايه . وهذه وجاهة ومنزلة عالية . وكان عنده من أحظى المشراء على الشراب المسكر . فإن الرشيد كان يستعمل في أواخر أيام خلافته المسكر . وكان أحب أهله إليه أخته العباسية بنت المهدي ، وكان يحضرها معه ، وجعفر البرمكي حاضر أيضاً معه ، فزوجه بها ليحل النظر إليها ، واشترط عليه أن لا يطأها . وكان الرشيد ربما قام وتركها وهما ثملان من الشراب فرجما وأقعها جعفر بحبلت منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواربها إلى مكة ، وكان يزني بها .

وذكر ابن خلدون أن الرشيد لما زوج أخته العباسية من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفاً من الرشيد ، فاحتالت عليه . وكانت أمه تهدي له في كل ليلة جمعة جارية حسنة بكر . فقالت لأمه : أدخليني عليه بصفة جارية . فهابت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك . فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعتها فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمه فقال : بعثيني والله برخيص . ثم إن والد يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرات ، ثم أفشت له سر العباسية ، فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به إلى مكة حجج عام ذلك حتى تحقق الأمر . ويقال :

إن بعض الجوارى نمت عليها إلى الرشيد وأخبرته بما وقع ، وأن الولد بمكة وعند جزار وأموال وعلى كثيرة . فلم يصدق حتى حج في السنة الخالية ، ثم كشف الأمر عن الحال ، فاذا هو كما ذكر . وقد حج في هذه السنة التي حج فيها الرشيد يحيى بن خالد ، فجعل يدعو عند الكعبة : اللهم إن كان يرضيك عنى سلب جميع مالى وولدى وأهلى فافعل ذلك وأبق على منهم الفضل ، ثم خرج . فلما كان عند باب المسجد رجع فقال : اللهم والفضل معهم فإني راض برضاك عنى ولا تستثن منهم أحداً .

فلما قفل الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب فى السفن إلى النهر من أرض الأندلس ، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أرسل مسروراً الخادم ومنه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجنود ، فأطافوا بجمع بن يحيى ليلاً ، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبيب ، وأبوركانة الأعمى المغنى الكلوذانى ، وهو فى أمره وسروره ، وأبوركانة يفتنيه :

فلا تبهمة فكل فتى سياتى * عليه الموت يطرق أو يفادى

فقال الخادم له : يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقتك ، أجب أمير المؤمنين . فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه . أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصى إليهم ويودعهم ، فقال : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص . فأوصى وأعتق جميع ممالكه أو جماعة منهم ، وجاءت رسل الرشيد تستحثه فأخرج إخراجاً عنيفاً ، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذى فيه الرشيد ، فحبسه وقيد به قيد حمار ، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل ، فأمر بضرب عنقه ، فجاء السياف إلى جعفر فقال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن آتية برأسك . فقال : يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران ، فاذا صحا عاتبك فى ، فعاوده . فرجع إلى الرشيد فقال : إنه يقول : لملك مشغول . فقال : يا ماص بظر أمه اثنتى برأسه . ففكر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد فى الثالثة : برئت من المهدى إن لم تأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه . فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه ، وأرسل الرشيد من ليلته البرد بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها ، ومن كان منهم بسبيل . فأخذوا كلامهم عن آخرهم . فلم يفلت منهم أحد . وحبس يحيى بن خالد فى منزله ، وحبس الفضل بن يحيى فى منزل آخر وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا ، وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى ، وشقت الجنة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل ، والاخر عند الجسر الآخر ، ثم أحرقت بعد ذلك . ونودى فى بغداد : أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آوام ، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة . وأتى الرشيد بانس بن أبى شيخ كان يتهم بالزندقة ، وكان مصاحباً لجعفر ، فدار بينه وبين الرشيد كلام ، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفاً وأمر بضرب عنقه به . وجعل يتمثل ببیت قيل فى قتل أنس قبل ذلك :

تلهظ السيف من شوق إلى أنس • قال سيف يلحظ والأقدار تنتظر

فصربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب ، فقال الناس : إن السيف كان للزبير بن العوام . ثم شحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها ، وزالت عنهم النعمة . وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل جعفر آ في آخره ، هو وإياه راكبين في الصيد في أوله ، وقد خلا به دون ولاية العموم ، وطيبه في ذلك بالغالية بيده ، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضعه إليه وقال : لولا أن الليلة ليست خلوتي بالنساء ما فارقتك ، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب ديشا حتى تكون على مثل حالي ، فأكون أنا وأنت في اللفة سواء . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أشتى ذلك إلا معك . فقال : لا ! انصرف إلى منزلك . فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل - بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره . وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ، وقيل إنها أول ليلة من صفر في هذه السنة ، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة ، ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال : قتل الله ابنه . ولما قيل له : قد خربت دارك قال : خرب الله دوره . ويقال : إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها واعتبيحت قصورها ، وانتهب ما فيها . قال : هكذا تقوم الساعة . وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزیه فيما جرى له ، فكتب إليه جواب التعزية : أنا بقضاء الله راض ، وباختياره عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد . وما يفر الله أكثر الله الحمد . وقد أكثر الشعراء من المرائي في البرامكة فمن ذلك قول الرقاشي ، وقيل إنها لأبي نواس :

الآن استرخنا واستراحت ركابنا • وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
أقل للمطايا قد أمنت من الشرى • وطى النياقي فدفدأ بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر • ولن تظفري من بعد بمسود
وقل للمطايا بعد فضل تمطى • وقل للرايا كل يوم تجدي
ودونك سيفاً برمكياً مهتداً • أصيب بسيف هاشمي مهتداً

وقال الرقاشي ، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه :

أما والله لولا خوف واش • وعين للخليفة لا تنام .
لطفنا حول جذعك واستلمنا • كما للناس بالحجر استلام
فأبصرت قبلك يا ابن يحيى • حساماً فله السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً • ودولة آل برمك السلام

قال فاستدعاه الرشيد فقال له : كم كان يعطيك جعفر كل عام ؟ قال : ألف دينار . قال : فأمر له

بألفي دينار . وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قال : لما قتل الرشيد جعفرًا وقفت امرأته على حمار فاره فقالت باسان فصيح : والله يا جعفر اثن صرت اليوم آية لقد كمنت في المسكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولا رأيتُ السيفَ خالطَ جعفرًا * ونادى متأدي للخلبة في بحبي
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أنما * قصارى الغنى يوماً ، مذاقة الدنيا
وما هي إلا دولةٌ بعد دولة * تحوّل ذا نعي وقعبُ ذا بلوى
إذا أنزلتُ هذا مناولُ رفعة * من المالكِ حطتْ ذاك إلى الغاية القصوى

قال : ثم حركت حمارها فذهبت فيكأنها كانت رجلاً لا أثر لها ، ولا يعرف أين ذهبت . وذكر ابن الجوزي أن جعفرًا كان له جارية يقال لها فتينة مغنية ، لم يكن لها في الدنيا نظير ، كان يشتراها عليه بمن معها من الجوارى مائة ألف دينار ، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك ، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجلس شرا به وعنده جماعة من جلسائه وسفّاره ، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغني ، حتى انتهت النوبة إلى فتينة ، فأمرها بالغناء فأسبلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد غضباً شديداً ، وأمر بعض الخضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له ، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه : لا تطأها . فهم أنه إنما يريد بذلك كسرها . فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضى عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد غضباً شديداً من غضبه في المرة الأولى وقال : الطمع والسيوف ، وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد : إذا أمرتك ثلاثاً وعقدت أصابعي ثلاثاً فاضرب . ثم قال لها غن : فبكت وقالت : أما بعد السادة فلا . فمعد أصبعه الخنصر ، ثم أمرها الثانية فامتنعت ، فمعد اثنتين ، فارتعد الخاضرون وأشعقوا غاية الأشعق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغني ثلاثاً تقتل نفسها ، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد . ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة :

لما رأيتُ الدنيا قد دُرست * أيقنتُ أن النعيم لم يعد

قال فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر ، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوار من حولها ، وحملت من بين يديه فانت بعد ثلاث .

وروى أن الرشيد كان يقول : لعن الله من أغرائي بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأنى تركتهم على حالهم .

وحكى ابن خلكان أن جعفرًا اشترى جارية من رجل بأربعمائة دينار ، فالتفتت إلى بائعها وقالت : اذكر العهد الذي بيني وبينك ، لا تأكل من ثمنى شيئاً . فبكى سيدها وقال : اشهدوا أنها

حرة ، وأنى قد تزوجتها . فقال جعفر : اشهدوا أن الثمن له أيضا . وكتب إلى نائب له : أما بعد فقد
كثر شاكروك ، وقل شاكروك ، فأما أن تعمل ، وإما تعزل . ومن أحسن ما وقع منذ من اللطاف
في إزالة هم الرشيد ، وقد دخل عليه منجم يهودى فأخبره أنه سيموت في هذه السنة ، فحمل الرشيد
هماً عظيماً ، فدخل عليه جعفر فسأله : ما الخبر ؟ فأخبره بقول اليهودى . فاستدعى جعفر اليهودى
فقال له : كم بقي لك من العمر ؟ فذكر مدة طويلة . فقال : يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما
أخبر عن عمره . فأمر الرشيد باليهودى فقتل ، وسرى عن الرشيد الذى كان فيه .

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، وذلك أنه حزن على البرامكة ،
ولا سيما على جعفر ، كان يكثر البكاء عليهم ، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ
بشأهم ، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته : ائتني بسيفي ، فيبسه ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ،
فأكثر أن يقول ذلك ، فغشى ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم ، ورأى أن
أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة ، فاستدعى به
فاستخبره فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم . فجاء به فشهد ، فقال الرشيد :
لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخمى ، لعلهما قد تواطأ على ذلك . فأحضره الرشيد معه
على الشراب ثم خلا به فقال : ويحك يا إبراهيم ما إن عندي سرّاً أحب أن أطلعك عليه ، أفلقني في
الليل والنهار . قال : وما هو ؟ قال : إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أنى خرجت من نصف
مادى ونصف عمرى ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فإني لم أجده بعدم لذّة ولا راحة . فقال : رحمة الله
على أبي الفضل - يعنى جعفر - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله . فقال له : قم
لنك الله ، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام . وسلم أهله وولده .

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة ، واشتد
غضبه بسببه على البرامكة الذين هم في الحبوس ، ثم سجنه فلم يزل في السجن حتى مات الرشيد
فأخرجته الأمين وعقد له على نيابة الشام . وفيها ثارت العصية بالشام بين المضرية والزازية ،
فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فأنهم بعض سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل . وفيها
بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة ، وجعله قربانا وسيلة بين يديه ، وولاه العواصم ، فسار إلى
بلاد الروم فحاصرم حتى اقتصدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم ، ففعل ذلك . وفيها
نقضت الروم الصلح الذى كان بينهم وبين المسلمين ، الذى كان عقده الرشيد بينه وبين رنى ملكة
الروم الملقبة أغسطس . وذلك أن الروم عزلوه عنهم وملكوا عليهم النفرور ، وكان شجاعا ، يقال إنه

من سلامة آل جفنة ، ففقدوا دلي وصولوا هيلها . فكتب قنور إلى الرشيد : من قنور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبل ألامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، لحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحققن ، فإذا قرأت كتابي هذا فردد إلى صاحبك إليك من الأموال وافد نفسك به ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ، ولا يستطيع مخاطبته ، وأشفق عليه جلساءه خوفاً منه ، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى قنور ملك الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما رآه دون ما نسعه والسلام . ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بيلب هرقة لفتحها واصطلى ابنه ملكها ، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرّب وأحرق ، فطلب قنور منه المراجعة على خراج يؤوله إليه في كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك . فلما رجع من غزواته وسار بالركة ففرض الكافر العهد وخان الميثاق ، وكان البرد قد اشتد جداً ، فلم يقدر أحد أن يهيئ لبيشر الرشيد بذلك فلوهم على أنفسهم من البرد ، حتى يخرج فصل الشتاء . وحج بالناس إليها عبد الله بن عباس بن محمد بن علي .

ذكر من تولى فيها من الأعيان

جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي الوزير ابن الوزير ، ولاء الرشيد الشام وغيرها من البلاد ، وبنته إلى دمشق لما ثارت الفتنة المشيوان بموران بين قيس وبين ، وكان ذلك أول ما ظهرت بين قيس وبين في بلاد الاسلام ، كان خالداً من زمن الجاهلية فأثروه في هذا الأوان ، فلما قدم جعفر بميثاق ختمت الشرور وظهر السرور ، وقبيلت في ذلك أشعار حسنة ، قد ذكر ذلك ابن عباس في خبره جعفر من تاريخه منها : -

قد أوتيت في الشام نيراناً نيرة • لها أوان الشام فخذها
إذا جلت سرج البحر من البرمك • عليها نبت شباتها وشرارها
ربما أهد المؤمنين بهجر • وفي ثلاث صدعها وأنهارها
هو الملك المأمول لغيره والتقى • وصولاً لا يستطيع خطارها

وهي قصيدة طويلة ، وكانت له فصاحة وبلاغة وذكاء وكرم زائد ، كان أبوه قد منحه إلى القاضي أبي يوسف ثقة عليه ، وسار له اختصاص بالرشيد ، وقد وقع ليرة بمحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج في شيء منها من موجب الثقة . وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان بن زيد بن ثابت كاتب الرعي . قال قال رسول الله

«ب» : « إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السنين فيه » . رواه الخطيب وابن عساكر من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم ، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي . وقد كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن ذريق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به . وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر الرشيد : يا أمير المؤمنين ! قال لي أبي يحيى : إذا أقبلت الدنيا عليك فاعط ، وإذا أدبرت فاعط ، فانها لا تبقى ، وأنشدني أبي :

لا تبخلنْ بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولت فأجرى أن تجود بها * فالجود منها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب : ولقد كان جعفر من علو القدر وفخاذا الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفردها ، ولم يشاركه فيها أحد . وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر . وكان أيضاً من ذوى الفصاحة والمذكورين بالبلاغة . وروى ابن عساكر عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته فاقة وضائقة ، وكان عليه ديون ، فألح عليه المطالبون وعنده سقط فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف ، فأتى به جعفراً فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن ، وأخبره بالحاج المطالبين بديونهم ، وأنه لم يبق له سوى هذا السقط . فقال : قد اشتريته منك بألف ألف ثم أقبضه المال وقبض السقط منه ، وكان ذلك ليلاً . ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه في السر تلك الليلة ، فلما رجع إلى منزله إذا السقط قد سبقه إلى منزله أيضاً . قال فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه ، فقال له جعفر : إني قد ذكرت أمرك لافضل ، وقد أمر لك بألف ألف ، وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك ، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين . فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار .

وكان جعفر ليلة في سمرة عند بعض أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال : إن الناس يقولون : من قصده الخنفساء يبشر بمال يصيبه . فأمر له جعفر بألف دينار . ثم عادت الخنفساء ، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه : انظر جارية أشتريها تكون فاقدة في الجمال والفتنة والدعابة ، ففتش الرجل فوجد [جارية] على النعمت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر ، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها ، فلما غنته أعجبه أكثر ، فسأومه صاحبها فيها ، فقال له جعفر : قد أحضرنا مالا فإن أعجبك وإلا زدناك ، فقال لها سيدها : إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور ، وإنه قد انقبض على حالي ، وإني قد أحبيت أن

أييكم لهذا الملك ، لكي تكوني عنده كما كنت عندي . فقالت له الجارية : والله يا سيدي لو ملكت منك كما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها ، وأين ما كنت عاهدتني أن لا تبيعني ولا تأكل من نمفي . فقال سيدها جعفر وأصحابه : أشهدكم أنها حرة لوجه الله ، وأني قد تزوجتها . فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال . فقال جعفر : والله لا يتبعني ، وقال للرجل : قد ملكتك هذا المال فأنفقه على أهلك ، وذهب وتركه .

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل . إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا . وروى ابن عساکر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجسدوا له في جرة ألف دينار ، زنة كل دينار مائة دينار ، مكتوب على صفحة الدينار جعفر

وأصغر من ضرب دار الملوك * يلوح على وجه جعفر
يزيد على مائة واحد * متى تمطر معسراً يوسر

وقال أحمد بن المولى الراوية : كتبت عنان جارية الناطقي لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها في جعفر : -

يا لائمي جهلاً ألا تقصر * من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحن إذا شربت الهوى * صرفاً فمزوج الهوى سكر
أحاط بي الحب تغلفي له * بحر وقد أوى له أبحر
تحقق رايات الهوى بالردى * فوق وحول للهوى عسكر
سيان عندي في الهوى لائم * أقل فيه والذي يكثر
أنت المصني من بني برمك * يا جعفر الخيرات يا جعفر
لا يبلغ الواصف في وصفه * ما فيك من فضل ولا يعشر
من وفر المال لأغراضه * لجعفر أغراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه * وفي يديه العارض المطر
سحت علينا منهما ديمة * ينهل منها الذهب الأحر
لو مسحت كفاء جلودة * نصر فيها الورق الأخضر
لا يستم الجدة إلا فتي * يصبر للبذل كما يصبر
يهتز ناعج الملك من فوقه * نغراً ونزهي تحت الشبر
أشبه البدر إذا ما بدا * أو غرة في وجهه يزهر
والله ما أدرى أبداً الدجى * في وجه أم وجه أنور

يستعطر الزوار متك الندى * وأنت بالزوار تستبشر
وكتبت تحت أبياتها حاجتها ، فركب من فورده إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها
فقال : لا والله لا أشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس :
لا يشتريها إلا ابن زانية * أو قلعبان يكون من كانا
وعن ثمامة بن أشرس قال : بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكي مذموراً
فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخاً جاء فأخذ بمضادتي هذا الباب وقال :
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسر بمكة سامر
قال فأجيبته : بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العوائر
قال ثمامة : فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر
إليه فتأمل له ثم أنشأ يقول :

تفاضلك دهرك ما أسلفنا * وكدر عيشك بعد الصفا
فلا تمجبن فإن الزمان * رهين بتفريق ما ألفنا
قال : فنظرت إلى جعفر وقلت : أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الكرم والجلود غاية ،
قال : فنظر إلى كأنه جل صؤول ثم أنشأ يقول : -

ما يعجب العالم من جعفر * ما عاينوه فبنا كانا
من جعفر أو من أبوه ومن * كانت بنو برك لولانا
ثم حول وجهه فرسه وانصرف .

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعاً
وثلاثين سنة ، ومكث وزيراً سبع عشرة سنة . وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد
أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به ، فسألوها عن ما كانت فيه من النعمة فقالت : لقد أصبحت في
مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربع مائة وصيفة ، وأقول إن ابني جعفر آفاق لي . وروى الخطيب
البغدادي بإسناده أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفر آفاقاً وما أحل بالبرامكة ، استقبل القبة
وقال : اللهم إن جعفر آفاق قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة .

حكاية غريبة

ذكر ابن الجوزي في المنتظم أن المأمون بلغه أن رجلاً يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكي
عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يئس من الحياة ، فقال له : ويحك أما يحملك على
صنيعك هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنهم أسسوا إلى معروف وأخيراً كثيراً . فقال : وما الذي

أسدوه إليك ؟ فقال : أنا المنذر بن المنيرة من أهل دمشق ، كنت بدمشق في نعمة عظيمة واسعة ، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بمت داري ، ثم لم يبق لي شيء ، فأشار بعض أصحابي على بقصد البرامكة ببغداد ، فأتيت أهلي وتحملت بعمالي ، فأتيت ببغداد ومعى نيف وعشرون امرأة فأنزلتهم في مسجد مهجور ثم قصصت مسجدا مأهولا أصلي فيه . فدخلت مسجداً فيه جماعة لم أر أحسن وجوهاً منهم ، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعمال الذين معى ، فيمنعني من ذلك السؤال الحياء ، فبينما أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقبت معهم ، فدخلوا داراً عظيمة ، فإذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله ، فمقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا فلق المسك وبنادق العنبر ، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار ، ومعها فتات المسك ، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت أنا جالسا ، وبين يدي الصينية التي وضعوها لي ، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي ، فقال لي بعض الحاضرين : ألا تأخذها وتذهب ؟ فددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبى وأخذت الصينية تحت إبطى وقت ، وأنا خائف أن تؤخذ منى ، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلى وأنا لا أشعر ، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فيئست من المال ، فلما رجعت قال لي : ما شأنك خائف ؟ فقصصت عليه خبرى ، فبكى ثم قال لأولاده : خذوا هذا فضوه إليكم . فجاءنى خادم فأخذ منى الصينية والذهب وأقت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد ، وخاطرى كله عند عيالى ، ولا يمكننى الانصراف ، فلما انقضت العشرة الأيام جاءنى خادم فقال : ألا تذهب إلى عيالك ؟ فقلت : بلى والله ، فقام يمشى أمامى ولم يعطنى الذهب ولا الصينية ، فقلت : يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ منى الصينية والذهب ، يا ليت عيالى رأوا ذلك . فسار يمشى أمامى إلى دار لم أر أحسن منها ، فدخلتها فإذا عيالى يتمرغون في الذهب والحريز فيها ، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وكتابا فيه تملك الدار بما فيها ، وكتابا آخر فيه تملك قريتين جليلتين ، فكننت مع البرامكة في أطيب عيش ، فلما أصيبوا أخذ منى عمرو بن مسعدة القريتين وألزمى بخراجهما ، فكلما لحقتني فاقة قصصت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم . فأمر المأمون برد القريتين ، فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال المأمون : مالك ؟ ألم استأنف بك جيلا ؟ قال : بلى ولكن هو من بركة البرامكة . فقال له المأمون : امض مصاحباً فان الوفاء مبارك ، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الإيمان . وفيها توفى :

الفضيل بن عياض

أبو على التميمي أحد أئمة العباد الزهاد ، وهو أحد العلماء والأولياء ، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير ، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن

عبد الرحمن وغيرهم . ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلاً ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه . وله مع الرشيد قصة طويلة ، وقد روي ذلك مطولاً في كيفية دخول الرشيد عليه منزله ، وما قال له الفضيل بن عياض ، وعرض عليه الرشيد المال فأبى أن يقبل منه ذلك . توفي بمكة في المحرم من هذه السنة . وذكروا أنه كان شاطرأً يقطع الطريق ، وكان يتمشق جارية ، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله] فقال : بلى ! وتاب وأقلع عما كان عليه . ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سداراً يقولون : خذوا حذركم إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق ، فأمهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة ، ثم صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعله . قال الفضيل : لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقنرها كما يتقنر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه ، وقال : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والاخلاص أن يبتغي الله منهما . وقال له الرشيد يوماً : ما أزهديك ، فقال : أنت أزهديني ، لأنني أنا زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة التي لا قيمة لها ، فأنا زاهد في الثاني وأنت زاهد في الباقي : ومن زهد في درة أزهدي من زهد في بكرة . وقد روى مثل هذا عن أبي حازم أنه قال ذلك لسليمان بن عبد الملك .

وقال : لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها للامام ، لأن به صلاح الرعية ، فإذا صلح أمنت البلاد والبلاد . وقال : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى وخادمى وامرأتى وفاربيقى [وقال في قوله تعالى : [ليلوكم أيكم أحسن عملاً] . قال : يعنى أخلصه وأصوبه ، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله ، وصواباً على متابعة النبي (ص)] ^(١) وفيها توفي :

بشر بن المفضل ، وعبد السلام بن حرب . وعبد العزيز بن محمد الدراوردي . وعبد العزيز العمى . وعلى بن عيسى ، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في الصائفة . ومعتز بن سليمان وأبو شعيب البرائى الزاهد ، وكان أول من سكن برائاً في كوخ له يتعبد فيه ، فهو يته امرأة من بنات الرؤساء فأنخلمت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة ، وتزوجته وأقامت معه في كوخه تتعبد حتى ماتا ، يقال إن اسمها جوهرة .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف ففرج النقفور لقاؤه ففرج النقفور ثلاث جراح ، وانهزم ، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً ، وغنموا أكثر من

(١) زيادة من المضرية .

أربعة آلاف دابة . وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق . وفيها حج بالناس الرشيد ، وكانت آخر حجاته . وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج - وقد اجتاز بالكوفة - لا يحج الرشيد بعدها ، ولا يحج بعده خليفة أبداً . وقد رأى الرشيد بهلول الموله فوعظه موعظة حسنة ، فزويها من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال : حججت مع الرشيد فررتنا بالكوفة فاذا بهلول المجنون يهذي ، فقلت : اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين ، فسكت . فلما حاذاه الهودج قال : يا أمير المؤمنين حدثني أيمن بن نائل ثنا قدامة بن عبد الله العامري قال . رأيت النبي (ص) ، بمنى على جبل ونحته رحل رث ، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك . قال الربيع فقلت : يا أمير المؤمنين إنه بهلول ، فقال : قد عرفته ، قل يا بهلول فقال :

هَبْ أَنْ قَدْ مَلَكْتَ الْأَرْضَ طَرَأَ * وَدَانُ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا

أَلَيْسَ غَدَاً مَصِيرُكَ جَوْفَ قَبْرِ * وَيَحْشَوْ عَلَيْكَ التَّرَابُ هَذَا ثُمَّ هَذَا

قال : أجدت يا بهلول ، أفنيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالا فنف في جماله ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئاً ، فقال : إنا أمرنا بقضاء دينك . فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تقتات به . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبعاينه لا يعطيك وينساني . وإنا أنا قد عشت عمراً لم تجر على رزقا ، انصرف لاجابة لي في جرايتك . قال : هذه ألف دينار خذها . فقال : ارددها على أصحابها فهو خير لك ، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذنتني . قال : فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا . ومن توفى فيها من الأعيان :

أبو اسحاق الفزاري

إبراهيم بن محمد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة ، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك . أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما ، توفى في هذه السنة . وقيل قبلها .

وإبراهيم الموصلي

النديم ، وهو إبراهيم بن ماهان بن بهمن أبو إسحاق ، أحد الشعراء والمغنين والندماء للرشيد وغيره ، أصله من الفرس وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الفناء ، ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا : الموصلي . ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد ، وكان من جملة سماره وندمائه ومغنيه ، وقد أثرى وكثر ماله جسداً ، حتى قيل إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف

درهم ، وكانت له طرف وحكايات غريبة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة في الكوفة ، ونشأ في كفالة بني تميم ، فتعلم منهم ونسب إليهم ، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة الغناء ، وكان مزوجاً بأخت المنصور الملقب بززل ، الذي كان يضرب معه ، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وحكى ابن خلدون في الوفيات أنه توفي وأبو المتاهية وأبو عمرو الشيباني ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين . وصحح الأول . ومن قوله في شعره عند احتضاره قوله :

ملّ والله طيبي * بن مقاسق الذي بي

سوف أنى عن قريب * لسدو وحبير

وفيها مات جرير بن عبد الحميد . ورشد بن سعد . وعبد بن سليمان . وعقبة بن خالد . وعمر ابن أيوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل . وعيسى بن يونس في قول .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري فولى وعزل . وفيها رد علي بن عيسى إلى ولاية خراسان ، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان ، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر الصمصم فضحى عنده ، ودخل إلى بغداد لثلاث بقين من ذى الحجة ، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت ، وكانت مصلوبة من حين قتل إلى هذا اليوم ، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها ، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها ، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد :

ما أئمتنا حتى ارتحلنا فما : * فرق بين المناخ والارتحال

ساءلونا عن حالنا إذ قدمنا * فقرأ وداعهم بالسؤال

وفيها قادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم ، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين . فقال فيه بعض الشعراء :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها * محابس ما فيها حيم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكأكها * وظلوا سجود المشركين قبورها

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق يحاصر الروم . وفيها حج بالناس العباس بن موسى ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم ، الكوفي المعروف بالكسائي لأحرامه في كسائه ، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات في كسائه ، كان نحوياً لغوياً أحد أئمة القراء ، أصله

من الكوفة ثم استوطن بغداد ، فأدب الرشيد وولده الأمين ، وقد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته ، وكان يقرئ بها ، ثم اختار لنفسه قراءة وكان يقرأ بها . وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبو عبيد . قال الشافعي : من أراد النحو فهو عيال على الكسائي . أخذ الكسائي عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً : عن من أخذت هذا العلم ؟ قال : من بوادي الحجاز . فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى الخليل فاذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس ، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها يونس بالفضل ، وأجلسه في موضعه .

قال الكسائي : صليت يوماً بالرشيد فأعجبني قراءتي ، فغلطت غلطة ما غلطها صبي ، أردت أن أقول أعلمهم يرجعون ، فقلت لهم ترجعون ، فما تجاسر الرشيد أن يردها . فلما سلمت قال : أي لغة هذه ؟ فقلت : إن الجواد قد يمتز . فقال : أما هذا فنعيم . وقال بعضهم : لقيت الكسائي فاذا هو مهموم ، فقلت : مالك ؟ فقال : إن يحيى بن خالد قد وجه إلى ليساني عن أشياء فأخشى من الخطأ ، فقلت : قل ما شئت فأنت الكسائي ، فقال : قطعته الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم . وقال الكسائي يوماً قلت لنجار : بكم هذان البابان ؟ فقال : بسالجيان يا مصفمان .

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور ، عن سبعين سنة . وكان في صحبة الرشيد ببلاد الري فأت بشواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكان الرشيد يقول : دفنت الفقه والعربية بالري . قال ابن خلكان : وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة ، وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجهه كالسدر فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي بالقرآن . فقلت : ما فعل حمزة ؟ قال : ذاك في عاين ، ما نراه إلا كما نرى الكوكب . وفيها توفي :

محمد بن الحسن بن زفر

أبو عبد الله الشيباني مولاهم ، صاحب أبي حنيفة . أصله من قرية من قرى دمشق ، قدم أبوه العراق فولد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول ، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها ، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة ، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله . وكان يقول لأهله : لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي . وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي . وقال الشافعي : ما رأيت حبراً سميناً مثله ، ولا رأيت أخف روحاً منه ، ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته . وقال أيضاً : ما رأيت أعدل منه ، كان بطلاً الدين والقلب ، قال الطحاوي : كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن

كتاب السير فلم يجبه إلى الاعارة فكتب إليه :-

قل للذي لم تر عيناي مثله * حتى كأن من رآه قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن ينعوه أهله * لعله يبذل لأهله لعله

قال : فوجهه به إليه في الحال هدية لاعارية . وقال إبراهيم الحربي : قيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل الدقاق من أين هي لك ؟ قال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله . وقد تقدم أنه مات هو والنكسائي في يوم واحد من هذه السنة . فقال الرشيد : دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً . وكان عمره ثمانية وخمسين سنة . ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب محرقة الطاعة ودعا إلى نفسه ، وقابله أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية ، واستفحل أمره ، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتناقم الأمر به . وفيها سار الرشيد ليز وبلاد الروم لعشر بقين من رجب ، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المعلا السكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض المدو على طمر * وفي أرض الترفه فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

فسار حتى وصل إلى الطوانة فمسك بها وبعث إليه تغفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأس ولده ورأسه ، وأهل مملكته ، في كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقل ، وكان قد خطبها على ولده ، فبعث بها الرشيد مع هدايا ونحف وطيب بعث يطلبه من الرشيد ، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلثمائة ألف دينار ، وأن لا يهرق دمه . ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الفزو عقبة بن جعفر . ونقض أهل قيس العهد فزاهم معيوف بن يحيى ، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً . وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي .

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة ، حكم ببغداد وبواسط ، فلما انكف بصره عزل نفسه عن القضاء . قال أحمد بن حنبل : كان صدوقاً . ووثقه ابن معين ، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري ومعتون المجنون صام ستين سنة نخف دماغه فسماه الناس مجنوناً ، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول :

ولاخير في شكوى إلى غير مشتكى * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر

وقال الأصمعي : مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : مالي أراك عند رأس هذا الشيخ ؟ فقال : إنه مجنون . فقلت : أنت مجنون أو هو ؟ قال : لا بل هو ، لأنني صليت الظهر والعصر في جماعة وهو لم يصل جماعة ولا فرادى . وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها . قلت : فهل قلت في هذا شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشأ يقول : —
 تركت النبيذ لأهل النبيذ * وأصبحت أشرب ماء قراحا
 لأن النبيذ يذل المزير * ويكسو السواد الوجوه الصباحا
 فان كان ذا جائزا للشباب * فما العذر منه إذا الشيب لاحا
 قال الأصمعي : فقلت له : صدقت ، أنت العاقل وهو المجنون :

وعبيدة بن حميد بن صهيب ، أبو عبد الرحمن التميمي الكوفي ، مؤدب الأمين . روى عن الأعمش وغيره ، وعنه أحمد بن حنبل . وكان يثنى عليه . وفيها نوفي :

بجى بن خالربن برمك

أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي ، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه ، وأرضعته امرأته مع الفضل بن بجى ، فلما ولي الرشيد عرف له حقه ، وكان يقول : قال أبي ، قال أبي . وفوض إليه أمور الخلافة وأزمته ، ولم يزل كذلك حتى تكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه بجى في الحبس حتى مات في هذه السنة . وكان كريماً فصيحاً ، ذا رأى سديد ، يظهر من أموره خير وصلاح . قال يوماً لولده : خذوا من كل شيء طرفاً ، فان من جبل شيئاً عاذاه . وقال لأولاده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول لهم : إذا أقبلت الدنيا فأفقهوا منها فانها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأفقهوا منها فانها لا تبقى ، وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً : ب

يا سمى الحصور بجى * أتبحث لك من فضل ربنا جستان
 كل من مر في الطريق عليكم * فله من نوالكم مائتان
 مائتا درهم لثلى قليله * هي للفراس العجلان

قال : صدقت . وأمر فسبق به إلى الباز ، فلما رجع سأل عنه فإذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف ، وعن دار أربعة آلاف ، وعن الأمتعة أربعة آلاف . وكلفة الدخول أربعة آلاف ، وأربعة آلاف يستظهر بها . وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال : وبحك لقد جئتني وقت لا أملك فيه مالا ، وقد بعث إلى صاحب لي يطلب مني أن يهدي إلى ما أحب ، وقد بلغني أنك تريد أن تبيع جارية لك ، وأنت قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار ، وإني سأطلبها

فلا تبعتها بأقل من ثلاثين ألف دينار . فجأؤني فبلغوا معي بالمدينة إلى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، وأجبت إلى بيعها ، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار . فأهداها إلى يحيى ، فلما اجتمعت بيحيى قال : بكم بيعتها ؟ قلت : بعشرين ألف دينار . قال : إنك تلهي نفسك بجارينك إليك وقد بعث إلى صاحب فارس يطلب مني أن أسنديه شيئاً ، وإني سأأبها منه فلا تبعتها بأقل من خمسين ألف دينار . فجأؤني فوصلوا في ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار ، فبعتها منهم . فلما جئته لأمني أيضاً وردّها عليّ ، فقلت : أشهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها ، وقلت : جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم .

وذكر الخليل أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم ، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم ، فضاق ذرعاً ، وقد توعدّه بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها في يومه ذلك ، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف ، واستألق له من ابنه الفضل ألفي ألف ، وقال لابنه : يا بني بلغني أنك تريد أن تشتري بها ضيعة . وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر . وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف ، ومن جاريته ديناراً عتقاً اشتراه بمائة ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، وقال للترسم عليه : قد حسبناه عليك بألفي ألف . فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد ، وكان قد وهبه لجارية يحيى ، فلم يمد فيه بعد إذ وهبه . وقال له بعض بذيه وم في السجن والقيود : يا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال ، فقال : يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها . ثم أنشأ يقول :

ربّ قوم قد غدوا في نعمة * زماناً والدهر ريان غداً

سكت الدهر زماناً عنهم * ثم أبكاهم دما حين نطق

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على سفينان بن عيينة كل شهر ألف درهم ، وكان سفينان يدهن له في سجوده يقول : اللهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته . فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بدعاء سفينان .

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة عن سبعين سنة ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن على شط الفرات ، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : قد تقدم الخضم والمدعا عليه بالآثر ، والحاكم الحكم العدل الذي لا يحرر ولا يحتاج إلى بينة . فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك ، وبقى أياماً يتبين الأسى في وجهه . وقد تال بعض الشعراء في يحيى بن خالد : -

سألت النداء هل أنت حرّ فقال لا * ولكنني عبد يحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثته * توارث رقي والداه بعد والد
ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف ، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه ، وكتب بالفتح إلى الرشيد . وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام . وفيها وقع الشلج ببغداد . وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف ، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس ، وانهزم الباقون ، وولى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين ، وضم إليه ثلاثين ألفا فيهم مسرور الخادم ، وإليه النفقات .

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم . وأمر الرشيد بهدم الكنائس والديور ، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهياتهم في بغداد وغيرها من البلاد . وفيها عزل الرشيد على بن موسى عن إمرة خراسان وولاه هرثمة بن أعين . وفيها فتح الرشيد هرقة في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة ، والكنيسة السوداء . وكان دخل هرقة في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر ، ودخل جزيرة قبرص فسي أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختري القاضي .

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدى المأمون . وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن علي العباسي ، وكان إلى مكة ، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

سلمة بن الفضل الأبرش . وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوى عن مالك بن يونس بن أبي إسحاق ، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل ، نحواً من خمسين ألفاً فلم يقبله . والفضل بن موسى الشيباني . ومحمد بن سلمة . ومحمد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات . قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الاعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها توفى معمر الرقي .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

فيها دخل هرثمة بن أعين إلى خراسان نائباً عليها ، وقبض على علي بن عيسى فأخذ أمه وأهله وأركبه على بعير وجهه لذنبيه ونادى عليه ببلاد خراسان ، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره على ذلك ، ثم أرسله إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد . وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطورة . وفيها كان الصلح بين المسلمين والروم على يد ثابت

ابن نصر . وفيها خرجت الخرمية بالجليل و بلاد أذربيجان . فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس قتل منهم خلقا وأسروا سبي ذراريهم ، وقدم بهم بغداد فأمر له الرشيد بقتل الرجال منهم ، وبالذرية فبيعوا فيها . وكان قد غزاهم قبل ذلك خزيمه بن خازم . وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمه بن خازم ، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها ، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان ، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين ، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين ، فأذن له فصار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنييه الثلاثة الذين جعلهم ولاية العهد من بعده ، وأراه داء في جسده ، وقال إن لكل واحد من الأميين والمأمون والقاسم عندي عينا على ، وهم يعدون أنفاسي ويتمنون انقضاء أيامي ، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون . فدعا له ذلك الأمير ثم أمر له الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه ، وكان آخر العهد به .

وفيها تحرك نروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة . وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني . ومات عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فوات في الطريق . وفيها حج بالناس العباس ابن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وفيها توفي :

اسماعيل بن جامع

ابن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم ، أحد المشاهير بالغناء ، كان ممن يضرب به المثل ، وقد كان أولاً يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن ، وذكر عنه أبو الفرج بن علي بن الحسين صاحب الأغاني حكايات غريبة ، من ذلك أنه قال كنت يوماً مشرفاً من غرفة بهران إذ أقبلت جارية سوداء معها قربة تستقي الماء ، فجلست ووضعت قربةها واندهمت تثنى :

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي * لها عسلٌ مِنِّي وتبدلُ علقماً

فردني مصاب القلب أنتِ قتلتي * ولا تركيز هائم القلب مغرماً

قال : فسمعت مالا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت ، فتأملت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت : إن علي خراجاً كل يوم درهمين ، فأعطيتها درهمين فأعادته فحفظته وسلكته يومئذ ذلك ، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين ، ثم قالت : كأنك تستكثر أربعة دراهم ، كأنني بك وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار . قال فغضبته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار ، ثم استعادني ثلاث مرات أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار ، فبسمت فقال : مم تبسمت ؟ فذكرت له القصة فضحك وألقى إلي كيساً آخر فيه ألف دينار . وقال :

لا أكذب السوداء . وحكى عنه أيضاً قال : أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم ، فإذا جارية على رقبتي جرة تريد الركي وهي تسمى وتترنم بصوت شجي : -

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلتنا * فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأنَّ النومَ يغشى عيونهم * سريماً ولا يغشى لنا النومَ أعيننا
إذا مادنا الليلَ المضربُ بذي الهوى * جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلنا * تلاقى لكانوا في المضاجع مثلنا

قال : فاستعدته منها وأعطيتها الدرام الثلاثة فقالت : لناخذن بدلها ألف دينار ، وألف دينار وألف دينار : فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت . وفيها توفي :

بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور ، نزل بغداد زمن الرشيد ، وكان يخالط أبا العتاهية . قال أبو عفان : أشعر أهل المدل من المحدثين أربعة ، أولهم بكر بن النطاح . وقال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يقتشدون ، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن النطاح لنفسه :

ما ضرها لو كتبت بالرضى * لحف جفن العين أو أغضى
شفاعة مردودة عندها * في عاشقٍ يودُّ لو قد قضى
يانفس صبراً واعلى أنما * يأمل منها مثلما قد مضى
لم تمرض الأجفان من قاتل * بلحظه إلا لأن أمرضاً
قال : فابتدوه يقبلون رأسه . ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال :

مات ابن نطاح أبو وائل * بكر فأمسى الشعر قد بانا

وفيها توفي بهلول المجنون ، كان يأوي إلى مقابر الكوفة ، وكان يتكلم بكلمات حسنة ، وقد وعظ الرشيد وغيره كما تقدم . وعبد الله بن إدريس

الأودي الكوفي ، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكاً وخلقا سوام . وروى عنه جماعات من الأئمة ، وقد استدعاه الرشيد ليؤليه القضاء فقال : لا أصلح ، وامتنع أشد الامتناع ، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً ، فطلب حفص بن غياث فقبل . وأطلق لكل واحد خمسة آلاف عوضاً عن كلفته التي تكافئها في السفر ، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس ، وقبل ذلك حفص ، فخلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً . وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون ، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليسمعوا ولديه ، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا ، وعيسى بن يونس . فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من

المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعها مائة حديث ، فقال له المأمون : يا عم إن أردت أعدتها من حفظي ، فأذن له فأعدها من حفظه كما سمعها ، فتمجّب لحفظه . ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً ، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال : والله لو ملأت لي المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله (ص) . ولما احتضر ابن إدريس بكّت ابنته فقال : علام تبكي ؟ فقد خدّمت في هذا البيت أربعة آلاف ختمة .

صعصعة بن سلام

ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدهشقي ، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنتها في زمن عبد الملك ابن معاوية وابنه هشام ، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس ، وولى الصلاة بقرطبة ، وفي أيامه غرّست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز . وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه ، وذكره في كتاب الفقهاء ، وذكره ابن يونس في تاريخه - تاريخ مصر - والحيدى في تاريخ الأندلس ، وحرر وفاته في هذه السنة . وحكى عن شيخه ابن حزم أن حمصمة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس . وقال ابن يونس : أول من أدخل علم الحديث إليها . وذكر أنه توفي قريباً من سنة ثمانين ومائة ، والذي خرّجه الحيدى في هذه السنة أثبت

علي بن ظبيان

أبو الحسن المبسي قاضي الشرقية من بغداد ، ولاء الرشيد ذلك . كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة ، ثم ولاء الرشيد قضاء القضاة ، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده ، مات بقوميسين في هذه السنة .

العباس بن الأحنف

ابن الأسود بن طلحة الشاعر المشهور ، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد ، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولا حسن الشعر . قال أبو العباس قال عبد الله بن المعتز : لو قيل لي من أحسن الناس شعراً تعرفه ؟ لقلت العباس : —

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا * وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا

فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ * وَصَادِقٌ لَيْسَ يَكْثُرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فأنزعج لذلك وخاف نساؤه ، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له : ويحك إنه قد عن لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بعثله ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خفت أعظم من هذه الليلة ، فقال : ولم ؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل ، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

حناناً قد رأيناها فلم نرَ مثلها بشراً • يزيدك وجهها حسناً إذا مازدته نظراً
فقال الرشيد : زد . فقال :

إذا ما الليلُ مالَ عليك بالاطلامِ واعتكرا • ودجَ فلم ترَ فجراً طارزها ترَ قرا
فقال : إنا قد رأيناها ، وقد أمرنا لك بمشرة . آلاف درهم . ومن شعره الذي أقر له فيه بشار
ابن برد وأثبتته في سلك الشعراء بسببه قوله :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم • حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قتُ منتصباً • بشقل ما حملوني منهم قعدوا
وله أيضاً وحديثي يا سمعُ عنها فزدتني • جنونا فزدني من حديثك يا سمعُ
هواها هوى لم يدر في القلب غيره • فليس له قبلُ وليس له بعدُ

قال الأصمعي : دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو
يقول :
يا بريد الدار عن وطنه • مفرداً يبكي على شجرة
كلما جد النحيب به • زادت الأستام في بدنة
ثم أغمى عليه ثم انتبه بصوت طائر على شجرة فقال :

ولقد زاد الفؤاد شجاً • هاتفاً يبكي على فنة
شاقه ما شاقني فبكي • كلنا يبكي على سكرة

قال ثم أغمى عليه أخرى فحركته فاذا هو قد مات . قال الصولي : كانت وفاته في هذه السنة ،
وقيل بعدها ، وقيل قبلها في سنة ثمان وثمانين ومائة قاله أعلم . وزعم بعض المؤرخين أنه بقي بعد
الرشيد . عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور

أخو زبيدة ، كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فات في أثناء هذه السنة . وفيها توفي :

الفضل بن يحيى

ابن خالد بن برمك أخو جعفر وأخوته ، كان هو والرشيد يتراضعان . أرضعت الخيزران فضلاً ،
وأرضعت أم الفضل وهي زبيدة بنت بن بريح هارون الرشيد . وكانت زبيدة هذه من مولدات بتبين
البرية ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

كفى لك فضلاً أن أفضل حرة • غدتك بشدى والخليفة واحد
لقد زنت يحيى في المشاهر كلها • كما زان يحيى خالداً في المشاهر

قالوا : وكان الفضل أكرم من أخيه جعفر ، ولكن كان فيه كبر شديد ، وكان عبوساً ، وكان
جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهاً ، وأقل عطاء . وكان الناس إليه أميل ، ولكن خصلة الكرم

أنفلى جميع القبائح ، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل . وقد وهب الفضل لطلبه مائة ألف درهم فمأبه أبوه على ذلك ، فقال : يا أبت إن هذا كان يصحبنى في العسر واليسر والعيش والخشن ، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي ، وقد قال بعض الشعراء :

إِنَّ السَّكْرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا • مَنْ كَانَ يَتَادَمُ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

ووهب يوماً لبعض الأديباء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له : مم تبكي ، أستهلتها ؟ قال : لا والله ، ولكنني أبكي أن الأرض تأكل مثلك ، أو توارى مثلك .

وقال علي بن الجهم عن أبيه : أصبحت يوماً لا أملك شيئاً حتى ولا علف الدابة ، فقصدت الفضل ابن يحيى ، فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس ، فلما رأيته رحب بي وقال : هلم . فسرت معه ، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار ، وإذا هو يدعوها باسم جارية له يحبها ، فانزعج لذلك وشكا إلى ما لقي من ذلك ، فقلت : أصابك ما أصاب أخي بني عامر حيث يقول :
وَدَاعَ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَلِيفِ مِنْ مَنَى • فَهَيَّجَ أَحْزَانُ الْفَوَادِ وَلَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا وَكَأَنَّمَا • أَطَارَ بَلِيلَى طَائِراً كَانَ فِي صَدْرِي

فقال : اكتب لي هذين البيتين . قال : فنحبت إلى يقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له ، فأخذهما وقال : انطلق راشداً . فرجعت إلى منزلي فقال لي غلامي : هات خاتمك حتى نرهنه على طعام لنا وعلف للدابة ، فقلت : إني رهنته . فما أمسينا حتى أرسل إلى الفضل بثلاثين ألفاً من الذهب ، وعشرة آلاف من الورق ، أجراه على كل شهر ، وأسلفني شهراً .

ودخل على الفضل يوماً بعض الأكارب فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير ، فشكا إليه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين . فقال : نعم ، وكم دينك ؟ قال ثلاثمائة ألف درهم . فخرج من عنده وهو مهموم لضعف رده عليه ، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فإذا المال قد سبقه إلى داره ، وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لَكَ الْفَضْلُ يَا فَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ • وَمَا كُلُّ مَنْ يَدْعِي بِفَضْلٍ لَهُ فَضْلٌ

رَأَى اللَّهُ فَضْلًا مِنْكَ فِي النَّاسِ وَأَسْمًا • فَسَيَاكُ فَضْلًا فَالْتَقِ الْأَسْمَ وَالْفِعْلَ

وقد كان الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر ، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص . وقد ولي الفضل أعمالاً كباراً ، منها نيابة خراسان وغيرها . ولما قتل الرشيد البرامكة وحبسهم جلد الفضل هذا مائة سوط وخلده في الحبس حتى مات في هذه السنة ، قبل الرشيد بشهور خمسة في الرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه ، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس ، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة ، وكان سبب موته ثقل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة ، ونوفى .

قبل أذان الفسادة من يوم السبت . قال ابن جرير : وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقال ابن الجوزي : في سنة ثنتين وتسعين فالف أعلم .

وقد أطل ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه ، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائباً على خراسان ، وكان بها بيت النار التي كانت تمسدها الجوس ، وقد كان جده برك من خدامها ، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله ، لقوة إحكامه ، وبني مكانه مسجداً لله تعالى . وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبكي :

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى • ففي يدو كشف المصرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها • فلانحن في الأموات فيها ولا الأحياء

إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة • عجبتنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ومحمد بن أمية الشاعر الكاتب ، وهو من بيت كلهم شعراء ، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض ومنصور بن الزبرقان

ابن سلمة أبو الفضل النخعي الشاعر ، امتدح الرشيد ، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجسده معلم الكباش الرخم ، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم تحوم حولهم ، فأمر بكباش يندبح للرخم حتى لا يثأذي بها ضيفائه ، ففعل له ذلك . فقال الشاعر فيه :

أبوك زعيم بن قاسط • وخالك ذو الكباش يغذي الرخم

وله أشعار حسنة ، وكان يروى عن كلثوم بن عمرو ، وكان شيخه الذي أخذ عنه الغناء .

يوسف بن القاضى ابى يوسف

مع الحديث من السرى بن يحيى ويونس بن أبى إسحاق ، ونظر في الرأى وتفقه ، وولى قضاء الجانب الشرقى ببغداد في حياة أبيه أبى يوسف ، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد . توفى في رجب من هذه السنة وهو قاضى ببغداد .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير : في المحرم منها توفى الفضل بن يحيى ، وقال ابن الجوزي توفى الفضل في سنة ثنتين وتسعين كما تقدم . وما قاله ابن جرير أقرب . قال : وفيها توفى سعيد الجوهري ، قال : وفيها وافى الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن على بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير ، وذلك في صفر منها ، ثم تحول منها إلى طوس وهو عليل ، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها . وفيها تواقع هرثمة نائب المراق هو ورافع بن الميث فكسره هرثمة وافتتح بخاري وأسر أخاه بشير بن الميث ، فبعثه إلى الرشيد وهو بطوس قد ثقل عن السير ، فلما وقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه ، بل قال :

والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك ، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما يمكنه من أخيه بشير .

وفاة الرشيد

كان قد رأى وهو بالكوفة رؤيا أفرغته وغمره ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفا فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري وقائلا يقول : هذه تربة هارون . فهون عليه جبريل أمرها وقال : هذه من أضغاث الأحلام من حديث النفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين . فلما سار يريد خراسان ومر بطوس واعتقلته العلة بها ، ذكر رؤياه فماله ذلك وقال لجبريل : ويحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتني بشئ من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حمراء في يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف التي رأيت ، والتربة التي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هذا . ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره ، فقرأوه حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر . ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة وجلس يقاسي سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكا صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني من قوم كرام يزيدم • شماساً وصبراً شدة الحدان

مات ليلة السبت ، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، سن خمس ، وقيل سبع وأربعين سنة . وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة .

وهذه ترجمته

هو هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر . وأمه الخيزران أم ولد . كان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعين ومائة ، وقيل إنه ولد سنة تسعين ومائة ، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، بسند من أبيه المهدي . روى الحديث عن أبيه وجده ، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ص . قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . أوردته وهو على المنبر وهو يخطب الناس ، وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق ، ونباتة بن عمرو . وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جليلاً ، وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية ، وقد لقي المسلمون من ذلك جهراً بهيداً وخوفاً شديداً ، وكان

الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة بأغسطه على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام ، ففرح المسلمون بذلك ، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة ، ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزوا وحجبا ، ولهذا قال فيه أبو السمل :

فَن يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أَوْ يَرِدْ • فَيَا حُرْمِينَ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ
فَنِي أَرْضِ الْمَدَى عَلَى طَمَرٍ • وَفِي أَرْضِ التَّرَفِ فَوْقَ كُورِ
وَمَا حَازَ الثُّغُورَ سِوَاكَ خَلْقِهِ • مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم ، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابعة والكسوة التامة ، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء ، فانه كان سريع العطاء جزيلا ، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم ، ولا يضيع لديه بر ومعروف ، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله . وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعا ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تمرض له علة ، وكان ابن أبي مريم هو الذي يضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله . نبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ [ومالي لا أعبد الذي فطرنى] فقال ابن أبي مريم : لا أدرى والله . فضحك الرشيد وقطع الصلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك . ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالية من أحسن الطيب ، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها ، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مريم فوهبها له ، فقال له العباس : ويحك اجئت بشئ منعمته نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته . فحلف ابن أبي مريم ليطيبين به استه ، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها ، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك . ثم قال لخادم قائم عندهم يقال له خاقان : اطلب لي غلامى . فقال الرشيد : ادع له غلامه . فقال له : خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فرها فلنطيب منها إستها حتى أرجع إليها فأنيكها . فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب ، ثم أقبل ابن أبي مريم على العباس بن محمد فقال له : جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذى ما تخطر السماء شيئاً ولا تلتب الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده ؟ وأعجب من هذا أن قيل للملك الموت : ما أمرك به هذا فأنفذه . وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه يقال أو خباز أو طبّاخ أو تمار ، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك . ثم أمر لابن أبي مريم بمائة ألف درهم .

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مريم أن يلى الحجابة في هذا اليوم ، ومهما حصل له كان بينه وبين أمير المؤمنين ، فولاه الحجابة ، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب ، من عند زبيدة

والبرامكة وكبار الأمراء ، وكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار ، فسأله الرشيد في اليوم الثاني عما تحصل فأخبره بذلك ، فقال له : فأين نصيبي ؟ فقال ابن أبي مریم : قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تنفحة .

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم لیسع منه الحديث قال أبو معاوية : ماذا كنت عنده حديثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيدي ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبيل الثرى ، وأكثت عنده يوماً ثم قلت لا غسل يدي فصب الماء على وأنا لا أراه . ثم قال : يا أبا معاوية أندري من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا . قال : يصب عليك أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنما أردت أعظم العلم . وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى ، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ على بالنطع والسيوف ، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفون فيه فقال الرشيد : هذه زندقة . ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا ، فأقسم عه بالآيمان المفاظة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطلقه .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قرينة إلى الله عز وجل . وقال بعض أهل العلم : يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بمن سلطانك ، فقال الرشيد : أولست كذلك ؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبهضهما . وقال له ابن السماك : إن الله لم يجعل أحداً فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك . فقال : لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة .

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا . فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة ، فأكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك . ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأنى بقله فيها ماء مبرد فقال لابن السماك : عطني . فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت تشتري هذه الشربة لو منعها ؟ فقال : بنصف ملكي . فقال : اشرب هنيئاً ، فلما شرب قال : أرايت لو منعت خروجها من يدك بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال بنصف ملكي الآخر . فقال : إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، فخلق أن لا يتنافس فيه . فبكى هارون .

وقال ابن قتيبة : ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقيم أظفاره يوم الجمعة فقات له في ذلك فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر . فقلت : يا أمير المؤمنين أو تخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني ؟ . وروى ابن عساکر عن إبراهيم المهدي قال : كنت يوماً عند الرشيد فدعا طبائخه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضها في فيه فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال : مم تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة . فقال له : بحق عليك لما أخبرتني به . قال : حق تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله لتخبرني . فقال : يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله ، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طبائخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم جزور ، فنحن نتحرك كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأننا لا نشترى من السرق لحم جزور ، فنصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم . قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة . فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف

قال : فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السباط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكية في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تنبأ به من الجزور يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بشواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى [ولمن خاف مقام ربه جنتان] . فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف . ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاء .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : اجتمع للرشيدي من الجسد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراهه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدّهم تعاطفا ، ونديمه عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية . وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مريم ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها .

وروى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول : إنا من قوم عظمت رزيتهم ، وحسنت بعثتهم ، ورثنا رسول الله (ص) ، وبقيت فينا خلافة الله . وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبیت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلك بكلام فيه غلظة ، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً لينا . وعن شعيب بن حرب قال : رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك . فقلت : لا بد من ذلك ، فناديته فقلت : يا هارون ! قد أتعبت الأمة والبهائم . فقال : خذوه . فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين . فقال ثكلتك أمك ممن أنت ؟ فقلت : من الأنبار . فقال : ما حملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال : تخاطر ببالي شيء لم يخطر قبل ذلك ، فقلت : أنا أدعو الله باسمه يا الله ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى يا عيسى ، يا محمد ، وكفى أبغض خلقه إليه فقال : ثبت يداي لبي . فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه .

وقال له ابن السكك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل ، والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بمال . فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السكك ! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة . فقام فخرج من عنده وهو يبكي . وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليس له وعظه بمكة - : يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلمهم ، وقد قال تعالى [وتقطعت بهم الأسباب] قال حينئذ ليث عن مجاهد : الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكي حتى جعل يشق . وقال الفضيل : استدعاني الرشيد يوماً وقد رخرق منازلهم وأكثرت الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعاني أبا العتاهية فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعم فقال : -

عش ما بدا لك سالماً • في ظل شاهقة القصور
تسعى عليك بما اشتبه • ت لدى الرواح إلى البكور
فاذا النفوس تعمقت • عن ضيق حشجة الصدور
هناك نعلم موقناً • ما كنت إلا في غرور

قال : فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً . فقال له الفضل بن يحيى : دعاك أمير المؤمنين تسر .
فأحزنه ؟ فقال له الرشيد : دعه فإنه رأى في عي فكره أن يزيدنا عي . ومن وجه آخر أن الرشيد
قال لأبي العتاهية : عظمى بأبيات من الشعر وأوجز فقال : -

لاتأمن الموت في طرف ولا نفس • ولو تمتعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت صائبة • لكل مدرع منها ومستر
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها • إن السفينة لا تجري على اليبس

قال : نخر الرشيد مغشياً عليه . وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما
يقول ، فكتب مرة على جدار الحبس :

أما والله إن الظلم شوم • وما زال المسمى هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين تمضي • وعند الله تجتمع الخصوم

قال : فاستدعاه واستجده في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه . وقال الحسن بن أبي الفهم : ثنا
محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال : دخلت على الرشيد فقال : ما خبرك ؟ فقلت :

بعين الله ما تخفى البيوت • فقد طال التحمل والسكوت

فقال : يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه ، ولا تضر الرشيد شيئاً . وقال الأصمعي
كنت مع الرشيد في الحج فررنا بوا . فاذا على شفير امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسال
منها وهي تقول : -

طحطحتنا طحاطح الأعوام • ورمتنا حوادث الأيام
فأتيناكم نمس أكفاً • فائلات لزادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والثوبة فينا • أيها الزائرون بيت الحرام
من رآني فقد رآني ورحلي • فارحموا غربتي وذل مقامي

قال الأصمعي : فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرجها وبكى
وأمر مسروراً الخادم أن يمسأ قصعتها ذهباً ، ففلاها حتى جعلت تفيض يمينا وشمالاً . وسمع مرة
الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج :

أبها المجمعُ هماً لا بهيم * أنتَ تقضي ولكَ الحمى نحم
كيف ترقبك وقد جفَّ القلم * حطَّت الصَّحَّةُ مِنكَ والسَّقمُ

فقال الرشيد لبعض خدمه : ما معك ؟ قال : أربعمائة دينار ، فقال : ادفعها إلى هذا الأعرابي .
فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلاً :

وكنْتُ جليسَ قمعاق بن عمرو * ولا يشقُّ بقمعاق جليسُ

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطى المتمثل ما معه من الذهب فإذا مائتا دينار . قال أبو عبيد
إن [أصل] هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات من ذهب فرقها على
جلسائه وإلى جانبه قمعاق بن عمرو ، وإلى جانب القمعاق أعرابي لم يفضل له منها شيء . فأطرق
الأعرابي حياء فدفع إليه القمعاق الجاهم الذي حصل له ، فتمض الأعرابي وهو يقول وكنْتُ جليس
قمعاق بن عمرو إلى آخره .

وخرج الرشيد يوماً من عنده زبيدة وهو يضحك فقبل له مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال :
دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زبيدة - فأقلت عندها وبت ، فما استيقظت إلا على صوت
ذهب يصب ، قالوا : هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر ، فقالت زبيدة : هبالي يا ابن عم ،
فقلت : هي لك ، ثم ما خرجت حتى عربدت على وقالت : أي خير رأيته منك ؟ وقال الرشيد مرة
للمفضل الضبي : ما أحسن ما قيل في الذئب ، ولك هذا الخاتم ، وشراؤه ألف وستمائة دينار ، فأنشد
قول الشاعر :
ينامُ بإحدى مقلتيه ويتقي * بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم
فقال : ما قلت هذا إلا لتسلمنا الخاتم . ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشتريته منه بألف وستمائة
دينار ، وبعثت به إلى الرشيد وقالت : إنى رأيتهك معجباً به . فردّه إلى المفضل والدنانير ، وقال :
ما كنا لنهب شيئاً ونرجع فيه .

وقال الرشيد يوماً للعباس بن الأحنف : أي بيت قالت العرب أرق ؟ فقال : قول جميل في بئينة :

ألا ليُفني أعمى أصمُّ تودُّني * بُئينةُ لا ينجي عليَّ كلامها

فقال له الرشيد : أرق منه قولك في مثل هذا :

طافَ الهوى في عبادِ الله كلهم * حتى إذا مرَّ بي من بينهم وقفا

فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله :

أما يكفيك أنكَ تملكيني * وأنَّ الناسَ كلهم عبيدي

وأنكَ لو قطعت يدي ورجلي * لقلتُ من الهوى أحسنَّ زبيدي

قال : فضحك الرشيد وأعجبه ذلك . ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كن عنده من الخواص

نزله • ثلاثُ النَّشَآتُ عَنَّا • وَهَلْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَالِي تَطْلُوهُ فِي الْبَرِّيَّةِ كُلِّهَا • وَأَطْلِيَهُنَّ وَهْنٌ فِي مَعْبَايَ
مَآذِكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْمَوْتِ • وَبِعَرْقُونِ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي
وَمَا أورد له صاحب المقد في كتابه :

تبدى الصدود وتغنى الحب عاشقة • فالنفس راضية والطرف غصبان

وذكر ابن جرير وغيره أنه كان في دار الرشيد من الجوارى والخطايا وخدمته وخدمته زوجته
وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأثنى حضرة يوما بين يديه ففتته الممرات منهن فطرب جدا ،
وأمر بمال فخر عليهن . وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم في ذلك اليوم .
رواه ابن عساکر أيضا

وروي أنه اشترى جارية من المدينة فأحب بها جدا فأمر بإحضار موالها ومن يلوذ بهم ليغنى
حوائجهم ، فقدموا عليه بثلاثين نفسا فأمر الحاجب - وهو الفضل بن الربيع - أن ينلقاهم ويكتب
حوادثهم ، فكان فيهم رجل قد أظلم المدينة لأنه كان يهوى تلك الجارية ، فبعثت إليه فأتى به فقال
له الفضل : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يجلس أمير المؤمنين مع فلانة فاشرب ثلاثة أرطال من
خمر ، وتغني ثلاثه أموات . فقال : أجهنون أنت ؟ فقال : لا ولكن أعرض حاجتي هذه . قال
أمير المؤمنين : فذكر الرشيد ذلك فأمر بإحضاره وأن يجلس معه الجارية بحيث ينظر إليه ما ولا يراه
فجلس على كرسي والخدام بين يديها ، وأجلس على كرسي فاشرب رطلا وقال لها أغني

تخليلي عروجا بارك الله بك • وإن لم تكن عند بارسك فعدا

وقولا لما ليس الضلال أجارنا • وواسكتنا جزنا لنلقاكم غدا

غدا يكتر البادرون منا ومنكم • ونزداد داري من دياركم غدا

قال : ففتته ثم استعمله الخدم فاشرب رطلا آخر ، وقال : أغني جيلت فذاك :

تكلم منافي الوجور هيرنا • فغنم سكوت والموى ينكلم

ونفصب أحيانا ونرضى بطرفنا • فذلك فبا بيتنا ليس يعلم

قال : ففتته : ثم شرب رطلا ثالثا وقال : أغني جيلي الله فذاك :

أحسن ما كنا نترننا • وخاننا المهر وما كنا

فليت ذا المهر لنا مرة • عدا لنا برنا كما كنا

قال ثم لام الشب إلى درجة هناك ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات . فقال الرشيد :

جبل النقي ، والله لو لم يسجل لوجهها له .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً . قد ذكر الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجاً صالحاً . وقد كان الفضيل بن عياض يقول : ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما أتخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمرى قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات ، وظهر القول بخاق القرآن ، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك . وقد تقدمت رؤياه لذلك الكف وتلك التربة الحمراء وقائل يقول : هذه تربة أمير المؤمنين فكان موته بطوس . وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى في منامه قائلاً يقول : كأتى بهذا القصر قد باد أهله . الشعر إلى آخره .

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادي . وأبوه محمد المهدي فأنه أعلم . وقد منا أنه أمر بحفر قبره في حياته ، وأن تقرأ فيه ختمه تامة ، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابن آدم . ويبيكى ، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجله ، ثم جعل يقول : [ما أغنى عنى ماله هلاك عنى سلطانيته] ويبيكى . وقيل : إنه لما احتضر قال : اللهم انفعنا بالاحسان ، واغفر لنا الاساءة ، يا من لا يموت ارحم من يموت . وكان مرضه بالدم ، وقيل بالسل ، وجبريل الطبيب يكتّم ما به من الدلة ، فأمر الرشيد رجلاً أن يأخذ ماءه في قارورة وينذهب به إلى جبريل فيريه إياه ، ولا يذكر له بول من هو ، فان سأله قال : هو بول مريض عندنا . فلما رآه جبريل قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به ، فقال له : بالله عليك أخبرنى عن حال صاحب هذا الماء . فان لى عليه مالا ، فان كان به رجاء وإلا أخذت مالى منه . فقال : اذهب فتخلص منه فانه لا يديش إلا أياما . فلما جاء وأخبر الرشيد بمث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد . وقد قال الرشيد وهو في هذه الحال :

إني بطوس مقيم مالى بطوس حميم أرجو إلهى لما بى فانه بى رحيم
لقد أتى بى طوساً قضاؤه المختوم وليس إلا رضائى والصبر والتسليم

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقيل إنه توفى في جمادى الأولى ، وقيل في ربيع الأول ، وله من العمر خمس ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعون سنة . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وعشرون يوماً . وقيل ثلاثة أشهر . وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباذ . وقال بعضهم : قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته .

منازل العسكر معمورة * والمنزل الأعظم مهجور
خليفة الله بدار البلى * تسمى على أجداده المور

أقبلت الميرُ تباهى به * وانصرفت تندبة الميرُ

وقد رثاه أبو الشيص فقال :

غربت في الشرقِ شمسٌ * فلها العينانِ تدمعُ

ما رأينا قطاً شمساً * غربت من حيث تطلعُ

وقد رثاه الشعراء بقصائد . قال ابن الجوزي : وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء ، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار ، وخمسة وثلاثون ألف دينار . قال ابن جرير : وكان في بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيّف .

ذكر زوجاته وبنيه وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور ، تزوجها في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي ، فولدت له محمداً الأمين . وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي . وتزوج [أمة الميز] أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد . وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين ، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفنا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقّة ، وتزوج عزيزة بنت القطريف ، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران ، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية ، ويقال لها الجرّشية ، لأنها ولدت بجرش باليمن . وتوفي عن أربع : زبيدة ، وعباسة ، وابنة صالح ، والعثمانية هذه . وأما الخطايا من الجوار فكثير جداً حتى قال بعضهم : إنه كان في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان .

وأما أولاده المذكور فمحمد الأمين بن زبيدة ، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراحل ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة ، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف . وعليّ أمه أمة الميز . وصالح من جارية اسمها رثم . ومحمد أبو يعقوب . ومحمد أبو عيسى . ومحمد أبو العباس . ومحمد أبو عليّ كل هؤلاء من أمهات أولاد . وكان من الأثاث سكينة من قصف . وأم حبيب من ماردة . وأروى . وأم الحسن . وأم محمد وهي حمدونة وفاطمة وأمها غصص . وأم سلمة . وخديجة . وأم القاسم رملة . وأم علي . وأم الغالية . وريطة كلهن من أمهات أولاد .

خلفته محمد الرشيد

لما توفي الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة - كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد الأمين بن زبيدة وهو ببغداد يعلمه ب وفاة أبيه ويعزيه فيه ، فوصل الكتاب صبيحة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة ، يوم

الحديس الرابع عشر من جنادى الآخرة ، فركب الأمين من قصره الخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور - وهو قصر الذهب - على شط بغداد ، فعلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد ، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير . فبايعة الخواص من قومه ووجوه بني هاشم والأمراء ، وأمر بصرف أعطيات الجند عن سنتين ، ثم نزل وأمر عمه سليمان بن جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين واستقام حاله حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ماسئد كره إن شاء الله تعالى .

اختلاف الأمين والأمين

كان السبب في ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما فيها من الخواص والدواب والسلاح لولده المأمون ، وجدده له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمر إذا مات الرشيد ، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمر وإلى صالح بن الرشيد ، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة ، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين ، وارتحل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تحرج من البيعة التي أخذت للمأمون ، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فوقعت الوحشة بين الأخوين ، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين ، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم ، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك ، وهو نائبه عليها ، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد ، فقال في ذلك بعض الشعراء : -

بنى أمينٌ اللهَ ميداناً * وصيرَ الساحةَ بستاناً

وكانتَ الفزلانَ فيرَ باناً * يهدي إلبه فيه غزلاناً

وفي شعبان من هذه السنة قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف والقماش من الرشيد ، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك ، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور ، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم .

وفيها مات نفقور ملك الروم ، قتله البرجان ، وكان ملكه تسع سنين ، وأقام بعده ولده استبراق شهرين فمات ، فملكهم ميخائيل زوج أخت نفقور لعنهم الله . وفيها تواقع هرثمة نائب خراسان ورافع ابن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره . وحج بالناس نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي . وفيها توفي :

إسماعيل بن عليّة

وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء ، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وقد ولى المظالم ببغداد ، وكان ناظر المصنفات بالبصرة ، وكان ثقة نبيلًا جليلًا كبيرًا ، وكان قليل التبسّم وكان يتجبر في البرّ وينفق على عياله منه ويحج منه ، ويبر أصحابه منه مثل السفينيين وغيرهما ، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ ابن المبارك أنه تولى القضاء كتب إليه يلومه نظمًا ونثرًا ، فاستعفى ابن عليّة من القضاء فأعفاه . وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة ، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك وفيها مات :

محمد بن جعفر

الملقب بغندر . روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وعن خلق كثير ، وعنه جماعة منهم أحمد بن حنبل ، وكان ثقة جليلًا حافظًا متقنًا . وقد ذكر عنه حكايات تدل على تفهيمه في أمور الدنيا ، كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المتقدمين والمتأخرين . وفيها توفي :

أبو بكر بن العياش

أحد الأئمة ، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام وهمام بن عروة وجماعة . وحدث عنه خلق منهم أحمد بن حنبل . وقال يزيد بن هارون : كان حبرًا فاضلًا لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة ، قالوا : ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة ، وصام ثمانين رمضانًا ، وتوفي وله ست وتسعون سنة . ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال : يا بني علام تبكي ؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرّق نواحيا ، فسألوه الأمين فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضًا . وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور ، وولى على ذلك خزيم بن خازم ، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد . وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار ، وبالامرة من بعده ، وسماه الناطق بالحق ، ثم يدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم ، وكان من نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما ، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير بيته في أخويه ، وحسن له خلع المأمون والقاسم ، وصغر عنده شأن المأمون . وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلعه من الحجابة . فوافق الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة . فلما بلغ المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز ، وتشكر للأمين . وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه

فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه ، وجاء هرثمة على إثره فتلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس ، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتابا وأرسل إليه رسلا ثلاثة من أكابر الأمراء ، سأله أن يجيبه إلى تقديم ولده عليه ، وأنه قد سمع الناطق بالحق ، فأظهر المأمون الامتناع فشرع الأمراء في مطايبته وملايفته ، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الإباء ، فقال له العباس بن موسى بن عيسى : فقد خلع أبي نفسه فإذا كان ؟ فقال المأمون إن أباك كان امرءا مكرها ، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة ، ثم لما رجع إلى بغداد كان يرأسه بما كان من أمر الأمين ويناصحه ، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه ، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون ، فغلبه وأمر بالدعاء لولده في سائر البلاد ، وأقاموا من يتكلم في المأمون ويدكر مساويه ، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة ، فزقه الأمين وأكد البيعة إلى ولده الناطق بالحق على ما ولاه من الأعمال ، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها . وقد استقصاها ابن جرير في تاريخه ، ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيا الجيوش والجنود وتآلف الرعايا . وفيها غسدت الروم بملكهم ميخائيل فراوا وخلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم اليون . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى ، وقيل على بن الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

سالم بن سالم أبو بحر البلخي

قدم بغداد وحديث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري . وعنه الحسن بن عرفة . وكان عابدا زاهدا ، مكث أربعين سنة لم يفرش له فراش ، وصامها كلها إلا يومى العيد ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، وكان داعية الأرجاء ضعيف الحديث ، إلا أنه كان رأسا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان قد قدم بغداد فأنكر على الرشيد وشنع عليه فحبسه وقيدته بأثني عشر قيدآ ، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى جملوه في أربعة قيود ، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله . فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع . وكانوا بمكة قد جاؤا حججا - فرض بمكة . واشتهى يوماً بردا فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه . مات في ذى الحجة من هذه السنة .

وعبد الوهاب بن عبد المجيد

الثقة كانت غلته في السنة قريبا من خمسين ألفا ينقها كلها على أهل الحديث . توفي عن أربع وثمانين سنة .

وأبو النصر الجهني المصاب

كان مقيا بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالى منه ، وكان طويل السكوت ، فإذا سئل أجاب بإجواب حسن ، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب ، وكان يخرج يوم الجمعة

قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول : [يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً] و [يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل] ثم ينتقل إلى جماعة أخرى ثم إلى أخرى ، حتى يدخل المسجد فيصلّي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة .

وقد وعظ مرة هارن الرشيد بكلام حسن فقال : إعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب لو ماتت سخة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إني لست كعمر ، وإن دهرى ليس كدهره . فقال : ما هذا بمن عنك شيئاً . فأمر له بشمائة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة فربها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

فيها في صفر منها أمر الأمين الناس أن لا يتعاملوا بالدرهم والدنانير التي عليها اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر ، وأن يدعى له ولولده من بعده : وفيها تسمى المأمون بامام المؤمنين . وفي ربيع الآخر فيها عقد الأمين لعلّ بن عيسى بن ماهان الأمانة على الجبل وهمدان واصبهان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون وجيز معه جيشاً كثيراً ، وأنفق فيهم نفقات عظيمة ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، ولولده خمسين ألف دينار وألّى سيف محلي ، وستة آلاف ثوب للخام . فخرج على بن موسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس ، ومعه قيد من فضة ليأني فيه بالمأمون . وخرج الأمين معه مشيعاً فسار حتى وصل الرى فلتقاء الأمير طاهر في أربعة آلاف ، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا ، فقتل على بن عيسى وانهمزم أصحابه وبجمل رأسه وجثته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذي الرياستين ، وكان الذي قتل على بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمى ذا اليمينين ، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به على بن عيسى بن ماهان ، ففرح بذلك المأمون وذووه ، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة ، فقال : ويحك دعني من هذا فإن كثرأ قد صاد سمكتين . ولم أصد بعد شيئاً . وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر ، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون ، وما وقع من الأمر الفظيع . وكان رجوع الخبر إليه في شوال من هذه السنة . ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همدان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية ، فلما اقتربوا منهم تواجبوا فتقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن ابن جبلة فلجئوا إلى همدان فحاصروهم بها طاهر حتى اضطروهم إلى أن دعوا إلى الصلح ، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم ، وانصرف عبد الرحمن بن جبلة على أن يكون راجعاً إلى بغداد ، ثم غدروا بأصحاب

طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فبرزهم وقاتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة ، وفر أصحابه خائبين .

فلما رجعوا إلى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف ، وكان ذلك في ذى الحجة من هذه السنة ، وطرد طاهر عمال الأمن عن قزوین وتلك النواحي ، وقوى أمر المأمون جداً بتلك البلاد . وفي ذى الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفينائي بالشام ، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه ، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالركة ، ثم كان من أمره ما سئد كره . وحجج بالناس فيها نائب الحجاز داود ابن عيسى . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان منهم :

إسحاق بن يوسف الأزرق

أحد أئمة الحديث . روى عنه أحمد وغيره . ومنهم :

بكار بن عبد الله

ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، كان نائب المدينة لرشيد ثلثي عشرة سنة وشهراً ، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وكان شريفاً جواداً معظماً . وفيها توفي :

أبو نوح السعدي

واسمه الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن هنب بن داود بن غنم بن سليم ، ونسبه عبد الله بن سعد إلى الجراح بن عبد الله الحنكي ، ويقال له أبو نوح البصري ، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد ، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها خلبان ، فولدت له أبا نوح وأبنا آخر يقال له أبا معاذ ، ثم صار أبو نوح إلى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر ، وصحب يونس بن حبيب الجرمي النحوي . وقد قال القاضي ابن خلكان : صحب أبا أسامة وابن الجباب السكوفي ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان . وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي . وحدث عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل وغندر ومشاهير العلماء ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله (ص) : « لا يؤمن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » ، فان حسن الظن بالله ثمن الجنة . وقال محمد بن إبراهيم : دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي : يا أبا علي ! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله من عمالك . فقال : إياي تخوف ؟ بالله استندوني . قال : فأسندناه فقال : حدثني حماد بن سلمة

عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) : « لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » . ثم قال : أفلا تراني منهم . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويت عن ستين امرأة منهن خنساء وليلي ، فما الظن بالرجال ؟ وقال يعقوب بن السكيت : إذا رويت الشعر عن امرئ القيس والأعشى من أهل الجاهلية ، ومن المسلمين جرير والفرزدق ، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك . وقد أثني عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام . قال أبو عمرو الشيباني : لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقدار لاحتججنا به - يعني شعره الذي قاله في الخريات والمردان ، وقد كان يميل إليهم - ونحو ذلك مما هو معروف في شعره . واجتمع طائفة من الشعراء عند المأمون فقبل لهم : أيكم القائل :

فلما تحسنا وقفنا كأننا * نرى قرآ في الأرض يبلغ كوكبا

قالوا : أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

إذا نزلت دون اللهاة من الفتى * دعى همه عن قلبه برحيل

قالوا أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

فتشيت في مفاصليهم * كتمشي البرء في السقيم

قالوا : أبو نواس . قال : فهو أشعركم . وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر : ما أشعر ظريفكم أبا نواس

في قوله :

يا قرآ أبصرت في مانم * يندب شجوا بين أتراب

أبرزه المانم لي كارهأ * برغم ذي باب وحجاب

يبكي فيندري الدمن عينه * ويلطم الورد بمنا

لا زال موتاً دأب أحبابه * ولم تزل رؤيته دأبي

قال ابن الأعرابي أشعر الناس أبو نواس في قوله : -

تسترت من دهري بكل جناحه * فميني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام عني ما درت * وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أبو العتاهية : قلت في الزهد عشرين ألف بيت ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة

التي قالها أبو نواس وهي هذه ، وكانت مكتوبة على قبره :

يا نواسي توقر * أو تغير أو تصبر

إن يكن ساءك دهر * فلما سرك أكثر

يا كثير الذنب * عفو الله من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس يمدح بعض الأمراء : -

أوجدته الله فامثله * بطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستكر * أن يجمع العالم في واحد
وأشدوا سفيان بن عيينة قول أبي نواس :

ما هوى إلا له سبب * يبتدى منه وينشوب
فكنت قاي محبة * وجهها بالحسن منتقب
خلته والحسن تأخذه * تلتقي منه وتنتخب
فاكتست منه طرائفه * واسترقت بهض ما تهب
فهي لو صيرت فير لها * عودة لم يثنها أرب
صار جذاً ما مزحت بهر * رب جدر جره اللعاب

فقال ابن عيينة : آمنت بالذي خلقها . وقال ابن دريد قال أبو حاتم : لو أن العامة بدات هذين
البيتين كتبتهما بماء الذهب :

ولو آتي استزدتك فوق ما بي * من البلوى لأعوزك المزيدي
ولو عرضت على الموتى حياتي * يعيش مثل عيشي لم يريدوا

وقد سمع أبو نواس حديث سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « القلوب
جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فنظم ذلك في قصيدة له فقال :

إن القلوب لأجناد مجندة * لله في الأرض بالآهواء تعترف
فما تناكر منها فهو مختلف * وما تعارف منها فهو مؤتلف

ودخل يوماً أبو نواس مع جماعة من المحدثين على عبد الواحد بن زياد فقال لهم عبد الواحد
ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث أحدثه بها ، فاختار كل واحد عشرة إلا أبا نواس ، فقال له :
مالك لا تختار كما اختاروا ؟ فأنشأ يقول :

ولقد كنا رؤينا * عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب * مبرم سعيد بن عبادة
وعن الشعبي والشه * جئ شيخ ذو جلادة وعن الأخيار فحكى * وعن أهل الافادة
أن من مات محباً * فله أجر شهادة

فقال له عبد الواحد : قم عني يا فاجر ، لا حدثتك ولا حدثت أحداً من هؤلاء من أجلك ، فبلغ
ذلك مالك بن أنس وإبراهيم بن أبي يحيى فقالا : كان ينبغي أن يحدثه لعل الله أن يصلحه .

قلت : وهذا الذي أنشده أبو نواس قد رواه ابن عدي في كامله عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً
« من عشق فميت فمات شهيداً » . ومعناه أن من ابتلى بالعشق من غير اختيار منه فصبر

وعف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير . فان صح هذا كان ذلك له نوع شهادة والله أعلم .

وروى الخطيب أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له : حدثنا من طرفك ، فقال مرتجلاً : حدثنا الخفاف عن وائل وخاله الخذاء عن جابر ومسعر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر قالوا جميعاً : أيما طفلة علمتها ذو خاق طاهر فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر ، كانت له الجنة مفتوحة يرتع في مرتعها الزاهر ، وأي معشوق جفا عاشقاً بعد وصال دائم ناصراً ففي عذاب الله بعداً له نعم وسحقاً دائماً ذاخر . فقال له شعبة : إنك لجميل الأخلاق ، وإني لأرجو لك . وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحرَ المقتلينَ والجيدِ * وقاتلي منك بالمواعيدِ
تُوعِدُنِي الوصلَ ثم تُخْلِفُنِي * ويلائي مِنْ خُلُقِكَ موعودِي
حدثني الأزرقي المحدث عن * شهر وعوف عن ابن مسعود
ما يُخْلِفُ الوعدَ غيرَ كافرة * وكافِرٍ في الجحيمِ مصفودِ

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرقي فقال : كذب عدو الله على وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد . وعن سليم بن منصور بن عمار قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبيكي بكاء شديداً فقلت : إني لأرجو أن لا يذهبك الله بعد هذا البكاء فأنشأ يقول :

لم أبلِ في مجلسٍ منصور * شوقاً إلى الجنة والخورِ
ولا من القبرِ وأهوالهِ * ولا من النفخة في الصورِ
ولا من النارِ رأسِ لاهِ * ولا من الخذلانِ والجورِ
لكن بكائي لنعكاشادني * تقيير نفسي كلَّ محذورِ

ثم قال : إنما بكيت لبكاء هذا الأرمم الذي إلى جانب أبيك - وكان صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفاً من الله عز وجل -

قال : أبو نواس : دعاني يوماً بعض الحاكة وألح علي ليضيفني في منزله ، ولم يزل بي حتى أجبته فصار إلى منزله وسرت معه فاذا منزل لا بأس به ، وقد احتفل الحائك في الطعام وجمع جمعاً من الحياك ، فأكلنا وشربنا ثم قال : ياسيدي أشتري أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر - وكان مغرمًا بجارية له - قال فقلت أرنيها حتى أنظم على شكائها وحسنها ، فكشف عنها فاذا هي أسمى خلق الله وأوحشهم ، سوداء شمطاء ديدانية يسيل لعابها على صدرها . فقلت لسيدها : ما اسمها ؟ فقال تسليم ، فأنشأت أقول :

أسهر لي لي حبٌ تسليم * جارية في الحسن كالبحور
كأنما نكحتها كاهن * أو حزمة من حزم الثوم

ضَرَطْتُ مِنْ حَتَّى لَهَا ضَرْطَةً * أَفْرَعْتُ مِنْهَا مَلِكَ الرُّومِ
قال فقام الحائك برقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول : إنه شبهها والله بملك الروم . ومن
شعره أيضاً (١) أبرمى الناس يقولون * برعمهم كثرت أوزارهم
إن كنت في النار أم في جنة * ماذا عليكم يا بني الزانية

وبالجملة فقد ذكرناه أموراً كثيرة ، وبحونا وأشعاراً منكرة ، وله في الحريات والقاذورات
والتشبيب بالردان والنسوان أشياء بشعة شنيعة ، فن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من
يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول : كان إنما يخرب على نفسه ، والأول أظهر ، لما في أشعاره . فأما
الزندقة فبهيدة عنه ، ولكن كان فيه عجون وخلاعة كثيرة . وقد عزوا إليه في شعره وكبره أشياء
منكرة الله أعلم بصحتها ، والعمامة تنقل عنه أشياء كثيرة لا حقيقة لها . وفي صحن جامع دمشق قبة
يفور منها الماء يقول الدماشق قبة أبي نواس ، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة ، فما
أدرى لأي شيء نسبت إليه فله أعلم بهذا .

وقال محمد بن أبي عمر : سمعت أبا نواس يقول : والله ما فتحت سراويلي لحرام قط . وقال له
محمد الأمين بن الرشيد : أنت زنديق . فقال : يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصل الصلاة الحسن في حين وقتها * وأشهد بالتوحيد لله خاضعا
وأحسن غسل إن ركبت جنابة * وإن جاءني المسكين لم أك مانعا
وإنني وإن حانت من الكاس دعوة * إلى بيمعة الساقى أجبت مسارعا
وأشربها صبراً على جنب ما عز * وجدي كثير الشمع أصبح راضعا
وجوذاب حواري ولورث وسكره * وما زال للخمار ذلك ناعما
وأجمل تخليط الروافض كلهم * لنفخة بختيشوع في النار طائما

فقال له الأمين : ويحك ! وما الذي أباك إلى نفخة بختيشوع ؟ فقال : به تمت القافية . فأمر له
بجائزة . وبختيشوع الذي ذكره هو طبيب الخلفاء . وقال الجاحظ : لا أعرف في كلام الشعراء أرق
ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول :

أية نار قدح القادح * وأي جدي بلغ المازح
لله در الشيب ون واعظ * وناصح لو خطئ الناصح
يا بني الفتى إلا اتباع الهوى * ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك إلى نسوة * مهورهن العمل الصالح
لا يجتلي الحوراء في خنبرها * إلا امرؤ ميزانه راجح

بُنِ اتقِ اللهَ فذاك الذي * سيقُ إني المتجرُ الرابعُ
 فاغْدُ فما في الدينِ أغلوطَةٌ * وريحُ لما أنتَ له رايحُ
 وقد استنشدَه أبو عفانَ قصيدته التي في أولها : لاتنس ليلى ولا تنظر إلى هند . فلما فرغ منها
 سجد له أبو عفان ، فقال له أبو نواس : والله لا أكلمك مدة . قال : فغنى ذلك ، فلما أردت
 الانصراف قال : متى أراك ؟ قلت : ألم تقسم ؟ فقال : الدهر أقصر من أن يكون معه هجر .
 ومن مستجاد شعره قوله :

ألا ربَّ وجهٍ في الترابِ عتيق * ويارب حسنٍ في الترابِ رقيقِ
 ويارب حزمٍ في الترابِ ونجدة * ويارب رأيٍ في الترابِ وثيقِ
 قلْ لقريبِ الدارِ إنك ظاعنٌ * إلى سفرٍ نائي المحلِّ سحيقِ
 أرى كلَّ حيٍّ هالكاً وابنِ هالكٍ * وذا نسبٍ في المالِ كينٍ عريقِ
 إذا امتحنَ الدنيا لببٍ تكشفت * له عن عدوٍ في لباسٍ صديقِ
 لا تشهرنَ فانَّ الدلَّ في الشرِّ * والعزَّ في الحلمِ لافي الطيشِ والسَّفرِ
 وقلْ لمغتبطٍ في التيهِ من حقٍ * لو كنتَ تعلمُ ما في التيهِ لم تنه
 التيهُ مفسدةٌ للدينِ منقصةٌ * للعقلِ مهلكةٌ للعرضِ فانتبه
 وجلس أبو العتاهية القاسم بن إسماعيل على دكان وراق فكتب على ظهر دفتر هذه الأبيات :
 أيا عجبا كيف يعصى الال * به أم كيف يجعده الجاحدُ
 وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ * تدلُّ على أنه الواحدُ
 ثم جاء أبو نواس فقرأها فقال : أحسن قائله والله . والله لوددت أنها لي بجميع شيء قلته ، لمن
 هذه ؟ قيل له : لأبي العتاهية ، فأخذ فكتب في جانبها :

سُبْحانَ من خَلَقَ الخَلْقَ * قُ من ضعفٍ مهيِّنِ
 يسوِّقهُ من قرارٍ * إلى قرارٍ مكيِّنِ
 بخلَقٍ شيئاً فشيئاً * في الحجبِ دونَ العيونِ
 حتى بدت حركاتٌ * مخلوقةٌ في سكونِ

ومن شعره المستجاد قوله :

انقطعَت شدتي فنفثُ الملامى إذ * رمى الشَّيبُ مفرقي بالدوامي
 ونهتني النَّسي فَمَلْتُ إلى العدلِ * وأشمتتُ من مقالةِ ناهي
 أيها الغافلُ المقرُّ على السهو * ولا يحذرُ في المعادِ رِسامي

لا بأعمالنا نُطيقُ خلاصاً • يومَ تبدو السماءُ فوقَ الجبابرِ
 على أنا على الاسماءِ والثَّ • ريطرُ نرجو من حسنِ عفوِ الألفِ
 وقوله : نَموتُ ونَبلى غيرَ أنْ ذُوبنا • إذا نحنُ متنا لا نَموتُ ولا تَبلى
 ألا ربِّ ذِي عَيْنينِ لا تَنفَعانِ • وما تَنفَعُ العَيْنانِ مَنْ قَلْبُهُ أَعْمى
 وقوله : لو أنْ عينا أوْهَمَتْها نَفْسُها • يومَ الحِسابِ مِمثلاً لم تَظرفِ
 سَبِحانَ ذِي المَلَكوتِ آيةَ ليلَةٍ • مَحَمَّتْ صَبِيحَتُها بيومِ الموقِفِ
 كَتَبَ الفَناءَ على البريَّةِ رَهبِها • فالنَّاسُ بينَ مُقَدِّمٍ ومُخَلَّفِ
 وذَكَرَ أنْ أبَا نَواصٍ لما أَرادَ الأحرامَ بالحِج قال :

يا مالِكاً ما أَعَدَّكَ مَلِكٌ كُلِّ مَنْ مَلِكٌ • لَبِيكَ إِنْ الحَدَّكَ وَالْمَلِكُ لاشْرِيكَ لَكَ
 عَيْدُكَ قَدْ أَهْلُ لَكَ أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكُ • لَوْلَاكَ يَا رَبِّ هَلَاكَ لَبِيكَ إِنْ الحَدَّ لَكَ
 وَالْمَلِكُ لاشْرِيكَ لَكَ وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَكُ • وَالسَّابِحاتُ فِي الفَلَكِ عَلَى مَحاري تَلَسَّكَ
 كُلِّ لَبِيٍّ وَ... لَكَ وَكُلِّ مَنْ أَهْلُ لَكَ • سَبِّحْ أَوْ صَلِّ فَلكَ لَبِيكَ إِنْ الحَدَّ لَكَ
 وَالْمَلِكُ لاشْرِيكَ لَكَ يَاحْطِطْ ما أَجْهَلَكَ • عَصِيَّتْ رَبّاً عَدَلَكَ وَأَقْدَرَكَ وَأَمْهَلَكَ
 عَجَلٌ وَهَادِرٌ أَمَلَكَ وَاخْتَمَّ بِخَيْرٍ عَمَلَكَ • لَبِيكَ إِنْ الحَدَّ لَكَ وَالْمَلِكُ لاشْرِيكَ لَكَ

وقال المعافى بن زكريا الحريرى : ثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى بن ثعلب
 يقول : دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد
 سمرت بين يديه ، فما زلت أترقب به وتوسلت إليه أنى من موالى شيبان حتى كلمنى ، فقال : فى أى
 شئ نظرت من العلوم ؟ فقلت : فى اللغة والشعر . قال : رأيت بالبصرة جماعة يكتبون عن رجل
 الشعر ، قيل لى هذا أبو نواس . فتخللت الناس ورأى فلما جلست إليه أملى علينا :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل • خلوت ولكن فى الظلام رقيب
 ولا تحسبن الله يغفل ساعة • ولا آتما بخفى عليه يغيب
 لمؤنا من الآثام حتى تنابت • ذنوب على آثارهن ذنوب
 فباليك أن الله ينفى ما مضى • ويأذن فى توباتنا فننوب

وزاد بعضهم فى رواية عن أبى نواس بعد هذه الآيات :

أقول إذا ضاقت على مذاهبى • وحلت بقلبي لثوم نوب
 لطول رجناياتي وعظم خطيئتي • هلكت ومالي فى المتاب نصيب
 واغرق فى بحر الخافة آيساً • وترجع نفسى تارة فننوب

وتذكرني عفواً الكريم عن الوري • فأحيا وأرجو عفوه فأنيب
وأخضع في قولي وأرغب سائلاً • عسى كاشفت البلوى على يتوب
قال ابن طراز الجريري : وقد رويت هذه الأبيات لمن قيل لأبي نواس وهي في زهدياته .
وقد استشهد بها النحاة في أما كن كثيرة قد ذكرناها . وقال حسن بن الداية : دخلت على أبي نواس
وهو في مرض الموت فقلت : عظمي . فأنشأ يقول :

فكثرت ما استطعت من الخطايا • فانك لاقياً رباً غفوراً
ستبصر إن وردت عليه عفواً • وتلقى سيداً ملكاً قديراً
تعض ندامة كفئك مما • تركت مخافة النار الشرورا

فقلت : ويحك ! يمثل هذا الحال تعظي بهذه الموعظة ؟ فقال : أبكت حدثنا حماد بن سلمة عن
ثابت عن أنس قال قال النبي (ص) : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبار من أمتي » . وقد تقدم بهذا
الاسناد عنه « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » . وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال :
دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فأنشأ
يقول :

تعاظمي ذنبي فلما قرنته • بمفوك ربي كان عفوك أعظماً
وما زلت ذاعفوه عن الذنب لم تزل • تنجو وتمفو منة وتكرماً
ولولاك لم يقدر لبليس عابدة • وكيف وقد أغوى صفيك آدماء

رواه ابن عساكر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوباً فيها بخطه :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة • فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً • فاذا رددت يدي فمن ذا يرجم
إن كان لا يرجوك إلا بحسن • فمن الذي يرجو المنى المجرم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا • وجيئل عفوك شيم أي مسلم

وقال يوسف بن الداية : دخلت عليه وهو في السياق فقلت : كيف تجددك ؟ فأطرق ملياً ثم رفع
رأسه فقال :

دب في الفناء سفلاً وعلواً • وأرائي أموت عضواً فعضواً
ليس يمضي من لحظة بي إلا • تقصيني بمرها في جزواً
ذهبت جدتي بالذرة عيشي • وتذكرت طاعة الله نصواً
قد أسأنا كل الإساءة فلا • هم صفحاً عنا وغفراً وعفواً

ثم مات من ساعته ساعداً الله وإياه آمين .

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصاً ، فأوصى أن يجعل في فيه إذا غسلوه فغسلوا به ذلك . ولما

مات لم يجدوا له من المال سوى ثلثمائة درهم وثيابه وأثائه ، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشوفيزي في تل اليهود . وله خمسون سنة . وقيل ستون سنة ، وقيل تسع وخمسون سنة . وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بأبيات قلتها في الترجس :

تفكر في نبات الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع الملك
عيون من تجلبيش شخصات * بأبصار هي الذهب السبيك
على غضب الزبرجد شهادات * بأن الله ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال : غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤا فوجدوها برقعة في خطه
يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلتد علمت أن عفوك أعظم

الأبيات . وقد تقدمت . وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم : رأيته في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقالت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : بماذا وقد كنت مغلطا على نفسك ؟ فقال : جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألقى قل هو الله أحد ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جملتهم ، فغفر الله لي . وقال ابن خلكان : أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الجباب :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب * إن بكى بحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحبة ينتحب * تعجبين من سقي صحتي هي المعجب
وقال المأمون : ما أحسن قوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك * وذو نسب في المالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لببت تكشفت * له عن عدو في لباس صديق

قال ابن خلكان : وما أشد رجاءه بربه حيث يقول :

نحمل ما استطعت من الخطايا * فأنك لاقيا ربنا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفوا * وتلقى سيّدا ملكا كبيرا
تمض ندامة كفك بما * تركت مخافة النار الشرورا

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

فيها توفي أبو معاوية الضرير أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين . والوليد بن مسلم الدمشقي تلميذ الأوزاعي . وفيها حبس الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه قمع على الأمين لعيه وتهاوله في أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره في هذا الوقت . وفيها وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد ابن قحطبة في أربمين ألفا إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون ، فلما وصلوا إلى قريب

من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين الأميرين ، فاختلفا فرجما ولم يقاتلاه ، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ، وأن يتوجه هو إلى الأهواز . ففعل ذلك . وفيها رفع المأمون وزيره الفضل بن سهل وولاه أعمالاً كباراً وسماه ذا الرياستين . وفيها ولي الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن علي - وقد كان أخرجه من سجن الرشيد - وأمره أن يبعث له رجلاً وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة ، فلما وصل إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة ، فقدم عليه منهم خلق كثير ، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص ، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس ، ومات عبد الملك ابن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن علي بن ماهان ، فتلقاه أهل بغداد بالأكرام ، وذلك في شهر رجب من هذه السنة . فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال : والله ما أنا بمسامر ولا مضحك ، ولا وليت له عملاً ولا جبي على يدي مالا ، فلماذا يطلبني في هذه الليلة ؟

سبب خلع الأمين وكيف افضت الخلافة إلى أخيه المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه ، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام ، قام في الناس خطيباً وألهمهم على الأمين ، وذكر له ما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي ، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله ، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس ، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه ، وندبهم لذلك ، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتلوا ملياً من النهار ، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرمح ، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة ، ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد ، وضيق عليه قيده واضطرده ، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تلتقل إلى هناك فامتنعت فضر بها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها ، فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطيائهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين ، فرقة مع الأمين وفرقة عليه ، فاقتلوا قتلاً شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك ، وأسروا الحسين بن علي ابن عيسى بن ماهان وقيده ودخلوا به على الخليفة فذكروا عنه قيوده وأجلسوه على سريره ، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن ، فانهب الناس الخزائن التي فيها السلاح بسبب ذلك ، وأمر الأمين فأتى بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك . فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه

انخاتم وولاه ما وراء بابه ، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان ، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته
 وخدمه فبعث إليه الأمين من يده ، فركبت الخيول وراه فأدركوه فقاتلهم وقتلوه فقتلوه لمنتصف
 رجب ، وجاؤا برأسه إلى الأمين ، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة ، ولما قتل الحسين بن علي بن
 عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون ،
 واستناب بها النواب ، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، ودنا طاهر إلى المدائن
 فأخذها مع واسط وأعمالها ، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ، ولم
 يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل . وفي شعبان منها عقد الأمين أربع مائة لواء مع كل لواء أمير ،
 وبعثهم لقتال هرثة ، فالتقوا في شهر رمضان فكسروهم هرثة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن
 نهيك ، وبعث به إلى المأمون . وهرب جماعة من جنود طاهر فساروا إلى الأمين فاعطاهم أموالا
 كثيرة ، وأكرمهم وغاف لحامم بالغالية فسموا جيش الغالية . ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشا
 كثيفا لقتال طاهر فمزهمهم طاهر وفرق ثملهم ، وأخذ ما كان معهم . واقترب طاهر من بغداد
 فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجنود حتى تفرقوا شيئا ، ثم وقع بين الجيش
 وتشعبت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بعض البغادة :

قل لأمين الله في نفسه * ما شئت الجنود سوى الغالية
 وطاهر نفسى فدا طاهر * برسله والعدو الكافية
 أضفى زمام الملك في كفه * مقاتلا للفتنة الباغية
 يا ناكثا أسلمه نكثه * عيوبه في خيشم فاشية
 قد جاءك الليث يشداتر * مستكلبا في أسد ضارية
 فاهرب ولا مهرب من مثله * إلا إلى النار أو الهاوية

فتفرق على الأمين ثملته ، وحار في أمره ، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب
 الأنبار يوم الثلاثاء لثلاثي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، واشتد الحال على أهل البلد وأخاف
 الدعار والسطار أهل الصلاح ، وخربت الديار ، وفارت الفتنة بين الناس ، حتى قاتل الأخ أخاه
 للاهواء المختلفة ، والابن أباه ، وجرت شرور عظيمة ، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل
 داخل البلد .

وحجج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي من قبل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة
 بمكة والمدينة ، وهو أول موسم دعى فيه للمأمون .
 وفيها توفي بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وقيتها ومحدثها .

وحفص بن غياث القاضي

عاش فوق التسعين ، ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له : لا تبك ! والله ما حلت سراويلي على حرام قط ، ولا جلس بين يدي خصمان فباليت على من وقع الحكم عليه منهما ، قريبا كان أو بعيداً ، ملكاً أو سوقة .

وعبد الله بن مرزوق أبو محمد الزاهد ، كان وزيراً للرشيدي فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل الله أن يرحمه .

أبو شيب

الشاعر محمد بن رزين بن سليمان ، كان أستاذ الشعراء ، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ، كذا قال ابن خلكان وغيره . وكان هو وأبو مسلم بن الوليد - الملقب صريع الغواني - وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون . وقد عى أبو الشيب في آخر عمره ، ومن جيد شعره قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي • متأخر عني ولا متقدم
أجد الملامة في هوائك لذينة • حباً لذكرك فليكني اليوم
أشبهت أعدائي نصرت أحبهم • إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً • ما من بهون عليك من تكرم

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهل هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثة بن أعين ومن معهما في حصار بغداد والتضييق على الأمن ، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرمهما ، وولى أخاه القاسم جرجان ، واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرادات . وضاق الأمن بهم ذرعاً ، ولم يبق معه ما ينفق في الجند ، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير ، وهرب كثير من جنده إلى طاهر ، وقتل من أهل البلد خلق كثير ، وأخذت أموال كثيرة منهم ، وبعث الأمن إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة ، فمل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم ، وقتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً ، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمن حتى كادت بغداد تخرب بكاملها ، فقال بعضهم في ذلك :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين • ألم تكوني زماناً قرّة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم • وكان قريتهم زينة من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا • ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم • إلا تحدر ماء العين من عيني

كانوا يفرقهم دهرٌ وصنعهم * والدهرُ يصنع ما بين الفريقين
وقد أكثر الشعراء في ذلك . وقد أورد ابن جرير من ذلك طرفاً صالحاً ، وأورد في ذلك قصيدة
طويلة جداً فيها بسطاً ما وقع ، وهي هول من الأحوال اقتصرناها بالكلية .

واستجوز طاهر على ما في الضياع من الغلات والحواصل للأمراء وغيرهم ، ودعاهم إلى الأمان
والبيعة المأمون فاستجابوا جميعهم ، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان ،
ومحمد بن أبي العباس الطوسي ، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء ، وصارت قلوبهم معه . واتفق في
بعض الأيام أن ظهر أصحاب الأئمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح ، فلما
سمع الأئمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب ، ووكل الأمور وتديرها إلى محمد بن
عيسى بن تميم ، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأئمين جداً ، وانحاز الناس إلى
جيش طاهر . وكان جانبه آمناً جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك . وقد أخذ
طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها ، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خلفه ، فغلت الاسعار
جداً عند من خلفه ، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك ، ومنعت التجار من القدوم إلى
بغداد بشيء من البضائع أو الدقيق ، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها ، وجرت بين الفريقين
حروب كثيرة ، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأئمين ، قتل فيها خلق من أصحاب
طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتي عريانا ومعه بارية مقيرة ، وتحت كتفه
مخلاة فيها حجارة ، فاذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاء بباريته فلا يؤذيه ، وإذا اقترب منه
رماه بحجر في المقلاع أصابه ، فمزموهم لذلك . ووقعة الشماسية أسرف فيها هرثة بن أعين ، فشق ذلك
على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية ، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر
فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم ، واسترد منهم هرثة وجماعة ممن كانوا أسروهم
من أصحابه ، فشق ذلك على محمد الأئمين وقال في ذلك : —

منيتُ بأشجع الثقلين قلباً * إذا ما طالَ ليسَ كما يطولُ
له مع كل ذي بدرٍ رقيبٌ * يشاهدُه ويعلمُ ما يقولُ
فليسَ بمغفلٍ أمراً عناداً * إذا ما الأمرُ ضيعةُ الغفولِ

وضعف أمر الأئمين جداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه ، وتفرق أكثر
أصحابه عنه ، وبقي مضطهداً ذليلاً . ثم انقضت هذه السنة بكاملها والناس في بغداد في قلاقل وأهوية
مختلفة ، وقتال وحريق ، وسرقات ، وساءت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد عن أحد كما هي عادة الفتن .
وحج بالناس فيها العباس بن موسى الهاشمي من جهة المأمون . وفيها توفي شعيب بن حرب أحد

الزهاد . وعبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية . وعبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر .
وعثمان بن سمييد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم . ووكيع بن
الجراح الرواسي أحد أعلام الحديثين . مات عن ست وستين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمه بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر . ودخل هرثمة بن أعين من
الجانب الشرقي . وفي يوم الأربعاء ثمان خلون من المحرم وثب خزيمه بن خازم ومحمد بن علي بن
عيسى على جسر بغداد فقطماها ونصبا رايتهما عليه . ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد
الأمين . ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه ، ونادى بالأمان لمن لم
منزله ، وجرت عند دار الرقيق والسكرخ وغيرهما وقعات ، وأحاطوا بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر
زبيدة ، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة ، ورماه بالمنجنيق ، فخرج الأمين بأمه
وولده إلى مدينة أبي جعفر ، وتفرق عنه عامة الناس في الطريق ، لا يلوي أحد على أحد ، حتى دخل
قصر أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمى المنجنيق ، وأمر بتحريق ما كان فيه
من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك ، ثم حصر حصراً شديداً . ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه
على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق
لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول : غير هذا ، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته :

أما ودرب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك * قد انقضى ملكه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً * ليس بفان ولا بمشرك

قال : فسبها وأقامها من عنده فعثرت في قدح كان له من بلور فكسرتة فتطير بذلك . ولما ذهبت
الجارية سمع صارخاً يقول [قضى الأمر الذي فيه تستغنيان] فقال لجليسه : ويحك ألا تسمع ،
فتسمع فلا يسمع شيئاً ، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم
الأحد ، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام يأكله
ولا شراب يبيث إنه جاع ليلة فمات برغيص ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة ، ثم طلب ماء فلم يوجد
له فبات عطشاً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء .

كيفية مقتله

لما اشتد لامر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند ، فشاورهم في أمره فقالت

طائفة : تذهب بمن بقي منك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال . وقال بعضهم
 تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك ، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك
 ويكفي أهلك من أمر الدنيا ، وغاية مرادك الدعة والراحة ، وذلك يحصل لك تماماً . وقال بعضهم : بل
 هرثة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم وهو أحنى عليكم . فقال إلى ذلك ، فلما كانت ليلة
 الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثة أن يخرج إليه ، ثم لبس ثياب الخلافة
 وعليلساناً واستدعى بولديه فشهما وضهما إليه وقال : أستودعكما الله ، ومسح دموعه بطرف كفه ، ثم
 ركب على فرس سوداء وبين يديه شمة ، فلما انتهى إلى هرثة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة ،
 وبلغ ذلك طاهر فغضب من ذلك وقال : أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري ، وينسب
 هذا كله إلى هرثة ؟ فلحقتهما وهما في الحراقة فأمالهما أصحابه فغرق من فيها ، غير أن الأمين سبى إلى
 الجانب الآخر وأسر به بعض الجند . وجاء فأعلم طاهر آفة من إليه جنداً من المعجم فجاءوا إلى البيت
 الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له : ادن مني فاني أجد وحشة شديدة ، وجعل يلتف في
 ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً ، كاد يخرج من صدره . فلما دخل عليه أولئك قال : إنا لله
 وإنا إليه راجعون . ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول : ويحكم أنا ابن
 عم رسول الله (ص) ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي . فلم يلتفتوا إلى شيء من
 ذلك ، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته ،
 ثم جاؤا بكرة إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها . وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر
 من هذه السنة .

شيء من ترجمته

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور ، أبو عبد الله ويقال أبو موسى
 الهاشمي العبّاسي ، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، كان مولده بالرصافة سنة
 سبعين ومائة [قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا عياش بن هشام عن أبيه قال : ولد محمد الأمين بن
 هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة (١)] . وأنته الخلافة بمدينة السلام بغداد ثلاث عشرة
 ليلة بقيت من جهادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقيل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم ، وقتل
 سنة ثمان وتسعين ومائة ، قتله قریش الدنداني ، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على ربح
 وتلاه هذه الآية [قل اللهم مالك الملك] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، وكان
 طويلاً سمينا أبيض أفنى الأنف صغير العينين ، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين . وقد رماه
 بعضهم بكثرة اللعاب والشرب وقلة الصلاة . وقد ذكر ابن جرير طرفاً من سيرته في إكثاره من
 (١) زيادة من المصرية .

قتناء السودان والخصيان ، وإعطائه الأموال والجواهر ، وأمره بإحضار الملاحى والمغنين من سائر
لبلاد ، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس ، وأنفق
على ذلك أموالاً جزيلاً جداً ، وقد امتدحه أبو نواس بشعر أقبح في معناه من صنيع الأمين فانه قال
في أوله :
سخرَ اللهَ للأمين مطايا * لم تسخرَ لصاحبِ الحرايبِ
فاذا ماركا به سرنَ برأ * سارَ في الماءِ راكباً ليث غابِ

ثم وصف كلا من تلك الحراقات . واعتنى الأمين ببنايات هائلة للزينة وغيرها ، وأنفق في ذلك
أموالاً كثيرة جداً . فكثير النكير عليه بسبب ذلك .

وذكر ابن جرير أنه جلس يوماً في مجلس أنفق عليه مالا جزيلاً في الخلد ، وقد فرش له بأنواع
الحريز ، ونضد بآنية الذهب والفضة ، وأحضر ندماء وأمر القهرمانة أن تهى له مائة جارية حسناء
وأمرها أن تبعن إليه عشراً بعد عشر يغنيهن ، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد :
هـمـو قتلوه كي يكونوا مكانه * كما غدرت يوماً بكسرى مراربه
فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس ، وأمر بالقهرمانة أن تلقى إلى الأسد فأكلها .
ثم استدعى بعشرة فاندفعن يغنين :

من كان مسروراً بمقتل مالك * فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه * يلطن قبل تبليج الأسعار
فطردهن واستدعى بعشر غيرهن ، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد :
كايبت لعمري كان أكثر ناصراً * وأيسر ذنباً منك ضرج بالدم
فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحويل ما فيه .

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويعطى عليه الجوائز الكثيرة ، وكان شاعره
أبا نواس ، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حسنا ، وقد وجدته مسجوناً في حبس الرشيد مع الزنادقة
فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجمله من ندمائه ، ثم حبسه مرة أخرى في شرب الخمر وأطال حبسه
ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتي الذكور من المردان فامتنثل ذلك ، وكانت
لا يفعل شيئاً من ذلك بعد ما استنابه الأمين ، وقد تأدب على الكسائي وقرأ عليه القرآن . وروى
الخطيب من طريقه حديثاً أورده عنه لما عزى في غلام له توفي بمكة فقال : حدثني أبي عن أبيه
عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من
مات محرماً حشر ملبياً » .

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة ، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله ، ثم

إلى التضيق عليه ، ثم إلى قتله ، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرمة ، وأنه ألقى في حراقة ثم ألقى منها فسبح إلى الشط الآخر فدخل دار بعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعري ، فحمل الرجل يلقنه الصبر والاستغفار ، فاشتغل بذلك ساعة من الليل ، ثم جاء الطلب وراه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب ، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فتدافعوا عليه وقام إليهم فحمل يدافعهم عن نفسه بمخدة في يده ، فلما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه وأخاصرته بالسيوف ، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما طاهراً ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس ينظرون إليه فوق الرمح عند باب الأنبار ، وكثر عدد الناس ينظرون إليه . ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب ، وبعث معه بالبردة والتضييب والنمل - وكان من خواص مبطن - فسله إلى ذى الرياستين ، فدخل به على المأمون على ترس ، فلما رآه سجد وأمر أن جاء به بألف ألف درهم . وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر : أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به إلينا عقيراً . فقال المأمون : مضى ما مضى . وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع حتى آل الحال إلى ما آل إليه . ولما قتل الأمين هدأت الفتن ونجست الشرور ، وأمن الناس ، وطابت النفس ، ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن ، وأن الله يفعل ما يشاء وبحكم ما يريد ، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى مسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد ، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وبعث موسى وعبد الله ابني الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان ، وكان ذلك رأياً سيديداً . وقد وثب طائفة من الجند على طاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرواحهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال ، فتعزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه وفادوا : يا موسى يا منصور ، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق هناك ، وإذا هو قد سيره إلى عمه . وانحاز طاهر بن معه من القواد فاحية وعزم على قتالهم بن معه ، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندبوا ، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس ، فطابت الخواطر . ثم إن إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورثاه بأبيات ، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنقه ويلومه على ذلك . وقد ذكر ابن جرير مرأى كثيرة للناس في الأمين ، وذكر من أشمار الذين هجوه طرفاً ، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله : —

ملكك الناس قسراً واقتداراً * وقتلت الجسارة الكبارا
ووجهت الخلافة نحو مرو * إلى المأمون تبتدر ابتدارا

خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون

لما قتل أخوه محمد في رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في المحرم ، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون : فولى الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن ، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم ، وكتب إلى طاهر بن الحسين أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث ، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب . وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان . وفيها حج بالناس العباس بن عيسى الهاشمي . وفيها توفي سفيان بن عيينة . وعبد الرحمن ابن مهدي . ويحيى القطان . فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في الحديث والفقه وأسماء الرجال .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة .

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائبا عليها من جهة المأمون ، ووجه نوابه إلى بقية أعماله ، وتوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب . وسار هرثمة إلى خراسان نائبا عليها ، وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذى الحجة منها ، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فجبي الأموال وانتهب الأنعام وطث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة . وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ، يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذي يقال له ابن طباطبا ، وكان القائم بأمره وتدير الحرب بين يديه أبو السرايا الشري بن منصور الشيباني ، وقد اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ، ووفدت إليه الأعراب من نواحي الكوفة ، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان ابن أبي جعفر المنصور ، فبعث الحسن بن سهل يلومه ويؤنبه على ذلك ، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس محبة زاهر بن زهير بن المسيب ، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زاهراً واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه ، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الغد من الوقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة ، يقال إن أبا السرايا ضمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن طالب . وانزل زاهر بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة ، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس ، صورة مدد زاهر ، فالتقوا وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد ، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير في الكوفة ، ونقش عليه (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) الآية . ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا منها من النواب ودخلوها قهراً ، وقويت شوكتهم ، فأم ذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا

فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة
 ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فنهبوا وخربوا ضياعهم ، وفعلوا أفعالا قبيحة .
 وبعث أبو السرايا إلى المداين فاستجابوا ، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس ليقيم لهم
 المرسوم يخاف أن يدخلها جبهة ، ولما سمع فائق مكة - وهو داود بن عيسى بن موسى بن علي بن
 عبد الله بن عباس - هرب من مكة طالبا أرض العراق ، وبقى الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد
 ابن محمد بن الوايد الأزرق أن يصلي بهم - فأي ، فقبل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن الخزومي
 فامتنع ، وقال : إن أدعو وقد هرب نواب البلاد . فقدم الناس رجلا منهم فصلى بهم الظهر والعصر ،
 وبلغ الخبر إلى حسين الأفطس فدخل مكة في عشرة أنفس قبل الغروب فطاف بالبيت ، ثم وقف
 بعرفة ليلا وصلى بالناس الفجر بمردلفة وأقام بقية المناسك في أيام منى ، فدفع الناس من عرفة بغير
 إمام . وفيها توفي إسحاق بن سليمان . وابن نمير . وابن سابور . وعمر والعنبري ، والد مطيع البلخي .
 ويونس بن بكير . ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة

في أول يوم منها جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة مثقلة خلف المقام وأمر بتجريد
 السكبة مما عاينها من كساوي بني العباس ، وقال : نظرها من كساويهم . وكساها ملاءتين صفراوتين
 عليهما اسم أبي السرايا ، ثم أخذ ما في كنز السكبة من الأموال ، وتتبع ودائع بني العباس
 فأخذها ، حتى أنه أخذ مال ذوى المال ويزعم أنه للسودة . وهرب منه الناس إلى الجبال ، وسبك
 ما على رؤس الأساطين من الذهب ، وكان ينزل مقدار يسير بعد جهد ، وقلعوا ما في المسجد الحرام
 من الشبايك وباعوها بالبخس ، وأسافوا السيرة جداً . فلما بلغه مقتل أبي السرايا كنم ذلك وأمر
 رجلا من الطالبين شيخاً كبيراً ، واستمر على سوء السيرة ، ثم هرب في سادس عشر المحرم منها ،
 وذلك لما قهر هرثمة أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبين من الكوفة ، ودخلها
 هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد . وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية ، ثم
 سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزمهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً ،
 وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبي السرايا برأس العين ، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم
 وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالتهران حين طرده الحربية ، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع
 من ذلك جزعاً شديداً وطيف برأسه وأمر بجسده أن يقطع اثنتين وينصب على جسر
 بغداد ، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر . فبعث الحسن بن سهل بن محمد إلى المأمون مع
 رأس أبي السرايا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر ضربة الحسن بن سهل * بسيفك يا أمير المؤمنين

أدارت رؤس أبي السرايا * وأبقت عبرة للعالمينا

وكان الذي في يده البصرة من الطالبين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له زيد النار ، لكثرة ما حرق من البيوت التي للمسودة ، فأسره علي بن سعيد وأمنه وبعث به وبين معه من القواد إلى اليمن لقتال من هناك من الطالبين .

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له الجزار لكثرة من قتل من أهل اليمن ، وأخذ من أموالهم . وهو الذي كان بمكة وفعل فيها ما فعل كما تقدم ، فلما بلغه قتل أبي السرايا هرب إلى اليمن ، فلما بلغ نائب اليمن خبره ترك اليمن وسار إلى خراسان واجتاز بمكة وأخذ أمه منها . واستحوذ إبراهيم هذا علي بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة يطول ذكرها ، ورجع محمد بن جعفر العلوي عما كان بزعمه ، وكان قد ادعى الخلافة بمكة ، وقال : كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك ، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين . ولما هزم هرثة أبا السرايا ومن كان معه من ولاية الخلافة وهو محمد بن محمد بن محمد وشي بعض الناس إلى المأمون أن هرثة راسل أبا السرايا وهو الذي أمره بالظهور ، فاستدعاه المأمون إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام ، وانطوى خبره بالسكاية . ولما وصل خبر قتله إلى بغداد عرفت العامة والحريية بالحسن ابن سهل نائب العراق وقالوا : لا نرضى به ولا بماله بببلادنا ، وأقاموا إسحاق بن موسى المهدي نائباً ، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد ، وأرسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال ، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة . ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفعونها في شهر رمضان ، فزال يعطهم إلى ذى القعدة حتى يدرك الزرع ، فخرج في ذى القعدة زيد بن موسى الذي يقال له زيد النار ، وهو أخو أبي السرايا ، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار ، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمداخلة إذ ذاك فأخذ وأتى به إلى علي ابن هشام ، وأطفا الله ناره .

بعث المأمون في هذه السنة يطلب من بقي من العباسيين ، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، ما بين ذكر و أنث . وفيها قتل الروم ملكهم اليون ، وقد ملكهم سبع سنين ، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه . وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ، لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين . فقتل صبرا بين يديه . وفيها حج بالناس محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

أسباط بن محمد . وأبو ضمرة أنس بن عياض . ومسلم بن قتيبة . وعمر بن عبد الواحد . وابن أبي فديك . ومبشر بن إسماعيل . ومحمد بن جبير . ومساذ بن هشام .

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فيها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك ، فراودوه على أن يكون نائباً للمأمون يدعوه في الخطبة فأجابهم إلى ذلك ، وقد أخرجوا على بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك . وفيها عم البلاء بالاميارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى ، كانوا يأتون الرجل يسألونه مالا يقرضهم أو يضلمهم به فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في منزله ، وربما ترضوا للفلان والنسوان ، ويأتون أهل القرية فيسناقون من الثمن والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من الفلان والنسوان ، ونهبوا أهل قطر بل ولم يدعوا لهم شيئاً أصلاً ، فانتدب لهم رجل يقال له خالد الدريوش ، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان . والنف عليهم جماعة من العامة فكفروا شرهم وقابلوهم ومنعهم من الفساد في الأرض ، واستقرت الأمور كما كانت ، وذلك في شعبان ورمضان . وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند ، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء . وفيها بايع المأمون علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده ، وسماه الرضا من آل محمد ، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة ، فلبسها هو وجنده ، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء ليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وذلك أن المأمون رأى أن عليا الرضا خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في عمله ودينه ، فجعله ولي عهده من بعده .

بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر أن المأمون بايع علي الرضا بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم ، فمن مجيب مبايع ، ومن آب ممانع ، وجهور العباسيين على الامتناع من ذلك ، وقام في ذلك ابن المهدي إبراهيم ومنصور ، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة أظهروا العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك . وكان أسود اللون . ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي ، وخلموا المأمون . فلما كان يوم الجمعة ليلتين بقتنا من ذي الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة : لا تدعوا إلا إلى إبراهيم فقط ، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم ، ولم يصلوا الجمعة ، وصلى الناس فرادى أربع ركعات .

وفيها افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز . وذكر ابن حزم أن سلماً الخامس

قال في ذلك شعرا . وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن سـلماً توفي قبل ذلك بسـين فـلله أعلم .
وفـيها أصـاب أهـل خراسـان والري وأصـهبان بـجاعة شـديدة وغلـا الطـعام جـداً . وفـيها تحـرك بابك
الخرمـي واتبـعه طوائف من السفـلة والـجملـة وكان يـقول بالنـاسخ . وسـيأتـي ما آل أمره إليـه . وفـيها حج
بالنـاس إسـحاق بن مـوسى بن عـيسى الهاشمـي .

وفـيها توفي من الأعيان : أبو أسامة حماد بن أسامة . وحماد بن مسعدة . وحرسى بن عمارة .
وعلى بن عاصم . ومحمد بن محمد صاحب أبي السرايا الذي قد كان بإيمه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا .
ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها يـومع لـابراهيم بن المهدى بالخـلافة ببغداد وخلع المأمون ، فلما كان يوم الجمعة
خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدى المنبر فـمايمه الناس ولقب بالمبارك ، وغلب على الكوفة وأرض
السواد ، وطلب منه الجند أرزاقهم فاطلمهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد ، وكتب لهم بـتـعويـض
من أرض السواد ، فخرجوا لا يـرون بشي إلا انـتهبـوه ، وأخذوا حاصل الفلاح والـسلطان ، واستناب
على الجانب الشرقى العباس بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الغربى إسحاق بن موسى الهادي .
وفـيها خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان ، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم
ابن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده . وفـيها خرج أخو أبي السرايا فبيض بالكوفة
فأرسل إليه إبراهيم بن المهدى من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم ، ولما كان
ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها
عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل ، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب
المأمون ، واقتتلوا قتالاً شديداً . وعلى أصحاب إبراهيم السواد ، وعلى أصحاب المأمون الخفـرة ،
واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب .

وفـيها ظفر إبراهيم بن المهدى بسهل بن سلامة المطوع فسجنه ، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس
يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان
ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة ، وصار باب داره كأنه باب دار السلطان ، عليه السلاح والرجال
وغير ذلك من أهبة الملك ، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة
ثم اختفى في بعض الدور ، فأخذ وجي به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة . وفـيها أقبل المأمون من
خراسان قاصدا العراق ، وذلك أن علي بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن
والاختلاف بأرض العراق ، وبأن الهاشميين قد أنـهـروا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومسجون ،
وأنهم قد نـقمـوا عليك بيدعتك لـعلي بن موسى ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم

ابن المهدي . فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا عليها فيما قال ، بعد أخذهم الأمان منه ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هريرة ، وقد كان ناصحاً لك . فمأجله بقتله ، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فعمد لأعمل له ولائته فنهض في أمر ، وإن الأرض تغتقت بالشرور والفتن من أقطارها . فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ، وقد فطن الفضل بن سهل بما تملاً عليه أولئك الناصحون ، فضرب قوماً وتنفح لحي بعضهم . وسار المأمون فلما كان بسرخس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف ، وذلك يوم الجمعة لليلمتين خلتما من شوال وله ستون سنة ، فبعث المأمون في آثارهم فجئ بهم وهم أربعة من الماليك قتلهم ، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يمزيه فيه ، وولاه الوزارة مكانه ، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمداين ، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون .

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بابنته الأخرى أم الفضل . وحج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي الرضى ، ودعا لأخيه بعد المأمون ، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن ، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن علي بن موسى بن ماهان . وفيها توفي : أيوب بن سويد . وضمرة . وعمر بن حبيب . والفضل بن سهل الوزير . وأبو يحيى الحماني .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين .

فيها وصل المأمون العراق ومصر بطرس فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر ، فلما كن في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنباً فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد ، وأمدف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر ، وكتب إلى الحسن بن سهل يمزيه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه ، وكتب إلى بني العباس يقول لهم : إنكم إنما نتمم علي بسبب توليتي العهد من بعد علي بن موسى الرضى ، وما هو قد مات فارجموا إلى السمع والطاعة . فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحمد . وفيها تغلبت الثوار على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت ، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون ، فكتب إليهم إني واصل علي إثر كتابي هذا . ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد ، وتنكروا عليه وأبغضوه . وظهرت الفتن والشرار والنفاق ببغداد وتفاقم الحال ، وصلوا يوم الجمعة ظهراً ، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة ، صلوا أربع ركعات ، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأوئية عليهم .

خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس المأمون وخلصوا إبراهيم ، وأقبل حميد بن عبد الحميد في جيش

من جهة المأمون فحاصر بغداد . وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون .
وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي ، ثم احتال عيسى حتى
صار في أيدي المأمونية أسيراً ، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة .
وكانت أيامه سنة واحد عشر شهراً واثني عشر يوماً . وقدم المأمون في هذا الوقت إلى همدان
وجيوشه قد استنقذوا بغداد إلى طاعته . وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان
ابن علي . وفيها توفي من الأعيان :

علي بن موسى

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، القرشي الهاشمي العلوي الملقب
بالرضي ، كان المأمون قد علم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك ، فجعله ولي العهد من بعده كما
قدمنا ذلك . توفي في صفر من هذه السنة بطوس . وقد روى الحديث عن أبيه وغيره ، وعنه جماعة
منهم المأمون وأبو السلط المرزوقي وأبو عثمان المازني النحوي ، وقال سمعته يقول : الله أعدل من أن
يكلف العباد مالا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . ومن شعره :

كلنا يأملُ مدأً في الأجل * والمنايا هنَ آفاتُ الأملِ
لا تغرنكُ أباطيلُ المني * والزمِ القصدَ ودعْ عنك العمالِ
إنما الدنيا كظلي زائلٍ * حلُ فيه راكبٌ ثم ارتحلُ

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق ، وذلك أنه مر بجرجان فأقام بها شهراً ، ثم سار منها وكان
ينزل في المنزل يوماً أو يومين ، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام ، وقد كتب إلى طاهر بن
الحسين وهو بالركة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه بها وتلقاه رؤس أهل بيته والقواد وجهور الجيش ،
فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد حين ارتفع النهار لأربع عشرة ليلة خلت من صفر ، في
أبهة عظيمة وجيش عظيم ، وعليه وعلى جميع أصحابه وفتيانه الخضر ، فلبس أهل بغداد وجميع
بنو هاشم الخضر ، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصر علي دجلة ، وجعل الأمراء ووجوه
الدولة يترددون إلى منزله على العادة ، وقد تحول لباس البغادبة إلى الخضر ، وجعلوا يحرقون كل
ما يجذونه من السواد ، فسكنوا كذلك ثمانية أيام . ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين ، فكان
أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد ، فانه لباس آباءه من دولة ورثة الأنبياء . فلما كان
السبت الآخر وهو الثامن والعشرين من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضر ، ثم إنه أمر بخملة
سوداء فألبسها طاهراً ، ثم ألبس بمهده جماعة من الأمراء السواد ، فلبس الناس السواد وعادوا إلى

ذلك ، فلم منهم بذلك الطاعة والموافقة ، وقيل إنه مكث يلبس الخضر بعد قدومه بغداد سبعا وعشرين يوماً ، فأنه أعلم .

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ، فأخذ في الاعتذار والاستغفار ، ثم قال : أنا الذي مننت عليه يا أمير المؤمنين بالعفو ، وأنشد المأمون عند ذلك :

ليس يزري السواد بالرجل الشهم * ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن للسواد منك نصيب * فببياض الأخلاق منك نصيب

قال ابن خلدون : وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلاؤنس الاسكندري

فقال : رب سواد وهي بياض فعل * حسد المسك عندها الكافور

مثل حب العيون بحسبه الناس * سواداً وإنسا هو نور

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فتم قال له أحمد بن خالد الوزير الأحمول : يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك ، وإن عفوت عنه فإليك أنصار . ثم شرع المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره ، وسكنت الفتن والنزاحات الشريرة ، وأمر بتقسمة أهل السواد على الحسين ، وكانوا يقسمون على النصف . واتخذ القفيز الملاحم وهو عشرة مكاي بالملك الأهوازي ، ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى ، ورفق بالناس في مواضع كثيرة ، وولى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولى أخاه صالحاً البصرة ، وولى عبيد الله بن الحسين ابن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين ، وهو الذي حج بالناس فيها . وواقع يحيى بن معاذ بابك الخرمي فلم يظفر به . وفيها توفي من الأعيان جماعة منهم :

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

وقد أوردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين ، ولندكر ههنا مأخذاً من ذلك وبالله المستعان .

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، القرشي المطلب ، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر ، وابنه شافع ابن السائب من صفار الصحابة ، وأمه أزدية . وقد رأت حين حملت به كأن المشنبر يخرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع في كل بلد منه شظية . وقد ولد الشافعي بقرية ، وقيل بمسقلان ، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، ومات أبوه وهو صغير ، لأنه أمه إلى مكة وهو ابن سنتين ، لا يصبح نسبه ، فذشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وأفتى وهو ابن

خمس عشرة سنة . وقيل ابن ثمانى عشرة سنة ، أفن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي ، وعنى باللغة والشعر ، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها ، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبه قراءته وسمته ، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي . وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماء مرتبين على حروف المعجم ، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله (ص) عن جبريل عن الله عز وجل .

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، منهم عمرو بن علي وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . وكاهم عن رسول الله (ص) . وتفقه أيضاً على مالك عن مشايخه ، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد . وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ، ثم تعصبوا عليه وشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة . فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد ، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن ، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين ، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقر بغيره ، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه ، ثم عاد الشافعي إلى العراق في سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرابيسي ، والطاهر بن شريح البقال ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، والزعفراني ، وغيرهم . ثم رجع إلى مكة ثم رجع إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة ، سنة أربع ومائتين . وصنف بها كتابه الأم وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع ابن سليمان ، وهو مصري . وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم ، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم .

وقد أتني على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له الرسالة ، وكان يدعو له في الصلاة دائماً ، وشيخه مالك بن أنس وقتيبة ابن سعيد . وقال : هو إمام . وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وكلن يدعو له أيضاً في

صلاته . وأبو عبيد ، وقال : ما رأيت أفصح ولا أعتل ولا أورع من الشافعي . ويحيى بن اكنم القاضي ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن ، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم .

وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة ، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود من طريق عبيد الله بن وهب عن سميد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي غلقة عن أبي هريرة عن النبي (ص) : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال فخر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، والشافعي على رأس المائة الثانية . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا جعفر بن سليمان عن نصر بن معبد الكندي - أو العبدى - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبيد الله بن مسعود قال قال رسول الله (ص) : « لا تسبوا قرىشان عالها بملأ الأرض علماً ، اللهم إنك إذ أذقت أولها عذاباً وودبالاً فأذق آخرها نوالاً » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي (ص) بنحوه .

قال أبو ليمع عبد الملك بن محمد الأسفراييني : لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي . حكاه الخطيب . وقال يحيى بن معين عن الشافعي : هو صدوق لا بأس به . وقال مرة : لو كان الكلب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنحه أن يكذب . وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : الشافعي فقيه البدين ، صدوق اللسان . وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال : ما عند الشافعي حديث غلط فيه . وحكى عن أبي داود نحوه .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعي ؟ - فقال : لا . ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها ، وتارة مرسله ، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم . وقال حرمله : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة . وقال أبو ثور : ما رأينا مثل الشافعي ولا هو رأى مثل نفسه . وكذا قال الزعفراني وغيره . وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه ، وصحة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف ، وجودة الأصحاب والتلامذة ، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه ، وإقامته على السنة . ثم سرد أعيان أصحابه من البغاددة والمصريين ، وكذا عبد أبو داود من جهة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل . وقد كان الشافعي من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة ، وأشد الناس نزاعاً للدلائل منهما ، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً ، كان يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إليّ شيء منه أبداً فأوجر عليه ولا يحمدونى . وقد قال غير واحد عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله (ص) ، فقولوا به ودعوا قولى ، فأنى أقول به ، وإن لم تسمعوا منى .

وفي رواية فلا تقلدوني . وفي رواية فلا تلتفتوا إلى قولي . وفي رواية فاضربوا بقولي عرض الحائط ، فلا قول لي مع رسول الله (س) . وقال : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء . وفي رواية خير من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : لو علم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجرید ، ويطاف بهم في القبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطی : سمعت الشافعي يقول : عليكم بأصحاب الحديث فانهم أكره الناس صواباً . وقال : إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله (س) ، جزاء الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل . ومن شعره في هذا المعنى قوله :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة * إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سوى ذا . وسواس الشياطين

وكان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر . وقد روى عن الربيع وغير واحد من رؤس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، على طريقة السلف . وقال ابن خزيمة : أنشدني المزني وقال أنشدنا الشافعي لنفسه قوله :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ * وما شئتَ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت * ففي العلم يجري الفتي والمسئ
فهم شقي ومنهم سعيد * ومنهم قبيح ومنهم حسن
على ذا مننت وهذا خذلت * وهذا أعنت وذا لم تمن

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : أفضل الناس بعد رسول الله (س) ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي . وعن الربيع قال : أنشدني الشافعي :

قد عوج الناس حتى أحدثوا بآعاً * في الدين بال رأي لم تبعث بها الرسل
حتى استخف بحق الله أكثرهم * وفي الذي حملوا من حق شغل

وقد ذكرنا من شعره في السنة وكلامه فيها وفيما قال من الحكم والمواظط طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية . وقد كانت وفاته بعصر يوم الخميس ، وقيل يوم الجمعة ، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، وعن أربع وخمسين سنة ، وكان أبيض جميلاً طويلاً مهيباً يخضب بالحناء ، مخالفاً لاشيعة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفيهما توفي : إسحاق بن الفرات ، وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي . والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي . وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند ، أحد الحفاظ . وأبو بدر شجاع بن الوليد . وأبو بكر الحنفي . وعبد الكريم . وعبد الوهاب بن عطا الخفاف . والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أحد علماء التاريخ .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فبها ولي المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق ، ورضي عنه ورفع منزلته جداً ، وذلك لأجل مرض الحسن بن سهل بالسواد . وولي المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ . وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة ، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث . وولي المأمون عيسى ابن يزيد الجلودى مقاتلة الزط . وولي عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان . ومات نائب مصر السري بن الحكم بها ، وتائب السند داود بن يزيد ، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم . وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي من الأعيان : إسحاق بن منصور السلولى . وبشر بن بكر الدمشقي . وأبو عامر العقدي . ومحمد بن عبيد الطنافسي . ويهقوب الحضري . وأبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية ، وقيل عبد الرحمن ابن أحمد بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني ، أحد أئمة العلماء العاملين ، أصله من واسط سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا .

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره ، وروى عنه أحمد بن أبي الخوارى وجماعة . وأسند الحفاظ ابن عساكر من طريقه قال : سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول سمعت إبراهيم بن أدهم يقول سمعت ابن عجلان يذكر عن القمقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ص : « من صلى قبل الظهر أربعمائة غفر الله ذنوبه يومه ذلك » . وقال أبو القاسم القشيري : حكى عن أبي سليمان الداراني قال : اختلفت إلى مجلس قاص فآثر كلامه في قلبي ، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت إليه ثانية فآثر كلامه في قلبي بعد ما قمت وفي الطريق ، ثم عدت إليه ثالثة فآثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي ، فكسرت آلات الخالقات ولزمت الطريق ، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركيا - يعني بالعصفور القاص والكركي - أبا سليمان - وقال أحمد بن أبي الخوارى سمعت أبا سليمان يقول : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر ، فإذا سمع به في الأثر عمل به فكان نوراً على نور . وقال الجنيد قال أبو سليمان ربما يقع في قلبي الشكنة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهد بن عدلين : الكتاب والسنة .

قال : وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس . وقال لكل شئ علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله . وقال : لكل شئ صداً وصداً نور القلب شبع البطن . وقال كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم . وقال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان فغلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعوبها ، وغلبتني عيني فتمت فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها . قال : فأليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان ، حرّاً كان أو برداً . وقال : نمت ليلة عن وردى فإذا أنا بحوراء تقول لي : تنام وأنا أربي لك في النذور منذ خمسمائة عام ؟ وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الخور ، يلشئ الله خلق الحوراء إنشاءً ، فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهم الخيام ، الواحدة منهن جالسة على كرسى من ذهب ميل في ميل ، قد خرجت مهيئتها من جانب الكرسى ، فيجئ أهل الجنة من قصورهم ينزفون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤوا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن . قال أبو سليمان : كيف يكون في الدنيا حال من يريد اقتضاض الأبقار على شاطئ تلك الأنهار في الجنة .

وقال : سمعت أبا سليمان يقول : ربما مكثت خمس ليالٍ لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل ، فسبحان من يرد به . وسمعت يقول : أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال لي يوماً : يا أحمد جوع قليل وعري قليل وفقر قليل وصبر قليل وقد انتقضت عنك أيام الدنيا . وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح فجثته به فعض منه عضه ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول : يارب عجات لي شهوتي ، لقد أطمت جهدي وشقتني وأنا نائب ؟ فلم يذق الملح حتى لحق بالله عز وجل . قال : وسمعت يقول : ما رزيت عن نفسي طرفة عين ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضموني كاتضاعى عند نفسي ما قدروا . وسمعت يقول : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وسمعت يقول : من حسن ظنه بالله ثم لم يخفه ويطمه فهو مخدوع . وقال : يلبنى للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء ، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب . وقال لي يوماً : هل فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم - يعني الرضا - فصرخ صرخة غشى عليه ثم أفاق فقال : إذا كان الصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، فما ظنك بالآخرى وهم الذين رضى عنهم . وقال : ما يسرنى أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقته في وجوه البر ، وإني أغفل عن الله طرفة عين . وقال : قال زاهد زاهد : أوصني ، فقال : لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، فقال : زدني . فقال : ما عندي زيادة . وقال من أحسن في نهاره كوفي في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفي في نهاره ، ومن صدق في

ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يمنب قلباً بشهوة تركت له . وقال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ، وإذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الدنيا لثيمة والآخرة كريمة ، وما ينبغي للكريم أن يراحم اللثيمة . وقال أحمد بن أبي الخوارى : بت ليلة عند أبي سليمان فشعته يقول : وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بمذكوك ، وإن طالبتني ببخلى لأطالبنك بكرمك ، وإن أمرتني إلى النار لأخبرن أهل النار أنني أحبك . وكان يقول : لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي . وكان يقول : ما خلق الله خلقاً أهون عليّ من إبليس ، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه . أتعوذت منه أبداً ، ولو تبدى لي ما علمت إلا صفحة وجهه . وقال : إن الالص لا يجيئ إلى خربة ينتب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أى مكان شاء ، وإنما يجيئ إلى البيت الممور ، كذلك إبليس لا يجيئ إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله وينزله عن كرسيه ويسلبه أعز شئ . وقال : إذا أخلص المهد انقطعت عنه الوسوس والرؤيا . وقال : الرؤيا سيمى الجنابة . وقال : مكثت عشرين سنة لم أحتمل فدخلت مكة فماتتني صلاة المشاء جماعة فاحتلت تلك الليلة . وقال : إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنده فكيف يشغلون بالدنيا عنه ؟ وقال : الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها ، وإنما الزهد في الجنان والحوار العين ، حتى لا يرى الله في قلبك غيره . وقال الجنيد : شئ يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : خير السخاء ما وافق الحاجة . وقال : من طلب الدنيا حلالاً واستغناء عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه وجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالاً وما خيراً ومكائراً لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان . وقد روى نحو هذا مرفوعاً . وقال : إن قوماً طلبوا الفنى في المال وجمعه فأخطأوا من حيث ظنوا ، ألا وإنما الفنى في القناعة ، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة ، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى ، وطلبوا التنعم في اللباس الرقيق اللين ، والطعام الطيب ، والمسكن الأنيق المنيف ، وإنما هو في الاسلام والايمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله . وقال : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكرى الأنهار . وإنما أحبها لصيام المواجر وقيام الليل . وقال : أهل الطاعة في ليالهم أذن من أهل اللهو في لحوهم . وقال : ربما استقبلني الفرح في جوف الليل ، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً . وقال : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم انى عيش طيب .

وقال أحمد بن أبي الخوارى : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فاذا

أنا بها - يعنى الحوراء - قد ركضتني برجلها فقالت : حبيبي أترقد عينك والملك يقظان ينظر إلى المتبهجين في تهجدهم ؟ بؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضا ، فما هذا الرقاد ؟ حبيبي ورقة عيني أترقد عينك وأنا أترقب لك في الحدور منذ كذا وكذا ؟ قال : فوثبت فزعا وقد عرقت حياه من توبيعها إياي ، وإن حلاوة منطقتها لي سمي وقلبي . وقال أحمد : دخلت على أبي سليمان فاذا هو يبكي فقلت : مالك ؟ فقال : زجرت البارحة في منامي . قلت : ما الذي زجرك ؟ قال : بينا أنا نائم في محرابي إذ وقعت على جارية تفوق الدنيا حسنا ، وبيدها ورقة وهي تقول : أتنام يا شيخ ؟ فقلت : من غابت عينه نام قالت : كلا إن طالب الجنة لا ينام ، ثم قالت : أقرأ ؟ قلت : نعم ، فأخذت الورقة من يدها فاذا فيها مكتوب :

لمت بك لذة عن حسن عيش * مع الخيرات في غرف الجنان
تعيش مخلدا لا موت فيها * وتنعم في الجنان مع الحسان
تتقظ من منامك إن خيرا * من النوم التهجد في القران

وقال أبو سليمان : أما يستحي أحدكم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟ وقال أيضا : لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه ، فاذا لم يبق في قلبه شيء من الشهوات جازله أن يظهر إلى الناس الزهد بلبس العبا فانها علم من أعلام الزهاد ، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم زهده من لبس العبا . وقال : إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي ، وخيار هذه الأمة أصحاب القطن ، أبو بكر الصديق وأصحابه ، وقال غيره : إذا رأيت ضوء الفقير في لباسه فاغسل يديك من فلاحه . وقال أبو سليمان : الأخ الذي يعطاك برؤيته قبل كلامه ، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابي بالعراق فأنتفع برؤيته شهرا . وقال أبو سليمان قال الله تعالى : عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك الحساب يوم القيامة . وقال أحمد : سألت أبا سليمان عن الصبر فقال : والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف تقدر عليه فيما تكره ؟ وقال أحمد تنهدت عنده يوما فقال : إنك مسؤول عنها يوم القيامة ، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك . وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل وصول ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا . وقال إنما عصي الله من عصاه لموانهم عليه ، ولو عزوا عليه وكرموا لحجزهم عن مفاصيه وحال بينهم وبينها . وقال : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالا الكرم والحلم والعلم والحكمة والرأفة والرحمة والفضل والصفح والاحسان والبر والعفو واللطف .

وذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب محن المشايخ أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق

وقالوا : إنه يرى الملائكة ويكلمونه ، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل الشام في منامه أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا . فخرجوا في طلبه وتشفعوا له وتذللوا له حتى رده .

وقد اختلف الناس في وفاته على أقوال فقيل : مات سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة خمس ومائتين ، وقيل خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين فله أعلم . وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان : لقد أصيب به أهل الإسلام كاهم . قلت : وقد دفن في قرية داريا في قبلتها ، وقبره بها مشهور وعاليه بناء ، وقبائه مسجد بناه الأمير فاضل الدين عمر النهرواني ، ووقف على المقيمين عنده وقفاً يدخل عليهم منه غلة ، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أرا ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالسكينة ، وهذا منه عجيب . وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الحواري قال كنت أشتبه أن أرى أباسليمان في المنام فرأيت أنه بعد سنة فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حمل شيخ فأخذت منه عوداً فما أدري تخلت به أوريته ، فأنا في حسابه إلى الآن . وقد توفي ابنه سليمان بعده بنحو من سنتين رحمهما الله تعالى

ثم دخلت سنة ست ومائتين

فبها ولي المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة والنجاة والبحرين ، وأمره بمحاربة الزط . وفيها جاء مد كثير ففرق أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً . وفيها ولي المأمون عبد الله ابن طاهر بن الحسين أرض الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث ، وذلك أن نائبها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يرض ذلك المأمون ، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأموور ، وحنه على قتال نصر بن شبث ، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة . وقد ذكره ابن جرير بطوله ، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه ونهادوه بينهم ، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فترى بين يديه فاستجاده جنداً ، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال في الأقاليم . وحج بالناس عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي إسحاق بن بشر السكاهلي أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ . وحجاج بن محمد الأعور . وداود بن الحبر الذي وضع كتاب المقل . وسبابة بن سوار (شهابية) ومناضر بن الموردي . وقطرب صاحب المثلث في اللغة . ووهب بن جرير . وبزيد بن هارون شيخ الامام أحمد .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

فبها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، وذلك لما أساء العمال السيرة وظلموا الرعايا ، فلما ظهر بإيعه الناس فبعث إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع

، أطاع ، فحضروا الموسم ثم ساروا إلى اليمن وبعثوا بالكتاب إلى عبد الرحمن فسمع وأطاع وجاء حتى وضع يده في يد دينار ، فساروا به إلى بغداد ولبس السواد فيها .

وفي هذه السنة توفي طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخراسان بكاملها ، وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلى العشاء الآخرة والنف في الفراش ، فاستقبل أهل خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً ، فلما بلغ موته المأمون قال : لا يدين ولانم الحمد لله الذي قدمه وأخرنا . وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع المأمون فوق المنبر ، ومع هذا ولي ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولاه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين ، ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد ، وكان نائبه على بغداد إسحاق ابن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله ، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فتضاهاه ، ثم نظر إليه المأمون واغمر ورقت عيناه فقال له طاهر : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يخبره ، فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فأخبره المأمون وقال لا تخبر به أحداً (أو إلا) أفنك ، إني ذكرت قتله لأخى وما ناله من الإهانة على يدى طاهر ، والله لا تغوته مني . فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يدي المأمون ، ولم يزل حتى ولاه خراسان وأطلق له خادماً من تخدامه ، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريه أن يسمه ، ودفع إليه سماً لا يطاق . فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون سمه الخادم في كاخ فأت من ليلته . وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين ، وكان أعور بفرد عين . فقال فيه عمرو بن نباتة :

يا ذا اليمينين وعين واحدة * نقصان عين ويمين زائدة

واختلف في معنى قوله ذو اليمينين ف قيل لأنه ضرب رجلاً بشماله ففقد نصفين ، وقيل لأنه ولي العراق وخراسان . وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعراء ويعطيهم الجزيل ، ركب يوماً في حراقة فقال فيه شاعر : -

عجبت لحراقة ابن الحسين * لا غرقت كيف لا تفرق

وبحران من فوقها واحدة * وآخر من نحبها مطبق

وأعجب من ذلك أعوادها * وقد مشها كيف لا تورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار . وقال إن زدتنا زدناك . قال ابن خلدكان : وما أحسن ما قاله بعض

الشعراء في بعض الرؤساء وقت كتب البحر :

ولما امتلأ البحر ابتهلت نضرعاً * إلى الله يا بحري الرياح بلطفه

جملت النداء من كنه مثل وجهه * فسلمه واجمل موجه مثل كفه

مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لحس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين ، وكان مولده سنة سبع وخمسين ، وكان الذي سار إلى ولده عبد الله إلى الرقة يعزیه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد ، القاضي يحيى بن أكنم عن أمر المأمون . وفيها غلا السمر ببغداد والكوفة والبصرة ، حتى بلغ سمر القنيز من الخنطة أربعين درهما . وفيها حج بالناس أبو علي بن الرشيد آخر المأمون . وفيها توفي بشر بن عمر الزهراني . وجمهر بن عون . وعبد الصمد بن عبد الوارث . وقراد ابن نوح . وكثير بن هشام . ومحمد بن كناسة . ومحمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي . وأبو النضر هاشم بن القاسم . والهيثم بن عدي صاحب التصانيف .

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور

أبو زكريا الكوفي نزيل بغداد مولى بني سعد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء ، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو ، وروى الحديث عن حازم بن الحسن البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك . قال : « قرأ رسول الله ص ، وأبو بكر وعمر وعثمان مالك يوم الدين بألف » رواه الخطيب قال : وكان ثقة إماماً . وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملأه وكتبه الناس عنه ، وأمر المأمون بكتبه في الخزان ، وأنه كان يؤدب ولديه ولي العهد من بعده ، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم عليه ، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما أملاً ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار ، والفراء عشرة آلاف درهم . وقال له : لا أعز منك اذ يقدم عليك ولدا أمير المؤمنين ووليا العهد من بعده . وروى أن بشر المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهو فقال : لا شيء عليه . قال : ولم ؟ قال : لأن أصحابنا قالوا المصنر لا يصفر . فقال : ما رأيت أن امرأة تلد مثلك . والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء ، وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : توفي الفراء سنة سبع ومائتين . قال الخطيب : كانت وفاته ببغداد ، وقيل بطريق مكة ، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته .

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر طاراً من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهرآ ، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه . وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولى مكانه إسماعيل بن حاد بن أبي حنيفة . وفيها ولى المأمون محمد بن عبد الرحمن الخزومي القضاء بمسكن المهدي في شهر المحرم ، ثم عزله عن قريب وولى مكانه بشر بن سعيد بن الوليد الكندي في شهر ربيع الأول منها . فقال الخزومي في ذلك : -

ألا أيها الملك الموحّد ربّه • قاضيك بشر بن الوليد حمار
ينفى شهادة من يدين بما بر • نطق الكتاب وجاءت الأخبار
ويمدّ عدلاً من يقول بانه • شيخ تحيط بجسمه الأقطار
وفيهما حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون .

وفيهما توفي من الأعيان : الأسود بن عامر . وسعيد بن عامر . وعبد الله بن بكر أحمد مشايخ
الحديث . والفضل بن الربيع الحاجب . ومحمد بن مصعب . وموسى بن محمد الأمين الذي كان قد
ولاه العهد من بعده ولقبه بالناطق فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم . ويحيى بن
أبي بكر . ويحيى بن حسان . ويعقوب بن إبراهيم الزهري . ويونس بن محمد المؤدب .

وفاة السيدة نفيسة

وهي نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، القرشية الهاشمية ،
كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين ، ثم غضب المنصور عليه فمزله عنها وأخذ
منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها ، وأودعه السجن ببغداد . فلم يزل به حتى توفي المنصور
فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه ، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة ، فلما
كان بالحاجر توفي عن خمس وثمانين سنة . وقد روى له النسائي حديثه عن عكرمة عن ابن عباس
« أن رسول الله (ص) ، احتجم وهو محرم » . وقد ضمه ابن معين وابن عدي ، ووثقه ابن حبان .
وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته . والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار
المصرية مع زوجها المؤمن إسحاق بن جعفر ، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنّت إلى الناهي والجذمي
والزمني والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير . ولما ورد الشافعي مصر أحسنت
إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان . وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت
عليه . ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فنعمه أهل مصر من
ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم ، فدفنت في المنزل الذي كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب
السباع بين مصر والقاهرة ، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان .
قال : ولأهل مصر فيها اعتقاد . قلت : وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً
جداً ، ولا سيما عوام مصر فاتهم يطلقون فيها عبارات بشيمة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ،
واللفظ كثيراً ينبئ أن يعرفوا أنها لا تجوز . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من
سلالته . والذي ينبئ أن يعتد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من
المغالاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي (ص) ، بتسوية القبور وطمسها ، والمغالاة في البشر حرام .

ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك . رحمها الله وأكرمها .

الفضل بن الربيع

ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان ، كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد ، وكان زوال دولة البرامكة على يديه ، وقيد وزير مرة للرشيد ، وكان شديد التشبه بالبرامكة ، وكانوا يتشبهون به ، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا كما تقدم . وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه ، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة ، فجمعهم الفضل بن الربيع وقال : ارجعن خائبات خاسرات ثم نهض وهو يقول :

عَسَى وَعَسَى يَتْنِي الزَّمَانُ عِثَانَهُ * بتصرف حال الزمان عثور

فَتَقْضَى لِبَائَاتٍ وَتَشْفَى حَزَانَتُهُ * وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له : أقسمت عليك لما رجعت ، فأخذ منه القصص فوقع عليها . ثم لم يزل يحفر خافهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

ما رعى الدهر آلَ برمكٍ لما * أن رمى ملكهم بأمرٍ فظيع

إن دهرآ لم يرعُ ذمّةَ يحيى * غير راعٍ ذمّام آل الربيع

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمته ، ثم لم يزل خاملاً حتى مات في هذه السنة ، وله ثمان وستون سنة . ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شيبث بعد ما حارب به خمس سنين وضيق عليه جداً حتى أُلجأ إلى أن طلب منه الأمان ، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك ، فأرسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين . فكتب له كتاب أمان فترّل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها ، وذهب شره . وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الأسلام وأحد مقدمي العساكر ، فاشتد ذلك على المسلمين . وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة . وفيها توفي ملك الروم ميخائيل بن تقيفور (جرجس) وكان له عليهم تسع سنين ، فلكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

وفيها توفي من مشايخ الحديث : الحسن بن موسى الأشيب ، وأبو علي الحنفي . وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور . وعثمان بن عمر بن فارس . ويعلى بن عبيد الطنافسي .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شيبث بغداد ، بعثه عبد الله بن طاهر فدخلها ولم يتلقاه أحد من

الجنبدل دخلها وحده ، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر . وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فمأقهم وحبسهم في المطبق ، ولما كان ليلة الأحد ثلاث عشرة من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي - وكان مخنفياً مدة ست سنين وشهوراً متنكباً في زى امرأة ومعه امرأتان - في بعض دروب بغداد في أثناء الليل ، فقام الحارس فقال : إلى أين هذه الساعة ؟ ومن أين ؟ ثم أراد أن يسكن فأعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت ، فلما نظر إليه استراب وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن ، فذهب بهن إلى متولى الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن ، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فاذا هو هو ، فعرفه فذهب به إلى صاحب الجسر فسله إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون ، فأصبح في دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس ، وليعلموا كيف أخذ . فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراص عليه مدة ، ثم أطلقه ورضى عنه . هذا وقد ضلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن ، فضلب منهم أربعة .

وقد ذكروا أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون أبى على ما كان منه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً ، وقال : يا أمير المؤمنين إن تماقب فبحقك ، وإن تمف فبفضلك . فقال : بل أعفوا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل ، وهو أكبر مما تسأله ، فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل .

وقد امتدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها ، فلما سمعها المأمون قال : أقول كما قال يوسف لأخوته [لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين] وذكر ابن عساكر أن المأمون لمدة عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يقنيه شيئاً فقال : إني تركته . فأمره فأخذ الفود في حجره وقال : هذا مقام سرور خربت منازل ودورة • نمت عليه عداته كذباً فدأبه أميره ثم عاد فقال :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت عني • لوى الدهر بي عنها وولى بها
فإن أبكر نفسي أبكر نفساً عزيزة • وإن أحتقرها أحتقرها على ضغن
وإني وإن كنتُ المسيءَ بعين • فأني بربي موقنٌ حسن الظن
عدوتُ على نفسي فنادَ بمقوم • علي فنادَ العفو منك على من

قتل المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً ، فرمى الفود من حجره ووثب قائماً فرحاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون : اجلس واسكن مرحباً بك وأهلاً ، لم يكن ذلك لشئ تنوهم ، والله لا رأيت طول أيامي شيئاً تنكره . ثم أمر له بمشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ثم أمر له برذ جميع

ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه ، وخرج من عنده مكرماً معظماً .

عمر بن لؤي

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وقيل إنه خرج في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفهم الصلح ، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم ، فدخل ببوران في شوال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع المنبر ، ونثر على رأسه الدر والجوهر ، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر . وكان عدد الجوهر منه ألف درة ، فأمر به لجمع في صينية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نثرناه لتتلقطه الجوارى ، فقال : لا أنا أعرضهن من ذلك ، لجمع كله ، فلما جاءت العروس ومعها جدتها زبيدة أم أخيه الأمين - من جملة من جاء معها - فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال : هذا نحلة مني إليك وسلي حاجتك ، فأطرقت حياء . فقالت جدتها : كلّي سيدك وسلي حاجتك فقد أمرك . فقالت : يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي ، وأن ترده إلى منزله التي كان فيها ، فقال : نعم ، قالت : وأم جعفر - تعني زبيدة - تأذن لها في الحج . قال نعم ، فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأميرية وأطلقت له قرية مقورة . وأما والد العروس الحسن بن سهل فانه كتب أسماء قراء وضياعه وأملأه في رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس ، فن وقعت بيده رقعة في قرية منها بعث إلى القرية التي فيها نوابه فسلمها إليه ملكاً خالصاً . وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة إقامته عنده سبعة عشر يوماً ما يعادل خمسين ألف ألف درهم . ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه البلاد الذي هو نازل بها ، وهو إقليم قم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الاقطاعات . ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة . وفي هذه السنة ركب عبيد الله بن طاهر إلى مصر فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السري بن الحكم المتقلب عليها ، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها . وفيها توفي من الأعيان أبو عمرو الشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مراد . ومروان بن محمد الطاطري . ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

فيها توفي أبو الجواب . وطلق بن غنام . وعبيد الرزاق بن همام الصنعائي صاحب المصنف والمسند . وعبد الله بن صالح المعجلي .

أبو العتاهية الشاعر المشهور

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز ، وقد كان تمشق جارية المهدي

اسمها عتبة ، وقد طلبها منه غير مرة فاذا سمح له به لم ترده الجارية ، وتقول للخليفة : أتعطيني لرجل
ديم الخلق كان يبيع الجرار ؟ فكان يكثر الشغل فيها ، وشاع أمره واشتهر بها ، وكان المهدي
يفهم ذلك منه . واتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه وكان فيهم أبو
العتاهية وشاربن برد الأعمى ، فسمع صوت أبي العتاهية . فقال بشار الجليسي : أتم ههنا أبو العتاهية ؟
قال : نعم . فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها :

ألا ما لسيدي مبالها * أدلت فأجسل إدلالها

فقال بشار الجليسي : ما رأيت أجسر من هذا . حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله :

أتته اللافة منقادة * إليز تجرز أذيالها

فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها

ولورامها أحد غيره * لزلات الأرض زلزالها

ولولم تطامع بنات القلوب * لما قبل الله أعمالها

فقال بشار الجليسي : انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فوالله ما خرج أحد من
الشعراء يومئذ بجائزة غيره . قال ابن خلكان : اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس - وكان في طبقة
وطبة بشار - فقال أبو العتاهية لأبي نواس : كم تعمل في اليوم من الشعر ؟ قال : بيتاً أو بيتين .
فقال : لكني أعمل المائة والمائتين . فقال أبو نواس : لملك تعمل مثل قولك :

يا عتب مالي ولك * يا ليتني لم أرك

ولو عملت أنا مثل هذا لعملت الألف والألفين وأنا أعمل مثل قولي :

من كف ذات حر في زئي ذي ذكر * لها محبات : لوطي وزنائه

ولو أردت مني لأعجزك الدهر . قال ابن خلكان : ومن لطيف شعر أبي العتاهية :

إني صهوت إليك * حتى صرت من فرط التصابي

يجد الجليس إذا دنا * ربح التصابي في ثيابي

وكان مولده سنة ثلاثين ومائة . وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل
ثلاث عشرة ومائتين ، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد :

إن عيشاً يكون آخره الموت * لم يش معجل التنخيص

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض
أدر بيجان ، فأخذ جماعة من الملتزمين عليه فبعث بهم إلى المأمون . وفي ربيع الأول أظهر المأمون

في الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطم من الأخرى ، وهي القول بخلق القرآن ، والثانية تفضيل
على بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله . . . وقد أخطأ في كل منهما خطأ كبيراً فاحشاً ،
وأثم إنهما عظيماً . وفيها حجج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي . وفيها توفي أسد بن
موسى الذي يقال له أسد السنة . والحسن بن جعفر . وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد . وأبو
المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي . ومحمد بن يونس الفريابي شيخ البخاري .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها ثار رجلان عبد السلام وابن جليس نخلما المأمون واستحوذا على الديار المصرية ، وتابعهما
طائفة من القيسية واليمانية ، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام ، وولى ابنه العباس نيابة
الجزيرة والنغور والمواصم ، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف
دينار . فلم يريوم أكثر إطلاقاً منه ، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف
دينار . وفيها ولى السند غسان بن عباد . وحج بالناس أمير السنة الماضية . وفيها توفي عبد الله بن
داود الجريفي . وعبد الله بن يزيد المقرئ المصري . وعبد الله بن موسى العبسي . وعمر بن أبي سلمة
الدمشقي . وحكى ابن خلكان أن بعضهم قال : وفيها توفي إبراهيم بن ماهان الموصلي النديم . وأبو
العتاهية . وأبو جهمر والشيباني النحوي في يوم واحد ببغداد : ولكنه صحيح أن إبراهيم النديم توفي سنة
ثمان وثمانين ومائة . قال السهيلي : وفيها توفي عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن ابن إسحاق .
حكاه ابن خلكان عنه ، والصحيح أنه توفي سنة ثمان عشرة ومائتين كما نص عليه أبو سعيد بن
يونس في تاريخ مصر .

العكوك الشاعر

أبو الحسن بن علي بن جبلة الخراساني يلقب بالعكوك ، وكان من الموالي ولد أعمى وقيل بل
أصابه جدري وهو ابن سبع سنين ، وكان أسود أبرص ، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً ، وقد أثنى
عليه في شعره الجاحظ فن بعده . قال : ما رأيت بدويّاً ولا حضريّاً أحسن إنشاء منه . فن ذلك قوله :

بأبي من زارني مُسَكِّمًا * حَذَرًا من كل شيء جزعا
زاراً ثم عليه حُسْنُهُ * كيف يُخْفِي الليلُ بدرًا طلعا
رصد الخلوّة حتى أمكنت * ورعى السامر حتى هجما
ركب الأهوال في زورته * ثم ما سلم حتى رجما

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مغزاه ومختصره
فاذا ولي أبو دلف * ولّت الدنيا على أثره

كل من في الأرض من عرب • بين يديه إلى حضرة
برحمته قيل • يا أيها يوم • حضرة

لما بلغ المأمون هذه الآيات • وهي قصيدة طويلة • فاحس فيها أنها نواس فطامه المأمون فرب
به ثم أحضر بين يديه فقال له : ويحك فضلت الناس من عبي عليا فقال يا أيها المأمون
أهل بيت اسعدكم الله من بين عباده وآتاكم ملكا عظيما • إنما قصائد علي أشكته وأثراها
قال : والله ما أتيت أحدا حيث تقول

كل من في الأرض من عرب • بين يديه إلى حضرة

ومع هذا فلا أستحل ذلك بهذا • ولكن بشرتك حيث تقول في عهد ذليل :

أنت الذي تنزل الأيام منزلا • تنقل الدهر من حال إلى حال

وباءت مدى طرف إلى أحد • إلا نصبت مرقا وأحل

ذاك الله بقله • أما حوا السوء من حوا • حوا السوء من حوا • وقد تسمع

حميد بن عبد الحميد القاروي :

إنما الدنيا حميد • وأجدب حسام • فاذا ولي حميد • فعل الدنيا السلام

ولما مات حميد هذا رثاه أبو العتاهية بقوله :

أما عالم أما ذراك فواسع • وفيرك مسور الجواب يحكم

وما ينفق القبور هيران فبر • إذا كان في جنة بينهم

وقد أورد ابن خلكان المذكر هذه أشعاراً حميدة تركناها اختصاراً .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لحس عشرين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبالك الخري لسه الله ،
فضل الخري خاتما كثيرا من حيثته ، وقد أيضا وانهم غبة أصحاب ابن حميد ، حيث المأمون
إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكرم إلى حميد الله من طاهر بغيره بين خراسان ، وباءه الجلال
وأذر بيجان وأردنية ومحاربة بالك ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى العسل ، والخوف
من طهر ، الخوارج ، وفيها دخل أبو إسحاق من الرشيد البزار المصرية فأنقروها من يد حميد السلام
ابن عيسى وفتاها ، وفيها خرج رجل يقال له لال الصبان لبعث إليه المأمون اسمه العباس بن
حاجعة من الأراء فتلوا بلالا ورحلوا إلى بغداد • وفيه ولي المأمون علي بن هشام الجليل وفم
وأذربان وأذر بيجان ، وفيها حج بالباس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن حميد الله بن عباس
وفيها توفي أحمد بن خالد الرعي .

أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح

أبو جعفر الكاتب ولي ديوان الرسائل المأمون . ترجمه ابن عساكر وأورد من سيره قوله

تدبر رزق المرة من غير حيلة صدرت * ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي

مامسى من غنى يوماً ولا عدم * إلا وقول عليه الحمد لله

وله أيضاً إذا قلت في شيء نعم فاقه * فإن نعم دين على الخير واجب

والأقل لا تسريح بها * لثلاثة قول الناس إنك كاذب

وله : إذا المرء أفشى سره بلسانه * فلام عليه غيره فهو أحق

إذا ضلقت صدر المرو عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق

وحسن بن محمد المروزي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الحكيم المصري . ومماوية بن عمر

أبو محمد عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري

أحد من قرأ الموطأ على مالك وتفق بهنبيه ، وكان معظماً ببلاذ مصر ، وله بها ثروة وأموال

وافرة . وحين قدم الشافعي مصر أعطاه ألف دينار ، وجمع له من أصحابه ألف دينار ، وأجرى عليه

وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكيم الذي صحب الشافعي . ولما توفي في هذه السنة دفن إلى جانب

قبر الشافعي . ولما توفي ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب قبر أبيه من القبلة . قال ابن خلدون كان في

ثلاثة أقبر الشافعي شاميهما . وهما قبلته . رحمه الله .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

في أواخر الحرم منها ركب المأمون في العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم . واستخلف

على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلما كان بشكرية تلقاه محمد بن علي بن موسى

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من المدينة النبوية ، فأذن له المأمون في

الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون . وكان معقود العقد عليها في حياة أبيه علي بن موسى ،

فدخل بها ، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز . وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل

وصوله إلى الموصل . وسار المأمون في جهافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الأولى ،

وفتح حصنها هناك عشوة وأمر بهدمه ، ثم رجع إلى دمشق فنزلها وعمر دبر مرات بسفح قيسون ، وأقام

بدمشق مدة . وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيد الله بن العباس الميموني .

وفيهما توفي أبو زيد الأنصاري . ومحمد بن المبارك الصوري . وقبيصة بن عقبة . وعلي بن الحسن بن

شقيق . ومكي بن إبراهيم . أبو زيد الأنصاري

فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي أحمد الثقات الإثبات ويقال إنه كان يرى ليلة

القدر . قال أبو عثمان المازني : رأيت الأصمعي جاء إلى أبي زيد الأنصاري وقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة . قال ابن خلكان : وله مصنفات كثيرة ، منها خلق الانسان ، وكتاب الابل ، وكتاب المياه ، وكتاب الفرس والفرس ، وغير ذلك . توفي في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها ، وقد جاوز التسعين : وقيل إنه قارب المائة . وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

فيها عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ، وكتب إلى المأمون فبدأ بنفسه ، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر ، فافتتح بلداناً كثيرة صلحا وعدوة ، وافتتح أخوه ثلاثين حصناً ، وبعث بجي بن أكرم في سرية إلى طوايا فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً وحرق حصونا عدة ، ثم عاد إلى المسكر . وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان ، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبيدوس الفهرى في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر ، فتغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد واتبعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة إلى الديار المصرية ، فكان من أمره ما سنده

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس ، فكان أول ما بدئ بذلك في جامع بغداد والرصافة يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من رمضان ، وذلك أنهم كانوا إذا قضاوا الصلاة قام الناس قياماً فكبروا ثلاث تكبيرات ، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات . وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد ، فان هذا لم يفعله قبله أحد ، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله (ص) ، ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة ، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره . وقال ابن بطال : المذاهب الأربعة على عدم استحبابه . قال النووي : وقد روى عن الشافعي أنه قال : إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع ، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنى . وهذا كما روى عن ابن عباس أنه كان يجهر في الفاتحة في صلاة الجنائز ليعلم الناس أنها سنة ، ولهذا نظر والله أعلم

وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فانها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف . وفيها وقع برد شديد جداً . وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي ، وقيل غيره والله أعلم . وفيها توفي حبان ابن هلال . وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك . وعبد بن بكار بن

هلال . وهوذة بن خليفة . زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه

وهي ابنة جعفر أم العزيز الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد ، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر ، وكان له معها من الحظايا والجواري والزوجات غيرها كثيراً كما ذكرنا ذلك في ترجمته ، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به ، وأصل اسمها أم العزيز . وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيء كثير . وروى الخطيب أنها حجت فبانت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم ، ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت : هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، واثني كنت فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم أله ، وما خسر من اعتناض ملك ، ولا شككت أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوض . توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

ثم قال الخطيب : حدثني الحسين بن محمد الحلال لفظاً قال : وحدث أبا الفتح القواس قال ثنا صدقة بن هبيرة الموصلي ثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة . قلت : فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهرايينا رجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسد فم هذه الصفرة من تلك الزفرة . وذكر ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يسمع لمن في القصر دوى كدوى النحل ، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن ، وورد أنها رؤيت في المنام فسئلت عما كانت تصنع من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعتنا إلا ركعات كنت أركعها في السحر . وفيها جرت حوادث وأمر يطول ذكرها .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في الحرم منها دخل المأمون مصر وظفر بعبدوس الفهرى فأمر فضربت عنقه ، ثم كر راجعاً إلى الشام . وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لواءة مائة يوم ، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيباً نفذته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون فساد إليه ، فلما أحس توفيل بقدمه هرب وبعث وزيره صنفل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التقر يع والتوبيخ ، وإني إنما أقبل منك الدخول في الخليفة

والإسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي . وفيها توفي الحجاج بن منهال ، وشريح بن النعمان ، وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم . ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين .

في أول يوم من جمادى الأولى وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوارة وتجديد همارتها . وبعث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها ، من مصر والشام والمراق ، فاجتمع عليها خلق كثير ، وأمره أن يجعلها ميلا في ميل ، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب .

ذكر أول المحنة والفتنة

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مهدي يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستحنه في كتاب طوله بركتب غيره قد سردها ابن جرير كلها ، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين فضلا عن المحدثين ، فان القائلين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة مخلوق ، بل لم يكن مخلوقا ، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق ، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائما بذاته لا يكون مخلوقا ، وقد قال الله تعالى [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] وقال تعالى [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم] فلا أمر بالسجود صدر منه بعد خلق آدم ، والكلام القائم بالذات ليس بمخلوق ، وهذا له موضع آخر . وقد صنف البخاري كتابا في هذا المعنى سماه خلق أعمال المباد . والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد ببغداد قرئ على الناس ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم المستنلي ، يزيد بن هارون^(١) ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبي مسعود . وأحمد ابن الدورقي . فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته . ثم كرههم إلى بغداد وأمر بأشهار أمرهم بين الفقهاء ، ففعل إسحاق ذلك . وأحضر خلقا من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم ، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون ، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك ، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم ، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم كتب المأمون إلى إسحاق أيضا بكتاب ثان يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل أيضا لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها ، بل هي من المتشابهة

(١) قد ذكر المؤلف وفاة يزيد بن هارون في سنة ست ومائتين ، ثم ذكره هنا في المحضرين فلا وجه إلا أن يكون غالطا هنا أو هناك .

وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه . اورد ابن جرير ذلك كله . وأمر نائبه أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن ، فأحضر أبو إسحاق جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل . وقتيبة . وأبو حيان الزيادي . وبشر بن الوليد السكندی . وعلى بن أبي مقاتل . وسعدويه الواسطي . وعلى بن الجعد . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، وبجي ابن عبد الحميد العمري . وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضيا على الرقة ، وأبو نصر الثمار ، وأبو معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح الجندي سابوري المضروب ، وابن الفرخان ، والنضر بن شمل . وأبو علي بن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شعجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة . فلما دخلوا على أبي إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون . فلما فهموه قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : ليس عن هذا أسألك . وإنما أسألك أهو مخلوق ؟ قال : ليس بخلق . قال : ولا عن هذا أسألك . فقال : ما أحسن غير هذا . وصمم على ذلك . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ؟ قال : نعم . فقال للسكاتب : اكتب بما قال . فكتب . ثم امتحنهم رجلاً رجلاً فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فسكان اذا امتنع الرجل منهم امتحنه بالرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد السكندی ، من أنه يقال لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول : نعم كما قال بشر . ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال له : أتقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له : ما تقول في هذه الرقعة ؟ فقال أقول [ليس كمثل شيء وهو السميع البصير] فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول : سميع بأذن بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أراد الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك . فكتب جوابات القوم رجلاً رجلاً وبعث بها إلى المأمون . وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرها لأنهم كانوا يملون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الافتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاسماع والأداء . ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فضيلة الأئمة

فلما وصلت جوابات القوم إلى المأمون بعث إلى نائبه يمدحه على ذلك ويرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله . وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس ، ومن لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه

رأيه ، ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي ، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي ، وقد نص المأمون على قتلها إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه معاذن بالإيمان] الآية . إلا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والحسن ابن حماد سجاده ، وعبيد الله بن عمر القواريري . فقيسدهم وأرصدتهم ليبحث بهم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجاده إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده . وآخر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري لأنهما أمرا على الامتناع من القول بذلك ، فأكد قيودهما وجعهما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس ، وكتب كتاباً بارسالهما إليه . فسارا مقيدين في محارة على جبل متمادين رضى الله عنهما . وجعل الأمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون ، وأن لا يرياه ولا يراهما . ثم جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه معاذن بالإيمان] الآية . وقد أخطأوا في تأويلهم ذلك خطأ كبيراً ، فإرسالهم كلهم إلى أمير المؤمنين . فاستدعاهم إسحاق والزهمهم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها ، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة ، ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد . وكان أحمد ابن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس ، ولكن لم يجتمعا به . بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه ، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الأمام أحمد بن حنبل ، فلم يريا المأمون ولا رأهما ، بل ردوا إلى بغداد . وسـيأتى تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المتصم بن الرشيد ، وتمام باقي الكلام على ذلك في ترجمة الأمام أحمد عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وبالله المستعان .

عبد الله المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي القرشي الهاشمي أبو جعفر أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد يقال لها مراحيل الباذغيسية ، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي ، وولى أبوه هارون الرشيد ، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم ، قال ابن عساكر : روى الحديث عن أبيه وهاشم بن بشر ، وأبي معاوية الضرير ، ويوسف بن قحطبة ، وعباد بن العوام ، وإسماعيل بن علية ، وحجاج بن محمد الأنور . وروى عنه أبو حذيفة إسحاق بن بشر - وهو أسن منه - ويحيى بن أكرم القاضي وابنه الفضل بن المأسون وممربن شبيب وأبو يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشامي - أو البزدي - وعمر بن مسعدة وعبد الله بن طاهر بن الحسين ، ومحمد بن إبراهيم السلي ودعبل بن علي الخزاعي . قال : وقدم دمشق مرات وأقام بها مدة ، ثم روى ابن عساكر

من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : سمعت المأمون في الشامية وقد أجرى الخليفة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكرم : أما ترى كثرة الناس ؟ قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي (ص) قال : « ما خلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفسهم لمياله » . ومن حديث أبي بكر المنابحي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكرم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله (ص) قال : « الحياء من الإيمان » . ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى المصير يوم عرفة خلف المأمون بالرصافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول : لا يا غوغاء لا يا غوغاء ، غدا التكبير سنة أبي القاسم (ص) . فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال : أنبا هشيم بن بشير ثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار . قال قال رسول الله (ص) : « من ذبح قبل أن يصلي فأنما هو لحم قدمه لأهله ، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أساب السنة » . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، اللهم اصلحني واسصلحني وأصلح على يدي . تولى المأمون الخلافة في الحرم لخمس بقين منه بعد أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة ، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وقد كان فيه تشيع واعتزال وجعل بالسنة الصحيحة ، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لملي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وخلع السواد ولبس الخضرة كما تقدم ، فأعظم ذلك العباسيون من البغادة وغيرهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي ، ثم ظفر المأمون بهم واستقام له الحال في الخلافة ، وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المديني فغدوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل ، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنده الباطل . ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً . وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته . وقال ابن أبي الدنيا : كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب يعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقة ضيق الجبين ، على خده خال . أمه أم ولد يقال لها مارجل . وروى الخطيب عن القاسم بن محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون ، وهذا غريب جداً لا يوافق عليه ، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء . قالوا : وقد كان المأمون ، لو في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، وجلس يوماً لأملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى ابن أكرم وجماعة فألقى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً . وكانت له بصيرة بعلوم متعددة ، فقهياً وطبياً وشعرأ وفرائض وكلاماً ونحواً وغيره ، وغريب حديث ، وعلم النجوم . وإليه ينسب الزيج المأموني . وقد اختبر مقدار الدرجة في وطنه سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء . وروى ابن عساكر

أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء ، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستائة دينار ، فلم يحصل لها سوى دينار واحد . فقال لها المأمون هل البديهة : قد وصل إليك حقك ، كأن أخاك قد ترك بلمتين وأما زوجة وأثني عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : للبتين الثلاثين أربعمائة دينار ، وللأم السدس مائة دينار ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً ، بقي خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران ديناران ، ولك دينار واحد . فحجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه . وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب . ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيماً ، فلما أُنشد له لم يقع منه موقماً طائلاً ، فخرج من عنده محروماً ، فلقبه شاعر آخر فقال له : ألا أعجبك ! أُلشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً . فقال : وما هو ؟ قال قلت فيه :

أضفى إمام الهدى المأمونُ مشتغلاً • بالدين والناسُ بالدنيا مشافِئاً

فقال له الشاعر الآخر : ما زدت علي أن جعلته مجوزاً في محرابها . فبلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مُضَيِّعٌ نصيبُهُ • ولا عرضٌ للدنيا عن الدين شافِئُهُ

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه : بيتان اثنان لاثنين ما يلحق بهما أحد ، قول أبي نواس :

إذا اختبر الدنيا لبيتٍ تكشفت • له عن عديٍّ في لباسٍ صديقٍ

وقول شريح : تهوُّ على الدنيا الملامةُ إنه • حريصٌ على استصلاحها من يلومها

قال المأمون : وقد أُلجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوق فرأيت رجلاً في دكان عليه أثواب خلقة ، فنظر إلى نظار من برحفي أو من يتعجب من أمرى فقال :

أرى كلَّ مغرورٍ تمنِّيهِ نفسه • إذا ما مضى عامٌ سلامةً قَابلٍ

وقال يحيى بن أكنم : سمعت المأمون يوم عيّد خطب الناس لحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ، ثم قال : عباد الله ! أعظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين ، فوالله إنه لا جد لا اللعب ، وإنه لا حق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان والمراط ثم العقاب أو الثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز . ومن هوى يومئذ فقد خاب ، انظر كله في الجنة ، والشركه في النار . وروى ابن عساكر من طريق النضر بن قنبل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت يا نضر ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين . فقال : ما الأرجاء ؟ فقلت دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . قال : صدقت . ثم قال : يا نضر أتندري ما قلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني لمن علم الغيب لبعيد . فقال قلت أبياتاً وهي :

أصبح ديني الذي أدين به • ولست منه الغداة معندرا
 حب علي بعد النبي ولا • أشتم صديقا ولا عمرا
 ثم ابن عفان في الجنان مع ال • أبرار ذاك القتل مصطبرا
 ألا ولا أشتم الزبير ولا • طلحة إن قال قائل غدرا
 وعائش الام لست أشتمها • من يفتريها فنحن منه برا

وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة وفيه تفضيل علي على الصحابة . وقد قال جماعة من السلف والدارقطني : من فضل عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأَنْصار - يعني في اجتماعهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان وتقدمه على علي بعد مقتل عمر - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع ، على ما ذكره صاحب كتاب البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم ، وهو كتاب يفتسي به إلى أ كفر الكفر . وقد روي لنا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : لا أوتي بأحد فضلي على أبي بكر وعمر إلا جلده جلد المفترى . وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد النبي (س) ، أبو بكر ثم عمر . فقد خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب . وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأَنْصار ، البدعة الأخرى والطامة الكبرى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك على تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال التي تعدد فيها المنكر . ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصارعة الروم وحصرهم ، وقتل رجالهم وسبي نساءهم ، وكان يقول : كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجاب وأنا بنفسى ، وكان يتحرى العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل ، جاءت امرأه ضميعة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضميعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فان الحق أنطقها والباطل أسكنه ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم

وكتب إلى بعض الأمراء : ليس المروءة أن يكون بينك من ذهب وفضة وغريمك عار ، وجارك طاو والفقر جائع . ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون : والله لأقتلنك . فقال : يا أمير المؤمنين تأن على فان الرفق نصف العفو ، فقال : ويلك ويحك لقد جلفنت لأقتلنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حائثا خير من أن تلقاه قاتلا . فعفا عنه . وكان يقول : ليت أهل الجرائم يعرفون أن منهجى العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم . وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون يبل في عيني وقد قتل أخاء الأُميين - يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يتبسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل

القدر؟ وحضر عند المأمون هدية بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدية يلتقط ما تنثر منها من الباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعتم يا شيخ؟ فقال : بلى ، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله (س) قال : « من أكل ماتحت مائدته أمن من الفقر » . قال فأمر له المأمون بألف دينار .

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لحمد بن عباد بن المهلب : يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف وأعطيتك ديناراً . فقال : يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود . فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! أعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف . ولما أراد المأمون أن يدخل بيوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيهم الأشياء النفيسة ، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء . فأهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب ، ومزوداً فيه أشنان جيد ، وكتب إليه : إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها ، فوجهت إليك بالمبتسداً به ليمنه وبركته ، وبالمختوم به لطيبه ونظافته . وكتب إليه :

بِضَاعَتِي تَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِي * وَهَمَّتِي تَقْصُرُ عَنْ مَالِي
فَالْمَلْحُ وَالْأَشْنَانُ يَأْسِيْدِي * أَحْسَنُ مَا يَهْدِيهِ أَمْثَالِي

قال : فدخل بها الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا ومثلثا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب . وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهاني ودخل بعض الشعراء فقال يهنئه بولده :

مَدَّ لَكَ اللَّهُ الْحَيَاةَ مَبْنًى * حَتَّى تَرَى ابْنَكَ هَذَا جَدًّا
ثُمَّ يُفَدِّي مِثْلَ مَا تُفَدِّي * كَأَنَّهُ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّى
أَشْبَهُ مِنْكَ قَامَةً وَقَدْ * مَوْزَرًّا بِمَجْدِهِ مُرْدًّا

قال فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه الممتصم ذلك ، فوردت عليه خزان من خراسان ثلاثون ألف ألف درهم ، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال ، ومعه يحيى بن أكنم القاضي ، فلما دخلت البلد قال : ليس من المرأة أن نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون . ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه ، ومن لطيف شعره : —

لِسَائِي كُنْتُ لَأَسْرَارِكُمْ * وَدُمِّي نَوْمٌ لِسِرِّي مَذِيْعٌ
فَلَوْلَا دُمُوعِي كَتَبْتُ الْهَوَى * وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُكُنْ لِي دُمُوعٌ

بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث ، وتمنعت الجارية من

الجمي إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه ، فانشأ المأمون يقول :

بعمتك مشتاقاً ففرت بنظرة * وأغفلتني حتى أسأت بك الظناً
فناجيت من أهوى وكنت مباحداً * فباليت شعري عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفاً في محاسن وجهها * ومثيت باستماع نغمتها أذناً
أرى أثراً منه بعينيك يديناً * لقد سرقت عينك من عينها حسناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال ، فرح بذلك بشر المريسي - وكان بشر
هذا شيخ المأمون - فانشأ يقول :

قد قال مأموننا وسيّدنا * قولاً له في السكّيب تصديق
إنّ علياً أعني أبا حسن * أفضل من قد أفلت النوق
بعد نبي الهدى وإنّ لنا * أعمالنا ، والقران مخلوق
فأجابه بعض الشمره من أهل السنة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل * لمن يقول : كلام الله مخلوق
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر * ولا النبي ولم يذكروه صديق
ولم يقل ذلك إلا كل مبتدع * على الرسول وعند الله زنديق
بشر أراد به إحقاق دينهم * لأن دينهم والله محقوق
يا قوم أصبح عقل من خليفتم * مقيداً وهو في الاغلال موثق

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك ، فقال : ويحك لو كان فقيها
لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له . ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سنة سافر إلى طرسوس
استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت : قتلني
يا أمين المؤمنين بسفرك ثم أنشأت تقول :

سأدعوك دعوة المضطرّ رباً * يثيب على الدعاء ويستجيب
لملّ الله أن يكفيك حرباً * ويجمّنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلاً : -

فيا حسنها إذ يفسل الدمع كحلها * وإذ هي تدرى الدمع منها الأنامل
صبيحة قالت في المتاب قتلني * وقتلي بما قالت هناك نحاول

ثم أمر مسروراً الخادم بالاحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع ، ثم قال : نحن كما قال الأخطل
قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون اللسام ولو باتت باطمار

ثم ودعها وسار فرضت الجارية في غيبته هذه ، ومات المأمون أيضا في غيبته هذه ، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق :

إن الزمان سقانا من مرارتهم * بعد الحلاوة كسات فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكننا * ثم انثى تارة أخرى فأبكنا
إننا إلى الله فيما لا يزال بنا * من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا تراها ترينا من تصرفها * ما لا يدوم بمصافاة وأحزاننا
ونحن فيها كأننا لا يزالنا * للعيش أحياء وما يسكون موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهرآ ، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولي العهد من بعده ، ودفن بطرسوس في دار خاقان الخادم ، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء ، وقيل يوم الأربعاء لثمان بقين من هذه السنة . وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل لحمل إليها فدفن بها ، وقيل إنه نقل إلى أذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم . وقد قال أبو سعيد الخزومي : —

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ * مون شيئا أو ملكي المأسوس
خلفوة بمرصتي طرسوس * مثل ما خلفوا أباه بطوس

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بحضرته وبمخبرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب . وفيها القول بخاق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليه وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه ، وأوصى أن يكبر عليه الذي يعلى عليه خسا ، وأوصى المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية ، وأوصاه أن يعتد ما كان يعتده أخوه المأمون في القرآن ، وأن يدعو الناس إلى ذلك ، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي دواد ، وقال شاوره في أمورك ولا تفارقه ، وإياك ويحيى بن أكرم أن تصحبه ، ثم نهاه عنه وذمه وقال : خائني ونفر الناس عني ففارقه غير راض عنه . ثم أوصاه بالعلويين خيرا ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة

وقد ذكر ابن جرير للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها ابن عساكر مع كثرة ما يورده ، وفوق كل ذي علم عليم .

خلفه من بعده المأمون بن هارون

ببيع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثاني عشر من رجب من سنة

ثمانى عشرة ومائتين ، وكان إذ ذاك مريضاً ، وهو الذى صلى على أخيه المأمون ، وقد سعى بعض الأمراء فى ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس فقال : ما هذا الخلف البارد ؟ أنا قد بايعت عمى المعتصم . فسكن الناس وخذت الفتنة وركب البرد بالبيعة المعتصم إلى الآفاق ، وبالتمزية بالمأمون . فأمر المعتصم بهدم ما كان بناء المأمون فى مدينة طوارة ، وقتل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين ، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم ، ثم ركب المعتصم بالجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون ، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان فى أبهة عظيمة وتجمل تام . وفيها دخل خلق كثير من أهل همدان وأصبهان وماسبهان ومهرجان فى دين الخرمية ، فتجمع منهم بشر كثير ، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخرهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فى جيش عظيم ، وعقد له على الجبال ، فخرج فى ذى القعدة وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية ، وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم ، وعلى يدي هذا جرت فتنة الامام أحمد وضرب بين يديه كما سيأتى بسط ذلك فى ترجمة أحمد فى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

بشر المريسي

وهو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبيد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، وقد كان هذا الرجل ينظر أولاً فى شئ من الفقه ، وأخذ عن أبى يوسف القاضي ، وروى الحديث عنه . حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وقد نهى الشافعى عن تعلمه وتعلمه فلم يقبل منه ، وقال الشافعى : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما يمدا الشريك أحب إلى من أن يلقاه به علم الكلام . وقد اجتمع بشر بالشافعى عند ما قدم بغداد . قال ابن خالكان : جدد القول بخلق القرآن وحكى عنه أقوال شنيعة ، وكان مرجئياً وإليه تنسب المريسية من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة للكفر ، وكان يناظر الشافعى وكان لا يحسن النحو ، وكان يلحن لحناً فاحشاً . ويقال : إن أباه كان يهودياً صلباً بالكوفة ، وكان يسكن درب المريسي ببغداد . والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر . قال : ومريس ناحية ببلاد الذوبة تهب عليها فى الشتاء ريح باردة . وفيها توفى عبد الله بن يوسف الشيبى ، وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الفسائى الدمشقى . ويحيى بن عبد الله البابلقى .

وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري

راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحاق مصنفها ، وإنما نسبت إليه فىقال سيرة ابن هشام ، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها ، وحرراً ما كن واستدرك أشياء . وكان إماماً فى

اللغة والنحو ، وقد كان متبياً بمصر واجتمع به الشافعي حين وريدها ، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً . كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، قاله ابن يونس في تاريخ مصر . وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فآله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدهو إلى الرضى من آل محمد ، واجتمع عليه خلق كثير وقتله قواد عبد الله بن طاهر مرات متعددة ، ثم ظهر وا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين ، فكث فيه ثلاثاً ، ثم حول لأوسع منه وأجرى عليه رزق ومن يخدمه ، فلم يزل محبوساً هناك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالاميد فدلى له جبل من كوة كان يأتيه الضوء منها ، فذهب فلم يدرك كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض .

وفي يوم الأحد لحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال انظرمية ، ومعه أسارى منهم ، وقد قتل في حرب به منهم مائة ألف مقاتل . وفيها بعث المعتصم محبياً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا قسداً في بلاد البصرة ، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات ، فكث في قتالهم تسعة أشهر فقهرهم وقمع شرم وأباد خضرام . وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سحاق ، وهو داهيتهم وشيطانهم ، فأراح الله المسلمين منه ومن شره .

وفيها توفي سليمان بن داود الهاشمي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الشافعي وعلي بن عياش . وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري . وأبو بشار الهندي . . ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء منها دخل مجيب في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون الفاقد جاؤا بالأمان إلى الخليفة ، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم إلى عين رومة ، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم من آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد . فكان آخر المهديهم . وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كلوس على جيش عظيم لقتال بابك انطرمي لعنه الله ، وكان قد استفحل أمره جداً ، وقويت شوكته ، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها ، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين ، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجيماً ، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وهامة الحصون وإرصاد المسدد ، وأرسل إليه المعتصم مع بغا الكبير أموالاً جزيلة نفقة لمن معه من

الجند والأتباع ، فالتقى هو وبابك فاقنتلا قتالا شديداً ، فقتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً
أزيد من مائة ألف ، وهرب هو إلى مدينته فأوى فيها مكسوراً ، فكان هذا أول ما تضرع من
أمر بابك ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، وقد استقصاها ابن جرير .

وفيهما خرج المعتصم من بغداد فزل القاطول فأقام بها . وفيها غضب المعتصم على الفضل بن
مروان بعد المكانة العظيمة ، وعزله عن الوزارة وحبس وأخذ أهله وجملة مكانه محمد بن عبد الملك
ابن الزيات . وحج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية في الحج .
وفيهما توفي آدم بن أبي إياس . وعبد الله بن رجاء . وغسان بن مسلمة . وقالون أحد مشاهير
القراء . وأبو حذيفة الهندي .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بنو الكبير وبابك فهزم بابك بنو قتل خلقاً من أصحابه . ثم اقتتل
الأفشين وبابك فهزمه أفشين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير .
وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى العباسي .

وفيهما توفي عاصم بن علي . وعبد الله بن مسلم القعني . وعبدان . وهشام بن عبيد الله الرازي .

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

فيها جيز المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفشين على محاربة بابك وبعث إليه ثلاثين ألف ألف
درهم نفقة للجند ، فاقنتلا قتالا عظيماً ، وافتتح الأفشين البلد مدينة بابك واستباح ما فيها ، وذلك
يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان ، وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد .
وقد أطال ابن جرير بسط ذلك جداً . وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما فيه من الأموال
مما قدر عليه .

ذكر مسك بابك

لما احتوى المسلمون على بلده المسمى بالبند وهي دار ملكه وسر سلطته هرب من معه من أهله
وولده ومعه أمه وامراته ، فانفرد في شردمة قليلة ولم يبق معهم طعام ، فاجتازوا بحراث فبعث غلامه
إليه وأعطاه ذهباً فقال : أعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز ، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد
وهو يأخذ منه الخبز ، فظن أنه قد اغتصبه منه ، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له
سهل بن سباط ليستعدي على ذلك الغلام ، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال : ما خبرك ؟
فقال : لا شيء ، إنما أعطيت دنانير وأخذت منه الخبز . فقال : ومن أنت ؟ فأراد أن يعص عليه
الخبز فألح عليه فقال : من غلمان بابك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : ها هو ذا جالس يريد الغداء . فسار
إليه سهل بن سباط فلما رآه ترجل وقبل يده وقال : يا سيدي أين تريد ؟ قال : أريد أن أدخل بلاد

الروم ، فقال : إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك ؟ وما زال به حتى خدعه وأخذته معه إلى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات السكينة والنحف وغير ذلك ، وكتب إلى الأفشين يملئه ، فأرسل إليه أميرين ليقبضه ، فزلا قريباً من الحصن وكتبوا إلى ابن سباط فقال : أقبا مكانكما حتى يأتيكما أمرى . ثم قال لبابك : إنه قد حصل لك هم وضيق من هذا الحصن وقد عزمت على الخروج اليوم إلى الصيد ومعاينة براة وكلاب ، فإن أحببت أن تخرج معنا لتشرح صدرك وتذهب همك فافعل . قال : نعم انخرجوا وبعث ابن سباط إلى الأميرين أن كونوا مكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار ، فلما كانا بذلك الموضع أقبل الأميران بمنعهما من الجنود فأحاطوا ببابك وهرب ابن سباط ، فلما رأوه جاؤا إليه فقالوا : ترجل عن دابتك ، فقال : ومن أنا ؟ فذكر أنهما من عند الأفشين ، فترجل حينئذ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وخف قصير وفي يده باز ، فنظر إلى ابن سباط فقال : قبحك الله فملا طلبت . في من المال ما شئت كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء . ثم أركبوه وأخذوه معهم إلى الأفشين ، فلما اقتربوا منه خرج فتملقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأمر بابك أن يترجل فيدخل بين الناس وهو ماش ، فقبل ذلك ، وكان يوماً مشهوداً جداً . وكان ذلك في شوال من هذه السنة . ثم احتفظ به وسجنه عنده . ثم كتب الأفشين إلى المعتصم بذلك فأمره أن يقدم به وبأخيه ، وكان قد مسكه أيضاً . وكان اسم أخى بابك عبد الله ، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد . وحج بالناس فيها الأمير المنقدم ذكره في التي قبلها .

وفيهما توفى أبو اليمان الحكم بن نافع . وعمر بن حفص بن عياش . ومسلم بن إبراهيم . ويحيى بن صالح الوحاظي . ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين وصحبته بابك على المعتصم سامرا ، ومعه أيضاً أخو بابك في تحمل عظيم ، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الوائلي أن يتلقى الأفشين وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك ، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه ، فنظر إليه ثم رجع ، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس ساطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليظهر أمره ويعرفوه ، وعليه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة ، وقد هيئوا الفيل وخضبوا أطرافه ولبسوه من الحرير الأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، وقد قال فيه بعضهم :

قد خُضِبَ الفيلُ كعادته * يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تُخْضَبُ أعضاؤه * إلا لذي شأنٍ من الشان

ولما أحضر بين يدي الممتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصاب جثته على خشبة بسامراً ، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة . وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره - وهي عشرون سنة - مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير - وأسر خلقاً لا يحصون ، وكان جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وأمر من أولاده سبعة عشر رجلاً ، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثاً وعشرين امرأة من الخواتين ، وقد كان أصل بابك من جارية زرية الشكل جداً ، فآل به الحال إلى ما آل به إليه ، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام .

ولما قتله الممتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشمراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين ، وعلى تخريبه بلاد بابك التي يقال لها البند وتركه إياها قيماناً خراباً . فقتلوا في ذلك فأحسنوا ، وكان من جملةهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتأنيده ابن جرير وهي قوله :

بند الجلائد البند فهو دفين * ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يقر هذا السيف هذا الصبر في * هيجاء إلا عز هذا الدين
قد كان عذرة سودد فافتضها * بالسيف ففعل المشرق الأفشين
فأعادها تعوي الثعالب وشطها * وأقد ترى بالأمس وهي عرين
هطلت عليها من جماجم أهلها * ديم إمارتها طلي وشؤون
كانت من الهجات قبل مفازة * عسراً فأضحت وهي منه معين

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين ، وأمنز مالا يحصون كثرة ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات . ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وحمل أعينهم قبحه الله . وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به في مدينة البند استوسقت الجيوش حوله وكتب إلى ملك الروم يقول له : إن ملك العرب قد جهز إلى جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنت تريد الغنيمة فانض سريراً إلى ماحولك من بلاده فأنها فأنك لا تجد أحداً يأنك عنها . فركب توفيل بمائة ألف وانضاف إليه الحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى ملطية فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً

وأُسروا نساءهم ، فأسا بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالذفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتمهية الجيوش واستدعى القاضى والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فمسكراً غربى دجلة يوم الاثنين ليلتين خلنا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء وهمهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة ، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر راجعاً إلى بلاده ، وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه ، فرجعوا إلى الخليفة لأعلامه بما وقع من الأمر ، فقال للأمراء : أى بلاد الروم أمتنع ؟ قالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية .

فتح عمورية على يبر القنصر

لما تفرغ المعتصم من بابه وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء ، وأخذ معه من آلات الحرب والآتجال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جمادى أمثال الجبال ، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية سروج ، وعبي جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها ، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب ، فانهى في سيره إلى نهر اللسى وهو قريب من طرسوس ، وذلك في رجب من هذه السنة . وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى ، فجاءوا في أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقى عليه فيهلاك ، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه . ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم في شردمة من جيشه واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقى هو والأفشين في يوم الخميس لحس بقين من شعبان منها ، فذهبت الأفشين في ثأى الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين ، وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأمرع الأوبة فإذا نظام الجيش قد انحل ، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك وركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك ، فوجدوا أهلها قد هربوا منه فتقوا منها بما وجدوا من طعام وغيره ، ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالميمنة عليها الأفشين ، والميسرة عليها أشناس ، والمعتصم في القلب ، وبين كل عسكرين فرسخان ، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلبا ومقدمة وساقة ، وأنهم مهامروا عليه من القرى حرقوه وخرّبوه وأسروا وغنموا ، وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية ، وكان بينها وبين مدينة أنقرة سبع مراحل ، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة فحوة يوم الخميس لحس خلون من رمضان

من هذه السنة ، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها ، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده ، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملأوا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة . وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير نجاة الموضع الذي أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشد إليه ، أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الأسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبني بناء ضعيفاً بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان نزل . وضع انهم من سورها ذلك الموضع الذي دهم عليه ذلك الأسير ، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألق عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلم تكن شيئاً ، وانهمدم السور من ذلك الجانب ونفسخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع غلامين من قومه فلما اجتازوا بالبحر في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنهما ؟ فقالا : من أصحاب فلان - لا أمير سموه من أمراء المسلمين - فجاءا إلى المعتصم فقررهما فاذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزة القتال كائناً في ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالعلماء نفع عليهم ما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينظر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعبهما وتسبهما . ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة ، فضاقت الروم ذرعاً بذلك ، وألح عليهم المسلمون في الحصار ، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب . ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق في مقاومة السور ، وكان قد غنم في الطريق غنائم كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويحشى بملء جوده تراباً فيطرحه في الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك . وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب ، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنوا من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة ، فبعث المعتصم من نادى في الناس : إنما ذلك سقوط السور . ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً ، لكن لم يكن ما هدم يسع الخيل والرجال إذا دخلوا . وقوى الحصار وقد وكالت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ،

فخضع ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله نجيذة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون في حفظه . فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجمعهم به . فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة ، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم ولا يقدرّون على دفاعهم ، فلم يلتفت إليهم المسلمون ، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون ، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم ، وقد حشروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب ، وهو مناطس في حصن منيع ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بمحذاة الحصن الذي فيه مناطس فناداه المنادي ويحك يا مناطس ! هذا أمير المؤمنين واقف بجبابك . فقالوا : ليس بمناطس ههنا مرتين . فنضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس هذا مناطس هذا مناطس . فرجع الخليفة ونصب السلام على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين . فتمنع ثم نزل متلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جرى به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة . ههنا إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل ، فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحصى ولا توصف لحملوها منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك ، وإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب السلاية قوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين ، ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شهرال من هذه السنة . وكانت إقامته على عمورية خمسة وعشرين يوماً .

مقتل العباس بن المأمون

كان العباس مع عمه المعتصم في غزوة عمورية ، وكان عجيف بن عنبسة قد ندمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها ، ولامه على مبايعة عمه المعتصم ، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه وأخذ البيعة من الأمراء له ، وجيز رجلاً يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس . فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن ، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلى الفتك بعمه ، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية ، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد ، فقال العباس : إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فعان المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم

واجتهد بالعزم ، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقر له بجملة الأمر ، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسلموا له ، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس فقيده ، وغضب عليه وأهانته ، ثم أظهر له أنه قد رضى عنه وعفا عنه ، فأرسله من القيد وأطلق سراحه ، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرة في مجلس شرا به واستخلى به حتى سقاء واستحكاك عن الذي كان قد دبره من الأمر ، فشرح له القضية ، وذكر له القصة ، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي . فلما أصبح استدعى بالحارث فأنشاه رساله عن القضية ثانية فذكرها له كما ذكرها أول مرة ، فقال : ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصديقك إياي في هذه القصة . ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيده وسلم إلى الأفشين ، وأمر بمجيف وبقية الأمراء الذين ذكروهم فاحتفظ عليهم ، ثم أخذهم بأنواع الذمات التي اقترحها لهم ، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر ، ومات العباس بن المأمون بمنهج فدفن هناك ، وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً ، ثم جرى بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فنع منه حتى مات ، وأمر المعتصم بلمنه على المنبر وسماه الأمين ، وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً

وحج بالناس فيها محمد بن داود . وفيها توفي من الأعيان . بابك الخرمي قتل وصلب كما قدمنا . وخاله بن خراش وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد . ومحمد بن سنان العوفي . وموسى ابن إسماعيل . ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل بأمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن يزداهرمز ، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين ، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه ، فبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد ليقبضه منه ثم ينفعه إلى ابن طاهر ، ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر الخفافة للمعتصم . وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويمده بالنصر . ويقال إن الذي قوى رأس مازيار على ذلك الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيواليه المعتصم بلاد خراسان مكانه ، فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب - أخا إسحاق بن إبراهيم - في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير ، وكان آخر ذلك أسر المازيار وحمله إلى ابن طاهر ، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها ، فأرسله إلى المعتصم وما معه من أهواله التي احتفظت للخليفة ، وهي أشياء كثيرة جداً ، من الجواهر والذهب والسياب . فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد ، وقتل عيون أصحابه وأتباعه . وفيها تزوج الحسن بن الأفشين بترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى ،

وكان عرساً حافلاً ، وليه المعتصم بنفسه ، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية . وفيها خرج منكجور الأشروسي قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة ، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك ، فظفر منكجور ، آل عظيم مخزون إبابك في بعض البلدات ، فأخذه لنفسه وأخفاه عن المعتصم ، وظهر على ذلك رجل يقال له عبيد الله بن عبيد الرحمن ، فكتب إلى الخليفة في ذلك فكتب منكجور يكذبه في ذلك ، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل . فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فخار به وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة . وفيها مات مناظس الرومي نائب عمورية ، وذلك أن المعتصم أخذه معه أسيراً فاعتقله بسامرا حتى مات في هذه السنة . وفي رمضان منها مات إبراهيم بن المهدي بن المنصور عم المعتصم ويعرف بابن شكله ، وكان أسود اللون ضخماً فضيحاً فاضلاً ، قال ابن ماكولا : وكان يقال له الصيبي - أي لِسواده - بوقد كان ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة ، وذكر أنه ولي إمرة دمشق نيابة عن الرشيد أخيه مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية فأقام بها أربع سنين ، وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة ، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، ولما بويع بالخلافة في أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد ، فهزمه إبراهيم هذا ، فقصده حميد الطوسي فهزم إبراهيم واختنى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون ، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه . وكانت مدة ولايته الخلافة سنة وإحدى عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، وكان بدء اختفائه في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين ، فكث مختلفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشرا . قال الخطيب : كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخي الكف ، وكان معروفًا بصناعة الفناء ، حاذقاً فيها وقد قل المال عليه في أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه في أعطياتهم فجعل يسوف بهم . ثم خرج إليهم رسوله يقول : إنه لا مال عنده اليوم ، فقال بعضهم : فليخرج الخليفة إلينا فليغن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات . فقال في ذلك دعبل شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدي :

يامعشر الأعراب لا تغلظوا • خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيك حنينية • لا تدخل الكيس ولا تربط
والمعصديات لقوادكم • وما هذا أحد يُقبط
فمكنا برزق أصحابه • خليفة مصحفه البربط

وكتب إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء : ولي النار محكم في القصاص والمغفر أقرب للتقوى ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو ، كما جعل كل ذي نسب دونه ، فان عفا

فبفضله وإن عاقب فبحقه . فوق المأمون في جواب ذلك . القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنابة
وعفو الله أوسع من كل شيء . ولما دخل عليه أنشأ يقول :

إن أكن مذنباً فخطي أخطأت * فندعُ عنك كثرةَ التأنيبِ
قل كما قال يوسفُ لبني يعقوب * بَلْ لَمَّا أَتَوْهُ لَا تَنْبِرُ

فقال المأمون : لا تنريب . وروى الخطيب أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤذبه
على ما فعل فقال : يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر
بقتله فقال مبارك بن فضالة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحسنك
حديثاً ، فقال : قل . فقال : حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال :
« إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقيم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم
الجزء ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال المأمون : قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك يا عم .
وقد ذكرنا في سنة أربع ومائتين زيادة على هذا . وكانت أشهره جيدة بليغة سامحة الله . وقد ساق
من ذلك ابن عساکر جانباً جيداً .

كان مولد إبراهيم هذا في مستهل ذي القعدة سنة ثنتين وستين ومائة ، وتوفي يوم الجمعة لسبع
خون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة .

وفيها توفي سعيد بن أبي مريم المصري . وسليمان بن حرب . وأبو معمر المقعد . وعلى بن محمد
المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه . وعمر بن مرزوق شيخ البخاري . وقد تزوج
هذا الرجل ألف امرأة . وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي أحد أئمة اللغة والفقه والحديث .
والقرآن والأخبار وأيام الناس ، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين الناس ، حتى يقال إن الامام
أحمد كتب كتابه في الغريب بيده ، ولما وقف عليه عبيد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة
درهم ، وأجراها على ذريته من بعده . وذكر ابن خلصان أن ابن طاهر استحسّن كتابه وقال : ما ينبغي
لمقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن نحوج صاحبه إلى طلب المماش . وأجرى له عشرة
آلاف درهم في كل شهر . وقال محمد بن وهب المصمودي : سمعت أبا عبيد يقول : مكثت في تصنيف
هذا الكتاب أربعين سنة . وقال هلال بن البعل الرقي : من الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة : الشافعي
تفقه في الفقه والحديث ، وأحمد بن حنبل في الحجة . ويحيى بن معين في نفي الكذب . وأبو عبيد في
تفسير غريب الحديث . ولولا ذلك لا فتحتم الناس المهالك .

وذكر ابن خلصان أن أبا عبيد ولي القضاء بطرسوس ثمانين سنة ، وذكر له من العبادة
والاجتهاد في العبادة شيئاً كثيراً . وقد روى الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي

عبيدة معمر بن المثنى ، وابن الأعرابي ، والفراء والكسائي وغيرهم . وقال إسحاق بن راهويه : نحن محتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا . وقدم بغداد وجمع الناس منه ومن تصانيفه . وقال إبراهيم الحارثي : كان كأنه جبل نفخ فيه روح ، يحسن كل شيء . وقال أحمد بن كامل القاضي : كان أبو عبيد فاضلاً ديناً ربانياً عالماً متقناً في أصناف علوم أهل الإيمان والافتقار والاسلام : من القرآن والفقه والمروية والأحاديث ، حسن الرواية صحيح النقل ، لا أعلم أحداً طعن عليه في شيء من علمه وكتبه ، وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعمانيه ، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله البخاري . وقيل في التي قبلها بمكة ، وقيل بالمدينة . وله سبع وستون سنة . وقيل جاوز السبعين فله أعلم .

ومحمد بن عثمان أبو الجواهر الدمشقي الكفرتوتى أحد مشايخ الحديث . ومحمد بن الفضل أبو النعمان السدوسي الملقب بمارم شيخ البخاري ومحمد بن عيسى بن الطباع . ويزيد بن عبد ربه الجرجسي الحمصي شيخها في زمانه :

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

فيها دخل بفا الكبير ومعه منكمجور قد أعطى الطاعة بالأمان . وفيها عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن أيتاخ . وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالملازيار فدخل بغداد على بغل بكاف فضربه المعتصم بين يديه أربعمائة وخمسين سوطاً ثم سقى المساء حتى مات ، وأمر بصاحبه إلى جنب بابك ، وأقر في ضربه أن الأفشين كان يكتبه ويحسن له خلع الطاعة ، فغضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه ، فبنى له مكان كالنارة من دار الخلافة تسمى السكوة ، وإنما تسعه فقط ، وذلك لما تحقق أنه يريد مخالفته والخروج عليه ، وأنه قد عزم على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد ابن أبي دؤاد المعتزلى ، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فاتهم الأفشين في هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس . منها أنه غير مخزن فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك ، فقال له الوزير - وهو الذى كان يناظره من بين القوم - فأنت تطاعن بالرماح في الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلعة بيدك ؟ ومنها أنه ضرب رجلين إملاً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدمتا بيت أصنام فأنخذاه مسجداً . ومنها أنه عنده كتاب كليله ودمنه مصوراً فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب ، فاعتذر أنه ورثه من آبائهم . واتهم بأن الأعاجم يكتبونه وتكتب إليه في كتبها : أنت إله الآلهة من العبيد ، وأنه يقرم على ذلك . فجعل يعتذر بأنه أجرام على ما كانوا يكتبون به أباه وأجداده ، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فيتضع عندهم

فقال له الوزير : ويحك فإذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ؟ وأنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديماً ويظهره على دين العرب ، وأنه كان يستعطي المنخقة على المذبوحة ، وأنه كان في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها ، فعند ذلك أمر المعتصم بهذا الكبير أن يسجنه مهاناً ذليلاً فجعل يقول : إني كنت أتوقع منكم ذلك .

وفي هذه السنة حمل عبيد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بثلث أشناس إلى سامرا . وحجج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيهما توفي من الأعيان أصبغ بن الفرج ، وسعدويه ، ومحمد بن سلام البيكندی شيخ البخاري ، وأبو عمر الجرمي . وأبودلف المعلى النخعي الأمير أحد الأجواد .

وسعيد بن مسعدة

أبو الحسن الأخفش الأوسط البليخي ثم البصري النحوي ، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في معاني القرآن ، وكتاب الأوسط في النحو وغير ذلك ، وله كتاب في العروض زاد فيه بحر الخليل ، وسمى الأخفش أصغر عيديه وضعف بصره ، وكان أيضاً أدلع ، وهو الذي لا يفهم شفتيه على أسنانه ، كان أولاً يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير ، أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد الهجري ، شيخ سيبويه وأبي عبيدة ، فلما ظهر على بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط ، والهجري الأكبر ، وعلى ابن سليمان الأصغر . وكانت وفاته في هذه السنة ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

الجرمي النحوي

وهو صالح بن إسحاق البصري ، قدم بغداد وناظر بها الفراء ، وكان قد أخذ النحو عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي وصنف كتباً منها الفرخ - يعني فرخ كتاب سيبويه - وكان فيها فاضلاً نحوياً بارعاً طاملاً باللغة حافظاً لها ، دينا ورعاً حسن المذهب ، صحيح الاعتقاد وروى الحديث . ذكره ابن خلكان وروى عنه المبرد ، وذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان .

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

في شعبان منها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وذرى رماده في دجلة واحتبط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكللة بذهب وجواهر ، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان ينهم بها ، تدل على كفره وزندقته ، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانبعاث إلى

دين آباءه المجوس . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيهما توفي إسحاق القروي . وإسماعيل بن أبي أوس . ومحمد بن داود صاحب التفسير . وغسان
ابن الربيع . ويحيى بن يحيى النخعي شيخ مسلم بن الحجاج . ومحمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين

وأبو دلف العجلي

عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزيز بن داف
ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لحيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قواد المأمون والمعتصم وإليه
ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا ، صاحب كتاب الكمال . وكان القاضي جلال الدين خطيب
دمشق القزويني يزعم أنه من سلالة ، ويذكر نسبه إليه ، وكان أبو دلف هذا كرماء جواداً مرمحاً ،
قد قصده الشعراء من كل أوب ، وكان أبو تمام الطائي من جملة من يفتشاه ويستمنح نداءه ، وكانت
لديه فضيلة في الأدب والغناء ، وصنف كتباً منها سياسة الملوك ، ومنها في الصيد والنبذة . وفي السلاح
وغير ذلك . وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاع الشاعر :

يا طالباً للكيماو وعلمه * مدح ابن عيسى الكيماو الأعظم

لوم يكن في الأرض إلا درهم * ومدحته لأنتاك ذاك الدرهم

فيقال : إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، وكان شجاعاً فائكاً ، وكان يستدين ويعطي ،
وكان أبوه قد شرع في بناء مدينة الكرخ فمات ولم يتمها فأتىها أبو دلف ، وكان فيه تشيع ، وكان يقول :
من لم يكن متغالياً في التشيع فهو ولد زنا . فقال له ابنه داف : لست على مذهبك يا أبة . فقال :
والله لقد وطئت أمك قبل أن أشتريها ، فهذا من ذاك . وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى في المنام
بعد وفاة أبيه أن آتياً أتاه فقال : أجب الأمير ! قال فقامت معه فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء
الحيطان مغلقة السقوف والأبواب . ثم أصدمني في درج مهائم أدخلني غرفة ، وإذا في حيطانها
أثر النيران ، وفي أرضها أثر الرماد ، وإذا بأبي فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لي
كالستفهم : أدلف ؟ فقلت دلف . فأنشأ يقول :

أبلنن أهلنا ولا تخف عنهم * ما لقينا في البرزخ الخناقر

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا * فأرحموا وحشي وما قد ألقى

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! ثم أنشأ يقول :

فلو أننا إذا ميتنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي

ولكننا إذا ميتنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شيء

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم . وانتهت .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من أهل الثغور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع البماني ، فخلع الطاعة ودعا إلى نفسه . وكان سبب خروجه أن رجلا من الجنود أراد أن ينزل في منزله عند امرأته في غيبته فأنعمته المرأة فضربها الجندي في يدها فأثرت الضربة في معصمها . فلما جاء بهلما أبو حرب أخبرته فذهب إلى الجندي وهو غافل فقتله ثم تحصن في رؤس الجبال وهو مبرقع ، فلما جاء أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذم من السلطان ، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحرائين وغيرهم ، وقالوا : هذا هو السفيل المذکور أنه يملك الشام ، فاستفحل أمره جسداً ، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل ، فبعث إليه المعتصم وهو في مرض موته جيشاً نحواً من مائة ألف مقاتل ، فلما قدم أمير المعتصم بن معه وجندهم أمة كثيرة وطائفة كبيرة ، قد اجتمعوا حول أبي حرب ، فخشى أن يواقع والحالة هذه ، فانتظر إلى أيام حرث الأراضى ففرق عنه الناس إلى أراضهم ، وبقي في شردمة قليلة فناهضه بأسره وفرق عنه أصحابه ، وحمله أمير السرية وهو رجاء بن أيوب حتى قدم به على المعتصم ، فلامه المعتصم في تأخره عن مناجزته أول ما قدم الشام ، فقال : كان معه مائة ألف أو يزيدون ، فلم أزل أطاوله حتى أمكن الله منه ، فشكره على ذلك .

وفيها في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور .

وهذه ترجمته

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي يقال له المشن لأنه ثمان ولد العباس ، وأنه ثمان الخلفاء من ذريته ، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات ، ومنها أنه أقام في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقيل ويومين ، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة ، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة ، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثمان بنات ، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون ، قالوا : وكان أمياً لا يحسن الكتابة ، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب غلام فحالت الغلام فقال له أبوه الرشيد : ما فعل غلامك ؟ قال : مات فاستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : وقد بلغ منك كراهه الكتاب إلى أن تجعل للوث راحة منه ؟ والله يا بني لا تذهب بعبيد اليوم إلى الكتاب . فتركوه فمكأن أمياً ، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة . وقد أسند الخطيب من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء ، والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس . وذكر بسنده

عن المنتصم أن ملك الروم كتب إليه كتابا يتهمدد فيه فقال للكاتب اكتب : قد قرأت كتابك
وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . قال الخطيب : غزا
المنتصم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فأنكى نكابة عظيمة في العدو ، وفتح عمورية
وقتل من أهلها ثلاثين ألفا وسبى مثلهم ، وكان في سببه ستون بطريقا ، وطرح النار في عمورية في
سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائها إلى العراق وجاء ببابها أيضا معه وهو منصوب حتى الآن على أحد
أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر . وروى عن أحمد بن أبي دؤاد القاضى أنه قال :
ربما أخرج المنتصم ساعده إلى وقال لى : عض يا أبا عبد الله بكل ما تقدر عليه ، فأقول إنه لا تطيب
نفسى يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك ، فيقول : إنه لا يضرنى . فأكدم بكل ما أقدر عليه فلا
يؤثر ذلك فى يده . وصر يوما فى خلافة أخيه بمخيم الجند فاذا امرأة تقول : ابنى ابنى ، فقال لها :
ما شأنك ؟ قالت : ابنى أخذه صاحب هذه الخيمة . لجاء إليه المنتصم فقال له : أطلق هذا الصبي ،
فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتا وأمر
بأخراج الصبي إلى أمه . ولما ولى الخلافة كان شهما وله همة عالية فى الحرب ومهابة عظيمة فى القلوب ،
وإنما كانت نهمة فى الاتفاق فى الحرب لافى البناء ولا فى غيره .

وقال أحمد بن أبي دؤاد : تصدق المنتصم على يدي ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم . وقال
غيره : كان المنتصم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا مافعل . وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :
دخلت يوما على المنتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لى : كيف تراها ؟ قلت له : أراها تقهره بحنى ،
ونجته برفق ، ولا تخرج من شئ إلا إلى أحسن منه ، وفى صوتها قطع شذور ، أحسن من نظم الدر
على النحور . فقال : والله لصفك لها أحسن منها ومن غنائها . ثم قال لابنه هارون الوائق ولى عهده
من بعده : اجمع هذا الكلام . وقد استخدم المنتصم من الأتراك خلقا عظيما كان له من الممالك
الترك قريب من عشرين ألفا ، وملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره . ولما حضرته
الوفاة جمل يقول [حق إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون] وقال : لو علمت أن عمرى
قصير مافعلت . وقال : إني أحدث هذا الخلق ، وجعل يقول : ذهبت الحيل فلا حيلة . وروى
عنه أنه قال فى مرض موته : اللهم إني أخافك من قبل ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك
ولا أرجوك من قبلى .

كانت وفاته بسر من رأى فى يوم الخميس ضحى اسبعة عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من
هذه السنة - أعنى سنة سبع وعشرين ومائتين - وكان مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان
سنة ثمانين ومائة ، وولى الخلافة فى رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وكان أبيض أصهب اللحية

ماويلها مربوعاً مشرب اللون ، أمه أم ولد اسمها ماردة ، وهو أحد أولاد سنة من أولاد الرشيد ، كل منهم اسمه محمد ، وهم أبو إسحاق محمد المعتصم ، وأبو العباس محمد الأمين ، وأبو عيسى محمد ، وأبو أحمد ، وأبو يعقوب ، وأبو أيوب . قاله هشام بن الكلبي . وقد ولي الخلافة بعده ولده هارون الواثق . وقد ذكر ابن جرير أن وزيره محمد بن عبد الملك بن الزيت زناه قتال :

قد فلت إذ غيبتك واصطفيت * عليك أيدي التراب والطين

إذهب فنعنم الحفيظ كنت نلى الـ * دنيا ولهم الظهير للذين

لا جبر الله أمة فقدت * مثلك إلا بمنل هارون

وقال مروان بن أبي الجنوب - وهو ابن أخي حفصة - :

أبو إسحاق مات ضحى فننا * وأمسينا بهارون حيننا

لئن جاء الخيس بما كرهنا * لقد جاء الخيس بما هوينا

خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بويح له بالخلافة قبل موت أبيه يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - ويكنى أبا جعفر ، وأمّه أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى ، وذلك لأربع خلون من ذى القعدة من هذه السنة ، وكان الذى أقام للناس الحج فيها جعفر بن المعتصم وفيها توفى ملك الروم توفيل بن ميخائيل ، وكانت مدة ملكه ثلثي عشرة سنة ، فماتت الروم بعده امرأته تدورة . وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صغيراً . وفيها توفى :

بشر الحافي الزاهد المشهور

وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ، نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله النصور ، أسلم على يدى علي بن أبي طالب . قلت : وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة ، وسمع بها شيئاً كثيراً من حماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وابن مهدي ، ومالك ، وأبي بكر بن عياش ، وغيرهم . وعنه جماعة منهم أبو خيثمة ، وزهير بن حرب ، وسري السقطي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم . قال محمد بن سعيد : سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهادته وورعه ونسكه وتقشفه . قال الأمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له ظهير إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوج لثم أمره . وفي رواية عنه أنه قال : ما ترك بعده مثله . وقال إبراهيم الحاربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ، ولا أحفظ للسان منه ، ما عرف له غيبة

لـسـم ، وكان في كل شعرة منه عقل . ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء . وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً في بدء أمره ، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي اسمك ههنا ملني يداس ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدمهم غالية وضخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال ، فاحيي الله قلبه وألهمه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة .

ومن كلامه : من أحب الدنيا فليتهياً للذل . وكان بشرياً كل الخبز وحده فقيل له : أما لك آدم ؟ فقال : بلى أذكر العافية فأجملها أدماً . وكان لا يلبس نملاً بل يمشي حافياً ، فجاء يوماً إلى باب فطرفة فقيل من ذا ؟ فقال : بشر الحافي . فقالت له جارية صغيرة : لو اشترى نملاً بدمهم لذهب عنه اسم الحافي . قالوا : وكان سبب تركه النمل أنه جاء مرة إلى أحداء فطلب منه شراً كالنمل فقالت : ما أكثر كلفتمكم يا فقراء على الناس ؟ فطرح النمل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نملاً أبداً .

قال ابن خلدون : وكانت وفاته يوم عاشوراء ، وقيل في رمضان ببغداد ، وقيل بمرور . قلت : الصحيح ببغداد في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وعشرين والأول أصح والله أعلم . وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة . وكان على المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلا صوته في الجنازة : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة . وقد روى أن الجن كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنه . وقد رآه بعضهم في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي ولكل من أحبني إلى يوم القيامة . وذكر الخطيب أنه كان له أخوات ثلاث وهن : محبة . ومضفة ، وزبدة . وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعاً أيضاً . ذهبت إحدها إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربما علني السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل على عند البيع أن أميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فبزي للمشتري . وقالت له مرة إحدها : ربما تمر بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فملصني من ذلك . فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدمدار . وسألته عن أنهن المريض أفييه شكوى ؟ قال لا ! إنما هو شكوى إلى الله عز وجل . ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يا بني اذهب خافها فاعلم لي من هذه المرأة ؟ قال عبد الله : فذهبت وراها فاذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته محبة .

وروى الخطيب أيضاً عن زبدة قالت : جاء لييلة أخى بشر فدخل برجله في الدار وبقيت

الأخرى خارج الدار ، فاستمر كذلك ليلة حتى أصبح ، فزِيلَ له فم تفكرت ليلتك ؟ فقال :
تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي وفي نفسي لأن اسمي بشر ، فقلت في
نفسى : ما الذى سبق لى من الله حتى خصنى بالاسلام من بينهم ؟ فتفكرت في فضل الله على وحمده
أن هدانى للاسلام ، وجملى بمن خصه به ، وألبسنى لباس أحبابه . وقد ترجمه ابن عساكر فأطرب
وأطيب وأطال من غير ملال ، وقد ذكر له أثماراً حسنة ، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات :

تمأق القذى فى الماء لا تستطيعه * وتكرغ من حوض الذنوب فتشرب
وتؤثر من أكل الطعام اللذة * ولا تذكر المختار من أين يكسب
وترقد يامسكين فوق نمارق * وفى حشوها نارٌ عليك تلهب
فحتى متى لا تستفيق جهالة * وأنت ابن سبعين بدينك تلهب

ومن توفى فيها أحمد بن يونس ، وإسماعيل بن عمرو البجلي . وسعيد بن منصور صاحب السنن
المشهور التى لا يشاركه فيها إلا القليل . ومحمد بن الصباح الديلابي ، وله سنن أيضاً ، وأبو الوليد
الطيالسي . وأبو الهذيل الملاف المتكلم المعتزلى . والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

فى رمضان منها خلع الواثق على اشناش الأمير ، وتوجه وألبسه وشاحين من جوهر وحج بالناس
فيها محمد بن داود الأمير . وغلا السمر على الناس فى طريق مكة جداً ، وأصابهم حر شديد وهم
بعرفة ، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم ، كل ذلك فى ساعة واحدة ، ونزل عليهم وهم بمنى مطر لم ير
مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج .

قال ابن جرير : وفيها مات أبو الحسن المدائني أحد أئمة هذا الشأن فى منزل إسحاق بن إبراهيم
الموصلى . وحبيب بن أوس الطائى أبو تمام الشاعر

قلت أما أبو الحسن المدائني فاسمه على بن المدائني أحد أئمة هذا الشأن ، وإمام الأخباريين فى
زمانه ، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة . وأما

أبو تمام الطائى الشاعر

صاحب الحماسة التى جمعها فى فضل النساء بهمدان فى دار وزيرها . فهو حبيب بن أوس بن
الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى أبو تمام الطائى الشاعر الأديب . ونقل الخطيب عن محمد بن
يحيى العمولى أنه حكى عن بعض الناس أنهم قالوا : أبو تمام حبيب بن تدرس النصراني ، فسماه
أبوه حبيب أوس بدل تدرس . قال ابن خلكان : وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدير بالقرب من
طبرية ، وكان بدمشق يعمل عند حائك ، ثم سار به إلى مصر فى شبابه . وابن خلكان أخذ ذلك

من تاريخ ابن عساکر ، وقد ترجم له أبو تمام ترجمة حسنة . قال الخطيب : وهو شامي الأصل ، وكان
بصرى في حدائقه يسقى الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس بعض الأدباء فاخذ عنهم وكان فطناً فمماً ،
وكان يحب الشعر فلم يزل يمانيه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله إليه
وهو بسر من رأى ، فعمل فيه قصائد فاجازه وقدمه على شعراء وقته ، قدم بغداد فجالس الأدباء
وعاشر العلماء ، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق . وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر أخباراً
بسند . قال ابن خلكان : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع وغير
ذلك ، وكان يقال : في طي ثلاثة : حاتم في كرمه ، وداود الطائي في زهره ، وأبو تمام في شعره . وقد
كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيص ، ودعبل ، وابن أبي قيس ، وكان أبو تمام من
خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً . ومن رقيق شعره قوله : —

يَا حَلِيفَ النَّدى وَيَا مَعْدِنَ الْجُودِ * وَيَا خَيْرَ مَنْ حَوَيْتَ الْقَرِيضَا
لَيْتَ لِحَاكُ بِي وَكَانَ لَكَ الْأَجْب * رُفْلَا تَشْتَكِي وَكُنْتُ الْمَرِيضَا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة إحدى وثلاثين ومائتين
وكذا قال ابن جرير . وحكى عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل سنة ثنتين وثلاثين
فالله أعلم . وكانت وفاته بالموصل ، وبلدت على قبره قبة ، وقد رثاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات
فقال :
نَبَأَ أَنِّي مِنْ أَعْظَمِ الْأَنْبَاءِ * لَمَّا أَلَمْتُ مَقْلَقَ الْأَحْشَاءِ
قَالُوا حَبِيبٌ قَدْ تَوَى فَأَجَبْتُهُمْ * نَاشِدُكُمْ لَا تَجْلُوهُ الطَّائِي
وَقَالَ غَيْرُهُ : رَجَعَ الْقَرِيضُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ * وَغَدِيرٌ رَوْضَتُهَا حَبِيبُ الطَّائِي
مَاذَا مَعَا فَتَجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ * وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَعْيَاءِ
وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المهجم . قال ابن خلكان : وقد امتدح أحمد بن
المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها :

إِقْدَامُ عُرْوٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ * فِي جِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذَكَارِ إِيَّاسٍ

فقال له بعض الحاضرين : أتقول هذا لأمر المؤمنين وهو أكبر قدراً من هؤلاء ؟ فانك ما زدت
على أن شبهته بأجلاف من العرب البوادي . فأطرق إطرقة ثم رفع رأسه فقال :
لَا تُنْكَرُوا مَرْبِي لَهُ مَنْ دُونُهُ * مَثَلُ شُرُودَا فِي النَّدى وَالْبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِلنُّورِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

قال : فلما اخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، وإنما قالهما ارتجالاً . قال : ولم يعيش بعد
هذا إلا قليلاً حتى مات . وقيل إن الخليفة أعطاه الموصل لما مدحه بهذه القصيدة ، فأقام بها أربعين

بوماً ثم مات . وليس هذا بصحيح ، ولا أصل له ، وإن كان قد لحج به بعض الناس كالزحطري وغيره . وقد أورد له ابن عساكر أشياء من شعره مثل قوله : -

ولو كانت الأرزاق تُجزي على الحجا • كذا كن إذا من جهل من البهايم
ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد • ولا الحمد في كفت امرئ بالدراهم
ومنه قوله : وما أنا بالفتيان من دون غرسه • إذا أنا لم أصبغ غيورا على العلم
طبيب فزادي منذ ثلاثين حجة • ومذهب همي والمفرج للنعم

وفيه توفى أبو نصر الفارابي . والمبسي . وأبو الجهم . ومسدّد . وداود بن عمر والنضبي . وبجى بن عبد الحميد الحناني . ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فيها أمر الواثق يعقوبة الدواوين وضربهم واستخلاص الأموال منهم ، لظهور خياناتهم وإسرافهم في أمورهم ، فمنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار ، ودون ذلك ، وجاهر الوزير محمد بن عبد الملك لسائر ولاية الشرط بالمداد فمسفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيماً ، وجهداً جليلاً ، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر في أمرهم ، وأقيموا للناس واقتضوا هم والدواوين فضيحة بليغة . وكان سبب ذلك أن الواثق جلس ليلة في دار الخلافة وجلسوا يسمرون عنده ، فقال : هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدى الرشيد للبرامكة ؟ فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين ! سبب ذلك أن الرشيد عرضت له جارية فأعجبه جمالها فساوم سيدها فيها فقال : يا أمير المؤمنين إني أفسمت بكل يمين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار ، فاستراها منه بها وامت إلى بجى بن خالد الوزير ليبيعت إليه بالمال من بيت المال ، فاعتل بأنها ليست عنده ، فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول : أما في بيت مالى مائة ألف دينار ؟ وألح في طلبها فقال بجى بن خالد : أرسلوها إليه دراهم ليستكثرها ، ولعله يرد الجارية . فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة ، فلما اجتاز به رأى كوماً من دراهم ، فقال : ما هذا قالوا : ثمن الجارية ، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خديمه في دار الخلافة ، وأعجبه جمع المال في حواصله ، ثم شرع في تتبع أموال بيت المال فإذا البرامكة قد استملكوها ، فجعل يجمعهم بهم نارة يريد أخذهم وهلاكهم ، ونارة يحجم عنهم ، حتى إذا كان في بعض الليالي سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفاً من الدراهم ، فذهب إلى الوزير بجى بن خالد بن برمك فطلبها منه فبأطاله مدة طويلة ، فلما كان في بعض الليالي في السمر عرض أبو العود بذلك للرشيد في قول عمر بن أبي ربيعة : وعدت هند وما كادت تمذ • ليت هنداً أنجزت ما كمدت واستبدت مرة واحدة • إنما العاجز من لا يستبد

فجمل الرشيد يكرر قوله : إنما العاجز من لا يستبد ، ويمجبه ذلك . فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما ، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد ؟ فقليل له أبو العود : فبعث إليه وأعطاه الثلاثين ألفاً وأعطاه من عنده عشرين ألفاً ، وكذلك ولداه الفضل وجعفر ، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة ، وكان من أمرهم ما كان .

فلما سمع ذلك الواثق أعجبه ذلك وجمل يكرر قول الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد . ثم بعث بالكتاب وهم الدواوين على إثر ذلك ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة جداً . وفيها حجج بالناس أمير السنة الماضية وهو أمير الحجيج في السنتين الماضيتين .

وفيها توفي خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء ، وعبد الله بن محمد السندي ، وأميم بن حماد الخزاعي أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية ، وله المصنفات في السنن وغيرها ، وبشار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه ، ولكنها عالية الاسناد إليه ، ولكنها موضوعة . ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعماثوا في الأرض فساداً ، وأخافوا السبيل ، وقتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة من المناهل والقرى ، فبعث إليهم الواثق بنو الكبير أبا موسى التركي في جيش فقاتلهم في شعبان فقتل منهم خمسين فارساً وأسر منهم وانهمزم بقيتهم ، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤسهم في دار يزيد بن معاوية وخرج إلى الحج في هذه السنة ، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق . وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم . وفيها توفي : عبد الله بن طاهر بن الحسين

نائب خراسان وما والاها . وكان خراج ما تحت يده في كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولى الواثق مكانه ابنه طاهر . وتوفي قبله أشناس التركي بقسعة أيام ، يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقال ابن خلكان : توفي سنة ثمان وعشرين بمرو ، وقيل بنيسابور . وكان كريماً جواداً ، وله شعر حسن ، وقد ولي نيابة مصر بعد العشرين ومائتين . وذكر الوزير أبو القاسم بن المعز أن البطيخ العبد لاوى الذي بعصر منسوب إلى سيد الله بن طاهر هذا . قال ابن خلكان : لأنه كان يستطيعه ، وقيل لأنه أول من زرعه هناك والله أعلم . ومن جيد شعره :

اغتنر زلتى لتحرز فضل الشئ • كرمي ولا يفوتك أجري

لا تكلمني إلى التوسل بالعد * راعى ان لا أقوم بهذري
 ومن شمره قوله: نحن قوم يلبسنا الخد والنخ * راعى أننا نلبس الحديدنا
 طوع أيدي الصبا نصيدنا العي * راعى شأنا نصيدنا الأسودا
 تلك الصيد ثم تملكنا البي * راعى المضيق أعيننا وخدودا
 تنني سخطنا الأسود ونخشي * سقط الخشع حين تبدي القمودا
 فترانا يوم الكريهة أحرأ * راعى وفي السلم للفواني عبيدا

قال ابن خلكان : وكان خزاعياً من موالى طلحة الطلحات الخزاعي ، وقد كان أبو تمام يمدحه ،
 فدخل إليه مرة فأضافه الملاح بهمدان فصنف له كتاب الحاسة عند بعض نساء . ولما ولاه المأمون
 نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الخواجل ، فعمل إليه وهو في أثناء الطريق
 ثلاثة آلاف ألف دينار ، ففرقها كلها في مجلس واحد ، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال :
 يسبح الله فرعون ، ما كان أخسه وأضعف همته حين تبجح وتعاظم بملك هذه القرية ، وقال : أنا ربكم
 الأعلى . وقال : أليس لي ملك مصر . فكيف لورأى بغداد وغيرها .

وفيهما توفي علي بن جعد الجوهري . ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مصنف كتاب الطبقات
 وغيره . وسعيد بن محمد الجرمي

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ففيها وقعت مفاداة الأسارى المسلمين الذين كانوا في أيدي الروم على أيدي الأمير خاقان الخادم
 وذلك في المحرم من هذه السنة ، وكان عدة الأسارى أربعة آلاف وثلثمائة واثنتين وستين أسيراً .
 وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن إلهيتم الخزاعي وكان جده مالك
 ابن إلهيتم من أكره الدعوة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر هذا له
 وجاهة ورياسة ، وكان أبوه نصر بن مالك ينشأه أهل الحديث ، وقد بايعه العامة في سنة إحدى
 ومائتين على القيام بالأمر والنهي حين كثرت الشطار والدعار في غيبة المأمون عن بغداد كما تقدم
 ذلك ، وبه تعرف سوية نصر ببغداد ، وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح
 والاجتهاد في الخير ، وكان من أئمة السنة الأسمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان ممن يدعو
 إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وكان الواقفي من أشد الناس في القول بخلق
 القرآن ، يدعو إليه ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون ، من

غير دليل ولا برهان ، ولا حجة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقبول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها ، فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد ، والنف عليه من الألوف أعداد ، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليهما من الخلائق ألوف كثيرة ، وجماعات غزيرة ، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى الفول بخلق القرآن ، ولما هو عليه وأمرؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها ، فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان - وهي ليلة الجمعة - يضرب طبل في الليل فيجتمع الذين يبيعوا في مكان اتفقوا عليه ، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابه دينارا ديناراً ، وكان من جملة من أعطاه رجلان من بني أشرس ، وكانا يتعاطيان الشراب ، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد ، وكان ذلك قبله بليلة ، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس ، فلم يجرى أحد وانخرم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة ، وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب ، وكان نائبا لأخيه إسحاق بن إبراهيم ، فليفته عن بغداد ، فأصبح الناس متخبطين ، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فاحضرا فماقيهما فأقرا على أحمد بن نصر ، فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان ، فجمع جماعة من رؤس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى ، وذلك في آخر شعبان ، فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد ابن نصر عتب ، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الوراق لم يماثبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره ، بل أعرض عن ذلك كله وقال له : ما تقول في القرآن ؟ فقل : هو كلام الله ، قال : المخلوق هو ؟ قال هو كلام الله . وكان أحمد بن نصر قد استنقل وباع نفسه وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما يسترها فقال له : فسا تقول في ربك ، أترأه يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال رسول الله ص : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » . فنحن على الخبر . زاد الخطيب قال الوراق : وبمك ؟ أبرى كما يرى المحدود المتجسم ؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أ كفر برب هذه صفته .

قلت : وما قاله الوراق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم . ثم قال أحمد بن

نصر الوائق : وحدثني سفيان بن عيينة برفعه « إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقبله كيف شاء » وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقال له إسحاق بن إبراهيم : ويحك ، انظر ما تقول . فقال : أنت أمرتني بذلك . فأشفق إسحاق من ذلك وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم ، أنت أمرتني أن أنصح له . فقال الوائق لمن حوله : ماتقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه . فقال عبيد الرحمن بن إسحاق - وكان قاضياً على الجانب الغربي ف عزل وكان وادياً لأحمد بن نصر قبل ذلك - يا أمير المؤمنين هو حلال الدم . وقال أبو عبد الله الأرميني صاحب أحمد بن أبي دؤاد : استغنى دمه يا أمير المؤمنين . فقال الوائق : لا بد أن يأتي ما تريد . وقال ابن أبي دؤاد : هو كافر يستأب لمل به عاهة أو نقص عقل . فقال الوائق : إذا رأيتموني قتل إليه فلا يقوم أحد مني ، فإني أحسب خطاي . ثم نهض إليه بالصمصامة - وقد كانت سيفاً لعمر بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمومة بمسامير - فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بجبل قد أوقف على نطح ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة فربطته فسقط سريراً رحمه الله على النطح ميتاً ، فأنشأ الله وإنا إليه راجعون . رحمه الله وعفا عنه . ثم اتفق سبأ الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل معترضا حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها ، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقمص ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً ، وفي الغربي أياماً ، وعنده الحرس في الليل والنهار ، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الوائق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجبة في خالق القرآن ، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا الممانعة والتصريح ، فالحمد لله الذي مجله إلى داره وأليم عقابه بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

ثم أمر الوائق بتتبع رؤس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً فأودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تهرى على المجرمين ، وهذا ظلم عظيم .

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وهاشم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلها ، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين ، وذكره يوماً فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ويقول إني لست أهلاً لذلك . وأحسن يحيى بن معين الثناء

عليه جداً . وذكره الامام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه الله ، لقد جاد بنفسه له . وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناى وإلا فقتنا وصممت أذناى وإلا فصممتنا أحمد ابن نصر الخزاعى حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله . وقد سمى به بعض الناس وهو مصلوب على الجذع وزأسه يقرأ [ألهم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون] قال : فاقشعر جلدى . وراءهم فى النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلى . ورأى بعضهم رسول الله (ص) فى المنام ومعه أبو بكر وعمر ، قد مروا على الجذع الذى عليه رأس أحمد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله (ص) بوجهه الكريم عنه فقيل له : يا رسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : « أعرضت عنه استحياء منه حين قتل رجل يزعم أنه من أهل بيتى » .

ولم يزل رأسه منصوباً من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعنى سنة إحدى وثلاثين ومائتين - إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع بين رأسه وجنته ودفن بالجانب الشرقى من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمه الله . وذلك بأمر المتوكل على الله الذى ولى الخلافة بعد أخيه الواثق ، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكنتانى - صاحب كتاب الحيدة - على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصليح لأهل السنة ، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعنه المأمون ، فانهم أساؤا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم ، فأمره أن ينزل جثة محمد بن نصر ويدفنه ففعل ، وقد كان المتوكل يكرم الامام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتى بيانه فى موضعه . والمقصود أن عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة قال للمتوكل : يا أمير المؤمنين ما رأيت أو مارفت أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . فوجل المتوكل من كلامه وساء ما سمع فى أخيه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل : فى قلبى شئ من قتل أحمد بن نصر . فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً . ودخل عليه هرثمة فقال له فى ذلك فقال : قطعنى الله إرباً بلاباً إن قتله إلا كافراً . ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال له مثل ذلك فقال : ضربنى الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار . وأما هرثمة فانه حرب فاجتاز ببيلة خزاعة ففرقه رجل من الحى فقال : يا معشر خزاعة هذا الذى قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقهطوه . فقطوه إرباً إرباً . وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله فى جلده - يدنى بالفالج - ضربه الله قبل موته بأربع سنين ، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتى بيانه فى موضعه .

وروى أبو داود في كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن أحمد بن نمر قال : سألت
سفيان بن عيينة « القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، وإن الله يضحك ممن يذكره في الأسواق » .
فقال : أروها كما جاءت بلا كيف .

وفيها أراد الواثق أن يحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامثاً .
وفيها تولى جعفر بن ^(١) دينار نائب اليمن فصار إليها في أربعة آلاف فارس . وفيها عدا قوم من العامة
على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأخذوا وسجنوا . وفيها ظهر خارجي ببلاد
ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهمز أصحابه . وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو
من خمسمائة في القيود ، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوها ، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة
وسبعين ألف دينار ، وخلع عليه . وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه
وبين الروم ، وقدم معه جماعة من رؤس الثغور ، فأمر الواثق بامتحانهم بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة فأجابوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة . وأمر الواثق أيضاً بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفريج بالقول بخلق القرآن
وأن الله لا يرى في الآخرة فن أجاب [إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودى
وإلا ترك في أيدي الكفار ، وهذه بدعة صلحاء شعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا
عقل صحيح ، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر في موضعه . وبالله المستعان] ^(٢)
وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس ، عند سلوقية بالقرب من طرسوس ، ببذل كل مسلم
أو مسلمة في أيدي الروم أو ذمي أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدي المسلمين
من لم يسلم ، فنصبوا جسرين على النهر فاذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرم فأنهى إلى المسلمين
كبر وكبر المسلمون ، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرم فاذا انتهى إليهم تكلم بكلام
يشبه التكبير أيضاً . ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس ، ثم بقى مع خاقان جماعة
من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم .

قال ابن جرير : وفيها مات الحسن بن الحسين أخو طاهر بطبرستان في شهر رمضان . وفيها مات
الخطاب بن وجه الفلس . وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة
خلت من شعبان ، وهو ابن ثمانين سنة . وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت علي بن موسى الرضا .
وفيها مات مخارق المغنى : وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمى . وعمر بن أبي عمرو الشيباني .
ومحمد بن سمدان النحوى . قلت : ومن توفى فيها أيضاً أحمد بن نصر الخزازي كما تقدم . وإبراهيم

(١) في المصرية أحمد بن دينار . (٢) زيادة من المصرية .

ابن محمد بن عرعره . وأميه بن بسطام . وأبو تمام الطائي في قول . والمشهور ما تقدم . وكامل بن طلحة . ومحمد بن سلام الجمحي . وأخوه عبد الرحمن . ومحمد بن منهل الضرير . ومحمد بن منهل أخو حجاج . وهارون بن معروف . والبويطي صاحب الشافعي مات في السجن مقيدا على القول بخلق القرآن فامتنع من ذلك . ويحيى بن بكير راوى الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

فيها عانت قبيلة يقال لها بنو نمير باليمامة فساداً فكتب الواثق إلى بغا الكبير وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسروا منهم آخرين ، وهزم بقيتهم ، ثم التقى مع بني تميم وهو في أثنى فارس وم ثلاثة آلاف ، فحرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم سم آخر ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة . ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ومعهم من أعيان رؤسهم في القيود والأسر جماعة ، وقد قد من أعيانهم في الوقائع ما يذيف على أثنى رجل من بني سليم ونمير ومرة وكلاب وفزارة وثلعة وطى وقيم وغيرهم . وفي هذه السنة أصاب الحجيج في رجوعهم عطش شديد حتى بيعت الشربة بالدنانير الكثيرة ، ومات خلق كثير من العطش . وفيها أمر الواثق بتترك جباية أعشار سفن البحر . وفيها كانت وفاة الخليفة الواثق بن محمد المعتصم ابن هارون الرشيد أبي جعفر هارون الواثق . كان هلاكه في ذى الحجة من هذه السنة بملأ الاستسقاء ، فلم يقدر على حضور العيد عاتداً ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن أبي دؤاد الأيادي المعتزلى . توفي لست بقين من ذى الحجة ، وذلك أنه قوى به الاستسقاء فأقعده في تنور قد أحى له بحيث يمكنه الجلوس فيه ليسكن وجهه ، فلان عليه بعض الشيء اليسير ، فلما كان من الغد أمر بأن يحمى أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع في محفة لحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه وقاضيه ، فمات وهو محمول فيها ، فاشدوا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت ، فغمض القاضى عليه بعد سقوط جبينه ، وولى غسله والصلاة عليه ودفنه في قصر الهادي ، عليهما من الله ما يستحقانه . وكان أبيض اللون مشرباً حمرة بهيميل المنظر خبيث القلب حسن الجسم سىء الطوية ، قائم المين اليسرى ، فيها نكتة بيضاء ، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة ، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام وثلث عشرة ساعة . فهكذا أيلم أهل الظلم والفساد والبذع قليلة قصيرة . وقد جمع الواثق أصحاب النجوم في زمانه حين اشتدت علته ، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعى ليلحقه إلى بين يدي الله ، فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا في مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته ، فاجتمع عنده من رؤسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل ابن إسحاق الهاشمي ، وإسماعيل بن نوبخت . ومحمد بن موسى الخوارزمي المجوسى القطر بلى وسند

صاحب محمد بن المهيم ، وعامة من ينظر في النجوم ، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عندئذ فاجتمعوا على أنه يعيش في الخلافة دهرًا طويلا ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا نظر من لم يبصر ، فانه لم يمض بعد قولهم وتقدروهم إلا عشرة أيام حتى هلك . ذكره الامام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله .

قال ابن جرير : وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الوائق بعد أن مات المنعم بأيام وقد قدم مجلسا كان أول مجلس قدمه ، وكان أول ما غنى به في ذلك المجلس أن غنته شارية جارية إبراهيم بن المهدي :
 ما درى الحاملون يوم استقلوا • نعمة لتوأم أمه القام
 فليقل فيك يا كياتك ما شئ • ن صياحا في وقت كل مساء
 قال : فبكى وبكىنا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم اندفع بعضهم ينفى :
 ودع هزيمة إن الركب مرتحل • وهل تليق وداعا أيها الرجل

فازداد بكاءه وقال : ما سمعت كالיום قط تمزية بأب وبني نفس ، ثم أرفض ذلك المجلس . وروى الخطيب أن دعبل بن علي الشاعر لما تولى الوائق عهد إلى طومار فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء إلى الحاجب فدفعه إليه وقال : اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل : هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضها الوائق إذا فيها :

الحد لله لا صبر ولا جلد • ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
 خليفة مات لم يحزن له أحد • وآخر قام لم يفرح به أحد
 فر هذا ومر الشوم يتبعه • وقام هذا فقام الويل والنكة

قال : فتطلبه الوائق بكل ما يقدر عليه من الطلب فلم يقدر عليه حتى مات الوائق . وروى أيضا أنه لما استخلف الوائق ابن أبي دؤاد على الصلاة في يوم العيد ورجع إليه بعد أن قضاها قال له : كيف كان عيدكم يا أبا عبيد الله ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه . فضحك وقال : يا أبا عبيد الله أنا مؤيد بك . قال الخطيب : وكان ابن أبي دؤاد استولى على الوائق وحمله على التشديد في الهنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . قال ويقال : إن الوائق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرني عبيد الله ابن أبي الفتح أنبا أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدثني حامد بن العباس عن رجل عن المهدي أن الوائق مات وقد قاب من القول بخلق القرآن . وروى أن الوائق دخل عليه يوما . ودبه فأكرمه إكراما كثيرا فقليل له في ذلك فقال : هذا أول من فتح لساني بذكر الله وأدناى برحمة الله . وكتب إليه بعض الشعراء : —

جذبك دواعي النفس عن طلب النفي • وقلت لماعني عن الطلب التزدد

فإن أمير المؤمنين بكفّر * مدار رجا الأرزاق دائرة تجري
فوقع له في رقته جذبتك نفسك عن امتنانها ، ودعتك إلى صونها فخذ ما طلبته هينا . وأجزل
به انطواء . ومن شعره قوله :

هي المقادير تجري في أعينها * فاصبر فليس لها صبر على حال
ومن شعره الوائق قوله :

تنح عن التبيح ولا تُردّه * ومن أوليته حسنا فزده
شكني من عدوك كل كيد * إذا كاذ العدو ولم تكده

وقال القاضي يحيى بن أكثم : ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن
إليهم الوائق : ما مات وفيهم فقير . ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الخلق مشترك * لا سوقة منهم يبق ولا ملك
ما ضر أهل قليل في نفاقهم * وليس ينفى عن الأملك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطاويت ثم ألحق خده بالأرض وجعل يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد
زال ملكه . وقال بعضهم : لما احتضر الوائق ونحن حوله غشى عليه فقال بعضهم لبعض : انظروا هل
قضى ؟ قال : فدنوت من بينهم إليه لا أنظر هل هدأ نفسه ، فأفاق فاحفظ إلى بعينه فرجعت القهقري
خوفا منه ، فتعلقت قائمة سيفي بشيء فكدت أن أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه
الباب الذي هو فيه وبقى فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل ، وجلست أنا
أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فاذا جرد قدأ كل عينه التي لحظ إلى بها ،
وما كان حولها من الخدين .

وكانت وفاته بسر من رأى التي كان يسكنها في القصر الماروني ، في يوم الأربعاء لست بقين من
ذى الحجة من هذه السنة - أعلن سنة ثنتين وثلاثين ومائتين - عن ست وثلاثين سنة ، وقيل ثنتين
وثلاثين سنة . وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل خمس سنين وشهران
واحد وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم .

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم

بريع له بالخلافة بعد أخيه الوائق وقت الزوال من يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة .
وكانت الأنراك قد هزموا على تولية محمد بن الواثق فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا ،
وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة ، وكان الذي ألبسه خلافة الخلافة أحمد بن أبي دؤاد القاضي ،
وكان هو أول من سلم عليه بالخلافة وبايعه الخاصة والعامة ، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنتصر بالله ،

إلى صبيحة يوم الجمعة فقال ابن أبي دؤاد رأيت أن يلقب بالمتوكل على الله ، فاتفقوا على ذلك ، وكتب إلى الآفاق وأمر بإعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور ، وللمغاربة أربعة شهور ، ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به . وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئاً نزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله ، فعبه فتبيل له هي الخلافة ، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حينئذ أرسله .

وفيها حج بالناس أمير الحجيج محمد بن داود . وفيها توفي الحكم بن موسى ، وعمر بن محمد .

الناقد

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد بن عبد الملك ابن الزيات وزير الواثق ، وكان المتوكل ينفذه لأمر ، منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيد غضباً عليه ، فبقي ذلك في نفسه ، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فخطى بذلك عنده في أيام ملكه ، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بدد أبيه ، ولف عليه الناس ، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله ، رغم أنف ابن الزيات . فلهذا أمر بالقبض عليه سرعياً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بمث إليه ، فأنهى به الرسول إلى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتبط به وقيدوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما فيها من الأموال والآلات والجواهر والحواصل والجواري والآثاث ، ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشرب ، وبث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسمرا وضياحه وما فيها فاحتاط عليها ، وأمر به أن يمسب ومنعه من الكلام ، وجعلوا يسهرونه كلما أراد الرقاد فحس بالحديد ، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووصل به من يمنة من القمود والرقاد ، فكثرت كذاك أيلماً حتى مات وهو كذلك . ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضرب ، ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات فأكلت ما بقى من لحمه وجلده . وكانت وفاته لاحدى عشرة من ربيع الأول منها . وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف دينار . وقد قلنا أن المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي فقال : يا أمير المؤمنين أحرقت الله بالنار إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأنأ أحرقت بالدار .

وفيها في جمادى الأولى منها بعد مهلك ابن الزيات فليج أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزى .

فلم يزل مغلوباً حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك ، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن

قتل حمد بن نصر كما تقدم . ثم غضب المتوكل على جماعة من الدواوين والعمال ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة جداً . وفيها ولي المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان منها .

وفيها عمده ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدور فأتاها بالشمس وألزمها الدبر وقتل الرجل الذي أتمها به ، وكان ملكها ست سنين . وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة .

وفيها توفي إبراهيم بن الحجاج الشامي . وحيان بن موسى العربي . وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي وسهل بن عثمان السكري . ومحمد بن مائة القاضي . ومحمد بن عائذ الدمشقي صاحب المغازي . ويحيى المقابري . ويحيى بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل ، وأستاذ أهل هذه الصناعة في زمانه .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها خرج نجد بن البعيث بن حلبس عن الطاعة في بلاده أذربيجان ، وأظهر أن المتوكل قد مات والنف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق ، ولجأ إلى مدينة مرند لمحمدا ، وجاءته البعث من كل جانب ، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضاً ، فصبوا على بلاده الجانيق من كل جانب ، وحاصروه بحاصرة عظيمة جداً ، وقاتلهم مقاتلة هائلة ، وصبر هو وأصحابه صبراً بليفاً ، وقدم بغا الشرابي لمحاصرته ، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحريمه وقتل خلقاً من رؤس أصحابه ، وأسر سائرهم وانحسرت مادة ابن البعيث . وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن .

وفيها حج إيتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والي مكة ، ودعى له على المنابر ، وقد كان إيتاخ هذا غلاماً خزرياً طبائخاً ، وكان لرجل يقال له سلام الأبرش ، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، فرفع منزلته وحظى عنده ، وكذلك الواثق من بعده ، ضم إليه أعمالاً كثيرة ، وكذلك عامله المتوكل وذلك لفروسيته ورجلته وشهامته ، ولما كان في هذه السنة شرب ليسة مع المتوكل فمر به عليه المتوكل فهم إيتاخ بقتله ، فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له : أنت أبي وأنت ربيتي ، ثم دس إليه من يشير إليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له ، وأمره على كل بلدة بحمل بها ، وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج ، ووكل المتوكل الحجابة لوصيف الخدام عوضاً عن إيتاخ . وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة .

وفيها توفي أبو خيشمة زهير بن حرب . وسليمان بن داود الشاركوني أحد الحفاظ . وعبد الله بن عبد النفيلي . وأبوربيع الزهراني . وعلي بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث . ومحمد بن عبد الله بن نمير . ومحمد بن أبي بكر المديني . والمماقا الرسيقي . ويحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السجن ، وذلك أنه رجع من الحج فثقلته هدايا الخليفة ، فلما اقترب يريد دخول سامرا التي فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه إليها ليلتقاه وجوه الناس وبنى هاشم ، فدخلها في أهبة عظيمة ، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنيه مظفر ومنصور وكاتبه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني فأسلم تحت العقوبة ، وكان هلاك إيتاخ بالعطش ، وذلك أنه أكل أكلا كثيرا بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخرة منها . ومكث ولداه في السجن مدة خلافة المتوكل ، فلما ولي المنتصر ولد المتوكل أخرجهما . وفي شوال منها قدم بها سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخوه صقر وخالد ، ونائبه العلاء ومعهم من رؤس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنسانا فأدخلوا على الجلال لإبراهيم الناس ، فلما أوقف ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه ، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون قوفوا حوله ، فقال له المتوكل : ويلك نادعك إلى ما فعلت ؟ فقال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاها بك ، وهو المغفور . ثم اندفع يقول بديهة :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي * إمام الهدى والصفوح بالمرء أجمل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة * وعفوك من نور النبوة يُجبل
فالك خير السابقين إلى العلى * ولا شك أن خير الأعمال تفعل

فقال المتوكل : إن معه لأدبا . ثم عفا عنه . ويقال بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشفعه ، ويقال بل أودع في السجن في قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك ، وقد قال حين هرب : -
كم قد قضيت أمورا كأن أهلها * غيري وقد أخذ الأفلاس بالكظم
لا تهزليني فيما ليس ينفعني * إليك عني جرى المقذور بالقلم
سألتك المال في عسر وفي يسر * إن الجواد الذي يعطي على العدم

وفيها أمر المتوكل أهل الأمانة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعصائهم وثيابهم ، وأن يتطيلوا بالمصبوغ بالقل وأن يكون على عصائهم رقاع مخالفة لآلون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم ، وأن يلزموا بالزنابير الخاصرة لثيابهم كزنابير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة ، وأن لا يركبوا خيلا ، ولتكن ركبهم من خشب ، إلى غير ذلك من الأمور المنذلة لهم المهينة لثوبهم ، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم ، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثه ، وبتضييق منازلهم المتدعة ، فيؤخذ منها الشر ، وأن يعمل مما كان قسما من منازلهم

مسجد ، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض ، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق ، وإلى كل بلد ورستاق .

وفيهما خرج رجل يقال له محمود بن الفرخ النيسابوري ، وهو ممن كان يتردد إلى خشبة بابل وع. مصلوب فيقعد قريباً منه ، وذلك بقرب دار الخلافة بسر من رأى ، فادعى أنه نبي ، وأنه ذو القرنين وقت. اتبعه على هذه الضلالة ووافقه على هذه الجهالة جماعة قليلون ، وهم تسعة وعشرون رجلاً ، وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبّحه الله ، زعم أن جبريل جاء به من الله ، فأخذ فرقع أمره إلى المتوكل فأمر فضرب بين يديه بالسياط ، فاعترف بما نسب إليه وما هو معمول عليه ، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه ، فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه التسعة والعشرين أن يصفعه فصفعوه عشر صفعات فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسماوات . ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ثم أبو عبد الله المعتز ، واسمه محمد ، وقيل الزبير ، ثم إبراهيم وسماه المؤيد بالله ، ولم يل الخلافة هذا . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائباً عليها ويستنيب فيها ويضرب له السكة بها ، وقد عين ابن جرير ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم ، وعقد لكل واحد منهم لواءين لواء أسود للعهد ، ولواء للعائلة ، وكتب بينهم كتاباً بالرضى منهم ومبايعة لا كثر الأثراء على ذلك وكان يوماً مشهوداً . وفيها في شهر ذي الحجة منها تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء الدردى ففرح الناس لذلك . وفيها أتى المتوكل ببغوي بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي ، وكان قد اجتمع إليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثمان عشرة مفرقة ثم حبس في المطبق . وحج بالناس محمد بن داود .

قال ابن جرير : وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر - يعني نائب بغداد - يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وجعل ابنه محمد مكانه ، وخلع عليه خمس خلع وقلده سيفاً . قلت : وقد كان نائباً في المراق من زمن المأمون ، وهو من الدعاة تبعاً لسادته وكبرائه إلى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم [ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل] الآية . وهو الذي كان يمتحن الناس ويرسلهم إلى المأمون . وفيها توفي :

إسحاق بن ماهان

الموصل النديم الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته ، المجموع من كل فن يعرفه أبناء عصره ، في اللغة والحديث والجدل والكلام والفقه والشعر ، ولكن اشتهر بالفناء لأنه لم يكن له في الدنيا

نظير فيه . قال المتعمم : إن إسحاق إذا غنى بخيل لي أنه قد زيد في مالي . وقال المأمون : لولا
اشتهاره بالنماء لوليت القضاة لما أعلمه من عفته ونزاهته وأمانته . وله شعر حسن وديوان كبير .
وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن . توفي في هذه السنة وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها .
وقد ترجمه ابن عساکر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشعاراً رائعة وحكايات مدحثة يطول
استقصاؤها . فن غريب ذلك أنه غنى يوماً يحيى بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه
جمعز بمثلها ، وابنه الفضل بمثلها ، في حكايات طويلة .

وفيها توفي شريح بن بونس . وشيبان بن فروخ . وعبيد الله بن عمر الخواريزي . وأبو بكر بن
أبي شيبة أحد الأعلام وأئمة الأسلام وصاحب المصنف الذي لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور ، ونودي
في الناس من وجد هنا بعد ثلاثة أيام فحُفَّت به إلى المطبق . فلم يبق هناك بشر ، وأخذ ذلك الموضع
مزرعة تحرث وتستغل . وفيها حج بالناس محمد بن المنتصر بن المتوكل . وفيها توفي محمد بن إبراهيم
ابن مصعب سمى ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء
الكبار . وفيها توفي الحسن بن سهل الوزير والد بوران زوجة المأمون التي تتقدم ذكرها ، وكان من
سادات الناس ، ويقال إن إسحاق بن إبراهيم الملقب توفي في هذه السنة فلقه أعلم . وفيها توفي أبو سعيد
محمد بن يوسف المروزي فجأة ، فولى ابنه يوسف مكانه على نيابة أرمينية . وفيها توفي إبراهيم بن المنذر
الحراشي . ومضرب بن عبد الله الزبيري . وهديبة بن خالد القيسي . وأبو الصلت الهروي أحد
الضعفاء .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب
الخليفة ، واتفق بعد بعثه بإياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد ، فتحزب أهل تلك الطريق وجازوا
لحاصروا البلد التي بها يوسف فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك
كثير من الناس من شدة البرد ، ولما باغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك
الناحية بغا الكبير في جيش كثيف جسدًا فقتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة نحوًا من
ثلاثين ألفًا وأسر منهم طائفة كبيرة ، ثم سار إلى بلاد ألباني من كور البُسُرُجان وسلك إلى مدن
كثيرة ببارومهد الممالك ووطد البلاد والنواحي . وفي صفر منها غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد
القمي المعتزلي وكان على المظالم ، فعزله عنها واستدعى يحيى بن أكرم فولاه قضاء القضاة والمظالم
أيضًا . وفي ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد

غيبته في يوم السبت ثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينار ، ثم صولج على ستة عشر ألف ألف درهم . وكان ابن أبي دؤاد قد أصابه الفالج كما ذكرنا ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين قال ابن جرير فقال في ذلك أبو العتاهية :

لو كنت في الرأي منسوبا إلى رشد * وكان عزمك عزما فير توفيق

لكان في الفقه شغل لو قنعت به * عن أن تقول كتاب الله مخلوق

ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم * ما كان في الفرع لولا الجهل والموق

وفي عيد الفطر منها أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخراساني والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا ، واجتمع في جنازته خلق كثير جدا ، وجعلوا يمشون بها وبأعواد نعشه ، وكان يوما مشهودا . ثم أتوا إلى الجذع الذي صلب عليه فجعلوا يمشون به ، وأرهج العامة بذلك فرحا وسرورا ، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردهم عن تعاطي مثل هذا وعن المغالاة في البشر ، ثم كتب المتوكل إلى الأفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكيف عن القول بخلق القرآن ، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فاعطى مأواه إلى أن يموت . وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير ، ثم أظهر إكرام الامام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه ، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنوية فلم يقبلها ، وخلع عليه خلة سنوية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيرا فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلا فيه ثم نزعا عندينا وهو يبكي رحمه الله تعالى . وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاما بل كان صائما مواصل طاولا تلك الأيام ، لأنه لم يتيسر له شيء يرضى أكله ، ولكن كان ابنه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك ، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشي على أحمد أن يموت جوعا ، وارتفعت السنة جدا في أيام المتوكل عفا الله عنه ، وكان لا يولي أحدا إلا بعد مشورة الامام أحمد ، وكان ولاية يحيى بن أكرم قضاء القضاة . وضع ابن أبي دؤاد عن مشورته ، وقد كان يحيى بن أكرم هذا من أئمة السنة ، وعلماء الناس ، ومن المعظمين للفقه والحديث واتباع الأئمة ، وكان قد ولي من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية ، وسوار ابن عبد الله قضاء الجانب الغربي ، وكان كلاهما أعورا . فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دؤاد :

رأيت من العجائب قاضيين * هما أحدهما في الخاقين

هما اقتسما المسمى نصفين قدآ * كما اقتسما قضاء الجانبين

ويحسب منهما من هز رأسا * لينظر في واديش ودين

كَانَكَ قَدْ وَضَعْتَ عَلَيْهِ دَنًا * فَنَحَتْ بِزَالِهِ مِنْ فَرْدٍ عَيْنِ

هَذَا قَالَ الزَّمَانُ بِهَلِكِ بِحَيِّ * إِذَا افْتَتَحَ الْقَضَاءُ بِأَعُورَيْنِ

وَفَزَا الصَّائِفَةُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى بْنِ يَحْيَى الْأَرْمَنِ . وَحَجَّ بِالنَّاسِ عَلَى بْنِ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ أَمِيرِ الْحِجَازِ . وَفِيهَا تَوَفَّى حَاتِمُ الْأَصَمِ . وَمَنْ تَوَفَّى فِيهَا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ حَمَادٍ . وَعَبِيدُ اللَّهِ ابْنُ مَعَاذِ الْمَنْبَرِيِّ وَأَبُو كَامِلٍ الْفَضِيلُ بْنُ الْحَسَنِ الْجَحْدَرِيُّ .

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ

فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْهَا حَاصِرُ بَغْدَادِ مَدِينَةِ تَفْلِسَ وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ زَبْرُكُ التُّرْكِيِّ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ صَاحِبُ تَفْلِسَ إِسْحَاقُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فَقَاتَلَهُ فَأَسْرَ بَغْدَادَ إِسْحَاقُ فَأَسْرَ بَغْدَادَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَصَلَبِهِ ، وَأَمَرَ بِإِقْدَاءِ النَّارِ فِي الدَّفْعِ إِلَى نَحْوِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ أَكْثَرُ بَنَائِهَا مِنْ خَشَبِ الصُّنُوبَرِ ، فَأَحْرَقَ أَكْثَرَهَا وَأَحْرَقَ مِنْ أَهْلِهَا نَحْوَ مِائَةِ خَمْسِينَ أَلْفًا ، وَطَفَّتِ النَّارُ بِمَدْيُونَيْنِ ، لِأَنَّ نَارَ الصُّنُوبَرِ لَا بَقَاءَ لَهَا . وَدَخَلَ الْجَنْدُ فَأَسْرَوْا مِنْ بَقِيَةِ أَهْلِهَا وَاسْتَلْبَهُمْ حَتَّى اسْتَلْبَهُوا الْمَوَاشِي . ثُمَّ سَارَ بَغْدَادَ إِلَى مَدِينٍ أُخْرَى مِمَّنْ كَانَ يَمَالَى أَهْلَهَا مَعَ مَنْ قَتَلَ نَائِبَ أَرْمِينِيَّةِ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ يَوْسُفَ ، فَأَخَذَ بِتَأْرِهِ وَعَاقِبَ مِنْ تَجَرُّأَ عَلَيْهِ .

وَفِيهَا جَاءَتِ الْفَرَجُ فِي نَحْوِ مِائَةِ مَرَكَبٍ قَاصِدِينَ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ دِمِشْقَ ، فَدَخَلُوا الْجَزَاءَ فَكْتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا وَحَرَقُوا الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ وَالْمَنْبَرَ ، وَأَسْرَوْا مِنَ النِّسَاءِ نَحْوَ مِائَةِ امْرَأَةٍ ، مِنَ الْمُسْلِمَاتِ مِائَةً وَخَمْسَةَ عَشْرِينَ امْرَأَةً ، وَسَاطَرْنَ مِنَ نِسَاءِ الْقَبْطِ ، وَأَخَذُوا مِنَ الْأَمْتَةِ وَالْمَالِ وَالْأَسْلِحَةِ شَيْئًا كَثِيرًا جَدًّا ، وَفَرَّ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي كُلِّ جِهَةٍ ، وَكَانَ مِنْ غَرَقَ فِي بَحِيرَةِ تَفْلِسَ أَكْثَرُ مَنْ أُسْرُوهُ ، ثُمَّ رَجَعُوا عَلَى حِمْيَةٍ وَلَمْ يَمْرُضْ لَهُمْ أَحَدٌ حَتَّى رَجَعُوا بِبِلَادِهِمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ . وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا الصَّائِفَةُ عَلَى ابْنِ يَحْيَى الْأَرْمَنِ . وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ الْأَمِيرُ الَّذِي حَجَّ بِهِمْ قَبْلَهَا .

وَفِيهَا تَوَفَّى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ أَحَدُ الْأَعْلَامِ وَعِلْمَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَالْجَنْهَدِيُّ مِنَ الْأَقَامِ . وَبِشْرِ بْنِ الْوَلِيدِ الْفَقِيهِ الْحَنْفِيِّ . وَطَالُونُ بْنُ عَبَّادٍ . وَمُحَمَّدُ بْنُ بَكَّارِ بْنِ الزِّيَّاتِ . وَمُحَمَّدُ بْنُ الْبُرْجَانِيِّ . وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي السَّرِيِّ الْمُسْتَلَانِيِّ . ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ

فِي الْحَرَمِ مِنْهَا زَادَ الْمُتَوَكِّلُ فِي التَّخْلِيضِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي التَّمْيِزِ فِي الْإِبَاسِ وَأَكْدَ الْأَمْرَ بِتَخْرِيبِ الْكِنَانِائِسِ الْمُحَدَّثَةِ فِي الْإِسْلَامِ . وَفِيهَا نَفَى الْمُتَوَكِّلُ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ إِلَى خُرَاسَانَ . وَفِيهَا اتَّفَقَ سَبْعَانِ مِنَ النِّصَارِيِّ وَبِوَمِ النَّيْرُوزِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَهُوَ يَوْمُ الْأَحَدِ لِعَشْرِينَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَزَعَمَتِ النِّصَارِيُّ أَنَّ هَذَا لَمْ يَتَّفَقْ مِثْلُهُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا فِي هَذَا الْعَامِ . وَغَزَا الصَّائِفَةُ عَلَى بْنِ يَحْيَى الْمَذْكُورِ . وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى مَكَّةَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَفِيهَا تَوَفَّى أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاضِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَّادٍ الْأَيْدِيُّ الْمَعْتَزِيُّ .

قلت.. ومن توفي فيها داود بن رشيد . وصفوان بن صالح . وذن أهل دمشق . وعبد الملك بن حبيب
الفقيه المالكي ، أحد المشاهير . وعثمان بن أبي شيبة . صاحب التفسير والمسند المشهور . ومحمد بن مهران
الرازي . ومحمود بن غيلان . ووهب بن نفيه . وفيها توفي :

أحمد بن عاصم الأنطاكي

أبو علي الواعظ الزاهد أحد المباد والزهاد ، له كلام حسن في الزهد ومعاملات القلوب ، قال
أبو عبد الرحمن السلمي : كان من طبقة الحارث المحاسبي ، وبشر الحافي . وكان أبو سليمان الداراني
يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته . روى عن أبي معاوية الضرير وطبقته ، وعنه أحمد بن
الحواري ، ومحمود بن خالد ، وأبو زرعة الدمشقي . وغيرهم . روى عنه أحمد بن الحواري عن مخلد
ابن الحسين عن هشام بن حسان قال : تمررت بالحسن البصري وهو جالس وقت السحر فقلت : يا أبا
سعيد منك مجلس في هذا الوقت ؟ قال : إني توضأت وأردت نفسي على الصلاة فأبى علي ، وأرادني
على أن تنام فأبيت عليها . ومن مستجاد كلامه قوله : إذا أردت صلاح قلبك فاستمن عليه بحفظ
جوارحك . وقال : من الفتيمة الباردة أن تصلح ما بقي من عمرك فيغفر لك ما مضى منه . وقال :
يسير اليقين بخروج الشك كله من قلبك ، ويسير الشك يخرج اليقين كله منه . وقال : من كان بالله
أعرف كان منه أخوف . وقال : خير صاحب لك في دنياك أهم ، يقطعك عن الدنيا ويوصلك إلى
الآخرة . ومن شعره :

هممت ولم أعزم ولو كنت صادقاً • عزمك ولكن النظام شديد
ولو كان لي عقل وإيقان موقن • لما كنت عن قصد الطريق أجيده
ولو كان في غير السلوك مطامعي • ولكن عن الأقدار كيف أميد
ومن شعره أيضاً :

قد بقينا مذنبين حيارى • نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدواعي الهوى تخفت علينا • وخلاف الهوى علينا ثقل
فقد الصدق في الأماكن حتى • وضعه اليوم ما عليه دليل
لا نرى خائفاً فيلزمنا الخوف • ولشنا نرى صادقاً على ما يقول
ومن شعره أيضاً :

هوّن عليك فكل الأمر ينقطع • وخلّ هنك ضباب الهمّ يندفع
فكل همّ له من بعده فرج • وكل كرب إذا ما ضاق يتسع
إن البلاء وإن طال الزمان به • الموت يقطع أو سوف ينقطع

وقد أطل الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته ، وإنما ذكرته ههنا تقريباً والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

فيها عدا أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل رجلاً من أشرفهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بين أظهرهم ، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقال للسفير معه : إن قبلوه وإلا فأعلمني . فقبلوه فعمل فيهم الأعاقيب وأهانهم غاية الإهانة . وفيها عزل المتوكل يحيى بن أكنم القاضي عن قضاء القضاة وصاد به بمبلغه ثمانون ألف دينار ، وأخذ منه أراضى كثيرة في أرض البصرة ، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي على قضاء القضاة . قال ابن جرير : وفي الحرم منها توفي أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه بعشرين يوماً .

وهذه ترجمته

هو أحمد بن أبي دؤاد واسمه الفرج - وقيل دعى ، والصحيح أن اسمه كنيته - الأيادي المعتزلي . قال ابن خلكان في نسبه : هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد نجم بن مالك بن فيض بن منعة بن برجان بن دوس الهذلي بن أمية بن حذيفة بن زهير بن إياد بن أد بن معد بن عدنان . قال الخطيب : ولى ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصم ، ثم للوائق . وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، غير أنه أعلن مذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في الآخرة . قال الصولي : لم يكن بعد البرامكة أكرم منه ، ولولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الأنس . قالوا : وكان مولده في سنة ستين ومائة ، وكان أسن من يحيى بن أكنم بعشرين سنة . قال ابن خلكان : وأصله من بلاد قنسرين ، وكان أبوه تاجراً ينفذ إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذ ولده هذا معه إلى العراق ، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال ، وذكر أنه كان يصحب يحيى بن أكنم القاضي ويأخذ عنه العلم . ثم سردله ترجمة طويلة في كتاب الوفيات ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال : -

رسولُ الله والخلفاءُ منا • ومنا أحمدُ بنُ أبي دؤادِ

فرد عليه بعض الشعراء فقال :

فقلِّ للفاخرين على نزارٍ • وهم في الأرضِ ساداتُ العبادِ

رسولُ الله والخلفاءُ منا • ونبرأ من دعَى بنى إيادِ

ومنا إيادُ إذا أقرت • بدعوةِ أحمدِ بنِ أبي دؤادِ

قال : فلما بلغ ذلك أحمد بن أبي دؤاد قال : لولا أني أكره العقوبة لما قبلت هذا الشاعر عقوبة

ما فعلها أحد . وعفا عنه . قال الخطيب : حدثني الأزهرى ثنا أحمد بن عمر الواعظ حدثنا عمر بن الحسن بن علي بن مالك حدثني جرير بن أحمد أبو مالك قال : كان أبي - يعني أحمد بن أبي دؤاد - إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما * نجيح الأمور بقور الأسباب
واليوم حاجتنا إليك وإنما * يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل على ابن أبي دؤاد يوماً فقال له : أحسبك عاتباً ، فقال : إنما يعتب علي واحد وأنت الناس جميعاً . فقال له : أنى لك هذا ؟ فقال : من قول أبي نواس :
وليس على الله بمشكر * أن يجمع العالم في واحد
وامتدحه أبو تمام يوماً فقال :

هذه أبيت مساوى كل دهر * محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما استعرت في الآفاق إلا * ومن جدواك راحلي وزادى
دم الظن عندك والأمانى * وإن قلقت ركابي في البلاد

فقال له : هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك ؟ فقال : هو لي ، غير أني ألحت بقول أبي نواس :
وإن جرث الألفاظ يوماً بمدح * لنيرك إنساناً فأنك الذي لمعني
وقال محمد بن الصولي : ومن مختار مدح أبي تمام لأحمد بن أبي دؤاد قوله :
أحمد إن الحاسدين كثير * ومالك إن عد الكرام نظير
حلت محلاً فاضلاً متقادماً * من الجدر والفخر القديم نفور
فكل غني أو فقير فانه * إليك وإن قال السماء فقير
إليك تنهى الجدم من كل وجهة * يصير فما يمدوك حيث يصير
وبذر إباد أنت لا ينكرونه * كذلك إباد للنام بدور
تجنبك أن تدعى الأمير تواضعا * وأنت لمن يدعى الأمير
فما من يد إلا إليك ممدة * وما رفة إلا إليك تشير

قلت : قد أخطأ الشاعر في هذه الأبيات خطأ كبيراً ، وأغش في المبالغة فخشا كثيراً ، ولعله إن اعتقد هذا في مخلوق ضعيف مسكين ضال مضل ، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً . وقال ابن أبي دؤاد يوماً لبعضهم : لم ألام لا تسألني ؟ فقال له : لأنني لو سألتك أعطيتك بمن صلتك . فقال له : صدقت . وأرسل إليه بمخمة آلاف درهم .

وقال ابن الأعرابي : سأل رجل ابن أبي دؤاد أن يحمله على غير قتال : يا غلام اعطه هيراً وبغلاً

ورذونا وفرسا وجارية . وقال له : لو أعلم من كذباً غير هذا لأعطيتك . ثم أورد الخطيب بأسانيده عن جماعة أخباراً تدل على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات ، وعظيم منزلته عند الخلفاء . وذكر عن محمد المهدي بن الوائلي أن شيخنا دخل يوماً على الوائلي فسلم فلم يرد عليه الوائلي بل قال : لا سلم الله عليك . فقال : يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك معك . قال الله تعالى [إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها] فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها . فقال ابن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل مثلكم . فقال : ناظره . فقال ابن أبي دؤاد : ماتقول يا شيخ في القرآن مخلوق هو ؟ فقال الشيخ : لم تنصفني ، المسألة لي . فقال : قل . فقال : هذا الذي تقوله علمه رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ أو ما علموه ؟ فقال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه . قال : فأنت علمت ما لم يعلموا ؟ فنجعل وسكت . ثم قال أقلني بل علموه ، قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ، أما يسهل ما وسعهم ؟ فنجعل وسكت وأمر الوائلي له بجائزة نحو أربعمائة دينار فلم يقبلها . قال المهدي : فدخل أبي المنزل فاستأق على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول : أما وسعك ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار وردّه إلى بلاده ، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعده أحداً . ذكره الخطيب في تاريخه بأسناد فيه بعض من لا يعرف ، وساق قصته معطولة . وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأغراني أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد * فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً * أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بمسلم * على جبريل إلى خير العباد (١)
ومن أمسى يبابك مستضيئاً * كن حلّ الفلاة بنير زاد
لقد أظرفت يا ابن أبي دؤاد * بقولك إنني رجل إيادي

ثم قال الخطيب : أنبأ القاضي أبو العلي طاهر بن عبد الله الطبري قال : أنشدنا المعاني بن زكريا الجري عن محمد بن يحيى الصولي لبعضهم بهجو ابن أبي دؤاد :

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد * وكان عزمك عزماً فيه توفيق
وقد تقدمت هذه الأبيات .

وروى الخطيب عن أحمد بن الموفق أو يحيى الجلاء أنه قال : ناظرني رجل من الواقفية في خلق القرآن فنالني منه ما أكره ، فلما أمسيت أتيت امرأتى فوضعت لي المشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئاً ، فذهت فرأيت رسول الله (ص) في المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه ، فجعل رسول الله (ص) يقرأ هذه الآية [فان يكفر بها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد وكلنا

(١) كذا في الأصل والوزرة غير مستقيم .

بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه . وقال بعضهم : رأيت في المنام كأن قاتلاً يقول : هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد . فقلت له : وما سبب هلاكه ؟ فقال : إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات . وقال غيره : رأيت ليلة مات ابن أبي دؤاد كأن النار زفرت زفرة عظيمة تخرج منها لهب فقلت : ما هذا ؟ فقيل هذا أنجزت لابن أبي دؤاد .

وقد كان هلاكه في يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه العباس ودفن في داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحاً في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده ، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك . وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عاتداً وإنما جئتك لأعزيك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيد الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فإزداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي بأموال جزيلة جداً ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . قال ابن خلكان : كان مولده في سنة ستين ومائة . قلت : فلي هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يحيى بن أكرم الذي ذكر ابن خلكان أن ابن أكرم كان سبب اتصال ابن أبي دؤاد بالخليفة المأمون ، فخطى عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه المتعمم ، فولاه المتعمم القضاء والمظالم ، وكان ابن الزيات الوزير ينفذه ، وجرت بينهما منافسات وهجو ، وقد كان لا يقطع أمراً بدونه . وعزل ابن أكرم عن القضاء وولاه مكانه ، وهذه المحنة التي هي أس ما بعدها من الهن ، والفشة التي فتحت على الناس باب القتن .

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال ، وأن ابنه أبا الوليد محمد صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وأنه مات قبل أبيه بشهر . وأما ابن عساكر فانه بسط القول في ترجمته وشرحها شرحاً جيداً . وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر المطاء على المنع ، والتفرقة على الجمع . وقد روى ابن عساكر بأسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون خروج الوائلي فقال ابن أبي مرزاد إنه ليسجني هذان البيتان :

ولي نظرة لو كان يُحبلُ ناظرٌ * بنظرته أني لقد حبلتُ مني
فإن ولدتُ بينَ تسعة أشهرٍ * إلى نظري ابناً فإنَّ ابنها مني

ومن توفي فيها من الأعيان أبو نور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء المشاهير . قال الامام أحمد : هو عندنا في مسالخ الثوري . وخليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحداني وسويد بن نصر . وعبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون أحد فقهاء المالكية المشهورين . وعبد الواحد ابن غياث . وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة والسنة . وأبو العميث عبد الله بن خالد كاتب عبد الله بن

طلهر وشاعره ، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة ، ومن شعره
يمدح عبد الله بن طلهر :

يا مَنْ يَحاولُ أَنْ تَكُونَ صِفاتهُ • كَصِفَاتِ عبدِ اللَّهِ أَنْصَحَ وَأَتَمَّ
فَلَا نُصَحِّكَ فِي خِصَالِي وَالَّذِي • حَيَّجَ الْحَجَّيْجَ إِلَيْهِ فَاصْبَحْ أَوْ دَعِ
أَصْدَقَ وَعَفْوَ بَرًّا وَاصْبِرْ وَاحْتَمِلْ • وَاصْفَحْ وَكَافَى دَارَ وَاحِلٍ وَاشْجَعِ
وَالْعُفَّ وَرَيْنَ وَتَأَنَّ وَارْفَقْ وَاتَّقِ • وَاحْزَمْ وَجَدَّ وَحَامِ وَاحْلُ وَادْفَعْ
فَلَقَدْ نُصَحِّكَ إِنْ قَبِلْتَ نُصِيحَتِي • وَهَدَيْتَ لِنَهْجِ الْأَسَدِ الْمُبِيحِ
أَمَّا سَعْنُونُ الْمَالِكِيِّ صَاحِبُ الْمَدُونَةِ

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جنب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي ،
أصله من مدينة حمص ، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها ، وانتهت إليه رئاسة منعب
مالك هناك ، وكان قد تفقه على ابن القاسم ، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات صاحب الأمام مالك
من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه
عنها ، فقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سعنون ، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد
أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ، ورجع عن أشياء منها ، فرتبها سعنون ورجع بها إلى بلاد المغرب ،
وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يمرض نسخته على نسخة سعنون ويصلحها بها
فلم يقبل ، فدعى عليه ابن القاسم فلم يلتفت به ولا بكتابه ، وصارت الرحلة إلى سعنون ، وانتشرت
عنه المدونة ، وساد أهل ذلك الزمان ، وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفى في هذه السنة عن ثمانين
سنة رحمه الله وإيادنا .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جمادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه
فأرادوا قتله ، وساعدهم نصارى أهلها أيضاً عليه ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، فكتب إليه يأمره
بمناقضتهم ، وكتب إلى متولى دمشق أن يمدد بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب
إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ، ثم يصلبهم على أبواب البلد ، وأن
يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلثمائة ، وأن يرسلهم إلى سامراء مقيدتين في الحديد ، وأن
يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيسها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع ، وأن يضيفها إليه ،
وأمره بخمسين ألف درهم ، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سلية . فامتثل ما أمره به الخليفة
فيهم . وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن

جعفر بن محمد بن عاصم ، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً ، يقال إنه ضرب ألف سوط حتى مات .
 وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسان الزياتي أنه يشتم أبا بكر وعمر
 وعائشة وحفصة رضي الله عنهم . فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن
 طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضربه بين الناس حسب السب ، ثم يضرب بالسياط حتى
 يموت ويلقى في دجلة ولا يصل عليه ، ليرتدع بذلك أهل الاتحاد والمعاينة . ففعل معه ذلك قومه
 الله ولعنوه . ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة بالاجماع ، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين
 قولان ، والصحيح أنه يكفر أيضاً ، لأنهم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنهم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت ، وذلك ليلة الخميس ليلة
 خلت من جمادى الآخرة . قال : وفيها مطر الناس في آب مطراً شديداً جداً . قال : وفيها مات من
 الدواب شيء كثير ولا سيما البقر . قال : وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط
 وأخذوا نساءهم وذرايعهم ودوابهم . قال : وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم في بلاد طرسوس
 بمحضرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد ، من إذن الخليفة له في ذلك ، واستنابته ابن أبي الشوارب .
 وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مائة وخمسة وعشرين
 امرأة ، وقد كانت أم الملك تدور لعنها الله عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى ،
 وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته ، قتلته اثني عشر ألفاً وتنصر
 بعضهم ، وبقى منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجلاً ونساء .

وفيها أغارت البجة على جيش من أرض مصر ، وقد كانت البجة لا يفزون المسلمين قبل ذلك ،
 لمدينة كانت لهم من المسلمين ، فنقضوا المدينة وصرحوا بالخلاف . والبجة طائفة من سودان بلاد
 المغرب ، وكذا النوبة وشنون وزغري ويكسوم وأم كثيرة لا يعلمهم إلا الله . وفي بلاد هؤلاء معادن
 الذهب والجوهر ، وكان عليهم حمل في كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن ، فلما كانت دولة
 المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة ، فكتب نائب مصر - وهو يعقوب بن إبراهيم
 الباذفيسي مولى الهادي وهو المعروف بـ مصر - بذلك كله إلى المتوكل ، فنضب المتوكل من ذلك
 غضباً شديداً ، وشاور في أمر البجة فقبل له : يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية ، وإن بلادهم
 بعيدة ومعطشة ، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماء ، فعبد ذلك عن
 البعث إليهم ، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد ، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم ،
 فجيز لهم محمد بن عبد الله القمي ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم ، وكتب إلى
 عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك ، فتخلص وتخلص معه من الجيوش

الذين انضموا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل ، وحمل معه الطعام
الأدام في مراكب سبعة ، وأمر الذين هم بها أن يلجؤا بها في البحر فيوافوه بها إذا توسطت بلاد
البجة ، ثم سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادنتهم وأقبل إليه ملك البجة - واسمه علي بابا - في جمع
عظيم أضاف من مع محمد بن عبد الله القمي ، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ، فجعل الملك يطارد
المسلمين لعله تنفذ أوزارهم فيأخذونهم بالأيدي ، فلما نفذ ما عند المسلمين طمع فيهم السودان فيبصر
الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغيره . فلك مما يحتاجون إليه شيء
كثير جدا فقصده الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم ، فيئس السودان من هلاك المسلمين
جوعا فشرعوا في التأهب لقتال المسلمين ، ومركبهم الابل شبيهة بالهجن زعرة جدا كذيرة النفار ،
لا تكاد ترى شيئا ولا تسمع شيئا إلا جعلت منه . فلما كان يوم الحرب محمد أمير المسلمين إلى جميع
الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول ، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل
واحد ، فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كل وجه ، وتفرقوا شذرا شذرا ، واتبعهم
المسلمون يقتلون من شاؤا ، لا يمتنع منهم أحد ، فلا يمل عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل . ثم
أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ
ملكهم بالأمان ، وأدى ما كان عليه من الحل ، وأخذه معه أسيرا إلى الخليفة . وكانت هذه الوقعة
في أول يوم من هذه السنة ، فولاه الخليفة علي بلاده كما كان ، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية
والنظر في أمرها وله الحمد والمنة .

قال ابن جرير : ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقومرة في جمادى الآخرة .
قلت : وهذا الرجل كان قائما على الديار المصرية من جهة النيوكل . وفيها حج بالناس عبد الله بن هارون
ابن داود ، وحج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم ، ولم يتعرض ابن جرير لوفاء
أحد من المحدثين في هذه السنة ، وقد توفي من الأعيان الأمام أحمد بن حنبل . وجبارة بن المنذر
الحامي ، وأبو ثوبة الحلبي . وعيسى بن حماد سجادة . ويعقوب بن حميد بن كاسب . ولندكر شيثان

للسلام المكنون

فنعول والله المستعان : هو أحمد بن محمد بن حنبل بن حلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن
حيان بن عبد الله بن أنس بن هوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن هكابة بن
صحب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دهمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة
ابن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهيمس بن حنبل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن
إبراهيم الخليل عليهما السلام - أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي ، هكذا ساق نسبه

الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في الكتاب الذي جمعه في مناقب أحمد عن شيخه الحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرک، وروى عن صالح ابن الإمام أحمد قال: رأى أبي هذا اللقب في كتاب لي يقال: وما تصنع به؟ ولم ينكر اللقب. قالوا: وقدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعت أمه ببغداد في ربيع الأول من سنة أربع وستين ومائة، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فنقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلى فبعتهما بثلاثين درهما. وتوفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله.

وقد كان في حدائته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه في سنة سبع وثمانين ومائة، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة، وأول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة إحدى وتسعين. وفيها حج الوليد بن مسلم، ثم سنة ست وتسعين، وجاور في سنة سبع وتسعين، ثم حج في سنة ثمان وتسعين، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق إلى اليمن، فكتب عنه هو ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه. قال الإمام أحمد: حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما. قال: وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول: يا عباد الله دلوني على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق. قال: وخرجت إلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأسى لبنة، ولو كان عندي تسعون درهما كنت دخلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري وخرج بهض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي شيء. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن حرمة: سمعت الشافعي قال: وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر فلم يقدم. قال ابن أبي حاتم: يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعت أن يفي بالعدة. وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والآفاق، وجمع من مشايخ مصر، وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال سماعه منهم، وقد سرد شيخنا في تهذيبه أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم، وكذلك الرواة عنه. قال البيهقي بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الإمام أحمد: وقد ذكر أحمد بن حنبل في المستدرک وغيره الرواية عن الشافعي، وأخذ عنه جملة من كلامه في أنساب قريش، وأخذ عنه من القصة ما هو مشهور، وحين توفي أحمد وجدوا في تركته رسالتى الشافعي القديمة والجديدة.

قلت: قد أفرد ما رواه أحمد عن الشافعي وهي أحاديث لا تبلغ عشرين حديثا، ومن أحسن ما روياه عن الإمام أحمد عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك عن أبيه قال قال رسول الله (ص): «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه

إلى جسده يوم بُعث . « وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين^(١) ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة . قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حمجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً - يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقولون إلا رواية الحمجازيين وينزلون أحاديث من سوامم منزلة أحاديث أهل الكتاب - وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه . وقد كان الإمام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بمنزلة المكانة في العلم والحديث ، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شيعيته في الآفاق .

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الإيمان وأنه قول وعمل وبزيد وينقص ، وكلامه في القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنكاره على من يقول : إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن . قال : وفيها حكى أبو عمارة وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال : اللفظ محدث . واستدل بقوله [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] قال : فاللفظ كلام الآدميين . وروى غيرهما عن أحمد أنه قال : القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق ، وأما أفعالنا فهي مخلوقة . قلت : وقد قرر البخاري في هذا المعنى في أفعال العباد وذكره أيضاً في الصحيح ، واستدل بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري . وقد قرر البيهقي ذلك أيضاً .

[وروى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال : من قال : القرآن محدث فهو كافر . ومن طريق أبي الحسن الميثوقي عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون] . قال : يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث ، لا الذي ذكر نفسه هو المحدث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يحتمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله (ص) ، أو وعظه أيام . ثم ذكر البيهقي كلام الأمام أحمد [^(٢) في رؤية الله في الدار الآخرة ، واحتج بمحدث صهيب في الرؤية وهي زيادة ، وكلامه في نفى التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي (ص) ، وعن أصحابه] وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السالك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تناول قول الله تعالى : [وجاء ربك] أنه جاء ثوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لاخبار عليه . [^(٣) وقال الأمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن عياش ثنا عاصم عن زر عن عبد الله - هو ابن مسعود -

(١) تقسم أن الرحلة الثانية لشافعي كانت سنة ثمان وتسعين ومائة .

(٢) ، (٣) زيادة من المصرية .

قال : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآوه سيئاً فهو عند الله سيئ . وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخافوا أبا بكر رضي الله عنه إسناد صحيح . قلت : وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة في تقديم الصديق . والأمر كما قاله ابن مسعود ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة . وقد قال أحمد حين اجتاز بمصر وقد حل إلى المأمون في زمن الهنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحصى فقال له : ما تقول في الخلافة ؟ فقال : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضي الله عنه .

ورعه وتشفه وزهده رحمه الله

روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن اليمين يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلاً نوله إياها . فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه : ألا تقبل قضاء اليمين ؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي : إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهدي في الدنيا ، فتأمرني أن ألي القضاء ؟ ولولا العلم لما أكلت بعد اليوم . فاستحى الشافعي منه . وروى أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل ، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقتاً فحرف أهله حاجته إلى الطعام فمجلوا وعجنوا وخبزوا له سريراً فقال : ما هذه العجلة ؟ كيف خبزتم ؟ فقالوا : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه . فقال : ارفعوا ، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقي : لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل على الله . وقال عبد الله ابنه : مكث أبي بالمسكر عند الخليفة ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا ربع مد سويقاً ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة منه حتى رجع إلى بيته ، ولم يرجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر . وقد رأيت موقيه دخلاً في حدقته . قال البيهقي : وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً . قال : وبعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبي .

وقال سليمان الشاذكوني : حضرت أحمد وقد رهن سطلا له عند قاضي باليمن ، فلما جاءه بفكاهه أخرج له سطلين فقال : خذ متادك منهما . فاشتبه عليه أيهما له فقال : أنت في حل منه ومن الفذك ، وتركه وذهب . وحكى ابنه عبد الله قال : كنا في زمن الواثق في ضيق شديد ، فكسب رجل إلى أبي : إن دندى أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وليست صدقة ولا زكاة ، فان رأيت أن تقبلها . فامتنع من ذلك ، وكرر عليه فأبى ، فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبي : لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها ، وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحتها من بضاعة حماتها

باسمه فأبى أن يقبلها وقال : نحن في كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً . وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه . ونفدت نفقة أحمد وهو في اليمن فعرض عليه شيعه عبد الرزاق . ملء كفه دنانير فقال : نحن في كفاية ولم يقبلها . وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس في بيته ورد عليه الباب وقدمه أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمه الله . وقال أبو داود : كانت مجالس أحمد بمجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط . وروى البيهقي أن أحمد سئل عن التوكل فقال : هو قطع الاستشراف باليأس من الناس ، فقيل له : هل من حجة على هذا ؟ قال : نعم ! إن إبراهيم لما رمى به في النار في المنجنيق عرض له جبريل فقال : هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه حاجة . فقال : أحب الأمرين إلى أحبهما إليه . وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال : كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى فقلنا : ادع الله لنا فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما نحب دائماً . ثم سكت . فقلنا : زدنا فقال : اللهم إنا نسألك بالقدر التي قلت للسموات والأرض [اتقيا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا طائعين] اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الدل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فتنتي ولا تقل علينا فتنسي ، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغا لنا في دنيانا ، وغنى من فضلك . قال البيهقي : وفي حكاية أبي الفضل الثميني عن أحمد : وكان يدعو في السجود : اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فردّه إلى الحق ليكون من أهل الحق . وكان يقول : اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد (ص) فداء فاجعلني فداء لهم . وقال صالح بن أحمد : كان أبي لا يدع أحداً يستقي له الماء للوضوء ، بل كان يلى ذلك بنفسه ، فإذا خرج الدلو ملأ قال : الحمد لله . فقلت : يا أبا ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بني أما سمعت قول الله عز وجل [أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين] والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً . وقد صنّف أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه . والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله .

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج : قال لي أحمد بن حنبل : هل تستطيع أن تربي الحارث الهامم إذا جاء منزلك ؟ فقلت : نعم ! وفرحت بذلك ، ثم ذهبت إلى الحارث فقلت له : إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكسب . فلما كان بين العشاءين جاؤا وكان الأمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يرام ويسمع كلامهم ولا يرونه ، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئاً ، بل جاؤا فجلسوا بين يدي الحارث سكوتاً

مطرق الرأس ، كأنما على رؤسهم الطير ، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأل رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا يزعم ، قال : فصدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى كاد يفشى عليه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح ، فلما أرادوا الانصراف قلت : كيف رأيتم هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما رأيتم أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيتم مثل هؤلاء ، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم . قال البيهقي : يحتمل أنه كره له محبتهم لأن الحارث بن أسد ، وإن كان زاهداً ، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كره له محبتهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقهم وما هم عليه من الزهد والورع . قلت : بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة . وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب . وقال : الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر . وقال : الفقر أشرف من الغنى ، فإن الصبر عليه مرارة وانزعاجه أعظم حالا من الشكر . وقال : لا أعدل بفضل الفقر شيئاً . وكان يقول : على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس ، ولا يقبله إذا تقدمه طمع أو استشراف . وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب . وقال إبراهيم قال رجل لأحمد : هذا العلم تعلمته لله ؟ فقال له أحمد : هذا شرط شديد ولكن حجب إلى شيء فجتمته . وفي رواية أنه قال : أما لله فعزيز ، ولكن حجب إلى شيء فجتمته . وروى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتني إليك لتدعو لها ، فكأنه غضب من ذلك وقال : نحن أخرج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها . ثم دعا الله عز وجل لها . فرجع الرجل إلى أمه فدفق الباب فخرجت إليه على رجلها وقالت : قد وهبني الله العافية . وروى أن سائلاً سأل فأعطاه الإمام أحمد قطعة فقام رجل إلى السائل فقال : هبني هذه القطعة حتى أعطيك موضها ، ما تساوى درهما . فأبى فزقاه إلى خمسين درهما وهو يأبى وقال : إني أرجو من بركتها ما أرجو أنت من بركتها . ثم قال البيهقي رحمه الله :

ذكر ما جاء في محبة أبي عبد الله أحمد بن حنبل

في أيام المأمون ثم المنتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم في ذلك إليه وصبره عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم ، وكان أحمد عالماً بما ورد بمثل حاله من

الآيات المنجية ، والأخبار الماثورة ، وبلغه ما أوصى به في المنام واليةظة فرضى وسلم إيماناً واحتساباً ،
وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، وهياه الله بما آتاه من ذلك ليلوغ أعلى منازل أهل البلاء في الله من
أوليائه ، وألحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والمعصمة .
قال الله تعالى [بسم الله الرحمن الرحيم ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ،
ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] وقال الله تعالى [واصبر على
ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور] في سواها في معنى ما كتبنا . وقد روى الامام أحمد الممتحن في
مسنده قائلا فيه : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن بهدلة سمعت مصعب بن سعد يحدث
عن سعد قال : سألت رسول الله (ص) : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء » ثم الأمثل
فالأمثل ، يبتلي الله الرجل على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان
صلاب الدين ابتلى على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على الأرض وما عليه
خطيئة . وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفي ثنا أيوب بن أبي قلابة عن
أنس ، قال قال رسول الله (ص) : « ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلوة الإيمان : من كان الله ورسوله
أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع
إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » . أخرجه في الصحيحين :

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان بن عمرو السكسي
ثنا عمرو بن قيس السكوني ثنا عاصم بن حميد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « إنكم لم تروا إلا
بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحاً » . وبه قال معاذ : « لن تروا من
الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمراً يهولكم ويشد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه » . قال البغوي :
سمعت أحمد يقول : اللهم رضا . وروى البيهقي عن الربيع قال بعثني الشافعي بكتاب من مصر
إلى أحمد بن حنبل ، فأتيته وقد انفل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ فقلت :
لا فأخذه فقرأه فدمعت عيناه ، فقلت : يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال : يذكرك أنه رأى رسول الله
(ص) في المنام فقال : اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له :
إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجههم ، يرفع الله لك علياً إلى يوم القيامة . قال
الربيع : فقلت حلوة البشارة ، ففزع قبضه التي إلى جلد فاعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعي
أخبرته قال : إني لست أجمعك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطيتني حتى أتبرك به

ملخص الفتنة والحنة من كلام أئمة السنة

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاعوه عن طريق الحق

إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفى الصفات عن الله عز وجل . قال البيهقي : ولم يكن في الخلفاء قبله من بنى أمية وبنى العباس خليفة الا على مذهب السلف ومنهجهم ، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له ، وافترق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن ، وافترق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهر من سنة ثمان مائة وخمسة ومائتين . فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا ، قهدهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين : واستمر على الامتناع من ذلك الامام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند يسابوري ، فحمله على أمير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان في مجل على أمير واحد فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر ، فسلم على الامام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فأياك أن نجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن هشت هشت حيداً . قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعوني إليه . فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يسح دموعه بطرف ثوبه ويقول : يمز على يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله (ص) ، لئن لم نجبه إلى القول بخلق القرآن ليقطعنك بذلك السيف . قال : فحش الامام أحمد على ركبتيه ورمى بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلتك هذا الفاجر حتى نهباً على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق ما كفنا مؤنته . قال : فجاءهم الصريح بموت المأمون في الثالث الأخير من الليل . قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد ، وأن الأمر شديد ، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى ، وقاتل منهم أذى كثير ، وكان في رجله القيود ، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد ، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان ، فأودع في السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم . وقد كان أحمد وهو في السجن هو الذي يصل في أهل السجن والقيود في رجله .

ذكر حضره رضي الله عنه بين يدي المعتصم

لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشي بها فربطوها في

النسكة وحملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكنت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ، فأدخلت في بيت وأغلق عليّ وليس عندي سراج ، فأردت الوضوء فددت يدي فاذا إماء فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة والله الحمد . ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إلى وعنده ابن أبي دؤاد قال : أليس قد زعمت أنه حدث السن وهذا شيخ مكمل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي : ادنه ، فلم يزل يدينني حتى قربت منه ثم قال : اجلس ! فجلست وقد أثبتني الحديد ، فكنت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى م دعا إليه ابن عمك رسول الله (س) ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله . قلت : فاني أشهد أن لا إله إلا الله . قال : ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ثم قلت : فهذا الذي دعا إليه رسول الله (س) . قال : ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه ، وذلك أني لم أتفق كلامه ، ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أعرض إليك ، ثم قال : يا عبد الرحمن ألم أمرك أن ترفع الحنة ؟ قال أحمد : فقلت ، الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال : ناظره يا عبد الرحمن ، كله . فقال لي عبد الرحمن : ما تقول في القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه فقلت : ما تقول في العلم ؟ فسكت ، فقلت . القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرنا وكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، فقلت : كان الله ولا علم ؟ فسكت . فعملوا يتكلمون من ههنا وههنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال : ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا ؟ فقلت : وهل يقوم الاسلام إلا بهما . وجرت مناظرات طويلة ، واحتجوا عليه بقوله [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] وبقوله [الله خالق كل شيء] وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله [تدمر كل شيء بأمر ربها] فقال ابن أبي دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهنا قضاتك والفقهاء فسلمهم ، فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً ثم في اليوم الثالث ، وفي ذلك كله يملأ صوته عليهم وتقلب حججه . قال : فاذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد ، وكان من أجملهم بالعلم والكلام ، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فعملوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها ، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها ، وقد تكلم معي ابن هوث ^(١) بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقلت : لا أدرى ما تقول ، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثل شيء ، فسكت عني . وقد أوردت لهم حدث

(١) في هامش الأصل : لعنه ابن غياث وهو المريسي .

لرؤية في الدار الآخرة غاؤلوا أن يضمفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه ، وهيهات ، وأني لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي ومن يطلا بساطي . فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ص ، حتى أجيبهم إليها .

واحتج أحمد عليهم حين أهلكوا الآثار بقوله تعالى [يا أيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً] وبقوله [وكلم الله موسى تكليماً] وبقوله [إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني] وبقوله : [إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون] ونحو ذلك من الآيات . فلما لم يقم لهم منه حجة عدلوا إلى استعمال جاء الخليفة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل . وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفته ، فمنذ ذلك جئ واشتد غضبه ، وكان ألينهم عريكة ، وهو يظن أنهم على شيء . قال أحمد فمنذ ذلك قل لي : لميك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ، ثم قال : خلوه واخلموه واسحبوه . قال أحمد : فأخلفت وسحبت وخلعت وجئ بالمعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شمرات من شمر النبي ص ، معرووفة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين المعاقبين ، قلت : يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ص ، قال : « لا يحمل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بأحدي ثلاث » وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ص ، قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصوا مني دماء وأموالهم » : فم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين الله كوقفي بين يديك ، فكأنه أمسك . ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فقامت بين المعاقبين وجئ بكرسي فأثقت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ يدي بأي الخشبين فلم أفهم ، فتخلعت يداي وجئ بالضرايين ومعهما السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له - يعني المعتصم - : شد قطع الله يديك ، ويحني الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك ، فضربوني أسواطاً فأغنى علي وذهب عقلي مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود علي عتلي ، وقام المعتصم إلى يدهوني إلى قولهم فلم أجبه ، وجعلوا يقولون : وبحك الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إلي فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إلى الثالثة ، فدعاني فلم أعتل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عتلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمرى وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجل ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً

شدبداً جداً . وقد كان الامام أحمد رجلاً طويلاً زقيقاً أصمر اللون كثير التواضع رحمه الله .
ولما حل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم ، أتوه بسويق لبفطر من الضمير .
فامنع من ذلك وأتم صومه ، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي
وصلبت في دمك ! فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه ينعب دماً ، فسكت . وروى أنه لما أقيم
ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فتكشف عورته فحرك شفتيه فدعا الله
فماد سراويله كما كان ، وروى أنه قال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أنى مأم
لك بحق فلا تهنك لي عورة .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجراحي فقطع لهما ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت
يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه
والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقى مدة
وإبهامه يؤذيها البرد ، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى
[وليعفوا وليصغروا] الآية . ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟ وقد قال تعالى
[فن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين] وينادي المنادي يوم القيامة : « ليقيم من
أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) :
« ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله »
وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلمة أربعة^(١) : أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن
نوح بن ميمون الجند يسابوري ، ومات في الطريق . ونعيم بن حماد الخزازي ، وقد مات في السجن ،
وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن . وكان مثقلاً بالحديد .
وأحمد بن نصر الخزازي وقد ذكرنا كيفية مقتله .

ثناء الأئمة على الامام أحمد بن حنبل

قال البخاري : لما ضرب أحمد بن حنبل كناً بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول :
لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه . وقال إسماعيل بن الخليل : لو كان أحمد في بني إسرائيل
لكان نبياً . وقال المزني : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان
يوم الدار ، وعلي يوم الجمل وصفين . وقال حرمة : سمعت الشافعي يقول : خرجت من المراق فإني
تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا ألتقى من أحمد بن حنبل . وقال شيخ أحمد يحيى بن سعيد
القطان : ما قدم على بفساد أحد أحب إلى من أحمد بن حنبل . وقال قتيبة : مات سفيان الثوري
ومات الورع ، ومات الشافعي ومات السنن ، وموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع . وقال إن أحمد

ابن حنبل قام في الأمة مقام النبوة . قال البيهقي - يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله - وقال أبو عمر بن النحاس - وذكر أحمد يوماً - فقال رحمه الله : في الدين ما كان أبصره ، ومن الدنيا ما كان أصبره ، وفي الزهد ما كان أخبره ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، وبالمؤمنين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدنيا فأبأها ، والبدع فنفأها . وقال بشر الحافي بعد ما ضرب أحمد بن حنبل : أدخل أحمد الكبير فخرج ذهباً أحر . وقال الميموني قال لي علي بن المديني بعد ما امتحن أحمد وقيل قبل أن يمتحن : يا ميمون ما قام أحد في الإسلام ما قام أحمد بن حنبل : فمجت من هذا مجباً شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً ، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان . ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول : لست أعلم في الإسلام مثله . وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله وبين عبده في أرضه . وقال علي بن المديني : إذا ابتليت بشيء فافتأني أحمد بن حنبل لم أهال إذا لقيت ربي كيف كان . وقال أيضاً : إني اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله عز وجل ، ثم قال : ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله ؟ وقال يحيى بن معين : كان في أحمد بن حنبل خصل ما رأيتها في عالم قط ، كان محدثاً ، وكان حافظاً ، وكان عالماً ، وكان ورعاً ، وكان زاهداً ، وكان عاقلاً . وقال يحيى بن معين أيضاً : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطبق سلوك طريقه . وقال الذهلي : اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله . وقال هلال بن الممل الرقي : من الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعي فهم الأحاديث وفسرها ، وبين مجملها من مفصلها ، والخاص العام والناسخ والمنسوخ . وبأبي عبيد بين غريبها . وببهي بن معين في الكذب عن الأحاديث ، وبأحمد بن حنبل ثبت في الحجة لولا هؤلاء الأربعة هلك الناس . وقال أبو بكر ابن أبي داود : أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلماً ومحررة - يعني في عصره - وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله . وقال أبو زرعة الرازي : ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه منه . وروى البيهقي عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبري قال : أنشدنا أبو عبد الله البوسنبي في أحمد بن حنبل رحمه الله : -

إن ابن حنبل ان سالت إمامنا • وبه الأئمة في الأنام تمسكوا
خلف النبي محمداً بعد الأئمة • خلفوا الخلافة بعده واستهلكوا
حقوق الشراك على الشراك وإمامنا • يحسنو المثال مثله المستمسك

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله «ب» أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وروى البيهقي عن

أبي سعيد الماليني عن ابن عدي عن أبي القاسم البغوي عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بقة بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن المدرسي ح . قال البغوي : وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن معاذ عن إبراهيم بن عبد الرحمن المدرسي ح . قال البغوي قال قال رسول الله ص : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وهذا الحديث مرسل وإسناده فيه ضعف . والمعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من حمل العلم ، والامام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله وأكرم مثواه .

ما كان من أمر الامام أحمد بعد المحنة

حين خرج من دار الخلافة صار إلى منزله فدوى حتى برأ والله الحمد ، ولزم منزله فلا يخرج منه إلى الجمعة ولا جماعة ، وامتنع من التحديث ، وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ويتنعم بذلك رحمه الله صابراً محتسباً . ولم يزل كذلك مدة خلافة المنعم ، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق ، فلما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته ، فانه كان محباً للسنة وأهلها ، ورفع المحنة عن الناس ، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعى إسحاق بالامام أحمد إليه فأكرمه وعظمه ، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه ، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد : سؤالك هذا سؤال تمنيت أو استرشاد . فقال : بل سؤال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق ، فسكن إلى قوله في ذلك ، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه . وبلغه أن أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأت به ولم يسلم عليه ، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل : يرد وإن كان قد وطئ بساطي ، فرجع الامام أحمد من الطريق إلى بغداد . وقد كان الامام أحمد كارهاً لحبيته إليهم ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه . ثم إن رجلاً من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشي إلى الخليفة شيئاً فقال : إن رجلاً من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبائع له الناس في الباطن . فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل . فلم يشعروا إلا والمشاهل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة ، فوجدوا الامام أحمد جالساً في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال : ليس جندى من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا من نبي ، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلاية ، وفي عسري ويسري ومنشلي ومكرهي ، وأثره علي ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، في الليل والنهار ، في كلام كثير . ففكشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً . فلما بلغ

المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجابة - بمشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال : هو يقرأ عليك السلام ويقول : استبقي هذه ، فامتنع من قبولها . فقال : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضهها عنده ثم ذهب . فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبنى عمه وعياله وقال : لم أنم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسما ، جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الحسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهما ، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج ، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه ، ولم يمت منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء بنو ابنه فقال : أعطى درهما . فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاهما الصبي فسكت أحمد . وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيث . فقال : صدقت .

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله ابن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال : إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأتيه ، وكتب إلى أحمد : إني أحب أن آتس بقربك وبالتنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . فسار إليه الإمام أحمد - وهو عليل - في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب المسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الإمام أحمد فرد السلام وقال له وصيف : قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد . فلم يرد عليه جواباً ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف . فلما وصلوا إلى المسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها . وكان رؤس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يقلعون ما عليهم من الزينة والسلاح . وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطنية وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة ، وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام الحنة وما بعدها من السنين المتطاولة ، فاعتذر إليه بأنه عليل وأسنانه تتحرك وهو ضعيف ~~كان~~ الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والتلج ، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية ، بل كان صائماً يطوى ، فكث ثمانية أيام لم يستطع بطعام ، ومع ذلك هو مريض ، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام . وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع

من قبوله ، فألح عليه الأمير فلم يقبل . فأخذها الأمير ففرقها على بنيه وأهله ، وقال : إنه لا يمكن ردها على الخليفة . وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم ، فدفع أبو عبد الله الخليفة ، فقال الخليفة : لا بد من ذلك ، وما هذا إلا لولدك . فأمسك أبو عبد الله عن مما نفعه ثم أخذ يلوم أهله وعمه ، وقال لهم : إنما بقي لنا أيام قلائل ، وكأنا قد نزل بنا الموت ، فلما إلى جنة وإما إلى نار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء . في كلام طويل يعظم سم به . فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح « ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف نفذه » . وأن ابن عمر وابن عباس قبل جوائز السلطان . فقال : وما هذا وذاك سواء ، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما استمر ضعه جعل المتوكل يبعث إليه بآبن ماسويه المتطبيب لينظر في مرضه ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين إن أحمد ليس به علة في بدنه ، وإنما علة من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة . فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد ، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعوه ، وليكن في حجره . فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رجا أن يجعل يرجوعه إلى أهله ببغداد . وبعث الخليفة إليه بخلة سنية ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثة نمور ، فجئ ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس ، من وراء ستر رقيق . فلما جاء أحمد قال : سلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليه بالأمرة ، فقالت أم الخليفة : الله الله يا بني في هذا الرجل ترده إلى أهله ، فإن هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه . وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه : يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلة سنية مبطنة وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الإمام أحمد : ولما جالست إلى المعتز قال مؤدبه : أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال : إن علمي شيئا تعلمته ، قال أحمد : فتمجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيز بالله من مقتته وغضبه .

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهياً له خزاقة فلم يقبل أن ينحدر فيها ، بل ركب في زورق فدخل بغداد مخفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلة وأن يتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين . وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول : سلت منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره . وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم وكلني في أحمد ما قبلت منه . وجعلت يرسل الخليفة تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره

وكيف حاله . وجعل يستغنيه في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشئ ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها . قال عبيد الله بن أحمد : وجين رجع أبي من سامرا وجدنا عياله قد دخلنا في موقيه ، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيانا م فيه أو يفتنع بشئ مما م فيه لأجل قبولهم أموال السلطان .

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها ، ويستشيره في أشياء تقع له . ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى ، فامتنع من قبولها وتفرقها ، وقال : إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردها . وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول : يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة . فكتب فيها المتوكل : أما المأمون فانه خلط فسلط الناس على نفسه ، وأما أبي المعتصم فانه كان رجل حرب ولم يكن له بصير بالكلام ، وأما أخى الوائق فانه استحق ما قيل فيه . ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذ عبيد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط . فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط ؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قنف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل .

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال لعنت ولا امتحان ولا عناد . فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم ، وأحاديث مرفوعة . وقد أوردنا ابنه صالح في المحنة التي ساقها ، وهي مروية عنه ، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ .

وفاة الإمام أحمد بن حنبل

قال ابنه صالح : كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف ، فقلت : يا أبت ما كان غداؤك ؟ فقال : ماء الباقلا . ثم إن صالحا ذكر كثرة عجز الناس من الأكارب وحوم الناس لعيادته وكثرة حرج الناس عليه ، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها ، وقد أمر ولده عبيد الله أن يطالب سكان مملكة وأن يكفر عنه كفارة يمين ، فأخذ شيئا من الأجرة فاشترى تمرًا وكفر عن أبيه ، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم . وكتب الإمام أحمد وصيته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدین ، وأن يحمده في

الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضىت بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وأوصى لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيها فيقضى ماله على من غلة الدار إن شاء الله ، فاذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأنتى عشرة دراهم . ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعوهم ، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً . فسماه سعيداً ، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فداءً ، فالتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبر السن ؟ فقليل له : ذرية تكون بعدك يدعون لك . قال وذلك إن حصل . وجعل يحمد الله تعالى . وقد بلغه في مرضه عن طائوس أنه كان يكره أنين المريض فنكرك الاثنين فلم يثن حتى كانت الليلة التي توفى في صبيحتها أن ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فأن حين اشتد به الوجع . وقد روى عن ابنه عبد الله وروى عن صالح أيضاً أنه قال : حين احتضر أبى جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت : يا أبة ما هذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال : يا بنى إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على أصبعه وهو يقول : فتنى يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد - يعنى لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد - كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله : وعزتي وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضؤوا فجمعوا يوضؤونه وهو يشير إليهم أن خلوا أصابعى وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك ، فلما أكلوا وضؤوه توفى رحمه الله ورضى عنه . وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين ، فاجتمع الناس في الشوارع وبعث محمد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان ، وأرسل يقول : هذا نياينة عن الخليفة ، فانه لو كان حاضراً لبعث بهذا . فأرسل أولاده يقولون : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره وأبوا أن يكفنوه بتلك الأكفان ، وأتى بشوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه واشتروا معه عوز لفاقة وحنوطاً ، واشتروا له راوية ماء وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم ، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً ، وكان لا يزال متغضباً عليهم لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال ، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم . وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عيفيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنمشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله ، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس ، ثم تقدم فمضى أولاد الامام أحمد فيه ، وكان هو الذى أم الناس في الصلاة عليه ، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر وعلى القبر بعد أن دفن من أجل

ذلك ، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن . وقال ابن أبي حاتم : سمعت أبا زرعة يقول بلغني أن المشرك أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الإمام أحمد بن حنبل فبلغ مئتين ألفي ألف وخمسمائة ألف . قال البيهقي عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول سمعت محمد بن يحيى الزنجاني سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جرماً في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل . قال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول حدثني محمد بن العباس المكي سمعت الوراقاني - جاز أحمد ابن حنبل - قال : أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس ، وفي بعض النسخ أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفاً والله أعلم .

وقال الدارقطني : سمعت أبا سهل بن زياد سمعت عبد الله بن أحمد يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر . وقد صدق الله قول أحمد في هذا ، فإنه كان إمام السنة في زمانه ، وعبود مخالفه أحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان . وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زعمه وورعه وتنقيده ومحاسناته في خطراته وحركاته ، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس . وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فله الأمر من قبل ومن بعد . وقد روى البيهقي عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الإمام أحمد ، وروى عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد : دفن اليوم سادس خمسة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد . وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر رحمه الله تعالى .

ذكر ما روي له من المنامات

وقد صنف الحديث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . وفي رواية « إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » . وروى البيهقي عن الحاكم سمعت علي بن محشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول : كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل ؟ فقال أحمد : أما ما حاجتك ؟ فقال ضربت إليك من أربعمائة فرسخ ، أريت الخضر في المنام فقال لي : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له : إن ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت نفسك لله عز وجل . وعن أبي عبد الله محمد بن خزيمة الاسكندراني . قال : لما

مات أحمد بن حنبل اغتممت غما شديداً فرأيت في المنام وهو يتبختر في مشيته فقلت له : يا أبا عبد الله أى مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام في دار السلام . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أغفر لي وتوجني وألبسني ثياب من ذهب ، وقال لي : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال لي : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلمتلك عن سفیان الثوري وكنت تدعوهم في دار الدنيا ، فقلت : يا رب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء حتى لا تسألني عن شيء . فقال لي : يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفیان الثوري وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول [الحمد لله الذي أورثنا الأرض نقبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين] . قال فقلت له : ما فعل بشر الحافي ؟ فقال يخ يخ ، ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ، أو كما قال . وقال أبو محمد بن أبي حاتم عن محمد بن مسلم ابن وارة قال : لما مات أبو زرعة رأيت في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال قال الجبار : الحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، مالك والشافعي وأحمد بن حنبل . وقال أحمد بن خرزاد الانطاكي : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله ، لفصل القضاء ، وكأن مناديا ينادي من تحت العرش : أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة . قال فقلت للملك إلى جنبي : من هؤلاء ؟ فقال : مالك ، والثوري ، والشافعي وأحمد بن حنبل . وروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسي قال : رأيت رسول الله (ص) في النوم وهو قائم وعليه ثوب مغطى به وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذهبان عنه . وقد تقدم في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤاد في حلقة أخرى وكأن رسول الله (ص) واقف بين الحلقةين وهو يتلو هذه الآية [فإن يكفربها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

فيها كانت زلازل هائلة في البلاد ، فيها ما كان بمدينة قوس ، تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً . وكانت باليمن وخراستان وخراسان والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة . وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فأنهبوا شيئاً كثيراً وأسروا نحواً من عشرة آلاف من الدراري . فأتاه الله وإنا إليه راجعون . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن إبراهيم الامام بن محمد بن علي نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان الحسن بن علي بن الجهم قاضي مدينة المنصور .

وأبو حسان الزياتي

قاضى الشرقية ، واسمه الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد البغدادي ،
 مع الوليد بن مسلم ، ووكيع بن الجراح ، والواقدي ، وخلقا سوام . وعنه أبو بكر بن أبي الدنيا وعلى
 ابن عبد الله الفرغاني الحافظ المعروف بطل ، وجماعة . ترجمه ابن عساكر في تاريخه . قال : وليس
 هو من سلالة زياد بن أبيه ، إنما تزوج بعض أجداده بأم ولد لزياد ، فقبل له الزياتي . ثم أورد من
 حديثه بسنده عن جابر بن الحلال بن والحرام بن . الحديث . وروى عن الخطيب أنه قال :
 كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة ، ولي قضاء الشرقية في خلافة المتوكل ، وله
 تاريخ على السنين ، وله حديث كثير . وقال غيره : كان صالحا دينيا قد عمل الكتب ، وكانت له
 معرفة جيدة بأهم الناس ، وله تاريخ حسن ، وكان كريما مفضلا . وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء
 حسنة ، منها أنه أخذ إليه بعض أصحابه يذكر له أنه قد أصابته ضائقة في عهد من الأعباد ، ولم يكن
 عنده غير مائة دينار ، فأرسلها بصرتها إليه ، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضا وشكا إليه مثلما
 شكى إلى الزياتي ، فأرسل بها الآخر إلى ذلك الآخر . وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير
 الذي وصلت إليه أخيرا يستقرض منه شيئا وهو لا يشعر بالأمر ، فأرسل إليه بالمائة في صرتها ، فلما
 رآها تسحب من أمرها وركب إليه يسأله عن ذلك فذكر أن فلانا أرسلها إليه ، فاجتمعوا الثلاثة
 واقتسموا المائة الدينار رحيم الله وجزام عن مروءتهم خيرا .

وفيها توفي أبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن مالك ، وعبد الله بن ذر عن أحمد القراء
 المشاهير . ومحمد بن أسلم الطوسي . ومحمد بن رمح . ومحمد بن عبد الله بن عمار الموصلي أحد أئمة
 الجرح والتعديل . والقاضي يحيى بن أكرم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجه المتوكل على الله من الرقاق قاصداً مدينة دمشق ليجهلها له دار إقامة
 وعجلة إمامة فأدركه عيد الأضحى بها ، ونأسف أهل الرقاق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم ، فقال
 في ذلك يزيد بن محمد المهلب :

أظن الشام نشت بالمراق • إذا همم الإمام على انطلاق
 فان يدع المراق وساكنها • فقد قبل المصلحة بالانطلاق

وحج بالناس فيها الذي حج بهم في القى قبلها وهو نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان كما قال ابن جرير :

إبراهيم بن العباس

منزول ديوان الضبع . قلت هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن مولى الصول الشاعر الكاتب ،

وهو عم محمد بن يحيى الصولي ، وكان جده صول بكر ملك جرجان وكان أصله منها ، ثم تمجس ثم أسلم على يدى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، ولا إبراهيم هذا ديوان شعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى * ذرعاً وعند الله منها مخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكنت أظنها لا تفرج
ومنها قوله : كنت السواد لملقى * فبكى عليك الناظر
من شاء بمدك فليمت * فعليك كنت أحاذر

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المنصور محمد بن عبد الملك بن الزيات .

وكنت أخى بإخاء الزمان * فلما تفرقت حروباً عوانا
وكنت أدم إليك الزمان * فأصبحت منك أدم الزمان
وكنت أعدك للنائبتر * فما أنا أطلب منك الأمان
وله أيضاً : لا يمنعك خفض العيش في دعة * نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حلت بها * أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان

كانت وفاته بمنتهصف شعبان من هذه السنة . بسر من رأى . والحسن بن محمد بن الجراح خليفة إبراهيم بن شعبان . قال : ومات هاشم بن فيجور في ذي الحجة . قلت : وفيها توفي أحمد بن سعيد الرابلي . والحارث بن أسد المحاسبي . أحد أئمة الصوفية . وحرمة ابن يحيى التجيبي صاحب الشافعي . وعبد الله بن معاوية الجمعي . ومحمد بن عمر المدني . وهارون ابن عبد الله الحناني . وهناد بن السري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أيلة الخلافة وكان يوماً مشهوداً ، وكان عازماً على الإقامة بها ، وأمر بنقل دوابه إلى الملك إليها ، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا ، فأقام بها مدة ، ثم إنه استوحشها ورأى أن هواها بارد ندى وهامه ثقيل بالنسبة إلى هواه العراق ومائه ، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف ، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه ، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج ، فضجر منها ثم جاوز بها إلى بلاد الروم ، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، ففرح به أهل بغداد فرحاً شديداً . وفيها أتى المتوكل بالحرية

التي كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، ففرح بها فرحاً شديداً، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، يوم العيد وغيره، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام، فوهبها الزبير للنبي (س)، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، وفيها غضب المتوكل على الطبيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله. وحج بالناس فيها عبد الصمد المتقدم ذكره قبلها. واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وخمس فطر اليهود وشعائين النصراني وهذا عجيب غريب.

وفيها توفي أحمد بن منيع، وإسحاق بن موسى الخطمي، وحيد بن مسعدة، وعبد الحميد بن سنان، وعلي بن حجر، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات، ويعقوب بن السكيت صاحب إملاح المنطق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهرها، فيقال إنه أنفق على بنائها وبناء قصر الخلافة بها الذي يقال له «اللولوة» ألفي ألف دينار، وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى، فمن ذلك بمدينة إطليكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً، وسمعت من كوى دورها أصوات مزججة جداً فخرجوا من منازلهم سراغاً يهرعون، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الاقرع فساخ في البحر، فهاج البحر عند ذلك وارتفع دخان أسود مظلم منثور، وغار نهر على فرسخ منها فلا يدرى أين ذهب. ذكر أبو جعفر بن جرير قال: وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير. قال: وزلزلت فيها الرها والرقعة وحران ورأس العين وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة، وأذنة وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية بأهلها فابقي منها منزل إلا انهدم، وما بقي من أهلها إلا اليسير، وذهبت جيلة بأهلها. وفيها غارت مشاش - عين - مكة حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً. ثم أرسل المتوكل فأنفق عليها مالا جزيلاً حتى خرجت. وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي، وهلال الرازي.

وفيها هلك نجاح بن سلمة وقد كان على ديوان التوقيع. وقد كان حظياً عند المتوكل، ثم جرت له حكاية أفضت به إلى أن أخذ المتوكل أمواله وأملاكه وحواصله، وقد أورد قصته ابن جرير مطولة. وفيها توفي أحمد بن عبدة الضبي، وأبو الحليس القواس مقرئ مكة، وأحمد بن نصر النيسابوري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإسماعيل بن موسى ابن بنت السدي، وذو النون المصري، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، ومحمد بن رافع، وهشام بن عمار، وأبو تراب النخشي.

وأبن الراوندي

الزنديق، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان

ثم نشأ ببغداد ، كان بها يصنف الكتب في الزندقة ، وكانت لديه فضيلة ، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسب ما ذكرها ابن الجوزي في سنة ثمان وتسعين ومائتين وإتمام ذكرناه ههنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفي في هذه السنة ، وقد تلبس عليه ولم يجرحه بل مدحه فقال : هو أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندي العالم المشهور ، له مقالة في علم الكلام ، وكان من الفضلاء في عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشرة كتاباً ، منها فضيحة المعتزلة ، وكتاب التاج ، وكتاب الزمردة ، وكتاب القصب ، وغير ذلك . وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام ، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام . توفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، برجة مالك بن طوق التغلبي ، وقيل ببغداد . نقلت ذلك من ابن خلكان بحروفه وهو غلط . وإنما أرخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتي له هناك ترجمة مطولة .

خو النون المصري

ثوبان بن إبراهيم ، وقيل ابن أبيض بن إبراهيم ، أبو الفيض المصري أحد المشايخ المشهورين ، وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات ، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله ، وأرخ وفاته في هذه السنة ، وقيل في التي بعده ، وقيل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فله أعلم . وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن مالك . وذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، قال : كان أبود نوبياً ، وقيل إنه كان من أهل اخميم ، وكان حكيماً فصيحاً ، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قبرة عمياء نزلت من وكرها فالتفت لها الأرض عن سكرتين من ذهب وفضة في إحداها تمسم وفي الأخرى ماء ، فأكالت من هذه وشربت من هذه . وقد شكى عليه مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق ، فلما دخل عليه وعظه فأبكاه ، فردّه مكرماً . فكان بعد ذلك إذا ذكر عند المتوكل يثني عليه

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فقتل بقصر الخلافة فيها ، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي سمرتها وقع الفداء بين المسلمين والروم ، ففدى من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير . وفي شعبان منها أمطرت بغداد مطراً عظيماً استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً ، ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط . وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزنبي ، وحج فيها من الأعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولي أمر الموصل .

ومن توفي فيها من الأعيان أحمد بن إبراهيم الدورقي . والحسين بن أبي الحسن الروزي . وأبو عمرو الدورقي . أحد القراء المشاهير . ومحمد بن مصفى الحمصي .

ودعبل بن علي

ابن رزين بن سليمان الخزازي ، مولاهم الشاعر الماجن البليغ في المسح ، وفي الهجاء أكثر .
 حضر يوماً عند سهل بن هارون الكاتب وكان بخيلاً ، فاستدعى بغداده فاذا ديك في قصبة ، وإذا
 هو قاس لا يقطع سكين إلا بشدة ، ولا يعمل فيه ضرب . فلما حضري بين يديه فقد رأسه فقال للطباخ
 ويلك ، ماذا صنعت ؟ أين رأسه ، قال : ظننت أنك لا تأكله فألقيته ، فقال : وبحك ، والله إني
 لأعيب علي من يلقي الرجلين فكيف بالرأس ، وفيه الحواس الأربع ، ومنه يصوت وبه ، فضل
 عينيه وبهما يضرب المثل ، وعرفه وبه يتبرك ، وعظمه أهني العظام ، فان كنت رغبت عن أكله
 فأحضره . فقال : لا أدري أين هو ؟ فقال : بل أنا أدري ، هو في بطنك فأنك الله . فمجاه بأبيات
 ذكر فيها بخله ومسكه .
 أحمد بن أبي الخوارى

واسمه (١) عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث أبو الحسن التغلبي الغطفاني ، أحد العلماء الزهاد
 المشهورين ، والعباد المذكورين ، والأبرار المشكورين ، ذوى الأحوال الصالحة ، والكرامات
 الواضحة ، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتخرج بأبي سليمان الداراني رحمه الله . وروى الحديث
 عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وخلق . وعنه أبو داود وابن ماجه وأبو حاتم وأبو زرعة
 الدمشقي ، وأبو زرعة الرازي وخلق كثير . وقد ذكره أبو حاتم فأنى عليه . وقال يحيى بن معين :
 إني لأظن أن الله يسقى أهل الشام به . وكان الجنيد بن محمد يقول : هو ريحانة الشام .

وروى ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الداراني ألا يفضيه ولا يخالفه ، فجاء يوماً وهو
 يحدث الناس فقال : يا سيدي هذا قد سجدوا للتور فماذا تأمر ؟ فلم يرد عليه أبو سليمان ، لشغله
 بالناس ، ثم أعادها أحمد ثانية ، وقال له في الثالثة : اذهب فاقم في البيت . ثم اشتغل أبو سليمان في حديث
 الناس ثم استفاق فقال لمن حضره : إني قلت لأحمد : اذهب فاقم في التور ، وإني أحسب أن
 يكون قد فعل ذلك ، فقوموا بنا إليه . فذهبوا فوجدوه جالساً في التور ولم يحترق منه شيء ولا شعرة
 واحدة . وروى أيضاً أن أحمد بن أبي الخوارى أصبح ذات يوم وقد ولد له ولد ولا يملك شيئاً يصلح
 به الولد ، فقال لخادمه : اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق ، فبينما هو في ذلك إذ جاءه رجل بمائتي
 درهم فوضمها بين يديه ، فدخل عليه رجل في تلك الساعة فقال : يا أحمد إنه قد ولد لي الليلة ولد
 ولا أملك شيئاً ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي هكذا بالهجرة . ثم قال للرجل : خذ هذه
 الدراهم ، فأعطاه إياها كلها ، ولم يبق منها شيئاً ، واستدان لأهله دقيقاً . وروى عنه خادمه أنه خرج
 للتور لأجل الرباط فما زالت الهدايا تفتد إليه من بكرة النهار إلى الزوال ، ثم فرقها كلها إلى وقت

(١) أي إسم أبي الخوارى والد أحمد .

الغروب ثم قال لي : كن هكذا لا ترد على الله شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً .

ولما جاءت المحنة في زمن المأمون إلى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبي الخوارى وهشام ابن عمار ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ذكوان ، فكلهم أجابوا إلا ابن أبي الخوارى فحبس بدار الحجارة ، ثم هدد فأجاب نورية مكرها ، ثم أطلق رحمه الله . وقد قام ليلة بالشعر يكرر هذه الآية [إياك نعبد وإياك نستعين] حتى أصبح . وقد ألقى كتبه في البحر وقال : نعم الدليل كنت لي على الله وإليه : ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال . ومن كلامه لا دليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لا آداب الخدمة . وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه . وقال : قلت لأبي سليمان في ابتداء أمرى : أوصني ، فقال : اتستوص أنت ؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى . فقال : خالف نفسك في كل مراداتها فانها الأمانة بالسوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجمل طاعة الله دناراً ، والخوف منه شعاراً ، والاخلاص له زاداً ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ولا تفارقها ولا تغفل عنها : من استحيى من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله ، بلغه الله إلى مقام الأولياء من عباده . قال فجمعت هذه الكلمات أمانى في كل وقت أذكرها وأطالب نفسي بها . والصحيح أنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة ثلاثين ومائتين ، وقيل غير ذلك فالله أعلم .

ثم دخلت ستة سبيع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر ، وكان سبب ذلك أنه أمر ابنه عبد الله المعتز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخطب بالناس في يوم جمعة ، فأذاها أداء عظيم بليفاً ، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ ، وحنق على أبيه وأخيه ، فأحضره أبوه وأهائه وأمر بضربه في رأسه وصفعه ، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه ، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان . فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به ، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها ، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال بنديته على عادته في سمه وحضرته وشربه ، ثم تملاً ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال ، ويقال من شعبان من هذه السنة ، وهو على السهات فابتدروا بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر .

ترجمة المتوكل على الله

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ، وأم المتوكل أم ولد يقال لها

شجاع ، وكانت من سروات النساء سنحاً وحزماً . كان مولده بقم الصلح سنة سبع ومائتين ، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق في يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة لسنة ثنتين وثلاثين ومائتين . وقد روى الخطيب من طريقه عن يحيى بن أكنم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حرم الرفق حرم الخير » . ثم أنشأ المتوكل يقول :

الرفق بمن والأناة سعادة * فاستأن في رفق تلاق نجاحا
لا خير في حزم بغير روية * والشك وهن إن أردت سراحا

وقال ابن عساكر في تاريخه : وحدث عن أبيه المعتصم ويحيى بن أكنم القاضي . وروى عنه علي بن الجهم الشاعر ، وهشام بن عمار الدمشقي ، وقدم المتوكل دمشق في خلافته وبنى بها قصرًا بارض داريا . وقال يوماً لبعضهم : إن الخلفاء تنغضب على الرعية لتطيعها ، وإني ألين لهم ليعبوني ويعطيوني . وقال أحمد بن مروان المالكي : ثنا أحمد بن علي البصري قال : وجه المتوكل إلى أحمد بن الممزل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن الممزل . فقال المتوكل لعبيد الله : إن هذا لا يرى بيعتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بلى ! ولكن في بصره سوء . فقال أحمد بن الممزل : يا أمير المؤمنين ما في بصرى سوء ، ولكن نزعتك من عذاب الله . قال النبي (ص) : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه . وروى الخطيب أن علي بن الجهم دخل على المتوكل وفي يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التي يقول فيها : —

وإذا مررت ببئر عروة فاستقي من ماها

فأعطاء التي في يمينه وكانت تساوي مائة ألف . ثم أنشده :

بُسْرٍ مَنْ رَأَى أَمِيرَهُ * تَعْرِفُ مِنْ يَحْرُمُ الْبَحَارِ
يُرْجَى وَيُخْشَى لِكُلِّ خُطْبَرٍ * كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ
الْمَلِكِ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ * مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يَدَاءُ فِي الْجُودِ ضَرْفَانِ * عَلَيْهِ كَلَنَاهَا تَفَارُ
لَمْ تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً * إِلَّا أَتَتْهُ مِثْلُهُ الْيَسَارُ

قال : فأعطاء التي في يساره أيضاً . قال الخطيب : وقد رويت هذه الأبيات لعلي بن هارون البهتري في المتوكل . وروى ابن عساكر عن علي بن الجهم قال : وقفت فتعية حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدنها بالغالية جعفر فتأمل ذلك ثم أنشأ يقول :

وكتابة في الخدر بالمسك جعفرًا * بنفسى تحط المسك من حيث أثرًا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدتها * لقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا
فيامن منها في التريمر جعفرًا * سقا الله من سقيا ثنالك جعفرًا
ويامن لمسلوكك بملك يمينه * مطيع له فيما أمر وأظهرًا

قال ثم أمر المتوكل عرباً فغنت به . وقال الفتح بن خاقان : دخلت يوماً على المتوكل فاذا هو مطرق مفكر فقلت : يا أمير المؤمنين مالك مفكر ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشاً ، ولا أأنم منك بالاً . قال : بلى أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة سالحة ومعيشة حاضرة ، لا يمر فنا فتؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فتزدريه . وكان المتوكل محبباً إلى رعيته فأما في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردة ، لأنه نصر الحق وردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين . وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية . وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخذ أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتعارها فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور قال فقلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل . قلت : فما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلاً يصعد به إلى السماء وقائلاً يقول :

ملك يقاد إلى ملك عادل * متفضل في العفو ليس بجائر

وروى عن عمرو بن شيبان الحلبي قال : رأيت ليلة المتوكل قائلاً يقول : —

يا نائم العين في أوطان جنان * أفض دموعك يا عمرو بن شيبان
أما ترى الفبة الأرجاس ما فعلوا * بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
وإلى الله مظلوماً فضج له * أهل السموات من مشى ووجدان
وسوف يأتيكم من بعدهم فتنة * توقوها لها شأن من الشأن
فابكوا على جعفر وابكوا خليفكم * فقد بكاه جميع الإنس والجان

قال : فلما أصبحت أخبرت الناس برؤياي فجاء نعي المتوكل أنه قد قتل في تلك الليلة ، قال ثم رأيته بعد هذا بشر وهو واقف بين يدي الله عز وجل فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . قلت : فما تصنع هنا ؟ قال : أنتظر ابني محمداً أخاصمه إلى الله الحليم العظيم الكريم .

وذكرنا قريباً كيفية مقتله وأنه قتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة — أعني سنة سبع وأربعين ومائتين — بالتوكلية وهي الماحوزية ، وصلى عليه يوم الأربعاء ،

ودفن بالجوفية وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام. وكان أمير حسن الدين نجيف الجسم خفيف المارضين أقرب إلى التضرع والله سبحانه اعلم.

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدم أنه تمالأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه، وحين قتل يبيع له بالخلافة في الليل. فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعثت إلى أخيه المنذر فأحضروه إليه فبايعه المنذر، وقد كان المنذر هو ولي العهد من بعد أبيه، واسكنه أكرهه وخافه فدايى. فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه، وقتل الفتح أيضا، ثم بعث البيعة له إلى الآفاق. وفي ثمان يوم من خلافته ولي المظالم لأبي حمزة أحمد ابن سعيد مولى بني هاشم قتال الشاعر:

يا غيبة الإسلام لما أولي • مظالم الناس أبو حمزة
صبر مأموماً على أمة • وليس مأموماً على بئز

وكانت البيعة له بالثوكلية، وهي المأخوذة، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع نواده وحشمه منها إلى سامرا. وفيها في ذي الحجة أخرج المنصور عنه على بن المنصور من سامرا إلى بغداد وركل به. وجمع بالناس محمد بن سليمان الزبلي. وفيها توفي من الأعيان إبراهيم بن سعيد الجوهري. وسفيان بن وكيع بن الجراح، وسلة بن شبيب.

وأبو عثمان المازني النحوي

واسمه بكر بن محمد بن عثمان البصري شيخ النحاة في زمانه، أخذ عن أبي حنيفة والاسمى وأبي زيد الأنصاري وغيرهم، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وأكثر عنه، ولما دارى مصنفات كثيرة في هذا الشأن. وكان شديداً بالفتوى ورعا زاهداً ثقة مأموماً. روى عنه المبرد أن رجلاً من أهل القبة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب سيوريه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك. فلامه بعض الناس في ذلك فقال: إنما تركت أخذ الأجرة عليه لما فيه من آيات الله تعالى. فاتفق بعد هذا أن جارية غت بمحضرة الائق:

أظلم إن سابكم رجلاً • رد السلام فبينة ظلم

فاختلف من بمحضرة الائق في إعراب هذا البيت، وهل يكون رجلاً مرفوعاً أو منصوباً، وبم نصب؟ أهواهم أو ماذا؟ وأصرت الجارية على أن المازني حفظها هذا هكذا. قال فأرسل الخليفة إليه، فلما مثل بين يديه قال له: أنت المازني؟ قال: نعم. قال من مازن تميم أم من مازن ربيعة أم مازن نيس؟ فقلت من مازن ربيعة. فأخذ يكلمني بلفظي، فقال: يا سمك! وهم يلقبون الباء بها والميم ما، نكرهت أن أقول مكر فقلت: بكر، فأعجب إعراضي عن المكر إلى البكر، وعرف ما أردت.

فقال : على م انتصب رجلاً ؟ فقلت : لأنه معمول المصدر بمصائبكم فأخذ البيهقي يعارضه فعلاه المازني بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً . فعوضه الله عن المائة الدينار . لما تركها لله سبحانه ولم يكن الذي من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن - ألف دينار عشرة أمثالها . روى المبرد عنه قال : أقرأت رجلاً كتاب سيبويه إلى آخره ، فلما انتهى إلى آخره قال لي : أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفاً . توفي المازني في هذه السنة وقيل في سنة ثمان وأربعين .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

فيها أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة لقتال الروم ، وذلك أن ملك الروم فصد بلاد الشام ، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهاز معه نفقات وعددا كثيرة ، وأمره إذا فرغ من قتال الروم أن يقيم بالثغر أربع سنين ، وكتب له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتاباً عظيماً فيه آيات كثيرة في التحريض للناس على القتال والترغيب فيه . وفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر خلع أبو عبد الله المعتز والمؤيد إبراهيم أنفسهما من الخلافة ، وأشهدا عليهما بذلك ، وأنهما عاجزان عن الخلافة ، والمسلمين في حل من بيعتهما ، وذلك بعد ما تهدهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلوا ذلك ، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب بأشارة أمراء الأتراك بذلك . وخطب بذلك على رؤس الأشهاد بمحاضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر ، ويتوالى على محال الكتابة ، والله غالب على أمره ، فأراد أن يسلمهما الملك ويجهله في ولده ، والأقدار تكذبه وتحالفه ، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر ، ففي أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه ، وقد كان المنتصر رأى في مناسه كأنه يصعد سلماً فبأخ إلى آخر خمس وعشرين درجة . فقصصها على بعض المعبرين فقال : تلى خمساً وعشرين سنة الخلافة ، وإذا هي مدة عمره قد استكملها في هذه السنة . وقال بعضهم : دخلنا عليه يوماً فاذا هو يبكي ويلتجئ شديداً ، فسأله بعض أصحابه عن بكائه فقال : رأيت أبي المتوكل في منامي هذا وهو يقول : ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغصبتني خلافتي ، والله لا أمتعت بها بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار . قال : فما أملك عيني ولا جزعي . فقال له أصحابه من الفرارين الذين يغرون الناس ويفتنونهم : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، ثم بنا إلى الشراب ليذهب همك وحزنك . فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماءه فأخذ في الخمر وهو منكسر الهمة ، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات .

وقد اختلفوا في علته التي كان فيها هلاكه ، فقيل داء في رأسه فقطر في أذنه دهن فلما وصل

إلى دماغه عوجل بالموت ، وقيل بل دمرت معدته فأتته الورم إلى قلبه فات ، وقيل بل أصابته
 ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فات ، وقيل بل فصد الحجام بنفسه مسوم فات من يومه . قال ابن
 جرير أخبرني بعض أصحابنا أن هذا الحجام رجع إلى منزله وهو محوم فذا تلبيذا له حتى يفصده
 فأخذ يضع أسناده ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام لما ذكر حتى رآه قد فصد به
 ونحسك فيه السم ، فأوصى عند ذلك بمات من يومه . وذكر ابن جرير أن أم الخليفة دخلت عليه وهو في
 مرضه الذي مات فيه فقالت له : كيف حالك ؟ فقال : ذهبت من الدنيا والآخرة ، ويقال إنه
 أشد لما أحبط به وأيس من الحياة :

فأفرحت نفسي بدنيا أصبتها • ولكن إلى الرب الكريم أصير

فات يوم الأحد لحس بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت صلاة العصر ، عن خمس
 وعشرين سنة ، قبل وستة أشهر . ولا خلاف أنه إنما مكث بالخلافة ستة أشهر لا أزيد منها . وذكر
 ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون في العامة وغيرهم حين ول المنصور - إنه
 لا يكث في الخلافة سوى ستة أشهر ، وذلك مدة خلافة من قبل أباء لأحباب ، كما مكث شرويه بن
 كسرى حين قبل أباء لأجل الملك . وكذلك وقع ، وقد كان المنصور أعين أبي قحطبراً مهيباً حديد
 البدن ، وهو أول خليفة من بني الموحدين أبرز فبره بإشارة أنه حبشيه الرومية .
 ومن جيد كلامه قوله : والله ما عز ذو باطل قط ، ولو طامع القوم من جيته ، ولا ذل ذو حق قط
 ولو أسبق العالم عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله تعالى قد تم طبع الجزء العاشر من البداية والنهاية وبليه الجزء الحادي عشر
 وأوله خلافة أحمد المستعين بالله . والله نسأل المنة والوفيق .



فهرست الجزء العاشر من كتاب البداية والنهاية

صفحة	محتوى	صفحة	محتوى
٤٢	مقتل مروان بن محمد بن مروان	٢	خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٤٤	صفة مقتل مروان	٥	محمد بن علي
٤٦	وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار	٥	وأما يحيى بن يزيد
٤٨	ما ورد في انقضاء دولة بني أمية	٦	ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة
	وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية		فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته
٥٢	استقرار أبي العباس السفاح		مقتله وزوال دولته
٥٤	ذكر من توفي فيها من الأعيان	٨	قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد
٥٦	ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة	١٦	خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان
	ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة		ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة
٥٧	ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة	١٧	خالد بن عبد الله بن يزيد
	ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة	٢١	ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة
	ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة	٢٢	دخول مروان الحمار دمشق
٥٨	ترجمة أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس		وولايته الخلافة
	خلافة أبي جعفر المنصور	٢٦	ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة
	ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة	٢٩	ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة
	ذكر خروج عبد الله بن علي بن أخيه المنصور	٣٠	أول ظهور أبو مسلم الخراساني
	ملك أبي مسلم الخراساني	٣٢	مقتل ابن الكرماني
	ترجمة أبي مسلم الخراساني	٣٤	سنة ثلاثين ومائة
	ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة		مقتل شيبان بن سلمة الحزوري
	ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة	٣٥	ذكر دخول أبي حمزة الخارجي
	ثم دخلت سنة أربعين ومائة		المدينة النبوية واستلأته عليها
	ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة	٣٧	ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة
	ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة	٣٨	ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة
	ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة	٣٩	ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام
٧٧	ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة	٤٠	خلافة أبي العباس السفاح

- ٨٠ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة صحيفة
 ٨٢ ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة
 ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة
 ٨٦ فضرب بنو أمية
 مقتل محمد بن عبد الله بن حسن
 ٨٧ خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن
 ٩١ ذكر خروج إبراهيم بن عبد الله بن
 حسن بالبصرة
 ٩٥ ذكر من توفي فيها من الأعيان
 ٩٦ وفيها توفي من المشاهير والأعيان
 ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة
 ١٠١ ما ورد في مدينة بغداد من الآثار
 وما فيها من الأخبار
 ١٠٢ فضرب بنو أمية
 محاسن بغداد ومساوئها وما روى
 في ذلك عن الأئمة
 ١٠٣ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة
 ١٠٥ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة
 ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة
 ١٠٦ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة
 ١٠٧ ذكر ترجمته
 ١٠٨ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة
 ١٠٩ بناء الرصافة
 ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة
 ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة
 ١١١ ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة
 صحيفة
 أشعب الطامع
 ١١٣ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة
 بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة
 ١١٤ حماد الراوية
 ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة
 ١١٥ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة
 شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله
 ١٢٠ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة
 ١٢١ ترجمته المنصور
 ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة
 ١٢٨ أولاد المنصور
 ١٢٩ خلافة المهدي بن المنصور
 ١٣١ ثم دخلت سنة ستين ومائة
 ذكر البيعة لموسى الهادي
 ١٣٣ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة
 أبو دلامة
 ١٣٥ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة
 إبراهيم بن أدهم
 ١٤٥ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة
 ١٤٦ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة
 ١٤٧ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة
 ثم دخلت سنة ست وستين ومائة
 ١٤٩ ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة
 ١٥٠ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة
 ١٥١ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة
 ١٥٧ خلافة موسى الهادي بن مهدي

صحيفة	١٥٨	ثم دخلت سنة سبعين ومائة
وعافية بن يزيد	١٥٩	وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي
سيبويه	١٦٠	خلافة دارون الرشيد بن المهدي
عذيرة العابدة	١٦١	ذكر من توفي فيها من الأعيان
١٧٧ ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة	١٦٢	ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة
الحسن بن قحطبة	ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة	
وعبد الله بن المبارك	ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة	
١٧٩ ومفضل بن فضالة	١٦٤ غادر	
ويعقوب التائب	١٦٥ ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة	
ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة	ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة	
ومعن بن زائدة	١٦٦ شعوانة العابدة الزاهدة	
١٨٠ والقاضي أبو يوسف	المنذر بن عبد الله بن المنذر	
١٨٢ يعقوب بن داود بن طهمان	١٦٧ ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة	
١٨٣ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة	١٦٩ إبراهيم بن صالح	
علي بن الفضيل بن عياض	١٧٠ صالح بن بشير المرقى	
ومحمد بن سبيع	١٧١ ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة	
وموسى بن جعفر	ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة	
هاشم بن بشير بن أبي حازم	١٧٣ ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة	
ويحيى بن زكريا	١٧٤ إسماعيل بن محمد	
١٨٤ ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة	حماد بن زيد	
أحمد بن الرشيد	والأمام مالك	
١٨٥ عبدالله بن مصعب	١٧٥ ثم دخلت سنة ثمانين ومائة	
عبد الله بن عبد العزيز العمري	إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير يرمي	
ومحمد بن يوسف بن معدان	الأنصاري	
١٨٦ ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة	حسان بن أبي سنان	
عبد الصمد بن حلي	١٧٦ عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد	
ورابعة العدوية	الثقات	
١٨٧ ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة		
وفيها توفي من الأعيان		

٢١٣	يوسف بن القاضي أبي يوسف لم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة وفاته الرشيد	١٨٨	وسلم الخاسر الشاعر والعباس بن محمد وبن علي بن موسى
٢١٣	وهذه ترجته ذكر زوجته وبنه وبناته	١٨٩	لم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة
٢١٣	خلافة محمد الأمين ابن الرشيد	١٩١	ذكر من توفي فيها من الأعيان
٢١٣	اختلاف الأمين والمأمون	١٩٧	حكاية غريبة
٢١٤	إسماعيل بن هلبة	١٩٨	الفضل بن عياض
	محمد بن جعفر	١٩٩	لم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة
	أبو بكر بن العياض	٢٠٠	أبو إسحاق الفزاري وأبراهيم الموصلي
	لم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة	٢٠١	لم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة
٢٢٥	سالم بن سالم أبو بحر البلخي		ذكر من توفي فيها من الأعيان
٢٠١	وعبد الوهاب بن عبد المجيد	٢٠٢	محمد بن الحسن بن زهر
٢٠١	وأبو النصر الجهلي المصابي	٢٠٣	ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة
٢٢٦	لم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة		من توفي فيها من الأعيان والمشاهير
٢٢٧	إسحاق بن يوسف الأزرق	٢٠٤	يحيى بن خالد بن برمك
	بكار بن عبيد الله	٢٠٦	لم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة
٢١١	أبو يونس الشاعر		ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة
٢٢٥	لم دخلت سنة ست وتسعين ومائة	٢٠٧	إسماعيل بن جامع
٢٣٦	سبب خلع الأمين وكيف أفضت الخلافة إلى أخيه المأمون	٢٠٨	وعبد الله بن إدريس
٢٣٨	وحفص بن غياث القاضي	٢٠٩	صعقة بن سلام
	أبو شيبان		علي بن ظبيان
	ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة	٢١٠	العباس بن الأحنف
٢٤١	ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة		عيسى بن جعفر بن أبي جعفر
	كيفية مقتله	٢٨٣	المنصور
٢٤١	شيء من ترجمته		الفضل بن يحيى
		٢١٢	والمصور بن الزرقان

٢٦٨ ^{صحيفة} العكوك الشاعر
ثم دخلت سنة اربع عشرة ومائتين
٢٦٩ احمد بن يوسف بن القاسم بن
صبيح
أبو محمد عبد الله بن أعين
بن ليث بن رافع المصري
ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين
أبو زيد الأنصاري
٢٧٠ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين
زيدة امرأة الرشيد وابنة عمه
٢٧١ ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين
ثم دخلت ثمان عشرة ومائتين
٢٧٢ ذكر اول المحنة والفتنة
٢٧٣ ^{فصل في}
٢٧٤ عبد الله المأمون
٢٨١ بشر المريسي
وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن
أيوب الماعفري
ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين
٢٨٢ ثم دخلت سنة عشرين ومائتين
الهجرة
٢٨٣ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين
ثم دخلت سنة ثلاثين وعشرين ومائتين
ذكر مسك بابك
٢٨٤ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

٢٤٤ ^{صحيفة} خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد
هارون
ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة
٢٤٥ ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة
٢٤٦ ثم دخلت سنة إحدى ومائتين
بيعة اهل بغداد لابراهيم بن المهدي
٢٤٨ ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين
٢٤٩ ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين
خلع اهل بغداد ابراهيم بن المهدي
علي بن موسى
٢٥٠ ثم دخلت سنة أربع ومائتين
٢٥١ ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي
٢٥٥ ثم دخلت سنة خمس ومائتين
٢٥٩ ثم دخلت سنة ست ومائتين
ثم دخلت سنة سبع ومائتين
٢٦١ يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور
ثم دخلت سنة ثمان ومائتين
٢٦٢ وفاة السيدة نفيسة
٢٦٣ الفضل بن الربيع
ثم دخلت سنة تسع ومائتين
ثم دخلت سنة عشر ومائتين
٢٦٥ عرس يوران
ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين
أبو العتاهية الشاعر المشهور
٢٦٦ ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائتين
٢٦٧ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

- ٢٨٦ فتح عمورية على يد المعتصم
٢٨٨ مقتل العباس بن المأمون
٢٨٩ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين
٢٩٠ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين
وسعيد بن مسعدة
الجرمي النحوي
٢٩٢ ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين
٢٩٤ وأبو دلف العجلي
٢٩٥ ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين
وهذه ترجمته
٢٩٧ خلافة هارون الواثق بن المعتصم
بشر الحافي الزاهد المشهور
٢٩٩ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين
أبو تمام الطائي الشاعر
٣٠١ ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين
٣٠٢ ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين
٣١٥ عبد الله بن طاهر بن الحسين
٣٠٢ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين
٣٠٨ ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين
٣١٠ خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم
٣١١ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين
٣١٢ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين
٣١٢ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين
٣١٤ إسحاق بن ماهان
٣١٥ ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين
ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين
٣١٧ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين
٣١٨ أحمد بن عاصم الأنطاكي
٣١٩ ثم دخلت سنة أربعين ومائتين
٣٢٢ أما سجنون المالكي صاحب المدونة
ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين
٣٢٥ الإمام أحمد بن حنبل
٣٢٨ ورعه وتقشفه وزهده رحمه الله
٣٣٠ ذكر ما جاء في محنة أبي حنبل
٣٣١ ملخص الفتنة والمحنة
٣٣٢ ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي
٤٣ المعتصم
٣٣٥ ثناء الأئمة على الإمام أحمد بن حنبل
٣٣٧ ما كان من أمر الإمام أحمد بعد المحنة
٣٤٠ وفاة الإمام أحمد بن حنبل
٣٤٢ ذكر ما رُئي له من المنامات
٣٤٣ ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين
٣٤٤ وأبو حسان الزياتي
ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين
٣٤٩ إبراهيم بن العباس
ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين
٣٤٦ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين
وأبن الراوندي
٣٤٧ ذو النون المصري
٣٤٨ ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين
ودعبل بن علي أحمد بن أبي الحوراني
٣٤٩ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين
٣٥٢ محمد المنتصر وأبو عثمان المازني النحوي
٣٥٣ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين





